نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء الثامن

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

إهـــــــداء٢٠٠٦

المرحوم / علي حسن عبد الكافي

الإسكندرية

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلّق عليه وقدّم له

الدكتورة مريم قاسم طويل

أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي

بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل

أستاذ الأدب الأندلسي

بالجامعة اللبنانية

الجزء الثامن

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية

Dar al-Kotob al-Ilmiyah

بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب.: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت
هاتف وفاكس: (١-٩٦١) ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨

Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St. - P.O.Box : 11-9424 Beirut
Tel. & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398

Beirut - lebanon بيروت - لبنان



صلة الباب الثالث
من القسم الثاني
شيوخ لسان الدين بن الخطيب

ومن نظم ابن الجياب ما كتبه[1] على باب المدرسة العلمية بغَرْنَاطة: [البسيط]

يا طالبَ العلم هذا بابُه فُتِحَا ... فادخلْ تشاهدْ سناه لاحَ شمسَ ضُحَى
واشكرْ مجيرك من حلّ ومرتحلٍ ... إذ قرَّب الله من مرماكَ ما نزحا
وشرفت حضرةُ الإسلام مدرسةٌ ... بها سبيلُ الهدى والعلم قد وضحا
أعمالُ يوسفَ مولانا ونيّته ... قد طَرَّزَتْ صفحًا ميزانُها رجَحَا

ومنه قوله: [الطويل]

أبى اللّه إلاّ أن تكون اليدُ العليا ... لأندلسٍ مِنْ غيرِ شرطٍ ولا ثُنْيا[2]
وإن هي عضّتها بِنَوْبِ نوائبٍ ... فصَيَّرَتِ الشهدَ المَشُور بها شَرْيا[3]
فما عدمتْ أهلَ البلاغة والحِجا ... يقيمون فيها الرسمَ للدين والدنيا
إذا خطبوا قاموا بكلِّ بليغةٍ ... تجلِّي القلوبَ الغُلْفَ والأَعْيُنَ العميا
وإن شعروا جاءوا بكلِّ غريبةٍ ... تخالُ النجومَ النيّراتِ لها حَلْيا
فأسألُ في الدنيا من اللّه سَتْرَهُ ... علينا وفي الأخرى إذا حانت اللقيا

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٥٧): «كتب».
(٢) ثُنْيا، بضم الثاء وسكون النون: استثناء. لسان العرب (ثنا).
(٣) المشور: اسم مفعول من شار يشور؛ يقال: شار العسلَ إذا أخرجه من خلية النحل. الشَّرْيُ: الحنظل. لسان العرب (شور) و (شرا).

وقال أبو الحسن بن الجياب: [الطويل]

أرى الدهرَ في أطوارِهِ متقلّبًا فلا تأمَنَنَّ الدهرَ يومًا فَتُخْدَعَا
فما هو إلاّ مثل ما قال قائلٌ: (مِكَرّ مِفَرّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معا)[1]

وحُكي أنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رمانًا ثم دخل عليه عائدًا، فلمّا رآه قال له: يا فقيه، نَعم بالهدنة زمانك، أراد: نعمت الهدية رمانك، وكان هذا قبل موته من مرضه بيسير، وهو ممّا يدلّ على ثبوت ذهنه حتى قرب الموت، سامحه الله تعالى!.

ومن نثر ابن الجياب، رحمه الله تعالى، ما كتبه عن سلطانه إلى بعض سلاطين وقته، وهو السلطان أبو سعيد الْمَرِيني صاحب فاس، ونصُّه: المقامُ لدى الملك المنصور الأعلام، والفضل الثابت الأحكام، والمجد الذي أشرقت به وجوه الأيام، والفخر الذي تُتَدارَسُ أخباره بين الركن والمَقام، والعزّ الذي تعلو به كلمة الإسلام، مقام محلّ الأب الواجب الإكبار والإعظام، السلطان الكذا أبقاه الله في ملك منيع الذمار، وسعد باهر الأَنوار، ومجد رفيع المقدار، وسلطان عزيز الأنصار، كريم المآثر والآثار، كفيل بالإعلاء لدين اللّه والإظهار! مُعَظِّم مقامه وموقره، ومُجِلُّ سلطانه ومُكبره، المثني على فضله الذي أربى على ظاهره مضمره، الشاكر لمجده الذي كرم أثره، المعتدّ بأبوته العلية في كلّ ما يقدّمه ويؤخره، ويورده ويُصْدِره، الداعي إلى اللّه تعالى بطول بقائه في سعدٍ سامٍ مظهرُه، حامٍ عسكرُه، فلان:

«سلام كريم، طيب بَر[2] عميم، يخصّ مقامكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعدَ حمد الله الذي أولاكم ملكًا منصورًا، وفخرًا مشهورًا، وأحيا بدولتكم العليّة لمكارم الأخلاق ذكرًا مستورًا، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول اللّه الذي اختاره بشيرًا ونذيرًا، وشرح بهدايته صُدُورًا، وجعل الملأ الأعلى له ظَهيرًا[3]، والرضا عن آله وصحبه الذين ظاهروه في حياته، وخَلَفوه في أمته بعد وفاته، فنالوا في الحالين فضلاً

---

(١) هو صدر بيت لامرىء القيس وعجزه هو: «كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حطّه السَّيْلُ من عَلِ» ديوان امرىء القيس (ص ١٩).
(٢) كلمة «بر» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٥٩).
(٣) الظهير: المُعين والناصر. لسان العرب (ظهر).

مستورًا[1] مَخْبوًّا مَخْبورًا، وسعد يملأ أرجاء البسيطة نورًا، فكتبته كتب اللَّه لكم عوائد السعادة، وحباكم من آلائه بالحسنى والزيادة. من حمراء غَرْناطة حرسها اللَّه تعالى، وليس بفضل اللَّه سبحانه ثم ببركة مقامكم أيّد اللَّه تعالى سلطانه إلاَّ الخير الأكمل، والبر[2] الأشمل، والحمد للَّه كثيرًا كما هو أهله، فلا فضل إلاَّ فضله. وأمّا الذي عند معظم أمركم من الإعظام لمقامكم والإكبار، والثناء المردد المجدد على توالي الأعصار، والشكر الذي تُتْلَى سُوَره آناء الليل والنهار، والعلم بما لكم من المكارم التي سار ذكرها في الأقطار أشهر من المثل السيَّار، والاعتداد بسلطانكم العليّ في الإعلان والإسرار، والاستناد إلى جنابكم الكريم في الأقوال والأفعال والأخبار، فذلك لا يزال بحمد اللَّه تعالى محفوظًا ملحوظًا بعين الاستبصار، واللَّه ولي العَوْن على ذلك بفضله وطَوْله. وإلى هذا أيّد اللَّه تعالى سلطانكم، ومهّد أوطانكم، فقد تقدّمت مطالعة مقامكم أسماه اللَّه أنّ ملك قَشْتالة دسَّ من يتحدّث فى عقد صلح يعود بالهدنة على البلاد، ويرتفع به عنها مكابدته من جهة الأعاد، وقدَّرْنا أولاً أنّ ذلك ليس على ظاهر الحال فيه، وأنه يُبْدي به غير ما يُخفيه، ولكن جرينا معه في ذلك المضمار قصدًا للتشوف على الأخبار، فلمّا دار الحديث في هذا الحكم، ظهر منه أنه جنح للسّلم، وكان خديمنا نقروز بحكم الاتفاق قد ورد إشبيلية لبعض أشغاله، فاستحضره وأخذ معه في أمر الصلح وشرح أحواله، وأعاده إلى معظمكم ليستفهم ما عنده، ويعلم مَذْهبه وقَصْده، فأعيد إليه بأنه إن أراد المصالحة على صلح والده مع هذه الدار النَّصرية من غير زيادة على شروط تلك القضية، ولا يعرض لاسترجاع معقل من المعاقل التي أُخلصت من يد النصرانية، وأن يكون عَقْده على الجزيرة الخضراء ورُندة وغيرهما من البلاد الأندلسية، فلا بُدَّ من مُطالعة محلّ والدنا السلطان أمير المسلمين أبي سعيد أيّده اللَّه واستطلاع ما يراه، وحينئذ نعمل بحسب نظره الجميل ومقتضاه، وأكّد على نقروز في أنه إن انقاد لهذا الأمر فليعقد معه هدنة لأمدٍ من الدهر بقدر ما يتّسع لتعريفكم بهذه الحال وإعلامكم، ويستطلع فيها نظر مقامكم، فما هو إلاَّ أن عاد يومَ تاريخ هذا بكتاب ملك قَشْتالة، وقد أجاب إلى الصلح وأنقاد إليه، على حسب ما شرط عليه، وأعطى مُهادنة مدة شهر فبرير ليعرّف فيها مقامكم، ويعلم ما لديه، ووافق ذلك وصول الشيخ الفقيه الأجلّ أبي

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٥٩): «مسطورًا».

(٢) في الطبعة نفسها: «واليسر».

عبد اللّه بن حبشية أعزّه اللّه من بابكم الكريم أسماه اللّه، فأخذ معه في هذا القصد، واستفهم عمّا لديه من مقامكم في ذلك من الإمضاء أو الردّ، فذكر أنكم قد أذنتم لمعظمكم في عقد السلم على ما يراه من الأحكام، إذ ظهر فيها المصلحة لأهل الإسلام، فلمّا عرف مذهبكم الصالح، وقصدكم الناجح، رأى أن يوجّه إلى ملك النصارى من يخلص معه حال الصلح، على ما يعود إن شاء اللّه تعالى على المسلمين بالنُّجح، وقدم تعريفكم بما دار من الحديث بين يدي جوابكم[1] الوافد من مقامكم صحبة الفقيه أبي عبد اللّه أعزّه اللّه تعالى. ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد في الوقت إلى هُدْنة مستدرك[2] بها رَمَقها مِمّا لقيته من جهد الحرب، وما حلّ بها في هذه السنين من القحط والجَدْب، فالصلاحُ بحمد اللّه في هذه الحال بادي الظهور، وإلى اللّه عاقبة الأمور. هذا ما تزيد لدى معظم مقامكم، وما يتزيد بعدُ فليس إلاّ المبادرة إلى مطالعتكم وإعلامكم، وما كان إمساك الفقيه أبي عبد اللّه بن حبشية في هذه الأيام إلاّ لانتظار خبر الصلح، حتى يأتيكم به مستوفى الشرح، وها هو قد أخذ في الرجوع إلى بابكم الأسمى، والقدوم إلى حضرتكم العظمى، واللّه يصل سعودكم، ويحرس وجودكم، ويبلغكم أملكم ومقصودكم، والسلام».

ومن إنشاء ابن الجياب، رحمه اللّه تعالى، في العزاء بالسلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد الصدر:

«أما بعد حمد اللّه الواحد القهّار، الحيّ القيّوم حياة لا تتقيّد بالأعصار، القادر الذي كل شيء في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار، الغني في ملكوته فلا يلحقه الافتقار، المريد الذي بإرادته تصريف الأقدار، وتقدير الآجال والأعمار، العالم الذي لا تعزب عن علمه خفايا الأسرار، وخبايا الأفكار، مالك الملك وأهله، ومدبّر الأمور بحكمته وعدله، تذكرة لأُولي الألباب وعبرة لأولي الأبصار، خالق الموت والحياة لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار، الذي نهتدي بهديه الكريم في الإيراد والإصدار، والإحلاء والإمرار، في الشدّة والرخاء، والسرّاء والضرّاء، بسيره الكريمة الآثار، ونتعزى بالمصيبة به عمّا دَهَمَ من المصائب الكبار، ونقدم

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٦١): «جوابه الوافد على..».
(٢) في الطبعة نفسها: «يستدرك».

منه إلى ربّنا شفيعًا ماحيًا للأوزار[1]، وآخذًا بالحُجَزِ عن النار[2]، ونعلم أننا باتّباع سبيله نسعد سعادة الأبرار، وبإقامة ملّته وحماية شرعته ننال مرضاة الملك الغفار، والرضا عن آله وصحبه، وأوليائه وحزبه، الذين ظاهروه في حياته على إقامة الحق الساطع الأنوار، وخَلَفوه في أمّته قائمين بالعدل حامين للذِّمار، والدعاء لمحلّ أبينا والدكم المقدَّس[3] قدس اللّه روحه، وبرد ضريحه، بالرحمة التي تتعهّد روضته التي هي أذكى من الروض المِعْطَار، والرضوان الذي يتبوأ به مُبَوأ صدق في الملوك المجاهدين الأخيار، ولمقامك الأعلى بسعادة المقدار، وتمهيد السلطان وبلوغ الأوطار، فإنّا كتبناه. كتب اللّه لكم عوائد النصر، وربط على قلبكم بالصبر! . من حمراء غرناطة حرسها اللّه تعالى عندما تحقّق لدينا النبأ الذي فَتَّ في الأعضاد، وشبّ نار الأكباد، والحادث الذي هدَّ أعظم الأطواد، وزلزل الأرض الراسية الأوتاد، والواقع الذي لولا وجودكم لمحا رسم الأجواد، وعطّل رسوم الجهاد، وكسا الآفاق ثوب الحداد، والخطب الذي ضاقت له الأرض بما رحبت، وأمَرّت الدنيا بما عذبت، من وفاة محلِّ أبينا أكبر ملوك المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، والدكم أتحفه[4] اللّه تعالى بُرُودَ رضاه، وجَعَلَ جَنَّتَه نُزُله ومَثْوَاه! ونفعه بما أسلف من الأعمال الكريمة، وما خلّده من الآثار العظيمة! فإنّا للّه وإنا إليه راجعون تسليمًا لما قضاه، ورضًا بما أنفذه وأمضاهُ، وعند اللّه نحتسب منه والدًا شفيقًا، حانيًا رفيقًا، لم يزل يولي الجميل قولُه وفعلُه، ويصل لنا من أسباب عنايته ما اقتضاه فضلُه، وما هو أحقّ به وأهله. وكنا طولَ حياته لم نجد أثرًا لفقد الوالد، لما أولانا من جميل العوائد، وكرم المقاصد، جزاه اللّه أحسن جزائه! وأعاننا على توفية حقّه وأدائه! ولمثل هذه المصيبة. ولا مثل لها. تُظْلم الأرجاء، ويضيق الفضاء، وتبكيه مُسَوَّمة[5] الجياد، ومعالم الجهاد، والسيوف في الأغماد، وشتى العباد والبلاد، فلا تسألوا كيف هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم، والحادث المُقْعِد المقيم[6]، والرزيّة التي لا رزيّة مثلها، والحادثة التي أصيبت بها الملّة وأهلها،

---

(١) الأوزار: جمع وِزْر وهو الذنب. لسان العرب (وزر).

(٢) الحُجَزُ: جمع حُجْزة وهو معقد الإزار، وقوله: أخذ فلانٌ بحجز فلان: كناية عن أنه حماه ومنعه. لسان العرب (حجز).

(٣) كلمة «المقدس» ساقطة من طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٦٢).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٦٢): «ألحفه».

(٥) الجياد المسوّمة: المُعْلمة. لسان العرب (سوم).

(٦) الحادثُ المُقْعِدُ المُقيمُ: أي الشديد الذي يجعل المرء لا يستقرّ على حال.

فوَجْدُنا لفقده يتضاعف مع الآناء، ويتجدّد تذكار ما أسلف من أعمال الملوك الفضلاء، ولكنه أمرٌ حتْم، وقضاء من اللّٰه جَزْم، وسبيل يسلك عليها الأول والآخر، والآني والغابر، وليس إلاّ التسليم، لما حكم به الحكيم العليم، ولمّا انتهى إلينا هذا النبأ الذي ملأ القلب حسرة والعين عَبْرة، وتواترت شتى الأنباء، وغلب اليأس فيها على الرجاء، وجدنا له ما يوجد لفقد الأب الذي ابتدأ بالإحسان والإجمال، وأوْلىٰ عوارف القبول والإقبال، ولكنه ما أطفأ نار ذلك الوجد، وجَبرَ كسر ذلك الفقد، إلاّ ما مَنَّ اللّٰه به علينا وعلى المسلمين من تقلّدكم ذلك الملك الذي بكم سَمَتْ معالمه، وقامت مراسمه، وعليكم انعقد الإجماع، وبولايتكم استبشرت الأصقاع، وكيف لا تستبشر بولاية الملك الصالح الخاشع الأوّاب، صاحب الحرب والحراب، عُدَّة الإسلام، وعَلَم الأعلام، مَنْ ثبتت فضائله أوضح من مُحَيّا النهار، وسارت مكارمه في الآفاق أشهر من المثل السيّار. وقد كان محلّ أبينا والدكم رضي اللّٰه عنه لما علم من فضائلكم الكريمة الآثار، وما قمتم به من حقّه الذي وفيتموه توفية الصلحاء الأبرار، ألقى إليكم مقاليد سلطانه، وآثر إليكم أثر قبوله ورضوانه، حتى انفصل عن الدنيا وقد ألبسكم من أثواب رضاه ما تنالون به قرة العين، وعزّ الدارين، والظفر بكلتا الحسنيين، فتلك المملكة بحمد اللّٰه تعالى قد قام بها حامي ذِمارها، وابنُ خيارها، ومطلع أنوارها، الملك الرضي العدل الطاهر، قَوَّام الدياجي وصَوَّام الهَوَاجر[1]، حسنة هذا الزمان، ونخبة ذلك البيت المؤسس على التقوى والرضوان، فالحمد للّٰه على أن جبر بكم صَدْعَ الإيمان، وانتضى[2] منكم سيفًا مسلولاً على عبدة الصلبان، وأقرَّ بكم ملك آبائكم الملوك الأعاظم، وتدارك بولايتكم أمر هذا الرزء المتفاقم، فإن فقدنا أعظم مفقود، فقد ظفرنا بأكرم مقصود، وما مات مَنْ أبقى منكم سلالة طاهرة تحيي سنن المعالي والمكارم، وتعمل على شاكلة أسلافها الأكارم، فتلك المملكة قد أصبحت بحمد اللّٰه ونورُ سعدكم في أرجائها طالع، وسيف بأسكم في أعدائها قاطع، وعزمكم الأمضى لأمرها جامع مانع، قد أوَتْ منك إلى الملجإ الأحمى، واستمسكت بإيالتكم العظمى، وعرفت أنكم ستبدون فيها من آثار دينكم المتين، وفضلكم المبين، ومعاليكم القاطعة البراهين، ما يملؤها عدلاً وإحساناً، وتبلغ به آمالها مثنى ووحداناً، فهنيئًا لنا ولها أن صارت في مِلْكِكم، وأن تشرفت

---

(١) الدياجي: أي الليالي الشديدة الظلام، وقوّام الدياجي: الذي يقوم فيها لعبادة اللّٰه. الهواجر: جمع هاجرة وهي نصف النهار في القيظ. محيط المحيط (دجا) و (هجر).

(٢) انتضى السيفَ: استلّه. لسان العرب (نضا).

بمُلككم، وألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها، ويدفع عداها، وليَهنِ ذلك المقام الأعلى ما أولاه من العزّ المكين، وما قلّده من الملك الذي هو نظام الدنيا والدين، وأن أعطاه راية الجهاد فتلقّاها باليمين، لينصر بها ملّة الرسول الصادق الأمين، فله الفخر بذلك على جميع السلاطين.

وأمّا هذه البلاد الأندلسية ـ حماها اللّه! ـ فهي وإن فقدت من السلطان الأعلى أبي سعيد أكرم ظهير، ووقع مصابه منها بمحلّ كبير، فقد لجأت منكم إلى من يحميها، ويكف بأس أعاديها، ويبتغي مرضاة خالقها فيها، فملككم بحمد اللّه تعالى مقتبل الشباب، جديد الأثواب، عريق الأنساب، أصيل الأحساب، ومجدكم جارٍ على أعراقه جَرْيَ الجياد العِراب[1]. وإنّا لما ورد علينا هذا النبأ معقبًا بهذه البشرى، ووفد علينا ذلك الخبر مردفًا بهذه المسرّة الكبرى، علمْنا أنَّ اللّه سبحانه قد رَأَبَ ذلك الصَّدْع[2] بهذا الصنع الجميل، وتلافىٰ ذلك الخطب بذلك الخير الجزيل، فأخذنا من مساهمتكم في الأمور النصيب الوافر، ورأينا أنَّ آمالنا منكم قد جلت عن مُحَيَّاها السافر، وعيَّنَّا للوفادة على بابكم لينوب عنّا في العزاء والهناء عين الأعيان الفضلاء، ووجه القواد والكرماء».

ولنقتصر على هذا المقدار من كلام الرئيس ابن الجياب رحمه اللّه تعالى! ويظهر لي أنَّ نظمه أعلى طبقة من نثره، وعلى كل حال فهو لا يتكلّف نظمًا ولا نثرًا رحمه اللّه تعالى، ورضي عنه، وعامله بمحض فضله!.

٢٠ـ ومن أشياخ لسان الدين رحمه اللّه تعالى الفقيهُ الكاتب البارع العلامة النحوي اللغوي صاحب العَلامة بالمغرب الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي[3]، قال في «الإحاطة» فيه ما ملخّصه[4]: عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد اللّه بن محمد الحضرمي، أبو محمد، شيخنا الرئيس، صاحب القلم الأعلى بالمغرب. من «الإكليل»[5]: تاج المَفْرِق، وفخر المغرب على المشرق، أَطْلَعَ منه نورًا

---

(١) الجياد العِرابُ: الخيل العربية الأصيلة التي لم تدخلها هجنة. لسان العرب (عرب).

(٢) رَأَبَ الصَّدْعَ: أصلحه. لسان العرب (رأب).

(٣) ترجمة عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبتي في الإحاطة (جـ ٤ ص ١١ ـ ١٨)، وجذوة الاقتباس (ص ٢٧٩)، وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء السابع.

(٤) الإحاطة (جـ ٤ ص ١١ ـ ١٧).

(٥) هو كتاب «الإكليل الزاهر» لابن الخطيب.

أضاءت له الآفاق، وأثر[1] منه بذخيرة حملت أحاديثَها الرِّفاق، ما شئت من مجد سامي المَصَاعد والمَرَاقب، عزيز عن لحاق النجم الثاقب، وسَلَفٍ زُيِّنَتْ سماؤه بنجوم المناقب. نشأ بسبتة بلده بين علمٍ يُفيده[2]، وفخرٍ يَشِيدُه، وطهارة يَلْتحف مَطارفَها، ورياسة يتفيّأُ وارفَها، وأبوه رحمه اللّٰه تعالى قطبُ مَدَارها، ومُقام حَجِّها واعتمارها، فسلك الوُعُوث[3] من المعارف والسُّهول، وبَذَّ على حداثة سنّه[4] الكهول، فلمّا تحلّى من الفوائد العلمية بما تحلَّى، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلّى، تنافست فيه هِمَمُ الملوك الأخاير، واستأثرتْ به الدول على عادتها في الاستئثار بالذخائر، فاستقلَّت بالسياسة ذراعه، وأخْدَم الذوابل والسيوف يَرَاعه، وكان عَيْن المَلِك التي بها يُبْصر، ولسانه الذي يُسهب به أو يختصر. وقد تقدّمت له إلى هذه البلاد الوفادة، وجلَّت به عليها الإفادة، وكتب عن بعض ملوكها، وانتظم في عقودها الرفيعة وسلوكها، وله في الآداب[5] الراية الخافقة، والعقودُ المتناسقة. ومشيخته حافلة تزيد عن الإحصاء، وشعره منحطّ[6] عن محلّه من العلم والشهرة، وإن كان داخلاً تحت طَوْر الإجادة، فمن ذلك قوله: [الطويل]

تراءى سُحَيْرًا والنسيمُ عليلُ ... وللنجم طَرْفٌ بالصباح كليلُ
وللفجر نهرٌ[7] خاضهُ الليلُ فاغتَلَتْ ... شَوَى أدهمِ الظلماءِ منه حُجُولُ
بُرَيْقٌ بأعلى الرَّقْمَتَين كأنه ... طلائعُ شهبٍ في السماء[8] تجولُ
فمزَّقَ ساجي الليل منه شرارة[9] ... وخَرَّقَ سترَ النعيم منه نُصول
تبسم ثغرُ الروض عند ابتسامه ... وفاضتْ عيونٌ للغمامِ هُمُولُ
ومالتْ غصونُ البان نَشْوَى كأنها ... يُدارُ عليها من صباه شَمولُ
وغَنَّتْ على تلك الغصون حمائمٌ ... لهنّ حفيفٌ فوقها وهديلُ

(١) في الإحاطة: «وأثرى».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٦٥): «يقيده».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٣): «الوعور».
(٤) في الطبعة نفسها: «سنة».
(٥) في الإحاطة (ص ١٢): «الأدب».
(٦) في المصدر نفسه: «مُتَخَلّ».
(٧) في الإحاطة (ص ١٤): «بَحْرٌ».
(٨) في المصدر نفسه: «في السواد».
(٩) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٦٦): «شرارُهُ».

إذا سجعتْ في لحنها ثم قرقرتْ يطيحُ خفيفٌ دونها وثقيلُ
سقى اللّه ربعًا لا تزالُ تشوقني[1] إليه رسومٌ دونها وطُلولُ
وجاد رُبَاه[2] كلما ذرَّ شارقٌ من الوَدْقِ هَتَّانٌ أجشُّ هطولُ
وما ليَ أستسقي الغمامَ ومدمعي سَفُوحٌ على تلك العِراصِ[3] هَمُولُ
وعاذلةٍ باتت[4] تلومُ على السُّرى وتُكْثِرُ من تَعْذالها وتطيلُ
تقولُ إلى كم ذا فراقٌ وغربةٌ ونأيٌ على ما خَيَّلَتْ ورحيلُ
ذريني أسعى للتي تُكْسِبُ العلا سناءً وتُبْقي الذِّكْرَ وهو جميلُ
فإمّا تريني من ممارسةِ الهوى نحيلاً فَحَدُّ المشرفيِّ[5] نحيلُ
وفوقَ أنابيبِ اليراعةِ صَعْدَةٌ[6] تزينُ، وفي قَدِّ القناةِ ذبول
ولولا السُّرى لم يُجْتَلَ البدرُ كاملاً ولا باتَ منه للسُّعودِ نزيلُ
ولولا اغترابُ ابن الحكيمِ محمدٍ لأصبحَ رَبْعُ المجدِ وهو مُحِيلُ
وزيرٌ سما فوق السِّماك جلالةً وليس له إلاَّ النجومَ قبيلُ
من القوم: أما في النديِّ[7] فإنهم هضابٌ وأمّا في النَّدَى فَسُيولُ
حَوَوْا شرف[8] العلياء إرثًا ومَكْسِبًا وطابت فروعٌ منهمُ وأصولُ
وما جونةٌ هطّالةٌ ذاتُ هَيْدَبٍ مَرَتْها شمالٌ مزجف وقبولُ[9]
لها زَجَلٌ من رعدها ولوامعٌ من البرق عنها للعيون كلول
كما هَدَرَتْ وسط القِلاصِ وأرسلتْ شقاشِقَها عند الهياج فُحُولُ
بأجودَ من كفِّ الوزير محمدٍ إذا ما توالتْ للسنين مُحول

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «لا يزال يشوقني».
(٢) في الإحاطة: «ريّاه».
(٣) العِراصُ: جمع عَرْصَة وهي كل بقعة بين الدُّور واسعة ليس فيها بناء. مختار الصحاح (عرص).
(٤) في الإحاطة: «ظلّتْ».
(٥) المشرفي: السيف، ينسب إلى مشارف اليمن. لسان العرب (شرف).
(٦) في الإحاطة (ص ١٥): «صفرة».
(٧) النديّ: مجلس القوم، مختار الصحاح (ندا).
(٨) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٦٦): «أشرف».
(٩) في الطبعة نفسها: «حَزجَفٌ وقبول». والجونة هنا: السحابة. مَرَتْها: أسالت ماءها. الشمال: ريح الصبا. القبول: ريح الجنوب. لسان العرب (جون) و (مرى) و (شمل) و (قبل).

ولا[1] روضةٌ بالحسن طيبةُ الشَّذا ينمُّ عليها إذْخِرٌ وجليل
وقد أُذكيتْ للزهر فيها مَجامِرٌ تعطِّرُ منها للنسيم ذيول
وفي مُقَل النُّوّارِ للطلِّ عَبْرَةٌ تردِّدُها أجفانُها وتُحيل[2]
بأطيبَ من أخلاقِهِ الغرِّ كلّما تفاقم خطبٌ للزمان يهولُ
حَوَيْتَ أبا عبد الإله مناقبًا تفوتُ يدي[3] من رامَها وتطول
فغرناطةٌ مصرٌ وأنت خصيبُها ونائلُ يُمْناك الكريمةِ نِيلُ[4]
فذاك رجالٌ حاولوا دَرَكَ العُلا بِبُخْلٍ، وهل نال العَلاءَ بخيلُ
تخيّرك المولى وزيرًا وناصحًا فكان له مِمّا أراد حصولُ
وألقى مقاليدَ الأمورِ مفوِّضًا إليك فلم يَعْدمْ يمينكَ سُولُ
وقام بحفظ المُلْك منك مؤيَّدٌ نَهُوضٌ بما أعيا سواك كفيلُ
وساس الرعايا منك أَشْوَسُ[5] باسلٌ مُبيدُ العِدا للمُعْتَفِينَ مُنيلُ
وأبلجُ وقّادُ الجبين كأنما على وجنتيه للنُّضار مَسِيلُ
تهيم به العلياءُ حتى كأنها بُثَيْنَتُهُ في الحبِّ وَهْوَ جميلُ
له عَزَماتٌ لو أُعِيرَ مضاءها حُسامٌ لما نالتْ ظُباه فُلُولُ
سرى ذكرُه في الخافقين فأصبحتْ إليه قلوبُ العالمين تميل
وأعدى قريضي جُودُهُ وثناؤه فأصبح في أقصى البلاد يجول
إليك أبا فخرَ الوزارةِ أَرْقَلَتْ بِرَحْليَ هوجاءُ النَّجاءِ ذَلُولُ
فَلَيْتُ إلى لقياك ناصيةَ الفلا بأيدي ركابٍ سَيْرُهُنَّ ذَمِيلُ[6]
تسدّدني سهمًا لكلِّ ثنيّةٍ ضوامرُ أشباهُ القِسِيِّ نُحُولُ

---

(١) في الإحاطة: «ولولا روضة...».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٦٧): «وتجيلُ». وفي الإحاطة: «للظلِّ عَبْرَةٌ».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٥): «يدا».
(٤) أخذ المعنى من قول أبي نواس في مدح الخصيب: [الكامل]
أنت الخصيب وهذه مصرُ فتدفّقا فكلاكما بَحْرُ
ديوان أبي نواس (ص ٤٧٩).
(٥) في الإحاطة (ص ١٦): «أروع باسلٌ».
(٦) السَّيْرُ الذَّميل: السريع. لسان العرب (ذمل).

وقد لَفَظَتْني الأرضُ حتى رَمَتْ إلى ... ذَرَاك برحلي[1] هَوْجَلٌ وهَجُولُ
فقيّدتُ أفراسي به وركائبي ... ولذَّ مقامٌ لي به وحُلُولُ
وقد كنتُ ذا نفسٍ عَزوفٍ وهمّةٍ ... عليها لأحداثِ الزمان ذُحول[2]
وتهوى العُلا حَظِّي وتغري بضدّه[3] ... لذاك اعْتَرَتْهُ رقّةٌ ونُحُولُ
وتأبى لِيَ الأيامُ إلاّ إدالةً ... فصونَكَ لي، إنَّ الزمانَ مُدِيلُ
فكلُّ خضوعٍ في جنابك عزّةٌ ... وكلّ اعتزازٍ قد عَدَاكَ[4] خُمُولُ

وقال[5]: [المتقارب]

أبتْ همّتي أن يراني امرؤٌ ... على الدهرِ يومًا له ذا خضوعِ
وما ذاك إلاّ لأني اتّقيتُ ... بعزِّ القناعةِ ذُلَّ الخشوعِ[6]

مولده بسبتة عام ستة وسبعين وستمائة، وتوفي بتونس ثاني عشر شوّال عام تسعة وأربعين وسبعمائة في الطاعون، وكانت جنازته مشهورة رحمه اللّه تعالى، انتهى.

وحكي أنّ السلطان أبا الحسن المَرِيني سبَّ الشيخَ عبدَ المهيمن الحضرمي بمجلس كتّابه، فأخذ عبد المهيمن القلم وكسره، وقال: هذا هو الجامع بيني وبينك، ثم إن السلطان أبا الحسن ندم، وأفضل عليه، وخجل مِمّا صدر منه [وأحسن إليه][7].

وكان عبد المهيمن ينطق بالكلام مُعْرَبًا، ويرتفع نسبُه إلى العلاء بن الحضرمي صاحب رسول اللّه ﷺ، وأصل سلفه من اليمن، وكان جدّهم الأعلى عبدون لحقه الضَّيْم ببلده، فارتحل إلى المغرب، فنزل سبتة.

ولعبد المهيمن الحضرمي شيوخ أجلاّء كابن أبي الربيع النحوي وابن الشاط وابن مسعود وغيرهم. وكان ذا سعد وسؤدد، حسن الخطّ، رأيت خطّه بإجازته لأبي عبد اللّه بن

---

(١) في الإحاطة: «برجلي» بالجيم المعجمة.
(٢) الذحول: جمع ذحل وهو الثأر. لسان العرب (ذحل).
(٣) في الإحاطة: «ويهْوَى.. ويُغْرى..».
(٤) عَدَاك: جاوزك. محيط المحيط (عدا).
(٥) البيتان في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٧).
(٦) في الإحاطة: «القنوع».
(٧) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٦).

مرزوق وغيره. وكان عالي الهمّة سَرِيًّا، أعطى المنصب حقّه، وكان لا يحتمل الضيم واحتقار العلم، وكان سريع الجواب؛ حُكي أنّ القاضي المليلي وأبا محمد عبد المهيمن الحضرمي المذكور صاحب العلامة للسلطان أبي الحسن حضرا مجلس السلطان، فجرى ذكر الفقيه ابن عبد الرزاق، فقال المليلي: جمع من الفنون كذا، حتى وضع يده على أبي محمد عبد المهيمن، وقال مخاطبًا للسلطان: ويكتب لك أحسن من ذا، فوضع عبد المهيمن يده على المليلي وقال: نعم يا مولاي، ويقضي لك أحسن من ذا.

وقال ابن الخطيب القسمطيني الشهير بابن قنفذ في وفياته ما نصُّه: وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة توفي الشيخ الراوية المحدّث الكاتب أبو محمد عبد المهيمن بن محمد ابن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد، الحرمي، السبتي، ومن أشياخه الأستاذ ابن أبي الربيع وابن الغماز وابن صالح الكناني وغيرهم من الأعلام، انتهى.

وقال غيره: إنَّ والد عبد المهيمن توفي غرّة صفر سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

وحكي أنّ الشيخ أبا محمد عبد المهيمن ذكر يومًا بني العزفي، فأثنى عليهم، فقال له أحد الحسينيين، وكان بينهم شيء: إنهم كانوا يحبّون أهل البيت، فكيف حبّك أنت لهم؟ يعني لأهل البيت، فقال: أحبّهم حبَّ التشرّع، لا حب التشيّع، انتهى.

قيل: يعني بالعزفيين أهلَ الدولة الثانية، وأمّا أهل الأولى فكانوا من المختصّين بمحبة الآل، وهم أحدثوا بالمغرب تعظيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام.

ومن أغرب ما وقع للرئيس عبد المهيمن الحضرمي من التشبيه قوله: [الطويل]

لقد راقني مرأى سِجِلْمَاسَةَ الذي ... يقرُّ له في حسنه كلُّ منصفِ
كأن رؤوسَ النخل في عَرَصاتها[1] ... فواتحُ سوراتٍ بآخرِ مصحفِ

وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يسبق إليه فيما أظنّ، وكان سبب قوله ذلك أنَّ السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرّك لقتال أخيه السلطان أبي علي عمر بسجلماسة وظفر به استمطر أنواء أفكار الكتّاب وغيرهم في تشبيه النخل، فقال عبد المهيمن ما مَرَّ، فلم يترك مقالاً لقائل.

---

(١) العَرَصاتُ: جمع عَرْصة وهي ساحة الدار. لسان العرب (عرص).

وقد أنشد الحافظ ابن مرزوق الحفيد قال: أنشدني شيخنا ولي الدين الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي لشيخه الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي رحمه اللّه تعالى قوله[1]: [البسيط]

يُجْفَى الفقير ويَغْشَى الناسُ قاطبةً باب الغنيّ، كذا حُكْمُ المقادير
وإنما الناس أمثال الفَرَاش، فهم يُلْفَوْنَ حيث مصابيح الدنانير[2]

قلت: ورأيت هذين البيتين في كتاب «دوح[3] الشِّحر، ورُوحُ الشعر» للعالم الكاتب ابن الجلاب[4] منسوبين لأبي المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي، قال: أنشدني أبو الحجاج الحافظ قال: أنشدني الهيثم، فذكر البيتين، وكان تاريخ وفاته قبل أن يخلق عبد المهيمن، فتعيّن أنَّ البيتين ليسا من نظمه، وإنما تمثّل بهما، ونسبتهما له وَهْمٌ لا محالة، واللّه أعلم.

وأما ما اشتهر على الألسنة بالمغرب من أن أبا حيان مدح عبد المهيمن بقوله: [مجزوء الخفيف]

ليس في الغرب عالمٌ مثلَ عبد المهيمنِ
نحن في العلم أُسْوة أنا منه وَهْوَ مِنِي[5]

فقد نسبه ابن غازي إلى أبي حيان كما اشتهر، لكن تاريخ مرور أبي حيان بالمغرب كان قبل ظهور عبد المهيمن بلا خفاء، وهو عندي محمول على أحد أمرين: أن المراد عبد المهيمن جَدّ عبد المهيمن المذكور، أو أن أبا حيان كتب بالبيتين من مصر بعد ما ظهر عبد المهيمن وصارت له الرياسة بالمغرب إذ أبو حيان عاش إلى ذلك الزمان بلا ريب، ولذا لما ذكر لسان الدين بن الخطيب في كتابه «الكتيبة الكامنة، في أنباء أهل المائة الثامنة» الشيخَ أبا حيان قال: وهذا الرجل طالت حياته حتى أجاز ولدي.

---

(١) تقدم البيتان في الجزء الرابع والجزء السادس منسوبين إلى الهيثم السكوني الإشبيلي، وفي روايتهما اختلاف يسير عمّا هنا.
(٢) يضرب المثل بالفراش في الطيش وقلّة المعرفة؛ لأنه يلقي بنفسه على النار فيحترق.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٧٠): «رَوْحُ» بالراء.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٨): «ابن الجيّاب».
(٥) «مني» مخففة النون للضرورة الشعرية.

ولعبد المهيمن المذكور أخبار غير ما قدّمناه منع منها الاختصار. وقد ألّف الخطيب ابن مرزوق باسم ولد ولده فهرسته المشهورة، وحلاه في صدرها أحسن حلية، وهو أهل لذلك. وقد ذكره مولاي الجد في شيوخه كما تقدّم، وقال فيه: إنه إمام الحديث والعربية، وكاتب الدولة العثمانية العلوية، فليراجَع ذلك فيما سبق في ترجمة الجدّ.

وأبو سعيد بن عبد المهيمن كان عالي الهمّة كآبائه، ولَمَّا بويع أبو عنان طلب منه أن يكون مرتسمًا في جملة كتاب بابه، فامتنع، وقال: لا أكون تحت حكم غيري، وعنى بذلك أن أباه كان رئيس الكتّاب، فكيف يكون هو مرؤوسًا بغيره؟ فلم ترض همّته، رحمه اللّه تعالى، إلاّ برتبة أبيه أو الترك، وارتحل أبو سعيد محمد المذكور، وكان فقيهًا عالمًا، من فاس لسبتة إلى أن توفي بها سنة ٧٨٧، وكان قليل الكلام، جميل الرُّواء[١]، حسن الهيئة والبزة والشكل، روى عن والده وعن الحجار وكتب له سنة ٧٢٤، وروى عن الفقيه أبي الحسن بن سليمان والرحالة ابن جابر الوادي آشي وابن رشيد وغيرهم.

وابن أبي سعيد هذا اسمه عبد المهيمن كجدّه، وكان صاحب القلم الأعلى، روى عن أبيه وجدّه وغيرهما، رحم اللّه الجميع.

٢١ـ ومن أشياخ لسان الدين رحمه اللّه تعالى الإمام العلامة قاضي الجماعة أبو البركات ابن الحاج البَلَّفيقي[٢]: نادرة الزمان، وشاعر ذلك الأوان، وهو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الشيخ الولي أبي إسحاق ابن الحاج البَلَّفيقي، وكان أبو البركات أحد رجال الكمال علمًا ومجدًا وسؤددًا موروثًا ومكتسبًا، وقد عرف به في «الإحاطة»[٣] بترجمة مدّ فيها النفَس، وكتب ابنه على أول الترجمة ما صورته: رحمك اللّه تعالى يا فقيه الأندلس، وحسيبها، وصدرها، وشيخها، وبرّد ضريحك، فللّه ما أفدت من نادرة، وأكسبت[٤] من فائدة، انتهى.

---

(١) الرُّواء، بضم الراء: المنظر. محيط المحيط (رأى).
(٢) مرَّ التعريف بأبي البركات ابن الحاج البلفيقي في الجزء الثاني وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ١٤٣ . ١٦٩).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٧١): «واكتسبت».

وحكى في «الإحاطة»[1] أنه لما استسقى وحصلت الإجابة أنشده لسان الدين: [الكامل]

ظَمِئَتْ إلى السّقيا الأباطحُ والرُّبا حتى دعونا العام عامًا مُجْدِبَا
والغيثُ مسدولُ الحجاب، وإنما عَلِمَ الغمامُ قدومكمْ فتأدّبا

ثم ذكر في «الإحاطة» تأليف أبي البركات وشعره، إلى أن قال حاكيًا عن أبي البركات ما صورته: وممّا نظمته وقد أكثروا من التعجّب لملازمتي البناء وحفر الآبار[2]: [الخفيف]

في احتفارِ الأساسِ والآبار وانتقالِ الترابِ والجَيَّارِ
وقعودي ما بين رملٍ وآجرّ وجصّ والطوبِ والأحجارِ
وامتهاني بُرْدَيَّ بالطين والما ءِ ورأسي ولحيتي بالغُبارِ
نشوةٌ لم تمرَّ قطّ على قَلْـ ـب خليعٍ وما لها من خُمار[3]
من غريبِ البناء أنَّ بنيه متعبون يهوون طولَ النهار
يبتغون الوصال من صانعيه والبدارَ إليه كلَّ البدار
فإذا حَلَّ في ذُرَاهم تراهمْ يشتهون منه بعيدَ المزار
مَنْ عَذيري من لائم في بنائي وهو لي الترجمان عن أخباري
ليس يدري معناه من ليس يدري أنَّ ما عنده على مقدار
أقتدي بالذي يقول بَناها ذلك الخالقُ الحكيمُ الباري
وبمن يرفعُ القواعد من بَيْـ ـتٍ عتيقٍ للحجِّ والزوار[4]
وبمن كان ذا جدار وقد كا ن أبوه من صالحي الأبرارِ
وبما قد أقامه الخضرُ المخـ صوصُ علمًا بباطنِ الأسرارِ
كان تحت الجدار كنزٌ، وما أد راك ما كان تحت كنز الجدارِ
وبمن قد مضى من آبائي الغرّ الأُلى شيّدوا رفيعَ المَنارِ
فالذي قد بنوه نبني له مثـ ـلاً ونجري له على مضمارِ

(١) الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٦).
(٢) لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة.
(٣) الخُمار، بضمّ الخاء: الصداع الذي يصيب شارب الخمر. لسان العرب (خمر).
(٤) يشير إلى قول الله تعالى: ﴿وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعدَ مِنَ البيتِ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٢٧.

قد بنيْنا من المساجدِ دهرًا ... ثم نبني لجارها خيرَ جار
مثل ما قد بنيتُ للمجدِ أمثا ... لَ مبانيهمُ بكلِّ اعتبار
فالمباني لسانُ حالي ولي فيـ ... ـها لعمري ذكرٌ من الأذكار
روحُ أعمالنا المقاصدُ، لكنْ ... حيثُ تخفَى تخفَى مع الأعذارِ
فعسى مَنْ قضى ببنيانِ هذي الدار يقضي لنا بعقبى الدارِ

ثم قال في «الإحاطة» بعد كلام[1]: ومن نظمه في الإنحاء على نفسه، واستبعاد وجود المطالب في جنسه، قال[2] مِمّا نظمته يوم عرفة عام خمسين وسبعمائة[3] وأنا منزوٍ في غار ببعض جبال ألَمَرِيَّة: [الخفيف]

زعموا أنّ في الجبال رجالا[4] ... صالحينَ قالوا من الأبدالِ
وادّعَوْا أنَّ كلَّ مَنْ ساحَ فيها ... فَسيلقاهُمُ على كلِّ حالِ
فاخترقْنا تلك الجبال مرارًا ... بنعالٍ طَوْرًا ودون نعال
ما رأينا بها خلافَ الأفاعي ... وشَبَا عقربٍ كمثل النبال[5]
وسباع يجرون بالليل عَدْوًا ... لا تسلْني عنهم بتلك الليالي[6]
ولَوَ أنّا كُنّا لدى العُدْوة الأخـ ... ـرى رأينا نواجذَ الرئبال[7]
وإذا أظلم الدُّجا جاء إبليـ ... ـسُ إلينا يزورُ طَيْفَ خيال[8]
هو كان الأنيسَ فيها ولولا ... هُ أصيبتْ عقولُنا بالخَبال[9]
خَلِّ عنك المحالَ يا من تَعَنَّى ... ليس يلقى[10] الرجالَ غيرُ الرجالِ

(١) الإحاطة (ج ٢ ص ١٦٥).
(٢) كلمة «قال» غير واردة في الإحاطة.
(٣) كلمة «وسبعمائة» غير واردة في الإحاطة.
(٤) في الإحاطة: «قومًا».
(٥) في الإحاطة: «سوى الأفاعي». وشبا العقرب: إبرتها التي تلدغ بها، واحدتها شباة. محيط المحيط (شبا).
(٦) في الإحاطة: «وسباعًا يخترون... بتلك الفيال».
(٧) في الإحاطة: «ولو كُنّا لدى العدوة...». والرئبال: الأسد. ونواجذه: أنيابه، واحدها ناجذ. محيط المحيط (رأبل) و(نجذ).
(٨) في الإحاطة: «الخيال».
(٩) الخَبال: الجنون. لسان العرب (خبل).
(١٠) في الإحاطة: «تلقى».

وجمع شعره وسمّاه «العذب والأجاج، من كلام أبي البركات ابن الحاج» وسمى أبو القاسم الشريف ما استخرجه منه «باللؤلؤ والمرجان، من بحر أبي البركات ابن الحاج يستخرجان».

ومن نظم الشيخ أبي البركات ابن الحاج قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

أَلاَ ليت شعري هل لما أنا أرتجي ... من اللّهِ في يوم الجزاءِ بلاغُ
وكيف لمثلي أن ينالَ وسيلةً ... لها في سبيل الصالحين مراغ
وكم رمتُ دهري فتحَ بابِ عبادةٍ ... يكونُ بها في الفائزين مساغ
فكدتُ ولم أفعلْ وكيف وليس لي ... المعينانِ فيها صحّةٌ وفراغ
لأصبحتُ من قومٍ دعاهم إلى الرضا ... منادي الهُدى فاستنكروه فراغوا[1]
أباغ ترى أُخراه من يزدهيه من ... زخارفِ دُنياه الدنية باغ
ويضربُ صفحًا عن حقيقةٍ ما طوت ... فيلهيه زورٌ قد أتته مُصاغ
إذا ما بَدَا للرشد نهجُ بيانِهِ ... يُراعُ به من وحشةٍ فيراغ
فيا ربِّ بَرْدَ العفوِ هَبْ لي إذا غلتْ ... من الحرِّ في يوم الحساب دماغ
فمن حُرَقٍ للنفس فيه لواعج ... ومن خجلٍ للوجد فيه صباغ
وعَظْتُكِ نفسي لو أنبتِ، وفي الذي ... وُعِظْتِ به لو ترعوينَ بلاغ[2]

وأنشد القاضي أبو البركات في هذا الرويّ قولَ شيخه الأستاذ أبي علي بن سليمان القرطبي: [الطويل]

أَلا هل إلى ما أرتضيه بلاغُ ... وكيف يُرَى يومًا إليه فراغُ
وقد قطعتْ دوني قواطعُ جمّةٌ ... أُراع لها مهما جَرَتْ وأُراغُ
وما ليَ إلاّ عفوَ ربّ وفَضْلَهُ ... ففيه إلى ما أرتجيهِ بلاغُ

وكان القاضي أبو البركات من بيت كبير علمًا وصلاحًا وزهدًا، وجدُّه الإمام الولي العارف سيدي أبو إسحاق ابن الحاج أشهر من نار على علم، وقبره مشهور بمراكش وقد زرته بها، وله كرامات مشهورة.

---

(١) راغوا: حادوا عن الشيء. محيط المحيط (روغ).
(٢) البلاغ: الوصول إلى ما يُرتجى. لسان العرب (بلغ).

وحكى في «مزية ألمرية» من كراماته جملة؛ قال حفيدهُ الشيخ أبو البركات: دخلت على الشيخ الصالح العابد المجتهد الحاج أبي عبد اللّه محمد بن علي البكري، المعروف بابن الحاج، في منزله بألمرية عائدًا قال: أظنّه في مرضه الذي مات فيه فقال له حين سأله عن حاله: أُدْعُ لي، فقلت له: يا سيدي، بل أنت تدعو لي، فقال لي: شرح اللّه صدرك! ونوّر قلبك بنور معرفته! فمن عرف اللّه لم يذكر غيره، فقد حكى سيدي أبو جعفر بن مكنون عن جدّك قال: كنت مع سيدي أبي إسحاق بن الحاج بمراكش فقال لي: هل ترى في المنام شيئًا؟ فقلت: نعم، أرى كأني في ألمرية أمشي من الدار إلى المسجد، ومن كذا إلى كذا، فأعرض عني وقال: ألا ترى إلاّ اللّه؟ قال: ثم مَرَّ به في أثناء كلامه ابنه محمد، فقال لي: رأيت هذا؟ واللّه ما أدري أنَّ لي آبنًا حتى يمرَّ بي، ولا أذكره إذا غاب عنِّي، ولا أرى إلاّ اللّه، انتهى.

ومن تآليف أبي البركات، رحمه اللّه تعالى، كتاب ذكر فيه أخبار سلفه رضي اللّه عنهم، وذكر جملة من كرامات جدّه سيدي أبي إسحاق المذكور، نفعنا اللّه به.

ومن شعر جدِّه المذكور قوله: [الطويل]

ألاَ كَـرّم الـلّـه الـبـلادَ بـخـطـبـةٍ ... همُ حسناتُ الدهر لا نَابَهُمْ خَطْبُ[1]
رعايتهم فرض على كلّ مسلم ... وحبُّهـمُ حقًّا قَدَ أوجبه الربُّ
إذا ما سألتَ اللّه شيئًا فسلْ بهمْ ... فتعظيمهم قربٌ وغِيبتهمْ[2] حَرْب

وقوله: [الطويل]

شكا فشكا قلبي خبالاً مُبَرِّحَا ... على غير علم كان مني بشكواهُ
وما الـتـقـتِ الأسـرارُ إلاّ بـجـامـع ... من النعتِ سلطانُ الحقيقةِ سَوَّاهُ
فيا فرحةَ المجهودِ إن باتَ سرُّهُ ... وسـرُّ الـذي يـهـواهُ مـأواه مـأواهُ
ومن أجله قد كان بالبعدِ راضيًا ... فكيف ترى مغناهُ والقلب مثواهُ[3]
بدا فبدتْ أعلامُ ضدين في الهوى ... هـما عجبٌ لولا الدليلُ وفحواه
بـرؤيـتـه فـارقـتُ مـوتـي لـبـعـده ... ومتُّ بها من أجل علمي ببلواه

(١) نابهم خَطْبٌ: أصابهم. محيط المحيط (نوب).
(٢) الغِيبَةُ، بكسر الغين: الذكر بالسوء. لسان العرب (غيب).
(٣) المغنى: مكان الإقامة، والمثوى: مكان الإقامة أيضًا. لسان العرب (غني) و (ثوى).

فـهـا أنـا حـيٌّ مـيّـتٌ بـلـقـائـه ... ولم يَنْجُ مَنْ لم يُسْعِدِ الفهمُ نجواه
إذا لم تكنْ أنت الحبيبَ بِعَيْنِهِ ... رضًا وعتابًا ضَلَّ من قال يهواه
وأكذب ما يُلْقَى الفتى وهو صادقٌ ... إذا لـم يـحقِّقْ بالأفاعيل دعـواهُ

وقوله رضي اللّه تعالى عنه: [البسيط]

الحبُّ في اللّه نورٌ يُسْتضاءُ به ... والـهـجرُ في ذاته نـورٌ عـلى نـورِ
جَنِّبْ أخا حدثٍ في الدين ذا غِيَرٍ ... إنَّ الـمُـغَـيِّـرَ في نكسٍ وتـغـيـير
حاشى الديانةَ أن تُبْنَى على خَبَلٍ ... سبحانَ خالقنا من قولٍ مثبور[1]
إنَّ الحقائق لا تبدو لمبتدعٍ ... كذا المعارفُ لا تهدَى لمغرور
تاللّه لو أبصرتْ عيناه أو ظفرتْ ... يُمْناهُ ما ظلَّ في ظَنّ وتقدير
حقّق ترى عجبًا إن كنت ذا أدبٍ ... ولا يـغـرّنَّـكَ الجـهـالُ بـالـزور
إنَّ الطريقة في التنزيل واضحةٌ ... ومـا تـواتـر مـن وحـي ومـشـهـورِ
فافهمْ هُدِيتَ هُدَى الرحمن وأْهْدِ به ... هدًى يفيدك يومَ النفخِ في الصور

وقوله صَدْرَ رسالة وجّه بها إلى ابنه محمد أيام قراءته بإشبيلية: [الطويل]

إذا شئتَ أن تحظى بوصلي وقربتي ... فَجَنِّبْ قرينَ السوء واصْرِمْ حبالَهُ[2]
وسابقْ إلى الخيراتِ واسْلُكْ سبيلَها ... وحَصِّلْ علومَ الدين واعرفْ رجالَهُ

وكان رحمه اللّه تعالى كثيرًا ما يتمثّل ببيتي مهيار الديلمي، وهما: [الطويل]

ومِـنْ عَـجَـبٍ أنّـي أحـنُّ إلـيـهـمُ ... وأسأل شوقًا عنهُمُ وهُمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ... ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

وحدّث القاضي أبو البركات حفيده عن ابن خميس التلمساني المتقدّم الذكر قال: سمعتُ بعض الأشياخ يقول: كان الشيخ أبو إسحاق البلفيقي الكبير يقول: اجتمع لنا في اللّه أربعون ألف صاحب.

وحكى الشيخ أبو البركات المذكور عن الشيخ الصالح الحاج الصوفي أبي الأصبغ بن عزرة قال: هذه صلاة على النبيّ ﷺ أخذتها عن رابُك الشيخ الصالح الحاج أبي عبد اللّه

(١) المثبور: الهالك. لسان العرب (ثبر).
(٢) صَرَمَ الحَبْلَ: قطعه. لسان العرب (صرم).

محمد بن علي بن الحاج مشافهة، وقال لي: إنها صلاة أبي إسحاق بن الحاج جدّك، وهي: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد صلاةً دائمة مستمرة تدوم بدوامك، وتبقى ببقائك، وتخلد بخلودك، ولا غاية لها دون مرضاتك، ولا جزاء لقائلها ومصليها غير جنتك والنظر إلى وجهك الكريم.

ونقل أبو البركات المذكور عن جده أنه كان يستفتح مجلسه بألمرية بهذا الدعاء: اللهمَّ اجعلْنا في عِياذٍ منك مَنِيع، وحصن حصين، وولاية جميلة، حتى تبلغنا آجالنا مستورين محفوظين، مُبَشَّرين برضوانك يوم لقائك، قال: وفي وسط الدعاء وآخره: وأكفنا عدوّنا إبليس، وأعداءَنا من الجن والإنس بعافيتنا وسلامتنا.

وكان الشيخ رضي اللّه عنه يواصل أربعين يومًا.

ومن مآثره أنه بنى ثمانية عشر جبًّا في مواضع متفرّقة ونحو عشرين مسجدًا وبنى أكثر سور حصن بَلَّفيق، كلُّ ذلك من ماله.

وقال رضي اللّه عنه في بعض رسائله: الصوفي عبارة عن رجل عَدْل تقي صالح زاهد، غير منتسب لسبب من الأسباب، ولا مُخِلّ بأدب من الآداب، قد عرف شأنه وزمانه، وملكت مكارم الأخلاق عِنانه، لا ينتصر لنفسه، ولا يتفكّر في غده وأمسه، العلم خليلُه، والقرآن دليلُه، والحقّ حفيظه ووكيله، نظره إلى الخلق بالرحمة، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة، انتهى.

وأحوالُ هذا الشيخ عجيبة، وكراماته شهيرة، وإنما ذكرْنا هذا النَّزْر اليسير تبرّكًا بذكره رضي اللّه عنه في هذا الكتاب، وتطفلاً على رب الأرباب أن ينفعنا بأمثاله ويحقّق لنا النجاة والمتاب، إنه على ذلك قدير.

رجع إلى أخبار أبي البركات. ولَمّا وقع بينه وبين ابن صفوان ما يقع بين المتعاصرين ردّ عليه ابن صفوان، فانتصر لأبي البركات بعضُ طلبته بتأليف سمّاه «شواظ من نار ونحاس، يُرْسَلُ على مَنْ لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس» وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول، وأُلْفي على ظهره بخطّ الشيخ أبي البركات ما صورته: [السريع]

قد شبعَ الكلبُ كما ينبغي ... مِنْ حَجَرٍ صَلْد ومِنْ مِقْرَعِ
فإنْ يَعُدْ مِنْ بعد ذا لِلَّذي ... قد كان منه فهو ممن نُعي

ومن بديع نظم الشيخ أبي البركات رحمه اللّه تعالى قولُه[1]: [الطويل]

يلومونني بعد العِذَارِ على الهوى ... ومثليَ في وَجْدي له لا يُفَنَّدُ[2]
يقولون أمسكْ عنه قد ذهب الصِّبا ... وكيف أرى الإمساكَ والخيطُ أسودُ[3]

وقوله في المجبنات[4]: [الطويل]

ومُصْفَرَّةِ الخدّين مطويّةِ الحَشَا ... على الجُبْن والمصفرُّ يُؤذن بالخوفِ
لها بهجةٌ[5] كالشمس عند طلوعها ... ولكنها في الحين تغربُ في الجَوْف

وفي هذين البيتين تورية متعدّدة.

وحدّث القاضي أبو البركات أنه لمّا أراد الانصراف عن سبتة قال له السيد الشريف أبو العباس رحمه اللّه: متى عزمت على الرحيل؟ فأنشد أبو البركات: [الكامل]

أمّا الرحيلُ فدُونَ بعد غَدٍ ... فمتى تقولُ الدارُ تجمعنا

فأنشد الشريف رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

لا مرحبًا بغدٍ ولا أهلاً به ... إن كان تفريقُ الأحبة في غدِ

وحكي أنّ السيد أبا العباس الشريف المذكور ساير القاضي أبا البركات في بعض أسفاره زمن الشباب ببر الأندلس - أعاده اللّه تعالى! - فلما انتهيا إلى قرية ترليانة، وأدركهما النصَب، واشتدّ عليهما حَرُّ الهجير، نَزَلاَ وأكلا من باكر التين الذي هناك، وشربا من ذلك الماء العذب، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلاً بظلّها، ثم التفت إلى السيد أبي العباس وقال: [البسيط]

ماذا تقول فدتك النفسُ في حالي ... يَفْنَى زمانيَ في حلّ وترحالِ

---

(١) البيتان في الإحاطة (ج ٢ ص ١٥٨).
(٢) يُفَنَّدُ: يُتَّهَمُ بالكذب. لسان العرب (فند).
(٣) في البيت تورية؛ فالإمساك يطلق على الصوم، وأراد هنا الكفّ عن الحب. والخيط الأسود يطلق على الليل، وأراد العِذار. وفي التنزيل الكريم: ﴿وكُلُوا واشرَبُوا حتى يتبيَّن لكمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٨٧. وجاء في الإحاطة: «يقولون لي أمسك عنه. .»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) البيتان في الإحاطة (ج ٢ ص ١٥٨).
(٥) في الإحاطة: «لها هيئةٌ. . .».

وأُرْتج[1] عليه، فقال لأبي العباس: أَجِز، فقال بديهًا: [البسيط]

كذا النفوسُ اللواتي العِزُّ يصحبُها لا ترتضي بمقامٍ دون آمالِ
دَعْها تَسِرْ في الفيافي والقفارِ إلى أن تبلغَ السؤلَ أو موتًا بتجوال
الموتُ أهونُ مِنْ عيشٍ لدى زمنٍ يُغْلي اللئيمَ ويُدني الأشرفَ العالي

ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه الحرة العربية أم العباس عائشة بنت الوزير المرحوم أبي عبد اللّه محمد بن إبراهيم الكناني ثم المغيلي طلقة كتب نسختها بما نصُّه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، وصلّى اللّه على محمد وعلى آل محمد، يقول عبد اللّه الراجي رحمته محمد المدعوّ بأبي البركات بن الحاج خار اللّه له ولطف به: إنّ اللّه جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة وغرائز شتى، ففيهم السخيّ والبخيل، والشجاع والجبان، والغبيّ والفَطِن، والكَيِّس[2] والعاجز، والمسامح والمناقش، والمتكبّر والمتواضع، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق، كانت العِشْرَة لا تستمرّ بينهم إلاّ بأحد أمرين: إمّا بالاشتراك في الصفات أو في بعضها، وإمّا بصَبْر أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك، ولمّا علم الشارع أن بني آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه مَنْ عِيلَ صبرُه على صاحبه، توسعةً عليهم، وإحسانًا منه إليهم، فلأجل العمل على هذا طلق كاتبُ هذا عبد اللّه محمد المذكور زوجَه الحرّة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدّس المرحوم أبي عبد اللّه محمد المغيلي، طلقة واحدة، ملكت بها أمر نفسها دونه، عارفًا قدره، قصد بذلك إراحتها من عشرته، طالبًا من اللّه أن يغني كُلاً من سَعَته، مُشْهِدًا بذلك على نفسه في صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء أوّل يوم من شهر ربيع الثاني عام أحد وخمسين وسبعمائة، انتهى.

ومن نوادره رحمه اللّه تعالى أنه لما استناب بعض قضاة ألمرية الفقيه أبا جعفر المعروف بالقرعة في القضاء[3] من عمله بخارج ألمرية، فاتّفق أن جاء بعض الجَنَّانين بفَحْص ألمرية يشتكي من جائحة أو أذاية أصابت جنانه، ففسدت غلته لذلك، فأخذ ذلك

---

(١) أُرْتج عليه: استغلق ولم يستطع إكمال الشعر. لسان العرب (رتج).
(٢) الكَيِّسُ: الظريف. مختار الصحاح (كيس).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٨٠): «القضاء بخارج ألمرية من عمله، فاتفق..».

الجنان قرعة وأشار إليها متشكيًا، وقال: هذه القرعة تشهد بما أصاب جناني، فقال الشيخ أبو البركات عند ذلك: غريبتان في عام واحد: القرعة تقضي، والقرعة تشهد.

وكان له رحمه اللّٰه تعالى من هذا النمط كثير.

وقال رحمه اللّٰه تعالى: نظمت صبيحة يوم السبت السابع والعشرين لرجب عام خمسة وأربعين وسبعمائة، وقد رأيت في النوم كأني أريد إتيان امرأة لا تحلُّ لي، فيأتي رقيب فيحول بيني وبين ذلك المرة بعد المرة، قولي: [الطويل]

أَلاَ كرّم اللّٰهُ الرقيبَ فإنه ... كفاني أمورًا لا يحلُّ ارتكابُها
وبالغ في سدّ الذريعة فاغتدى ... يلاحظني نومًا ليُغْلقَ بابُها

وقال رحمه اللّٰه: أنشدني شيخي أبو عبد اللّٰه بن رشيد عند قراءتي عليه شرحَه لقوافي أبي الحسن حازم، وقد باحثته يومًا، مناقشة في بعض ألفاظه من الشرح المذكور: [الطويل]

تسامحْ ولا تَسْتَوْفِ حقَّك كلَّه ... وأَغْضِ فلم يستوفِ قطُّ كريمُ

ومن نظم الشيخ أبي البركات قوله: [الطويل]

أَلاَ خَلِّ دَمْعَ العَيْنِ يَهْمِي بمقلتي ... لفرقة عينِ الدمعِ وقفٌ على الدمِ
فللماء فيه رنَّةٌ شَجَنِيَّةٌ ... كَرَنَّةِ مسلوبِ الفؤادِ متيم
وللطير فيه نغمةٌ مَوْصِلِيَّةٌ(١) ... تذكرني عهد الصِّبا المتقدِّم
وللحسن أقمارٌ به يوسفيةٌ(٢) ... تردُّ إلى دينِ الهوى كلَّ مسلمِ

وله رحمه اللّٰه تعالى: [السريع]

ما كُلُّ مَنْ شَدَّ على رأسه ... عمامةً يخطَى بسَمْتِ الوقارْ
ما قيمةُ المرءِ بأثوابِهِ ... السرُّ في السكان لا في الديارْ

---

(١) أراد أن هذه النغمة تشبه نغمات إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وهما من أشهر المغنين في الدولة العباسية.

(٢) نسبة إلى يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وقد وصف بالحسن والجمال.

وله سامحه اللّه تعالى: [الطويل]

إذا ما كتمتُ السِّرَّ عَمَّنْ أودُّهُ   تَوَهَّمَ أنَّ الودَّ غيرُ حقيقي
ولم أُخْفِ عنه السِّرَّ من ضِنَّةٍ[1] به   ولكنني أخشى صديقَ صديقي

وله وقد جلس في حلقة بعض المشايخ واستدبر بعض الفضلاء ولم يره بسبتة[2]: [السريع]

إن كنتُ أبصرْتُكَ لا أَبْصَرَتْ   بَصيرتي في الحقِّ بُرْهَانَها
لا غَرْوَ أني لم أشاهدْكُمُ   فالعينُ لا تُبْصِرُ إنسانَها[3]

وممّا يعجبه رحمه اللّه من قوله قال في «الإحاطة» ويحقّ أن يعجبه[4]: [الطويل]

تطالبني نفسي بما ليس لي به   يَدانِ[5] فأعطيها الأمانَ فتقبلُ
عجبتُ لِخَصْمٍ لَجَّ في طلباته   يصالحُ عنها بالمحالِ فيفصلُ

ومما أورد له في «الإحاطة» وذكر أنه لو رحل راحل إلى خراسان لما أتى إلاَّ بهما[6]: [الطويل]

رعى اللّهُ إخوانَ الخيانةِ إنهمْ   كَفَوْنا مَؤُناتِ البقاء[7] على العهدِ
فلو قد وَقَوْا كانوا أسارى حقوقهمْ   نراوحُ ما[8] بين النسيئة والنقدِ

وقد تمثّل القاضي أبو بركات في مخاطبة له للسان الدين بقول القائل[9]: [السريع]

أيتها النفسُ إليه أذهبي   فحبُّهُ المشهورُ مِنْ مذهبي
أيأسني التوبةَ مِنْ حُبِّه   طلوعُهُ شمسًا من المغربِ

(١) من ضِنَّة به: من بخل به. لسان العرب (ضنن).
(٢) البيتان في الإحاطة (جـ ٢ ص ١٥٨).
(٣) إنسان العين: بؤبؤها. لسان العرب (أنس).
(٤) الإحاطة (جـ ٢ ص ١٥٩).
(٥) ليس لي به يدان: ليس لي عليه قدرة.
(٦) الإحاطة (جـ ٢ ص ١٦٠).
(٧) في الإحاطة: «البقا»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٨) كلمة «ما» غير واردة في الإحاطة.
(٩) البيتان لابن خروف الشاعر، وقيل لغيره، وقد تقدّما في الجزء الخامس، وسيردان في هذا الجزء.

وحكى غير واحد منهم ابن داود البلوي أنّ القاضي أبا البركات لَمّا عزم على الرحلة إلى المشرق كتب إليه ابنُ خاتمة بما صورته: [الوافر]

أشَمْسَ الغَرْب، حقًّا ما سمعْنا بأنك قد سئمت من الإقامهْ
وأنك قد عزمتَ على طلوعٍ إلى شرقٍ سموتَ به علامهْ
لقد زَلْزَلْتَ منا كلَّ قلبٍ بحقِّ اللّه لا تُقِمِ القيامهْ

قال الحاكي: فحلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا، انتهى. يشير بقوله «لقد زلزلت. الخ» إلى طلوع الشمس من مغربها.

قلت: ولما عزمت على هذه الرحلة كتب إليَّ بعضُ أصحابنا المغاربة بالأبيات المذكورة متمثلاً، ولم أرجع عن العزم، واللّه غالب على أمره.

قال الوزير لسان الدين رحمه اللّه تعالى: وما أحسن قول شيخنا أبي البركات معتذرًا عن زرقة عينيه[1]: [الكامل]

حَزِنَتْ عليك العينُ يا مَغْنَى الهوى فالدمعُ منها بعد بُعْدك ما رَقا[2]
ولذاك ما ظهرتْ[3] بلونٍ أزرقٍ أو ما ترى ثوبَ المآتمِ أزرقا

قال رحمه اللّه تعالى: وهو من الغريب.

وقال بعض الشيوخ: كنت أقرأ على الشيخ أبي البركات التفسير، فنسيت ذات ليلة السِّفْر الذي كنت أقرأ فيه بمنزلي، فاتّفق أنْ حضر الجامع الصحيح للبخاري، فقال الشيخ بعد أن أردت القراءة عليه من أوله: افتح في أثناء الأوراق ولا تعين، وما خرج لك من ترجمة لجهة اليمين فاقرأها، ففعلت، فإذا غزوة أُحُد، فقرأت الحديث الأول من الباب، وهو عن عقبة بن عامر قال: إنّ رسول اللّه، ﷺ، صلّى على قتلى أُحد بعد ثماني سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فَرَط[4]، وأنا شهيد

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ١٥٩).

(٢) رقا: أصل القول: رقأ، وقد أسقط الهمزة للضرورة الشعرية؛ يقال: رقأ الدمع إذا جفَّ. لسان العرب (رقأ).

(٣) في الإحاطة: «ولذاك قد صُبغت بلون..».

(٤) الفَرَطُ، بالفتح: المتقدّم بين القوم. لسان العرب (فرط).

عليكم، وإن موعدكم الحوضُ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تَنافَسُوها، قال: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول اللّه ﷺ، فقال الشيخ قوله «صلى على قتلى أُحد» لفظ الصلاة يطلق لغةً على الدعاء، وشرعًا على الأفعال المخصوصة المعلومة، وإذا دار اللفظ بين الشرعي واللغوي فحمله على الشرعي أولى حتى يدلَّ الدليلُ على خلافه، فقوله «صلّى على قتلى أُحد» يحتمل الصلاة الشرعية، ويكون ذلك منسوخًا إذ قد تقرر أنه لا يُصَلّي على شهيد المعترك ولا على من قد صُلّي عليه، ولمن يعارضه أن يقول: إنَّ قتلى أُحد متفرّقون في أماكن، فلا تتأتّى الصلاة الشرعية عليهم، إذ الصلاة الشرعية إنما تتأتى لو كانوا مجتمعين، والجواب أنهم وإن كانوا متفرّقين تجمعهم جهة واحدة، وليس بُعدُ ما بينهم بحيث لا تتأتى معه الصلاة عليهم، هذا، وإن احتمل حمله على الصلاة اللغوية. وقوله «كالمودع للأحياء والأموات» أما وداعه للأحياء فلا إشكال فيه، وأما الأموات فمعنى وداعه لهم وداع الدعاء لهم؛ لأنه إذا مات فقد حيل بينه وبين الدعاء لهم، فلا جرم يودعهم بالدعاء لهم قبل أن يحال بينه وبين ذلك. وقوله ﷺ «إني بين أيديكم» أي أتقدّم قبلكم، وقوله ﷺ «بين أيديكم فَرَط» أي متقدّم، وبين إذا أُضيفت إلى الأيدي تُستعمل فيما قبل زمانك وفيما بعده، والمعنى هنا في قوله «بين أيديكم» أي أتقدم قبلكم. وقوله ﷺ «وأنا شهيد عليكم» فيه وجهان، أحدهما: أن يخلق اللّه في قلبه علمًا ضروريًا يميز به بين البرّ والفاجر، فيشهد بما خلق اللّه في قلبه من ذلك، إذ لا تكون الشهادة إلاّ على أمر مشاهَدٍ، ومعلومٌ أنه لم يشاهد ما فعل بعده من أمته فيخلق اللّه له علمًا بذلك، الوجه الثاني: أن يخبره اللّه تعالى بذلك كما في حديث الحوض «لَيُذَادنَّ عنه أقوام، كما يُذاد البعير الضال، فأقول: ألا هلم، ألا هلم، فيقال: إنهم قد غيروا بعدك، فأقول: فسحقًا فسحقًا فسحقًا» فيشهد[1] بما أخبره اللّه تعالى به، وهو نظير ما روي في تفسير قوله تعالى ﴿وكذلكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لتكونوا شُهَداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكُمْ شهيدًا﴾[2] من أنَّ قوم نوح يقولون: كيف تشهدون علينا وزمانكم متأخّر عن زماننا؟ فيقولون: لأنَّ اللّه تعالى قصَّ علينا أخباركم في كتابه، فقال ﴿إنا أَرْسَلْنا نُوحًا إلى قومِهِ﴾ إلى آخره[3]. وقوله ﷺ «وإنّ موعدكم الحوض،

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٨٤): «فشهد».
(٢) سورة البقرة ٢، الآية ١٤٣.
(٣) سورة نوح ٧١، الآية ١.

وإني لأنظر إليه من مقامي هذا» نظرُه ﷺ إلى الحوض فيه وجهان، أحدهما: أن يكون نظره إليه بقلبه، إذ كان قد أطْلَعَه اللّه عليه ليلة الإسراء، فصار مرتسمًا في قلبه، فيكون نظره إليه بعين قلبه، كما يرتسم في قلب أحدنا شكل بيته وما فيه من المتاع والثياب وغير ذلك، الثاني: أن يكون اللّه تعالى قد كشف له عنه، فيكون نظره إليه بعينه مشاهدة. وقوله ﷺ «وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا» إن قيل: كيف قال ذلك وقد ارتدَّ عن الإسلام من ارتدّ من العرب بعده؟ فالجواب أنه إنما خاطب بذلك مَنْ لم يشرك من أصحابه ومن بعدهم من التابعين وغيرهم من أمته، ولم يراع رَعاعَ[1] العرب وجُهَّالهم، إذ لا اعتبار بهم لاحتقارهم. وقوله عليه الصلاة والسلام «ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تَنافسوها» قد وقع ما خشي منه عليه الصلاة والسلام من المنافسة في الدنيا، فكان كما ذكر ﷺ، انتهى.

وحدّث الشيخ أبو البركات قال: كنت ببجاية بمجلس الإمام ناصر الدين المشذالي[2] أيام قراءتي عليه، وقد أفاض طلبة مجلسه بين يديه: هل الملائكة أفضل أم الأنبياء؟ فقلت: الدليل بأنَّ الملائكة أفضل أن اللّه أمرهم بالسجود لآدم، قال: فجعل الطلبة ينظر بعضُهم إلى بعض، حتى قال لي بعضهم: استند يا سيدنا، كأنه يقول: استند إلى حائط ليزول هوس رأسك، وكانت عبارتهم في ذلك، وكل منهم يقول لي نحو ذلك إزراء، وقال لي الإمام ناصر الدين: أبصر فإنهم يقولون لك الحق، وكانت لغته أن يقول: أبصر، قال: فقلت: أتقولون إن أمر اللّه للملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار؟ قالوا: نعم، قلت: أفيُختبر العبد بتقبيل يد سيّده ليرى تواضُعَه؟ قالوا: لا، فإن ذلك من شأن العبد دون أن يؤمر، بل السيد يختبر تواضعه بأن يؤمر بالسجود للعبد، قلت: فكذا الملائكة، لو أُمرت بالسجود لأفضل منها لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده، قال: فكأنما ألقمتهم حجرا[3].

قال الشيخ أبو البركات: وهذه كحكاية أبي بكر بن الطيب مع بعض رؤساء المعتزلة، وذلك أنه اجتمع معه في مجلس الخليفة، فناظره في مسألة رؤية الباري، فقال له رئيسهم:

---

(١) الرَّعاع، بالفتح: أوغاد الناس، واحده رَعاعة. محيط المحيط (رعع).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٨٥): «المشذّالي».

(٣) ألْقَمَهُ الحجرَ: أسكته عند الخصام. محيط المحيط (لقم).

ما الدليل أيها القاضي على جواز رؤية اللّه تعالى؟ قال: قوله تعالى ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ﴾[1] فنظر بعض المعتزلة إلى بعض وقالوا: جُنَّ القاضي، وذلك أنّ هذه الآية هي معظم ما احتجوا به على مذهبهم، وهو ساكت، ثم قال لهم: أتقولون إنَّ من لسان العرب قولك «الحائط لا يبصر» قالوا: لا، قال: أتقولون إنَّ من لسان العرب «الحجر لا يأكل»؟ قالوا: لا، قال: فلا يَصِحُّ إذًا نفيُ الصفة إلاَّ عمَّا من شأنه صحةُ إثباتها له، قالوا: نعم، قال: فكذلك قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصارُ﴾ لولا جواز إدراك الأبصار له لم يصحَّ نفيه عنه، فأذعنوا لما قال، واستحسنوه.

وقال الشيخ أبو البركات: كنت ببجاية، وقدم علينا رجل من فاس برسم الحجّ يُعرف بابن الحدّاد، فركب الناس في الأخذ عنه والرواية لما يحمله كُلَّ صعبٍ وذَلول، مع أنه لم تكن منزلته هناك في العلم، فعجبت لذلك، حتى قلت لبعض الطلبة: لقد أخذتموه بكلتا اليدين، ولم أركم مع مَنْ هو أعلى قدرًا منه كذلك، فقالوا لي: لأنه قدم علينا ونحن لا نعرفه، وهو في زي حسن؛ بخادم يخدمه، يظنّ مَنْ يراه أنَّ أباه من أعيان أهل بلده، فسألناه أحيٌّ أبوه أم لا؟ قال: بل حيّ، قلنا: أهو من أهل العلم؟ قال: لا، هو دلال في سوق الخدم، فلذلك آثرناه على مَنْ هو فوقه في العلم، قال: فقلت لهم: حق له أن ترتفع منزلته ويعلو صيته لتخلّقه وفضله.

وفوائد أبي البركات كثيرة.

ومن تآليفه[2] «المؤتمن، على أنباء أبناء الزمن»؛ كتاب مفيد جدًا، وهو رضي اللّه عنه من ذرية العباس بن مرداس السُلَمي صاحب رسول اللّه ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وقال الشيخ أبو البركات: ذكر لي أنَّ الشيخ[3] الفقيه الكاتب أبا الحسن بن الجياب يحدّث عني، ولا أذكر الآن أني قلت ذلك، ولكنني لما سمعته علمت أنه مِمَّا من شأني أن أقوله وهو أني قلت: مثلُ العالم مثل رجل يصبُّ ماء في قفة، إن واظب على صبّ الماء

---

(١) سورة الأنعام ٦، الآية ١٠٣.

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٨٦): «تواليفه».

(٣) كلمة «الشيخ» ساقطة من طبعة دار صادر.

بقيت القفة ملأى، وإن ترك صبّ الماء بقيت القفة لا شيء فيها من الماء؛ فكذلك العالم: إن واظب على طلب العلم بقي العلم لم ينقص منه شيء، وإن ترك الطلب ذهب علمه، انتهى.

ونقلت مِمَّنْ رأى كلامَ ابن الصباغ في ترجمة أبي البركات ما نصُّه: لما ورد مدينة فاس في غرض الهناء والعزاء على أمير المسلمين أبي بكر السعيد ابن أمير المؤمنين أبي عنان، وأبصر الدار غاصّة بأرباب الدولة الفاسية ولم يعدم منها عدا شخصه، والولدُ على أريكة أبيه أنشد: [الكامل]

لَمَّا تبدّلتِ المجالسُ أوْجُهًا ... غير الذين عهدتُ من جلسائِها
ورأيتها محفوفةً بسوى الأُلى ... كانوا حُمَاةَ صدورِها وبنائها
أنشدت بيتًا سائرًا متقدّمًا ... والعينُ قد شَرِقَتْ بجاري مائها
(أمّا القبابُ فإنها كقبابهم ... وأرى نساءَ الحيّ غير نسائها)

وأظن أنه تمثّل بالأبيات في سرّه، وإلاّ فيبعد أن يقولها في ذلك الحفل لما في ذلك من التعرّض للهلك، والله سبحانه أعلم.

وحكى بعضهم أنه كان جالسًا في دهليز بيته مع بعض الأصحاب، فدخلت زوجته من الحمّام وهي بغير سراويل لقرب الحمام من البيت، فانكشف ساقها، فدخل مسرعًا، وغاب ساعة ثم خرج وأنشد: [الكامل]

كَشَفَتْ على ساقٍ لها فرأيته ... متلألئًا كالجوهرِ البراقِ
لا تعجبوا إن قام منه قيامتي ... إنَّ القيامةَ يومَ كشفِ الساقِ[1]

وله في خديم اسمه يحيى احتجم محجمة واحدة: [الطويل]

أرانيَ يحيى صنعةً في قفائه ... مُهَذَّبةً لَمَّا تبادر للبابِ
أرى الخمس فيها لا تفارقُ ساعةً ... فصوَّرَ بالموسى بها شكلَ محرابِ

وتوفي الشيخ القاضي أبو البركات المذكور بشوّال سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى!.

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلا يستطيعونَ﴾. سورة القلم ٦٨، الآية ٤٢.

٢٢ـ ومن أشياخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، الشيخ الحكيم العلامة التعاليمي، الشاعر البليغ، أعجوبة زمانه في الاطلاع على علوم الأوائل، أبو زكريا يحيى بن هذيل[١]، وقد قال في «الإحاطة» في حقّه ما ملخَّصُه[٢]: يحيى بن أحمد بن هذيل، التجيبي، أبو زكريا، شيخنا، جرى ذكره في «التاج المحلى» بما نصُّه: دُرّة بين الناس مُغْفَلة، وخزانة على كل فائدة مقفلة، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة، أبدع من رتب التعاليم وعلمها، وركض في الألواح قلمها، وأتقن من صور الهيأة ومثّلها، وأسّس قواعد البراهين وأثّلَها، وأعرف من زاول شكاية، ودفع عن جسم نكاية، إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم، والوصول من المجهول إلى المعلوم، والمحاضرة المستفزة للحلوم، والدعابة التي ما خالعُ العذار فيها بالمَلُوم، فما شئت من نفس عذبة الشيم، وأخلاق كالزهر من بعد الدِّيم، ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر، ومذاكرة يروق في النواظر زهرها الناضر، وله أدب ذهب في الإجادة كلَّ مذهب، وارتدى من البلاغ بكلِّ رداء مُذْهَب، والأدب نقطة من حوضه، وزهرة من زهرات روضه، وسيمرُّ له في هذا الديوان ما يبهر العقول، ويحاسَنُ برُوَائه ورائق بهائه الفِرِنْدُ المصقول، فمن ذلك ما خرجته من ديوانه المسمَّى بالسليمانيات والعزفيات[٣] قوله:

[الطويل]

أَلاَ أَستودع الرحمن بدرًا مكمّلاً ... بفاسٍ من الدرب الطويل مطالعُهْ
ففي فلك الأزرار يطلعُ سَعْدُهُ ... وفي أُفُقِ الأكباد تُلْفى مواقعُهْ[٤]
يُصَيِّرُ مرآه منجِّمُ مُقْلتي ... فتصدقُ في قَطْعٍ[٥] الرجاءِ قواطعُهْ
تجسَّم من ماء[٦] الملاحة خدُّه ... وماءُ الحَيَا فيه تَرَجْرَجَ مائعُهْ
تلوَّنَ كالحرباء في خَجَلاته ... فيحمرُّ قانيه ويبيضُّ ناصعُهْ

---

(١) ترجمة أبي زكريا يحيىٰ بن أحمد بن هذيل في الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٠) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٢٠) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٤١٢) والكتيبة الكامنة (ص ٧٣) وفيه أن الترجمة وردت خطأ تحت اسم ابن شقرال.

(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٧): «والعرفيات». وفي الإحاطة: «والعربيات». والأبيات في الإحاطة (ص ٣٩٢) والكتيبة الكامنة (ص ٧٧).

(٤) في الإحاطة: «وفي فلك . .». وفي الكتيبة الكامنة: «وفي فلك . . مَطْلَعُ سَعْدِهِ . .».

(٥) القطع: عند المنجمين يعني النقص أو سوء الطالع.

(٦) في الإحاطة والكتيبة: «من نور».

إذا اهتزَّ غَنَّى حَلْيُه فوق نحره كغصنِ النَّقا غَنَّتْ عليه سواجعُهْ
يذكر حَتْف الصَّبِّ عاملُ قدِّه وتعطفُ من واو العِذار توابعه[1]
أعدُّ الورى سيفًا كسيفِ لحاظه فهذا هو الماضي وذاك يضارعه[2]

وقال[3]: [الطويل]

وصالُكَ هذا أم تحيَّةُ بارقِ وهَجْرُكَ أم ليلُ السليم لتائقِ
أناديك والأشواق تُرْكِضُ حجرها[4] بصفحة خدِّي من دموعٍ سوابقِ
أبارقَ ثَغرٍ من عُذَيبِ رُضابِهِ قَضَتْ مهجتي بين العذيب وبارقِ

ومنها[5]:

فلا تتعبنْ ريحَ الصَّبا في رسالةٍ ولا تُخجلِ الطَّيْفَ الذي كان طارقي[6]
متى طعمتْ عيني الكرى بعد بُعْدكم فإنيَ في دعوى الهوى غيرُ صادقِ

وقال[7]: [الطويل]

بدا بدر تِمّ فوقه الليل عَسْعَسَا وجنّة أُنس في صباحٍ تَنَفَّسا
حوى النجمَ قرطًا والدراري مُقَلَّدًا وأَسْبَلَ من مِسْكِ الذوائب حِنْدِسا
كأنَّ سَنَا الإصباح رام يزورنا وخاف العيونَ الرامقات فغلَّسَا
أتى يحمل التوراةَ ظبيًا مُزَنَّرًا لطيفَ التثني أشنبَ الثَّغر أَلْعسا
وقابل أحبارَ اليهودِ بوجهه فبارك مولانا[8] عليه وقدَّسا
فصيّر دمعي أعينًا شربَ سبطه وعمريَّ تيهًا والجوانحَ مَقْدِسا

---

(١) في الإحاطة: «عامل قدره وتقطف من واو». وفي الكتيبة: «يؤكد حَتْفَ الصَّبِّ. . ».
(٢) في الإحاطة: «أعدَّ للورى. . ». وفي الكتيبة: «وذاك مضارعُهْ».
(٣) الأبيات في الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٢) والكتيبة الكامنة (ص ٧٧).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٨): «أياديك والأشواق. . ». وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٨٩): «تركض جمرها». وفي الكتيبة الكامنة: «تركض حُمْرَها».
(٥) لم يرد هذان البيتان في الكتيبة الكامنة.
(٦) في الإحاطة: «الذي هو طارقي».
(٧) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٣).
(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٨٩) وفي الإحاطة: «فبارك ربِّي».

وقال منها:

رويتُ ولوعي عن ضلوعي مُسَلْسلاً   فأصبحتُ في علم الغرام مُدَرِّسا
نفى النومَ عني كي أكونَ مسهدًا   فأصبحتُ في صيد الخيالِ مهندسا
غزالٌ من الفردوس تسقيه أدمعي   ويأوي إلى قلبي مقيلاً[1] ومكنسا
طَغَى وَرْدُ خدّيه بجنّات صُدْغه   فأضعفه بالآس نبتًا وما أَسا

وهذا البيت محال على معنى فِلاَحي، قال أهل الفلاحة: إنَّ الآس إذا اغْتُرِسَ بين شجر الورد أضعفه بالخاصية.

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه[2]: [الرمل]

نامَ طفلُ النبتِ في حِجْرِ النُّعَامَى   لاهتزازِ الطَّلِّ[3] في مَهْدِ الخُزَامَى
وسقى[4] الوسْمِيُّ أغصانَ النَّقا   فَهَوَتْ تلثمُ أفواهَ الندامى
كَحَّلَ الفجرُ لهمْ جَفْنَ الدُّجى   وغدا في وجنة الصُّبْح لِثاما
تحسبُ البدرَ مُحَيًّا ثَمِلٍ   قد سَقَتْه راحةُ الصبح مُدَامَا
حوله الزهر[5] كؤوسٌ قد غدت   مِسكةُ الليل عليهنَّ خِتاما
يا عليلَ الريح[6] رِفْقًا علّني   أشفِ بالسقم الذي حُزْتَ سَقَامَا
أبلغَنْ[7] شوقي عُرَيْبًا باللّوى   هِمْتُ في أرضٍ بها حَلُّوا غراما
فَرَشُوا فيها من الدُّرِّ حَصًى   ضربوا فيها من المِسْكِ خِياما
كنت أشفي غلّةً مِنْ صَدِّكمْ[8]   لو أذنْتُمْ لجفوني أن تَناما
واستفدتُ[9] الرَّوحَ مِنْ ريح الصَّبا   لو أتتْ تحمل من سلمى سلاما

---

(١) في الإحاطة: «مثيلاً».
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٤) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣) والكتيبة الكامنة (ص ٧٤ ـ ٧٥).
(٣) في نثير فرائد الجمان والكتيبة الكامنة: «الظّلّ».
(٤) هكذا في كل المصادر، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٩٠): «وسما».
(٥) في النثير والكتيبة: «حوله الشُّهْبُ».
(٦) في الكتيبة: «الروح».
(٧) في الإحاطة: «وأبلغنْ». وفي النثير والكمينة: «وابلغن عني عريبًا..».
(٨) في الكتيبة: «غلّة من طيفكم». وفي النثير: «كنت أشري زورة من طيفكم».
(٩) في النثير: «واستعدتُ».

وقال منها أيضًا:

نشأتْ للصَّبِّ منها زَفْرَةٌ ... تَسْكُبُ الدمعَ على الرَّبع سِجاما
طَرِبَ البرقُ مع القلبِ بها ... وبها الأثّاتُ طارحْنَ الحِماما
طللٌ لا تشتفي الأُذنُ به ... وهو للعينين[1] قد ألقى كلاما
ترك الساكنُ لي مِنْ وَصْله ... ضَمَّةَ الجدران لَثْمًا والتزاما[2]
نزعاتٌ من سليمانَ بها ... فَهِمَ القلبُ معانيها فَهَامَا
شَادِنٌ يرعى حُشاشات الحَشَا ... حَسْبُ حظّي منه أنْ أرعى الذِّماما

وقال[3]: [الطويل]

أأرجو أمانًا منك واللحظُ غادرٌ ... ويثبتُ عقلي[4] فيك والطرفُ ساحرُ

ومنها:

أَعَدَّ سليمانُ أَلِيمَ عذابِهِ ... لطائر قلبي فهو للبين صائرُ[5]
أُشاهِدُ منه الحُسْنَ في كلِّ نظرةٍ ... وناظرُ أفكاري بمغناه[6] ناظرُ
دعتْ للهوى أنصارُ سحرِ جفونِهِ ... فقلبي له عن طِيْبِ نفسٍ مُهاجرُ
إذا شَقَّ عن بَدْرِ الدجى أُفْقَ زِرِّهِ[7] ... فإني بتمويه العواذل كافرُ
وفي حَرَم السُّلوانِ طابتْ[8] خواطري ... وقلبي لما في وجنتيه مجاورُ
وقد ينزعُ القلبُ المبلَّى[9] لسلوةٍ ... كما اهتزَّ مِنْ قطرِ الغمامةِ طائرُ
يقابلُ أغراضي بِضِدِّ مُرادِها ... ولم يَدْرِ أنَّ الضِّدَّ للضِّدِّ قاهرُ
ونارُ اشتياقي صَعَّدَتْ مُزْنَ أدمعي ... فَمُضْمَرُ سرِّي فَوْقَ خدِّيَّ ظاهرُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٩): «للعين» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) هذا البيت والبيتان التاليان غير واردة في نثير فرائد الجمان.
(٣) الإحاطة (ج ٤ ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥) والكتيبة الكامنة (ص ٧٥ ـ ٧٦).
(٤) في الكتيبة: «ويثبت قلبي..».
(٥) في الإحاطة: «الهدهد قلبي». وفي الكتيبة: «الهدهد قلبي.. صابرٌ».
(٦) في الكتيبة: «لمعناه ناظرٌ».
(٧) في الإحاطة: «ذرّه».
(٨) في الإحاطة: «طافت».
(٩) في الكتيبة: «القلب الشجيّ».

وقد كنتُ باكي العينِ والبَيْنُ غائبٌ فقلْ ليَ كيف الدمع والبَيْنُ حاضر[1]
وليس النوى بالطبع مُرًّا، وإنما لكثرةِ ما شُقَّتْ عليه المرائرُ

وقال[2]: [الكامل]

يا بارقًا قادَ الخيالَ فأَوْمَضا اقْصِدْ بطيفك مُذْنَفًا قد غمّضا
ذاك الذي قد كنتَ تعهدُ نائمًا بالسّهد من بعدِ الأَحِبَّةِ عوِّضا
لا تحسبنّي مُعْرِضًا عن طيفِهِ لكنْ منامي عن جفوني أعرضا

ومنها:

عجبَ الوشاةُ لمهجتي أنْ لم تَذُبْ يوم النَّوى وتشكّكَتْ فيما مضى
خفيتْ لهم من سِرِّ صبري آيةٌ ما فَهَّمَتْ إلاّ سليمانَ الرِّضا
للّه دَرُّك ناهجًا سُبُلَ الهوى فلمثله أمرُ الهوى قد فُوِّضا
أمّنْتَ نملاً فوق خدِّك سارحًا وسللتَ سيفًا من جُفُونك مُنْتَضَى

وقال في المدح[3]: [الطويل]

حريص على جَرِّ الذوائب والقنا إذا كَعَّتِ[4] الأبطالُ والجوُّ عابسُ
وتعتنق[5] الأبطال، لولا سقوطها لقلتُ لتوديعٍ أَتَتْهُ الفوارسُ
إذا اختطفتهم كَفُّهُ فسروجهمْ مجالٌ، وهم في راحتيه فرائسُ

وقال يمدح السلطان أبا الوليد بن نصر عند قدومه من فتح أشكر[6]: [الطويل]

بحيثُ البنودُ الحمرُ والأَسَدُ الوَرْدُ كتائبُ، سكانُ[7] السماء لها جُنْدُ

---

(١) رواية عجز البيت في الكتيبة هي:
فقل كيف حالُ الدمعِ والبَيْنُ حاضِرُ
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٥ . ٣٩٦).
(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٦).
(٤) كَعَّتِ الأبطالُ: جبنت وضعفت. لسان العرب (كعع).
(٥) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٩٢): «ويعتنق».
(٦) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٦) والكتيبة الكامنة (ص ٧٧ . ٧٨). وورد بعض هذه الأبيات في اللمحة البدرية (ص ٨٥). وأبو الوليد بن نصر هو إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف الأنصاري الخزرجي، أمير المسلمين بالأندلس، وقد حكم من عام ٧١٣ إلى عام ٧٢٥، اللمحة البدرية (ص ٧٨ . ٩٠).
(٧) سكان السماء: هم الملائكة.

وتحت لواء النصر مَلْكٌ هو الورى[1] تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو
تَـأَمَّـنَـتِ الأرواحُ فـي ظِـلِّ بَـنْـدِهِ كأنَّ جَنَاحَ الروح[2] من فوقه بَنْدُ
فـلـو رام إدراكَ الـنـجـومِ لَـنَـالَـهـا ولو هَمَّ لانْقادتْ له السِّنْدُ والهِنْدُ

ومنهـا:

بعينـيَ بحرُ النَّقْعِ تحت أَسِنَّةٍ تنمنمه وَهْنًا كما نُمْنم البردُ
سـمـاءُ عـجـاجٍ والأسنَّةُ شُـهـبـهـا[3] ووقْعُ القَنَا رَعْدٌ إذا برق الـهـند
وظنوا بأنَّ الرعد والصَّعْقَ في السما فحاقَ بهمْ من دونها الصَّعْقُ والرعد[4]
عجائبُ أشكالٍ سما هُرْمسٌ بها مُهَنْدَسَةٌ تأتي الجبالَ فتنهدُ[5]
ألاَ إنـهـا الـدنيا تُريكَ عـجـائبًا وما في القوى منها فلا بُدَّ أن يبدو

وقال وهو معتقل[6]: [الطويل]

تـبـاعـد عـنـي مـنـزلٌ وحـبـيـبُ وهـاجَ اشـتـيـاقي والـمـزارُ قـريـبُ
وأني على قربِ الحبيب مع النوى يـكـادُ إذا اشـتـدَّ الأنـيـنُ يـجـيـبُ
لـقـد بَـعُـدَتْ عـنـي ديـارٌ قـريـبـةٌ عجبتُ لجارِ الجَنْبِ وهو غريبُ
أُعـاشـرُ أقـوامًا[7] تـقـرُّ نـفـوسـهـم فـلـلـهـمِّ فـيـهـا عـنـد ذاك ضـروبُ
إذا شـعـروا مـن جـارهـم بـتـأوُّهٍ أجـابـتـه مـنـهـم زَفْـرةٌ ونَـحـيـبُ
فلا ذاك يـشـكـو هَمَّ هـذا تأسّفًا لـكـلِّ امـرىءٍ مـا دهـاه نـصـيـب
كأني في غابِ الليوثِ مسالمٌ[8] يـروّعـنـي مـنـه الـغـداة وثـوبُ

---

(١) رواية صدر البيت في الكتيبة الكامنة هي:
وتحت لواء الشرع مَلْكٌ هو الهدى
(٢) الروح: جبريل عليه السلام.
(٣) في الكتيبة الكامنة: «والقوانس شهبها».
(٤) في أصول النفح: «محاق به من أيده الصعق...»، والتصويب عن الإحاطة والكتيبة الكامنة واللمحة البدرية.
(٥) في الإحاطة: «مهندمة» بدل «مهندسة». وفي اللمحة البدرية: «غرائب أشكال.. مهندمة...».
(٦) الإحاطة (ج ٤ ص ٣٩٧ . ٣٩٨).
(٧) في الإحاطة: «قومًا ما تقرّ...».
(٨) في الإحاطة: «مُسَلَّمًا».

تَحَكَّمَ فيها الدهرُ والعقلُ حاضر ... بكلِّ قياس والأديبُ أديبُ[1]
ولو مال بالجهّال مَيْلَتَهُ بنا ... لَجاءَ بعذرٍ؛ إنَّ ذا لَعَجِيبُ
رفيقٌ بمن لا ينثني عن جريمة ... بَطُوشٌ بمن ما أَوْبَقَتْهُ[2] ذنوب
ويُطْمِعُنا منه بوارقُ خُلَّبٌ ... تقول عساه يرعوي فيؤوبُ[3]
إذا ما تشبّثنا بأذيال بُرْده ... دهتْنا إذا جرَّ الخطوبَ خطوبُ
أدار علينا صولجانًا، ولم يكن ... سوى أنه بالحادثاتِ لَعُوبُ

ومنها:

أيا دهرُ، إني قد سئمتُ تهدُّفي ... أجِزْني فإنَّ السهمَ منك مصيبُ
إذا خفق البرقُ الطروقُ أجابه ... فؤادي ودمعُ المقلتين سَكُوبُ
وإن طلع الكفُّ الخضيب سُحَيرة[4] ... فدمعي بحنَّاءِ الدماءِ خضيبُ
تُذَكِّرُني الأسحارُ دارًا أَلِفْتُها ... فيشتدُّ حُزْني والحَمامُ طروبُ
إذا عَلِقَتْ نفسي بِلَيْتَ وربما ... تكاد تفيضُ أو تكادُ تذوبُ
دعوتك ربِّي والدعاءُ ضَراعَةٌ ... وأنت تُناجَى بالدعا فتجيبُ
لئن كان عُقْبى الصبر فوزًا وغبطةً ... فإني على الصبر الجميل دَرُوبُ

قال: وبعثت إليه هدية من البادية، فقال يصف منها ديكًا[5]: [المنسرح]

أيا صديقا جعلته سَنَدَا ... فراح فيما أَحَبَّهُ وغَدَا
طلبتُ منكم سُرَيْدِكًا خنثًا ... وجئتُم لي مكانه لُبَدا[6]
صَيَّرَ مني مؤرخًا ولكم ... ظللتُ في علمه من البُلَدَا
قلت له: آدمٌ أتعرفُهُ؟ ... قال: حفيدي بعصرنا وُلِدا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٢): «يحكم» بدل «تَحكّم». وفي الإحاطة: «تحكم فينا... والأديبُ أريبُ».
(٢) أَوْبَقَتْهُ: أهلكته. لسان العرب (وبق).
(٣) في الإحاطة: «وتطمعنا منه بوارق... يرعوي ويتوبُ».
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٩٤): «بسحرة». وفي الإحاطة: «بسحره».
(٥) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩).
(٦) في الإحاطة: «صُرَيْدكًا خنثًا وجّهتموني..». والسُّرَيْدك: تصغير سردوك وهو الديك.

نوحٌ وطوفانُهُ رأيتَهما؟ قال: عَلَونا بِفَيضِهِ[1] أُحُدَا
فقلت: هل لي بجرهم خبرٌ؟ فقال: قومي وجيرتي السُّعَدَا
فقلت: قحطانُ هل مررتَ به؟ قال: نَفَثْنا بِبُرْدِهِ العُقَدا
فقلت: صِفْ لي سَبَا وساكنها فعند هذا تنفَّسَ الصُّعَدَا
فقال: كم لي بِدُجْنهم سَحَرًا من صرخةٍ لي وللنؤوم هدا[2]
فقلت: هاروت هل سمعت به؟ فقال: ريشي لسهمه[3] نَفِدا
فقلت: كسرى وآل شرعته؟ فقال: كنّا بجيشه وَفدا
ولّوا وصاروا وها أنا لبدٌ[4] فهل رأيتم من فوقهم أحدا
ديكٌ إذا ما انثنى لفكرته رأى وجودًا طرائقًا قِدَدا[5]
يرفلُ في طيلسانه وَلِهًا قد صيَّر الدهرُ لونَهُ كمدا
إذا دَجَا الليلُ غابَ هيكله كأنَّ حِبرًا عليه قد جَمدا
كأنما جُلَّنارُ لحيته بُرْجان جازا من الهواء مَدَى
كأنَّ حصنًا علا بهامَتِهِ أعدَّه للقتال فيه عدا
يرنو بياقوتَتَيْ لواحظه كأنما اللحظُ منه قد رَمِدَا
كأنَّ منجالتي ذوائبه قوسُ سماءٍ مِنْ أصله بعدا[6]
وعَوْسَجٌ مَدَّ من مخالبه طغى بها في نقاره وعَدا
فذاك ديكٌ جَلَّتْ محاسنه له صراخٌ بين الديوك بدا
يطلبني بالذي فعلتُ به فكم فَلَلْنا بلبَّتَيْهِ[7] مُدَى
وَجَّهتَه محنة لآكله والله ما كان ذاك منك[8] سدى

---

(١) في الإحاطة: «الفيضه».
(٢) في الإحاطة: «وقال كم... وللنوم هدا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الإحاطة: «لِسِحْرِهِ».
(٤) لبد: اسم آخر نسور لقمان، وهو مضرب المثل في التعمير وطول البقاء.
(٥) في الإحاطة: «رأى الوجود..». والقِدَدُ: جمع قدّة وهي الفرقة من الناس. لسان العرب (قدد). وفي التنزيل الكريم: (كنّا طرائق قِدَداً). سورة الجن ٧٢، الآية ١١.
(٦) في الإحاطة: «ذؤابته قوسٌ سما من أجله..».
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٤٣): «بلبّته».
(٨) في الإحاطة: «مني».

ولم نزل بعدُ نستعدي عليه فإقراره بقتله، ونطلبه بالقود عند تصرّفه بالعمل، فيوجه الدية لنا في ذلك رسائل.

وقال في غرض أبي نُوَاس[1]: [الطويل]

طَرَقْنا دُيُورَ القومِ وَهْنًا وتَغْلِيسَا ... وقد شَرَّفوا الناسوتَ إذ عبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيلَ فوق رؤوسهم ... وقد قَدَّسُوا الروحَ المُقَدَّسَ تقديسا
فما استيقظوا إلاَّ لِصَكَّةِ بابهمْ ... فأدهشَ رُهبانًا وروَّع قِسِّيسَا
وقام بها البطريقُ يسعى مُلَبِّيًا ... وقد لَيَّن الناقوسَ رفعًا وتأنيسا[2]
فقلنا له أَمِّنًا فإنّا عصابةٌ ... أتيْنا لتثليثٍ وإنْ شئتَ تسديسا[3]
وما قَصْدُنا إلاَّ الكؤوسَ وإنما ... لحنًا له في القول خُبْثًا وتدْليسا[4]
فَفُتِّحَتِ الأبوابُ بالرحبِ منهمُ ... وعَرَّسَ طلابُ المُدامة تعريسا[5]
فلمَّا رأى رقِّي أمامي ومزهري ... دعاني أتأنيسًا لحنت وتلبيسا[6]
وقام إلى دَنٍّ يفضُّ ختامه ... فكبس أجرامَ الغياهب تكبيسا[7]
وطاف بها رطبُ البَنان مُزَنَّرٌ ... فأبصرتُ عبدًا صَيَّرَ الحُرَّ مرؤوسا
سُلافًا حواها القارُ لبسًا فخلْتُها ... مثالاً من الياقوتِ في الحبْر مغموسا[8]

ومنها:

إلى أن سطا بالقومِ سلطانُ نومهمْ ... ورأسُ فتيل[9] الشمع نُكِّسَ تنكيسا
وَثَبْتُ إليه بالعناق فقال لي: ... بحقِّ الهوى هَبْ لي من الضَّمِّ تنفيسا

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠) والكتيبة الكامنة (ص ٧٩ ـ ٨٠).
(٢) في الإحاطة: «رفقًا وتأنيسًا». وفي الكتيبة الكامنة: «وقد أَصْمَتَ الناقوسَ رِفْقًا وتأنيسا».
(٣) التثليث: شرب ثلاث كؤوس. والتسديس: شرب ست كؤوس.
(٤) يقول: إننا أوهمناه بالتورية في التثليث، ونحن قصدنا أن نشرب ثلاثًا أو ستًا.
(٥) التعريس: النزول آخر الليل، لسان العرب (عرس).
(٦) في الكتيبة الكامنة: «فلما رأى زقي.. تأنيسًا لحنت..».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٤): «فكيّس.. تكييسًا». وفي الكتيبة الكامنة: «ففضّ ختامه فكيّس.. تكييسًا».
(٨) في الكتيبة: «ملبوسا».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٤) والإحاطة: «قبيل».

كتبتُ بدمع العين صفحةَ خَدِّه | فطلَّسَ حبرَ الشعر كتبيَ تطليسا
فبئسَ الذي احتلنا، وكدنا عليهمُ | وبئس الذي قد أضمروا قبل ذا بِيسًا
فبتْنا يرانا اللّه شَرَّ عصابةٍ | نطيعُ[1] بعصيانِ الشريعة إبليسا

وقال بديهة في غزالة من النحاس ترمي الماء على بركة [2] : [الكامل]

عَنَّتْ لنا من وحشِ وَجْرَةَ ظبيةٌ | جاءت لوردِ الماء ملءَ عنانِها
وأظنُّها إذْ حَدَّدَتْ آذانَها | رِيعَتْ بنا فتوقفتْ بمكانها
حَيَّتْ بقرنيْ رأسها إذ لم تجِدْ | يومَ اللقاءِ تحيةً ببنانها
حَنَّتْ على الندمان من إفلاسهم | فرمتْ قضيب لُجَيْنها لِحَنانها
لِلّه درُّ غزالةٍ أبدتْ لنا | دُرَّ الحباب تصوغُهُ بلسانها

قال لسان الدين: وفُلِجَ المذكور، فلزم منزلي لمكان فضله ووجوب حقّه، وقد كانت زوجه توفّيت، وصحبه عليها الوَجْد، فلمّا ثقل وقربت وفاته استدعاني وكاد لسانه لا يبين، فأوصاني وقال[3] : [الطويل]

إذا متُّ فادْفنِّي حِذَاءَ حليلتي | يُخالطُ عظمي في التراب عظامَها
ولا تَدْفِنَنِّي[4] في البقيع فإنني | أريد إلى يوم الحساب التزامها
ورَتِّبْ ضريحي كيفما شاءه الهوى | تكونُ أمامي أو أكون أمامها
لعل إله العرش يجبرُ صَدْعتي | فَيُعْلي مُقامي عنده ومُقامها

ومات رحمه اللّه تعالى في الخامس والعشرين لذي قعدة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، ودفن بحذاء زوجه كما عهد رحمه اللّه تعالى، انتهى.

ومن نظم ابن هذيل: [الوافر]

وظبي زارني والليلُ طِفْلٌ | إلى أن لاح لي منه اكتهالُ[5]
وألغى الشك من وصل فقلنا | بليل الشك يرتَقَبُ الهلالُ

---

(١) في الكتيبة: «تطيع».
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٠٠).
(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١).
(٤) في الإحاطة: ولا تدفنّي»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) الليل طفلٌ: يريد أن ذلك كان في أول الليل. لاح اكتهال الليل: أي قارب على الانتهاء.

٢٣ ـ ومن أشياخ لسان الدين: الشيخ أبو بكر ابن ذي الوزارتين، وهو أعني أبا بكر، الوزير الكاتب الأديب الفاضل المشارك المتفنن المتبحر في الفنون، أبو بكر محمد ابن الشيخ الشهير ذي الوزارتين أبي عبد الله الحكيم الرندي[1]، ومن نظمه قوله[2]: [الطويل]

تـصـبَّـرْ إذا مـا أَدْرَكَـتْـكَ مُـلِـمَّـةٌ فَـصُـنْـعُ إلـهِ الـعـالـمـيـن عـجـيـبُ
ومـا يـلـحـقُ الإنـسـانَ عـارٌ بـنـكـبـةٍ يُـنَـكَّـبُ فـيـهـا صـاحـبٌ وحـبـيـبُ[3]
ففي مَنْ مَضَى للمرء ذي العقل أُسْوَةٌ[4] وعـيـشُ كـرامِ الـنـاسِ لـيـس يـطـيـبُ
ويـوشـكُ أن تـهـمـي سـحـائـبُ نـعـمـةٍ فَـيُـخْـصِـبَ ربعٌ لـلـسـرور جـديـبُ[5]
إلـهـك يـا هـذا قـريـبٌ[6] لـمـن دعـا وكـلُّ الـذي عـنـد الـقـريـبِ قـريـبُ

قال ابن خاتمة: وأنشدني الوزير أبو بكر مَقْدَمَه على ألمرية غازيًا مع الجيش المنصور قال: أنشدني أبي: [الطويل]

ولَـمَّـا رأيتُ الشَّيْبَ حَلَّ بمفرقي نـذيرًا بـتـرحـال الـشـبـابِ الـمـفـارقِ
رَجَعْتُ إلى نفسي فقلت لها انظري إلى ما أرى، هذا ابتداء الحقائقِ

وبيتهم بيت كبير، وأخذ عن غير واحد وعن والده، وهو[7] ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيىٰ، اللخمي، الرندي، الكاتب البليغ الأديب الشهير الذكر بالأندلس، وأصل سلفه من إشبيلية من أعيانها، ثم انتقلوا إلى رُنْدة في دولة بني عباد، ويحيىٰ جدّ والده هو المعروف بالحكيم لطبه، وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر إثرَ قفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله بن رشيد الفهري، فألحقه السلطان بكتابه، وأقام يكتب له

---

(١) ترجمة أبي بكر محمد بن الحكيم الرندي في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٧٢) والكتيبة الكامنة (ص ١٩٥). وقد مرّ التعريف بوالده ذي الوزارتين أبي عبد الله الحكيم الرندي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث.
(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٨٠) والكتيبة الكامنة (ص ١٩٥).
(٣) في الإحاطة: «وما يدرك الإنسان». وفي الكتيبة: «وما يدرك الإنسان.. فينكب..».
(٤) الأُسْوة، بضمّ الهمزة وكسرها: هو ما يأتسي به الحزين يتعزّى به. مختار الصحاح (أسا).
(٥) في الإحاطة: «فيخصب من ربع السرور..».
(٦) في الإحاطة والكتيبة: «مجيبٌ».
(٧) ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الرندي في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٤٤).

في ديوان الإنشاء إلى أن توفي هذا السلطان وتقلَّد الملك بعده ولي عهده أبو عبد اللَّه المخلوع، فقلّده الوزارة والكتابة، وأشرك معه في الوزارة أبا سلطان عيد العزيز بن سلطان الداني، فلمّا توفي أبو سلطان أفردهُ السلطان بالوزارة، ولقبّه ذا الوزارتين، وصار صاحب أمره إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلاً نفعه اللَّه تعالى غُدْوَةَ يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه وخلافة أخيه أمير المسلمين أبي الجيوش مكانه، ومولده برُنْدَة سنة ستين وستمائة. وكان رحمه اللَّه تعالى علمًا في الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق، كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحرمة، عالي الهمّة، كاتبًا بليغًا أديبًا شاعرًا، حسن الخطّ، يكتب خطوطًا على أنواع كلّها جميلة الانطباع، خطيبًا فصيح القلم، زاكي الشيم، مؤثرًا لأهل العلم والأدب، برًّا بأهل الفضل والحسب، نفقت بمدّته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق. ورحل للمشرق كما سبق، فكانت إجازته البحر من ألمرية، فقضى فريضة الحج، وأخذ عمّن لقي هنالك من الشيوخ، فمشيخته متوافرة، وكان رفيقه - كما مَرَّ - الخطيب أبا عبد اللَّه بن رشيد الفهري، فتعاونا على هذا الغرض، وقضيا منه كل نفل ومفترض، واشتركا فيمن أخذا عنه من الأعلام، في كل مقام، وكانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب، وصبابة باقتناء الكتب، جمع من أمهاتها العتيقة، وأصولها الرائقة الأنيقة، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه، ولا ظفرت به يداه، أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبي العاص، وتدبّج معه رفيقه أبو عبد اللَّه بن رشيد وغير واحد، وكان ممدحًا، وممّن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي والرئيس أبو الحسن بن الجياب، وناهيك بهما.

ومن بديع مدح ابن الجياب له قصيدة رائية رائقة يهنيه فيها[1] بعيد الفطر منها في أولها[2]: [البسيط]

يا قادمًا عَمَّتِ الدنيا بشائِرُهُ ... أهلاً بِمَقْدَمِكَ الميمونِ طائرُهُ
ومرحبًا بك من عيدٍ تحفُّ به ... من السعادة أَجنادٌ تُظافِرُهُ
قَدِمْتَ فالخلقُ في نَعْمى وفي جذَلٍ ... أبدى بك البشرَ باديه وحاضرُهُ[3]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٤٧): «يهنيه فيها هي بعيد».
(٢) الإحاطة (ج ٢ ص ٤٥٣ - ٤٥٥).
(٣) أراد بحاضره سكان الحاضرة.

والأرضُ قد لبستْ أثوابَ سُنْدُسِها والروضُ قد بَسَمَتْ منه أزاهرُهُ
حاكتْ يَدُ الغَيْث في ساحاته حُللاً لـمّا سقاها دِرَاكًا منه باكرُهُ
فلاح فيها من الأنوارِ باهرُها وفاح فيها من النُّوّار عاطرُهُ
وقام فيها خطيبُ الطير مرتجلاً والزهرُ قد رُصِّعَتْ منه منابرُهُ
مَوْشِيُّ ثوبٍ طواه الدهرُ آونةً فها هو اليومَ للأبصار ناشرُهُ
فالغصنُ مِنْ نشوةٍ يثني معاطفه والطيرُ من طربٍ تشدو مزاهرُهُ
وللكمام انشقاقٌ عن أزاهرها كما بَدَتْ لك من خلّ ضمائرُهُ
للّه يومك ما أذكى[1] فضائلَهُ قامت لدين الهدى فيه شعائرُهُ
فكم سريرةِ فضلٍ فيك قد خبئتْ وكم جَمَالٍ بَدَا للناس ظاهرُهُ
فافخرْ بحقّ على الأيام قاطبةً فما لفضلك من نِدّ يظاهرُهُ
فأنت في عصرنا كابنِ الحكيم إذا قِيسَتْ بفخرِ أولي العَلْيا مفاخرُهُ
يلتاحُ منه بأُفقِ المُلْك نورُ هدًى تضاءلُ الشمسُ مهما لاح زاهرُهُ
مجدٌ صميمٌ على عرش السّماك سَمَا طالتْ مبانيه واسْتَعْلَتْ مظاهرُهُ
وزارةُ الدِّيْن والعِلْم الذي رُفِعَتْ أعلامُهُ والندى الفيّاض زاخرُهُ
وليس هذا بِبِدْعٍ من مكارمه ساوتْ أوائلَه فيه أواخرُهُ
يَلْقَى الأمورَ بصدرٍ منه مُنْشَرِحٍ بَحْرٌ وآراؤه العظمى جواهرُهُ
راعى أمورَ الرعايا مُعْمِلاً نظرًا كمثلِ عَلْيَاهُ معدومًا نظائرُهُ
والملكُ سَيَّرَ في تدبيره حِكَمًا تنالُ ما عجزتْ عنه عساكرُهُ
سياسةُ الحلم[2] لا بَطْشٌ يكدرها فهو المهيبُ وما تُخْشَى بوادرُهُ
لا يَصْدُرُ الملك إلاّ عن إشارته فالرُّشْدُ لا تَتَعَدّاه مصايرُهُ
تجري الأمورُ على أقصى إرادته كأنما دهرُهُ فيه يشاورُهُ
وكم مقام له في كلّ مَكْرمةٍ أَنْسَتْ مواردَهُ فيها مصادرُهُ
ففضلُها طَبَّقَ الآفاقَ أجمعها كأنه مَثَلٌ قد سار سائره
فليس يَجْحَدُهُ إلاّ أخو حَسَدٍ يرى الصباحَ فيعشى منه ناظرُهُ

---

(١) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٥٠٠): «أزكى».
(٢) في الإحاطة (ص ٤٥٤): «الحكم».

لا مُلْكَ أكبرُ من مُلْكٍ يدبّره | لا مُلْكَ أسعدُ من مُلْكٍ يوازرُهُ
يا عِزَّ أمرٍ به اشتدَّتْ مضاربُهُ | يا حُسْنَ مُلْكٍ به ازدانتْ محاضرُهُ
تُثني البلادُ وأهلوها بما عرفوا | ويشهدُ الدهرُ آتيه وغابرُهُ[1]
بُشْرَى لآمله الموصول مَأْمَلُهُ | تَعْسًا لحاسده المقطوعِ دابرُهُ
فالعِلْمُ قد أشرقت نُورًا مطالعُهُ | والجودُ قد أسبلتْ سَحًا مواطرُهُ
والناسُ في بُشَرٍ والمُلْك في ظفرٍ | عالٍ على كلِّ عالي القدر قاهرُهُ
والأرضُ قد مُلِئَتْ أمنًا جوانبُها | بيُمْنِ مَنْ خَلُصَتْ فيها سرائرُهُ
وإلى أياديه من مَثْنى وموحدةٍ[2] | تُسَاجِلُ البحرَ إن فاضتْ زواخِرُهُ
فكلُّ يوم تَلَقَّانَا عَوَارِفُهُ | كساه أمواله الطولى دفاترُهُ
فمن يؤدِّي لما أولاه من نِعَمٍ | شكرًا ولو أنَّ سَحْبانًا يظاهرُهُ
يا أيها العيدُ[3] بادِرْ لثمَ راحته | فَلَثْمُها خيرُ مأمولٍ تُبادرُهُ
وافخرْ بأن قد[4] لقيت ابن الحكيم على | عصرٍ يُباريك أو دهرٍ تفاخرُهُ
ولَّى الصيامُ وقد عظَّمْتَ حُرْمَتَهُ | فأجْرُهُ لك وافيه ووافرُهُ
وأقبلَ العيدُ فاستقبلْ به جَذلاً | واهنأ به قادمًا عَمَّتْ بشائرُهُ

ومن نثر ذي الوزارتين آخر إجازة ما صورته[5]: وها أنا أجري معه[6] على حسن مُعْتَقَدِهِ، وأكِلُهُ في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودُّده، وأُجيز له ولولديه، أقرَّ اللّه بهما عَيْنَه، وجمع بينهما وبينه، رواية جميع ما نقلته وحملته، وحُسْنُ اطّلاعه يُفَصِّل من ذلك ما أجملته، فقد أطلقتُ لهم الإذن في جميعه، وأبحتُ لهم الحمل عني ولهم الاختيار في تنويعه، واللّه سبحانه يُخْلِصُ أعمالنا لذاته، ويجعلها في ابتغاء مَرْضَاته، قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامدًا للّه عزَّ وجلَّ، ومصليًا ومسلمًا[7].

---

(١) في الإحاطة: «وعابره» بالعين المهملة.
(٢) في الإحاطة: «وواحدة».
(٣) في الإحاطة (ص ٤٥٥): «العبد».
(٤) كلمة «قد» ساقطة من الإحاطة، وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٧٣ . ٤٧٤).
(٦) في الإحاطة: «منه».
(٧) كلمة «ومسلمًا» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٠١).

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم قوله[1]: [السريع]

مـا أحـسـنَ الـعـقـلَ وآثـارَهُ ... لـو لازم الإنـسـانُ إيـثـارَهُ
يَصُـون بـالعـقـل الفتـى نَفْسَهُ ... كـمـا يـصـونُ الـحُـرُّ أسـرارَهُ
لا سـيـمـا إن كـان فـي غُـرْبَـةٍ ... يـحـتـاجُ أن يَـعْـرِفَ مـقـدارَهُ

وقوله رحمه اللّه[2]: [البسيط]

إنـي لأغـسِرُ أحيـانًا فيـلحقـني ... يُسْرٌ مِنَ اللّه إنَّ العُسْرَ قد زالا
يقولُ خيرُ الورى في سُنَّةٍ ثبتتْ ... «أَنْفِقْ ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالا»

وهو من أحسن ما قال رحمه اللّه.

ومن شعر ذي الوزارتين المذكور قوله[3]: [الطويل]

فقدتُ حياتي بالعراق[4] ومَنْ غدا ... بحالِ نَوًى عَمَّنْ يُحِبُّ فقد فَقَدْ
ومن أجل بُعْدي عن ديارِ أَلِفْتُها ... جحيمُ فؤادي قد تلَظَّى وقد وَقَدْ

وقد سبقه إلى هذا القائل: [الطويل]

أُواري أُواري بـالـدمـوع تـجـلّـدًا ... وكم رُمْتُ إطفاءَ اللهيبِ وقد وَقَدْ
فلا تعذلوا مَنْ غاب عنه حبيبه ... فَمَنْ فَقَدَ المحبوبَ مثلي فقد فقدْ

كذا رواه ابن خاتمة، ورواه غيره هكذا:

أواري أواري والدموعُ تبينه

وهو الصواب، قال ابن خاتمة: وأنشدني رئيس الكُتّاب الصدرُ البليغ الفاضل أبو القاسم عبد اللّه بن يوسف بن رضوان البخاري، قال: أنشدني رئيس الكُتّاب الجليل أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي، قال: أنشدني رئيسُ الكتّاب ذو الوزارتين أبو عبد

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٣). قلت: ووردت الأبيات في الجزء الرابع منسوبة إلى صالح بن شريف.
(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٣).
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٤).
(٤) في الإحاطة: «بالفراق».

اللّٰه محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم رحمه اللّٰه: [مجزوء الكامل]

صحَّ الكتابَ وعنَه ... واختمْ على مكتَتَنُه
واحذرْ عليه من مخا ... لسةِ الرقيبِ بجفنِهِ
واجعلْ لسانك سجنه ... كيلا تُرَى في سجنِهِ

قال ابن خاتمة: وفي سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل.

وحكي أنَّ ذا الوزارتين المذكور لما اجتمع مع الجليل الفقيه الكاتب ابن أبي مدين أنشده ابن أبي مدين[1]: [الطويل]

عشقتكمُ بالسمع قبل لقاكمُ ... وسَمْعُ الفتى يَهْوَى لعمري[2] كطرفِهِ
وحبّبني ذكرُ الجليس إليكمُ ... فلمّا التقينا كنتمُ فَوْقَ وَصْفِهِ

فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم[3]: [البسيط]

ما زلتُ أسمعُ عن علياكَ كلَّ سَنًا ... أبهى من الشمس أو أجْلَى من القمرِ
حتى رأى بَصَري فوق الذي سَمِعَتْ ... أذني فوفَّقَ بين السَّمْعِ والبَصَرِ

ويعجبني في قريب من هذا المعنى قولُ الحاج الكاتب أبي إسحاق الحسناوي[4] رحمه اللّٰه: [البسيط]

سحرُ البيان بناني صار يعقده ... والنَّفْثُ في عقده من منطقي الحسنِ
لا أنشدُ المرءَ يلقاني ويُبْصرني ... أنا المُعَيْدِيُّ فاسْمَعْ بي ولا ترني[5]

رجع - وقال لسان الدين في «عائد الصلة» في حق ذي الوزارتين ابن الحكيم ما صورته[6]: كان رحمه اللّٰه فريد دهره سماحةً، وبشاشة، ولَوْذَعِيَّةً، وانطباعًا، رقيق الحاشية، نافذ

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٤).
(٢) في الإحاطة: «لَعَمْرِ».
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٤).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٥١): «الحساوي».
(٥) معنى العجز من المثل القائل: «تَسْمَعُ بالمُعَيْديِّ خيرٌ من أن تراه»؛ يضرب لمن خَبَرُهُ خيرٌ من مرآه. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٢٩).
(٦) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٤٥ - ٤٤٦).

العَزمَة، مهتزًّا للمديح، طَلْقًا للآمل، كَهفًا للغريب، بَرْمَكي المائدة[1] مُهَلَّبي الحَلْوى[2]، ريّان من الأدب، مضطلعًا بالرواية، مستكثرًا من الفائدة، يقوم على المسائل الفقهية، ويتقدّم الناسَ في باب التحسين والتقبيح، ورَفْعِ راية الحديث والتحديث، نَفَّق بضاعة الطلب، وأحْيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تَشْغَله السياسة عن النظر، ولا عَاقَه تدبيرُ الملك عن المطالعة والسماع، وأفرط[3] في اقتناء الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها، وأثْرَتْ أنديته من ذخائرها. قام له الدهْرُ على رِجْل[4]، وأخدمه صدور البيوتات وأعلام الرياسات، وخُوطب من البلاد النازحة، وأُمِّل في[5] الآفاق النائية؛ انتهى المقصود منه.

ومن أحسن ما رثي به الوزير ابن الحكيم رحمه الله قولُ بعضهم: [مجزوء الكامل]

قتلوكَ ظلمًا واعتَدَوْا ... في فعلهم حَدَّ الوُجوبْ
ورَمَوْكَ أشلاءً، وذا ... أمرٌ قَضَتْه لك الغيوبْ
إن لم يكن لك سيدي ... قبرٌ فقبرُكَ في القلوبْ

وقال لسان الدين في «الإحاطة» في حق رحلة ذي الوزارتين ابن الحكيم ما صورته[6]: رحل إلى الحجاز الشريف من بلده على فَتَاء سنّه أوّل عام ثلاثة وثمانين وستمائة، فحجَّ وزار، وتجوّل في بلاد المشرق منتجعًا عَوَاليَ الرواية في مَظَانّها، ومنقِّرًا عنها عند مُسِنِّي شيوخها، وقيَّد الأناشيد الغريبة والأبيات المرقصة، وأقام بمكة شرّفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة، وانصرف إلى المدينة المشرفة، ثم قَفَلَ مع الركب الشامي إلى دمشق، ثم كَرَّ إلى المغرب، لا يمرّ بمجلس عِلْم أو تعلّم إلاّ رَوَى أو رُوِّي، واحتلَّ رُنْدَة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة، فأقام بها عَيْنًا في قرابته، وعَلَمًا في أهله، مُعَظَّمًا لديهم[7]، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء

(١) برمكيّ المائدة: نسبة إلى البرامكة الذين كانوا مضرب المثل في الكرم والضيافة.
(٢) مهلبي الحلوى: نسبة إلى بني المهلب بن أبي صفرة، وكانوا مضرب المثل في أكل الحلوى.
(٣) في الإحاطة: «والإفراط».
(٤) قام له الدهرُ على رِجْلٍ: كناية عن مطاوعة الدهر له.
(٥) في الإحاطة: «من الآفاق».
(٦) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧).
(٧) في الإحاطة: «عندهم».

من بني حبيب الوقيعةَ البرمكية[1]. وورد رُنْدة في أثر ذلك[2]، فتعرّض إليه[3] وهنّأه بقصيدة طويلة من أوليات شعره أوّلها[4]: [الرمل]

هل إلى رَدِّ عَشِيَّاتِ الوصالِ   سَبَبٌ أم ذاك مِنْ ضَرْبِ المحالِ

فلما أنشدها إياه أُعجِبَ به وبِحُسْنِ خطّه ونَصاعة ظَرْفه، فأثنى عليه، واستدعاه إلى الوفادة على حضرته، فوفد آخر عام ستة وثمانين، فأثبته في خواصِّ دولته، وأحظاه لديه، إلى أن رقّاه إلى كتابة الإنشاء ببابه. واستمرّتْ حاله معظَّم القَدْر، مخصوصًا بالمزية، إلى أن توفي السلطان ثاني الملوك من بني نَصْر، وتقلّد الملك بعده ولي عهده أبو عبد اللّه، فزاد في إحظائه وتقريبه، وجمع له بين الكتابة والوزارة، ولقبه بذي الوزارتين، وأعطاه العلامة، وقلّده الأمر، فَبَعُدَ الصيتُ وطاب الذكرُ، إلى أن كان من أمره[5] ما كان، انتهى ملخصًا.

وقال في «الإحاطة» بعد كلام طويل في ترجمته[6]: قال شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ولده: وجدت بخطّه رحمه اللّه تعالى رسالة خاطب بها أخاه الأكبر أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أوّلها: [الكامل]

ذكَرَ اللِّوَى شَوْقًا إلى أقمارِهِ   فقَضَى أسًى أو كاد مِنْ تَذْكَارِهِ
وعلا زفِيْرُ حريقِ نارِ ضلوعِهِ   فرمى على وَجَناتِهِ بشَرَارِهِ

وقد ذكرناها في غير هذا المحلّ.

ومن نظمه مما يكتب على قوس[7]: [الكامل]

أنا عُدّةٌ للدين في يَدِ مَنْ غَدا   للّه منتصرًا على أعدائِهِ

---

(1) المراد وقيعة هارون الرشيد بالبرامكة.
(2) في الإحاطة: «في أثر ذلك في شهر جمادى الآخرة من عام ستة وثمانين وستماية».
(3) في الإحاطة: «فتعرّض إليه ومدحه وهنّأه..».
(4) هذا البيت مطلع قصيدة من ثلاثين بيتًا وردت في الجزء الثالث، وأشرنا هناك إلى أنها وردت في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٥٨ـ٤٦٠).
(5) في الإحاطة: «من الأمر ما يأتي به الذكر..».
(6) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦١). وقد تقدم البيتان ضمن قصيدة من ١٤ بيتًا في الجزء الثالث.
(7) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٤).

أحكي الهلالَ وأسهمي في رَجْمها لمن اعتدى تحكي نجوم[1] سمائِهِ
قد جاء في القرآن أني عُدَّةٌ إذ نَصَّ خيرُ الخلق محكمَ آيِهِ
وإذا العدو أصابه سهمي فقد سَبَقَ القضاء بهلكه وفنائِهِ

قال لسان الدين[2]: ومن توقيعه ما نقلته من خطّ ولده، يعني أبا بكر، في كتابه المسمّى بـ «الموارد المستعذبة» وكان بوادي آش الفقيه الطريفي[3]، فكتب إلى خاصة والدي أبي جعفر بن داود، قصيدة على رويّ السين، يتشكّى فيها من[4] مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم بن حسان منها: [البسيط]

فيا صَفِيَّ أبي العباس، كيف ترى وأنت أكيسُ[5] من فيها مِنَ اكْيَاسِ
ولُوه إن كان ممّن ترتضون به فقد دنا الفتحُ للأشراف في فاسِ

ومنها يستطرد ذكر ذي الوزارتين:

للشرق فضلٌ فمنه أشرقتْ شُهُبٌ من نورهم أقْبَسُونا كلَّ مِقباسِ

فوقع عليها رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

إن أفرطَتْ بابن حسان غوائلُهُ فالأمر يكسوه ثوبَ الذكر والباسِ[6]
وإن تَزِلَّ به في جَوْره[7] قَدَمٌ كان الجزاءُ له ضربًا على الراس
فقد أقامنيَ المولى بنعمته لِبَثِّ أحكامه بالعدل في الناسِ

ثم أطال في أمره، إلى أن قال في ترجمة قتله ما صورته[8]: واستولت يد الغوغاء على منازله، شغلهم بها مُدَبِّرُ الفتنة خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره، فضاع بها مال لا

(١) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٠٦): «رجوم».
(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٣) في الإحاطة: «وكان بمدينة وادي آش الفقيه الكذا أبو عبد اللّه محمد بن غالب الطريفي..». وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٠٦): «الطرائفي».
(٤) في الإحاطة: «من جَوْر مشرف..».
(٥) في الإحاطة: «كَيِّسُ».
(٦) في الإحاطة: «ثوب الذلّ والياسِ».
(٧) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٠٦): «جَوْرَة».
(٨) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٧٤).

يُكتب، وعُرُوضٌ لا يُعْلَمُ لها قيمة من الكُتُب والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخُرْثيّ، وأُخْفِرَتْ[1] ذمّته، وتعدى به عدوّه القتل إلى المُثْلَة[2]، وقانا اللّه مصارع السوء، فَطِيف بِشِلوه، وانْتُهب، فضاع، ولم يُقْبَرْ، وجرت فيه شناعة كبيرة، رحمه اللّه تعالى! انتهى المقصود منه.

رجع:

٢٤ـ ومن مشايخ لسان الدين الأستاذ أبو الحسن علي القيجاطي[3].

وقال في حقه في «الإحاطة» ما محصّله[4]: علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد اللّه الكناني، القيجاطي، أبو الحسن، أوحد زمانه علمًا وتخلّقًا وتواضعًا وتفننًا. ورد على غرناطة مستدعًى عام أثني عشر وسبعمائة، وقعد بمسجدها الأعظم يُقْرِىء فنونًا من العلم من قراءات وفِقْه وعربية وأدب. وولّي[5] الخطابة، وناب عن بعض القضاة بالحضرة، مشكور المأخذ، حسن السِّيرة، عظيم النفع، وقصده الناس وأخذوا[6] عنه. وكان أديبًا لَوْذَعِيًا، فَكِهًا حُلْوًا، وهو أول أستاذ قرأتُ عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة المكتب. وله تآليف[7] في فنون وشعر ونثر، فمن شعره قوله[8]: [الكامل]

روضُ المشيبِ تفتّحتْ أزهارُهُ حتى استبان ثُغامُهُ[9] وبَهَارُهُ
ودُجَى الشباب قد استبان صباحُهُ وظلامه قد لاحَ فيه نهارُهُ
فأتى حَمامٌ لا يُعافُ وقوعُهُ ومضى غرابٌ[10] لا يخافُ مطارُهُ
والعُمْرُ مثلُ البدر يبدو[11] حسنه حينًا ويُعقب بعد ذاك سَرارُهُ

---

(١) أُخْفِرَتْ ذمّتُه: نقضت عهوده ولم تحفظ حرمته. لسان العرب (خفر).
(٢) المُثْلَةُ: التمثيل بالقتل. لسان العرب (مثل).
(٣) هو أبو الحسن علي بن عمر بن حسين القيجاطي، وترجمته في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٠٤) والكتيبة الكامنة (ص ٣٧) وبغية الوعاة (ص ٣٤٤) والديباج المذهب (ص ٢٠٧).
(٤) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٠٤ ـ ١٠٧).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٥٥): «ولي».
(٦) في الإحاطة: «وأخذ عنه البعيد والقريب..».
(٧) في الإحاطة (ص ١٠٥): «وله تواليف».
(٨) القصيدة أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ٣٨ ـ ٤٠).
(٩) الثَّغام، بالفتح: نبات أبيض الزهر والثمر، واحدته ثغامة. لسان العرب (ثغم).
(١٠) في الإحاطة: «غروب».
(١١) في الإحاطة: «يُرمق». وفي الكتيبة الكامنة: «يونق».

مـا لـلإخـاء تَـقَـلَّـصَـتْ أفـيـاؤه	مـا لـلـصَّـفـاءِ تـكـدَّرتْ آثـاره
والـحرُّ يـصفحُ إن تـمكَّنَ جاهُـهُ	وتـراه يـنـفـعُ[1] إن عـلا مـقـدارُهُ
ولأنـت تعـلـم أنـنـي زَمَنَ الـصِّـبا	مـا زلـتُ زنـدًا والـحـيـاءُ سِـوارُهُ
ولأنـت تعـلـم أنـنـي زمن الـصِّـبا	ما زلتُ مِمَّنْ عفٌّ فيه إزارُهُ [2]
والـهجرُ مـا بين الأحبّة لم يزلْ	تـركُ الـكـلام أو الـسـلامِ مَـثَـارُهُ
ولـكم تجافى عن جفاءِ[3] خليلِهِ	فَـطِـنٌ، وقـد ظـفـرتْ بـه أظـفـارُهُ
ولـكـم أصَـرَّ عـلى الـتدابرِ مُـدْبِـرٌ	أفـضـى إلـى نَـدَمٍ بـه إصـرارُهُ
فـأقـام كـالـكُـسَـعِـيِّ بـانَ نـهـارُهُ	أو كـالـفـرزدق فـارقـتْـهُ نَـوَارُهُ [4]
أنـكـرتـمُ مـن حَـقٍّ مـعـترفٍ لـكـم	بـالـحـقِّ مـا لا يـنـبـغـي إنـكـارُهُ
والـشَّـرْعُ قـد مـنـع الـتـقـاطعَ نَـصُّـه	قـطـعًـا، وقـد وردت بـه[5] أخـبـارُهُ
والـسُّـنَّـنُ سِـنٌّ تـورُّعٍ وتـبـرّعٍ	وتـسـرّعٍ لـتـشـرّعٍ[6] تـخـتـارُهُ
مـا يـومُـنـا مـن أمـسـنـا مـتـداركٌ	ذهـب الشَّـبابُ فكيفَ يبقى عارُهُ[7]
هَـلاَّ حـظـرتـمْ أو حـذرتـمْ مـنـه مـا	حَـقٌّ[8] عـلـيـكـم حَـظْـرُهُ وحِـذارُهُ
عـجـبًـا لـمـن يـجـري هـواه لـغـايـةٍ	مـحـدودةٍ إضـمـاره مـضـمـارُهُ
يـأتـي ضُـحًـى مـا كـان يـأتـيـه دُجًـى	فـكـأنـه مـا شـاب مـنـه عِـذارُهُ
فـيـعـدُّ مـا تـفـنـى بـه حـسـنـاتُـهُ	ويـعـيـدُ مـا تـبـقـى بـه أوزارُهُ

---

(١) في الإحاطة: «يرفع».

(٢) لم يرد هذا البيت في الإحاطة. وفي الكتيبة: «ممن طاب فيك إزاره».

(٣) في الإحاطة: «عن خفاء...».

(٤) الكُسَعيّ: مضرب المثل في الندم، وقد ورد في شعر الفرزدق عندما ندم على طلاق زوجته النوار، وهي نوار ابنة أعين بن ضبيعة بن عقال المجاشعي، وهي ابنة عم الفرزدق: [الكامل]

نَدِمْتُ ندامةَ الكُسَعيّ لمّا	غَـدَتْ مـنـي مُـطـلـقـةً نَـوارُ
وكانت جنتي فخرجتُ منها	كـآدم حـيـن أخـرجـه الـضـرارُ

وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٩٩- ١٠٠). وهما ليسا في ديوان الفرزدق.

(٥) في الكتيبة الكامنة: «بذا».

(٦) في الإحاطة: «التشرُّح».

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٠٨): «من أمسنا قَذْكَ اتَّئِذْ... يُنْفَى عاره». وفي الإحاطة: «من أمسنا قطك اتبت...». وفي الكتيبة: «من أمسنا قَذْكَ اتّئد...».

(٨) في الكتيبة: «فرضٌ عليكم...».

فالنفسُ قد أَجْرَتْهُ مِلْءَ عنانها ... يشتدُّ في مضمارها إحضارُهُ[1]
والمرء من إخوانه في جُنَّةٍ[2] ... بل جَنَّةٍ تجري بها أنهارُهُ
واليُمْنُ[3] قد مُدَّتْ إليه يمينُهُ ... واليُسْرُ قد شُدَّتْ عليه يسارُهُ
شِعْرٌ به أَشْعَرْتُ بالنصح الذي ... يهْديه[4] من أشعاره إشعارُهُ
ولو اختبرتمْ نقده بمحكّةٍ[5] ... لامتاز بَهْرَجُهُ ولاح نُضارُهُ
هذا هدًى فبه اقْتَدِهْ تَنَلِ المنى ... أو أنت في هذا وما تختارُهُ
وعليكمُ مني سلامٌ مثل ما ... أرِجَتْ بروضٍ يانعٍ أزهارُهُ

وقال من قصيدة رثائية [6] : [الطويل]

حَمَامُ حِمَامٍ فوق أيك الأسى تشدو ... تهيجُ من الأشجان ما أوجدَ الوَجْدُ
وذلك شجوٌ في حناجرنا شَجًى ... وذلك هزلٌ[7] في ضمائرنا جِدُّ
أرى أَرْجُلَ الأرزاءِ تشتدُّ نحونا ... وأيديَها تسعى إلينا فتمتدُّ
ونحن أُولو سَهْوٍ عن الأمر ما لنا ... سوى أملٍ إيجَابُنا عنده جَحْدُ
فإن خطرتْ للمرء ذكرى بخاطرٍ ... فتسبيحةُ الساهي إذا سُمِعَ الرعدُ[8]
مُصابٌ به قُدَّتْ قلوبٌ وأنفسٌ ... لدينا إذا في غيره قُطِعَتْ بُرْدُ
تلين له الصُّمُّ الصِّلابُ وتَنْهَمي ... عيونٌ ويبكي عنده الحَجَرُ الصَّلْدُ
فلا مُقْلَةٌ ترنو ولا أُذُنٌ تَعي ... ولا راحةٌ تعطو ولا قَدَمٌ تَغْدو
وقد كان يبدو الصبرُ منّا تجلُّدًا ... وهذا مصابٌ صَبْرُنا فيه ما يبدو[9]

---

(١) في الكتيبة: «في إحضارها إحضاره». والإحضار: الجري السريع. لسان العرب (حضر).
(٢) الجُنَّة، بضم الجيم: الدرع. لسان العرب (جنن).
(٣) في الإحاطة والكتيبة: «فاليمن».
(٤) في الكتيبة: «يُبْديه».
(٥) في الإحاطة والكتيبة: «بمحكّه».
(٦) الإحاطة (ج ٤ ص ١٠٧) والكتيبة الكامنة (ص ٣٨).
(٧) في الإحاطة والكتيبة: «لَهْوٌ في..».
(٨) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٥٧) والإحاطة: «فتسبيحه الساهي..». وفي الكتيبة: «فإن خطرتْ.. فتسبيحة..».
(٩) في الإحاطة والكتيبة: «لا يبدو».

مولده عام خمسين وستمائة، وتوفي بغرناطة ضحى السبت في السابع والعشرين[1] لذي حجة عام ثلاثين وسبعمائة، وحضره السلطان فمن دونه، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

٢٥ـ ومنهم العلامة شيخ الشيوخ أبو سعيد فرج بن لب[2].

قال في «الإحاطة» في حقّه ما محصّله[3]: فرج بن قاسم بن أحمد بن لب، قال ابن الصباغ: من شعر ابن لب يمدح رسول اللّه ﷺ: [المتقارب]

إذا القلبُ ثار أثار ادِّكَارَا ... لقلبي فأذكى عليه أُوارا
ترومُ جفوني لنار الهوى ... خمودًا فتهمي دموعًا غزارا
فماءُ جفوني تسحُّ انهمالاً ... ونار فؤادي تهيجُ استعارا
أُطيلُ العويلَ صباحًا مساء ... كئيبًا، ولستُ أطِيق اصطبارا
رقيتُ مراقيَ للحب شتَّى ... فأفنى مرارًا وأحيا مرارا
أحنُّ اشتياقًا لريحٍ سَرَتْ ... وأُبدي هيامًا لبرقٍ أنارا
حنينًا وشوقًا إلى مَعْلَم ... حوى شرفًا خالدًا لا يجارى
به أسكنَ اللّه أسمى الورى ... نبيًا كريمًا وصحبًا خيارا
هو المصطفى المنتقى المجتَبَى ... أرى معجزاتٍ وآيًا كبارا
يحقُّ علينا ركوبُ البحارِ ... وَجَوْبُ القفارِ إليه ابتدارا

ومنها:

فيا فوزَ مَنْ فاز في طَيْبَةٍ ... بلثم المغاني جدارًا جدارا
وألصقَ خدًّا على تربها ... وأكمَلَ حَجًّا بها واعتمارا
وأهدى السلام لخير الأنام ... على حينَ وافى عليه مزارا
فيا هاديَ الخلقِ دارَ نعيم ... تناهتْ جمالاً وطابتْ قَرَارا
لأنت الوسيلة والمرتَجَى ... ليوم يُرَى الناسُ فيه سكارى[4]

---

(١) في الإحاطة: «التاسع والعشرين..».
(٢) ترجمة فرج بن لب في الإحاطة (ج ٤ ص ٢٥٣) والكتيبة الكامنة (ص ٦٧) وبغية الوعاة (ص ٣٧٢).
(٣) الإحاطة (ج ٤ ص ٢٥٣) والقصيدة الرائية لم ترد في الإحاطة.
(٤) يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿وتَرَى الناسَ سُكارَى وما هُم بسكارى، ولكنَّ عذابَ اللّهِ شديدٌ﴾. سورة الحج ٢٢، الآية ٢.

وما هم سكارى، ولكنهم دهتهم دواهٍ فَهَامُوا حيارى
ترى المرءَ للهول من أمّه ومن أقربيهِ يُطيل الفرارا
وكلٌّ يخافُ على نفسه فيكسوه خوفُ الإله انكسارا
فصلّى الإله رسولَ الهدى عليك، وأبقى هداك منارا
وقَدَّسَ رَبِّي ثرى روضةٍ يعمُّ الجهاتِ سناها انتشارا
أعير شذا المسك منها الثرى بك المسكُ منه شذاه استعارا
هنيئًا لمن بهداك اهتدى ومغناك وافى، وإياك زارا

وقصد رحمه اللّه تعالى بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التي نظمها بالحجاز في طريق المدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام، وهي طويلة، ومطلعها: [المتقارب]

وَصَلْنَا السُّرَى وهجرنا الديارا وجئناك نطوي إليك القِفَارا

وقد تبارى الشعراء في هذا الوزن وهذا الروي، ومنه القصيدة المشهورة:

أقول وآنست بالحيِّ نارا

ولابن لب رحمه اللّه تعالى الفتاوى المشهورة.

وقال في «الإحاطة» في حقه ما محصله[1]: فرج بن قاسم بن أحمد بن لب، التغلبي، غرناطي، أبو سعيد، من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن الخُلق، رأس بنفسه، وبرز بمزية إدراكه وحفظه، فأصبح حامل لواء التحصيل وعليه[2] مدار الشّورى، وإليه مرجع الفتوى، لقيامه على الفقه، وغزارة علمه وحفظه، إلى المعرفة بالعربية واللغة، ومعرفة التوثيق، والقيام على القراءات، والتبريز في التفسير، والمشاركة في الأصلين والفرائض والأدب، وجودة الحفظ، وأقرأ بالمدرسة النّصْرية في الثامن والعشرين لرجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة، معظَّمًا عند الخاصّة والعامّة، مقرونًا اسمه بالتسويد، قعد للتدريس ببلده على وفور الشيوخ، وولي الخطابة بالجامع[3]. قرأ على القيجاطي،

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ٢٥٣ . ٢٥٥).
(٢) في الإحاطة: «عليه بدار الشُّورى».
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٥٩): «بالجامع معظمًا عند الخاصة والعامة. قرأ. .».

والعربية على ابن الفخار، وأخذ عن ابن جابر الوادي آشي، فمن شعره في النسب[(١)]:

[الطويل]

خذوا للهوى من قلبيَ اليوم ما أبقَى ... فما زال قلبي كلّه للهوى رِقًّا[(٢)]
دعوا القلبَ يَصْلَى في لظى الوجد نارهُ ... فنارُ الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقى[(٣)]
سَلُوا اليومَ أهلَ الوجدِ ماذا به لَقُوا ... فكلُّ الذي يلقون بعضُ الذي ألقى
فإن كان عبدٌ يسأل العتقَ سيدًا[(٤)] ... فلا أبتغي من مالكي في الهوى عِتْقا
بدعوى الهوى يدعو أناسٌ وكلّهمْ ... إذا سُئلوا طُرْقَ الهوى جَهِلُوا الطُّرْقا
فَطُرْقُ الهوى شتّى ولكنَّ أهلَهُ ... يحوزون في يوم السِّباق بها السبقا[(٥)]
وكم جمعت طُرْقُ الهوى بين أهلها ... وكم أظهرت عند السُّرَى بينهم فَرْقَا[(٦)]
بسيما الهوى تسمو معارفُ أهله ... فحيث ترى سِيْما الهوى فاعْرِفِ الصدقا [(٧)]
فمن زَفْرةٍ تُزْجي سحائبَ عبرةٍ ... إذا زفرةٌ تَرْقَى فلا عبرةٌ ترْقا [(٨)]
إذا سكتوا عن وجدهمْ أعربت به [(٩)] ... بواطنُ أحوالٍ وما عرفتْ نطقا

وقال في وداع شهر رمضان[(١٠)]: [الطويل]

أأزمعتَ يا شهرَ الصيامِ رحيلا ... وقارنْتَ يا بدرَ الزمانِ أُفُولا
أجِدَّكَ قد جَدَّتْ بك الآنَ رحلةٌ ... رُوَيْدَكَ أمسكْ للوداع قليلا
نزلتَ فأزمعتَ الرحيلَ كأنما [(١١)] ... نويتَ رحيلاً إذ نويت نزولا

---

(١) القصيدة أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ٦٨ - ٦٩).
(٢) في الإحاطة: «قلبي للهوى كلّه رقًا». والرِّقّ: العبد. لسان العرب (رقق).
(٣) يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿لا يصلاها إلاّ الأشْقَى﴾. سورة الليل ٩٢، الآية ١٥.
(٤) في الإحاطة والكتيبة: «مالكًا».
(٥) في الإحاطة: «يجوزون في يوم الرهان..».
(٦) في الإحاطة: «أفكم جمعتِ.. بين أهله.. عند السُّرى بينهم فَرْقا». وفي الكتيبة: «فكم جمعت.. عند السُّرى..».
(٧) السيما: العلامة، وفي القرآن الكريم: ﴿سِيماهُمْ في وُجُوهِهِمْ﴾. سورة الفتح ٤٨، الآية ٢٩.
(٨) في الإحاطة: «سحائب زفرة». وفي الكتيبة: «فلا عبرة تبقى». وترقى: تصعد. ترقا: أصلها ترقأ، أي تسكن. لسان العرب (رقا) و (رقأ).
(٩) في الإحاطة والكتيبة: «بهم».
(١٠) الإحاطة (جـ ٤ ص ٢٥٥).
(١١) في الإحاطة: «كلما».

وما ذاك إلاَّ أنَّ أهلك قد مَضَوْا تفانَوْا فأبصرتَ الديارَ طلولا
تفكرتَ[1] في الأوقات ناشئةَ التُّقى أشدُّ به وَطْأً وأقومَ قيلا

وهي طويلة[2].

وكان موجودًا عند تأليف «الإحاطة» رحمه اللّه تعالى! انتهى بالمعنى.

وقال الحافظ ابن حجر: إنه صنّف كتابًا في الباء الموحدة، وأخذ عنه شيخنا بالإجازة قاسم بن علي المالقي، ومات سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، انتهى.

وقال تلميذه المنتوري ما نصّه: من شيوخي الشيخ الأستاذ الخطيب المقرىء المتفنن المفتي أبو سعيد بن لب، مولده سنة إحدى وسبعمائة، وتوفي ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من ذي الحجة عام اثنين وثمانين، انتهى.

وهو مخالف لما سبق عن ابن حجر، لكن صاحبُ البيت أدرى، إذ المنتوري تلميذه، ونحوه للشيخ أبي زكريا السراج في فهرسته، إذ قال: شيخنا الفقيه الخطيب الأستاذ المقرىء العالم العَلَم الصدر الأوحد الشهير، كان شيخ الشيوخ وأستاذ الأساتذة[3] بالأندلس، إليه انتهت فيها رياسة الفتوى في العلوم، كان أهل زمانه يَقِفُون عندما يشير إليه، قرأ على أبي علي القيجاطي بالسبع، وتفقّه عليه كثيرًا في أنواع العلوم، ولازمه إلى أن مات، وأجازه عامة، وعليه اعتمد، وأخذ عن أبي جعفر بن الزيات، وأبي إسحاق بن أبي العاصي، وابن جابر الوادي آشي، وقاضي الجماعة أبي بكر، سمع عليه البخاري، وتفقّه عليه، وقرأ عليه أكثر عقيدة المقترح تفهمًا، وبعض «الإرشاد» وبعض «التهذيب»، وعن أبي محمد بن سلمون، والبركة أبي عبد اللّه الطنجالي الهاشمي، وأجازهُ، انتهى بمعناه.

وبالجملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال الموّاق فيه: شيخ الشيوخ أبو سعيد بن لب، الذي نحن على فتاويه في الحلال والحرام، انتهى.

وقَلَّ من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته، فممن أخذ عنه الشاطبي، وابن علاف[4]، وأبو محمد بن جُزَي، والأستاذ القيجاطي، والأستاذ الحفار، والشيخ الوزير ابن

---

(١) في الإحاطة: «لقد كنت في الأوقات».

(٢) ورد منها في الإحاطة أربعة عشر بيتًا.

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥١٣): «الأستاذين».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥١٣): «وابن علاق» بالقاف.

الخطيب السلماني، والكاتب ابن زَمْرَك، في خلق كثير من طبقتهم، ثم من الطبقة الثانية أبو يحيىٰ بن عاصم، وأخوه القاضي أبو بكر بن عاصم، والشيخ أبو القاسم بن سراج، والمنتوري، في خلق لا يُحْصَوْنَ.

وله تواليف، فمنها شرح جُمَل الزجاجي، وشرح تصريف التسهيل، وكتاب «ينبوع عين الثرة، في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة»، وله فتاوى مدوّنة بأيدي الناس، وممّن جمعها الشيخ ابن تركاط[1] الأندلسي، وله كتابة في مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيئة المعروفة، وقد ردّ عليه في هذا التأليف تلميذُه أبو يحيىٰ بن عاصم الشهيد في تأليف نبيل انتصارًا لشيخه أبي إسحاق الشاطبي، رحم الله تعالى الجميع!

٢٦ـ ومن أشياخ لسان الدين بن الخطيب أبو القاسم بن جُزَي[2]؛ ففي «الإحاطة» ما ملخصه[3]: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَي، الكلبي، أبو القاسم، من أهل غَرْنَاطة، وذوي الأصالة والنباهة فيها، شيخُنا، وأصل سلفه من ولبة من حصن البراجلة، نزل بها أوّلهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وعند خلع دولة المرابطين كان لجدّهم يحيىٰ رياسة وانفراد بالتدبير، وكان رحمه الله تعالى على طريقة مُثْلىٰ من العُكوف على العلم، والاقتصار على الاقتيات من حُرِّ النشب[4]، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيهًا، حافظًا، قائمًا على التدريس، مشاركًا في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حُفَظَة للتفسير، مستوعبًا للأقوال، جمّاعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغَوْر، صحيح الباطن، تقدّم خطيبًا بالمسجد الأعظم من بلده على حَدَاثة سنّه، فاتّفق على فضله، وجرى على سَنن أصالته. قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن جعفر بن الزبير العربية والفقه والحديث والقرآن، وعلى ابن الكماد، ولازم الخطيب أبا عبد الله بن رشيد وطبقتهم كالحضرمي وابن أبي الأحوص وابن برطال وأبي عامر بن ربيع الأشعري والولي أبي عبد الله الطنجالي وابن الشاط.

---

(١) في الطبعة نفسها (ص ٥١٤): «ابن طركاط».

(٢) ترجمة أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن جزي في الكتيبة الكامنة (ص ٤٦) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٤) والديباج المذهب (ص ٢٩٥).

(٣) لم ترد هذه الترجمة في الإحاطة.

(٤) النَّشَبُ، بالفتح: المال، وحُرُّ النشب: خالص المال. لسان العرب (نشب).

وله تواليف منها «وسيلة المسلم، في تهذيب صحيح مسلم» و «الأنوار السنية، في الكلمات السُّنِّيّة» و «الدعوات والأذكار، المخرجة من صحيح الأخبار» و «القوانين الفقهية، في تلخيص مذهب المالكية» و «التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية» وكتاب «تقريب الوصول، إلى علم الأصول» وكتاب «النور المبين، في قواعد عقائد الدين» وكتاب «المختصر البارع، في قراءة نافع» وكتاب «أصول القراء الستة غير نافع» وكتاب «الفوائد العامة، في لحن العامة» إلى غير ذلك مما قيّده في التفسير والقراءات وغير ذلك، وله فهرسة كبيرة اشتهرت[1] واشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب.

وله شعر[2]، فمن شعره قولُه في الأبيات الغينية ذاهبًا مذهب المعري وابن المظفر والسلفي وأبي الحجاج بن الشيخ وأبي الربيع بن سالم وابن أبي الأحوص وغيرهم[3]: [الطويل]

لكلِّ بني الدنيا مُرَادٌ ومَقْصدٌ ... وإنّ مرادي صحةٌ وفراغُ
لأبلغَ من علم الشريعة مبلغًا ... يكونُ به لي للجَنَان بَلاَغ[4]
ففي مثل هذا فلينافسْ أُولو النُّهى ... وحسبيَ من دارِ الغرورِ بَلاَغُ[5]
فما الفوزُ إلاّ في نعيمٍ مؤبدٍ ... به العيشُ رَغْدٌ والشرابُ يُسَاغُ

وقال[6]: [الطويل]

أرومُ امتداحَ المصطفى فيردّني[7] ... قصوريَ عن إدراك تلك المناقبِ
ومن لي بحصرِ البحرِ والبحرُ زاخرٌ ... ومن لي بإحصاء الحصى والكواكبِ
ولو أنّ أعضائي غَدَتْ ألسُنًا إذًا ... لما بلغتُ في المدح بعض مآربي[8]

---

(١) كلمة «اشتهرت» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥١٥).
(٢) في طبعة دار صادر: «ومن شعره قوله...».
(٣) في الطبعة نفسها: «وغيرهم من علماء المشرق والمغرب».
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥١٥): «في علم الشريعة». والجَنان، بالفتح: القلب. والبلاغ: الكفاية. لسان العرب (جنن) و (بلغ).
(٥) البلاغ: الإيصال والتبليغ. لسان العرب (بلغ).
(٦) الكتيبة الكامنة (ص ٤٨) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٦) والديباج المذهب (ص ٢٩٦).
(٧) في الكتيبة: «فيصدّني».
(٨) في أزهار الرياض: «غَدَتْ وهي ألسن لما بلغت في القول..».

ولو أنَّ كلَّ العالمين تسابقوا[1] إلى مدحه لم يبلغوا بعضَ واجب
فأمسكتُ عنه هيبةً وتأدّبًا وعجزًا وإعظامًا لأرفعِ جانبِ[2]
وَرُبَّ سكوتٍ كان فيه بلاغةٌ ورُبَّ كلامٍ فيه عَتْبٌ لعاتبِ

وقال[3]: [البسيط]

يا ربِّ إنّ ذنوبي اليوم قد كثرتْ[4] فما أُطيقُ لها حَصْرًا ولا عَدَدا
وليس لي بعذابِ النارِ من قِبَلِ ولا أُطيقُ لها صبرًا ولا جَلَدا
فانظرْ إلهي إلى ضعفي ومسكنتي ولا تذيقَنّني حَرَّ الجحيم غَدا

وقال[5]: [الوافر]

وكم من صفحةٍ كالشمس تبدو فيسلي[6] حسنُها قلبَ الحزينِ
غضَتُ الطرفَ عن نظري إليها محافظةً على عِرْضي وديني[7]

مولده يوم الخامس تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وستمائة، وفقد وهو يحرّض الناس يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة، وعقبُه ظاهر بين القضاء والكتابة، انتهى.

وأذكرني روي الغين الصعب قولَ الشيخ أبي عبد اللّه محمد بن علي بن يوسف السكوني الأندلسي المعروف بابن لؤلؤة رحمه اللّه ورضي عنه: [الطويل]

أمِن بَعْدِ ما لاحَ المشيبُ بمفرقي أميلُ لزورٍ بالغرورِ يُصاغُ
وأرتاحُ للذّاتِ والشيبُ منذرٌ بما ليس عنه للأنام مراغُ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥١٥): «تألفوا على مدحه..».
(٢) في الكتيبة الكامنة: «فأسكت عنه.. وخوفًا وإعظامًا..». وفي أزهار الرياض: «فأقصرت عنه.. لأعظمِ جانبِ».
(٣) الكتيبة الكامنة (ص ٤٧ ـ ٤٨) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٧) والديباج المذهب (ص ٢٩٦).
(٤) في الكتيبة: «قد عظمت».
(٥) الكتيبة الكامنة (ص ٤٧) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٦).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٦٣): «فيسبي». وفي الكتيبة: «يُسَلِّي».
(٧) في الكتيبة: «عن نظرٍ إليها.. على علمي وديني».

ومن لم يمتْ قبل المماتِ فإنه يُـرَاعُ بـهَـوْلٍ بـعـده ويـراغُ[1]
فيا ربِّ وفقني إلى ما يكونُ لي بـه لـلـذي أرجـوكَ مـنـه بـلاغُ

توفي المذكور بالطاعون سنة ٧٥٠، وكان خطيبًا بحصن قمارش رحمه اللّه تعالى.

ومن نظم ابن جُزَي المذكور قولُه: [الطويل]

أيا مـن كـفـفـتُ الـنـفـس عـنـه تـعـفّـفًا وفي النفس من شوقي إليه لهيبُ (غرامُ)
ألاَ إنـمـا صـبـري كـصـبـر، وإنـمـا على النفس من تقوى الإله رقيبُ (لجامُ)

وهما من التخيير المعلوم في فن البديع.

وقول لسان الدين رحمه اللّه تعالى: «وله عقب ظاهر بين القضاء والكتابة» يريد به بنيه البارع أبا بكر والعلامة أبا عبد اللّه والقاضي أبا محمد عبد اللّه.

ولنذكرهم فنقول: أما أبو بكر أحمد[2] فهو الذي ألف أو أبوه «الأنوار السنية» وهو من أهل الفضل والنزاهة وحسن السَّمْت والهمّة واستقامة الطريقة، غرب في الوقار، ومال إلى الانقباض، وله مشاركة حسنة في فنون من فقه وعربية وأدب وخطّ ورواية وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة، وقرأ على والده ولازمه، واستظهر ببعض تآليفه، وتفقّه وتأدّب به، وقرأ على بعض معاصري أبيه، ثم ارتسم في الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبي الحجاج بن نصر، وولي القضاء ببرجة وبأندرش ثم بوادي آش، مشكور السيرة، معروف النزاهة.

ومن شعره[3]: [الطويل]

أرى الناسَ يُولُونَ الغنيَّ كرامةً وإن لم يكنْ أهلاً لرفعةِ مِقْدارِ

---

(١) لم يمت قبل الممات: أي لم يمت شهواته ولذائذه قبل أن يحلّ به الموت. يراغ: يطلب. لسان العرب (راغ).
(٢) ترجمة أبي بكر أحمد بن محمد بن جزي في الإحاطة (جـ ١ ص ١٥٧) والكتيبة الكامنة (ص ١٣٨) وفيه أنه أبو جعفر، وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٧).
(٣) الإحاطة (جـ ١ ص ١٥٩) والكتيبة الكامنة (ص ١٤٣) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٨).

ويلوون عن وجه الفقير وجوههمْ وإنْ كان أهلاً أن يُلاقى بإكبار
بَنُو الدهرِ جاءتهم أحاديثُ جَمَّةٌ فما صحّحوا إلاَّ حديث ابن دينار[1]

ومن بديع نظمه الصادر عنه تصديره أعجاز قصيدة امرىء القيس بن حجر الكندي بقوله[2]: [الطويل]

أقول لعزمي[3] أو لصالح أعمالي (ألاَ عِمْ صباحًا أيها الطللُ البالي)
أمَا واعظي شَيْبٌ سما فوق لِمّتي (سُمُوَّ حَبَابِ الماءِ حالاً على حال)
أنار به ليلُ الشبابِ كأنه (مصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفّال)
نهانيَ عن غيّ وقال مُنَبِّهًا (ألستَ ترى السُّمّار والناسَ أحوالي)
يقولون غَيِّرْهُ لتنعمَ برهةً (وهل يَعِمَنْ من كان في العصر الخالي)[4]
أغالطُ[5] دهري وهو يعلمُ أنني (كبرتُ وأن لا يُحْسِنُ اللهوَ أمثالي)
ومؤنسُ نارِ الشيبِ يَقْبحُ لَهْوه (بآنسةٍ كأنها خطُّ تِمْثال)[6]
أشيخًا وتأتي فعلَ من كان عُمْره (ثلاثين شهرًا في ثلاثة أحوال)
وتَشْغَفُكَ الدنيا وما إن شغفتها (كما شَغَفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالي)
ألاَ إنها الدنيا إذا ما اعتبرتها (ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذي خال)
فأين الذين استأثروا قَبْلَنا بها (لَناموا فما إنْ من حديثٍ ولا صال)
ذهلتُ بها غيًا[7] فكيف الخلاصُ من (لَعُوبٍ تنسِّيني إذا قمتُ سِرْبالي)
وقد عَلِمَتْ مني مواعدَ توبتي (بأنَّ الفتى يهذي وليس بفعّال)
ومُذْ وَثِقَتْ نفسي بحبِّ محمدٍ (هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شماريخَ[8] ميّالِ)

---

(١) المراد حبّ الناس للمال.
(٢) الإحاطة (جـ ١ ص ١٥٩ ـ ١٦٢) والكتيبة الكامنة (ص ١٣٩ ـ ١٤٢) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٢).
(٣) في الإحاطة: «لحزمي».
(٤) في الإحاطة: «يَعْمِنُ به من..». وعَمِنَ بالمكان: أقام به. لسان العرب (عمن).
(٥) في الكتيبة: «أخالط».
(٦) أراد كأنها تمثال من العاج.
(٧) في الكتيبة: «بها عنّا».
(٨) الشماريخ: جمع شمروخ وهو العنقود. لسان العرب (شمرخ).

وأصبح شيطانُ الغَوَاية خاسئًا (عليه قَتَام[1] سَيِّئُ الظنِّ والبالِ)
ألا ليت شِعْري هل تقولُ عزائمي (لخيليَ كُرِّي كرةً بعد إجفالِ)[2]
فأنزلَ دارًا للرسول[3] نزيلُها (قليلُ هُمُوم ما يَبيتُ بأوجالِ)
فَطُوبَى لنفسٍ جاوَرَتْ خيرَ مُرْسَلٍ (بيثربَ أدنى دارِها نظرٌ عالي)
ومِنْ[4] ذكره عند القبول تَعَطَّرَتْ (صَبًا وشمالٌ في منازل قُفّال)
جِوارُ رسولِ اللّه مجدٌ مؤثَّلٌ (وقد يُدْرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي)
ومن[5] ذا الذي يثني عِنان السُّرى وقد (كفاني، ولم أطلبْ، قليلٌ من المال)
ألم تَرَ أنَّ الظبيةَ استشفعتْ به (تميلُ عليه هَوْنَةً غيرَ مِجْفال)
وقال لها عودي فقالت له نعم (ولو قطّعوا رأسي لَدَيْكَ وأوصالي)
فعادتْ إليه والهوى قائلٌ لها (وكان عداءُ الوحشِ مني على بالي)
رثى[6] لبعيرٍ قال أزْمَعَ مالكي (ليقتلني والمرءُ ليس بفعّال)
وثَوْرٍ ذبيحٍ بالرسالة شاهدٍ (طويلِ القَرَا[7] والرَّوْقِ أخنسَ ذيّال)
وحنَّ إليه الجِذْعُ حَنّةَ عاطِشٍ (لِغَيْثٍ من الوسميِّ رائدُهُ خال)
وأَصْلَيْنِ من نخلٍ قد الْتَأَمَا له (فما[8] احْتَبَسا من لين مسّ وتَسْهال)
وقبة[9] تربٍ منه ذلّت لها الظُّبَا (ومسنونةٍ زُرْقٍ كأنيابِ أغوال)
وأضحى ابن جحش بالعسيبِ مقاتلاً (وليس بذي رمحٍ وليس بنبّال)
وحسبك من سوطِ الطُّفَيْلِ إضاءةً (كمصباح زيتٍ في قناديل ذبّال)
وبذّت[10] به العجفاءُ كلَّ مطهّمٍ (له حجباتٌ مشرفات على الفال)

---

(١) في ديوان امرىء القيس (ص ٣٢) والكتيبة الكامنة: «القتام».
(٢) هكذا في ديوان امرىء القيس، وفي الكتيبة: «بعد إقبال».
(٣) في الإحاطة والكتيبة: «للنبيّ».
(٤) في الكتيبة: «فمن».
(٥) في الكتيبة: «وماذا الذي».
(٦) في الكتيبة: «وما لبعيرٍ..».
(٧) هكذا في الديوان، وفي الكتيبة: «طويل القوى».
(٨) في الديوان والكتيبة: «بما احتبسا».
(٩) في الإحاطة والكتيبة: «وقبضة تربٍ..».
(١٠) في الكتيبة: «وبزّت».

ويا خسفَ أرضٍ تحت باغيه إذ علا (على هيكلٍ نهدِ الجُزارة جَوّالِ)
وقد أُخمِدَتْ نارٌ لفارسَ طالما (أصابتْ غَضًى جَزْلاً وكُفَّتْ بأجذالِ)[1]
أبانَ سبيلَ الرُّشْد إذ سُبُلُ الهُدَى (يَقُلْنَ لأهل الحلم ضُلاً بتضلال)
لأحمدَ خيرِ العالمين انتقيتُها (وريضَتْ فذلَّتْ صَعْبَةٌ أيَّ إذلال)
وإنّ رجائي أن أُلاقِيَهُ غدًا (ولستُ بمقليّ الخِلالِ ولا قالي)
فأدركُ آمالي وما كلُّ آملٍ (بِمُدْرِكِ أطرافِ الخُطُوب ولا آلي)[2]

ولا خفاء ببراعة هذا النظم، وإحكام هذا النسج، وشدّة هذه العارضة.

قلت: وقد أذكرني هذا التصدير قصيدة الأديب حازم صاحب المقصورة، إذ صدّر قصيدة امرىء القيس «قفا نبك» ولنذكرها هنا، قال رحمه اللّه تعالى[3]: [الطويل]

لعينيك قُلْ إن زرتَ أفضلَ مُرْسَلِ (قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ)
وفي طَيْبَةٍ فانزلْ ولا تَغْشَ منزلاً (بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحومل)
وزُرْ روضةً قد طالما طابَ نَشْرُها (لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشمأل)
وأثوابَكَ اخلعْ مُحْرِمًا ومصدِّقًا (لدى السترِ إلاَّ لبسةَ المتفضل)
لدى كعبةٍ قد فاض دمعي لِبُعْدِها (على النحرِ حتى بلَّ دمعيَ محملي)
فيا حادي الآبال سِرْ بي ولا تقلْ (عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل)
فقد حلفتْ نفسي بذاك وأقسمتْ (عليّ وآلت حلفةً لم تَحَلَّل)
فقلتُ لها لا شكَّ أني طائع (وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعل)
وكم حَمَلَتْ في أظهر العزم رحلها (فيا عجبًا من رَحْلِها[4] المتحمّل)
وعاتبتِ العجزَ الذي عاقَ عَزْمَها (فقالتْ لك الويلاتُ إنك مُرْجِلِي)
نبيُّ هدًى قد قال للكفرِ نورُهُ (ألاَ أيها الليل الطويلُ ألاَ انجَلِ)
تلا سُوَرًا ما قولها بمعارَضٍ (إذا هي نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ)

---

(١) هكذا في الديوان، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥١٩) والإحاطة: «بأجزالِ».
(٢) هكذا في الديوان، وفي طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٦٧) والكتيبة الكامنة: «والي».
(٣) ديوان حازم القرطاجني (ص ٨٩ ـ ٩٦) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٧٨ وما بعدها). وتسمّى هذه القصيدة «حديقة الأزهار وحقيقة الافتخار في مدح النبيّ المختار».
(٤) هكذا في ديوان امرىء القيس (ص ١١). وفي ديوان حازم: «كورها».

لقد نزلتْ في الأرض مِلّةُ هَدْيِهِ (نزولَ اليماني ذي العِياب المحمّلِ)
أتت مغربًا من مشرقٍ وتعرَّضَتْ (تَعَرُّضَ أثناءِ الوشاح المفصّلِ)
ففازتْ بلادُ الشرق من زينةٍ بها (بشقّ وشقٌّ عندنا لم يحوَّل)
فصلّى عليه اللّه ما لاحَ بارقٌ (كلمعِ اليدينِ في حَبِيّ مكلل)
نبيٌّ غزا الأعداءَ بين تلائع (وبين آكام، بُعْدَ ما متأمل)
فكم ملكٍ وافاه في زيٍّ منجدٍ (بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هيكل)
وكم من يمانٍ واضحٍ جاءه اكتسى (بضافٍ فويقَ الأرض ليس بأعزل)
ومن أبطحيّ نيطَ منه نجادُهُ (بجيد مُعِمّ في العشيرة مُخْوِلِ)
أزالوا ببدرٍ عن بروجهمُ العدا (كما زَلَّتِ الصفواءُ بالمُتَنَزَّل)
وفادوا ظُبَاهم لا بفتكٍ فتى ولا (كبير أُناسٍ في بجادٍ مُزَمَّلِ)
وفضّي جموعًا فَذفَذًا جامعًا بها (لنا بطنُ حِقْفٍ ذي رُكامٍ عَقَنْقَلِ)[1]
وأحموا وطيسًا في حنينٍ كأنه (إذا جاش فيه حَمْيه غليُ مرجل)
ونادَوا بناتِ النبع بالنصر أثمري (ولا تُبْعدينا من جَناك المعلل)
وممن له سَدّدْتِ سهمين فاضربي (بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مقتَّل)
فما أغنتِ الأبدانَ درعٌ بها اكتستْ (ترائبُها مصقولةٌ كالسجنجل)[2]
وأضحت لواليها ومالكها العدا (يقولون لا تَهْلِكْ أسًى وتجمّلِ)
وقد فَرَّ منصاعٌ كما فَرَّ خاضبٌ (لدى سَمُراتِ الحيّ ناقفُ حنظلِ)
وكم قال يا ليلَ الوغى طُلْتَ فانبلجْ (بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثل)
فليت جَوَادي لم يَسِرْ بي إلى الوغى (وباتَ بعيني قائمًا غير مرسَلِ)
وكم مُرْتَقٍ أوطاسَ منهم بِمُسْرَجٍ (متى ما تَرَقَّ العينُ فيه تَسَهَّلِ)
وقَرَّطَهُ خِرْصًا كمصباح مُسْرِجٍ (أمال السَّليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ)[3]

---

(١) في ديوان حازم: «وفضٌ جموعًا قد غدا جامعًا لهم بنا. . .». وفي ديوان امرىء القيس (ص ١٥): «بنا بطنُ. . .».
(٢) السجنجل: المرآة. مختار الصحاح (سجل).
(٣) في ديوان حازم وديوان امرىء القيس: «أهان السليط في الذبال. .». والسليط: الزيت. والذبال: جمع ذبالة وهي الفتيلة. لسان العرب (سلط) و (ذبل).

فيرنو لهادٍ فوق هاديه طَرْفُهُ (بناظرةٍ من وَحْشٍ وَجْرةَ مُطْفِل)[1]
ويسمعُ من كافورتين بجانِبَيْ (أثيثٍ كَقِنْوِ النخلةِ المتعثكل)
ترفَّعَ أن يُعْزَى له شَدُّ شادنٍ (وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ)
ولكنه يمضي كما مَرَّ مُزْبِدٌ (يكبُّ على الأذقان دَوْحَ الكَنَهْبل)
ويغشى العدا كالسهمِ أو كالشهابِ أو (كجلْمُودِ صَخْرٍ حطّه السيلُ من عَل)
جيادٌ أعادتْ رسمَ رستم دارسًا (وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّل)
وريعتْ بها خيلُ القياصر فاختفتْ (جواحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزيَّل)
سبتْ عُرُبًا من نسوةِ العُرْب تَسْتَبي (إذا ما اسبكرَّتْ بين درعٍ ومِجْوَل)
وكم من سبايا الفرس والصُّفرِ أسهرتْ (نؤومَ الضحى لم تنتطقْ عن تفضُّل)
وحزن بدورًا من ليالي شعورها (تضلُّ العقاصُ[2] في مُثَنًّى ومُرْسَل)
وأبقتْ بأرضِ الشام هامًا كأنها (بأرجائها القصوى أنابيشُ عُنْصُلِ)
وما جَفَّ من حَبِّ القلوب بغوزها (وقيعانِها كأنه حبُّ فلفل)
لخضراءَ ما دَبَّتْ ولا نبتتْ بها (أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ إسحِلِ)
شَدَا طيرُها في مثمرٍ ذي أرومةٍ (وساقٍ كأنبوبِ السقيِّ المذلل)
فَشُدَّتْ بروضٍ ليس يَذْبُلُ بعدها (بكلِّ مُغارِ الفتلِ شُدَّت[3] بيذبل)
وكم هَجَّرَتْ في القيظ تحكي ذوارعًا[4] (عذارَى دَوَارٍ في مُلاَءٍ مذيل)
وكم أدلجتْ والقترُ[5] يهفو هزيزُهُ (ويلوي بأثوابِ العنيفِ المثقّل)
وخضنَ سيولاً فِضْنَ بالبيد بعدما (أثرْنَ غبارًا بالكديد المركّل)
وكم ركزوا رمحًا بدِعْصٍ كأنه (من السيل والغُثّاءِ فَلْكَةُ مِغْزل)
فلم تبنِ حصنًا خوفَ حصنهم العدا (ولا أُطُمًا[6] إلاَّ مَشِيدًا بجندل)
فَهُدَّتْ بعضبٍ شِيبَ[7] بعد صقاله (بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدل)

---

(١) مطفل: ذات طفل.
(٢) في ديوان حازم وديوان امرىء القيس: «تضلُّ المَدارَى».
(٣) في ديوان حازم: «شُدّ».
(٤) في ديوان حازم: «دوارعًا».
(٥) في ديوان حازم: «والقَطْرُ».
(٦) الأُطُمُ، بالضمّ: الحصن. لسان العرب (أطم).
(٧) في ديوان حازم: «شُدّ».

وجيشٍ بأقصى الأرضِ ألقى جِرَانَهُ (وأردفَ أعجازًا وناءَ بكلكلِ)
يدكُّ الصفا دكًّا ولو مَرَّ بعضُهُ (وأيسرُهُ عالي[1] السّتارِ ويذبلِ)
دعا النصرُ والتأييدُ راياتِهِ أسحبي (على أثَرَيْنَا ذيلَ مِرطٍ مرحّلِ)
لواءٌ منيرُ النصلِ طاوٍ كأنه (منارةُ مُمْسَى راهبٍ متبتّلِ)
كأنَّ دمَ الأعداء في عَذَبَاتِهِ (عصارةُ حِنّاءٍ بشيبٍ مُرجّلِ)
صحابٌ بَرَوْا هامَ العداةِ وكم قَرَوا (صفيفَ شواءٍ أو قديرٍ معجّلِ)
وكم أكثروا ما طاب من لحم جَفْرَةٍ (وشحم كَهُدّابِ الدِّمَقسِ المُفَتَّلِ)
وكم جُبْنَ من غبراءَ لم يُسْقَ نَبْتُها (دراكًا ولم يُنْضَحْ بماءٍ فيغسلِ)
حكى طيبُ ذكراهم ومُرُّ كفاحِهم (مَدَاكَ عروسٍ أو صَلايَةَ حنظلِ)
لأمداحِ خيرِ الخلق قلبيَ قد صَبَا (وليس فؤادي[2] عن هواها بِمُنْسَلِ)
فدعْ مَنْ لأيام صلحنَ له صبا (ولا سيما يوم بدارةِ جُلْجُلِ)
وأصبح عن أُمِّ الحويرثِ ما سَلا (وجارتها أُمِّ الرباب بمأسلِ)
وكنْ في مديحِ المصطفى كمدبّجٍ (يقلِّبُ كَفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ)
وأمِّلْ به الأخرى ودنياك دَعْ فقد (تمتعتَ من لهوٍ بها غير معجلِ)
وكن كنبيثٍ[3] للفؤادِ منابثٍ (نصيحٍ على تَعْذاله غيرِ مؤتلِ)
ينادي إلهي إنَّ ذنبيَ قد عدا (عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي)
فكنْ لي مجيرًا من شياطينِ شهوةٍ (عليَّ حِرَاصٍ لو يُسِرُّون مقتلي)
ويُنشِدُ دنياه إذا ما تدلَّلَتْ (أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلّلِ)
فإن تصلي حبلي بخيرٍ وَصَلْتُهُ (وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجملي)
وأحسِنْ بقطعِ الحبل منكِ وبَتِّهِ (فسلّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسَلِ)
أيا سامعي مَدْحَ الرسولِ تنشّقوا (نسيمَ الصَّبا جاءتْ بريّا القَرَنْفُلِ)
وروضةَ حمدٍ للنبيِّ محمدٍ (غذاها نميرُ الماءِ غيرُ المحلَّلِ)[4]

---

(١) في ديوان حازم وديوان امرىء القيس: «على السّتار».
(٢) في المصدرين السابقين: «وليس صِباي».
(٣) في ديوان حازم: «وكم لنبيثٍ».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٧١): «غير محلّل».

ويا مَنْ أبى الإصغاءَ ما أنت مهتدٍ (وما إن أرى عنك الغوايةَ[1] تَنْجلي)
فلو مُطْفِلاً أنشدتها لفظَها ارعوتْ (فألْهَيتُها عن ذي تمائمَ مُحْول)
ولو سمعتْهُ عُصْمُ طَوْدٍ أمالها (فأنزلَ منها العُصْمَ من كلِّ منزل)

وقد عرّفتُ بحازم هذا في «أزهار الرياض» وذكرت جملة من نظمه.

ومن بارع ما وقع له قولُه[2]: [الكامل]

أَدِرِ المُدامةَ[3] فالنسيمُ مؤرَّجُ والروضُ مرقومُ البُرُودِ مُدَبَّجُ
والأَرضُ قد لبستْ بُرُودَ جمالِها[4] فكأنما هي كاعبٌ تتبرَّجُ
والنهرُ ممّا ارتاحَ مَعْطِفُه إلى لُقْيا النسيم عُبَابُهُ متموِّجُ[5]
يُمْسي الأصيلُ بِعَسْجَدِيِّ شُعاعِهِ أبدًا يُوَشِّى صفحُهُ[6] ويدبَّجُ
وتروم أيدي الريح تَسْلُبُ ما اكتسى فتزيدُهُ حُسْنًا بما هي تنسجُ
فارتَحْ لشربِ كؤوس راح نورُها بل نارُها في مائها تتوهَّجُ[7]
وأسكرْ بنشوةِ لحظِ مَنْ أَحْبَبْتَهُ أو كأسِ خمرٍ من لَمَاه تُمْزَجُ
واسمعْ إلى نغماتِ عُودٍ تطَّبي[8] قلبَ الخليِّ إلى الهوى وتهيِّجُ
بَمٌّ وزيرٌ يُسْعدانِ مثانيًا ومثالثًا طبقاتُها تتَدَرَّجُ
مَنْ لم يُهَيِّجْ قَلْبَه هذا فما للقلبِ منه محرّكٌ ومهيِّجُ
فأجبْ فقد نادى بألسن حاله للأنس[9] دهرٌ للهموم مفرِّجُ
طَرِبَتْ جماداتٌ وأفصَحَ أعجمٌ فرحًا وأصبح من سرورٍ يَهْزَجُ
أفيفضُلُ الحيَّ الجمادُ مسرّةً والحيُّ للسرّاء منه أحوجُ

---

(١) في ديوان حازم وديوان امرىء القيس: «العَماية».
(٢) ديوان حازم القرطاجني (ص ٢٨ . ٣٠) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٧٤ . ١٧٦).
(٣) في الديوان: «أدرِ الزجاجة».
(٤) في الديوان: «لابسةٌ بُرُودَ محاسن».
(٥) في الديوان: «والنَّهيُ ممّا ارتاح... لقيا الرياح..».
(٦) في الديوان: «صفحة».
(٧) في الديوان: «لشريك كأسَ.. بل بَدْرُها.. يتوهَّجُ».
(٨) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٧١): «تصطبي».
(٩) في الديوان: «للأمن».

ما العيشُ إلاَّ ما نَعِمْتَ به وما عاطاكَ فيه الكأسَ ظبيٌ أدعج[1]
مِمَّنْ يَرُوقُكَ منه رِدْفٌ مُرْدَفٌ عَبْلٌ وخَصْرٌ ذو اختصارٍ مُدْمَجُ[2]
فإذا نظرتَ لِطُرَّةٍ ولِغُرَّةٍ ولصفحةٍ منه بَدَتْ تتأجَّجُ
أيقنتَ أنَّ ثلاثَهُنَّ وما غدا من تحتها ينآدُ أو يتموَّجُ[3]
ليلٌ على صبحٍ على بَدْرٍ على غصنٍ تحمَّلَه كثيبٌ رَجْرَجُ
كأسٌ ومحبوبٌ يظلُّ بلحظه قلبُ الخليِّ[4] إلى الهوى يُسْتَدْرَجُ
يا صاحِ، ما قلبي بصاحٍ عن هوى شيئانِ[5] بينهما المُنَى تُسْتَنْتَجُ
وبمهجتي الظَّبْيُ الذي في أضلعي قد حلَّ وهو يَشُبُّها ويؤجِّجُ[6]
ناديتُ حاديَ عِيسِهِ يومَ النوى والعِيسُ تُحْدى والمطايا تُحْدَجُ[7]
قِفْ أيها الحادي أودِّعْ مهجةً قد حازها دون الجوانح هَوْدَجُ
لمَّا تواقفنا وفي أحداجها قمرٌ منيرٌ بالهلال متوَّجُ
ناديتهمْ: قولوا لبدركُمُ الذي بضيائه تسري الركابُ وتُدْلج
يُحْيي العليلَ بلفظةٍ أو لحظةٍ[8] تُطْفي غليلاً في الحشا يتأجَّج
قالوا نخافُ يزيدُ قَلْبَكَ لاعجًا فأجبتهمْ خَلُّوا اللواعجَ تَلْعَجُ
وبكيتُ واستبكيتُ حتى ظلَّ من عبراتنا بحرٌ ببحرٍ يُمْرَجُ[9]
وبقيتُ أفتحُ بعدهم بابَ المنى ما بيننا طورًا، وطورًا يُرْتَج[10]
وأقولُ يا نفسُ اصبري فعسى النوى بصباحِ قربٍ ليلُها يتبلَّج[11]

---

(١) الأدعج: الذي عيناه كبيرتان وسوداوان. لسان العرب (دعج).
(٢) العَبْلُ: الضخم. مدمج: محكم؛ يقال: أدمج الحبل أو الثوب إذا أجاد فَتْله، والمراد هنا: النحيل. لسان العرب (عبل) و (دمج).
(٣) وما غدا من تحتها: أي الخصر.
(٤) الخليُّ: الخالي من الهوى.
(٥) في الديوان: «شيئين».
(٦) في الديوان: «قد ظلَّ وهو يَشُجُّها ويؤجِّجُ».
(٧) تُحْدَجُ: يتعالى عليها الحدوج. لسان العرب (حدج).
(٨) في الديوان: «بلحظة أو لفظة».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٧٢): «يمزج» بالزاي المعجمة.
(١٠) في الديوان: «أرْتِجُ».
(١١) في الديوان: «ليل قربها يتبلّج».

فترقَّبِ السراءَ من دهرٍ شَجَا والدهرُ من ضدّ لضدّ يخرجُ
وتَرَجَّ فُرْجَةَ كلِّ همّ طارقٍ فلكلِّ هَمّ في الزمان تفرُّجُ

وتذكَّرْتُ هنا جيمية ابن قلاقس، وهي[1]: [الكامل]

عَرَضَتْ لمعترض الصباح الأبلجِ حَوْرَاءُ في طَرَفِ الظلامِ الأدعجِ
فتمزَّقَتْ شيمُ الدُّجى عن غُرَّتَيْ شمسين في أفقٍ وكلَّةِ هودجِ
ووراءَ أستارِ الحمول لواحظٌ غازلن معتدلَ الوشيج الأعوجِ
من كلِّ مبتسم السِّنان إذا جرى دَمْعُ النجيعِ من الكميِّ الأهوجِ
ولقد صحبتُ الليلَ قَلَّص بُرْدَه لعبابِ بحرِ صباحه المتموّج
وكأنَّ منتشرَ النجوم لآلىءٌ نُظِمَتْ على صرحٍ من الفِيْرُوزَجِ[2]
وسهرتُ أرقبُ من سُهَيْل خافقًا متفرّدًا، وكأنه قلبُ الشجي
واسْتَعْبَرَتْ مُقَلُ السحاب فأضحكت منها ثغورَ مُفَوَّفٍ[3] ومدبَّجِ

وَلْنَعُدْ إلى ذكر أبي بكر بن جزي فنقول:

وله تقييد في الفقه على كتاب والده المسمّى بالقوانين الفقهية، ورجز في الفرائض، وإحسانه كثير، وتقدّم قاضيًا للجماعة بحضرة غَرْنَاطة ثامن شوال عام ستين وسبعمائة، ثم صُرف عنها، ثم لما توفي الأستاذ الخطيب العالم الشهير أبو سعيد فرج بن لب - رحمه اللّه تعالى! - وكان خطيب الجامع الأعظم بغرناطة، ولي عوضًا عنه أستاذًا وخطيبًا عام أثنين وثمانين وسبعمائة، فبقي في الخطابة ثلاثة أعوام، ثم توفي، وأظنّ وفاته آخر عام خمسة وثمانين وسبعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

وأما أخوه أبو عبد اللّه محمد[4] فهو الكاتب المجيد، أعجوبة الزمان، وتوفي بفاس رحمه اللّه تعالى عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، وقيل - وهو الصواب -: إن وفاته آخر شوال

---

(١) أزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٧٦).
(٢) الصَّرْحُ: كل بناء عالٍ، والقصر. الفيروزج: الفيروز أو الحجر الكريم. محيط المحيط (صرح) و (فيروزج).
(٣) مفوَّف: مخطط. لسان العرب (فوف).
(٤) ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن جزي في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٥٦) والكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣) ونثير فرائد الجمان(ص ٢٩٢) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٨٩) ونثير الجمان (الورقة ٧٨).

من السنة قبلها حسبما ألفيته بخطِّ بعض أكابر الثقات بداره من البيضاء، وهي فاس الجديدة، قرب مغرب يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصر وراء الحائط الشرقي الذي بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء، وكان مولده في شوال من عام واحد وعشرين وسبعمائة، انتهى.

قال الأمير ابن الأحمر في «نثر الجمان»: أدركته ورأيته، وهو من أهل بلدنا غرناطة، وكان أبوه أبو القاسم محمد أَحَدُ المفتين بها عالم الأندلس الطائرة فُتْيَاه منها إلى طرابلس، وقُتل شهيدًا بطريف بعد أن أبلى بلاء حسنًا، وأبو عبد اللَّه ابنه هذا كتب بالأندلس في حضرة ابن عمّ أبينا أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف، وله فيه أمداح عجيبة، ولم يزل كاتبًا في الحضرة الأحمرية[1] النصرية إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج، انتهى.

ويعني ابنُ الأحمر بهذا الامتحان أنه ضربه بالسِّياط، من غير ذنب اقترفه بل ظلمه ظلمًا مبينًا، هكذا ألفيته في بعض المقيدات.

ثم قال ابن الأحمر: فقوض[2] الرحال عن الأندلس، واستقرّ بالعُدْوة، فكتب بالحضرة المرينية لأمير المسلمين أبي عنان، إلى أن توفي بها رحمه اللَّه تعالى! وكان رحمه اللَّه تعالى طلع في سماء العلوم بدرًا مشرقًا، وسارت براعته مغربًا ومشرقًا، وسما بشعره فوق الفرقدين، كما أربى بنثره على الشعرى والبطين، له باع مديد في التاريخ واللغة والحساب، والنحو والبيان والآداب، بصير بالفروع والأصول والحديث، عارف بالماضي من الشعر والحديث، إن نظم أنساك أبا ذؤيب[3] برقته، ونُصَيْبًا[4] بمنصبه ونخوته، وإن كتب أربى على ابن مُقلة[5] بخطِّه، وإن أنشأ رسالة أنساك العماد[6] بحسن مساقها وضبطه، وهو ربّ هذا الشان، وفارس هذا الميدان، ومع تفنّنه في الشعر فهو في العلوم قد نبغ، وما

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٧٤): «الأحمدية» بالدال.
(٢) قَوَّضَ الرحال عن الأندلس: ترك الأندلس ورحل عنها.
(٣) هو أبو ذؤيب الهذلي، أحد شعراء هذيل المشهورين. الشعر والشعراء (ص ٥٤٧).
(٤) هو نصيب شاعر الغزل المشهور. الشعر والشعراء (ص ٣٢٢).
(٥) ابن مقلة مضرب المثل في حسن الخط. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١١٧).
(٦) هو العماد الأصفهاني صاحب كتاب الخريدة.

بلغ أحد من شعراء عصره منه ما بلغ، بل سلموا التقدّم فيه إليه، وألقوا زمام الاعتراف بذلك في يديه، ودخلوا تحت راية الأدب التي حَمَل، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس في الحمل، أنشدني لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل عمّ أبينا ابن جدّنا الرئيس الأمير أبي سعيد فرج هذه القصيدَةَ البارعة، وحذف منها الراء المهملة[1]: [الكامل]

قَسَمًا بوضّاح السنا[2] الوهّاج ... من تحت مسدولِ الذوائب داج
وبأبلجٍ بالمِسْكِ خُطَّتْ نونه ... من فوق وسنانِ اللواحظِ ساجي[3]
وبحسنِ خدّ دبّجتْ صفحاتُهُ ... فغدتْ تحاكي مُذْهَبَ الديباجِ
وبمبسمٍ كالعقدِ نُظّمَ سلكُهُ ... ولَمَى حكى الصَّهْباء دون مزاج
وبمنطقٍ تصبو القلوبُ لحسنه ... أنسى المسامعَ نغمةَ الأهزاج
وبمائسِ الأعطافِ تثنيه الصّبا ... فيميسُ كالخطِّيِّ يومَ هياج
ومنعّمٍ مثلِ الكثيبِ يُقِلُّه ... مُسْتَضْعَفٌ يشكو من الإدماج[4]
وبمَوْعِدٍ للوصلِ أنجز فجاءةً ... من بعد طول تمنّعٍ ولجاج
وبأكؤسٍ أطلعْنَ في جنح الدجى ... شمسَ السُّلافة في سماء زجاج
وحدائقٍ سَحَبَ السحابُ ذيولَه ... فيها وبات لها النسيمُ يناجي
وجداولٍ سلّتْ سيوفًا عندما ... فجئتْ بجيشٍ للصَّبا عجّاج
وبأقحوانٍ قد تضاحك إذ بكتْ ... عينُ الغمام بمدمعٍ ثَجّاجِ[5]
وقدودِ أغصانٍ يملْنَ كأنها ... تخفي حديثًا بينها وتناجي
وحمائمٍ يَهْتِفْنَ شَجْوًا بالضحى ... فَهَدِيلُهُنَّ لذي الصبابة شاجي
إنَّ المعالي والعوالي والندى ... والبأس طوعُ يَدَيْ أبي الحجاج
ملكٌ تتوّج بالمهابةِ عندما ... لم يستجزْ في الدينِ لبسَ التاجِ
وأفاضَ حكمَ العدل في أيامه ... فالحقُّ أبلجُ واضحُ المنهاج

---

(١) أزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٩١).

(٢) أراد بوضاح السنا: وجه محبوبه المضيء.

(٣) أراد بالنون الحاجب الذي هو بشكل حرف النون.

(٤) الإدماج: رقة الخصر؛ يقال: أدمج الحبل إذا أجاد فتله. لسان العرب (دمج).

(٥) الثَّجّاج: الكثير السيلان. محيط المحيط (ثجج).

هو منقذُ العاني، ومُغْنِي المعتفي   ومذلّلُ العاتي، وغوثُ اللاجي[1]
ماضي العزيمة، والسيوفُ كليلةٌ   طلقُ المُحَيَّا، والخطوبُ دواجي
علم الهدى والناسُ في عمياء قد   ضلّوا لوقع الحادثِ المهتاج
غيثُ الندى والسحبُ تبخل بالحيا   والمحلُ يُبْدِي فاقة المحتاج
ليثُ الوغى، والخيلُ تزجي بالقنا   والبِيْضُ تنهلُ في دم الأوداج
يتقشعُ الإظلامُ إذ يبدو له   وجهٌ كمثل الكوكب الوهّاج
من آل قيلةَ من ذؤابةِ سَعْدها   أعلى بني قحطانَ دون خِلاجِ
حيثُ العُلا ممدودةُ الأطنابِ لم   تخلقْ معالِمَها يَدُ الإنهاج
والأعْوَجِيَّاتُ السوابقُ تمتطى   فتظللُ الآفاقَ سُحْبُ عجاج
والبيضُ والأسل[2] العواملُ تقتضي   مُهَجَ الكماةِ بأبلغ الإزعاج
مجدٌ ليوسفَ جُمِّعَتْ أشتاته   أعيا سواه بعد طول علاج
مولايَ هاك عقيلةً تزهو على   أخواتها كالغادة المغناج
إنشاء عبدٍ خالصٍ لك حبُّهُ   ومن العبيدِ مُداهِنٌ ومُداجي
آوَى إلى أكنافِ نعماك التي   ليست إليه صِلاتها بخُداج
سبّاقُ ميدانِ البلاغةِ والوغى   لشعابِ كلّ منهما ولأّج
جانبتُ أختَ الزاي منها عامدًا   فأتتْ من الإحسان في أفواج
فافتحْ لها بابَ القبول وأوْلِ مَنْ   أهداكها ما يبتغي من حاجِ

ثم قال ابن الأحمر: وأنشدني أيضًا لنفسه يمدح أمير المؤمنين المتوكل على اللّه أبا عنان فارس ملك المغرب[3]: [الخفيف]

إن قلبي لعُهْدَةِ الصبر نَاكِثُ   عن غَزَال في عُقْدَة السِّحر نَافِثُ[4]

---

(١) العاني: الأسير. المعتفي: طالب المعروف. العاتي: المتجبّر. اللاجي: أصله: اللاجىء، بالهمز. لسان العرب (عنا) و (عفا) و (عتا).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٧٦): «والأسد».

(٣) أزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٩٢).

(٤) نافث: اسم فاعل من الفعل نفث؛ يقال: نَفَثَ الراقي في العُقْدة إذا نفخ مع ريق وبزق أو بزق ولا ريق معه. وفي قول اللّه تعالى: ﴿ومن شَرِّ النفّاثاتِ في العُقَدِ﴾ محيط المحيط (نفث). وسورة الفلق ١١٣، الآية ٤.

أضرم النارَ في فؤادي وولّى ... قائلاً لا تَخَفْ فإنيَ عابثْ
ورماني من مقلتيه بسهمٍ ... ثم قال اصطبرْ لثانٍ وثالثْ
كم عذولٍ أتى يُناظرُ فيه ... كان تَعْذَاله على الحبِّ باعثْ
ويمينٍ آليتُها بالتسلّي ... فقضى حسنُهُ بأني حانثْ[1]
جبر اللّه صدعَ قلبٍ عميدٍ ... صدعتْ شملَهُ صروفُ الحوادثْ
فهو يهفو إلى البروق ويروي ... عن نسيم الصَّبا ضعافَ[2] الأحادث
سلبتْه الأشجانَ إلاَّ بقايا ... من أماني[3] حبالهنَّ رثائثْ
وبكاء على عهودٍ مَوَاضٍ ... ملأت صَدْرَهُ همومًا حدائثْ
لستُ وحدي أشكو بليلةِ وجدي ... إنّ داءَ الغرام ليس بحادثْ
يا مضيعَ العهودِ واللّهُ يعفو ... عنك أنّى ارتَضَيْتَ خطةَ ناكث
غرّني منك والجمالُ غرورٌ ... وظُبا اللحظِ في القلوب عوابثْ
مُقَلٌ يقتسمنَ أعشارَ قلبي ... بالرضا منيَ اقتسامَ الموارثْ
كيف غيّرتَ بانتزاحك حالي ... وتغيّرتَ لي، ولَسْتَ بحارث[4]
فرطُ حبي وفرطُ بخلك آلى ... أنَّ عينيك بالفتورِ نوافثْ
ونَدَى فارس وحسبك ردًّا ... قول من قال سَدَّ بابَ البواعثْ
ملك البأس والندى، فهو بالسـ ... ـيف وبالسَّيْبِ عائثٌ أو غائثْ
محرزُ المجد والثناءِ، فهذا ... سائرٌ في الورى، وذلك لابثْ
أوطأ الشهبَ رجلَه وترقّى ... صاعدًا في سُمُوِّه غيرَ ماكثْ
فَدَرَارٍ[5] تَسْري وما لَحِقَتْهُ ... ونجومٌ خلف القصور لوابثْ

---

(١) حانث: اسم فاعل من الفعل حنث؛ يقال: حَنِثَ الرجلُ إذا مال من باطل إلى حقّ وعكسه. محيط المحيط (حنث).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٧٧): «ضعيف».

(٣) في الطبعة نفسها: «أمان».

(٤) يشير إلى قول إبراهيم بن العباس الصولي: [الطويل]

تغيّر لي فيمن تغيَّرَ حارثُ ... وكم من أخٍ غيّرته الحوادثُ

الأغاني (ج ١٠ ص ٥٥).

(٥) الدراري: الكواكب العظام. محيط المحيط (درأ).

وله المقرَبات لا بل هي العق بانُ من فوقها الليوثُ الدلاهث[1]
مطلعاتٌ من كلِّ نعلٍ هلالاً فلهذا تجلو دجى كلِّ حادث
إن ترافعن فالجبالُ الرواسي أو تسابقن فالعيوثُ الحثائث
والمواضي[2] كأنها قد أُعيرتْ حدَّةَ الذهن منه عتد المباحثْ
هي نارٌ محرِّقاتُ الأعادي وهي ماءٌ مطهراتُ الخبائث
فيرِدْنَ الوغى ذكورًا عطاشًا ثم يصدرْنَ ناهلاتٍ طوامثْ
من معانيه قد رأينا عِيانًا كلَّ فضلٍ يَنُصُّه مَنْ يحادثْ
خُلُقٌ كالنسيم مَرَّ سحيرًا بالأزاهيرِ في البطاح الدمائث
في سبيل الإله يُقْصي ويُدْنِي ويوالي في ذاته وينـاكث
شرفُ الملك منه سامٍ وحامٍ ففدته سامٌ وحامٌ ويافثْ
هاكها من بناتِ فكريَ بكرًا ليس يسمو لها من الناسِ طامثْ
ذاتَ لفظٍ لا يعتريه اختلالٌ ومعانٍ لا تنتحيها المباحثْ
زعماء القريض أبقَوْا بقايا كنتُ دون الورى لهنَّ الوارثْ
من أراد انتقادها فَهْيَ هٰذي عرضة البحث فليكن جدَّ باحثْ

ورأيت بخطِّ ابن الصباغ العقيلي على هامش قوله «وندى فارس وحسبك ردًا. . . البيت» ما نصّه[3]: ما أبدع تخلّصه للمدح وأطبعه! فإنه أشار إلى قول الشاعر رادًا عليه بالتبكيت، ومعقبًا له بالتعنيت[4]: [الكامل]

قالوا تركتَ الشعرَ قلتُ ضرورة بابُ السماحةِ والملاحةِ مُغْلَقُ[5]
ماتَ الكرامُ فلا كريمٌ يُرْتجى[6] منه النوالُ ولا مليحٌ يُعْشَقُ

---

(١) المُقْرِبات: الخيل. الدلاهث: جمع دَلْهَث وهو الجريء المقدام. لسان العرب (قرب) و (دلهث).
(٢) المواضي: السيوف القاطعة. لسان العرب (مضى).
(٣) أزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٩٤).
(٤) البيتان لأبي إسحاق إبراهيم بن يحيىٰ الغزي، وهما في وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٥٨).
(٥) في وفيات الأعيان: «هجرتَ الشعر. . باب الدواعي والبواعثِ مُغْلَقُ».
(٦) في وفيات الأعيان: «خلت الديارُ فلا كريمٌ. .».

وقيل: إن السلطان أبا عنان أطلَّ من برج يشاهد الحرب بين الثور والأسد على ما جرت به عادة الملوك. فقال ابن جزي المذكور في وصف الحال: [البسيط]

للّه يومٌ بدارِ الملكِ مَرَّ به من العجائبِ ما لم يجرِ في خَلَدِي
لاحَ الخليفةُ في برج العلا قمرًا يشاهدُ الحربَ بين الثور والأسدِ

ومن بارع نظمه رحمه اللّه تعالى قوله: [الطويل]

أبا حسن، إن شَتَّتَ الدهرُ شَمْلَنا فليس لودٍّ[1] في الفؤاد شتاتُ
وإنْ حُلْتَ عن عهد الإخاء فلم يزل لقلبي على حفظِ العهودِ ثَبَاتُ
وهبني سَرَتْ مني إليك إساءةٌ ألم تتقدّمْ قبلها حسنات

وقوله وهو بحال مرض: [البسيط]

إن يأخذ السُّقْمُ من جسمي مآخذه وأصبحَ القومُ من أمري على خطرِ
فإنَّ قلبي بحمد اللّه مرتبطٌ بالصبر والشكر والتسليم للقدرِ
فالمرءُ في قبضة الأقدارِ مصرفه للبرءِ والسقمِ أو للنفعِ والضررِ

وحكي أنَّ الفقيه الرحال أبا إسحاق إبراهيم ابن الحاج النميري بقي في خلوته جميع شهر رمضان المعظّم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، فلمّا خرج في يوم عيد الفطر أنشده صهره أبو عبد اللّه بن جُزَي المذكور لنفسه: [الخفيف]

ما سَرارُ[2] البدورِ إلاّ ثلاثٌ فلماذا أرى سَرارَكَ شهرا
أتعجّلته سَرارًا لِعَام ثم تبقى في سائر العام بدرا

وحكي أنه كتب للرئيس صاحب القلم الأعلى والعَلاَّمة بفاس أبي القاسم بن رضوان يطلب منه شراب سكنجبين، وقصد التصحيف بقوله «أَحْسِنْ زان بيتكَ، نجيبٌ تُسَرُّ به مرضي» تصحيفه: أحب شراب سكنجبين شربه بُرْءُ[3] مَرَضي، قال فجاوبني ابن رضوان بقوله: إنّ برّك نفيس، تصحيفه مقلوبًا: يشفيك ربّنا.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٧٩): «الودِّي».
(٢) السّرار: اختفاء القمر في آخر الشهر ليلة أو ليلتين. لسان العرب (سرر).
(٣) كلمة «بُرْءُ» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٨٠).

ومن نظم ابن جزي المذكور قوله: [الطويل]

رعى اللّه عهدًا بالمريّة ما أرى ... به أبدًا ما عشتُ في الناس بالناسي
وكيف ترى باللّه صحبةَ معشرٍ ... مجاهدُ بعضٌ منهمُ وابن عباسِ[1]

وقوله في الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان: [الكامل]

هذا محلُّ الفضلِ والإيثارِ ... والرفقِ بالسكان والزوارِ
دارٌ على الإحسان شِيدتْ والتُّقى ... فجزاؤها الحسنى وعقبى الدارِ
هي ملجأ للواردين وموردٌ ... لابن السبيل وكُلِّ ركبٍ ساري
آثارُ مولانا الخليفةِ فارسٍ ... أكرمْ بها في المجدِ مِنْ آثارِ
لا زالَ منصورَ اللواءِ مظفَّرًا ... ماضي العزائم ساميَ المقدار
بنيتْ على يد عبدهم وخديم با ... بهمُ العليِّ محمدِ بن جدارِ[2]
في عام أربعةٍ وخمسينَ انقضتْ ... من بعد سبعِ مئينَ في الأعصارِ

ومن نظمه قوله مُوَرِّيًا: [الوافر]

وما أنسى الأحبّةَ يوم[3] بانوا ... تخوضُ مطيّهم بحرَ الدموعِ
وقالوا: اليومَ منزلُنا الحَنايا ... فقلتُ: نعم ولكن من ضلوعي

وقوله مورِّيًا أيضا: [الطويل]

وربَّ يهوديّ أتى متطبّبًا ... ليأخذَ ثاراتِ اليهود من الناسِ
إذا جَسَّ نبضَ المرءِ أودى بنفسه ... سريعًا، ألم تسمع بفتكةِ جَسّاسِ

وقوله[4]: [الكامل]

من أيّ أشجاني التي جَنَتِ النوى ... أشكو العذابَ وهنَّ في تنويعِ

---

(١) مجاهد: راوٍ مشهور من رواة الحديث النبوي. وابن عباس هو ابن عم رسول اللّه ﷺ، وكان من أشهر علماء المسلمين. وفي البيت تورية.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٨٠): «حوارٍ» بالحاء المهملة.

(٣) في أزهار الرياض: «حين».

(٤) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٩٦ - ٢٩٨). وفي روايتهما بعض اختلاف عمّا هنا.

من وصليَ الموقوف أو من هجري الـ ـموصولِ أو من نوميَ المقطوعِ[1]
أو من حديثِ تولُّهي وتولّعي خبرًا صحيحًا ليس بالموضوعِ
يَرْوِيه خدي مسندًا عن أدمعي عن مقلتي عن قلبيَ المفجوعِ

وأول هذه القصيدة:

ذَهَبَتْ حُشَاشة قلبيَ المصدوعِ[2] بين السلام ووقفة التوديعِ

وقد ضمن شطرها الفقيه عبيد شارح الحلبة، إذ قال من قصيدة مطلعها: [الكامل]

اهمي دموعَكِ ساعةَ التوديعِ يا مقلتي ممزوجةً بنجيعِ[3]

بقوله:

يوم استقلّت عِيسُهم وترحلوا (ذهبت حشاشةُ قلبيَ المصدوعِ)

وقوله: [الطويل]

بخدّي وجسمي والفؤاد وأدمعي شهودٌ بهمْ دَعْوَى الغرام تُصَحَّحُ
ومن عجبٍ أن رَجَّحَ الناس نَقْلَهُمْ وكلّهمُ ذو جَرْحَة فيه تقدحُ
فجسمي ضعيفٌ، والفؤاد مخلَّطٌ ودمْعِيَ مَطْرُوحٌ، وخدي مجرَّحُ

وقوله: [الرمل]

يا مُحَيًّا كتب الحُسْنُ به أَحْرُفًا أبدع فيها وبرعْ
ميمُ ثغر، ثم نونُ حاجبٍ ثم عينٌ هي تتميمُ البِدَعْ
أنا لا أطمعُ في وَصْلك لي وعلى وجهك مكتوبٌ «منعْ»

---

(١) في هذا البيت والبيتين التاليين مصطلحات الحديث وهي: الموقوف، والموصول، والمقطوع، والصحيح، والموضوع، والمسند.
(٢) في الإحاطة: «الصَّدوع».
(٣) النجيع: الدم. لسان العرب (نجع).

ثم قال ابن الأحمر: ومن إنشائه البارع مورّيًا بالكتب، ورفعها لأمير المؤمنين المتوكل على اللّه أبي عِنان فارس رحمه اللّه يهنيه بإبلال ولده ولي عهده الأمير أبي زيان محمد من مرض: [البسيط]

ماذا عسى أدبُ الكتاب يوضحُ من خصال مجدك وَهْوَ الزاهرُ الزاهي
وما الفصيحُ بكلياتِ موعبها كافٍ فيأتي بأنباءٍ وأنباهِ

أبقى اللّه تعالى مولانا الخليفة ولسعادته القِدْحُ المُعَلّى[1]، ولزاهر كماله التاج المحلّى، تجلى من حلاه نزهة الناظر، ويسير بعلاه المثل السائر، ويتّسق من سناه العقد المنظم، ويتّضح بهداه القَصْد الأمَمُ[2]، ولا زالت مقدمات النصر له مبسوطة، ومعونة السعد بإشارته مَنُوطة، وهدايته متكفلة بإحياء علوم الدين، وإيضاح منهاج العابدين، وإرشاده يتولّى تنبيه الغافلين، ويأتي من شفاء الصدور بالنور المبين، وميقات الخدمة ببابه مطمح الأنفس، وملخص الجود من كَفّه بغية المتلمّس، قد حكم أدب الدين والدنيا بأنك سراج الملوك، لما أتت عوارفك بالمشرع السلسل ومعارفك بنظم السلوك، ووضحت معالم مجدك وضوح أنوار الفجر، وزهت بعدلك المسالك والممالك زَهْوَ خريدة القصر، فلك في جمهرة الشرف النسب الوسيط، ومن جمل المآثر الخلاصة والبسيط، وسبل الخيرات لها برعايتك تيسير، ومحاسن الشريعة لها بتحصيلك تحبير، وأنت حجّة العلماء، الذي تقصر عن تقصي مآثره فِطَنُ الأذكياء، إن انْبَهَمَ التفسير ففي يديك مِلاك التأويل، أو اعتاص تفريع الفقه فعندك فصل البيان له والتحصيل، وإن تشعب التاريخ فلديك استيعابه، أو تطاول الأدب ففي إيجاز بيانك اقتضابه، وإن ذكر الكلام ففي انتقائك من برهانه المحصول، أو المنطق ففي موجز آمالك لُبابُه المنخول، وليس أساس البلاغة إلاّ ما تأتي به من فصل المقال، ولا جامع الخير إلاّ ما حزته من تهذيب الكمال، ولذلك صارت خدمتك غاية المطلوب، وحبك قوت القلوب، ولا غرو إن كنت من العلياء درّتّها المكنونة، فأسلافك الكرام هم جواهرها الثمينة، بحماستهم أصيبت مقاتل الفرسان، وبجود جودهم تسنى ريُّ الظمآن، وبتسهيل عدلهم وضحت شُعَبُ الإيمان، وأنت المنتقى من سمط

(١) هذا الكتاب لابن سعيد، والتعريف بالكتب الأخرى الواردة في هذه الرسالة ليس بالأمر السهل، وهذا يتطلب تطويلاً لا تتحمله الحواشي، فلتراجع في فهرسة الكتب حيث سنورد لكل كتاب اسم مؤلفه.
(٢) الأَمَم، بالفتح: القريب.

جُمانهم، والواسطة في قلائد عقيانهم، عنك تؤثر سيرة الاكتفاء، وعن فروعك السعداء تروى أخبار نجباء الأبناء، فهم لمملكتك العلية بهجة مَجالسها، وأُنس مُجالسها، وقطب سرورها، ومطالع نورها، وولي عهدك درّتهم الخطيرة، وذخيرتهم الأثيرة، لا زال كامل سعادته بطول مقامك محكمًا، وحرز أمانيه بالجمع بين الصحيحين حبك ورضاك معلمًا، وقد وجبت التهنئة بما كان في حيلة برئه من التيسير، وما تهيّأ في استقامة قانون صحته من نُجح التدبير، ولم يكن إلاً أن بعدت به عنك المسالك، وأعوز نور طرفه تقريب المدارك، وتذكر ما عهده من الإيناس الموطأ جنابه عند أفضل مالك، فوَرِيَ من شوقه سقط الزند[١]، والتهب في جوانحه قبس الوجد، فأمددته من دعائك الصالح بحلية الأولياء، فظفر لما شارف مشارق الأنوار من حضرتك بالشفاء، وقد حاز إكمال الأجر بذلك العارض الوجيز، وكان له كتشبيب الإبريز، وها هو قادم بالطالع السعيد، آيب بالمقصد الأسنى من الفتح والتمهيد، يطلع بين يديك طلوع الشهاب، ويبسم عن مُفَصّل الثناء في الهناء بذلك زهر الآداب، فأعدَّ له تحفة القادم[٢] من إحسانك الكامل، وأخصصه بالتكملة[٣] من إيناسك الشامل، فهو الكوكب الدّرّيّ المستمدّ من أنوارك السنية، وفي تهذيب شمائله إيضاح للخلق الكريمة الفارسية، لا زالت تزدان بصحاح مآثرك عيون الأخبار[٤]، وتتعطّر بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار، وتتلى من محامدك الآيات البينات، وتتوالى عليك الألطاف الإلهيات، بمنِّ اللّه سبحانه وفضله، والسلام الكريم يعتمد المقام العلي، ورحمة اللّه تعالى وبركاته، انتهى.

وللمذكور عدة مُقَطعات يوري فيها بأسماء الكتب، فمنها قوله: [السريع]

ظبيٌ هو الكاملُ في حسنه   وثغره أبهى من العِقْدِ
جمالُه المدهشُ لكنما   أخلاقُه تحكي صَبا نَجْدِ

وقوله أيضًا: [الطويل]

لك اللّه من خِلّ حَبَاني برقعةٍ   حَبَتْنِيَ من آياتها بالنوادرِ

---

(١) سقط الزند: كتاب لأبي العلاء المعري.
(٢) تحفة القادم: كتاب لابن الأبار.
(٣) التكملة: كتاب لابن الأبار.
(٤) عيون الأخبار: كتاب لابن قتيبة.

رسالة رمز في الجمال نهايةً ذخيرة نظمٍ أتحفتْ بالجواهرِ

وقوله سامحه اللّه تعالى: [الخفيف]

قصتي في الهوى المُدَوَّنة الكبـ ـرى وأخبار عشقيَ المَبْسوطَهْ
حجّتي في الغرام واضحة إذ لم تزل مهجتي بوجدٍ مَنُوطَهْ

وتذكّرت بالتورية بأسماء الكتب قولَ الأرجاني: [الكامل]

لَـمَّـا تـألّـق بـارقٌ مـن ثـغـره جادتْ دموعي بالسحاب الممطرِ
فكـأنّ عِـقْـدَ الـدُّرِّ حلَّ قلائد الـ ـعقيان منه على صحاحِ الجوهرِ[1]

وقول لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

وظبيٍ لأوضاع الجمال مدرِّسٍ عليمٍ بأسرار المحاسن ماهرِ
أرى جِيده نَصَّ المحلَّى، وقررت ثناياه ما ضمَّتْ صحاحُ الجواهرِ

وقول ابن خاتمة[2]: [الكامل]

ومُعَطَّرِ الأنفاسِ يَبْسِمُ دائمًا عن دُرِّ ثَغْرٍ زانَه تَرْتيبُ
مَنْ لم يشاهِدْ منه عِقْدَ جواهرٍ لم يَدْرِ ما التنقيحُ والتهذيبُ[3]

وقوله أيضًا[4]: [مخلع البسيط]

سَفَّهني عاذلي عليه وقال لي وُدُّهُ عَليلُ
فقلتُ مُعْتَلٌّ أو صحيحٌ يُوْدِعُهُ عَيْنَهُ الخليلُ[5]

وقوله أيضًا[6]: [الكامل]

حازَ الجمالَ بصورةٍ قَمَرِيَّةٍ تجلو عليكَ «مشارقَ الأنوارِ»
وحوى الكمالَ بصورةٍ عُمَرِيَّةٍ تتلو عليك «مناقبَ الأبرارِ»[7]

---

(١) قلائد العقيان: كتاب لابن خاقان. والصحاح: كتاب للجوهري.
(٢) ديوان ابن خاتمة الأنصاري (ص ١٨٦).
(٣) التورية هنا في التنقيح والتهذيب.
(٤) ديوان ابن خاتمة (ص ٢٠٥) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ٢٠٢).
(٥) يوري بكتاب «العين» للخليل بن أحمد.
(٦) ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٨).
(٧) يوري هنا بكتابي «مشارق الأنوار» و «مناقب الأبرار».

وقول الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي[1]: [الرجز]

من اغتدى مُوَطِّئا أكنافه ... صَحَّ له التمهيدُ في أحوالِهِ
وقابل استذكاره بالمنتقى ... من رأيه المختارِ من أعمالِهِ
وأضحتِ المسالكُ الحسنى له ... تدني تقصيًا قُصَى آماله
وسار من مشارق الأنوار في ... أدنى المدارك[2] إلى إكماله

ولَمَّا وقف على هذه القطعة الفاضل أبو علي حسين بن صالح بن أبي دلامة عارضها وزاد ذكر القبس والمعلم[3]: [الكامل]

قُلْ للموطّإ[4] للورى أكنافه ... بشراه بالتمهيد في الأحوالِ
وإذا اكتفى بالمنتقى استذكاره ... وفّي له المختار في الأعمال
ومسالكُ الحسنى تؤدّيه إلى ... أقصى التقصي من قُصَى الآمال
ويلوحُ من قبس الهداية رشدُهُ ... من معلمِ التفصيلِ والإجمال

رجع إلى ابن جُزَي، ومن نظمه: [البسيط]

يا دوحةَ الأُنْس من بطحاءِ واسِجَةٍ ... هل من سبيل إلى أيامك الأولِ
إذ نجتلي أوجهَ الإيناسِ مسفرةً ... ونجتني ثمرَ اللّذّاتِ والغزلِ

ومن نظمه رحمه اللّه تعالى عند خروجه إلى بلاد المغرب، ووَرَّى بكتابي «تحفة القادم» و «زاد المسافر» فقال: [الطويل]

وإني لمن قوم يهونُ عليهمُ ... ورودُ المنايا في سبيل المكارمِ
يطيرون مهما ازورَّ للدهر جانبٌ ... بأجنحةٍ من ماضياتِ العزائمِ
وما كلُّ نفسٍ تحملُ الذلّ، إنني ... رأيتُ احتمال الذلّ شأنَ البهائمِ
إذا أنا لم أظفرْ بزادِ مسافرٍ ... لديكم فعند الناس تحفةُ قادمِ

وزاد المسافر لصفوان، والتحفة لابن الأبار.

---

(١) أزهار الرياض (جـ ٣ ص ٢٠١).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٨٥): «المدارك أو إلى. .»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) أزهار الرياض (جـ ٣ ص ٢٠٢).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «للموطىء».

ومن نظمه قوله: [الكامل]

نصبَ الحبائل للورى بالحسن إذ رفعَ اللثامَ وذيلُه مجرورُ
وأماله عني العواذلُ غيلةً فهو الممالُ وقلبيَ المكسورُ

وقوله أيضًا[1]: [الكامل]

تلك الذوائب[2] ذُبْتَ من شوقي لها واللَّحظ يحميها بأيِّ سلاح
يا قلبُ فانْجُ وما إخالك ناجيًا من فتنةِ الجعديِّ والسَّفاحِ[3]

وقوله أيضًا[4]: [السريع]

وعاشقٍ صلَّى ومحرابُه وَجْهُ غزالٍ ظَلَّ يَهْواهُ
قالوا تعبّدتَ فقلتُ نعم[5] تعبّدًا يُفْهَمُ معناهُ

وقوله رحمه اللّه تعالى[6]: [الكامل]

لا تعدُ ضيفك[7] إن ذهبتَ لصاحبٍ تَعْتَدُه لكنْ تَخَيَّرْ وانْتَقِ
أوَ ما ترى الأشجار مهما رُكِّبَتْ إن خُولِفَتْ أصنافُها لم تعلقِ[8]

وقوله رحمه اللّه تعالى: [السريع]

أيتها النفسُ قفي عند ما ألزمتِ، فِعْلاً كان أو قولا
فمن يكنْ يرضى بما ساءه أو سرّه فهو له الأولى
لا يُتْرِكُ العبدُ وما شاءه إلاّ إذا أهمله المولى

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٦٥).
(٢) في طبعة دار صادر والإحاطة: «الذؤابة».
(٣) أراد بالجعدي الشَّعْر الذي عبَّر عنه بالذوائب، وأراد بالسفّاح اللحظ، وفي الكلمتين تورية.
(٤) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٦٥).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٨٦): «الهم» بدل «نعم». وفي الإحاطة: «تعبّد» بدل «تعبّدتَ».
(٦) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٦٣).
(٧) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٣٩): «صنفك».
(٨) في الإحاطة: «تغلق».

وقوله أيضًا [سامحه اللّه تعالى][1]: [الكامل]

لولا ثلاثٌ قد شغفتُ بحبِّها ما عِفْتُ في حوضِ المنيّة موردي
وهي الرواية للحديث، وكَتْبُه، والفقهُ فيه، وذاك حسبُ المهتدي

وأما أخوهما القاضي أبو محمد عبد اللّه بن أبي القاسم بن جُزَي فهو الإمام العالم العلامة المعمَّر، رئيس العلوم اللسانية، قال في «الإحاطة»[2]: هذا الفاضل قريعُ بيتٍ نبيه، وسَلَفٍ شهير، وأُبُوّة خير[3]، وأخوّة بليغة، وخؤولة[4]، أديب حافظ قائم على فنّ العربية، مشاركٌ في فنون لِسانيّة، ظرف[5] في الإدراك، جيد النظم، مِطْواع القريحة، باطنُهُ نُبْلٌ وظاهره غَفْلة. قعد للإقراء ببلده غرناطة مُعِيدًا ومُسْتقلاً، ثم تقدّم للقضاء بجهات نبيهة على زمن الحَداثة. أخذ عن والده الأستاذ الشهير الشهيد[6] أبي القاسم أشياء كثيرة، وعن القاضي أبي البركات ابن الحاج، وقاضي الجماعة الشريف السبتي، والأستاذ البياني، والأستاذ الأعرف أبي سعيد بن لب، والشيخ المقرىء أبي عبد اللّه بن بيبش، وأجازه رئيس الكُتّاب أبو الحسن بن الجياب، وقاضي الجماعة أبو عبد اللّه بن[7] بكر، وأبو محمد بن سلمون، والقاضي ابن شبرين[8]، والشيخ أبو حيان، وقاضي الجماعة أبو عبد اللّه المقَّري، وأبو محمد الحضرمي، وجماعة آخرون، وشعره نبيل الأغراض، حسن المقاصد، انتهى المقصود منه.

وممن أخذ عنه العباس البقني شارح البردة، والقاضي أبو بكر بن عاصم، وبالإجازة الإمام ابن مرزوق الحفيد، وغيرهم.

وقد عرّف ابن فرحون في «الديباج المذهب» بأبيه الشهيد أبي القاسم وأخيه القاضي أبي بكر دونه، وعرّف ابن الخطيب في «الإحاطة» بأبيه وأخويه أبي بكر وأبي عبد اللّه، وفيما ذكرْنا مِنْ أمرهم كفاية.

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٣٩).
(٢) الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٥). وترجمته أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ٩٦).
(٣) في الإحاطة: «خيّرة».
(٤) في الإحاطة: «وخؤولة تميّزت من السلطان بحُظْوة».
(٥) في الإحاطة: «طِرْف».
(٦) في الإحاطة: «الشهير».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٨٧): «أبو بكر».
(٨) في الطبعة نفسها: «ابن شيرين».

ومِمّا نسبه الوادي آشي لأبي محمد عبد اللّه بن جزي قولُه: [السريع]

يا من أتاني بُغْدُهُ بعدما ... عاملته بالبرّ واللطفِ
إني تأمّلتُ وقد سرّني ... بجملةٍ من سورة الكهفِ

وله أيضًا[1]: [الوافر]

لقد قَطّعتَ قلبي يا خليلي ... بهجرٍ طالَ منك على العليلِ
ولكن ما عجيبٌ منك هذا ... إذ التقطيعُ من شأنِ الخليلِ[2]

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه اللّه تعالى.

٢٧ـ ومنهم القاضي الأديب جملة الظرف أبو بكر بن شبرين[3].

وقد استوفى ترجمته في «الإحاطة» وذكره أيضًا في ترجمة ذي الوزارتين ابن الحكيم بأنْ قال بعد حكايته قتلَ ابن الحكيم ما صورته: ومِمَّنْ رثاه شيخنا أبو بكر بن شبرين رحمه اللّه تعالى بقوله[4]: [الطويل]

سقى اللّه أشلاءً كَرُمْنَ على البِلا ... وما غَضَّ من مقدارها حادثُ البَلاَ
ومِمّا شجاني أنْ أُهِينَ مكانُها ... وأُهْمِل قَدْرٌ ما عهدناه مُهْمَلاَ
ألا اَصنعْ بها يا دهرُ ما أنتَ صانعٌ ... فما كنتَ إلاّ عَبْدَها المُتَذَلِّلا
سَفَكْتَ دمًا كان الرقوءُ نوالَهُ ... لقد جئتما شنعاءَ فاضحةَ المَلا
بِكفَّي سَبَنْتَى أزرقِ العَيْنِ مُطْرِقٍ[5] ... عدا فغدا في غيِّه مُتَوَغِّلاَ
لَنِعْمَ قتيلُ القومِ في يومِ عيده ... قتيلٌ تُبَكِّيه المكارمُ والعُلا

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٩٧) والكتيبة الكامنة (ص ٩٦).

(٢) في الإحاطة: «إنه التقطيع..». وأراد من التقطيع تقطيع قلبه، وورّى بالتقطيع الذي يختص بالشِّعْر والذي وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي.

(٣) ترجمة ابن شبرين في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٣٩) والكتيبة الكامنة (ص ١٦٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٣).

(٤) الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦).

(٥) السَّبَنْتَى: النمر. محيط المحيط (سبت). وصدر هذا البيت عجز بيت من قصيدة تنسب إلى جَزْء بن ضرار، أخي الشماخ، قاله في عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، والبيت هو: [الطويل]

وما كنتُ أخشى أن تكون وفاته ... بكفَّيْ سَبَنْتَى أزرقِ العينِ مطرقِ

طبقات ابن سلام (ص ١١١).

أَلاَ إنَّ يومَ ابنِ الحكيم لَمُشْكِلٌ   فؤادي، فما ينفكُّ ما عشتُ مُشْكَلاَ
فَقَدْناه في يومٍ أغرَّ محجَّلٍ   ففي الحَشْر نَلْقاه أغرَّ محجَّلا
سَمَتْ نحوه الأيامُ وهو عميدُها   فلم تشكرِ النُّعمى ولم تحفظِ الوَلاَ
تعاورتِ الأسيافُ منه مُمَدَّحًا   كريمًا سما فوق السِّماكين مزحلا[1]
وخانته رِجْلٌ في الطواف به سعتْ   فناء بصدرٍ للعلوم تحملا
وجُدِّل لم يَحْضُرْه في الحيّ ناصرٌ   فمن مبلغ الأحياءِ أنَّ مُهَلْهَلا[2]
يَدُ اللَّه في ذاك الأديم مُمَزَّقًا[3]   تُبَارِكُ ما هَبَّتْ جنوبًا وشمألا
ومن حَزَني أن لستُ أعرف مَلْحَدًا   له فأرى للتُّرْب منه مقبلا
رُوَيْدك يا من قد غدا شامتًا به   فبالأمس ما كان العمادَ المُؤَمَّلا
وكنا نُغادي أو نُراوحُ بابَهُ   وقد ظلَّ في أَوْج العُلاَ مُتَوَقِّلاَ[4]
ذكرناهُ يومًا فاستهلّت جفونُنا   بدمعٍ إذا ما أمحل العام أخضلا
ومازَجَ منه الحزنُ طولَ اعتبارنا   ولم نَدْرِ ماذا منهما كان أطولا
وهاج لنا شجوًا تَذَكُّرُ مجلسٍ   له كان يُهدي الحيَّ والملأ الأُلى
به كانت الدنيا تؤخِّر مُدْبِرًا   من الناس حتمًا أو تُقَدِّم مُقْبلا
لِتَبْكِ عيونُ الباكيات على فتًى   كريمٍ إذا ما أسبغَ العُرْفَ أجزلا
على خادم الآثار تُتْلَى صحائحًا   على حامل القرآن يُتْلَى مفصَّلا
على عَضُدِ المُلك الذي قد تضوَّعَتْ   مكارمُه في الأرض مِسْكًا ومَنْدَلاَ
على قاسمِ الأموالِ فينا على الذي   وضعْنا لديه كلَّ إصرٍ على عُلاَ
وأنَّى لنا من بعده مُتَعَلَّلٌ   وما كان في حاجاتنا مُتَعَلَّلا
أَلاَ يا قصيرَ العُمْر يا كامل العُلا   يمينًا لقد غَادَرْتَ حُزْنًا مؤثَّلا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٨٩): «مرجلاً». وفي الإحاطة: «منزلاً».
(٢) إشارة إلى قول الشاعر في مهلهل بن ربيعة: [الكامل]
من مبلغ الحيّين أنَّ مهلهلاً   أضحى قتيلاً في الفلاة مجندلا
(٣) هذا من قول جَزْء بن ضرار: [الطويل]
عليك سلامٌ من أميرٍ وباركتْ   يَدُ اللَّهِ في ذاك الأديم المُمَزَّقِ
الشعر والشعراء (ص ٢٣٥).
(٤) مُتَوَقِّلاً في أوج العلا: صاعدًا فيه. لسان العرب (وقل).

يسوءُ المُصَلّى أن هلكْتَ ولم تُقَمْ عليك صلاةٌ فيه يشهدها الملا
وذاك لأنَّ الأمـر فـيـه شـهـادةٌ وسُنَّتُـها مـحـفـوظـةٌ لـن تُـبَـدَّلا
فيا أيها المَيْتُ الكريمُ الذي قضى سعيدًا حميدًا فاضلاً ومفضَّلا
لتهنك[1] من ربِّ السماء شهادةٌ تُلاقي بِبُشْرَى وجهك المُتَهَلِّلا
رثيْتُك عن حبّ ثوى في جوانحي فما وَدَّعَ القلبُ العميدُ وما قلا[2]
ويا رُبَّ من أوليْته منك نعمةً وكنتَ له ذُخْرًا عتيدًا ومَوْئلا
تناساك حتى ما تَمُرُّ ببالـه ولم يَذَّكرْ[3] ذاك الندى والتَّفَضُّلا
يُرابِضُ في مثواك كلَّ عشيّةٍ صفيفَ شواءٍ أو قديرًا مُعَجَّلا[4]
لحى اللّه من ينسى الأَذِمَّةَ رافضًا ويُذْهَلُ مهما أصبح الأمر مُشْكلا
حَنانَيْكَ يا بَدْرَ الهُدَى فَلَشَدَّ ما تركتَ بدورَ الأفق بعدك أُفَّلاَ
وكنتَ لآمالي حياةً هنيئةً فغادرْتَ مني اليوم قلبًا مُقَتَّلا
فلا وأبيك الخيرِ ما أنا بالذي على البُعْدِ يَنْسَى من ذِمامك ما خلا
فأنت الذي آويتني مُتَغَرِّبًا وأنت الذي أكرمتني مُتَطَفِّلا
فآليتُ لا ينفكُّ قلبيَ مُكْمَدًا عليك ولا ينفكُّ دمعيَ مُسْبلا

وكتب ابن لسان الدين[5] على هامش هذه القطعة ما صورته: شكر اللّه وفاءك يا ابن شبرين! وقدَّس لحدك! وأين مثلك في الدنيا حسنًا ووفاء وعلمًا؟ لا كما صنع ابن زَمْرَك في ابن الخطيب مخدومه، قاله علي بن الخطيب، انتهى.

٢٨ـ ومن أشياخ لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى الشيخ الأستاذ العلاّمة العلم الأوحد الصَّدْر المصنّف المحدّث الأفضل الأصلح الأورع الأتقى الأكمل أبو عثمان سعد

---

(١) في الإحاطة: «لِتَتْهَلَّ».
(٢) هذا من قول اللّه تعالى: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى﴾. سورة الضحى ٩٣، الآية ٣.
(٣) يذّكر: يتذكّر. محيط المحيط (دكر).
(٤) أخذه من قول امرىء القيس في معلقته: [الطويل]
وظلَّ طُهاةُ اللحمِ من بَيْنِ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شواءٍ أو قَدِيرٍ مُعَجَّلِ
ديوان امرىء القيس (ص ٢٢).
(٥) كلمة «الدين» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٩٠).

ابن الشيخ الصالح التقي الفاضل المبرور المرحوم أبي جعفر أحمد بن ليون، التجيبي[1]، رضي اللّه عنه! وهو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح، وله تواليف مشهورة، منها اختصار «بهجة المجالس» لابن عبد البر، واختصار «المرتبة العليا» لابن راشد القفصي، وكتاب في الهندسة، وكتاب في الفلاحة، وكتاب «كمال الحافظ، وجمال اللافظ، في الحكم والوصايا والمواعظ»، وكان مولعًا باختصار الكتب، وتواليفه تزيد على المائة فيما يذكر، وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين.

ومِمَّا حكي عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلاً طُوَالاً فقال لمن حضره: لو رآه ابن ليون لاختصره، إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب.

ومن تواليفه كتاب «نفح السحر، في اختصار روح الشحر وروح الشعر» لابن الجلاب الفهري، رحمه اللّه! ومنها كتاب «أنداء الديم، في الوصايا والمواعظ والحكم» وكتاب «الأبيات المهذبة، في المعاني المقربة» وكتاب «نصائح الأحباب، وصحائح الآداب» أورد فيه مائتي قطعة من شعره تتضمّن نصائح متنوّعة، ولننفح منها نبذة فنقول: منها في التحريض على العلم قوله رحمه اللّه تعالى: [المجتث]

زاحِمْ أُولي العلم حتى ... تُغْتَدَّ منهمْ حقيقهْ
ولا يَرُدَّكَ عَجْزٌ ... عن أخذ أعلى طريقهْ
فإنَّ مَنْ جَدَّ يعطَى ... فيما يحبُّ لحوقهْ

وقوله: [السريع]

شفاء داءِ العيِّ[2] حسنُ السؤالْ ... فاسألْ تَنَلْ علمًا وقُلْ لا تبالْ
واطلبْ فالاستحياءُ والكبرُ من ... موانعِ العلمِ فما إنْ يُنالْ

---

(١) ترجمته في الكتيبة الكامنة (ص ٨٦) وفيه أنه أبو عثمان سعيد.
(٢) العيُّ: العجز عن النطق، والمراد هنا الجهل. محيط المحيط (عيي).

وقوله: [البسيط]

(علمت شيئًا وغابتْ عنك أشياءُ)[1] فانظرْ وحَقِّقْ فما للعلم إحصاءُ

للعلم قسمانِ: ما تدري وقولك لا أدري، ومن يدّعي الإحصاء هَذّاءُ[2]

وقوله: [البسيط]

من لم يكنْ علمه في صدره نشبتْ يداهُ عند السؤالات التي تردُ

العلمُ ما أنت في الحمّام تحضُرُهُ وما سوى ذلك التكليفُ والكمدُ

وقوله: [السريع]

الدرسُ رأسُ العلم فاحرصْ عليه فكلُّ ذي علمٍ فقيرٌ إليهْ

مَنْ ضَيَّعَ الدرسَ يُرى هاذيًا عند اعتبارِ الناسِ ما في يديهْ

فعزَّةُ العالم مِنْ حِفْظِهِ كعزَّةِ المُنْفِقِ فيما عليهْ

وقال رحمه اللّٰه تعالى في غير ما سبق: [الوافر]

ثلاثٌ مهلكاتٌ لا محالَهْ هوى نفسٍ يقودُ إلى البطالهْ

وشُحٌّ لا يزالُ يُطاع دأبًا وعُجْبٌ ظاهرٌ في كلِّ حالهْ

وقال: [الكامل]

اللهوُ مَنْقَصةٌ بصاحِبِهِ فاحذَرْ مذلَّةَ مؤثرِ اللهوِ

واللغوُ نَزِّهْ عنه سَمْعَكَ لا تجنحْ له، لا خيرَ في اللغوِ

وقال: [الخفيف]

لا تمالىءْ[3] على صديقكَ وادرأْ عنه ما اسطعتَ من أذًى واهتضامِ

ما تناسى الذِّمامَ قطُّ كريمٌ كيف ينسى الكريمُ رَعْيَ الذمامِ

تُطعمُ الكلبَ مرةً فيحامي عنك، والكلبُ في عداد اللئامِ

---

(١) صدر هذا البيت من قول أبي نواس: [البسيط]

قُلْ لمن يدّعي في العلم فلسفةً حَفِظْتَ شيئًا وغابتْ عنك أشياءُ

ديوان أبي نواس (ص ٧).

(٢) الهذّاء: الكثير الهذيان. لسان العرب (هذي).

(٣) مالأ: ساعد وعاون. لسان العرب (ملأ).

وقال: [الكامل]

احذرْ مُؤاخاةَ الدنيء فإنها ... عارٌ يشينُ ويورثُ التضريرا
فالماء يخبثُ طعمُهُ لنجاسةٍ ... إن خالطته ويُسْلَبُ التطهيرا

وقال: [المتقارب]

تَحَفَّظْ من الناس تَسْلَمْ ولا ... تكنْ في تَقَرُّبِهِمْ ترغبُ
ولا تتركِ الحزمَ في كلِّ ما ... تريدُ، ولا تَبْغِ ما يصعبُ

وقال: [البسيط]

إخوانك اليومَ إخوانُ الضرورةِ لا ... تثقْ بهم يا أخي في قولٍ أو فِعْلِ
لا خيرَ في الأخ إلاَّ أن يكونَ إذا ... عَرَتْكَ[1] نائبةٌ يقيك أو يُسْلي

وقال: [مجزوء الرمل]

طلبُ الإنصاف من قلّة إنصافٍ فساهلْ
لا تناقشْ وتَغَافَلْ ... فاللبيبُ المتغافلْ
قلَّما يحظى أخو الإنـ ... ـصافِ في وقتٍ بطائلْ

وقال: [مخلع البسيط]

من خافه الناسُ عَظَّموه ... وأظهروا بِرَّهُ وشُكْرَهْ
ومن يكنْ فاضلاً حليمًا ... فإنما حَظُّهُ المَضَرَّهْ
فآمرزْ وكُنْ صارمًا مبيرًا[2] ... يَهَبْكَ مَنْ قد تخافُ شَرَّهْ

وقال: [البسيط]

إن تَبْغِ عدلاً فما ترضى لنفسك من ... قولٍ وفعلٍ به أعمل في الوَرَى تَسُدِ
وكلُّ ما ليس ترضاهُ لنفسك لا ... تفعلْه مَعْ أحدٍ تكنْ أخا رَشَدِ

---

(١) عرتك: نَزَلَتْ بك. لسان العرب (عرا).
(٢) مبيرًا: مهلكًا. لسان العرب (بور).

وقال: [الرمل]

حسبيَ اللَّهُ لقد ضَلَّتْ بنا	عن سبيل الرُّشد أهواءُ النفوسْ
عجبًا أنَّ الهوى هُونٌ وأن	نؤثر الهُونَ وإذلالَ الرؤوسْ

وقال: [الخفيف]

مَنْ يُخَفْ شرُّه يُوَفَّ الكرامَهْ	ويوالى الرعايةَ المُسْتدامَهْ
وأخو الفضلِ والعفافِ غريبٌ	يحملُ الذّلَّ والجفا والملامهْ

وقال: [الكامل]

دَعْ من يسيءُ بك الظنونَ ولا	تحفلْ به إن كنتَ ذا هِمَّهْ
من لم يحسِّنْ ظنَّه أبدًا	بك فاطَّرِحْهُ[1] تكتفي هَمَّهْ

وقال: [البسيط]

نَزِّهْ لسانَكَ عن قولٍ تُعابُ به	وارغبْ بسمعك عن قيلٍ وعن قالِ
لا تَبْغِ غيرَ الذي يعنيك واطِّرِحْ الـ	فضولَ تحيا قريرَ العينِ والبالِ

وقال: [الخفيف]

كثرةُ الأصدقاءِ كثرةُ غُرْمٍ[2]	وعتابٌ يُغْيي وإدخالُ همّْ
فاغْنَ بالبعض قانعًا وتغافل	عنهمُ في قبيح فعل وذمّْ

وقال: [السريع]

ذلُّ المعاصي ميتةٌ يا لها	من ميتةٍ لا ينقضي عارُها!
عزُّ التُّقى هو الحياةُ التي	ذو العقلِ والهمَّةِ يختارُها

وقال: [الخفيف]

لا تُسَمِّعْ يومًا صديقَك قولاً	فيه غضٌّ ممن يحبُّ الصديقْ
إنَّ بِرَّ الصديقِ لا شكَّ منه	لصديقِ الصديقِ أيضًا فريقْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٩٤): «بك اطِّرِحْهُ» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) الغُرْم: الخسارة. لسان العرب (غرم).

وقال: [السريع]

لـلـجـار حَـقٌّ فـاعـتـمـدْ بِـرَّهُ   واحـمـلْ أذاه مـغـضـيًـا سـاتـرا
فاللَّه قد وَصَّى به[1] فاغتفرْ   زلَـلَـهُ الـبـاطـنَ والـظـاهـرا

وقال: [الخفيف]

سالِمِ الناسَ ما استطعْتَ وداري   أخسرُ الناسِ أحمقٌ لا يداري
ضُرُّكَ الناسَ ضُرَّ نفسك يَجْني   لا يـقـومُ الـدخـانُ إلاَّ لـنـارِ

وقال: [السريع]

النصحُ عند الناس ذنبٌ فَدَعْ   نُصْحَ الذي تخافُ أن يَهْجُرَكْ
الـنـاسُ أعـداءٌ لِـنُـصَّـاحِـهِـم   فاتركْ هُدِيتَ النصحَ فيمن تركْ

وقال: [الكامل]

تجري الأمورُ على الذي قد قُدِّرا   مـا حـيـلـةٌ أبـدًا تـردُّ مُـقَـدَّرا
فارضَ الذي يجري القضاءُ به ولا   تضجرْ فَمِنْ عدمِ الرضا أن تضجرا

وقال: [الطويل]

أخوكَ الذي يحميك في الغيب جاهِدًا   ويسترُ ما تأتي من السوء والقبحِ
وينشرُ ما يرضيك في الناس معلنًا   ويغضي ولا يألو من البرِّ والنصحِ

وقال: [السريع]

لا تصحبِ الأردى فتردى مَعَهْ   وربـمـا قـد تـقـتـفـي مـنـزعَـهْ
فالحبلُ إن يُجْرَرْ على صخرةٍ   أبـدى بـهـا طـريـقـةً مُـشْـرَعَـهْ

وقال: [البسيط]

ما فات أو كان لا تندمْ عليه فما   يفيدُ بعد انقضاءِ الحادثِ الندمُ
ارجعْ إلى الصبر تغنمْ أَجْرَهُ وعسى   تـسـلـو بـه فـهـو مَـسْـلاةٌ ومُـغْـتَـنَـمُ

---

(١) هذا من قول رسول اللَّه ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه».

وقال: [الكامل]

السخطُ عند النائباتِ زيادةٌ ... في الكرب تُنسي ما يكونُ من الفَرَجْ
مَنْ لم يكنْ يرضى بما يُقْضَى فيا ... للّه ما أشقى وأصعبَ ما انتهجْ

وقال: [السريع]

إن تَبْتَغِ الإخوانَ ما إنْ تجدْ ... أخًا سوى الدينارِ والدرهَمِ
فلا تهنْهما وعَزِّزْهما ... تعشْ عزيزًا غيرَ مستهضَمِ

وقال: [مجزوء الكامل]

من يستهن[1] بصديقه ... يُعِنِ العدوَّ على أذاتِهْ
برُّ الصديقِ مَهَابةٌ ... للمرءِ تُخْمِلُ[2] من عُداتِهْ
فاحفظْ صديقك ولتكنْ ... تبدي المحاسنَ مِنْ صفاتِهْ

وقال: [البسيط]

نعوذُ باللّه مِنْ شَرِّ اللسانِ كما ... نعوذُ باللّه من شَرِّ البريَّاتِ
يجني اللسانُ على الإنسانِ ميتته ... كم للسانِ مِنَ آفات وزلَّاتِ

وقال: [السريع]

من لم يكنْ مقصده مدحةً ... فقد أتى بحبوحةَ العافيهْ
محبَّةُ المدحةِ رقٌّ بلا ... عتقٍ وذلٌّ يا له داهيهْ
من لا يبالي الناسَ مدحًا ولا ... ذمًّا أصابَ العيشةَ الراضيهْ

وقال: [مجزوء الرمل]

شَرُّ إخوانِكَ مَنْ لا ... تهتدي فيه سبيلا
يُظْهِرُ الوُدَّ ويُخْفي ... مَكْرُهُ دَاءً دخيلا[3]
يتقي منك اتّقاءً ... وهو يُوليكَ الجميلا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٩٦): «يستعن».
(٢) في الطبعة نفسها: «تحمل».
(٣) الدخيل: المتغلغل في أعماق النفس. لسان العرب (دخل).

وقال: [الوافر]

قَوَامُ العيش بالتدبير فاجعلْ لعيشك منه في الأيام قسطا
وخُذْ بالصبرِ نفسَكَ فهو عِزٌ تلوذُ به إذا ما الخطبُ شطًا[1]

وقال: [مجزوء الكامل]

العيشُ ثلثٌ فطنةٌ والغيرُ منه تغافُلُ
فتغافلِ أن كنتَ امرأ إيثارَ عيشك تأمُلُ

وقال: [الرمل]

ينفذ المقدورُ حتمًا لا يُرَدّ فعلامَ الحرصُ دأبًا والكَمَدْ
أرِحِ النفسَ تَعِشْ في غبطةٍ وكِلِ الأمرَ إلى اللَّه فَقَدْ

وقال: [البسيط]

زُرْ مَنْ تحبُّ وزُرْهُ ثم زُرْهُ ولا تملَّ واجْعَلْهُ دأبًا موضعَ النظرِ
لولا متابعةُ الأنفاسِ ما بقيتْ روحُ الحياة ولا دامتْ مَدَى العُمُرِ

وقال: [البسيط]

لا تتركِ الحزمَ في شيء فإنَّ به تمامَ أمرك في الدنيا وفي الدينِ
مَنْ ضَيَّعَ الحزمَ تَصْحَبْهُ الندامةُ في أيامه ويَرَى ذُلَّ المهاوينِ

وقال: [الخفيف]

كنْ إذا زُرْتَ حاضرَ القلبِ واحْذَرْ أن تُمِلَّ المزورَ أو أن تُطيلا
لا تُثَقِّلْ على جليسٍ وخَفِّفْ إنَّ مَنْ خَفَّ عُدَّ شخصًا نبيلا

وقال: [مجزوء الرمل]

مَنْ خلا عن حاسدٍ قد ماتَ في الأحياءِ ذكرُهْ
إنما الحاسدُ كالنا رِ لعودٍ طابَ نَشْرُهْ
لا عدمْنا حاسدًا في نعمةٍ ليستْ تسرُّهْ

---

(١) شَطَّ: جاوز الحَدَّ. لسان العرب (شطط).

وقال: [الوافر]

حبيبك من يغارُ إذا زللتا ... ويُغْلِظُ في الكلام متى أسأتا
يُسَرُّ إن اتَّصَفْتَ بكلِّ فضلٍ ... ويحزنُ إن نقصتَ أو انتقصتا
ومن لا يكترثْ بك لا يبالي ... أَحِدْتَ عن الصوابِ أم اعتدلتا

وقال: [مجزوء الرمل]

لِنْ لمن تخشى أذاهْ ... وٱلْقَهُ في باب دارِهْ
إنما الدنيا مدارا ... ةٌ فمن تخشاه دَارِهْ

وقال: [مجزوء الرمل]

حَسَدُ الحاسدِ رَحْمَهْ ... لا يُرَى إلاَّ لِنِعْمَهْ
إنما الحاسدُ يشكو ... حَرَّ أكبادٍ وغمَّهْ
لا عدمنا حاسدًا في ... نعمة تُكثرُ هَمَّهْ

وقال: [المجتث]

تبديلُ شخصٍ بشخصٍ ... خسرانُ ٱلاثنين جُمْلَهْ
فاشددْ يديك على مَنْ ... عرفتَ، وارفعْ مَحَلَّهْ
فإنَّ قَطْعَ خليلٍ ... بَعْدَ التواصلِ زلَّهْ

وقال: [السريع]

أنت بخيرٍ ما تركتَ الظهورْ ... والقالَ والقيلَ وطرقَ الشرورْ
مَنْ خاض بحرًا فهو لا بدّ يبـ ... ـتلُّ ومن يَجْرِ يُصِبْه العثورْ
سلامةُ المرء اشتغالٌ بما ... يهمّهُ لنفسه من أمورْ

وقال: [الرمل]

أنت حُرٌّ ما تركتَ الطمعا ... وعزيزٌ ما تبعتَ الوَرَعا
وكفى بالعِزِّ مع حريّةٍ ... شرقًا يختارُهُ مَنْ قنعا

وقال: [مجزوء الرجز]

خَلِّ بُنَيَّاتِ الطرقْ[1] ... ووافقِ الناسَ تَفُقْ

---

(١) بُنَيّاتُ الطريق: الطرق المتشعّبة، وأراد بها هنا صغائر الأمور.

مَنْ خالفَ الناسَ أتى أعظمَ أبوابِ الحُمُقْ
فكنْ مع الناسِ فترْ كُ جملةِ الناسِ خُرُقْ[1]

وقال: [مجزوء الرمل]

لا تَضِقْ صَدْرًا بحاسدْ فهو في نارٍ يكابدْ
مَنْ يَرَى أنك خيرٌ منه تَغْرُوهُ شدائدْ
إنما الحاسدُ يَشْقَى وهو لا يحظى بعائدْ

وقال: [البسيط]

من يستمعْ في صديقٍ قولَ ذي حسدٍ لا شكَّ يُقْصيه فاحذرْ غِيلة الحَسَدِ
يهابك الناسُ ما تُدْني الصديقَ فإن أقْصَيْتَهُ زِدْتَ للأعداء في العَدَدِ

وقال: [مجزوء الرجز]

كم من أخٍ صَحِبْتُهُ والنفسُ عنه راغبَهْ
خشيتُ، إن فارقْتُهُ بالهجرِ، سوءَ العاقِبَهْ

وقال: [الوافر]

إذا كانت عيوبُكَ عند نَقْدٍ تُعَدُّ فأنتَ أجدرُ بالكمالِ[2]
متى سلمتْ من النقدِ البرايا وحسبك ما تشاهدُ في الهلالِ

وقال: [الوافر]

إذا انطوتِ القلوبُ على فسادٍ فإنَّ الصمتَ سترٌ أيّ سترِ
فلا تنطقْ وقلبك فيه شيءٌ بغير الحَقِّ، واحْذَرْ قولَ شَرِّ

وقال: [المنسرح]

إن كنت لا تنصرُ الصديقَ فَدَعْ سماعَكَ القولَ فيه واجتنبِ
سماعُ عرضِ الصديقِ مَنْقَصَةٌ لا يرتضيها الكريمُ ذو الحسبِ

---

(١) الخُرْقُ: الحمق. محيط المحيط (خرق).
(٢) أخذه من قول بشار بن برد في مدح عمير بن هبيرة: [الطويل]
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلّها كفى المرءَ نُبلاً أن تُعَدَّ معايبُهْ
ديوان بشار بن برد (ص ٤٥).

وقال: [مجزوء الرمل]

أنتَ في الناس تقاسُ ... بالذي اخترت خليلا
فأصحبِ الأخيارَ تعلو ... وتَنَلْ ذكرًا جميلا
صحبةُ الخاملِ تكسو ... مَنْ يواخيه خمولا

وقال: [المجتث]

اسمخ يزنك السماحُ ... إنَّ السماحَ رباحُ
لا تَلْقَ إلاّ بِبِشْرٍ ... فالبِشْرُ فيه النجاحُ
تقطيبك الوجْهَ جدٌّ ... أجلُّ منه المزاحُ

وقال: [البسيط]

مَنْ كنتَ تعرفه كُنْ فيه متئدًا ... يكفيك من خُلقه ما أنت تعرفُهُ
لا تَبْغِ من أحدٍ عرفته أبدًا ... غيرَ الذي كنتَ منه قَبْلُ تألفُهُ

وقال: [الكامل]

حاسبْ حبيبك كالعدوِّ تَدُمْ له ... منك المحبةُ، فالتناصف رُوحُها
من كان يغمضُ في حقوقِ صديقِهِ ... نقصتْ مودّتُه وشيبَ صَريحُها[1]

وقال: [الوافر]

تَغَافَلْ في الأمور ولا تناقشْ ... فيقطعك القريبُ وذو المودّةْ
مناقشةُ الفتى تجني عليه ... وتبدله من الراحات شدَّةْ

وقال: [الكامل]

إنْ شئتَ تعرفُ نعمةَ اللّه التي ... أولاك فانظرْ كلَّ من هو دونكا
لا تنظرِ الأعلى فتنسى ما لديـ ... ـك ومَنْ مِنَ الضعفاءِ يستجدونكا

وقال: [الخفيف]

عجبًا أن ترى قبيحَ سواكا ... وتُعادي الذي يرى منك ذاكا
لو تناصفتَ كنت تنكر ما فيـ ... ـك وترضى الوَصاةَ مِمَّنْ نهاكا

---

(١) شِيبَ صَرِيحُها: اختلط. والصريح: الخالص من كل شيء. لسان العرب (شوب) و (صرح).

وقال: [الخفيف]

جَرِّبِ الناس ما استطعْتَ تَجِدْهُمْ — لا يرى الشخصُ منهمُ غيرَ نَفْسِهْ
فالسعيدُ السعيدُ من أخذ العفـ — ـوَ وداری جميعَ أبناء جِنْسِهْ

وقال: [الرمل]

فرطُ حبِّ الشيء يعمي ويُصِمّ — فليكنْ حبُّك قصدًا لا يَصِمْ[1]
نقصُ عقلٍ أن يُغَطِّي حسَّكَ الحبُّ أو يلهيك عن أمرٍ مهمّ[2]

وقال: [المجتث]

سَلِّمْ وغُضَّ احتسابا — فذا هو اليومَ أَسْلَمْ
النقدُ نارٌ تجلّي — في القلب جمرًا تضرَّمْ
فاطْوِ اعتراضَكَ واغفلْ — عن عيبِ غيرك تَسْلَمْ

وقال: [مجزوء الكامل]

عِدَةُ[3] الكريم عطيَّةٌ — لا مطلَ في عدةِ الكريمْ
المطلُ تحريضُ العُدا — ةِ، وذاك من فعل اللئيمْ
فَدَعِ المطالَ إذا وعد — تَ فإنه عملٌ ذميمْ

وقال: [الخفيف]

مَنْ تناسى ذنوبه قَتَلَتْهُ — وأبانَتْ عنه الوليَّ[4] الحميما
ذكركَ الذنبَ نفرةٌ عنه تبقي — لكَ إنكارَ فعله مستديما

وقال: [الكامل]

عجبًا لمادحِ نفسِهِ لا يهتدي — لتنقُّصٍ يُبْدِيه فيه مَدْحُها
مَدْحُ الفتى عند التحدّثِ نفسَه — ذكرى معايِبِهِ فَيُذْرَى قُبْحُها

---

(١) يُصِمُّ في صدر البيت هو من السمع وهو ضد السمع؛ يقال: صَمَّ الرجلُ يَصَمُّ إذا ثقل سمعه. ويَصِمْ في العجز مضارع «وصمه وَصْمًا» إذا ألصق به العيب. ومعنى صدر البيت أخذه من المثل: «حبك الشيء يعمي ويصم». لسان العرب (صمم) و (وصم).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٠٢): «عن أمرهم»، وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) العِدَة: الوعد. لسان العرب (وعد).

(٤) الوليّ: الموالي لك. لسان العرب (ولي).

وقال: [السريع]

من حسنت أخلاقُهُ عاشَ في نعمى وفي عِزّ هنيءٍ ووُدّ
ومَنْ تَسُؤْ للخَلقِ أخلاقُهُ يعشْ حقيرًا في هموم وكدّ

وقال: [السريع]

من كان يحمي ناسه صار ذا عزّ وهابَتْهُ نفوسُ البَشَرْ
ومن يكنْ يخذلُ أحبابَهُ هانَ، ومن هان فلا يُعْتَبَرْ

وقال: [البسيط]

قاربْ وسَدِّدْ إذا ما كنتَ في عملٍ إنَّ الزيادةَ في الأعمالِ نقصانُ
ما خالف القصد في كلِّ الأمور هوى نفسٍ، وكلُّ هَوًى شؤمٌ وحرمانُ

وقال: [البسيط]

بقدْر همّته يعلو الفتى أبدًا لا خيرَ في خامل الهمّاتِ ممتهَنِ[1]
هيهات يعلو فتى خمولُ همّتِهِ يقودُه لابتذال النفس والمهَنِ

وقال: [السريع]

اصحبْ ذوي الحدة وارغبْ عن الـ خبيثِ فالصحبةُ ذا داؤها
وانظرْ إلى قول نبيِّ الهُدى «خيار أمتي أحِدّاؤُها»[2]

وقال: [الخفيف]

ما صديقُ الإنسان في كلِّ حالٍ يا أخي غيرَ درهمٍ يقتنيهِ
لا تُعَوِّلْ على سواه فتغدو خائبَ القصدِ دون ما تبتغيهِ

وقال: [الخفيف]

يستفزُّ الهوى للأنسان حتى لا يرى غير محنةٍ أو ضلالِ
ويرى الرشدَ غير رشدٍ، ويغدو يحسبُ الحقَّ من ضروبِ المحالِ

---

(١) الممتهن: المحتقر. محيط المحيط (مهن).
(٢) الأحدّاء: جمع الحديد وهو الرجل الطب الحاذ الشديد في الدين. لسان العرب (حدد).

وقال: [الخفيف]

لا تبالغْ في الشَّرِّ مهما استطعتا ... وتغافلْ واحلمْ إذا ما قَدَرْتَا
فانقلابُ الأمورِ أسرعُ شيءٍ ... وتجازَى بضعفِ ما قد صنعتا[1]

وقال: [البسيط]

مَثِّلْ عواقبَ ما تأتي وما تَذَرُ ... واحْذَرْ فقد ترتجي أن ينفعَ الحَذَرُ
لا تُقْدِمَنَّ على أمرٍ بلا نظرٍ ... فإنَّ ذلك فعلٌ كلّه خطرُ
وانظرْ وفكِّرْ لما ترجو توقُّعَهُ ... فعمدةُ العاقل التفكيرُ والنظرُ

وقال: [السريع]

حافظْ على نفسك من كلِّ ما ... يَشِينُها من خللٍ أو زَلَلْ
واحرصْ على تخليصها بالذي ... تنجو به من قولٍ أو من عملْ

وقال: [الكامل]

سكرُ الولاية ما له صَحْوُ ... وكلامُها وحراكُها زَهْوُ
يهذي الفتى أيام عزّتها ... فإذا تَقَضَّتْ نابَهُ شَجْوُ[2]
فحذارِ لا تغررك صولتها ... وزمانها فثبوتها مَحْوُ

وقال: [البسيط]

دَعِ الجدالَ ولا تحفلْ به أبدًا ... فإنه سببٌ للبُغْضِ ما وُجِدا
سلِّمْ تَعِشْ سالمًا من كلِّ مَتْعبةٍ ... قريرَ عينٍ إذا لم تعترضْ أحدا

وقال: [البسيط]

إذا ترى المبتلى اشكر أن نَجَوْتَ ولا ... تَشْمَتْ به ولْتَسَلْ من ربِّك العافيهْ
وخَفْ من أن تبتلى كما ابتلي فَتُرَى ... كما تراه وما تقيكَ من واقيهْ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٥٧): «ما قدّرتا».
(٢) الشجو: الحزن. لسان العرب (شجا).

وقال: [السريع]

العمرُ ساعاتٌ تقضَّى فلا ... تُقَضِّها[1] في السَّهْوِ والغفلهْ
واعملْ لما أنت له صائرٌ ... ما دمتَ من عمرك في مُهْلَهْ
ولا تكنْ تأوي لدنيا وقُلْ ... لا بُدَّ لا بُدَّ مِنَ النقلهْ

وقال: [الخفيف]

كنْ رفيقًا إذا قدرت حليما ... وتغافلْ تسلكْ طريقًا قويما
لا تَظُنَّ الزمانَ يبقى على من ... سرَّه أن ينيل عزًا سليما
إنَّ للدهر صولةً وانقلابًا ... ولهذا نعيمه لن يدوما

وقال: [السريع]

من لم يكن ينفعُ في الشدَّهْ ... فلا تكنْ معتمدًا وُدَّهْ
لا تعتمدْ إلاَّ أخا حُزمةٍ ... إن ناب خطبٌ تُلْفِهِ عُدَّهْ[2]
وخَلِّ من يهزأ في ودّه ... ولا ترى في معضلٍ جِدَّهْ

وقال: [الطويل]

أخوك الذي تلفيه في كلِّ معضلٍ ... يدافعُ عنك السوءَ بالمال والعِرْضِ
ويسترُ ما تأتي من القبح دائمًا ... وينشر ما يُرْضي وإن سؤته يُغْضي[3]

وقال: [الكامل]

لا تَنْهَ عَمّا أنت فاعلُهُ ... وانظر لما تأتيه من ذنبِ
وابدأ بنفسكَ فأنهها فإذا ... تقفو الصواب فأنتَ ذو لبٍّ[4]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٠٤): «تقضيه».
(٢) العُدّة: ما تعدُّه لوقت الحاجة. لسان العرب (عدد).
(٣) يغضي: يُغمض عينيه. لسان العرب (غضا).
(٤) أخذ هذا من قول أبي الأسود الدؤلي: [الكامل]
إبْدأ بنفسك فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

وقال: [البسيط]

ليس الصديقُ الذي يلقاك مبتسمًا ولا الذي في التهاني بالسرور يُرَى
إنَّ الصديق الذي يولي نصيحته وإن عَرَتْ[1] شدّةٌ أغنى بما قدرا

وقال: [الكامل]

عجبًا لمستوفٍ منافعَ نفسه ويرى منافعَ من سواه تصعبُ
ما ذاك إلاَّ عُدْمُ إنصافٍ ومَنْ عدمَ التناصفَ كيف يرجو يُصْحَبُ

وقال: [السريع]

مَنْ عدم الهمَّةَ في راحةٍ من أمره يكرمُ أو يهتضمْ
وإنما يشقى أخو همّةٍ فإنَّ الأنكاد بقدرِ الهممْ

وقال: [الخفيف]

قلّما تنفعُ المداراةُ إلاَّ عند أهل الحِفاظِ والأحسابِ[2]
مَنْ يداري اللئيمَ فهو كمن يسـ تعملُ الدُّرَّ في نحورِ الكلابِ

وقال: [السريع]

دنياك هذي عَرَضٌ زائلٌ تفتنُ ذا الغِرَّةِ والغفلَهْ
فاعملْ لأخراك وقدِّمْ لها ما دُمْتَ من عمرك في مُهْلَهْ

وقال: [السريع]

نصيحةُ الصديقِ كنزٌ فلا تَرُدَّ ما حييتَ نصحَ الصديقْ
وخُذْ من الأمور ما ينبغي ودَعْ من الأمور ما لا يليقْ

وقال: [الخفيف]

أنتَ حُرٌّ ما لم يقيِّدْك حُبُّ أو تكن في الورى يُرَى لك ذَنْبُ
الهوى كلّه هَوَانٌ وشغلٌ والمعاصي ذلٌّ يُعانى وكَرْبُ

(١) عَرَتْ شدّةٌ: دهمت، أصابت. لسان العرب (عرا).
(٢) الحِفاظ، بكسر الحاء: المحافظة والذبّ عن المحارم. الأحساب: جمع حسب وهو الأصل. لسان العرب (حفظ) و (حسب).

وقال: [المجتث]

هَوِّنْ عليك الأمورا ... تَعِشْ هنيئًا قريرا
واعلمْ بأنَّ الليالي ... تبلي جديدًا خطيرا
وتستبيحُ عظيمًا ... ولا تجير حقيرا

وقال: [المجتث]

ألفُ صديقٍ قليلُ ... والودُّ منهمْ جميلُ
كما عدوٌّ كثيرٌ ... إذ ضرُّهُ لا يزولُ
فلا تُضَيِّعْ صديقًا ... فالنفعُ فيه جليلُ

وقال: [البسيط]

دَعِ الحسودَ تعاتبْه لظى حَسَدِهْ ... حتى تراه لَقًى[1] يموتُ من كمدِهْ
ما للحسودِ سوى الإعراضِ عنه وأن ... يبقى إلى كربه في يومِهِ وغَدِهْ

وقال: [البسيط]

الناسُ حيث يكونُ الجاهُ والمالُ ... فَخَلِّ عنك ولا تحفلْ بما قالوا
وعَدِّ عَمَّنْ يقولُ العلمُ قَصْدُهُمُ ... أو الصلاحُ أما تبدو له الحال
انظرْ لماذا همُ يسعون جهدهمُ ... يبنْ لك الحقُّ لا يعروه إشكالُ

وقال: [الوافر]

توسَّطْ في الأمورِ ولا تجاوزْ ... إلى الغاياتِ فالغاياتُ غَيُّ
كلا الطرفينِ مذمومٌ إذا ما ... نظرتَ وأخْذُكَ المذمومَ عِيُّ

وقال: [السريع]

عاملْ جميعَ الناسِ بالحسنى ... إن شئتَ أن تحظى وأن تَهْنا
ولا تسيءْ يومًا إلى أحدٍ ... فتجمع الراحةَ والأَمْنا

---

(١) اللَّقى، بفتح اللام: المُهْمَلُ. لسان العرب (لقا).

وقال: [الخفيف]

لا تُفَكِّرْ فللأمورِ مُدَبِّرْ   وأرْضَ ما يفعل المهيمنُ واصبِرْ
أنتَ عبدٌ وحكمُ مولاكَ يجري   بالذي قد قضى عليك وقَدَّرْ

وقال: [المجتث]

إذا رأيتَ القبيحا   فقلْ كلامًا مليحا
وأغْضِ واسْتُرْ وسلِّمْ   وكنْ حليمًا صفوحا
تَعِشْ هَنِيئًا وتلقى   بِرًّا وشكرًا صريحا

وقال: [السريع]

من ينكرِ الإحسانَ لا تُولِهِ   ما عِشْتَ إحسانًا فلا خيرَ فيهْ
البذرُ في السِّباخ[1] ما إن له   نفعٌ فَذَرْهُ فَهْوَ فِعْلُ السفِيْه

وقال: [السريع]

من لم يكن ينفعُ في وُدِّهِ   دَعْهُ ولا تُقِمْ على عَهْدِهِ
وُدٌّ بلا نفعِ عناءٌ فلا   تُعنَ بشيءٍ حادَ عن حَدِّهِ

وقال: [الخفيف]

دُرْ مع الدهر كيفما   دار إن شئتَ تَصْحَبُهْ
ودَعِ الحذقَ جانبًا   ليس بالحذقِ تَغْلِبُهْ
وحَذارِ انقلابه   فكثيرٌ تَقَلُّبُهْ

وقال: [الكامل]

من ليس يغني في مغيبٍ عنك لا   تحفلْ به فودادُهُ مدخولُ[2]
يثني عليك وأنتَ مَعْهُ حاضرٌ   فإذا تَغِيبُ يكونُ عنك يميلُ

---

(١) السباخ: جمع سبخة وهي الأرض ذات النزّ والملح. لسان العرب (سبخ).
(٢) المدخول: الذي فيه دَخَلٌ وهو الفساد. لسان العرب (دخل).

وقال: [السريع]

دَعْ نُصْحَ مَن يَعْجِبُهُ رأيُهُ   ومن يرى يُنْجِحُهُ سَعْيُهُ
النصحُ إرشادٌ فلا تُولِهِ   إلاّ فتًى يحزنه غَيُّهُ
لا يقبلُ النصحَ سوى مهتدٍ   يقودُهُ لرشدِهِ هَدْيُهُ

وقال: [البسيط]

البختُ أفضلُ ما يُؤْتَى الفتى فإذا   يفوتُه البختُ لا ينفكُّ يتّضعُ
يكفيك في البخت تيسيرُ الأمورِ وأن   يكونَ ما ليس ترضى عنك يندفعُ

وقال: [الخفيف]

اِفعلِ الخيرَ ما استطعت ففعل الـ   ـخير ذكرٌ لفاعليه وذُخْرُ
وتواضعْ تَنَلْ علاءً وعزًّا   فاتّضاعُ النفوسِ عِزٌّ وفَخْرُ

وقال: [مجزوء الوافر]

صديقُ المرء دِرْهمُهُ   به ما دامَ يُغْظِمُهُ
فَصُنْهُ ما استطعتَ ولا   تكنْ في اللهو تعدمُهُ
فَفَقْرُ المرء ميتته   لذا تغدو فترحمُهُ

وقال: [الخفيف]

لا تقرَّبْ ما اسطعتَ خلَّ عدوّ   فخليلُ العدوِّ حِلْفُ عَدَاوَهْ
وَتَحَفَّظْ منه ودارِهِ وانظرْ   هل ترى مِنْ سِيماه إلاّ القساوه

وقال: [الخفيف]

لا تُعِدْ ذِكْرَ ما مضى فهو أمرٌ   قد تقضّى وقد مضى لسبيلِهْ
وتكلَّمْ فيما تريدُ من الآ   تي ودَبِّرْ للشيء قبل حلولِهْ

وقال: [البسيط]

قساوةُ المرءِ من شقائِهِ فإذا   يلينُ سَادَ بلا أيْنٍ ولا نَصَبِ
لا يرحمُ اللّه إلاّ الراحمين، فمن   يرحمْ يَنَلْ رحمةً في كلِّ منقلَبِ

وقال: [البسيط]

جيءْ بالسماحِ إذا ما جئتَ في غَرَضٍ ... ففي العبوس لدى الحاجاتِ تصعيبُ
سماحةُ المرءِ تنبي[1] عن فضيلتِهِ ... فلا يكنْ منك مهما اسطعتَ تقطيبُ

وقال: [الخفيف]

لا تسامحْ يومًا دَنِيًّا إذا ما ... قال في فاضلٍ كلامًا رديًّا
إنَّ قصدَ الدنيِّ إنزالُ أهلِ الفضلِ حتى يُرى عليهم عليًّا

وقال: [الخفيف]

خُذْ من القول بَعْضَهُ فَهْوَ أولى ... وتَحَفَّظْ ممّا يقولُ العُداةُ
ربما تأخذُ الكلامَ بِجِدّ ... وهو هَزْلٌ قد نَمَّقَتْهُ عِداتُ[2]
فاحترزْ من غرورِ ٱلاقوالِ واعلمْ ... أنَّ ٱلاقوال بعضها كذباتُ

وقال: [مجزوء الرمل]

نافسِ الأخيارِ كيما ... تحرزَ المجدَ الأثيلا
لا تكنْ مثلَ سَرَابٍ ... ريء[3] لم يَشْفِ غليلا
إنما أنتَ حديثٌ ... فلتكنْ ذكرًا جميلا

وقال: [مجزوء الكامل]

الصمتُ عِزٌّ حاضرٌ ... وسلامةٌ من كلِّ شرّ
فإذا نطقتَ فلا تُكـ ... ـثْر واجتنبْ قول الهذرْ
وحَذارِ ممّا يُتَّقى ... وحَذارِ من طرق الغرز[4]

وقال: [السريع]

سلامةُ الإنسانِ في وحدتِهْ ... وأُنْسُهُ فيها وفي حرفتِهْ
ما بقي اليومَ صديقٌ ولا ... من ترتجي النصرةَ في صحبتِهْ
فقرَّ في بيتك تسلمْ وَدَعْ ... من ابتلي بالناس في محنتِهْ

(١) تنبي: الأصل «تنبيء» فقلبت الهمزة ياء.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١١٠): «عداة».
(٣) ريء: الأصل «رُئي»، فقدم الياء على الهمزة ثم عاملها معاملة «قِيلَ».
(٤) الغَرَرُ: التعريض للهلاك. لسان العرب (غرر).

وقال: [الوافر]

مطاوعةُ النساء إلى الندامَهْ   وتوقع في المهانة والغرامَهْ
فلا تطعِ الهوى فيهنَّ واعدلْ   ففي العدل الترضّي والسلامَهْ

وقال: [البسيط]

كانت مشاورةُ الإخوان في زمنٍ   قَوْلُ المشاور فيهمْ غيرُ مُتَّهَمِ
والآن قد يخدعُ الذي تشاورُهُ   إشماتًا أو حسدًا يُلقيك في الندمِ
فاضرعْ إلى اللّه فيما أنت تقصدُهُ   يهديك للرشدِ في الأفعالِ والكَلِمِ

وقال: [الخفيف]

عَدِّ[1] عَمَّنْ يراك تصغرُ عنه   وتَحَفَّظْ من قربِهِ وأبِنْهُ
إنَّ من لا يراك في الناس خيرًا   منه فالخيرُ في التحفّظ منهُ

وقال: [البسيط]

رزانةُ المرءِ تُغلي قَدْرَهُ أبدًا   وطيشُهُ مُسقطٌ له وإن شَرُفا
فاربأْ بنفسك من طيشٍ تُعابُ به   وإن تكنْ حُزْتَ مَعْهُ العلم والشرفا

وقال: [البسيط]

الصدقُ عِزٌّ فلا تعدلْ عن الصدقِ   واحذرْ من الكذب المذموم في الخلقِ
من لازمَ الصدقَ هابته الورى وَعَلاَ   فالْزَمْهُ دأبًا تَفُزْ بالعزِّ والسبقِ

وقال: [الكامل]

ليس التفضّل يا أخي أن تحسنا   لأخٍ يجازي بالجميلِ من الثَّنَا
إنَّ التفضّلَ أن تجازيَ من أسا[2]   لك بالجميلِ وأنت عنه في غنى

وقال: [السريع]

من واصل اللّذّاتِ لا بُدَّ أن   تعقبه منها النداماتُ
فَخُذْ من اللّذّات واتركْ ولا   تسرفْ ففي الإسراف آفاتُ

---

(١) عَدِّ عنه: تجاوزْهُ ولا تركنْ إليه. لسان العرب (عدا).
(٢) أسا: أصلها أساء، حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

وقال: [مجزوء الرجز]

دَعْ مـعـجـبًـا بـنـفـسـه — فـي غـيِّـه ولـبـسِـهِ
لا يـقـبـلُ الـنـصـحَ لـهـا — مـن نـخـوةٍ بـرأسِـهِ
فَـخَـلِّـهِ لِـكَـيْـدِهِ — وعُـجْـبِـهِ بِـنَـفْـسِـهِ

وقال: [مجزوء الكامل]

عَـتَـبُ الـصـديـقِ دلالـةٌ — مـنـه عـلـى صـدق الـمـودَّةْ
فـإذا يـقـولُ فـقـصـده الـتـ — ـنـزيـه عـمّـا قـام عـنـدهْ
فاحـلـمْ إذا عتب الصديق — ولا تـخـيـبْ فـيـك قـصـدهْ

وقال: [الخفيف]

تُرْتَجَى في النوائب الإخوانُ — هـم لـدى كـلِّ شـدّةٍ أعـوانُ
فـإذا لـم يـشـاركـوا فـسـواءٌ — هم والأعداء كيفما قد كانوا

وقال: [البسيط]

انصرْ أخاك على علاّته أبدًا — تُهَبْ وتسلكْ سبيلَ العِزِّ والظفرِ
ولا تَدَعْهُ إلى الإشماتِ مطَّرحًا — فإنَّ ذلك عينُ الذُّلِّ والصغر

وقال: [البسيط]

مَنْ عزَّ كانت له الأيامُ خادمةً — تريه آماله في كلِّ ما حينِ
ومن يهنْ أولغتْ فيه المُدَى وأَرَتْ[1] — له النوائبَ في أثوابها الجونِ

وقال: [البسيط]

خَلِّ المنجّمَ يَهْذِي في غوايته — واقصدْ إلى اللّه ربّ النجم والفلكِ
لو كان للنجم حكم لم تجدْ أحدًا — يخالفُ النجمَ إلاّ أنهدّ في درك[2]

---

(١) وَلَغَ الكلبُ في الإناء ومنه: شرب ما فيه بأطراف لسانه. المُدَى: جمع مُدْية وهي الشفرة أو السكين. لسان العرب (ولغ) و (مدا).

(٢) الدّرك: أقصى قعر الشيء. لسان العرب (درك).

وقال: [السريع]

حمايةُ المرء لمن يصحبُ   تدلُّ أنَّ أصلهُ طَيِّبُ
لا خيرَ فيمن لا يُرَى ناصرًا   صديقَهُ وهْوَ لهُ يُنْسَبُ

وقال: [السريع]

يا عاتبًا من لا له هِمَّةٌ   ألاَ اتَّئِدْ إلى متى تعتبُ
هل يسمع الميّتُ أو يبصرُ الـ   ـأعمى؟ محالٌ كلُّ ما تطلبُ

وقال: [الرجز]

لا يعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضلِ   إلاَّ أُولو الفضلِ من اَهلِ العقلِ
هيهات يدري الفضلَ مَنْ ليس له   فضلٌ، ولو كان من اَهل النُّبْلِ

وقال: [السريع]

لا تطلبِ المرء بما اعتدْتَ من   أخلاقه والمرءُ في وَهْنِ
تنتقلُ الأخلاق لا شكَّ مَعْ   تَنَقُّلِ الحالاتِ والسِّنِّ

وقال: [الخفيف]

لا تعاملْ، ما عِشْتَ، غيرَكَ إلاَّ   بالذي أنتَ ترتضيه لِنَفْسِكْ
ذاك عينُ الصوابِ فألْزمْه فيما   تبتغيه من كلِّ أبناء جنسكْ

وقال: [مجزوء الرمل]

باعِدِ الناسَ يوالوكا   واعتزلْ عنهمْ يهابوكا
فإذا ما تصطفيهم   وقعوا[1] فيك وعابوكا

وقال: [مخلع البسيط]

إياك لا تخذلِ الصديقا   وارْعَ له العهدَ والحقوقا
نُصْرَتُه ما قدرْتَ عِزٌّ   تُمَهِّدُهُ للعلا طريقا
فلا تسامحْ به عدوًّا   وكنْ له ناصرًا حقيقا

---

(١) وقعوا فيك: سبّوك ولاموك. لسان العرب (وقع).

وقال: [البسيط]

حدِّثْ جليسك ما أصغى إليك، فإن تراهُ يُعْرِضُ فاقطعْ عنه وانْصَرِفِ
خَفِّفْ فقد يُضجِرُ الذي تجالسه طولُ المقام أو التحديثُ في سَرَفِ

وقال: [الوافر]

جِمَاعُ[1] الخير في تَرْكِ الظهورِ وإظهارِ التواضعِ والبرورِ
وفي أضدادها من غير شكّ جميع وجوهِ أنواعِ الشرورِ

وقال: [السريع]

محبّةُ الدرهمِ طبعُ البَشَرْ فاقْنَعْ من المرءِ بما قد حَضَرْ
وقِسْ على نفسك في بَذْلِهِ تقفْ على تحقيقِ عَيْنِ الخَبَرْ

وقال: [الخفيف]

لا يَلُمْ غيرَ نفسه كلُّ من قد عَرَّضَ النفسَ أن تُهَانَ فذلاً
ينظرُ العاقلُ الأمورَ فيأبى أن يُرَى منه غير ما هو أولى

وقال: [الخفيف]

أعْذَرُ الناس من أتته المَضَرَّةْ من أخٍ كان يرتجي منه نَصْرَهْ
مثل من غصَّ بالشراب فـ كان الهلك فيما رجاه يدفعُ ضرَّهْ

وقال: [مخلع البسيط]

سَلِّمْ تَعِشْ سالمًا مِمّا يقالْ مَنْ يَعْتَرِضْ يُعْتَرَضْ في كلّ حالْ
نقد الفتى غافلاً عن عَيْبِهِ لا يرتضى عند أرباب الكمالْ

وقال: [البسيط]

تواضُعُ المرءِ ترفيعٌ لرتبته وكبره ضعةٌ من غير ترفيعِ
في نخوةِ الكبرِ ذلٌّ لا اعتزازَ له وفي التواضع عِزٌّ غيرُ مدفوعِ

---

(١) جِماعُ الخيرِ: مجموعه، كلُّه. لسان العرب (جمع).

وقال: [الكامل]

إياك لا تنكرْ فضيلةَ كلِّ من ... تدري فضيلته فترمى بالحسدْ
إنكارُها يجني عليك تنقُّصًا ... ويزيده شرفًا يديمُ لك الكمدْ

وقال: [الكامل]

انصرْ أخًا لك[1] ما استطعتَ فإنما ... تعتزُّ بالإخوانِ ما عزُّوا
من يخذلِ الإخوانَ يخذلْ نفسه ... ويَهُنْ وما لهوانه عِزُّ

وقال: [البسيط]

إذا جزاك بسوءٍ مَنْ أسأت له ... فذاك عدلٌ وما في العدل من زللِ
جزاءُ سيئةٍ بالنصِّ سيئةٌ[2] ... لا حَيْفَ في ذاك في قولٍ ولا عملِ

وقال: [الكامل]

نفسٌ وشيطانٌ ودنيا والهوى ... يا ربِّ سلِّمْ مِنْ شرورِ الأربعهْ
أنتَ المخلِّصُ مَنْ رجاكَ وإنني ... أرجوك فيما أتَّقي أن تدفعهْ

وقال: [مجزوء الرمل]

لا تعظِّم يا أخي نَفْـ ... ـسَكَ إن شئتَ السلامَهْ
من يعظِّم نفسه يَجْـ ... ـنِ امتهانًا وملامَهْ
فتواضعْ تَلْقَ عِزًّا ... واحتفاءً وكرامَهْ

وقال: [السريع]

دَعْ لذَّةَ الدنيا فمن يُبْتَلَى ... بحبِّها ذاقَ عذابَ السَّمُومْ
لذَّاتها حلمٌ، وأيامها ... لمحٌ، ولكنْ كم لها من هُمُومْ
محبةُ الدنيا هلاكٌ، فمن ... يرومُها أهلكه ما يرومْ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٧٠): «انصرْ أخاك ما..»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) يشير إلى قول الله تعالى: ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها﴾. سورة الشورى ٤٢، الآية ٤٠.

وقال: [الخفيف]

كلُّ خِلّ يَعدُّ ما أنتَ تُخطِي ... لا تُعَوِّلْ على صفاءِ ودادِهْ
إنما الخِلُّ مَنْ تناسى خطايا ... ك ويبقى له جميلُ اعتقادِهْ

وقال: [البسيط]

من عامل الناسَ بالإنصاف شاركهمْ ... في ما لهمْ وأحَبُّوه بلا سببِ
إنصافُكَ الناسَ عدلٌ لا تزال به ... تعلو إلى أن تُرَى في أرفع الرتبِ

وقال: [الرمل]

قُلْ جميلاً إن تكلَّمْتَ ولا ... تَقُلِ الشَّرَّ فعقبى الشَّرِّ شرْ
من يَقُلْ خيرًا يَنَلْ خيرًا، ومن ... يَقُلِ الشَّرَّ إذًا يخشى الضررْ

وقال: [الوافر]

إذا التأمتْ[1] أمورُك بعضَ شيءٍ ... بأرضك فاستقمْ فيها ولازمْ
فما في غربةِ الإنسانِ خيرٌ ... وما بالغربة الدنيا تلازمْ[2]

وقال: [السريع]

إلى مَتَى تسرحُ مَرْخِيَّ العنانْ ... قُلْ يا أخي حتى متى ذا الحِرانْ[3]
اِرْجِعْ إلى اللّه وخَلِّ الهوى ... فما الهوى يا صاحِ إلاَّ هوانْ
قد أنذر الشيبُ فهل سامعٌ ... أنت فَمُضغٍ للذي قد أبانْ

وقال: [السريع]

من يكفرِ النعمةَ لا بُدَّ أن ... يُسْلَبَها من حيث لا يشعرُ
ومن يكنْ يشكرها معلنًا ... دامتْ له ناميةً تكثرُ

وقال: [المجتث]

اعذرْ أخا الفقرِ في أن ... يضيق ذَرْعًا بنفسِهْ

---

(١) التأمتْ أمورُك: استقامت. لسان العرب (لأم).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٧١): «تلايَمْ».

(٣) الحِران: عدم الانقياد، وهو مختصّ بالدواب. لسان العرب (حرن).

الـفـقـرُ مـوتٌ، ولـكـنْ   مـن لـلـفـقـيـر بـِرَمْـسِـهْ
إنَّ الـفـقـيـرَ لـمَـيْـتٌ   مـا بـيـن أبـنـاء جِـنْـسِـهْ

وقال: [السريع]

كما تدينُ أنتَ يا صاحبي   تدان فأعمل عملَ الفاضلِ
أنت كما أنت فخلِّ الذي   يُزَيِّنُ[1] النفسَ من الباطلِ
وأيـن أنـتَ ثـم أنـتَ أدْرِ ذا   حَسْبُكَ فاحذرْ زللَ العاقلِ

وقال: [السريع]

مـالُـكَ مـا أنـفـقْـتَـهُ قـربـةً   لله، والباقي حسابٌ عليكْ
فَـقَـدِّمِ الـمـالَ تَـرِدْ آمـنًـا   من بعدِهِ وهو ثوابٌ لديكْ

وقال: [الكامل]

دَعْ مدحَ نفسك إن أردتَ زكاءها[2]   فَبِمَدْحِ نفسك من مقامك تَسْقُطُ
ما أنت تخفضُها يزيد علاؤها   والعكس، فانظرْ أيُّمَا لك أَحْوَطُ

وقال: [مجزوء الكامل]

ذو النقصِ يَصْحَبُ مِثْلَهْ   فـالـشـكـلُ يـألـفُ شَـكْـلَـهْ
فاصحبْ أخا الفضلِ كيما   تـقـفـو بـفـعـلـك فـعـلَـهْ
أمـا تـرى الـمِـسْـكَ دأبًـا   يُـكْـسِـبُ طـيـبًـا مـحـلَّـهْ

وقال: [البسيط]

من عَيْنَيِ المرءِ يبدو ما يُكَتِّمُهُ   حتى يكونَ الذي يرعاه يفهمُهُ
ما يضمرُ المرءُ يبدو من شمائِلِهِ   لـنـاظـرٍ فـيـه يـهـديـه تَوَسُّمُهُ

وقال: [مجزوء الرمل]

إنـمـا الـدنـيـا خـيـالُ   وأمـانـيـهـا خـبـالُ
حـبُّـهـا سـكـرٌ، ولـكـنْ   وصـلُـهـا مـا إن يُـنـالُ
فَـتَـنَـزَّهْ عـن هَـواهـا   فَـهَـوى الـدنـيـا ضـلالُ

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٥٧٢): «تُزَيِّنُ النفس».
(٢) زكاءُ النفس: إصلاحها. لسان العرب (زكا).

وقال: [الرمل]

قلّما يؤذيك من لا يعرفُكْ　　فتحفَّظْ من صديقٍ يألفُكْ
لا تثقْ بالودِّ مِمَّنْ تصطفي　　كم صديقٍ تصطفيه يتلفكْ

وقال: [المنسرح]

لا تَضْجَرَنْ في الأمورِ وارْضَ بما　　يقضي به اللَّه فَهْوَ مكتتَبُ
ما قدّر اللَّه لا مردَّ له　　فما يفيدُ العناءُ والتعبُ

وقال: [الوافر]

تَنَزَّهْ عن دنيّات الأمورِ　　وخُذْ بالحزم في الأمر الخطيرِ
فأشرافُ الأمورِ لها جمالٌ　　وخَطْرٌ في البهاء وفي الظهورِ
وفي سَفْسَافها[1] لا شكَّ وَهْنٌ　　وتمهينٌ يشينُ مدى الدهورِ

وقال: [الكامل]

من يُبْتلى من أهله بمنغِّصٍ　　يصبر، فما أحد بغيرِ مُنَغِّصِ
من أزمنتْ بالوجه منه قرحةٌ　　يعزمْ على ضررٍ يشينُ مُخَصِّصِ

وقال: [السريع]

من كان في عزّته دارِهِ　　وكرِّرِ المشيَ إلى دارِهِ
قَبِّلْ يَدًا تعجزُ عن قطعها　　ولِنْ لمن تخشى من أضرارِهِ

وقال: [السريع]

لا تبتغِ النعمةَ من جائعٍ　　لم يَرَها قبلُ لآبائِهِ
لا يَرْشَحُ الإناء ما لم يكنْ　　ملآنَ قد أُفْعِمَ مِنْ مائِهِ

وقال: [مخلع البسيط]

مروءةُ المرءِ رأسُ مالِهْ　　وصَوْنُهُ أشرفُ اعتمالِهْ[2]
من لم يَصُنْ نفسه تردَّى　　وزال عن رتبةِ اكتمالِهْ

(١) السَّفْساف: الرديء من كل شيء والأمر الحقير. محيط المحيط (سفسف).
(٢) الاعتمال: التصرُّف في العمل. لسان العرب (عمل).

وقال: [المجتث]

تركُ المطامعِ عِزَّهْ ... واليأسُ أهنا وأنْزَهْ
هيهاتَ يعتزُّ مُثْرٍ ... أضحى للأطماعِ نُهْزَهْ[1]
نزاهةُ النفسِ عِزٌّ ... ما ذلَّ مَنْ يتنزَّهْ

وقال: [البسيط]

تعظيمُك الناسَ تعظيمٌ لنفسك في ... قلوبِ الأعداء طُرًا والأوِدّاءِ[2]
من يُعْظِم الناسَ يَعْظُمْ في النفوس بلا ... مؤونةٍ ويَنَلْ عِزَّ الأعزاءِ

وقال: [السريع]

إِقْنَعْ من الناسِ بمقدار ما ... يعطون لا تَبْتَغِ منهمْ مزيدْ
حَسْبُكَ مِنْ كلِّ امرئٍ قَدْرُ ما ... يُعْطيك فالأطماعُ ما إن تفيدْ

وقال: [الخفيف]

لِنْ إذا كانتِ الأمورُ صعابا ... وتواضعْ لها تَجِدْها قرابا
دارِ مَنْ شئتَ تنتفعْ منه واتركْ ... صَولَةَ الكبرِ فَهْيَ تجني عذابا
لا تكنْ تأخذُ الأمورَ بِعُنْفٍ ... من يعاني الأمورَ بالعنف خابا

وقال: [الخفيف]

سامحِ الناسَ إن أساءوا إليكا ... وتغافلْ إذا تَجَنَّوْا عليكا
ما ترى كيف أنتَ تعصي ومولا ... كَ يزيدُ الإنعامَ دأبًا لديكا

وقال: [مجزوء الرمل]

إغْتَنِمْ ساعةَ أنسٍ ... وأنْسَ ما كان بأمسِ[3]
ليس للمرءِ من الدُّنْـ ... ـيا[4] سوى راحة نفسِ
من يكن خِلْفَ همومٍ ... باعَ دنياه ببخسِ

(١) النهزة: فرصة الانتهاز. لسان العرب (نهز).
(٢) طُرًا: جميعًا؛ يقال: جاء القومُ طُرًا: أي جميعًا من دون أن يتخلّف منهم أحد. الأوِدّاء: جمع وَدُود ووديد وهو الكثير الحب. محيط المحيط (طرر) و (ودد).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٧٥): «ساعة الأنسِ... بالأمسِ».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٢٠): «من دنياه»، وهكذا ينكسر الوزن.

وقال: [الرمل]

حُبُّكَ الشيءَ يُغَطّي قُبْحَهُ ... فتراه حَسَنًا في كلِّ حالْ
لا يُرَى المحبوب إلاَّ حَسَنًا ... كان قبحٌ فيه مع ذا أو جمالْ
خَتَّمَ الحب على ذي الحبّ أن ... لا يرى المحبوبَ إلاَّ في كمالْ

وقال: [الرمل]

يحسبُ الناقصُ أنَّ الناسَ قد ... غَفلوا عن حاله في ضَعَتِهْ[1]
لا يَرَى الناقصُ إلاَّ أنه ... كاملٌ من نعته في صفتِهْ
غَلَطُ المرءِ يغطِّي عقله ... أن يرى النقصَ الذي في جهتهْ

وقال: [المجتث]

أيامُ عمركَ هٰذي ... ساعاتُها رأسُ مالِكْ
فاحرصْ على الخير فيها ... قَبْلَ أوانِ ارتحالِكْ
فإنما أنتَ طيفٌ ... تجتابُ سُبْلَ المَهالِكْ

وقال: [الرمل]

تجدُ الناسَ على النقص ولا ... تجدُ الكاملَ إلاَّ مَنْ ومَنْ
زمنُ الباطلِ وافى أهلُهُ ... وكذاك الناسُ أشباهُ الزمنْ

وقال: [الخفيف]

قُلْ جميلاً إذا أردتَ الكلاما ... تَجْنِ عزًّا مُهَنَّأً مستداما
إنَّ قولَ القبيحِ يورثُ بغضًا ... وصَغارًا عند الورى وملاما

وقال: [الرمل]

حَسِّنِ الظنَّ تعشْ في غبطةٍ ... إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ من أقوى الفطنْ[2]
من يظنُّ السوءَ يُجْزَى مثله ... قلَّما يُجزى قبيحٌ بحسنْ

---

(١) الضَّعَةُ: انحطاط القدر، والصَّغار. لسان العرب (وضع).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٧٦): «من أوقى الجُنَنْ».

وقال: [السريع]

إنْ تَبْغِ إخوانَ الصفاءِ فهمْ ... تحت الترابِ انتقلوا للقبورْ
إخوانك اليوم كأزمانهمْ ... مشتبهون في جميع الأمورْ

وقال: [المتقارب]

ومستقبحٍ من أخٍ خَلَّةً[1] ... وفيه معايبُ تُسترذلُ
كأعمى يخافُ على أعورٍ ... عثارًا وعن نفسه يغفلُ

وقال: [السريع]

مَنْ يَبْتَغِ الوُدَّ من الناسِ ... يكنْ لما قالوه بالناسي[2]
أَغْضِ عن الناسِ تَنَلْ وُدَّهُمْ ... إنك لا تَغْنَى عن الناس

وقال: [مجزوء الرجز]

أعيشُ مع الناس الجيلْ ... وبار فيهمُ العملْ
في أيِّ وجهٍ أمَّلوا ... يخيبُ منهمُ الأملْ
فآثِرِ العزلةَ عنـ ... ـهمْ تَنْجُ مِنْ كلِّ خَلَلْ

وقال: [الكامل]

لا تَرْجُ غيرَ اللَّه في شيءٍ تَنَلْ ... ما تبتغيه وتُكْفَ كلَّ مخوّفِ[3]
اللَّه أعظمُ مَنْ رَجَوْتَ فَثِقْ به ... فهو الذي أعطى وأنجى من كُفي

وقال: [المتقارب]

توسَّلْ إلى اللَّه في كلِّ ما ... تحبُّ بمحبوبه المصطفى
تَنَلْ ما تحبُّ كما تبتغي ... وحسبك جاهًا به وكفى

انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور.

---

(١) الخَلَّة، بفتح الخاء واللام المشدّدة: الخَصْلة والصفة، والجمع خِلال. محيط المحيط (خلل).

(٢) زيادة الباء في كلمة «الناسي» لا تجيزها قواعد اللغة العربية، وتزاد الباء في خبر «كان» أو «يكون» إذا تقدمهما نفي أو شبهه.

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٥٧٧): «تَخَوُّفِ».

وهذه نبذة من كتابه «الأبيات المهذبة، في المعاني المقربة» فمن ذلك قوله:

[الخفيف]

أُكْتُمِ السِّرَّ واجْعَلِ الصَّدْرَ قَبْرَهْ　　لا تَبُحْ ما حييتَ منه بذَرَّةْ
أنتَ ما لم تَبُحْ بسرِّكَ حُرٌّ　　فإذا بُحْتَ صِرْتَ عَبْدًا بمرَّةْ
من يُرِدْ أن يعيشَ عيشًا هنيئًا　　يتحفَّظْ مِمّا عسى أن يضرَّهْ

وقال: [السريع]

عداوةُ العاقل مَعْ عسرها　　آمَنُ من صداقةِ الأحمقِ[1]
يُمَكِّنُ الأحمقُ من نفسه　　عمدًا ومن أحبابه يتّقي
لا يحفظُ الأحمقُ خلاً ولا　　يرضاهُ للصحبةِ إلاَّ شقي

وقال: [الوافر]

إذا أمعنتَ في الدنيا اعتبارًا　　رأيتَ سرورها رهنَ انتحابِ
بعادٌ عن تدانٍ، وافتقارٌ　　عن استغنا، وشيبٌ عن شبابِ
حياةٌ كلُّها أضغاثُ حلمٍ　　وعيشٌ ظلُّه مثلُ السراب

وقال: [السريع]

مَنْ تَرَهُ يُسْرِفُ في مالِهِ　　يُتْلِفُهُ في لذّة وانهماكْ
فذلك المغبونُ في رأيه　　يسلكُ بالنفس سبيلَ الهلاكْ

وقال: [البسيط]

من لا يرى نفسه في الناس قاصرةً　　عن الكمالاتِ لم يكمل له أدبُ[2]
ومن يكنْ راضيًا عن نفسه أبدًا　　فذاك غِرٌّ عن الآدابِ محتجبُ
آدابُ الآنسانِ تحقيقًا تواضعه　　وجريه دائمًا على الذي يجبُ

---

(١) يشير إلى قولهم: «عدوٌ عاقلٌ خيرٌ من صديق جاهل».
(٢) يشير إلى قولهم: «أول الكمال الشعور بالنقص».

وقال[1]: [الوافر]

يحقُّ الحقُّ حتمًا دون شكّ وإن كره المُشَكِّكُ والمُلِدُّ[2]
صريحُ الحقِّ قد يخفى ولكنْ بُعَيْدَ خفائه لا شكَّ يبدو

وقال: [الرمل]

كُلُّ ما قد فاتَ لا رَدَّ له فلتكنْ عن ذاك مصروفَ الطَّمَعْ
أيعودُ الحسنُ من بعد الصِّبا قلّما أدبر شيء فرجعْ

وقال: [الخفيف]

اغتنمْ غفلةَ الزمانِ وبادرْ لذّةَ العيشِ ما بقيتَ سليما
أمرُ هذي الحياة أيسرُ من أن تغتدي[3] فيه لائمًا أو مَلُومَا

وقال: [الخفيف]

لا تَغُرَّنْكَ صولةُ الجاه يومًا أو تظننَّ أنها تتمادى
صولةُ الجاه لفحُ نارٍ ولكنْ كلُّ نارٍ لا بدَّ تُلْفَى رمادا

وقال: [المتقارب]

تَنَحَّ عن الناس مهما استطعتَ ولا تَكُ في الناس بالراغبِ
من اعتمدَ الناسَ يَشقَى ولا يُرى غيرَ منتقِدٍ عائبِ

وقال: [مجزوء الرمل]

لا تقل يومًا أنا[4] فتقاسي محنا
من يُعَظِّمْ نَفْسَهُ يَلْقَ هُونًا وعَنَا[5]
شَرُّ ما يأتي الفتى مَدْحُهُ لو فطنا

---

(١) سيرد هذان البيتان في هذا الجزء.
(٢) المُلِدُّ: الشديد الخصومة. لسان العرب (لدد).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٢٤): «تقتدي».
(٤) كلمة «أنا» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٥) في طبعة عبد الحميد: «هوانًا» بدل «هُونًا»، وهكذا ينكسر الوزن. والعنا: أصلها: العناء، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

وقال: [البسيط]

النَّاسُ إخوانُ ذي الدنيا وإن قبحتْ ... أفعالُهُ، وغدا لا يعرفُ الدينا
يُعَظِّمون أخا الدنيا وإن عثرتْ ... يومًا به أوْلَغُوا فيه السكاكينا[1]

وقال: [البسيط]

العدلُ روحٌ به تَحْيَا البلادُ كما ... هلاكُها أبدًا بالجورِ ينحتمُ
الجورُ شَيْنٌ به التعميرُ منقطعٌ ... والعدلُ زينٌ به التمهيدُ ينتظمُ
يا قاتَلَ اللَّه أهل الجورِ كم خربتْ ... بهم بلادٌ وكم بادتْ بهم أُمَمُ

وقال: [المجتث]

اليأسُ أسلى وأغنى ... من نَيلِ ما يُتَمَنَّى
يسلو أخو اليأس حتى ... يهنًا ولا يتعنّى
لليأسِ بردٌ فمن لم ... يَذُقْهُ لم يَتَهنَّا

وقال: [الطويل]

إذا عَظُمَتْ نفسُ امرىءٍ صار قَدْرُهُ ... حقيرًا، وحيثُ احتلَّ فالذلُّ صاحِبُهْ
يسودُ ويعلو ذو التواضعِ ... ويحظى كما يرضى وتُقْضَى مآرِبُهْ

وقال: [الخفيف]

وُدُّ من يصطفيك للنفع زورُ ... والجميلُ الذي يريك غرورُ
إنما الوُدُّ وُدُّ مَنْ ليس يخشى ... فيك مِمَّنْ يلومُ أو من يضيرُ

وقال: [السريع]

اشكرْ لمن والاك معروفا ... تكنْ بفضلِ النفسِ معروفا
شكرُ أخي المِنَّةِ عدلٌ فَكُنْ ... بالعدل مهما اسطعتَ موصوفا
من يكفرِ الإحسانَ لا بدّ أن ... يُلْفَى عن الإحسان مصروفا

---

(١) تقدم هذا المعنى في هذا الجزء في قوله:
ومن يَهُنْ أولغت فيه المُدَى وأَرَتْ ... له النوائبَ في أثوابها الجونِ

وقال: [مجزوء الرمل]

حَسَبُ الإنسانِ مالُهْ ... وهْوَ في الدنيا كمالُهْ
يُضجِرُ الفقرُ أخا الحلـ ... ـم وإنْ طالَ احتمالُهْ
عِزةُ المرءِ غناهُ ... وبه تحسنُ حالُهْ

وقال: [مجزوء الرمل]

لا تصاحبْ أبدًا مَنْ ... عقلُه غيرُ متينِ
إنَّ نقصَ العقلِ داءٌ ... يُتَّقى مثلَ الجنونِ
صحبةُ الأحمقِ عارٌ ... لاحقٌ في كلِّ حينِ

وقال: [الخفيف]

وافِقِ الناسَ إن أردتَ السلامَهْ ... إنَّ روحَ الوفاقِ روحُ كرامَهْ
من يوافقْ يَعِشْ هنيئًا قريرًا ... آمنًا من أذيَّةٍ وملامَهْ
فتَوَقَّ الخلافَ واحذرْ أذاه ... فركوبُ الخلافِ عمدًا ندامَهْ

وقال: [الخفيف]

ظلماتُ الخطوبِ مهما ادلَهَمَّتْ ... يُجْلِها كالصباحِ فَجْرُ انفراجِ
أرِحِ النفسَ لا تَبِتْ حِلْفَ همّ ... كم هموم فيها السرورُ يفاجي[1]

وقال: [السريع]

من لم يكنْ يقصد أن يُحمدا ... يَعِشْ هنيئًا ويَنَلْ أسعُدا
من يبتغي المدحَةَ لا بُدَّ أن ... يلحقه الذلُّ وأن يجهدا
عيشُ الفتى في ترك تقييده ... وموته البحثُ إذا قُيِّدا

وقال: [الخفيف]

قُلْ لأهل الحاجاتِ مهما ابتغَوْها ... حَسْبُكُمْ ما أتى من التنبيهِ
إن تريدوا الحاجاتِ من غير بطءٍ ... فاطلبوها عند الحِسانِ الوجوهِ

---

(١) يفاجي: أصلها «يفاجىء»، وقد حذفت الهمزة وقلبت ياء للضرورة الشعرية.

وقال: [البسيط]

خُـذِ الأمـورَ بـرفـقٍ واتَّـئِـدْ أبـدًا   إياكَ مِنْ عَجَلٍ يدعو إلى وَصَبِ[1]
الـرفقُ أحسـنُ ما تـؤتى الأمور بـه   يصيبُ ذو الرفق أو ينجو من العَطَبِ[2]
من يصحبِ الرفقَ يستكملْ مطالِبَهُ   كـمـا يـشـاءُ بـلا أَيـنٍ[3] ولا تَـعَـبِ

وقال: [السريع]

من يـبـتـغـي الـسـؤددَ لا بُـدَّ أن   يـرهـقـه الـجـهـدُ فـلا يـضـجـرِ
يـصـعـبُ إدراكُ الـمـعـالـي فـمـن   يَـرُمْ لـحـاقَ بـعـضـهـا يـصـبـرِ
لا يـحـصـلُ الـسـؤددُ هَـيْـنًـا ولا   يـظـفـرُ بـالـبـغـيـة إلاَّ جَـرِي[4]

وقال: [الخفيف]

عاشَ في الناس مَنْ دَرَى قَدْرَ نَفْسِهْ   ثـم داری جـمـيـع أبـنـاء جِـنْـسِـهْ
عِـلْـمُ الأنـسـان قَـدْرَهُ نُـبْـلُ عَـقْـلٍ   وذكـاءٌ يـبـيـنُ عـن فـضـلِ حَـدْسِـهْ

وقال: [الرمل]

عَـظِّـمِ الـنـاسَ تَـنَلْ تعظيمَهُمْ   واجتنبْ تحقيرهمْ فَهْوَ الرَّدَى
مَنْ يَرَ[5] الناسَ بتحقيرٍ يكنْ   عـنـدهـمْ مُـؤذًى حـقـيـرًا أبـدا
لا يـغـرَّنَّـكَ إهـمـالُ امـرىءٍ   ربـمـا يـؤذي الـذبـابُ الأسـدا

وقال: [الكامل]

حُـبُّ الـريـاسـةِ يـا لـه مـن داءِ   كم فيه من مِحَنٍ وطول عناءِ
طَلَبُ الرياسةِ فَتَّ أعضاد الورى   وأذاقَ طـعـمَ الـذُّلِّ لـلـكـبـراء
إنَّ الرياسةَ دون مرتبةِ التُّقى   فإذا اتَّقَيتَ علوتَ كلَّ علاءِ

---

(١) الوَصَبُ: المرض. مختار الصحاح (وصب).
(٢) العَطَبُ: الهلاك. مختار الصحاح (عطب).
(٣) الأَيْنُ: الإعياء. محيط المحيط (أين).
(٤) الجري: أصلها «الجريء» وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٢٧): «يرى».

وقال: [مجزوء الكامل]

لا تَـرْكُـنَـنَّ إلـى بَـشَـرْ إن شِـئـتَ تـأمَـنُ كـلَّ شَـرّ
ذَهَـبَ الـذيـن إذا ركـنْـ ـتَ لـهـمْ أمنتَ مـن الـضـرَرْ
لـم يَـبْـقَ إلاَّ شـامِـتٌ أو مـن يـضـرُّ إذا قَـدَرْ

وقال: [الخفيف]

خَلِّ رأيَ الجهّال ما اسْطَعْتَ واتْبَعْ رأيَ أهـلِ الـحـلـومِ والـتـجـريـبِ
لا تـحـدْ عـن مـشـورةٍ فـي مـهـمّ فـهـي مِـمّـا تـنـمـي حـيـاةَ الـقـلـوبِ
رأيُ أهـلِ الـصـلاحِ نـورٌ يـجـلّـي ظلمةَ الكربِ في ليالي الخطوب

وقال: [السريع]

لا يـرتـضـي بـالـدون إلاَّ امرؤٌ مُـقَـصِّـرٌ ذو هِـمَّـةٍ خـامِـلَـهْ
الـمـوتُ خـيـرٌ مِـنْ حـيـاةِ الـفـتـى مُـهْـتَـضَـمًـا ذا رتـبـةٍ سـافـلَـهْ
روحُ حـيـاةِ الـمـرءِ فـي عـزِّهِ مَنْ ذَلَّ ماتَ الميتةَ العاجلَهْ

وقال: [المجتث]

اسْـتَـغْـنِ عَـمَّـنْ تـشـاءُ فـالـلّـه يـغـنـيـك عَـنْـهُ
مَـنْ أمَّـلَ الـنـاسَ يـشـقـى ولـيـس يـقـنـع مـنـهُ
فـإنْ ظـفـرتَ بـحـرّ فـاحـفـظْ عـلـيـه وصُـنْـهُ

وقال: [الكامل]

خُذْ من صديقك قَدْرَ ما يعطيكا لا تَبْغِ أزيدَ واحذر أن يجفوكا
مَنْ يَبْغِ مـقـدارَ الـذي يـحـتـاجـه مِنَ أخيه يَبْقَ مُخَيَّبًا متروكا
شأنُ الألى رُزقوا الحِجا أن يقنعوا فـابْـغِ الـقـنـاعـةَ إنـهـا تـغـنـيـكـا

وقال: [مجزوء الرمل]

هُـنْ إذا عَـزَّ أخـوكـا[1] واخْـشَ أن يـقـرضَ فـيـكـا

---

(١) يشير إلى قولهم: «إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ».

إن مــن عــانــد أقــوى   منـه قـد ضَـلَّ سـلـوكـا[1]
نَـقْـصُ عـقـلٍ أن تـعـادي   بَــشَــرًا لا يَـتَّـقـيــكــا

وقـال: [الوافر]

تَنَزَّهْ ما حَيِيتَ عن القبيحِ   وخالفْ مَنْ يرى رَدَّ النصيحِ
وخُذْ بالحزم مهما اسْطَعْتَ واحْذَرْ   مِنَ أن يُلقيك حَزْمُكَ في فضوحِ
فلا تعدلْ عن الحقِّ التفاتًا   لغيرِ الحقِّ من بعد الوضوحِ

وقـال: [مجزوء الرمل]

لا تَـخَفْ في الحقِّ لوما   صِـدْقُـهُ يـنـجـيـكَ حـتـمـا
يـنـجـلـي الـحـقُّ ويـبـدو   نــوره لا يَــتَــعــمَّــى
شــأن ذي الـحـق اهـتـداء   وأخــو الــبــاطــلِ أعـمـى

وقـال: [البسيط]

عاملْ بِجِدّ جميعَ الناس تَحْظَ به   وجَنِّبِ الهَزْلَ إنَّ الهَزْلَ يُرْديكا
الجِدُّ أحسنُ ما تبديه من خُلُقٍ   والجِدُّ أشرفُ ما في الناس يُعْليكا
مَنْ لازمَ الجِدَّ هابَتْهُ النفوسُ ومَنْ   يهزلْ يكنْ أبدًا في الناس مهتوكا

وقـال: [الوافر]

كفاكَ اللَّهُ شَرَّ مَنِ اصطفيتا   وضُرَّ من اعتمدْتَ ومن عَرَفْتا
جميعُ الناسِ موتى عنك إلاّ   مـعـارفـك الـذيـن لـهـمْ ركـنـتـا
تَـحَـفَّظْ من قريبٍ أو صديقٍ   وكنْ في الغير دَهْرَكَ كيف شئتا

وقـال: [البسيط]

من كان يرغبُ عن أحبابه ويرى   تقريبَ أعدائه لا شكَّ يُهْتَضَمُ[2]
يُـدْنَـى الـعـدوُّ فـلا تـدنـو مودَّتُـهُ   هـيـهـات كـلُّ مُـعَـادٍ قـربُـهُ نَـدَمُ
فاحفظْ صديقك واحذرْ أن تعاديَهُ   إنَّ الـصـديـق إذا عـاديْـتَـهُ يَـصِـمُ

---

(١) يشير إلى قولهم: «لا تعاندْ من إذا قال فعل».
(٢) يُهْتَضَمُ: ينتقص حقُّه. لسان العرب (هضم).

وقال: [الكامل]

جامِلْ عدوَّكَ كي يليِّنَ حِقْدَهُ	فيكفَّ بعضَ البعضِ من إيذائِكا
واحفظْ صديقكَ ما استطعتَ فإنه	أدرى بطُرْقِ الضرِّ من أعدائكا

وقال: [البسيط]

إذا ظفرتَ بمن أخنى[1] عليك فَخُذْ	بالحلمِ فيه ودَعْ ما منه قد فرطا
إنَّ المسيء إذا جازيْتَهُ أبدًا	بفعله زدته في غيِّه شططا[2]
العفوُ أحسنُ ما يُجْزَى المسيءُ به	يهينه أو يريه أنه سَقَطَا

وقال: [الكامل]

قاتلْ عدوَّكَ بالفضائلِ إنها	أعدى عليه من السهامِ النُّفَّذِ
كَسْبُ الفضائلِ عدّةٌ تُعْليك في	رُتَبٍ بها سُبُلَ السعادة تحتَذِي
فاحرصْ على نيلِ الفضائلِ جاهدًا	إنَّ الفضيلةَ صعبةٌ في المأخذِ

وقال: [المجتث]

وَعْدُ الكريمِ وفاءُ	تجنيه كيف تشاءُ
ما حالَ قطُّ كريمٌ	ولا ثناه التواءُ
فأنجزِ الوعدَ مهما	وعدتَ فهو الزكاءُ

وقال: [الكامل]

ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ	إنَّ الغنى في النفس إن تُرَضِ[3]
رأسُ الغنى تركُ المطامع عن	زهدٍ بلا ميلٍ ولا غَرَضِ
فازهدْ تَعِشْ أغنى البريةِ في	عِزٍّ بلا هَمٍّ ولا مَضَضِ[4]

وقال: [الكامل]

زمنُ الفضائل قد مضى لسبيله	ولوى بطيب العيش وَشْكُ رَحِيلِهِ

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٨٥): «أنحى عليك».
(٢) الشطط: مجاوزة الحدّ. لسان العرب (شطط).
(٣) راضَ النفس: ذلّلها. لسان العرب (روض).
(٤) بلا مضض: بلا تعب ومشقّة وتبرّم. لسان العرب (مضض).

ركدتْ رياحُ الجدِّ بعد هبوبها	وعلا فريقُ الهَزْل بعد خمولِهِ
هيهات ما زمنُ الكرام وما همُ	ذهبوا وجدَّ الدهرُ في تحويلِهِ

وقال: [المجتث]

مروءةُ المرءِ ثوبُهْ	والعُري في الناس عَيْبُهْ
بثوبِهِ المرءُ يعلو	قَدْرًا ويُخفَظُ قربهْ
من لم يصنْ ثوبه لم	يُصَنْ وإن لاحَ شيبهْ

وقال: [الخفيف]

لا تصخْ ما بقيتَ حيًّا لقولٍ	ليس يجني عليك إلاَّ المَضَرَّةْ
واطَّرحْ ما أتاك منه وَجنِّبْ	من يرى بالفضولِ واتَّقِ ضرَّهْ

وقال: [الطويل]

ثقيلٌ تراه النفسُ في العين كالقذى[1]	وكالجبلِ الراسي على الصدر والقلبِ
تُثيرُ غمومَ المرء رؤيةُ وجهِهِ	وتشكو جفاه الأرضُ شكوى ذوي الكربِ

وقال: [السريع]

أما ترى الأشجارَ مُصْفَرَّةً	أوراقُها كالشمسِ عند المغيبْ
ما هي إلاَّ صفرةٌ آذنتْ	بأنها ترحلُ عمّا قريبْ

وقال: [مجزوء الكامل]

كُلْ ما تحبُّ وتشتهي	ودَعِ الطبيبَ وما يرى
حِفْظُ الغذاء مشقَّةٌ	ليستْ تَرُدُّ مقدَّرا
كم عُدَّ من متحفِّظٍ	كم صَحَّ مِمَّنْ قَصَّرا
كلُّ التحفّظ زائدٌ	لا بُدَّ مِمّا قُدِّرا

وقال: [مجزوء الكامل]

من كان يأكلُ ما اشتهى	ويرى مخالفةَ الطبيبْ

---

(١) القذى: ما يقع في العين من تبنٍ وغيره. لسان العرب (قذا).

سَيَرَى مضرّةَ ما أتى بَطَرًا[1] ويندم عن قريبْ
إن التحفظَ في الأمور لشيمةُ الفَطِنِ اللبيبْ
من لم يكنْ متحفظًا يخطي[2] ويبعدُ أن يصيبْ

وقال: [الوافر]

وللحَمَام حاءاتٌ إذا ما ظفرتَ بها عثرتَ على النعيمِ
فحنّاء وحَكّاكٌ مجيدٌ وقُلْ حَجَرٌ يمرُّ على الأديمِ
وحوضٌ مُفْعَمٌ ماءً لذيذًا وحجّامٌ على النهج القويمِ
وللحلق الحديدة حين تنمى وأطيبها حديثُ أخٍ كريمِ

وقال في الغزل، وهي آخر كتابه المذكور: [البسيط]

اللّه أكبرُ جَلَّتْ فتنةُ البشرِ بنور غُرّتك المُغْنِي عن البَصَرِ
شمسٌ تطلَّعُ في أُفق الجمالِ لها نورٌ تألَّقَ في داجٍ من الشَّعَرِ
ووردةُ الخَدِّ في أبراد سَوْسَنها شقائقٌ زانها التغليفُ بالدررِ
ومسكةُ الخال فوق الخدّ شاهدةٌ بأنَّ إبداعها إحكامُ مقتدرِ

وهذه نبذة من كتابه «أنداء الدِّيَم، في المواعظ والوصايا والحكم» وكل ما فيه كالذي قبله من نظمه رحمه اللّه تعالى، فمن ذلك قوله رحمه اللّه[3]: [مجزوء الرجز]

العلمُ نورٌ وهدًى فكنْ بجدٍّ طالبَهْ
واْحرصْ عليه واعتمدْ فيه الأمورَ الواجبَهْ
مَنْ لازمَ العلمَ علا على الأنامِ قاطبَهْ

وقال[4]: [الخفيف]

خالِفِ النفسَ عند قَصْدِ[5] هواها تَبْقَ ما عِشْتَ سالمًا مِنْ أذاها
فاتّباعُ الهوى هوانٌ[6] ولكنْ هَانَ للنفس كي تنالَ مُناها

---

(١) البَطَرُ، بالفتح: الأَشَر. مختار الصحاح (بطر).
(٢) يخطي: أصلها «يخطىء» فقلب الهمزة ياء الضرورة الشعرية.
(٣) الكتيبة الكامنة (ص ٨٧).
(٤) المصدر نفسه.
(٥) في الكتيبة: «في قصود هواها».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٣٣): «هو أن».

وقال[1]: [الخفيف]

مَنْ يخالفْ في شيءٍ الناسَ يَرْجِعْ   هَدَفًا للسِّهامِ مِنْ كلِّ رَاشِقْ
كُنْ مَعَ الناسِ كيف كانوا، ووافقْ   إنَّ مَنْ لا يوافقُ الناسَ مائقْ[2]

وقال[3]: [الخفيف]

أرحِ النفسَ تنتفعْ بحياتِكْ   واغنمِ العيشَ قَبْلَ يومِ وفاتِكْ
واطَّرِحْ عيبَ مَنْ سواكَ، وسالمْ   جُمْلَةَ الناسِ يَغْفَلُوا عن أذاتكْ
واعتبرْ بالذين بادوا، وبادرْ   ما يدانيك من سبيلِ نجاتِكْ

وقال: [الخفيف]

سالِمِ الناسَ ما استطعتَ، وجاملْ   مَنْ يعاديك إن أَرَدْتَ السلامَهْ
وتَنَزَّهْ عن القبيحِ وجَنِّبْ   من يرى بالفضولِ واحذرْ كلامَهْ

وقال: [الوافر]

صديقي أنتَ ما أبقى بخيرٍ   وموتي غيرُ محتاجٍ إليكا
فإنْ أحتجْ إليك فأنتَ مني   بريءٌ لا صداقةَ لي عليكا

وقال: [المجتث]

من أنتَ عنه غنيٌّ   كُنْ فيه مثلَ اعتقادِهْ
فإنْ يكنْ منه وُدٌّ   فجازِهِ بودادِهْ
وإنْ يكنْ منه بُعْدٌ   فَخَلِّهِ لبعادهْ

وقال: [المتقارب]

عليك بنفسك لا تشتغلْ   بشيءٍ سواها وخَلِّ الفُضُولْ
تَعِشْ رائحَ القلبِ في غبطةٍ   فلا من يضرُّ ولا من يقولْ

---

(١) الكتيبة الكامنة (ص ٨٧).
(٢) المائق: الأحمق. لسان العرب (مأق).
(٣) الكتيبة الكامنة (ص ٨٧).

وقال: [الخفيف]

اتْرُكِ الفكرَ في الأمورِ ودَعْها ... فكما قُدِّرَت تكونُ الأمورُ
كلُّ فكرٍ وكلُّ رأيٍ وحزمٍ ... غيرُ مُجْدٍ إذا جرى المقدورُ

وقال: [البسيط]

هوّنْ عليكَ خطوبَ الدهرِ إنَّ لها ... نهايةً والتناهي عنده الفَرَجُ
واصبرْ فإنَّ لحسنِ الصبرِ عاقبةً ... بصبحها ظلمةُ المكروبِ تنبلجُ

وقال: [الخفيف]

احذرِ البخلَ إنه شَرُّ خُلْقٍ ... يُتَحَلّى به وشَرُّ طريقَهْ
مَنْ يَجُدْ غيرَ مُسْرِفٍ فهو في النا ... سِ مُوَقًّى تُثْني عليه الخليقَهْ

وقال: [الكامل]

الذلُّ في طلبِ الإفادةِ عِزَّةٌ ... فاحرصْ على نَيلِ الإفادة تَرْشُدِ
إنَّ التعزّز في الذي تحتاجُهُ ... كبرٌ، وكبرُ المرءِ أقبحُ مقصدِ

وقال: [البسيط]

دَعْ مَنْ عَرَفْتَ ولا تشددْ عليه يَدًا ... ودارِهِ وتحفَّظْ منه ما بَقِيَا
أما ترى البَلَدَ الذي نشأتَ به ... محقَّرًا كلّما أصبحتَ معتليا
وغيره من بلاد اللّه قاطبة ... يُغليك، لا سيما إن كنتَ مُتَّقيا

وقال: [مجزوء الكامل]

العزلُ يُضحِكُ ذُلُّهُ ... مِنْ تِيهِ سلطانِ الولايهْ
فإذا وليتَ فَسِرْ على ... نهجِ الدماثة[1] والرعايهْ
واقصدْ مداراةَ الورى ... واحذرْ كُيُودَ ذوي السعايهْ

وقال: [السريع]

لا تقبلِ الحكمَ على بلدةٍ ... نشأتَ فيها؛ إنه يُحْقِدُ
رياسةُ المرء على الأهل والـ ... جيران والخلاّنِ لا تُحمَدُ

(١) الدماثة: ليونة الأخلاق وسهولتها. لسان العرب (دمث).

وقال: [الوافر]

هي الدنيا إذا فَكَّرْتَ فيها ... رأيتَ نعيمها سُمًّا نقيعا[1]
فلا تحفلْ بها واحذرْ أذاها ... فإنَّ لسمِّها قتلاً ذريعا[2]
ولا تأسفْ على ما فات منها ... وبادرْ في حياتك أن تطيعا

وقال: [الخفيف]

كُنْ وحيدًا ما عشتَ تحيا بخيرٍ ... سالمًا من شرور كلِّ البريَّهْ
إنَّ مَنْ لا يخالطُ الناسَ يبقى ... دهره لا تعروه[3] منهم أذيَّهْ

وقال: [الخفيف]

لا تَبُحْ ما حييتَ يومًا بسرّ ... لصديقٍ ولا لغيرِ صديقِ
إنَّ سرًّا يجاوزُ الصدرَ فاشٍ ... يَدَّريه[4] العدا ومَنْ في الطريقِ

وقال: [الخفيف]

لا تصاحبْ ما عشتَ إلاَّ الكبارا ... تَنَلْ ذكرًا وتعتلي مقدارا
إنَّ مَنْ ماشى في طريقٍ حقيرًا ... يكتسي منه مهنةً واحتقارا
فَتَحَفَّظْ من أن تواخي دَنِيًّا ... فهو يعديك ذلّةً وصَغارا

وقال: [الخفيف]

محدثاتُ الأمورِ أردى الشرورِ ... فتحفَّظْ من محدثاتِ الأمورِ
إنما المحدثاتُ غَيٌّ فَدَعْها ... واجتهدْ أن تُرَى مع الجمهورِ
كلُّ مَنْ يتبعِ الحوادثَ يشقى ... ويرى نفسه بغيرِ نظيرِ

وقال: [مجزوء الرمل]

مَنْ تَفَضَّلْتَ عليه ... أنتَ لا شكَّ أميرُهْ

---

(١) السُّمُّ النَّقيع: القاتل. لسان العرب (نقع).
(٢) القتل الذريعُ: السريع. لسان العرب (ذرع).
(٣) تعروه: تصيبه. لسان العرب (عرا).
(٤) يدّريه: أي يعرفه ويعلم به.

ومـن احـتـجـت إلـيـه أنـت بـالـرغـم أسـيـره
ومـن اسـتـغـنـيـت عـنـه أنـت فـي الـدنـيـا نـظـيـره

وقال: [السريع]

لـم يَـبْـقَ مَـنْ يُـطْـمَـعُ فـي وُدِّهِ كـلاً ولا من تُرْتَـضَـى صُـحْـبَـتُـهْ
الـنـاسُ أشـبـاهُ ذئـابٍ فـهـل يُـعْـلَـم ذئـبٌ حـسـنـتْ عـشـرتُـهْ
من يـبـتـغـي الـيـومَ صـديقًا كما يـرضـى فـقـد زلَّـتْ بـه بـغـيـتُـهْ

وقال: [الرمل]

فـاعـلُ الـخـيـر مُـوَقَّـى كـلَّ ما يـتّـقـي مـن ضـرّ أو مـن فـتـنـةِ
ليس يخشى فاعل الخير أذى إن فـعـل الـخـيـر أوقـى جُـنَّـةِ

وقال: [الوافر]

تَـحَـفَّـظْ من صديقك في أمورٍ فـرُبـتـمَـا[1] يـضـرُّ بـك الـصـديـقُ
من اعتمدَ الصديقَ ولم يبالِ[2] يُـصِـبْـهُ الـضـرُّ وهـو بـه خـلـيـقُ

وقال: [البسيط]

لا تـركـنـنَّ لـمـخـلـوقٍ وكـنْ أبـدًا مِمَّنْ توكَّلَ في الدنيا على اللَّهِ
ولا تـمـلْ لـسـواه مـا حـيـيـتَ فـمـن يرجو سوى اللَّه هاوٍ حَبْلُهُ واهي

وقال: [الخفيف]

طـلـبُ الـغـايـة اتّـبـاعُ غـوايـهْ فاعتمدْ في الأمور تركَ النهايهْ
من يـكـنْ راضـيًـا بـمـا يـتـسـنّـى عاشَ عيشَ الملوكِ دون أذايَهْ

وقال: [الكامل]

لا تعتمدْ أبدًا على مخلوقٍ أن تَـبْـغِ الـنـجـاحَ وتـقـصـدِ الـرشـدا
مَنْ يَرْجُ غيرَ اللّه يُحْرَمْ رشدَهُ ويـذلّ وهـو مـخـيَّـبٌ قـصـدًا

---

(١) رُبَّتما: هي ربَّ التي للتقليل، اتصلت بها تاء التأنيث لتأنيث اللفظ.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٣٧): «يبالي».

وقال: [الخفيف]

سفرُ المرء قطعةٌ من عذابهْ[1] فيه تخليقُ جسمه وثيابِهْ
إنما العيشُ للفتى بين أهلي ـهِ وخِلاَّنِهِ وفي أحبابِهْ
مَنْ يُرِدْهُ بخيرٍ اللّهُ يَكْفِهِ[2] كَرْبَ تجواله وذلَّ اغترابِهْ

وقال: [البسيط]

سَلِّمْ ولا تعترضْ يومًا على أحدٍ إن شئتَ تسلمُ من حقدٍ وأضرارِ
مَنْ يعترضْ يُعْترض لا شكَّ وهو حَرٍ[3] بذاك فالشرُّ مقدارٌ بمقدارِ

وقال: [المجتث]

إنَّ الصديقَ لَعَونٌ في كلِّ ما تبتغيهِ
فلا تُسِيءْ لصديقٍ واحذرْ وقوعَكَ فيهِ
فالمرءُ قِيلَ كثيرٌ بنفسه وأخيهِ

وقال: [الخفيف]

إفْعَلِ الخيرَ ما استطعتَ تَنَلْ ما تبتغيهِ من الثناءِ الجميلِ
فاعلُ الخيرِ آمنٌ ليس يخشى صرفَ دهرٍ ولا حلولَ جليلِ

وقال[4]: [الوافر]

يحقُّ الحقُّ حتمًا دون شَكٍّ وإنْ كرهَ المُشَكِّكُ والمُلِدُّ[5]
صريحُ الحقِّ قد يخفى، ولكنْ بُعَيْدَ خفائِهِ لا شكَّ يبدو

وقال: [مجزوء الكامل]

إنْ شئتَ عِزًّا دائمًا فأسْلُكْ سبيل من اقتنعْ

---

(١) يشير إلى الحديث: «السفر قطعة من العذاب».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٩٣): «يُكْفَى».
(٣) تقول: فلانٌ حرٍ بكذا وحريّ بكذا: أي إنه مستحقٌّ له، حقيقٌ به وجدير. لسان العرب (حرا).
(٤) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء.
(٥) المُلِدُّ: الشديد الخصومة. لسان العرب (لدد).

إنَّ القناعةَ عزَّةٌ والذُّلُّ عاقبةُ الطَّمَعْ
المرءُ إنْ قنعَ اعتلى قدرًا وإن طمعَ اتَّضَعْ[1]

وقال: [الخفيف]

اِسْتَعِنْ في الأمور بالكتمانِ وتَحَفَّظْ مِنْ شَرِّ كلِّ لسانِ
كلُّ ما لا يُدْرَى مِنَ أمرك فضلٌ ليس فيه شيءٌ من الخسرانِ

وقال: [المجتث]

مَنْ مالَ عنك بشبرٍ مِلْ أنتَ عنه بميلِ
فاللَّهُ يغنيك عنه فمنه كلُّ جميلِ
فليس في الوُدِّ خيرٌ مَعْ ترك حُسْنِ القبولِ

وقال: [المجتث]

لا تقطعنَّ صديقًا وإنْ يضقْ بك صَدْرا
واحرصْ عليه وزِدْهُ إن يَجْفُ بِرًّا وشكرا
فإنَّ قَطْعَ صديقٍ لا شكَّ يُعْقِبُ ضرّا

وقال: [الكامل]

خَلِّ التأنّقَ في اللباس وسِرْ على نهجِ الأفاضلِ في اختصارِ الملبسِ
إنَّ التأنّقَ في اللباس يُكَثِّرُ الـ حسادَ والأعداءَ للمتلبس
فالبسْ كمثل الناس لا تخرجْ عن الم عتاد في شيء فتخطىء[2] أو تُسِي

وقال: [المجتث]

لا تحقرنَّ عدوًّا ولو يكونُ كذَرَّهْ
واحذرْهُ ما اسطعتَ واجهدْ أن لا تحرّكَ شَرَّهْ
إنَّ البعوضةَ تؤذي الـ ملوكَ فوق الأسِرَّهْ[3]

---

(١) اِتَّضَعَ: أصبح وضيعًا خسيس القَدْر ذليلاً، ومن قولهم: «ذلَّ من طمع، وعزَّ من قنع». لسان العرب (وضع).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٩٤): «فتخطي».

(٣) يقال أيضًا: «إن البعوضة تدمي مقلة الأسد».

وقال: [السريع]

ما أهنأ الإنسانَ في عيشه ... ما بين أهليه وفي منزلهْ
الذلُّ في الغربة يا كَربها ... وكَرْبَ مَنْ قُوِّضَ عن معقلِهْ
وفي اقتلوا أو اخرجوا شاهدٌ[1] ... سَاوَى خروجَ المرءِ مَعْ مقتلِهْ

وقال: [البسيط]

المالُ يسترُ عيبَ المرءِ فاقْتَنِهِ ... واحفظْهُ تبقى مُوَقّى مدةَ الزمنِ
مَنْ ضَيَّعَ المالَ أبدى عيبه وجنى ... تمهينه أبدًا مِنْ كلِّ ممتهنِ

وقال: [البسيط]

سريرةُ المرءِ تُبْديها شمائلُهُ ... حتى يرى الناسُ ما يخفيه إعلانا
فاجعلْ سريرتَكَ التقوى ترى أملاً ... في كلِّ ما أنتَ تبغيه وبرهانا

وقال: [السريع]

ما تَمَّتِ الدنيا لشخصٍ ولا ... أَمَّلَ ذا فيها سوى مَنْ فُتِنْ
عادتُها الفتكُ بِمَنْ رامَها ... وكلُّ مَنْ أعرضَ عنها أَمِنْ
فلا تَغُرَّنْكَ بلذَّاتها ... فإنَّ مَنْ غُرّ بها قد غُبِنْ

وقال: [الخفيف]

لا يكن[2] عندك الخديمُ نديمًا ... إنَّ قَدْرَ الخديمِ دون النديمِ
من ينادمْ خديمه يتأذّى ... ويصيرُ الخديمُ غير خديمِ
إنّما يُصْلِحُ الخديمَ ابتعادٌ ... واشتغالٌ بشأنه المعلومِ

وقال: [الوافر]

تَثَبَّتْ في الأمور ولا تبادرْ ... لشيءٍ دون ما نَظَرٍ وفِكْرِ
قبيحٌ أن تبادرَ ثم تُخْطِي ... وترجعَ للتثبُّتِ دون عذرِ

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى: ﴿ولو أنّا كَتَبْنا عليهِمْ أنِ اقْتُلوا أنْفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فعلُوهُ إلاّ قليلٌ منهُمْ﴾. سورة النساء ٤، الآية ٦٦.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٤٠): «لا يمكن» وهكذا ينكسر الوزن.

وقال: [الكامل]

كُنْ في زمانك كيف يرضى أهلُهُ لا تَعْدُ طَوْرَهُمُ[1] ولا تتبدَّلِ
فإذا ترى الحمقى تحامَقْ مَعْهُمُ وإذا ترى العُقلاء فلتتعقَّلِ
من لم يكنْ أبدًا كأهلِ زمانِهِ يشقى، ولا يحظى بنيل مؤمَّلِ

وقال: [السريع]

الفاضلُ اليومَ غريبٌ بلا عَوْنٍ على شيء من الحقِّ
إنْ غابَ لم يُحْضَرْ وإن قال لم يُسْمَعْ ولم يؤبه بما يُلْقي
ما أضيعَ الفاضلَ يا وَيْحَهُ كأنه ليس مِنَ الخَلْقِ

وقال وهو آخر «أنداء الديم»: [مجزوء الكامل]

العزُّ عاقبةُ التُّقى والذلُّ عاقبةُ الرياسَةْ
فإذا اتّقيتَ علوتَ في أهلِ المجادةِ والنفاسَةْ
وإذَا رَأَسْتَ نَزَلْتَ في طرقِ التخلّقِ والسياسَةْ
فَلْتَخْتَرِ التقوى ولا ترأسْ فتخطيكَ الكياسَةْ

وكان تاريخ فراغه من كتاب «أنداء الديم» نصف شعبان عام واحد وثلاثين وسبعمائة.

ولنذكر بعض أناشيده التي كان ينشدها أهل مجلسه ببلد قصبة ألمرية أعادها اللّه تعالى، فمما أنشده رحمه اللّه تعالى لأبي العباس أحمد بن العريف صاحب «محاسن المجالس»[2]: [الكامل]

من لم يشاور عالما بأصوله فيقينه في المشكلات ظنونُ
من أنكر الأشياء دون تيقن وتثبت فمعاند مفتون
الكلُّ تذكارٌ لِمَنْ هو عالمٌ وصوابُها بمحالها معجونُ
والفكرُ غوّاصٌ عليها مخرجٌ والحقُّ فيها لؤلؤٌ مكنونُ

---

(١) الطَّوْرُ: الحال؛ يقال: عدا طَوْرَهُ: أي عدا حَدَّه. محيط المحيط (طور).
(٢) لم ترد هذه الأبيات في محاسن المجالس المطبوع (ط. باريس، ١٩٣٣). وقد مرّت في الجزء السادس ببعض التغيير عمّا هنا.

وأنشد رحمه اللّٰه تعالى من وجادة: [مخلع البسيط]

أعوذُ باللّٰه من أُناسٍ تشيَّخوا قبل أن يشيخوا
إِحْدَوْدَبُوا وانحَنَوْا رياءً فاحذرْهُمُ إنهمُ فخوخ[1]

وأنشد لنفسه رحمه اللّٰه تعالى: [مجزوء الرمل]

أقللِ العشرةَ تُغبطْ إنَّ مَنْ أكثر ينحطّ
وعليك الصدقَ واحْذَرْ أن تُرى في القول تشتطّ
والزمِ الصمتَ إذا ما خِفْتَ أن تلحى فتغلطْ
فعلى الفاضلِ يُلْفَى كلُّ مفضولٍ مُسَلَّطْ

وأنشد لنفسه أيضًا: [مجزوء الرمل]

جُنَّةُ العالم «لا أدري» إذا ما احتاج جُنَّهْ[2]
فإذا ما ترك الجنّة بانت فيه جِنَّهْ[3]
فالزمِ الجنَّةَ تسلمْ إنما الجنَّة جَنَّهْ

وأنشد للحلاج رحمه اللّٰه تعالى[4]: [مخلع البسيط]

يا بدرُ يا شمسُ يا نهارُ أنتَ لنا جَنَّةٌ ونارُ
تجنُّبُ الإثمِ فيكَ إثمٌ وخشيةُ العارِ فيكَ عارُ
يخلعُ فيك العِذارَ قومٌ فكيف مَنْ لا له عِذارُ

وأنشد مِمَّا ينسب للحلاج أيضًا: [المديد]

سقمي في الحب عافيتي ووجودي في الهوى عدمي
وعذابٌ ترتضون به في فمي أحلى من النعمِ
ما لضرّ في محبتكمْ عندنا واللّٰهِ مِنْ ألمِ

(١) احدودبوا: أي تشبّهوا بالأحدب في صورته. الفخوخ: جمع فخ وهو شرك الصائد. لسان العرب (حدب) و (فخخ).
(٢) الجُنّة، بضم الجيم وفتح النون المشدّدة: الوقاية. لسان العرب (جنن).
(٣) الجِنّة، بكسر الجيم وفتح النون المشددة: الجنون. لسان العرب (جنن).
(٤) ديوان الحلاج (ص ٦٢).

وأنشد لسيدي أبي العباس بن العريف في «محاسن المجالس» وهي أحسن ما قيل في طول الليل[1]: [الخفيف]

لستُ أدري أطال ليليَ أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى
لو تفرغتُ لاستطالة ليلي ولرعي النجوم كنت مُخِلاً
إن للعاشقين عن قِصَر الليـ ـل وعن طوله من الفكر شغلا

وأنشد رحمه اللّه تعالى مِمّا أنشده بعض الوعّاظ الغرباء: [الخفيف]

عانَقَتْ لامَ صُدْغِها صادُ لَثْمِي[2] فأرتْها المرآة في الخدِّ لُصّا
فاسترابتْ لَمَّا رأت ثم قالت أكِتابًا أرى ولم أرَ شخصا
قلتُ بالكشط ينمحي، قالت اكشطْ بالثنايا وتابعِ الكشط مَصّا
ثم لَمّا ذهبتُ أكشطُ قالتْ كان لصًّا فصار واللّه فصّا
قلت إنَّ الفصوصَ تُطبعُ باللثـ ـم على خدِّ كلِّ مَنْ كان رَخْصَا[3]

وأنشد لابن خفاجة[4]: [الكامل]

وأغرَّ[5] كادَ، لطافةً وطلاقةً، يَنْسابُ ماءً بيننا مَسْكُوبَا
قد قام في سطر[6] الندامى فاستوى فَحَسِبْتُهُ أَلِفًا به مَكْتُوبا
وأكَبَّ يشربُها وتَشْرَبُ ذِهْنَهُ فرأيتُ منه شاربًا مَشْرُوبا
مَشْمُولَةٌ، بينا تُرَى في كفِّه ماءً، تُرَى في خَدِّه أُلْهُوبا[7]

وأنشد لابن عبد ربه صاحب العقد مِمّا نسبه له الفتح في «مطمح الأنفس، ومسرح التأنس»[8]: [الكامل]

---

(١) الأبيات في محاسن المجالس (ص ٨٩) وهي ليست لابن العريف.
(٢) اللام: الشعر المتدلّي على الصدغ على شكل اللام. وصادُ اللثم: الفم الذي على شكل الصاد.
(٣) الرَّخْصُ: الليِّنُ الطريّ. لسان العرب (رخص).
(٤) ديوان ابن خفاجة (ص ٣١).
(٥) الأغَرُّ: الأبيض الجبين. لسان العرب (غرر).
(٦) في الديوان: «في صدر».
(٧) الأُلْهُوب: اللهب. لسان العرب (لهب).
(٨) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٢٠ ومطمح الأنفس (ص ٥٢)، وتقدمت في الجزء الخامس وجاء هناك: «بتعذيب» بدل «بتقطيع». وسترد في الجزء التاسع وفيه: «أبصرت» بدل «ألفيت».

يا لؤلؤاً يَسْبي العقولَ أنيقًا ... ورَشًا[1] بتقطيع القلوبِ رفيقًا
ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِهِ ... دُرًّا يعودُ من الحَياء عقيقا
وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهه ... ألفيتَ وجهك في سناه غريقا[2]
يا مَنْ تَقَطَّعَ خَصْرُه مِنْ رِقَّةٍ ... ما بالُ قلبك لا يكون رقيقا

وأنشد لابن عبد ربه أيضًا[3]: [الخفيف]

ودَّعَتْني بزفرةٍ[4] واعتناقِ ... ثم قالتْ[5]: متى يكونُ التلاقي
وتَصَدَّتْ فأشرقَ الصبحُ منها ... بين تلك الجيوبِ والأطواقِ
يا سقيمَ الجفونِ مِنْ غيرِ سُقْمٍ ... بين عينيكَ مَصْرَعُ العُشّاقِ
إنَّ يومَ الفراقِ أفظعُ يومٍ ... ليتني متُّ قَبْلَ يومِ الفِراقِ

وأنشد له أيضًا[6]: [الرمل]

هَيَّجَ البَينُ دواعي سَقَمي ... وكَسَا جِسْمِيَ ثوبَ الألمِ
أيها البينُ أَقِلْني[7] مرّةً ... فإذا عُدْتُ فقد حَلَّ دمي
يا خَلِيَّ الذَّرْعِ نَمْ في غِبْطَةٍ ... إنَّ مَنْ فارقْتَهُ لم يَنَمِ
ولقد هاجَ لقلبي سَقَمًا ... حُبُّ مَنْ لو شاء داوى سَقَمِي

وأنشد للمُصْحَفي[8]: [الكامل]

صفراءُ تُطْرِقُ في الزجاج، فإنْ سَرَتْ ... في الجسم دَبَّتْ مِثْلَ صِلٍّ[9] لادغِ

(١) رشًا: أصلها «رشأ»، وقد سهّل الهمزة بقلبها ألفًا، والرشأ: ولد الظبية إذا مشى.
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٥٩٩): «عريقًا» بالعين المهملة. وفي ديوان ابن عبد ربه: «أبْصَرْتَ وجهك».
(٣) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٢٢-١٢٣) ومطمح الأنفس (ص ٥٢)، وستأتي في الجزء التاسع ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٤٤): «بزورة».
(٥) في الديوان: «ثم نادتْ».
(٦) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٥٩) ومطمح الأنفس (ص ٥٣) وسترد في الجزء التاسع ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٧) أَقِلْني: أَنهِضْني من عثرتي. لسان العرب (قيل).
(٨) الأبيات في يتيمة الدهر (جـ ١ ص ٢٩٥) والحلة السيراء (جـ ١ ص ٢٦٣) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وتقدم البيتان الأول والثالث في الجزء الثاني كذلك ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٩) الصِّلُّ: الحيّة الخبيثة. محيط المحيط (صلل).

عَبَثَ الزمانُ بجسمها فتستَّرتْ عن عينه برداءِ نورٍ سابغِ
خَفِيَتْ[1] على شُرّابها فكأنما يَجِدُونَ رِيًّا في إناءٍ فارغِ

وأنشد لابن شُهَيْد[2] : [الرمل]

هَبَّ من رقدته مُنكَسِرًا مُسْبِلٌ للكُمِّ مُرْخٍ للرِّدا[3]
يمسح النعسةَ عن عَيْنَيْ رَشًا صائد في كلِّ يوم أَسَدًا
شَرِبَتْ أعطافُهُ خَمْرَ الصِّبا وَسقاهُ الحُسْنُ حتى عَرْبَدا
رشأ بل غادةٌ ممكورةٌ عَمَّمَتْ صُبْحًا بليل أَسْوَدا
أحْجَحَتْ[4] مِنْ عَضَّتي في نَهْدِها ثم عَضَّتْ حُرَّ وجهي عَمَدًا
فأنا المجروحُ من عضّتها لا شفاني اللّه منها أبدا

وأنشد لصفوان بن إدريس: [مخلع البسيط]

حَمَى الهوى قلبه وأوقذْ فَهْوَ على أن يموت أو قدْ
وقال عنه العذولُ سالٍ قلّده اللّه ما تقلّدْ
وباللوى شادنٌ عليه جِيدُ غزالٍ ولحظُ فرقدْ
علّله ريقُهُ بخمرٍ حتى انتشى طرفُهُ فَعَرْبَدْ
لا تعجبوا لانهزامِ طرفي فجيشُ أجفانِهِ مؤيّدْ
أنا له كالذي تمنّى عبدٌ، نَعَمْ، عَبْدُهُ وأزيدْ
إن بسملتْ عينه لقتلي صلّى فؤادي على محمدْ

وأنشد لأبي علي إدريس بن اليماني: [مخلع البسيط]

عُلِّقْتُهُ شادنًا صغيرًا وكنتُ لا أعشقُ الصغارا
يُسْفِرُ عن مستنيرِ وَجْهٍ صَيَّرَ جُنْحَ الدُّجى نهارا
لم أرَ مِنْ قبل ذاك ماءً أضرمَ فيه الحياءُ نارا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٤٤): «خَفَتْ».
(٢) ديوان ابن شهيد (ص ٤٩ ـ ٥٠).
(٣) في الديوان: «من مرقده.. مسبلاً..».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٤٥): «أحجمتْ».

وأنشد للرَّمَادِي، أو لابن بُرْد القرطبي[1]:

لَـــمّـــا بَـــدَا فـــي لازَوَرْ / دِيِّ الـحـريـرِ وقـد بَـهَـرْ
كَـبَّـرْتُ مِـنْ فَـرْطِ الـجـمـا / لِ وقـلـتُ: مـا هـذا بَـشَـرْ
فـأجـابـنـي: لا تُـنْـكـروا / ثـوبَ الـسـمـاءِ عـلـى الـقَـمَـرْ

وأنشد من وِجادة: [السريع]

يـا ذا الـذي عَـذَّب مـحـبـوبـه / أنختَ عِيسَ[2] العِزِّ مَغْنَى الهوانْ
لـم يـنـبـتِ الـشَّـعْـرُ عـلـى خَـدِّهِ / بل دبَّ في أصداغه عقربانْ
رفـقًـا عـلـى نـفـسـك لا تُـفْـنِـهـا / فـجـوهـرُ الأنـفـس دُرٌّ يُـصَـان

وأنشد من حديقة ابن يربوع: [المجتث]

غـــزا الـــقـــلـــوبَ غـــزالٌ / حَـجَّـتْ إلـيـه الـعـيـونُ
خُـطَّـتْ بـخـدَّيـه نـونٌ / وآخِـرُ الـحُـسْـنِ نـون

وأنشد من وجادة[3]: [السريع]

أَوْدِعْ فـؤادي حُـرَقًـا أو دَعِ / ذاتَكَ تُؤْذَى، أنت في أضلعي
وارْمِ سـهـامَ الـلـحـظِ أو كُـفَّـهَـا / أنتَ بما ترمي مصابٌ معي
مـوقـعُـهـا قـلـبـي، وأنـت الـذي / مَـسْـكَـنُـهُ فـي ذلـك الـمـوضـعِ

وأنشد من حديقة ابن يربوع: [الوافر]

يخطُّ الشوقُ شخصَك في ضميري / علـى بُـعْـدِ الـتـزاورِ خَـطَّ زورِ
وتُـدْنِـيـكَ الأمـانـي مـن فـؤادي / دُنُوَّ البرقِ من لمح البصيرِ
فـلا تـذهـبْ فـإنـك نـورُ عـيـنـي / إذا ما غبتَ لم تطرفْ بنور

---

(١) الأبيات لابن برد الأصغر، وقد وردت في جذوة المقتبس (ص ١١٦) وبغية الملتمس (ص ١٦٥) والذخيرة (ق ١ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦) والمطرب (ص ١٢٩). وتقدمت في الجزء الخامس وجاء هناك: «لا تنكرنْ» بدل «لا تنكروا» في البيت الثالث.

(٢) العِيسُ: الإبل البيض. محيط المحيط (عيس).

(٣) تقدمت هذه الأبيات في الجزء الثالث ببعض الاختلاف عمّا هنا.

وأنشد للوزير المُصْحَفي[1]: [الطويل]

لعينيك في قلبي عليَّ عيونُ ... وبَيْنَ ضُلوعي للشجونِ فنونُ
لَئِنْ كنت صَبًّا مخلقًا في يد الهوى ... فحبُّك غضّ في الفؤادِ مصونُ
نصيبي من الدنيا هواك، وإنه ... عذابي، ولكني عليه ضنين[2]

وأنشد لصالح بن شريف: [الرمل]

أيها العاذل باللّه اتَّئِدْ ... لك قلبٌ في ضلوعي أو كبدْ
هي أجفاني فذَرْها تنهمي ... هي أحشائي فَدَعْها تَتَّقِدْ
لا تظنَّ الحُبَّ شيئًا هَيِّنًا ... ليس في الحبِّ قياسٌ يطَّرد
أنت خلوٌ وأنا صَبٌّ شَجٍ ... فإذا حَدَّثْتَ عني قُلْ وزِدْ
فاتركِ اليومَ ملامي إنه ... يُتْرَكُ الشيء إذا ما لم يَفِدْ
أنا أسلو عن حبيبي ساعةً ... يا عذولي، قُلْ هو اللّه أحدْ

وأنشد له أيضًا: [مخلع البسيط]

وافى وقد زانه جمالٌ ... فيه لعشّاقه اعتذارُ
ثلاثةٌ ما لها شبيهٌ: ... الوَجْهُ والخَدُّ والعِذارُ
فَمَنْ رآه رأى رياضًا ... الوَرْدُ والآسُ والبَهار

وأنشد من حديقة ابن يربوع: [الطويل]

عليكَ بإكرام وبِرّ لستةٍ ... من الناسِ واحذرْ شرَّهمْ وتَوَقَّهُ
طبيبٌ وحجّامٌ وشيخٌ وشاعرٌ ... وصاحبُ ديوانٍ ومن يتفقَّهُ

وأنشد لبعض الصوفية: [مجزوء الخفيف]

ما ترى عند أحمقٍ ... في أمورٍ توسُّطَا
بل تراه في أمره ... مُفْرِطًا أو مُفَرِّطا

---

(١) الأبيات في يتيمة الدهر (جـ ١ ص ٢٥) والحلة السيراء (جـ ١ ص ٢٦٢)، وقد تقدم البيتان الأول والثاني في الجزء الثاني وفي روايتهما هناك بعض اختلاف عمّا هنا.

(٢) الضنين: البخيل. لسان العرب (ضنن).

وأنشد لبعض الأدباء[1]: [السريع]

الصَّبْرُ أولى بِوَقارِ الفَتَى   مِنْ قَلَقٍ يَهْتِكُ سِتْرَ الوَقارْ
مَنْ لازمَ الصبرَ على حالةٍ[2]   كان على أيامه بالخيارْ

ولنقتصر من ترجمة ابن ليون على هذا القدر، فقد حصلت الإطالة، بل ونكتفي من مشايخ لسان الدين بمن ذكرنا، ولنورد ما في الإحاطة في ترجمة مشيخته وإن تكرّر مع ما تقدّم، ونصُّه[3]: المشيخة. قرأت كتابَ اللّه عزَّ وجلَّ على المُكَتِّب نسيجِ وحده في تحمُّل المُنَزَّلِ حقَّ حمْله تقوى وصلاحًا وخصوصيّةً وإتقانًا ونغمة وعنايةً وحفظًا وتَبَحُّرًا في هذا الفن واطلاعًا لغرائبه[4]، واستيعابًا لِسَقَطات الأعلام، الأستاذ الصالح أبي عبد اللّه بن عبد الولي[5] العَوّاد، تكتيبًا[6] ثم حِفْظًا ثم تجويدًا إلى مقرعات[7] أبي عمرو رحمة اللّه عليهما. ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ومطيّة الفنون، ومُفيد الطلبة، الشيخ الخطيب المتفنن[8] أبي الحسن علي القيجاطي، فقرأت عليه القرآن والعربية، وهو أول من انتفعتُ به. وقرأت على الخطيب[9] الحسيب الصدر أبي القاسم بن جُزَي رحمه اللّه تعالى. ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير،[والمعتمد عليه العربية][10]، على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد اللّه بن الفخار البيري، الإمام المُجْمَع على إمامته في فن العربية، المفتوح عليه من اللّه حفظًا واطلاعًا[11] ونقلاً وتوجيهًا، بما لا مطمع فيه لسواه. وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفنّن أبي عبد اللّه بن بكر رحمه اللّه. وتأدَّبْتُ بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى،

---

(1) البيتان لغانم المخزومي المالقي، وقد تقدما في الجزءين الرابع والخامس باختلاف يسير عمّا هنا.
(2) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٤٧): «حاله».
(3) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٩).
(4) في الإحاطة: «واضطلاعًا بضرايبه».
(5) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٤٨): «المولى».
(6) في الإحاطة (ص ٤٥٨): «كَتْبًا».
(7) في الإحاطة: «مَقْرَى».
(8) كلمة «المتفنن» غير واردة في الإحاطة.
(9) كلمة «الخطيب» غير واردة في الإحاطة.
(10) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة.
(11) في الإحاطة: «واضطلاعًا».

الصالح الفاضل، أبي الحسن بن الجياب. ورويت عن الكثير [1] مِمَّن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية، كالمحدّث أبي عبد اللّه بن جابر، وأخيه أبي جعفر، والقاضي الشهير الشيخ بقية السلف شيخنا أبي البركات ابن الحاج، والشيخ المحدّث الصالح أبي محمد بن سَلْمُون، وأخيه القاضي أبي القاسم بن [2] سلمون، وأبي عمرو ابن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وله رواية عالية، والأستاذ اللغوي أبي عبد اللّه بن بيبش، والمحدّث الكاتب أبي الحسن التلمساني المسنّ، والحاج أبي القاسم بن المهني المالقي [3]، والعدل أبي محمد السعدي [4]، تحمل عن الإمام ابن دقيق العيد، والقائد الكاتب ابن ذي الوزارتين أبي بكر [5] بن الحكيم، والقاضي المحدّث الأديب، جملة الظرف، أبي بكر بن شبرين [6]، والشيخ أبي عبد اللّه بن عبد الملك، والخطيب أبي جعفر الطنجالي، والقاضي أبي بكر بن منظور، والراوية أبي عبد اللّه بن حزب اللّه، كلّهم من مالقة، والقاضي أبي عبد اللّه المقَّرِي التلمساني، والشريف أبي علي حسن بن يوسف، والخطيب الرئيس أبي عبد اللّه بن مرزوق، كلّهم من تلمسان، والمحدّث الفاضل الحسيب أبي العباس بن يربوع [7]، والرئيس أبي محمد الحضرمي السبتيين [8]، والشيخ المقرىء أبي محمد بن أيوب المالقي آخر الرواة عن ابن أبي الأحوص، وأبي عثمان بن ليون من أهل ألمرية، والقاضي أبي الحجاج المُنْتشاقري [9] من أهل رُنْدَة، وطائفة كبيرة من المعاصرين [تحملاً وتدبجًا] [10]، ومن أهل العُدْوة الغربية والمشرق وإفريقية [11] الكثير بالإجازة. وأخذت الطب

---

(١) في الإحاطة: «عن كثير».
(٢) كلمة «ابن» ساقطة من أصول النفح، والتصويب عن الإحاطة.
(٣) في الإحاطة: «أبي القاسم بن البناء».
(٤) في الإحاطة: «أبي محمد الزرقون».
(٥) في الإحاطة: «أبي عبد الله بن الحكيم».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٤٩): «شيرين».
(٧) في الإحاطة (ص ٤٥٩): «يربوع السبتي».
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٤٩): «السبتيين». وفي الإحاطة: «السبتي».
(٩) في طبعة عبد الحميد والإحاطة: «المنتشافري».
(١٠) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة.
(١١) كلمة «وإفريقية» غير واردة في الإحاطة.

والتعاليم والمنطق[1]، وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا بن مذيل[2]، ولازمته. هذا على سبيل الإلماع[3]، ولو تفرّغت لذكر أفذاذهم[4]، لخرج هذا التأليف[5] عمّا وُضع له. انتهى كلامه في «الإحاطة».

وقد ذكرت في هذا الباب زيادة في بعض التراجم على ما في «الإحاطة» على ما اقتضاه الحال، إذ ذاك لا يخلو من فائدة زائدة، وحكمة بالخير عائدة.

ولو لم يكن في هذا الكتاب غير هذا الباب لكان كافيًا؛ لاشتماله على تصوف وحِكم وكرامات وآداب ووصايا وإنشادات وغيرها، مِمّا يغني عن خبره العيان، ويشتاق إلى الوقوف عليه ذوو الملكة في البيان، ولو لم يشتمل إلاّ على المدائح النبوية التي فيه لتمّتْ محاسنه، واللّه سبحانه وتعالى ينفع به، بجاه سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه.

---

(١) كلمة «والمنطق» غير واردة في الإحاطة.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٤٩): «بن زهير».
(٣) في الإحاطة: «الإلمام».
(٤) في الإحاطة: «ولو تفرّغتُ لذكرهم».
(٥) في الإحاطة: «التقييد».

الباب الرابع
في مخاطبات الملوك والأكابر

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجّهة إلى حضرته العليّة، وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه، وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه، واجتلائهم أنوار رياسته الجليّة، وكَتْبهم بعض المؤلّفات باسمه، ووقوفهم عند إشارته ورَسْمه، وما يضاهي ذلك في حظّه وقَسْمه، وسَعْيهم بين يديه.

اعلم - سلك اللّه بي وبك الطريقَ الأقوم الأقوى! وحلّى صدور جميعنا بزينة التقوى! - أنَّ لسان الدين ذكر في كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرهما جملة مِمّا خاطبه به الملوك وغيرهم، من تبجيل وتنويه، ولنذكر بعضَ ذلك من كتبه ومن غيرها تتميمًا للمقصود، وتبليغًا لنفوس الناظرين في هذه العجالة ما تؤمّله وتنويه.

فمن ذلك ما ذكره في «الإحاطة» من إكرام السلطان أبي زَيّان المَرِيني ابن الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن له، وسرد ما كتب له به من قوله: هذا ظهير، إلى قوله: أيّده اللّه ونصره! وسَنّى له الفتح المبين ويَسّره! وبعد ما صورته[1]: «للشيخ الفقيه الأجلّ الأسنى، الأعزّ الأحظى الأرفع الأمجد الأسمى الأوحد الأنوه الأرقى، العالم العَلَم الرئيس، الأعرف المتفنن الأبرع المصنّف المفيد الصدر الأحفل الأفضل الأكمل أبي عبد اللّه ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجلّ الأسنى الأعز الأرفع الأمجد الوجيه الأنوه الأحفل

(١) لم يرد هذا الظهير في كتاب الإحاطة المطبوع وليس في هذا الكتاب ترجمة لأبي زيان المريني. وورد هذا الظهير في الاستقصا (جـ ٤ ص ٤٨).

الحسيب الأصيل الأكمل المبرور المرحوم أبي محمد بن الخطيب، قابله أيّده اللّه بوجه القبول والإقبال، وأضفى عليه ملابسَ الإنعام والإفضال، ورَعَى له خدمة السلف الرفيع الجلال، وما تقرّر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال، وأمر في جملة ما سوّغه من الآلاء الوارفة الظلال، الفسيحة المَجَال، بأن يجدّد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدّم تاريخها المتضمّنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية[١] في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مَجْبَى مدينة سَلاَ حرسها اللّه في كل شهر، ومن حيث جرت العادة أن يتمشّى له، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه، وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحْوَازها من عنب وقطن وكتّان وفاكهة وخضر وغير ذلك، فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف[٢]، ولا يتوجّه فيه إليه بتكليف، يتّصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديدًا تامًّا، واحترامًا عامًّا، أعلن بتجديد الحظوة واتّصالها، وإتمام النعمة وإكمالها، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام، واتّصال الأيام، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السُّخَر مهما عرضت، والوظائف إذا افترضت، حتى يتّصل له تالد العناية بالطارف، وتتضاعف أسباب المِنَن والعَوَارف، بفضل اللّه، وتحرّر له الأزواج[٣] التي يحرثها بتالمغت من كل وجيبة[٤]، وتحاشى من كلّ مغرم أو ضريبة، بالتحرير التام بحول اللّه وعونه، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه، وليُمْضِ ما أمضاه، إن شاء اللّه، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وكتب في التاريخ، انتهى.

وقوله «وكتب في التاريخ» هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان، يكتب بقلم غليظ، وبعض ملوك المغرب يكتب عنه العلامة «صحّ في التاريخ»[٥].

---

(١) العشرية: قد تكون «العاشرية» وهي ما كان في كل دينار عشرة دراهم. ملحق المعاجم العربية لدوزي (عاشر).

(٢) الوظيف: الضريبة المقرّرة.

(٣) الأزواج: جمع زوج، والمراد هنا زوج البقر للحرث، أي الفدّان.

(٤) الوجيبة: الضريبة.

(٥) عرّف ابن الأحمر في كتابه «مستودع العلامة ومستبدع العلاّمة» (ص ٢١) العلامة بقوله: «فإذا رأيت الصكّ المريني وعلامته: كتب في التاريخ المؤرخ به، فهي بخطّ يد السلطان. وإذا كانت: وكتب في التاريخ، فهي بخط يد صاحب العلامة».

وقد عَرَّف لسان الدين في «الإحاطة» بهذا السلطان بما نصه[1]: محمد بن يعقوب بن عبد الرحمن بن علي أمير المسلمين ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين بالمغرب إلى هذا العهد، يكنى أبا زيان[2]، وصل اللّه نصره على عدوّ الدين! وأرشده إلى سنن الخلفاء المهتدين!.

حاله ـ فاضل سَكون منقاد، مشتغلٌ بخاصّة نفسه، قليلُ الكلام، حسنُ الشكل، دَرِبٌ بركض الخيل، مفوضٌ للوزراء، عظيمُ التأني لأغراضهم، ووكّل الأمور لمن استكفاه منهم، استقدم من أرض النصارى بالأندلس وقد فَرَّ إليهم خوفًا على نفسه، فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتطاط، فكان وصوله إلى مدينة المُلْك بفاس يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر عام ثلاثة وستين وسبعمائة، ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من الكواكب السيّارة، وقد كان الوزير قيّم الأمر والمثل في الكفاية والاستطلاع بالعظيمة عمر بن عبد اللّه بن علي الياباني[3] لَمَّا ثار بعمه السلطان أبي سالم رحمه اللّه تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبي عمر استدعى هذا المترجم به، وقد نازله الأمير عبد الحليم ابن عمّهم، وتوجّه عنه رسوله أثناء الحصار لَمَّا رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه، فتلطّف فيه إلى طاغية النصارى، واستعان بالسلطان أبي عبد اللّه بن نصر، وقد جمعتهما إيالته، فتمّ له اللحاق بالمغرب، وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سِجِلْمَاسة فتملّكها، وتم الأمر للأمير أبي زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعًا له في خدمته، أعانه اللّه تعالى! وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه! ووفدْتُ عليه من محلّ الانقطاع بسَلاَ وأنشدته قولي[4]: [الطويل]

لمن عَلَمٌ في هَضْبة الملْك خفّاقُ ... أفاقتْ به من غَشْية الهَرْج آفاقُ
تُقِلُّ رياحَ النصرِ عنه غمامةٌ ... تمدُّ لها أيدٍ وتَخْضَعُ أعناقُ

---

(١) لم ترد ترجمة أبي زيان محمد بن يعقوب المريني في الإحاطة المطبوع.

(٢) يلقب أبو زيان المريني بالمتوكل، وقد بويع سنة ٧٦٣ هـ، وقُتل غرقًا في السانية التي بروض الغزلان في سنة ٧٦٧ هـ، ودفن بجامع قصره. روضة النسرين في دولة بني مرين (ص ٣٢) والاستقصا (ج ٤ ص ٥١) والحلل الموشية (ص ١٣٥) وفيه أنه توفي سنة ٧٦٨ هـ.

(٣) أخبار هذا الوزير في العبر لابن خلدون (م ٧ ص ٢٦٥، ٣١٢، ٦٦٢).

(٤) القصيدة في الاستقصا (ج ٤ ص ٤٦ ـ ٤٨).

وبيعة شورى أحكم السعدُ عَقْدَها   وأعملَ إجماع عليها وإصفاق[١]
قضى عمر فيها بحقّ محمد   فَسُجِّلَ عهدٌ للوفاء وميثاق
أحلمًا ترى عيناي أم هي فترة؟   أعندكما في مشكل الأمر مصداق
وفاضٌ[٢] لفضل الله في الأرض تُبْتَغَى   ومجتمعاتٌ لا تريبُ وأسواق
وسَرْحٌ تهنيه الكلاءةُ بالكلا   وفلحٌ لسقي الغَيْث قام له ساق
وقد كان طيفُ الحلم لا يعمل الخُطا   وللفتنة العَمْياء في الأرض إطباق
وللغيثِ إمساكٌ وفي الأرض رَجَّةٌ   وللدين والدنيا وُجُومٌ وإطراق
فكلُّ فريقٍ فيه للبغي رايةٌ   وكلُّ طريقٍ فيه للعيث[٣] طرّاق
أجلْ إنه من آل يعقوبَ وارثٌ   يحنّ له البيتُ العتيقُ ويشتاق
له مِنْ جناحِ الروح ظلّ مسجف   ومِنْ رفرف العزّ الإلهي رُسْتَاقُ[٤]
أطلَّ على الدنيا وقد عادَ ضوءُها   دُجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
فأشرقتِ الأرجاءُ من نور ربِّها   وساح بها للّه لطفٌ وإشفاق
فمن ألسُنٍ للّه بالشكر أعلنت   وكان لها من قبلُ همسٌ وإطباق
وليس لأمر أبرم اللّه ناقضٌ   وليس لمَسْعَى[٥] النجح في الله إخفاق
محمدُ قد أَحْيَيْتَ على شَفَقِ الضُّحى   دمٌ لسيوف البغي في الأرض مُهْراق
فأيْمِنْ بمشحونٍ من الفلك سابحٍ   له باختيار اللّه حظٌّ وإيساق[٦]
أقلّك والدأماء[٧] تُظْهِر طاعةً   إليك وصفْحُ الماء أزرق رقراق
إلى هدف السعد أنبرى منه والدجى   يضلُّ الحجا سهمٌ من السعد رشّاقُ
فَخُطّتْ لتقويمِ القوام جداولٌ   وصَحَّتْ من التوفيق واليُمْنِ أوفاق[٨]

---

(١) الإصفاق على الأمر: الاتفاق عليه. لسان العرب (صفق).
(٢) الوفاض: جمع وفضة وهي المكان الذي يمسك الماء. لسان العرب (وفض).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٥٦): «للغيث».
(٤) الرستاق: الناحية. لسان العرب (رستق).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٩): «المسعَى أنجحَ اللّهُ..».
(٦) الحظّ: الرسوّ في الميناء. الإيساق: مصدر أوسق بمعنى ملأ بالأحمال. لسان العرب (حطط) و (وسق).
(٧) الدأماء: البحر. محيط المحيط (دأم).
(٨) الجداول: أي الجداول الفلكية. الأوفاق: جمع وفق وهو المربع الذي يقسم إلى خانات ترتب فيها الأرقام. لسان العرب (وفق).

تبارك من أهداكَ للخلق رحمة		ومستبعدٌ أن يهمل الخَلقَ خلاقُ
هو اللّه يبلو الناسَ بالخير فتنةً		وبالشَّرِّ، والأيامُ سمٌّ وترياق[1]
سَمَتْ منكَ أعناقُ الورى لخليفةٍ		له في مجال السعدِ عَذو وإعناق[2]
وقالوا بنانٌ ما استقلَّ بكفّه		تفيضُ على العافين أم هي أرزاق
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا		فلم يُجْدِ إطنابٌ ولم يُغنِ إغراق
ألستَ من القوم الذين أكُفُّهم		غمامُ ندًى إن أخلف الغيث غَيْداق[3]
ألستَ من القوم الذين وجوههم		بدورٌ لها في ظلمة الروع إشراق
رياض إذا العافي استظلَّ ظلالها		ففيها جَنًى ملء الأكف وإيراق
أبوك وليُّ العهدِ لو سالم الردى		وَجدُّكَ قد فاق الملوكَ وإن فاقوا
فمن ذا له جَدٌّ كجدِّك أو أبٌ		لآلىء والمجدُ المؤثّل نَسَّاقُ
وحَسْبُ العلا في آل يعقوب أنهم		هم الأصل في العلياء والناسُ ألحاق
أُسُودُ سروحٍ أو بدورُ أسرّةٍ		فإنْ حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا
يطولُ لتحصيلِ الكمالِ سهادهم		فهم للمعالي والمكارم عشّاق

ومنها:

لئن نسيَتْ إحسانَ جدِّك فرقةٌ		تُزَرُّ على أعناقهم منه أطواقُ
أجازت خروجَ ابنِ ابنِهِ عن تراثه		ولم تَدْرِ ما ضمتْ من الذكر أوراق
ومِنْ دونِ ما راموه للّه قدرة		ومن دون ما أمُّوه للفتح أغلاق
خُذِ العفوَ وابذلْ فيهم العُرْفَ ولْتَسَعْ		جريرةَ من أبدى لك الغدرَ أخلاق[4]
فرُبَّتما تنبو مهنّدةُ الظُّبَا		وتهفو حلوم[5] القوم والقوم حُذّاقُ
وما الناسُ إلاّ مذنبٌ وابنُ مذنبٍ		وللّه أرفادٌ عليهم وإرفاقُ

---

(١) الترياق: دواء مركّب يدفع السموم. محيط المحيط (تريق).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٩): «وَخْدٌ وإعناقُ». والاعناق: نوع من العدو. محيط المحيط (عنق).
(٣) الغَيْداق: الكريم السخي. محيط المحيط (غيدق).
(٤) أخذه من قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عن الجاهِلِينَ﴾. سورة الأعراف ٧، الآية ١٩٩.
(٥) تهفو: تخفق، وأراد هنا: تضعف. والحلوم: جمع حِلْم وهو العقل. لسان العرب (هفا) و (حلم).

ولا تَرْجُ في كلِّ الأمور سوى الذي خزائنه ما ضرّها قطّ إنفاق
إذا هو أعطى لم يضر منعُ مانعٍ وإن حشدت طَسْمٌ وعادٌ وعملاق
عرفت الردى واستأثرت بك للعدا تخومٌ بمختط الصليب وأعماق
فيسّرَ لليسرى وأحيا بك الورى وللروعِ إرعادٌ عليك وإبراق
فجازِ صنيعَ اللّه وازددْ بشكره مواهب جود غيثُها الدهرَ دَفّاقُ
وأوفِ لمن أوفى وكافِ الذي كفى فأنتَ كريم طهرت منك أعراق
وتهنيك يا مولى الملوك خلافة شَجَتْها تباريح إليك وأشواق
فقد بلغتْ أقصى المنى بك نفسُها وكم فازَ بالوصل المهنإ مشتاق
فلا راعَ منها السِّرْبَ للدهر رائع ولا نال منها جِدَّةَ السعد إخلاق
أمولايَ راعَ الدهر سِرْ بِي وغالَني فَطَرْفِيَ مذعورٌ وقلبيَ خفّاق
وليس لكَسْرِي غيرك اليوم جابر ولا ليدي إلاّ بمجدك أعلاق
ولي فيك ودٌّ واعتدادٌ غرسته فراقت به من يانع الحمد أوراق
وقد عِيلَ صبري في ارتقابي خليفةً تُحَلُّ به للضرِّ عنيَ أوهاق[1]
وأنتَ حسامُ اللّه واللّهُ ناصرٌ وأنتَ أمينُ اللّه واللّهُ رزّاق
وأنتَ الأمانُ المستجار من الردى إذا راعَ خطبٌ أو توقّع إملاق[2]
وأهونُ ما تُرجى لديك شفاعةٌ إذا لم يكن عزمٌ حثيثٌ وإرهاق
ودونَكَها من ذائع الحمدِ مخلصٍ له فيك تقييد يروقُ وإطلاق
إذا قال أمّا كلُّ سمعٍ لقوله فمُصْغٍ، وأمّا كلُّ أنفٍ فنَشّاقُ
ودُمْ خافق الأعلام بالنصر كلّما ذهبتَ لمسعى لم يكن فيه إخفاقُ

وعُدْتُ منه ببرّ كثير، واحترام شهير.

دخوله غرناطة. لحق بها مُفْلتًا عند القبض على قرابته وبني عمّه وتقريبهم إلى مَصارعهم، فكان وصوله في رمضان من عام خمسين وسبعمائة، ثم رابه رائب[3] لحق لأجله بصاحب قَشْتّالة، وأقام في جملته إلى حين استدعائه المتقرّر آنفًا، وهو لهذا العهد

---

(١) الأوهاق: جمع وَهَق وهو الحبل يكون فيه أنشوطة ترمى في عنق الدابة. لسان العرب (وهق).
(٢) الإملاق: الفقر. لسان العرب (ملق).
(٣) رابه رائبٌ: أصابته مصيبة. لسان العرب (روب).

أمير المسلمين بالمغرب، أعانه اللّه تعالى على الخير، وأطلق به يده، وألهمه إلى ما يرضى منه بفضله وكرمه، انتهت الترجمة.

ورأيت على هامش هذا المحل من «الإحاطة» بخطّ الخطيب الشهير الإمام أبي عبد اللّه بن مرزوق التلمساني رحمه اللّه ما صورته: توفي - يعني السلطان أبا زيان - مغتالاً عام ستة وستين، على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد اللّه بن علي الوزير، رَدَّاه في بئر، وأشاع أنه أفرط في السكر، وألقى نفسه في البئر المعروفة برياض الغزلان، وبايع لعمّه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، فسلّطه اللّه عليه، وأخذ حقوق الخلائق على يديه، فقتله غيلة بعد أن كان تغلّب عليه، فأعمل الحيلة في قتله، واستمرّ ملك عبد العزيز ظاهرًا ظافرًا قد جمع بين المغرب إلى أقصاه وبين ملك تلمسان وقد شَرَّد أهلَها كلَّ مُشَرَّد، فعندما أقبلت الدنيا عليه، واستقام ملكه، وكاد يلحق ملك أبيه أو يزيد مات رحمه اللّه تعالى، قيل: مطعونًا، وقيل غير ذلك، وذلك في حدود أربع وسبعين، وولي ولده، ثم عزل بابن عمّه أبي العباس ابن السلطان أبي سالم، وحاز ملك المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع وسبعين وسبعمائة؛ انتهى ما ألفيته بخط سيدي أبي عبد اللّه بن مرزوق.

ورأيت تحته بخطِّ ابن لسان الدين أبي الحسن عليّ ما صورته: رحمة اللّه عليك يا عمر بن عبد اللّه بن علي، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من دَرَن[1] كبير، وقمت على ملك لهو وضعف شهير، وشَهَرْتَ سيف الحقّ، على الزواكرة الخرق[2]، فابتهج منبر الدين، انتهى.

ومراده بهذا الكلام الردّ على ابن مرزوق في ذَمِّه للوزير عمر، وقوله «الزواكرة» لفظ يستعمله المغاربة، ومعناه عندهم المتلبّس الذي يُظْهر النسك والعبادة ويبطن الفسق والفساد، وعند اللّه تجتمع الخصوم.

ولنرجع إلى ما كُنّا بسبيله فنقول:

ومِمّا خوطب به ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى! من قبل سلطان المغرب المستعين باللّه أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد البسملة والصلاة[3]:

(١) الدَّرَن، بالفتح: الوسخ. لسان العرب (درن).
(٢) الخُرْق: جمع أخرق وهو الذي لا يجيد عملاً. لسان العرب (خرق).
(٣) هذه الرسالة في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨٢) والاستقصا (جـ ٤ ص ٢٩ - ٣٠).

«من عبد اللّه المستعين باللّه إبراهيم أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربّ العالمين، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ العالمين، أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أيّد اللّه أمره! وأعزّ نصره! إلى الشيخ الفقيه الأجلّ الأسنى الأعزّ الأحظى الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنّف، البليغ الأعراف، الأكمل أبي عبد اللّه ابن الشيخ الأجلّ الأعزّ الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبي محمد بن الخطيب، وصل اللّه عزّته! ووالى رفعته!.

سلام عليكم ورحمه اللّه وبركاته:

أمّا بعدَ حمدِ اللّه تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى، والرضا عن[1] آله وصحبه أعلام الإسلام، وأئمة الرشد والهدى، وصلةِ الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعينيّ بالنصر الأعزّ والفتح الأسنى، فإنّا كتبناه إليكم. كتب اللّه تعالى لكم بلوغ الأمل، ونُجْحَ القول والعمل! - من منزلنا الأسعد بضفة[2] وادي ملوية يمنه اللّه، وصُنْعُ اللّه جميل، ومَنُّه جزيل، والحمد للّه، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل، والعناية المتكفلة برَعْي الوسائل، ذلكم لم تميّزتم به من التمسّك بالجناب العليّ، المولوي العلوي، جدّد اللّه تعالى عليه ملابس غُفْرانه! وسقاهُ غُيُوثَ رحمته وحَنَانه! وما أهديتم إلينا من التقرّب لدينا، بخدمة ثراه الطاهر، والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر. وإلى هذا وصل اللّه حُظْوتكم ووالى رفعتكم، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده، المقابَلُ بالإسعاف المستعذب وِرْدُهُ، فوقفنا على ما نَصّه، واستوفينا ما شرحه وقَصّه، فآثرنا حُسْنَ تلطّفكم في التوسّل بأكبر الوسائل إلينا، ورعينا أكمل الرعاية حقّ ذلكم الجناب العزيز علينا، وفي الحين عَيَّنّا لكمال مطلبكم، وتمام مأربكم، والتوجّه بخطابنا في حقّكم، والاعتمال بوفقكم، خديمَينا أبا البقاء بن تاسكورت[3] وأبا زكريا بن فرقاجة، أنجدهما اللّه وتولاّهما! وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى العرض المعلوم، بعد التأكيد عليهما فيه، وشرح العمل الذي يوفيه، فكونوا على علم

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٦٠): «على».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٦١): «بصفة تازي..».
(٣) في الطبعة نفسها: «تاسكورت». وفي أزهار الرياض والاستقصا: «تاشكورت».

من ذلكم، وابْسُطوا له جملة آمالكم، وإنّا لنرجو ثواب اللّه في جبر أحوالكم، وبرء اعتلالكم، واللّه سبحانه وتعالى يَصِلُ مبرَّتكم، ويتولّى تكرمتكم! والسلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته، كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة».

فراجعه ابن الخطيب بما نصه[1]: «مولاي خليفة اللّه بحق، وكبير ملوك الأرض عن حجّة، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة، أبقاكم اللّه تعالى عالي الدرجة في المنعمين! وافِرَ الحظّ عند جزاء المحسنين، وأراكم ثمرة برّ أبيكم في البنين، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد، وأذاق العذاب الأليم مَنْ أراد في مثابتكم بإلحاد، عبدكم الذي ملكتم رقَّه، وآويتم غربته، وسترتم أهله وولده، وأسنيتم[2] رزقه، وجبرتم قلبه، يُقَبِّلُ موطىء الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة، المستوجبة بفضل اللّه تعالى لموقف النصر، الفارعة[3] هَضَبَةَ العز، المعملة الخطو في مجال السعد، وميسّر[4] الحظ ابن الخطيب، من شالة[5] التي تأكد بملككم الرضي احترامها، وتجدد برعيكم عهدها، واستبشر بملككم دفينها، وأشرق بحسناتكم نورها. وقد ورد على العبد الجوابُ المولوي البرّ الرحيم، المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل، والقدر الرفيع، والهمّة السامية، والعزّة القعساء[6]، من رَعْي الدخيل، والنصرة للذِّمام، والاهتزاز لبرّ الأب الكريم، فثاب الرجاء، وانبعث الأمل، وقوي العَضُد، وزار اللطف، فالحمد للّه الذي أجرى الخير على يدكم الكريمة، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين، المتوسّل إليكم أولاً بقبورهم، ومتعبداتهم وتراب أجداثهم، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذي تسبب في جودكم، واختصّكم بحبّه، وعمركم بلطفه وحنانه، وعلمكم آداب الشريعة، وأورثكم ملك الدنيا، وهيأتكم دعواتُه بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المَدَى وانفساح البقاء، وفي علومكم المقدسة ما تضمّنت الحكاياتُ عن العرب من

---

(١) النص في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨٤) والاستقصا (جـ ٤ ص ٣٠ ـ ٣١).

(٢) أسنيتم: رفعتم؛ يقال: أسنى فلانٌ جائزة فلان إذا جعلها سنية، أي رفيعة القدر. لسان العرب (سنا).

(٣) الفارعة: المرتفعة؛ يقال: فرعها إذا ارتفع فوقها. لسان العرب (فرع).

(٤) في الاستقصا: «ومسير».

(٥) شالة: ضاحية من ضواحي الرباط، فيها قبور بني مرين، وإليها لجأ ابن الخطيب عندما خرج من الأندلس كما سيأتي بعد قليل.

(٦) القعساء: المنيعة. لسان العرب (قعس).

النُّضرة[1] عن طائر داسَتْ أفراخَه ناقّة في جوار رئيس منهم، وما انتهى إليه الامتعاضُ لذلك مِمّا أُهينت فيه الأنفس وهلكت الأموال، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولاً إلى رُحْماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها؟ ثم فيمن حطّ رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامِعَ العين خافقَ القلب واهي الفزعة، يتغطّى بردائه، ويستجير بعليائه، كأنني تراميتُ عليهم في الحياة أمام الذعر الذي يُذهب العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده، ما من يوم إلاّ وأَجْهَرُ بعد التلاوة: يا لَيَعْقُوب، يا لَمَرِين، نسأل اللّه تعالى أن لا يقطع عني معروفكم، ولا يسلبني عنايتكم، ويستعملني ما بقيت في خدمتكم، ويتقبل دعائي فيكم. ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدّس ووضعته بإزائه، وقلت: يا مولاي، يا كبير الملوك، وخليفة اللّه، وبركة بني مرين، صاحبَ الشهرة والذكر في المشرق والمغرب، عبدُكَ المنقطع إليك، المترامي بين يدي قبرك، المتوسّل إلى اللّه ثم إلى ولدك بك، ابنُ الخطيب، وصله من مولاه ولدِكَ ما يليق بمقامه من رَعْي وجهك، والتقرّب إلى اللّه تعالى برعيك، والاشتهار في مشرق الدنيا ومغربها[2] ببرك، وأنتم مَنْ أنتم مَنْ إذا صنع صنيعة كملها، وإذا مَنَّ منةً تممها، وإذا أبدى يَدًا أبرزها طاهرة بيضاء غير مَعيبة ولا ممنونة[3] ولا منتقصة، وأنا بعدُ تحت ذَيْل حُرْمتك وظلّ دخيلك، حتى يتمّ أملي، ويخلص قصدي، وتحفّ نعمتك بي، ويطمئنّ إلى مأملك قلبي. ثم قلت للطلبة: أيها السادة، بيني وبينكم تلاوة كتاب اللّه تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوّة التأليف[4] بهذا الرباط المقدّس والسكنى بين أظهركم، فأمِّنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم، واندفَعْتُ في الدعاء والتوسُّل الذي نرجو أن يتقبّله اللّه تعالى، ولا يضيعه، وخاطب العبدُ مولاه شاكِرًا لنعمته مشيدًا بصنيعته، مسرورًا بقَبُوله، وشأنه من التعلّق والتطارح شأنه حتى يكمل القصد ويتمّ الغرض، معمور الوقت بخدمة يرفعها، ودعاء يردّده، واللّه المستعان»؛ انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٥): «النعرة».

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٦): «وغربها».

(٣) غير ممنونة: غير مقطوعة، أو غير معدودة، وقيل: غير منقوصة. وفي القرآن الكريم: ﴿وإنّ لكَ لأَجْرًا غيرَ مَمْنُونٍ﴾. سورة القلم ٦٨، الآية ٣، ولسان العرب (منن).

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٦٣): «التألف».

وكان تقدّم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور، وكان ما سبق من كتاب السلطان جوابًا له، وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراكش واستقراره في مدينة سَلاً برباط شالة مدفن السلاطين من بني مرين، ومنهم السلطان أبو الحسن والد السلطان أبي سالم المذكور، ونصُّ الكتاب[1]:

«مولاي المرجوّ لإتمام الصنيعة[2] وصِلَةِ النعمة وإحراز الفخر، أبقاكم اللّه تعالى تُضْرَبُ بكم الأمثال في البرّ والرضا وعلوّ الهِمّة ورَعْي الوسيلة، مُقَبِّلُ موطىء قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابنُ الخطيب من الضريح المقدّس بشالة، وقد حطّ رَحْل الرجاء في القبة المقدّسة، وتَيَمَّم[3] بالتربة الزكية، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعَةَ إيابه من الوجهة المباركة وزيارة الرُبُط المقصودة والترب المعظمة، وقد عزم أن لا يبرح طوعًا من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعيّ حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم، والتماس شفاعته من أمر سَهْل عليكم لا يجر إنفادَ مال ولا اقتحام خطر، إنما هو إعمال لسان، وخطّ بنان، وصَرْف عزم، وإحراز فخر وأجر، وإطابة ذكر، وذلك أنَّ العبد عرّفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدّس بلسان المقال ما يحضر مِمّا يفتح اللّه[4] تعالى فيه، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقّى عنه من الجواب، وقال لي صدرُ دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب - يعني ابنَ مرزوق - سَنَّى اللّه تعالى أملّه من سعادة مقامكم وطول عمركم: أنت يا فلان والحمد للّه مِمّنْ لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر، جزاكم اللّه تعالى جزاء المحسنين! وقد تقدّم تعريفُ مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أدّاه مَنْ حَضَر ذلك المشهد من خدامكم، والعبدُ الآن يعرض عليكم الجواب، وهو أني لَمّا فرغت من مخاطبته بمرأى من الملإ الكبير، والجمُّ الغفير، أكببت على اللّحد الكريم داعيًا ومخاطبًا، وأصغيت بأذني نحو قبره، وجعل فؤادي يتلقّى ما يوحيه إليه لسان حاله، فكأني به يقول لي: قُلْ

(١) النص في أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٧٧) والاستقصا (ج ٤ ص ٢٤).
(٢) الصنيعة: النعمة. لسان العرب (صنع).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٧): «وتذمَّم».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٦٤): «اللّه».

لمولاك: يا ولدي وقرة عيني، المخصوص برضاي وبرّي وستر[1] حريمي ورد ملكي الذي صان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي، أُسَلِّم عليك، وأسأل اللّه تعالى أن يرضى عنك ويُقْبِلَ عليك، الدنيا دار غرور، والآخرة خير لمن اتقى[2]: [الطويل]

وما النـاسُ إلاّ هـالـكٌ وابـنُ هـالـك

ولا تجد إلاّ ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة، ومِثْلُك من ذكر فتذكر، وعرف فما أنكر، وهذا ابنُ الخطيب قد وقف على قبري، وتَهَمَّمَ بي[3]، وسبق الناس إلى رثائي، وأنشدني ومجدني وبكاني، ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك، وعَفَّر وجهه في تربي، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس، فلو كنتُ يا ولدي حيًّا لما وَسِعَني أن أعمل معه إلاّ ما يليق بي، وأن أستقلّ فيه الكثير، وأحتقر العظيم، لكن لما عجزت عن جزائه وَكَلْتُه إليك، وأحلْتُه يا حبيبَ قلبي عليك، وقد أخبرني أنه سَليبُ المال، كثير العيال، ضعيف الجسم، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن، وأمل أن ينقطع بجواري، ويستتر بدخيلي وخدمتي، ويرد عليه حقّه بخدمتي، ووجهي ووجوه من ضاجعني من سَلَفي، ويعبد اللّه تعالى تحت حرمتك وحرمتي، وقد كنت تشوّفت[4] إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبُنا الخالص المحبة، وخطيبُنا العظيم المزية القديمُ القربة، أبو عبد اللّه بن مرزوق، فاسأله يذكرك، واستخبره يخبرك، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات، إلى أن نلحق جميعًا برضوان اللّه تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء، وله يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك، وقد استقرَّ ببابك قَراره، وتعيّن بأمرك مرتبه ودثاره[5]، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب، هذه رغبتي منك، وحاجتي إليك، واعلم أنَّ هذا

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٨): «ومن ستر . . . ملكي وصان».

(٢) هو صدر بيت لأبي نواس، والبيت هو:

أرى كلَّ حَيّ هـالـكًا وابنَ هـالـكٍ　　　وذا نَـسـبٍ فـي الـهـالـكـيـنَ عَـرِيـق

ديوان أبي نواس (ص ٦٢١).

(٣) تَهَمَّمَ بي: لجأ إليَّ واستغاث بي. لسان العرب (همم).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٦٥): «تَشَوَّقتُ».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٩): «ودشاره». والدشار: المدرعة أو الأرض المستأجرة. لسان العرب (دشر).

الحديث لا بُدَّ له أن يُذْكر ويُتَحَدَّث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار، فاعملْ ما يبقى لك فخره، ويتخلّد ذكره، وقد أقام مجاورًا ضريحي، تاليًا كتاب اللّه تعالى عليّ، منتظرًا ما يصله منك ويقرؤه عليّ، من السعي في خلاص ماله، والاحتجاج بهذه الوسيلة في جَبْره، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة، فاللّه اللّه يا إبراهيم، اعملْ ما يسمع عني وعنك فيه، ولسانُ الحال أبلغ من لسان المقال، انتهى. والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه، منتظر منكم قضاء حاجته، ولتعلموا وتتحقّقوا أني لو ارتكبت الجرائم، ورزأت الأموال، وسفكت الدماء، وأخذت حسائن[1] الملوك الأعزة مِمَّنْ وراء النهر من الطظر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم اللّه تعالى مني من غير عهد بعد أن بلغهم تذمُّمي بهذا الدخيل، ومقامي بين هذه القبور الكريمة، ما وسع أحدًا منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يُغْفِلها الكبار للكبار إلاّ الجودُ الذي لا يتعقّبه البخل، والعفو الذي لا تفسده المؤاخذة، فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده اللّه تعالى بموالاتكم؛ فهو فاضل، وابن ملوك أفاضل، وحوله أكياسٌ ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم، لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسّل به إليكم وإليهم، فقد كان يَتَبَنَّى مولاي أبا الحجاج، ويشمله بنظره[2]، وصارخه بنفسه[3]، وأمدّه بأمواله، ثم صيَّر اللّه تعالى ملكه إليكم، وأنتم من أنتم ذاتًا وقبيلاً، فقد قَرَّتْ يا مولاي عينُ العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم، وكثرة جنودكم، وترادف أموالكم وعددكم، زادكم اللّه تعالى من فضله! ولا شكَّ عند عاقل أنكم إن انحلَّتْ عروة تأميلكم، وأعرضتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوّه. وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان، وتعلّقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم، وشهرة حرمة شالة معروفة، حاش للّه أن يضيعها أهلُ الأندلس، وما توسّل إليهم قطّ بها إلاّ الآن، وما يجهلون إلاّ اغتنام هذه الفضيلة الغريبة، وأملي منكم أن يتعيّن من بين يديكم خديم، بكتاب كريم، يتضمّن الشافعة في ردّ ما أخذ لي، ويخبر بمَثْوَاي مترامِيًا على قبر والدكم، ويقرّر ما ألزمكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمّة، والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا، وتطلبون منه عادة المكارمة بحلِّ هذه العقدة، ومن

(١) في طبعة دار صادر: «حسائف»، والحسائف: العداوات والضغائن. لسان العرب (حسف).
(٢) في طبعة دار صادر: «بكنفه».
(٣) صارخه: أجاب صريخه ونداءه. لسان العرب (صرخ).

المعلوم أني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب أموالهم[1] ما وسعهم بالنظر العقلي إلاّ حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن، فالحياء والحشمة يأبَيانِ العذرَ عن هذا في كلّ ملة ونحلة. وإذا تـمَّ هذا الغرضُ. ولا شكّ في إتمامه باللّه تعالى. تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقّده، ومدح النبي ﷺ ليلة المولد في جواره وبين يديه، وهو غريب[2] مناسب لبرّكم به، إلى أن أحجّ بيتَ اللّه بعناية مقامكم، وأعود داعيًا مُثْنيًا مستدعيًا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب، وأتعوّض من ذمتي بالأندلس ذمّة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظرًا ثمنه مِمّا يباع بالأندلس بشفاعتكم، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقّع فيه وحشة أو جفاء واللّه ما طلبته، لكنهم أسرى وأفضل، وانقطاعي أيضًا لوالدكم مِمّا لا يسع مجدكم إلاّ عمل ما يليق بكم فيه، وها أنا أرتقب جوابكم بما لي عندكم من القبول، ويَسَعُني مجدكم في الطلب وخروج الرسول، لاقتضاء هذا الغرض، واللّه سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به، والسلام. وكتب في الحادي عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة».

وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة[3]: [الكامل]

مولايَ، ها أنا في جوارِ أبيكا ... فابذلْ من البرّ المقدَّرِ فيكا
أَسْمِعْهُ ما يُرْضيه من تحت الثرى ... واللّه يُسْمِعُكَ الذي يرضيكا
واجعلْ رضاه إذا نَهَدْتَ كتيبةً ... تُهْدي إليك النصرَ أو تهديكا
واجبر بجبري قَلْبَه تَنَلِ المنى ... وتطالعِ الفتحَ المبينَ وشيكا
فهو الذي سنَّ البرور بأمِّه ... وأبيه فاشرعْ شَرْعَهُ لبنيكا
وابعثْ رسولك منذرًا ومحذِّرًا ... وبما تؤمّلُ نَيلَهُ يأتيكا
قد هَزَّ عَزْمُكَ كلَّ قطرٍ نازحٍ ... وأخافَ مملوكًا به ومليكا
فإذا سموتَ إلى مَرَامٍ شاسعٍ ... فغُصُونُهُ ثمَرَ المُنَى تجنيكا
ضمنتْ رجالُ اللّه منك مطالبي ... لمّا جعلتك في الثواب شريكا

---

(١) كلمة «أموالكم» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٠).
(٢) غريب: أي إنه عمل بديع.
(٣) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨١).

فلئن كفيتَ حوائجي وأريتَني | أملاً قَرَبُكَ ما أردتَ يُريكا
واشْدُدْ على قولي يدًا فهو الذي | برهانُهُ لا يقبلُ التشكيكا
مولايَ، ما استأثرتُ عنك بمهجتي | إني ومهجتيَ التي تفديكا
لكن رأيتُ جنابَ شالةَ مغنمًا | يُضْفي عليَّ العِزَّ في ناديكا
وفروضُ حقِّكَ لا تفوتُ فَوَقْتُها | باقٍ إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتني وتكرَّر الوعدُ الذي | أبتِ المكارمُ أن يكون أفيكا[1]
أضفى عليكَ اللّهُ سترَ عنايةٍ | مِنْ كلِّ محذورِ الطريقِ يقيكا
ببقائك الدنيا تُحاطُ وأهلها | فاللّه جَلَّ جلاله يُبْقيكا

فلمّا وصل الكتاب إلى السلطان أجابه بما مَرَّ آنفًا.

ورأيت بخطّ الفقيه الأديب المؤرّخ أبي عبد اللّه محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان على هامش قول ابن الخطيب في هذه الرسالة «ولا شكّ عند عاقل أنكم إن انحلّت عروة تأميلكم ـ إلخ» ما صورته: كذلك وقع آخر الأمر، وكان الاستيلاء على مدينة غَرْنَاطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في محرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة، فرحم اللّه تعالى ابن الخطيب، العاقل اللبيب، وغفر له برحمته، انتهى.

ومِمّا خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم في الغرض المتقدّم قوله: [الكامل]

عن بابِ والدِكَ الرضا لا أبْرَحُ | يأسو[2] الزمانُ لأجلِ ذا أو يَجْرَحُ
ضُرِبَتْ خيامي في حماه فَصِبْيَتي | تجني الجميمَ به وبَهْمِي تسرحُ[3]
حين يُراعىٰ وجهُه في وجهتي | بعنايةٍ تشفي الصدورَ وتشرحُ
أيسوغُ عن مثواهُ سيري جانبًا | ومنابرُ الدنيا بذكركَ تَصْدَحُ
أنا في حماهُ وأنتَ أبْصَرُ بالذي | يرضيه منكَ فوزنُ عقلك أرجحُ
في مثلها سيفُ الحميّةِ يُنْتَضَى | في مثلها زَنْدُ الحفيظةِ يُقْدَحُ
وعسى الذي بدأ الجميلَ يعيده | وعسى الذي سَدَّ المذاهب يفتح

---

(١) الأفيك: الكذّاب. محيط المحيط (أفك).
(٢) يأسو: يداوي؛ يقال: أسا الجرحَ يأسوه إذا داواه. محيط المحيط (أسا).
(٣) الجَمِيمُ: ما غطّى وجه الأرض من النبات، أو النبت الكثير. البَهم: الماشية. لسان العرب (جمم) و (بهم).

وقد عرّف في «الإحاطة» بالسلطان أبي سالم فقال بعد كلام: أملاك المسلمين، وحماة الدين، وأمراء المغرب الأقصى من بني مَرين، غيوث المواهب وليوث العَرين، ومعتمد الصريخ وسهام الكافرين، حفظ اللّه تعالى على الإسلام والمسلمين ظلّهم، وزيّن ببدور الدنيا والدين هالَتَهُم، وأبقى الكلمة فيمن أخباره منهم أو من أقاربهم، فما عسى أن يُطْنِب اللسانُ في مدحهم؟ وأين تقع العبارة؟ وماذا يحصر الوصف؟ إلى أن قال: وفاته ـ وفي ليلة العشرين من ذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة[1] ثار عليه بدار الملك وبلد الإمارة المعروف بالبلد الجديد من مدينة فاس الخائنُ الغادرُ مخلفه عليها عمر بن عبد اللّه ابن علي نسمة السوء، وجملة الشؤم، والمثل البعيد في الجراءة على اللّه تعالى، وقد اهتبلَ[2] غِرَّةَ انتقاله إلى القصر السلطاني بالبلد القديم متحولاً إليه حذرًا من قطع[3] فلكي كان يحذر منه، استعجله بضعف نفسه، وأعانه على فرض صحة الحكم به، وسدّ الباب في وجهه، ودعا الناسَ إلى بيعة أخيه المعتوه، وأصبح حائرًا بنفسه، يروم ارتجاع أمر ذهب من يده، ويطوف بالبلد يلتمس وَجْهًا إلى نجاح حيلة، فأعياه ذلك، ورشقت مَنْ معه السهام، وفَرَّت عنه الأجناد والوجوه، وأسلمه الدهر، وتبرّأ منه الجدّ، وعندما جَنَّ عليه الليل فَرَّ لوجهه، وقد التفَّ عليه الوزراء، فسفهت حلومهم، وفالت آراؤهم، ولو قصدوا به بعضَ الجبال المنيعة لولّوا أوجههم شطر مظنّة الخلاص، واتّصفوا بإبلاغ الأعذار، ولكنهم نَكلوا عنه، ورَجَعُوا أدراجهم وتسلّلوا راجعين إلى يد غادر الجملة، وقد[4] سلبهم اللّه سبحانه لباسَ الحياء والرجولية وتأذن اللّه تعالى لهم بَغْدُ بسوء العاقبة، وقصد بعض بيوت البادية وقد فضحه نهارُ الغد، واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه، فسيق إلى مَصْرَعه، وقُتِل بظاهر البلد ثاني اليوم الذي غدر به فيه، جعلها اللّه تعالى له شهادةً ونفعه! فلقد كان بقية البيت وآخر القوم دَمَاثةً وحياء، وبعدًا عن الشرور، وركونًا للعاقبة. وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته بالقلعة من ظاهر المدينة قصيدةً أدّيتُ فيها بعض حقّه: [الوافر]

بني الدنيا بني لَمَعِ السَّرابِ   لدوا للموت وابنوا للخرابِ

(١) يقول ابن الأحمر في روضة النسرين (ص ٣٠): وقتل وأنا أنظر إليه وأتوجّع وأبكي يوم الخميس ٢١ لذي القعدة سنة ٧٦٢ هـ، وله ٢٨ سنة.

(٢) إهْتَبَلَ الغِرَّةَ: اقتنصها. لسان العرب (هبل).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٣): «قاطع». والقطع والقاطع في مصطلح أهل التنجيم هو ما يدلّ على نحس وخسارة.

(٤) في طبعة دار صادر: «قد».

انتهى المقصود من الترجمة.

وكان يصف لسان الدين بمقرّبي وجليسي، كما سبقت الإشارة إليه من كلام لسان الدين فيما خاطب به ابن أبي رمانة، والله يسبل على الجميع رداء عفوه سبحانه.

وقد تقدم أنه شفع لابن الخطيب عند أهل الأندلس، ولذلك قال يخاطبهم: [الطويل]

سَمِيَّ خليلِ اللهِ أَحْيَيْتَ مهجتي وعاجَلْني منكَ الصريخُ على بُعْدِ
فإنْ عشْتُ أُبْلِغْ فيك نفسيَ عذرها وإن لم أعشْ فالله يجزيك من بعدي

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر في حق ابن الخطيب ما صورته[1]:

هو شاعر الدنيا، وعَلَم المفرد والثُّنيا، وكاتبُ الأرض، إلى يوم العَرض[2]. لا يدافع مدحه في الكَتْب، ولا يُجْنَحُ فيه إلى العَتب. آخر من تقدّم في الماضي، وسيف مِقْوَله ليس بالكَهام[3] إذ هو الماضي، وإلاّ فانظرْ كلام الكتّاب الأول من العُصْبة، كيف كان فيهم بالإفادة[4] صاحب القصبة، للبراعة، باليراعة. وبه أُسكت صائلهم، وما حُمدتْ بُكَرُهم وأصائلهم، للجزالة المشربة بالحلاوة، الممكنة من مفاصل الطلاوة. وهو نفيس العُدْوتين، ورئيس الدولتين، بالاطلاع على العلوم العقلية، والإمتاع[5] بالفهوم النقلية، لكن صِلُّ لسانه في الهجاء لسع[6]، ونجاد نطاقه في ذلك اتّسع[7]، حتى صدمني، وعلى القول فيه أقدمني؛ بسبب هجوه في ابن[8] عمي ملك الصقع الأندلسي، سلطان ذلك الوطن في النفر الجنسي، المعظّم في الملوك بالقول الجني والإنسي. ثم صفحت عنه صفحة القادر، الوارد من مياه الظفر غير القاذر[9]؛ لأنَّ مثلي لا يليق به إظهار العورات، ولا يجمل[10] له تتبّع

(١) نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤) وأزهار الرياض (ج ١ ص ١٩١).
(٢) يوم العَرض: يوم القيامة ويوم الدين. لسان العرب (عرض).
(٣) السيف الكهام: الذي لا يقطع؛ يقال: كَهِمَ السيفُ إذا كَلَّ. لسان العرب (كهم).
(٤) في نثير فرائد الجمان: «بالإجادة».
(٥) في المصدر نفسه: «والامتناع».
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٧١): «ألسع».
(٧) في الطبعة نفسها: «أنسع»، والأنسع: الأكثر أذى. لسان العرب (نسع).
(٨) في الطبعة نفسها: «لابن عمي».
(٩) في نثير فرائد الجمان: «غير الصادر».
(١٠) في المصدر نفسه: «ولا يحمد».

العثرات، اتّباعًا للشرع في تحريم الغيبة، وضربًا عن الكريهة[1] وإثباتًا لحظوظ النقيبة الرغيبة[2]، فما ضره لو اشتغل بذُنُوبه، وتأسّف على ما شربه من ماء اللهو بذَنُوبه[3]، وقد قال بعض الناس: من تعرض للأعراض، صار عِرْضُهُ هدفًا لسهام الأغراض؛ انتهى.

ومثل هذا في لسان الدين لا يقدح، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح، وعلى تقدير صدور ما يخدش وجه جنابه الرفيع؛ فالأولى أن ينشد: [الكامل]

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحد   جاءت محاسنه بألف شفيعِ

ومِمَّنْ أثنى على لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه اللّه تعالى! ـ بعضُ أكابر علماء تلمسان، ولم يحضرني الآن اسمه، في تأليف عرَّف فيه بالشيخ العلاّمة سيدي أبي عبد اللّه الشريف التلمساني وابنيه العالمين أبي يحيىٰ وسيدي عبد اللّه، فقال بعد كلام في حقّ الشريف ما نصُّه: وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره، وأكثرهم تعظيمًا له، حتى إنَّ العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة، والتآليف البديعة، كلّما ألّف تأليفًا بعثه إليه، وعرضه عليه، وطلب أن يكتب عليه بخطّه، وكان الشيخ الإمام الصدر المفتي أبو سعيد بن لب شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلّما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها، وطلب منه بيان ما أشكل عليه، مقرًّا له بالفضل؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور.

رجع:

وكتب لسان الدين بن الخطيب متمثّلاً بشيخه الأوحد قاضي الجماعة أبي البركات بن الحاج البلفيقي رحمهما اللّه تعالى[4]: [السريع]

أيتها النفس إليه اذهبي   فَحُبُّه المشهورُ من مذهبي
أيأسني التوبةَ مِنْ حُبِّه   طلوعُهُ شمسًا من المغربِ

ويغلب على ظني أنه خاطبه بذلك عند قدومه، أعني لسان الدين، من المغرب إلى الأندلس، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) في نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٤): «الكريبة». والكريبة: هي الداهية الشديدة. القاموس المحيط (كرب).

(٢) في نثير فرائد الجمان: «النقيبة الغريبة». والنقيبة: النفس والطبيعة. لسان العرب (نقب).

(٣) في النثير: «الهجو بذنوبه». والذَّنُوب، بفتح الذال وضم النون: الدلو. لسان العرب (ذنب).

(٤) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء وأشرنا هناك إلى أنهما لابن خروف الشاعر، وقيل: لغيره.

وكان قاضي القضاة برهان الدين الباعوني الشامي[1]، كثير الثناء على لسان الدين رحمه اللّه تعالى؛ لأنه تلقى أخباره من قاضي القضاة ابن خلدون حسبما ذكرناه في غير هذا الموضع، ولقد رأيت بخطّه على هامش بعض تآليف لسان الدين في الإنشاء ما نصُّه: هذا بليغ إلى الغاية، انتهى.

وكتب أثره بعض أكابر علماء المشرق ما نصُّه: هذا خطُّ العلاّمة قاضي القضاة برهان الدين الباعوني، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنّف ابن الخطيب الأندلسي، معظّم له ولإنشائه، وهو خليق بالتعظيم، جديرٌ بمزيد التمجيد والتكريم؛ وكيف لا وهو شاعر مُفْلِقٌ، وخطيب مِصْقَع، وكاتب مترسل بليغ، لولا ما في إنشائه من الإكثار، الذي لا يكاد يخلو من عثار، والإطناب، الذي يُفضي إلى الاجتناب، والإسهاب، الذي يَقُدُّ الإهاب، ويورث الالتهاب؛ انتهى.

قلت: وهذا الانتقاد غير مُسَلّم؛ فإنّ لسان الدين وإن أطنب وأسهب، فقد سلك من البلاغة أحْسَنَ مذهب، ويرحم اللّه تعالى العلامة البرهان الباعوني المذكور أعلاه؛ إذ كتب بخطّه في آخر بعض تآليف لسان الدين في الإنشاء ما صورتُه: قال كاتبُه إبراهيم بن أحمد الباعوني لطف اللّه تعالى به: الحمد للّه على ما ألهم من البيان وعلّم، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم، وقَفْتُ على هذا الكتاب من أوّله إلى آخره، وعُمْتُ من بَحْر بلاغته في زاخره، وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره، فإنه برّز فيه غاية التبريز، وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز، لا بل بما هو أبهى من الجواهر، والنجوم الزواهر، وعجبت من تلك الألفاظ، المشبهة لسحر الألفاظ، ورقة المعاني، المحكمة المباني؛ انتهى.

فانظر - أيّدك اللّه تعالى! - بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل، المنصف الكامل، وقِسْهُ مع كلام ذلك المنتقد المتعصّب الناقص الخامل، مَعَ أنَّ الكلام الذي تعرّض له ذاك بالقدح، هو الذي تصدّى له الباعوني بالمدح، وكل إناء بالذي فيه ينضح[2]، وإنما يعرف الفضلَ لأهلِ الفضلِ أهلُ الفضل، والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح.

---

(١) هو إبراهيم بن أحمد الباعوني الصفدي المولد الدمشقي الدار، كان يُنْعَتُ بقاضي القضاة مع أنه رفض تولّي القضاء. له ديوان شعر ومؤلفات أخرى. توفي سنة ٨٧٠ هـ. الضوء اللامع (جـ ١ ص ٢٦) والبدر الطالع (جـ ١ ص ٨).

(٢) شبيه بقول ابن عمار: [الطويل]

ولا تَلْتَفِتْ رأيَ الوُشاةِ وقولَهُمْ　　　فكلُّ إناءٍ بالذي فيه يَرْشَحُ

الذخيرة (ق ٢ ص ٤٢١) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٦١).

رجع إلى ما كُنّا بصدده:

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغني بالله بعد كلام كثير ما صورة محلّ الحاجة منه: وكان هذا السلطان من نيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مِثلُه ممن نزع[1] غرقًا في قَوْسِ الخلافة، وحكى[2] لي شيخنا القاضي أبو العباس الحسني أنّ كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب أن يطلب من أبيه الغني بالله أن يبادر بإعذاره، إذ كان قد جاوز سنَّ الإثغار، دون إعذار، لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمّة، فأسعده الشيخ بذلك، وقال للغني بالله: يا مولانا، إنَّ سيدي يوسف وَكَّلَني على طلب إعذاره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه، فقال له الغني بالله: حسبي الله! وسكت سكتة لطيفة تُشْعِرُ بفصل الكلام بعضه من بعض، ثم قال: ونِعْمَ الوكيل! فعدَّها الأكياس[3] من مدارك نُبْله، ومحاسن قوله وفعله؛ انتهى.

قلت: هذا من السلطان في حقّ لسان الدين غاية التبجيل، أعني قوله «ونعم الوكيل» فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد، حتى آل أمره إلى النحس بعد ذلك السعد؟ وسقاه دهره بعد الحلاوة ما مرّ، ولم يكن قتله إلاً بتسبب السلطان المذكور كما مَرّ: [الرجز]

ثلاثةٌ ليس لها أمانُ   البحرُ والسلطانُ والزمانُ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى[4]: ولَمّا قضى الله عَزَّ وجلَّ بالإدالة، ورَجَعْنا إلى أوطاننا من العُدْوَة، واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة، والتّيه على السلطان والدولة، والتّكَبُّر على أعلى رُتَب الخدمة، وتطارحْتُ على السلطان في استنجاز وعد الرحلة، ورغبتُ في تبرئة[5] الذمة، ونَفَرْتُ عن الأندلس بالجملة، خاطبني - يعني أبا جعفر ابن خاتمة. بعد صَدْرٍ بَلَغَ من حُسْن الإشارة، وبراعة الاستهلال الغاية، بقوله: «وإلى هذا يا

---

(١) نزع في القوس: مدّها أي جذب وترها. والغرق: اسم مصدر بمعنى الإغراق. لسان العرب (نزع) و (غرق).

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٧): «حكى».

(٣) الأكياس: جمع كَيِّس وهو الفطن الذكي الحسن الفهم. لسان العرب (كيس).

(٤) رسالة ابن خاتمة هذه إلى ابن الخطيب في الإحاطة (ج ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٦٥).

(٥) في الإحاطة (ص ٢٥٣): «في تفويت الذمة».

سيدي ومحلَّ تعظيمي وإجلالي، أَمْتَعَ اللّهُ تعالى الوجودَ بطول بقائكم! وضاعف في العِزِّ درجات ارتقائكم! فإنه من الأمر الذي لم يَغِبْ عن رأي العقول[١]، ولا اختلف فيه أرباب المعقول[٢]، أنكم بهذه الجزيرة شمسُ أُفُقها، وتاجُ مَفْرِقِها، وواسطة سِلْكها، وطِراز مُلْكها، وقِلادة نَحْرها، وفريدة دهرها[٣]، وعِقْد جِيدها المنصوص، وتمام[٤] زينتها على العموم والخصوص، ثم أنتم مَدار أفلاكها، وسرُّ سياسة أملاكها، وتُرْجمان بيانها، ولسانُ إحسانها، وطبيبُ[٥] مارسْتانها، والذي عليه عَقْد إدارتها، وبه قِوام إمارتها، ولديه[٦] يُحَلُّ المشكل، وإليه يُلْجأ في الأمر المُعْضل، فلا غَرْوَ أن تتقيّد بكم الأسماعُ والأبصار، وتحدّق نحوكم الأذهانُ والأفكار، ويُزْجَرُ عنكم السانح والبارح[٧]، ويُسْتَنْبَأُ ما تَطْرفُ عنه العين وتختلجُ الجوارح، استقراء[٨] لمَرَامكم، واستطلاعًا لطالع اعتزامكم، واستكشافًا عن مَرَامي[٩] سهامكم، لا سيما مع إقامتكم على جَناح خُفُوق، وظهوركم في مُلْتَمَع بُرُوق، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق، حتى تستقرَّ بكم الديار[١٠]، ويلقي عصاه التسيار، وله العُذْر في ذلك إذ صَدْعُها بفراقكم لم يندمل[١١]، وسرورها بلقائكم لم يكتمل، ولم يَبْرَأْ[١٢] بعدُ جناحُها المَهِيض[١٣]، ولا جَمَّ ماؤها المَغِيض، ولا تميَّزت من داجيها لياليها البِيض، ولا استوى نهارُها، ولا تألّفت أنهارها[١٤]، ولا اشتملت نعماؤها، ولا نُسيت

---

(١) في الإحاطة: «رأي المَقُول».

(٢) في الإحاطة: «أرباب المحسوس والمعقول».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٧٥): «دُرَرِها».

(٤) في الإحاطة: «وكمال زينتها على المعلوم والمخصوص».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٩): «وطبّ».

(٦) في الإحاطة: «فلديه».

(٧) السانح: الطائر الذي يمرّ من اليسار إلى اليمين. البارح: الطائر الذي يمرُّ من اليمين إلى اليسار، وكان بعض العرب يتفاءل بالسانح ويتشاءم بالبارح، وكان بعضهم على العكس. لسان العرب (سنح) و (برح).

(٨) استقراءً لمرامكم: تتبعًا لمواضع رغبتكم.

(٩) في الإحاطة: «المرامي».

(١٠) في الإحاطة: «الدار».

(١١) يندمل الصَّدْع: أي يصلح؛ يقال: اندمل الجرح إذا شفي، والصَّدْع: الشقّ.

(١٢) في الإحاطة (ص ٤٥٢): «يَبْرَ».

(١٣) المهيض: المكسور. لسان العرب (هيض).

(١٤) في الإحاطة: «أنوارُها».

غمّاؤها، بل هي كالناقِهِ[1]، والحديث العَهْد بالمكاره، يستشعر[2] نَفَس العافية، ويتمسّح[3] منكم باليد الشافية، فَبِحَناكم[4] عليها، وعظم حرمتكم على من لديها، لا تَشُوبوا لها عَذْبَ المُجاج بالأُجاج، وتفطموها[5] عما عُوّدت من طيب المزاج، فما لدائها وحياة قُرْبكم غير طبِّكم من علاج. وإني لَيَخْطُر بخاطري محبةً فيكم، وعنايةً بما يعنيكم، ما نال جانبكم صانه اللّه تعالى بهذا الوطن من الجفاء، ثم أذكر ما نالكم من حسن العَهْد وكرم الوفاء، وأنَّ الوطن إحدى المواطن الأظآر التي يحقُّ لهنَّ جميلُ الاحتفاء، وما يتعلّق بكم من حُرْمة أولياء القرابة وأوِدّاء [6] الصفاء، فيغلب على ظني أنكم لحسنِ العهد أَجْنَح، وبحقّ نفسكم عن حقّ أوليائكم أسمح، ولِلَّتِي هي أعظم قيمةً من فضائلكم أوهَبُ وأسْجَحُ [7]، وهَبْ أنَّ الدُّرَّ لا يحتاج في الإثبات، إلى شهادة النّحور واللبّات، والياقوت غني [8] المكان، عن مظاهرة القلائد والتيجان، أليس أنه أعلى للعيان، وأبعد عن مكابرة البرهان، تألُّقُها في تاج الملك أنوشروان؟ فالشمس [9] وإن كانت أُمَّ الأنوار، وجلاء الأبصار، مهما أغمى مكانها من الأفق قيل: أليلٌ[10] هو أم نهار، وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام، وأولو الأحلام، مواطن استقرارهم، وأماكن قرارهم، إلاّ برغمهم واضطرارهم، واستبدال[11] دار خير من دارهم، ومتى توازن الأندلس بالمغرب، أو يُعوّض عنها إلاّ بمكة أو يثرب؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُبَّاد، وما فوقه مرابط جِهاد، ومعاقد ألوية في سبيل اللّه ومَضارب أوتاد، ثم يبوّأ ولده مُبَوَّأ أجداده، ويجمع له بين طارفه[12] وتلاده، أُعيد أنظاركم

---

(١) الناقه: من شفي من مرضه ولم ترجع قوته بعد. لسان العرب (نقه).

(٢) في الإحاطة: «تستشعر».

(٣) في الإحاطة: «وتتمسّح».

(٤) في الإحاطة: «فبحياتكم».

(٥) في الإحاطة: «وتُقْنِطوها».

(٦) في الإحاطة: «وأولي الصفاء». والأوداء: جمع ودود ووديد وهو المحب. محيط المحيط (ودد).

(٧) في الإحاطة: «وأمنح».

(٨) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٩): «غني في المكان».

(٩) في الإحاطة (ص ٢٥٥): «والشمس».

(١٠) في الإحاطة: «الليل».

(١١) في الإحاطة: «دار هي خير».

(١٢) في الإحاطة: «طرافه».

المُسَدَّدة من رأيٍ فائل[1]، وسعي طويل لم يَخلَ منه بطائل، فحسبكم من هذا الإياب السعيد، والعَوْد الحميد»؛ وهي طويلة.

قال لسان الدين رحمه الله تعالى: فأجبتُه بقولي[2]: [السريع]

لُمْ في الهوى العُذْريِّ أو لا تَلُمْ فالعَذْلُ لا يَدْخُلُ أسماعي
شأنُكَ تعنيفي وشأني الهوى كلُّ امرىءٍ في شأنه ساعي

«أهلاً بِتُحْفة القادم، ورَيْحانة المُنادم، وذكر الهوى المُتقادم، لا يصغّر اللّه مَسْراك! فما أسْرَاكَ، لقد جبتَ[3] إليَّ من همومي ليلاً، وجستَ[4] رَجْلاً وخيلاً، ووفّيت من صاع الوفاء كيلاً، وظننتَ بي الأسف على ما فات، فأعملت الالتفات، لكيلا[5]، فأُقسم لو أنّ الأمرَ اليومَ بيدي، أو كانت اللّمّة السوداء من عُدَدي، ما أفلتَ أشراكي المنصوبة لأمثالك[6]، حول المياه وبين المسالك، ولا علمت ما هنالك، لكنك طَرَقْتَ حِمًى كَسَعَتْه[7] الغارة الشعواء، وغيّرت رَبْعَه الأنواء، فخمد بعد ارتجاجه، وسكت أُذينُ دَجاجه، وتلاعبتِ الرياحُ[8] الهوجُ فوق فِجاجه، وطال عهدُه بالزمن[9] الأوّل، وهل عند رسمٍ دارس من مُعَوّل[10]؟، وحَيّا اللّه نَدْبًا إلى زيارتي نَدَبَك، وبآدابه الحكمية أدَّبك: [الوافر]

فكان وقد أفادَ بك الأماني كمن أَهْدَى الشفاء إلى العليلِ

---

(١) الرأي الفائل: الضعيف. لسان العرب (فيل).

(٢) الإحاطة (جـ ١ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٩) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٦٧ ـ ٢٧١).

(٣) في الإحاطة: «جَلَبْتَ».

(٤) في الإحاطة: «وجُبْتَ خَيْلاً ورَجْلاً».

(٥) هذا من الاكتفاء، وهو يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسوا على ما فاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بما آتاكُمْ﴾. سورة الحديد ٥٧، الآية ٢٣.

(٦) أخذه من بيت الشريف الرضي: [البسيط]

لو كانت اللّمّة السوداء من عددي يوم الغميم لما أفلتَّ أشراكي

(٧) في الإحاطة: (ص ٢٥٦): «كَسَحَتْهُ».

(٨) في الإحاطة: «الرياح والهوج».

(٩) في الإحاطة: «بالزمان».

(١٠) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس وهو: [الطويل]

وإنَّ شفائي عَبْرَةٌ إنْ سَفَحْتُها وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ

ديوان امرىء القيس (ص ٩).

وهي شيمة بُوركت من شِيمةٍ، وهبةُ اللّه تعالى قبله من لَدن المشيمة، ومَنْ مثله في صِلة رَغي، وفضلِ سعي، وقولِ وعي [١] : [مجزوء الخفيف]

قسمًا بالكواكب الـ ـزُّهْر والزهر عاتمهْ
إنما الفضلُ مِلّةٌ خُتمت بابن خاتمهْ

كساني حلّة فضله[٢]، وقد ذهب زمان التجمُّل، وحمّلني[٣] شكره، وكَتَدي[٤] واهٍ عن التحمّل، ونظرني بالعين الكليلة عن العيب[٥]، فهلاً أجاد التأمّل، واستطلع طِلْعَ نَثّي[٦]، ووالى في مبرك[٧] المعجزة حثّي، ﴿إنما أشكوى بثي﴾[٨]: [الوافر]

ولو تُرك القَطا ليلاً لناما

وما حال شمل وَتده مفروق، وقاعدته فروق، وصُوَاع[٩] بني أبيه مسروق، وقلب قَرْحِهِ من عَضّة الدهر دامٍ، وجمرةُ حسرته ذات احتدامٍ، هذا وقد صارت الصغرى، التي كانت الكبرى، لمشيبٍ لم يَرُعْ[١٠] أن هجم لمّا نجم، ثم تهلّل عارضه وانسجم: [الكامل]

لا تجمعي هَجْرًا عَلَيَّ وغُرْبَةً فالهجرُ في تَلَفِ الغريب سريعُ

نظرت فإذا [الجنب باب و][١١] النفس فريسة ظُفُر وناب، والمال أكيلة انتهاب،

---

(١) في الإحاطة: «وقولِ ووعي».
(٢) في الإحاطة: «وصفه».
(٣) في الإحاطة: «وحملني ناهض شكره».
(٤) الكَتَدُ: مجتمع الكتفين. لسان العرب (كتد).
(٥) في الإحاطة: «عن العيوب». وهنا يشير إلى قول الشاعر: [الطويل]
وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ كما أنَّ عين السُّخط تُبدي المساويا
(٦) النَّثُّ: ما يذيعه المرءُ من سرّ. لسان العرب (نثث).
(٧) في الإحاطة: «في مركب».
(٨) سورة يوسف ١٢، الآية ٨٦.
(٩) الصُّواع، بضم الصاد: إناء كان الملك يشرب به ويكيل. وفي القرآن الكريم: ﴿نَفْقِدُ صُواعَ المَلِكِ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٧٢.
(١٠) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣١): «لم يَدَعْ».
(١١) ما بين القوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٧٨).

والعُمْرُ رهن ذهاب، واليد صِفْرٌ من كل اكتساب، وسوق المَعاد مترامية، واللّه سريع الحساب [1] : [الوافر]

ولو نُعْطَى الخِيارَ لَمَا افْتَرَقْنا ولكنْ لا خِيارَ مع الزمانِ

وهَبْ أنَّ العمر جديدٌ، وظلّ الأمن مديدٌ، ورأي الاغتباط بالوطن سديدٌ، فما الحجّة لنفسي إذا مرّت بمَطَارح جَفْوَتها، وملاعب هَفْوتها، ومثاقف [2] قَناتها، ومظاهر عُزَّاها [3] ومَناتها، والزمان وَلُود، وزِناد الكون غير صَلُود [4] : [الكامل]

وإذا امرؤ لَدَغَتْهُ أَفْعَى مَرَّةً تَرَكَتْهُ حين يُجَرُّ حبلٌ يَفْرَقُ

ثم إن المُرَغِّب قد ذهب، والدهر قد استرجع ما وَهَب، والعارضُ قد اشتهب، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضةٌ، وأسماؤه على الجوار مخفوضةٌ، والنِّيَّة مع اللّه على الزُّهد فيما بأيدي الناس معقودةٌ، والتوبة بفضل اللّه عزَّ وجلّ منقودة[5]، والمعاملة سامريّة، ودروع الصبر سابريّة، والاقتصاد قد قَرَّتِ العين بصحبته، واللّه قد عوّض حبّ الدنيا بمحبّته، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق، وقد رَقَى لَدْغتها ألفُ راق، وجمعتني بها الحُجْرة، ما الذي تكون الأجرة؟ جل شاني، وإن[6] رضي الوامق وسخط الشاني، إني إلى اللّه تعالى مُهاجر، وللعرض[7] الأدنى هاجر، ولأظعان السُّرى زاجر، لنجْدٍ[8] إن شاء اللّه تعالى وحاجر، لكن دعاني للهوى[9]، إلى هذا المولى المنعم هوى، خلعتُ نَعْلَي الوجود وما خلعته، وشوقي أمرني فأطعْتُه، وغالبٌ واللّهِ صبري فما استطعته، والحال أغلب، وعسى أن لا يخيبَ المطلب، فإن يسّر[10] رضاه فأمر كمل، وراحل احتمل، وحادٍ أشجى

(١) تقدم هذا البيت في الجزء الثالث .

(٢) في الإحاطة (ص ٢٥٧): «ومناقب».

(٣) في الإحاطة: «عُزّاتها».

(٤) البيت لصالح بن عبد القدوس، وورد في تاريخ بغداد (جـ ٩ ص ٣٠٤). وصدره في تاريخ بغداد هكذا:
وإن امرؤ لَسَعَتْهُ أفعى مرّةً

(٥) في الإحاطة (ص ٢٥٨): «وجلّ شروطها غير مُعارضة ولا منقودة».

(٦) في الإحاطة: «وقد رضي».

(٧) في الإحاطة: «وللغرض».

(٨) في الإحاطة: «لأُحُد».

(٩) في الإحاطة: «إلى الهوى، لهذا المولى..».

(١٠) في الإحاطة: «فإن يسّره رضاه فأمل كمل».

الناقة والجمل، وإن كان خلاف ذلك فالزمان جمّ العلائق، والتسليم بمقامي لائق: [البسيط]

ما بين غَمْضَةِ عينٍ وانتباهتها   يُصَرَّفُ الأمرُ من حالٍ إلى حالِ

وأما تفضيله هذا الوطن ليُمْن طَيْره، وعموم خيره، وبركة جهاده، وعمران رُباه ووِهاده، بأشلاء عُبَّاده وزُهَّاده، حتى لا يفضله إلاَّ أحد الحرمين، فحَقٌّ بريء من المَيْن، لكنني للحرمين جَنَحْتُ، وفي جوّ الشوق إليهما سنحت[1]، فقد أَفْضَتْ إلى طريق قَصْدي محجَّتُه، ونصرتني والمِنَّة للّه تعالى حُجَّته، وقَصْدُ سيدي أسنى قصد، توخَّاه الحمد[2] والشكر، ومعروفٌ عُرف به النُّكر[3]، والآمال من فضل اللّه بعدُ تُمْتار، واللّه تعالى يخلق ما يشاء ويختار، ودعاؤه بظهر الغيب مَـدَد، وعُدَّة وعَدَد، وبرُّه حالَي الظِّعْن والإقامة مُعْتَمَلٌ ومعتمد[4]، ومجال المعرفة بفضله لا يَحْصُره أمد[5]، والسلام»؛ انتهى.

ومن خط ابن الصباغ ما صورته: يكفي ابنَ خاتمة الغايةُ التي سلمها له إمام الطريقة، وواحدها الفذ على الحقيقة، حيث قال[6]: [مجزوء الخفيف]

إنـمـا الـفـضـلُ مِـلَّـةٌ   خُـتِـمَـتْ بـابـن خـاتـمـهْ

ومن نظمه وقد تخلّى عن الكتابة وطُلب منه أن يعود فأبى وأنشد: [الوافر]

تَقَضَّى في الكتابة لي زمانٌ   كشأن العبد يَنْتَظِرُ الكتابهْ
فمنَّ اللّه من عِتْقِي بما لا   يطيقُ الشكر أن يملا كتابهْ
وقالوا هل تعود فقلت كلا   وهل حُرٌّ يعود إلى الكتابهْ

فانظرْ حُسْنَ هذه التورية العجيبة[7]، انتهى.

---

(١) في الإحاطة: «سَرَحْتُ».
(٢) في الإحاطة (ص ٢٥٩): «الشكر والحمد».
(٣) في الإحاطة: «النكر، وأملٌ انتحاه الفكرُ، والآمال، والحمد للّه، بعدُ تُمتار».
(٤) في الإحاطة: «معتمدٌ».
(٥) في الإحاطة: «أحد».
(٦) تقدّم هذا البيت في هذا الجزء.
(٧) التورية في الأبيات في كلمة «الكتابة»، والكتابة عَقْدٌ يعقده السّيّد مع عبده على أن يؤدّي له العبد قدرًا من المال يصير بعد تسديده المال حرًّا.

ولابن خاتمة يخاطب ابن جُزَي: يا أخي الذي سَمَا وُدُّه أن يُجَازى، وسيدي الذي علا مجده عن أن يُوَازى، وصل اللّه تعالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز! وكافأ ما لك من الاختصاص بالفضائل والامتياز! أمَا إنه لو وسع التخلّف عن جواب أخ أعز، ولم يجب التكلّف بإجابة مَنْ أبان فأعجز، لغطيت عجزي عن عين تعجيزك، ولما تعاطيت المثول بين يدي مناهزك أو مجيزك، لكنه في حكم الودّ المكنون المكنوز، مِمّا لا يحلّ ولا يجوز، فلكم الفضل في الإغضاء عن عاجز، دعاه حكم التكلّف إلى القيام قيام مُناجز، وإن لم يكن ذلك عند الإنصاف، وحميد الأوصاف، من السائغ الجائز، فعن جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز، ولم يحصل الحقيقة إلاّ على المجاز. وأما[1] ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التي أعجزت، وبلغت من البلاغة الغاية التي عزت مُنَاهَضَتُها وأعوزت، فلم أكن لأستهدف ثانيًا لمضاضة الإعجاز، وأسجل على نفسي بالإفلاس والإعواز؛ انتهى.

وكتب قبلها قصيدة زائية أجابه بها عن قصيدة زائية، التزم فيها ابنُ جزي ترك الراء؛ لأنه كان ألْثَغَ يبدلها غينًا، رحم اللّه تعالى الجميع!.

وقال لسان الدين في ترجمة ابن خاتمة المذكور[2]: إنه الصدر المتفنن المشارك، القوي الإدراك، السديد النظر، الثاقب الذهن، الكثير الاجتهاد، الموفور الأدوات، المعين الطبع، الجيد القريحة، الذي هو حسنة من حسنات الأندلس، أحمد بن علي بن خاتمة، من أهل ألمرية. إلى أن قال[3]: ومِمّا خاطبني به بعد إلمام الركاب[4] السلطاني ببلده وأنا صحبته[5]، ولقائه إيايَ بما يَلْقَى به مثله من تأنيس وبِرٍّ، وتَوَدُّدٍ، وتَرَدُّد: [الكامل]

يا من حَصَلْتَ على الكمال بما رأتْ ... عينايَ منه من الجمالِ الرائعِ
قَمَرٌ[6] يروقُ وفي عِطافَيْ بُرْدِهِ ... ما شئتَ من كلامٍ ومَجْدٍ بارعِ
أشكو إليك من الزمان تحامُلاً ... في فَضِّ شَمْلٍ لي بِقُرْبِكَ جامِعِ

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٤): «أمّا».
(٢) الإحاطة (جـ ١ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠) والنص بتصرّف المقري.
(٣) الإحاطة (جـ ١ ص ٢٤١ ـ ٢٤٤) وديوان ابن خاتمة (ص ١٩٨).
(٤) في الإحاطة: «الرَّكْب».
(٥) في ديوان ابن خاتمة: «في صحبته».
(٦) في الإحاطة: «مرأى».

هَجَمَ البعاد عليه ضَنًّا باللِّقا حتى تقلَّصَ مثل بَرْقٍ لامع
فلو أنني ذو مَذْهَبٍ لِشَفاعةٍ ناديْتُهُ: يا مالكي يا شافعي[1]

«شكواي إلى سيدي ومُعَظَّمي. أقرّ اللّه تعالى بسنائه أعين المجد! وأدرَّ بثنائه ألسنَ الحمد! . شكوى ظمآن صُدَّ عن القَرَاح العَذْب لأوّل وروده، والهَيْمان رُدَّ عن استرواح القُرْب لِمُعْضِلِ صدوده، من زمانٍ هجم عليَّ بإبعاده[2]، على حين إسعاده، ودهمني بفراقه، غبَّ إنارة أُفقي به وإشراقه، ثم لم يَكْفِهِ ما اجترم في ترويع خياله الزاهر، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر، فَقُطع عن توفية حقِّه، ومُنع من تأدية مستحقِّه، لا جَرَم أنه أَنِفَ لشعاع ذُكائه[3]، من هذه المطالع النائية[4] عن شريف الإنارة، وبخل بالإمتاع بذَكائه، عن هذه المسامع النائية عن لطيف العبارة، فراجع أنظاره، واسترجع مُعارَه، وإلاَّ فعهدي بغروب الشمس إلى الطلوع[5]، وأنَّ البدر يتصرّف[6] بين الإقامة والرجوع. فما بال هذا النَّيِّر الأسعد، غَرَبَ ثم لم يطلع من الغد، ما ذاك إلاَّ لِعَدْوَى الأيام وعُدْوَانها، وشأنها في تغطية إساءتها وجه إحسانها، وكما قيل: عادت هيفٌ إلى أديانها، أستغفر اللّه أن لا يُعَدَّ ذلك من المغتفَر، في جانب ما أولت من الأُثَر[7]، التي أزرى العيان فيها بالأثر، وأربى الخُبْرُ على الخَبَرَ[8]، فقد سُرَّتْ متشوِّفات الخواطر، وأَقرّت مستشرفات[9] النواظر، بما حوت[10]من ذلكم الكمال الباهر، والجمال الناضر، الذي قيّد خُطى الأبصار، عن التشوُّف والاستبصار، وأخذ بأزِمَّة القلوب، عن سبيل كلّ مأمول ومرغوب، وأنّى للعين، بالتحوُّل عن كمال الزَّيْن؟ أو الطرف[11]، بالتّنقل عن خلال الظرف؟ أو للسمع من مُراد، بعد

(١) في الإحاطة: «كن شافعي».
(٢) في الإحاطة: «عليّ بعاده، على حين النفادة».
(٣) في الإحاطة: «الشارع ذكائه». والذُّكاء، بضم الذال: الشمس.
(٤) في الإحاطة (ص ٢٤٢): «النافية».
(٥) في الإحاطة: «إلى طلوع».
(٦) في الإحاطة: «ينصرف».
(٧) في الإحاطة: «ما أوليت. . .». والأُثُر: جمع أثرة وهي المكرمة المتوارثة. لسان العرب (أثر).
(٨) أَرْبَى الخُبْرُ على الخَبَرِ: أي زادت الخبرة على الخبر.
(٩) في الإحاطة: «متشرّفات».
(١٠) في الإحاطة: «بما جَلَتْ».
(١١) في الإحاطة: «أو للطرف».

ذلكم الإصدار الأدبي والإيراد[1]، أو للقب من مُراد، غير تلكم الشيم الرافلة من ملابس الكرم في حُلل وأبراد، وهل هو إلاَّ الحُسْنُ جُمعَ في نظام، والبَدْرُ طالع لتمام، وأنواع الفضل[2] ضمّها جنسُ اتّفاق والتئام، فما ترعى العين منه في غير مرعًى خصيب، ولا تستهدفُ الأذن[3] بغير سهم في حَدَق البلاغة مُصيب، ولا تستطلع[4] النفس سوى مطلعٍ له في الحسن والإحسان أوفر نصيب. لقد أزرى بناظم حُلاه فيما يتعاطاه التقصير، وانفسح مدى علاه بكل باعٍ قصير، وسَفُهَ حلمُ القائل: إنَّ الإنسان عالَمٌ صغير، شكرًا للدهر على يد أسداها بقرب مزاره، وتُحْفة[5] أهداها بمطلع أنواره، على تغاليه في أدخاره[6]، نفائسه وتحليه بنفائس ادُخاره، لا غَرْوَ أن يضيق عنّا نطاق الذكر، ولا يتّسع لنا سِوار الشكر، فقد عمّت هذه الأقطار بما شاءت من تحف بين تحفٍّ وكرامة، واجتنتْ أهلها ثمرة الرحلة في ظل الإقامة، وجرى لهم الأمر في ذلك مجرى الكرامة. ألاَ وإنَّ مفاتحتي لسيدي ومعظّمي - حَرَسَ اللّه تعالى مجده، وضاعف سعده! - مفاتحة من ظفر من الدهر بمطلوبه، وجرى له القَدَرُ على وفق مرغوبه، فشرع له إلى أهله[7] بابًا، ورفع له من خجله جلبابًا، فهو يَكْلَفُ بالاقتحام، ويَأْنَفُ من الإحجامِ، غير أنَّ الحصر عن دَرَج قَصْده يقيّده، والبصر يبَهْرج نقده فَيُقْعِدُه، فهو يُقَدِّم رِجْلاً ويؤخر أخرى، ويجدّد عَزْمًا ثم لا يتحرّى، فإن أبطأ خطابي فَلواضِح الأعذار، ومثلكم مَنْ قبل[8] جليات الأقدار، واللّه سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف، ويحفظ بكم[9] ما للمجد من جوانب وأكناف، إن شاء اللّه تعالى. وكتب[10] في عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة»؛ انتهى.

---

(١) في الإحاطة: «بعد ذلك الإصدار والإيراد».

(٢) في الإحاطة (ص ٢٤٣): «الفضائل».

(٣) في الإحاطة: «الآذان لغير سهم».

(٤) في الإحاطة: «تطلع».

(٥) في الإحاطة: «وتحفة ثناء».

(٦) في الإحاطة: «ادّخار».

(٧) في الإحاطة: «أمله».

(٨) في الإحاطة: «ومثلكم لا يقبل حياة الأعذار، واللّه عزَّ وجلَّ يصل..».

(٩) في الإحاطة (ص ٢٤٤): «الكم».

(١٠) في الإحاطة: «كتب في العاشر من ربيع..».

ومن خاتمة رسالة من إنشاء ابن خاتمة المذكور: فلنصرف عنان البطالة عن الإطالة، ونسلِّم على السيادة الطاهرة الأصالة، بأطيب تسليم، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم[١].

ومن نظم ابن خاتمة المذكور[٢]: [الطويل]

هو الدَّهْرُ لا يُبْقي على عائذٍ به فَمَنْ شاءَ عَيْشًا يَصْطَبِرْ لنوائِبِهْ
فَمَنْ لم يُصَبْ في نفسه فَمُصابُهُ بفَوْتِ[٣] أمانيهِ وفَقْدِ حبائِبِهْ

ومنه قوله[٤]: [الوافر]

مِلاكُ الأَمْرِ تَقْوَى اللَّهِ، فاْجْعَلْ تُقَاه عُدَّةً لِصَلاحِ أَمْرِكْ
وبادِرْ نحو طاعتِهِ بِعَزْمٍ فما تَدْري متى يُقْضَى[٥] بعمرِكْ

وقال لسان الدين[٦]: وكتب إليّ - يعني ابن خاتمة المذكور - عقبَ انصرافِه من غَرْناطة في بعض قدماته عليها ما نصُّه: «مِمّا قلته بديهةً عند[٧] الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله[٨] مع النفر الذين أتحفتهم سيادتكم بالإشراف عليه، والدخول إليه، وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه، وإن كان يومًا قد غابت شمسه، ولم يَتَّفِقْ أن كمل أُنسه، وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعلّه لم يبلغكم، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث[٩]: [الطويل]

أقولُ وعَيْنُ الدمعِ نَصْبُ عيوننا ولاحَ لبستانِ الوزارةِ جانبُ
أهذي سماءٌ أم بناءٌ سما[١٠] به كواكبُ غَضَّتْ عن سَناها الكواكبُ

---

(١) التسنيم: عين في الجنة. لسان العرب (سنم).
(٢) ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٧) والإحاطة (ج ١ ص ٢٥٠) والبيتان في الحِكَم.
(٣) في الديوان والإحاطة: «لفوت».
(٤) ديوان ابن خاتمة (ص ١٢٧) والإحاطة (ج ١ ص ٢٥٠). وتقدم البيتان في الجزء السادس.
(٥) في الديوان والإحاطة: «يُمْضَى».
(٦) الإحاطة (ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢) والكتيبة الكامنة (ص ٢٤٤ - ٢٤٥).
(٧) في الكتيبة الكامنة: «حين الإشراف».
(٨) في الإحاطة: «وقدومي مع . . .».
(٩) الأبيات أيضًا في ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٥).
(١٠) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٨٣): «سمائه».

تناظرتِ الأشكالُ منه تقابُلاً | على السَّعد وُسْطَى عِقْدِهِ والحبائبُ[1]
وقد جَرَتِ الأمواهُ فيه مَجَرَّةً | مذانبُها شُهْبٌ لهنّ ذوائبُ
وأشرفَ مِنْ علياه بَهْوٌ تحفُّه | شماسِي زُجاجٍ وَشْيُها متناسب[2]
يطلُّ على ماءٍ به الآسُ دائرًا | كما افترَّ ثغرٌ أو كما اخضرَّ شارب
هنالك من شاء العُلا من جَلالةٍ | بها يزدهي بستانُها والمراتبُ

ولما أُحضر الطعام هنالك دُعي شيخُنا القاضي أبو البركات[3] فاعتذر أنه صائم قد بَيَّتَه من الليل، فحضرني أن قلت: [المتقارب]

دَعَوْنا الخطيبَ أبا البركاتِ | لأكلِ طعامِ الوزيرِ الأَجَلّ
وقد ضَمَّنا في نَداه جِنانٌ | به احتفل الحُسْنُ حتى كملْ[4]
فأعرضَ عنّا لِعُذْرِ[5] الصِّيامِ | وما كلّ عُذْرٍ له مُسْتَقلّ
فإنَّ الجِنانَ مَحَلُّ الجزاء | وليس الجِنانُ محلَّ العملْ

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات، فقال لي: لو أنشدتنيها وأنتم بَعْدُ لم تفرغوا[6] منه لأكلْتُ معكم، برًّا بهذه الأبيات، والحَوالة في ذلك على اللّه تعالى، انتهى.

ومن نظم ابن خاتمة المذكور في فرّان[7]: [الطويل]

رُبَّ[8] فران جلا صفحتَهُ | لهبُ الفُرْنِ جلاءَ العسجدِ
يُضْرِمُ النارَ بأحشاء الورى | مثل ما يُضْرَمُ في المُسْتَوْقَدِ
فكأنَّ الوجهَ منه خُبْزةٌ | فَوْقَها الشَّعْرُ كَقِدْرٍ أسودِ

---

(١) في الإحاطة (ص ٢٥٢) والكتيبة: «والجنائبُ».
(٢) في الإحاطة: «من علياء بهوٍ..». وفي الكتيبة: «من أعلاه فهو تحفّه شماس..».
(٣) هو أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم، المشهور بابن الحاج البَلّفيقي، المتوفّى سنة ٧٧٣ هـ أو ٧٧١هـ. وقد تقدمت ترجمته في الجزء الثاني وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.
(٤) في الكتيبة (ص ٢٤٥): «الحسنُ فيما احتفلْ».
(٥) في الكتيبة: «بعذر».
(٦) في الكتيبة: «من الطعام».
(٧) ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٨).
(٨) في الديوان: «وربَّ» وهكذا ينكسر الوزن.

وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: ولما قدمت مالقة آيبًا من السفارة إلى ملك المغرب محفوفًا بفضل اللّه تعالى وجميل صُنْعه، مُوَفَّى المآرب، مصحبًا بالإعانة، لقيني على عادته مهنيًا، يعني أحمد بن صفوان[1] أحد أعلام مالقة وبقية أدبائها وصدور كتّابها، وأنشدني معيدًا في الودّ ومبديًا، وضمّن غرضًا له تعجّل قضاءه والحمد للّه تعالى:

[الطويل]

قدمتَ بما سَرَّ النفوسَ اجتلاؤه ... فهنيتَ ما عَمَّ الجميع هناؤه
قدومًا بخيرٍ وافرٍ وعنايةٍ ... وعزّ مَشيدٍ بالمعالي بناؤه
ورفعةِ قدرٍ لا يداني محلُّها ... رفيعٌ وإن ضاهى السِّماكَ اعتلاؤه
عُنيتَ بأمرِ المسلمينَ فكلّهم ... بما يرتجيه قد توالى دعاؤه
بلغتَ الذي أمَّلْته من صلاحهم ... فأدركتَ مأمولاً عظيمًا جزاؤه
فيا واحدًا أغنتْ عن الجمع ذاتُهُ ... وقام بأعباء الأمور غناؤه
تشوّقك الملكُ الذي بك فخره ... وأنت حقيقًا حسنُه وبهاؤه
فلا زال مُزْدَانًا بحليك جودُهُ ... ولا زال موفورًا عليك اصطفاؤه
وخُصِّصْتَ من ربِّ العبادِ بنعمةٍ ... ينيلُكها تخصيصُهُ واحتفاؤه
وعشتَ عزيزًا في النفوس محبّبًا ... يُلَبِّى بتبجيلٍ وبِرّ نداؤه
وقد جاءني داعي السرورِ مؤدّيًا ... لحقّ هناء فَرْضُ عينٍ أداؤه
ولي بعد هذا مأربٌ متوقّفٌ ... على فضلك الرحبِ الجنابِ قضاؤه
هززتُ له عطف البطرنيّ راجيًا ... له النجحَ فاستعصى وخاب رجاؤه
ولم يَدْرِ أني من علاك لمنتضٍ[2] ... حُسَامًا كفيلاً بالنجاح انتضاؤه
يصمم إن هزّته كفّي لمعضلٍ ... فيكفي العنا تصميمه ومضاؤه
فحقّقْ له دامت سعودك حرمتي ... لديك يرحني مَطْلُه والتواؤه
وشاركْ مُحِبًّا خالصًا لك حُبُّهُ ... قديمًا كريمًا عهدُهُ ووفاؤه
وصِلْ بجزيل الرعي حَبْلَ ذمامه[3] ... يصلْكَ جزيلاً شكرُه وثناؤه

---

(1) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان، من أدباء مالقة، ولد سنة ٦٩٥هـ وتوفي بمالقة سنة ٧٦٣ هـ. الإحاطة (جـ ١ ص ٢٢١) والكتيبة الكامنة (ص ٢١٦).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٩): «من عَلاتك منتضٍ».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٨٦): «زمامه».

بقيتَ وصنعُ اللّه يدني لك المُنَى ويوليكَ من مصنوعه ما تشاؤه
بحرمةِ مَنْ حقَّت سيادتُهُ على بني آدم والخيرُ منه ابتداؤه

وجَمَعْتُ[1] ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجُّهي صحبة الركاب السلطاني إلى إصراخ الخضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة، وقدّمتُ صدره خطبة، وسمّيت الجزء بـ «الدرر الفاخرة، واللُّجَج الزاخرة»، وطلبت منه أن يُجيزني وولدي عبد اللّه رواية ذلك عنه، فكتب بخطّه الرائق، بظهر المجموع ما نصُّه: الحمد للّه مستحقِّ الحمد، أَجَبْتُ سؤال الفقيه الأجلّ الأفضل السري الماجد الأوحد الأحفل الأديب البارع الطالع في أُفق المعرفة والنباهة، والرفعة المكينة والوجاهة، بأبهى المطالع، المصنّف الحافظ العلاّمة الحائز في فَنَّي النظم والنثر، وأُسلوبَي الكتابة والشعر، رُتْبة الرياسة[2] والإمامة، مُحَلِّي جِيدِ العصر بتآليفه[3] الباهرة الرُّوَاء، ومجلِّي محاسن بنيه الرائقة على منصة الإشارة[4] والأنباء، أبي عبد اللّه بن الخطيب، وصَل اللّه تعالى سعادته[5]، وحرس مجادته، وسنَّى من الخير الأوفر، والصنع[6] الأبهر، مقصده وإرادته، وبلّغه في نجله الأسعد، وابنه الراقي بمحتده الفاضل ومَنْشَئِهِ الأطهر محلَّ الفَرْقَد، أفضلَ مَا يُؤَمِّل نِحْلَته إياه من[7] المَكْرمات وإفادته، وأجزتُ له ولابنه عبد اللّه المذكور، أبقاهما اللّه تعالى في عزّةٍ سنيّة الخلال، وعافية ممتدّة الأفياء وارفة الظلال، روايةَ جميعِ ما تقيّد في الأوراق المُكْتَتَبِ على ظهر أوّل ورقة منها من نظمي ونَثْري، وما تولّيتُ إنشاءه، واعتمدتُ بالارتجال[8] والرواية اختياره وانتقاءه، أيام عمري، وجميعَ ما لي من تصنيف وتقييد، ومقطوعة وقَصيد[9]، وجميع ما أحمله من أشياخي رضي اللّه تعالى عنهم من العلوم، وفنون المنثور والمنظوم، بأي وجه تأدّى إليَّ، وصحّ

(١) الإحاطة (جـ ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩).
(٢) في الإحاطة (ص ٢٨): «الرياسة، الحامل لراية التقدم والإمامة».
(٣) في الإحاطة: «بتواليفه».
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٠): «الإشادة». وفي الإحاطة: «الإشهاد».
(٥) في الإحاطة: «سعادته ومجادته».
(٦) في الإحاطة: «والصنع الجميل الأبهر».
(٧) في الإحاطة: «في المَكْرُمات».
(٨) في الإحاطة: «بالارتحال».
(٩) في الإحاطة (ص ٢٢٩): «وقصيدة».

حملي له وثبت إسناده لديَّ، إجازة تامة، في ذلك كلّه عامّة، على سَنَن الإجازات الشرعي[1]، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المرعيّ، واللّه ينفعُني وإياهما بالعلم وحَمْله، ويَنْظِمُنا جميعًا في سِلْك حِزْبه المفلح[2] وأهله، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله. قال ذلك وكتبه بخطّ يده الفانية العبدُ الفقير إلى اللّه الغني به، أحمد بن إبراهيم ابن أحمد بن صفوان، ختم اللّه تعالى له بخير! حامدًا اللّه تعالى، ومصليًا ومُسلمًا على نبيِّه المصطفى الكريم، وعلى آله الطاهرين ذوي المَنْصِبِ العظيم، وصحابته[3] البررة أُولي الأثرة[4] والتقديم، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل»؛ انتهى.

وكتب الفقيه أبو جعفر بن عبد الملك العذري من أهل سبتة[5] إلى لسان الدين رحمه اللّه تعالى في بعض الأغراض: [الكامل]

إني بمجدك لم أزلْ مُسْتَيْقِنًا ... أن لا يهدّم بالتغير ما بَنَى
إذ أنتَ أعظمُ ما جد يعزى له ... صفح وأكرم من عفا عَمَّنْ جنى

وكتب أيضًا: [الكامل]

إن كان دهري قد أساء وجارا ... فذمام مجدك لا يضيِّعُ جارا
فلأنت أعظمُ ملجإٍ يُنْجِي إذا ... ما الدهرُ أنجد موعدًا وأغارا

وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: خاطبتُ الشيخَ الشريف الفاضل أبا عبد اللّه بن نفيس صحبة ثمن مسكن اشتريته منه، وكان قد أهداني فرسًا عتيقًا: [البسيط]

جُزِيتَ يا ابنَ رسول اللّه أفضل ما ... جزى الإلهُ شريف البيت يوم جَزَى
إنْ أعجزَ الشكرُ منِّي منّةً ضعفت ... عن بعض حقّك شُكْرُ اللّه ما عجزا

---

(١) في الإحاطة: «الشرعية».
(٢) في الإحاطة: «المُفْلحين».
(٣) في الإحاطة: «وصحبه».
(٤) في الإحاطة: «أولي المنصب والأثرة والتقديم».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٨٧): «بلنسية».

«سيدي، أبقى اللّه شَرَفَكَ تشهد به الطباع، إذا بعدت المعاهد المقدّسة والرِّباع! وتعترف به الأبصار والأسماع، وإن جحدت عارَضَها الإجماع، بأي لسان أُثني؟ أم أيَّ الأفنان أهصر وأجني؟ أم أيَّ المقاصد الكريمة أعني؟ أمطيت جوادك المبارك، وأسكنت دارك، وأوسعت مطلبي اصطبارك، وهضمت حقّك وبوّأت جوارك، ووصلت للغرباء إيثارك، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم، لا أقف في تعدادها عند حدّ، إلى خير جد، فإن أعان الدهر على مجازاة، وإن ترفع كرمك عن مُوَازاة، فحاجةَ نفسٍ قضيت، وأحكامَ آمال أمضيت، وإن اتّصَلَ العجز فعين على القذى أغضيت، ومَنَاصل عزم ما انتضيت، وعلى كل حال فالثناء ذائع والحمد شائع، واللسان والحمد للّه طائع، واللّه مشترٍ ما أنت بائع، وقد وجهت من يحاول لسيدي ثمن ما اكتسبه مجده، وسَفَر عنده حمده، والعقيدة بعد التراضي، وكمال التقاضي، وحميد الصبر وسعة التغاضي، وكونه الخصم والقاضي، أنه هبة سَوَّغها إنعامه، وأكلة ها هنا مِطْعَامه، نسأل اللّه تعالى أن يعلي ذكره، ويتولّى شكره، ويُنْمِيَ ماله، ويرفع قدره، والولد جاره الغريب الذي برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة، وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة، قد جعلته وديعة في كرم جواره، ووضعته في حِجْرِ إيثاره، فإن زاغ فيَدُه العليا في تبصيره، ومؤاخذته بتقصيره، ومَنْ نَبَّه مثله نام، ومن استنام إليه بمهمةٍ أكرم بمن إليه استنام، وإن تشوّف سيدي لحال محبّه فمطلق للدنيا من عقال، ورافض أثقال، ومؤمّل اعتياض بخدمة اللّه تعالى وانتقال»؛ انتهى.

وقال رحمه اللّه تعالى: مما خاطبت به صدرَ الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم بن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه: [الطويل]

مرضت فأيامي لديك مريضة ... وبرؤك مقرونٌ ببرء اعتلالِها
فلا راعَ تلك الذات للضرّ رائع ... ولا وسمت بالسقم غرّ خلالها

«وردت علي من فئتي التي إليها في مَعْرك الدهر أتحيّز، وبفضل فضلها في الأقدار المشتركة أتميّز، سَحَاءة سرّت وساءت، وبلغت من القصدين ما شاءت، أطلع بها سيدي صنيعة ودّه من شكواه على كلّ عابث في السويداء، مُوجِب اقتحام البَيْداء، مُضْرِم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاّ القليل، ولا من إفصاح لسانه إلاّ الأنين والأليل، ونوى مدت لغير ضرورة يَرْضاها الخليل، فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله، أو عابد نوزع متقبل أعماله، أو آمل ضويق في فذلكة آماله، لكنني رجحتُ دليلَ المفهوم على

دليل المنطوق، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق، ورأيت الخطَّ يبهر والحمد للَّه تعالى ويروق، واللفظ الحسن تومِضُ في حبره للمعنى الأصيل بُروق، فقلت: ارتفع الوَصَب، وردٌّ من الصحة المغتصَب، وآلة الحسّ والحركة هي العَصَب، وإذا أشرق سراجُ الإدراك دلّ على سلامة سَليطه[1]، والروح خليط البدن والمرء بخليطه، وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلاَّ الشرح، ففيه يسكن الظمأ البرح، وعذرًا عن التكليف فهو محلّ الاستقصاء والاستفسار، والإطناب والإكثار، وزَنْدُ القلق في مثلها أوْرَى، والشفيقُ بسوء الظن مُغْرى، وسيدي هو العمدة التي سلمت لي الأيام فيها، وقالت: حسب آمالك ويكفيها، فكيف لا أُشفق، ومن أنفق من عينه فأنا من عيني لا أُنفق، واللَّه لا يحبط سعيي في سؤال عصمتها ولا يخفق، ويرشد إلى شكره على ما وهب منها ويوفق، والسلام الكريم على سيدي البر الوصول، الذي زكت منه الفروع لما طابت الأصول، وخلص من ودّه لابن الخطيب المحصول، ورحمة اللَّه تعالى وبركاته».

قال: فراجعني حفظ اللَّه سيادته بما نصُّه: [الطويل]

متى شئت أُلفي من علائك كلّ ما ينيل من الآمال خير منالِها
كبرء اعتلال من دعائك زارني وعادات برّ لم تَرِمْ عن وصالها

«أبقى اللَّه ذلك الجلال الأعلى متطولاً بتأكيد البرّ، متفضّلاً بموجبات الحمد والشكر، وَرَدَتْني سَحَاءته المشتملة على معهود تشريفه، وفضله الغني عن تعريفه، متحفيًا في السؤال، عن شرح الحال، ومُعْلِنًا بما تحلى به من كرم الخِلال، والشرف العال، والمعظم على ما يسّر ذلك الجلال الوزاري الرياسي أجراه اللَّه تعالى على أفضل ما عَوَّدَه، كما أعلى في كلّ مكرمة يده، ذلك ببركة دعائه الصالح، وحبّه المخيّم بين الجوانح، واللَّه سبحانه المحمود على نعمه، ومواهب لطفه وكرمه، وهو سبحانه المسؤول أن يهيىء لسيدي قَرار الخاطر، على ما يسرُّه في الباطن والظاهر، بمنِّ اللَّه وفضله، والسلام الكريم على جلاله الأعلى ورحمة اللَّه وبركاته، كتبه المعظم الشاكر الداعي الذاكر المحبّ ابن رضوان، وفّقه اللَّه تعالى! في ذي الحجة ختام عام واحد وستين وسبعمائة»؛ انتهى.

---

(١) السليط: الزيت توقد به القناديل. لسان العرب (سلط).

وقال رحمه اللّه تعالى: وفاتحته. يعني الشيخ الجنان. محرّكًا قريحته ومستثيرًا ما عنده، بقولي: [الكامل]

إن كانت الآدابُ أضحتْ جَنَّةً ... فلقد غدا جنانها الجنانُ
أقلامه القُضْبُ اللُّدَان بِدَوْحها ... والزهرُ ما رَقَمَتْهُ منه بنانُ

وذكر في البيتين سَجْعًا بليغًا، ثم قال: فراجعني الجنان بما نصُّه: [السريع]

يا خاطبَ الآدابِ مهلاً فقد ... ردَّك عن خطبتها ابن الخطيبْ
هل غيره في الأرض كفء لها ... وشرطها الكفاةُ قولٌ مصيبْ
أصبح للشرط بها معرسًا ... فاستفْتِ في الفسخ فهل من مجيبْ

«أيها السيد الذي يُتَنافس في لقائه ويُتَغالى، ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى، وتُستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه، وتُقْتَنَص شوارد العلوم بروايات كلامه فكيف بمداناة عِيانه، جلوتَ عليَّ من بنات فكرك عقائل نواهد، وأقمت بها على معارفك الجمَّة دلائل وشواهد، واقتنصت بِشَرَك بديهتك من المعاني أوابدَ شَوَارد، وفَجَّرْتَ من بلاغتك وبراعتك حياضًا عذبة الموارد، ثم كلفتني من إجراء ظالعي[1] في ميدان ضليعها[2]، مقابلة الشمس المنيرة بسراج عند طلوعها، فأخلدت إخلاد مَهِيض الجناح، وفررت فرار الأعزل عن شاكي السلاح، وعلمت أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة، وأدليت دلو قريحتي للمُساجلة، كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها، أو طلب مِمَّنْ علته السماء محاولة لمسها، وإن رضيت من القريحة بسجيّتها، وأظهرت القَدْرَ الذي كنت امْتَخْتُ من رَكِيّتها، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين، ونبت عن أسْمَى دواوينهم كما تنبو عن الأشيب عيون العِين، ثم إنَّ أمرك يا سيدي لا يُحَلُّ وثيق مبرمه، ولا يَحِلُّ نسخ محكمه، فامتثلته امتثال من لم يجد في نفسه حرجًا من قضائك[3]، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك، أبقاك اللّه تعالى قطبًا لفلك المكارم والمآثر، وفَصًّا لخاتم المحامد والمفاخر، والسلام»؛ انتهى.

---

(١) الظالع: الذي أصابه الظَّلع وهو شبه العرج. لسان العرب (ظلع).
(٢) الضليع: القويّ على فعل ما يريد. لسان العرب (ضلع).
(٣) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿ثم لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيتَ﴾. سورة النساء ٤، الآية ٦٥.

والجنان المذكور[1] مغربي من مكناسة الزيتون، وهو الشيخ الفقيه العدل الأديب الأخباري المشارك، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي، الجنان، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة، كاتب عاقل ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم، له تصنيف حسن في ثلاث مجلّدات سماه «المنهل المورود، في شرح المقصد المحمود» شَرَح فيه وثائق أبي القاسم الجزيري المالكي، فأربى على غيره بيانًا وإفادة. قال في «نفاضة الجراب»: وناولني إياه، وأذن لي في حملي عنه، وأنشدني كثيرًا من شعره، فمن ذلك ما صدّر به رسالة يهنىء بها ناقهًا من مَرَض[2]: [المديد]

إِلْبَسِ الصحةَ بُردًا قشيبا ... وارشفِ النعمة ثغرًا شنيبا
واقطفِ الآمالَ زهرًا نضيرًا ... واعطفِ الإقبالَ غصنًا رطيبا
إن يكنْ ساءك وَعْكٌ[3] تقضّى ... تجدِ الأجرَ عظيمًا رحيبا
فانتعشْ في دهرنا ذا سرورٍ ... يصبحِ الحاسدُ منه كئيبا

وقال أيضًا لسانُ الدين في النفاضة: قرأت بالدور الخشبي في الدار التي نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتًا منقّشة استحسنْتُها لسهولتها فأخبرني أنها من نظمه، وهي: [المنسرح]

أُنْظُرْ إلى منزلٍ مَتَى نَظَرَتْ ... عيناك يعجبْكَ كلُّ ما فيهِ
ينبىء عن رفعةٍ لمالكه ... وعن ذكاء الحجا لبانيه
يناسبُ الوشيَ في أسافله ... ما يرقمُ النقشُ في أعاليه
كأنه روضةٌ مُدَبَّجة ... جادَ لها وابلٌ بما فيه
فأظهرتْ للعيون زخرفَها ... ووافَقَتْها على تجلّيه
فهو على بهجةٍ تلوحُ به ... ورونقٍ للجمالِ يبديه
يشهدُ للساكنين أنَّ لهم ... من جَنّةِ الخلدِ ما يحاكيه

قلت: قد تذكَّرْتُ هنا، والشيء بالشيء يُذكر، ما رأيته مكتوبًا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أميرُ المسلمين أبو[4] تاشفين الزياني، وهي من بدائع الدنيا،

---

(١) ترجمة أبي جعفر أحمد بن محمد بن الجنان في نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص ٥٠).
(٢) الأبيات في نيل الابتهاج (ص ٥٠).
(٣) الوَعْكُ: المرض. لسان العرب (وعك).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٩٢): «ابن».

وهو: [الكامل]

أُنْظُرْ بعينك بهجتي وسنائي ... وبديعَ إتقاني وحُسْنَ بنائي
وبديعَ شكلي واعتبرْ فيما ترى ... من نشأتي بل من تدفّقِ مائي
جسمٌ لطيفٌ ذائبٌ سيلانُهُ ... صافٍ كذَوْبِ الفِضَّةِ البيضاءِ
قد حَفَّ بي أزهارُ وَشْيٍ نمّقت ... فغدتْ كمثلِ الروضِ غِبَّ سماءِ[1]

وما أنشده بعضُ أهل العصر في المغرب بقصد أن يُرْسم في الأستار المذهبة المحكمة الصنعة التي جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسني رحمه اللّه تعالى لكي يستر بها النواحي الأربع من القبة الكبيرة بالبديع، وتسمى هذه الستور عند أهل المغرب بالحائطي، ففي الجهة الأولى: [الكامل]

مَتِّعْ جفونَكَ من بديع لباسي ... وأدِرْ على حُسْني حُمَيَّا الكاسِ
هذي الرُّبا والروضُ مِنْ جَرْعائها ... مِمّا اغتذى بالعارض البجّاس
أنّى لروضٍ أن يروقَ بهاؤه ... مثلي وأنْ يجري على مقياس
فالروضُ تغشاه السوامُ، وإنما ... تأوي إلى كنفي ظباءُ كناس

وعلى الجهة الثانية:

من كلّ حَسْنَا كالقضيب إذا انثنى ... تُزْري بغصنِ البانةِ المَيّاسِ
ولقد نشرتُ على السِّماك ذوائبي ... ونظرتُ من شَزْرٍ إلى الكنّاس
وجررتُ ذيلي بالمجرَّة عابثًا ... فخرًا بمخترعي أبي العباس
ما نِيطَ مثلي في القباب ولا ازدهتْ ... بفتًى سواه مراتبٌ وكراسي

وعلى الجهة الثالثة:

ملكٌ تقاصرتِ الملوكُ لعزّه ... ورماهُمُ بالذُّلِّ والإتعاس
غَيْثُ المواهِبِ بحرُ كلِّ فضيلةٍ ... ليثُ الحروب مسعّر الأوطاسِ[2]
فَرْدُ المحاسنِ والمفاخرِ كلِّها ... قطبُ الجمال أخو الندى والباسِ
ملك إذا وافى البلادَ تأرَّجَتْ ... منه الوهادُ بعاطرِ الأنفاسِ

---

(١) غِبَّ سماء: أراد: على أثر المطر.
(٢) الأوطاس: جمع وُطُس، والوُطُسُ جمع وطيس، والوطيس هو التنور. لسان العرب (وطس).

وعلى الجهة الرابعة:

وإذا تطلَّعَ بَدْرُه من هالةٍ يُغشي[1] سناه نواظرَ الجلاّسِ
أيامُهُ غررًا[2] تجلَّتْ كلّها أبهى من الأعياد والأعراس
لا زال للمجدِ السنيّ يشيده ويقيمُ مبناه على الآساس
ما مال بالغصن النسيم وحببتْ دُرَرُ الندى في جِيده الميّاس

وما أنشدنيهِ بعضُ العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب المحقق أبي محمد الحسن بن أحمد المسفيوي[3] المراكشي أحد مشاهير الكُتّاب بباب أمير المؤمنين المنصور باللّه أبي العباس الشريف الحسني ملك المغرب، صَبَّ اللّه تعالى على الجميع أمطار الرضوان مِمّا كتب في بعض مباني صاحبنا الوزير العلامة الأجلّ سيدي عبد العزيز الفَشْتالي رحمه اللّه تعالى! وهو: [الكامل]

أجِلِ المعلّى من قِداحِ سُرُورِي وأدِرْ كؤوسَ الأُنْسِ دون شرورِ
خلعتْ على عطف البهاء محاسني فكسَتْ به الآفاقَ ثوبَ حبور
وتناسقَ الوَشْيُ المفوّفُ حلّتي نسقَ الشذورِ على نحور الحور
شأو القصورِ قصورُها عن رتبة لي بالسنا الممدود والمقصور[4]
في المبتنى ألمراكشي وأُفقه أزرى على الزوراء والخابور
أعلى مقامي البارعُ الأسمى الذي قد حاز سبقَ النظم والمنثور
فإذا أقلَّ بنانُه أقلامَهُ نفثت عقودَ السحر بين سطور
عبدُ العزيز أخو الجلالةِ كاتبٌ سِرِّ الخليفة أحمدَ المنصور
لا زال في يمنٍ وأمنٍ ما شَدَتْ وُرْقٌ بروضٍ بالنَّدَىٰ ممطور

وبعضه كتبته بالمعنى من حفظي لطول العهد، والغاية في هذا الباب ما أنشدنيه لنفسه الوزير أبو فارس عبد العزيز الفشتالي المذكور، وهي جملة من قصائد كتبت في المباني

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٩٤): «يغشى».
(٢) في الطبعة نفسها: «غررٌ».
(٣) في الطبعة نفسها: «المسفيومي». وترجمة المسفيوي المراكشي في روضة الآس (ص ١٦٣) ودرة الحجال في أسماء الرجال (جـ ١ ص ١٢٨).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٩٤): «في المقصور». والشاعر يريد بالسنا (مقصورًا) وبالسناء (ممدودًا).

الملوكية المنصورية بالحضرة المراكشية حاطها اللّه تعالى! فمنها ما كتب خارج القبة الخمسينية أي التي فيها خمسون ذراعًا بالعمل، وذلك قوله رحمه اللّه تعالى على لسان القبة[1]: [الطويل]

سَمَوتُ فخرَّ البدرُ دونيَ وانحطّا ... وأصبحَ قرصُ الشمسِ في أذُنِي قُرْطَا
وصُغْتُ من الإكليل تاجًا لمفرقي ... ونِيطَتْ بي الجوزاءُ في عنقي سمطا
ولاحتْ بأطواقي الثريّا كأنها ... نثيرٌ[2] جُمَان قد تتبعتُه لَقْطَا
وعَدَّيتُ عن زُهْرِ النجومِ لأنني ... جعلتُ على كيوانَ رحليَ منحطّا
وأجريتُ من فيضِ السماحةِ والندى ... خليجًا على نهر المجرّة قد غطّى
عقدتُ عليه الجسرَ للفخر فارتمتْ ... إليه وفودُ البحرِ تغرفُ[3] ما أنطى
تَنَضْنَضَ[4] ما بين الغروسِ كأنه ... وقد رقرقتْ حصباؤه حيّةٌ رقطا
حواليه من دَوْحِ الرياضِ خرائدُ ... وغِيدٌ تجرُّ من خمائلها مِرْطا[5]
إذا أرسلتْ لدنُ الفروعِ وفتّحتْ ... جنى الزهرِ لاحَ في ذوائبها وَخْطا
يرنحها مَرُّ النسيم إذا سرى ... كما مال نشوانٌ تشرَّبَ إسْفنطا[6]
يشقّ رياضًا جادَها الجودُ والندى ... سواء لديها الغيثُ أسكبَ أم أخطا
وسالت بسلسال اللُّجَيْن حياضُهُ ... بحارًا غدا عرضُ البسيط لها شَطّا
تَطَلَّعَ منها وسطَ وُسطاه دُمْيَةٌ ... هي الشمس لا تخشى كسوفًا ولا غمطا
حكتْ وحبابُ الماءِ في جَنَباتِها ... سنا البَدْرِ حلَّ من نجوم السما وسطا
إذا غازلتها الشمسُ ألقى شعاعها ... على جسمها الفِضّيِّ نهرًا بها لطّا
توسمتُ فيها من صفاء أديمها ... نقوشًا كأنَّ المِسْكَ ينقطها نقطا
إذا اتّسقتْ بيضُ القباب قلادةً ... فإني لها في الحسن دُرَّتُها الوسطى
تكنُّفني بيضُ الدُّمى فكأنها ... عَذَارَى نَضَتْ عنها القلائدُ والريطا

---

(١) القصيدة في روضة الآس (ص ١٣٨ . ١٣٩).
(٢) النثير: ما يُنثر على العروس في حفل زفافها.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٩٥): «تغرق».
(٤) في الطبعة نفسها: «فَنَضْنَضَ».
(٥) المِرْط: كساء من صوف أو كتان أو حرير يؤتزر به. لسان العرب (مرط).
(٦) الإسْفَنْطُ: الخمر. لسان العرب (سفنط).

قُدُودٌ ولكن زانها الحسنُ عريها وأجملَ في تنعيمها النحتَ والخرطا
نمت صُعُدًا تيجانها فتكسَّرَتْ قواريرُ أفلاكِ السماحِ بها ضغطا
فيا لك شأوًا بالسعادة آهلاً بأكنافه رَحْلُ العُلا والهُدى حُطَّا
وكعبةُ مَجْدٍ شادها العِزُّ فانبرتْ تطوفُ بمغناها أماني الورى شوطا
ومسرحَ غزلان الصَّريم كِناسُها حنايا قبابٍ لا الكثيبَ ولا السَّقْطَا
فُلِكْنَ به ما طاب لا الأثل والخَمْطَا ووُسِّدْنَ فيه الوشي لا السِّدْر والأرْطَى
تراه من المِسْكِ الفتيتِ مدبّرا إذا ما زجته السُّحبُ عاد بها خلطا
وإن باكرته نسمة لسَرَى بها[1] إلى كل أنفٍ عَرْفُ عنبره قسْطا
أَقَرَّتْ له الزهراءُ والخلدُ وانتقتْ أواوينُ كسرى الفرسِ تغبطه غبطا
جنابٌ رواقُ المجدِ فيه مطنّبٌ على خير من يعزى لخير الورى سِبْطا
إمامٌ يسيرُ الدهرُ تحت لوائه وتُرْسى سفانٌ للعُلا حيثما وَطَّا
وفتّاحُ أقطارِ البلادِ بفيلقٍ يفلِّقُ هاماتِ العدا بالظُّبَا خَبْطَا
تطلّعُ من خرصانه الشُّهبُ فانثنتْ ذوائبُ أرض الزنج من ضوئها شُمْطَا
كِتائبُ نصرٍ إنْ جَرَتْ لملمَّةٍ جَرَتْ قبلها الأقدارُ تسبقُها فُرْطا
إذا ما عَقَدْنَ رايةً عَلَوِيَّةً جعلنَ ضمانَ الفتح في عقدها شرطا
فما للسما تلك الأهلّة إنما سنابكها أبقتْ مثالاً بها خطّا
يطاوعُ أيدي المعلواتِ عنانها فيعتاض[2] من فيض الزمان بها بسطا
يَدٌ لأمير المؤمنينَ بكفّها زمامٌ يقودُ الفرس والروم والقبطا
أدارَ جدارًا للعُلا وسرادقًا يحوط جهات الأرض من رعيه حوطا

وقوله مِمّا كتب ببَهْوِها بمرمر أسود في أبيض[3]: [الكامل]

للّه بهوٌ عزَّ منه نظيرُ[4] لَمّا زها كالروض وهو نضيرُ
رُصِفَتْ نقوشُ حلاه رَصْفَ قلائدٍ قد نضدتها في النحور الحورُ

---

(١) هكذا في روضة الآس. وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٥١): «نسمةٌ سَحَرًا سرى».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٩٦): «فيعتادُ».
(٣) روضة الآس (ص ١٣٦).
(٤) عَزَّ منه نظير: ندر أن يكون له مثيل. لسان العرب (عزز) و (نظر).

فكأنها والتبرُ سالَ خلالَها وشيٌ وفِضَّةٌ تربها كافور
وكأنَّ أرض قراره ديباجةٌ قد زان حُسْنَ طرازها تشجير
وإذا تصعّد نَدُّه نَوْءًا ففي أنماطِهِ نَوْرٌ به ممطور
شأوُ القصورِ قصورها عن وصفِهِ سيّان فيه خَوَرْنَقٌ وسَدِيرُ
فإذا أجلتَ اللحظَ في جنباته يرتدُّ وهو بحسنه محسور
وكأنَّ موجَ البركتين أمامه حركاتُ سجفٍ صافحته دَبُورُ
صُفَّتْ بِصُفَّتها تماثلُ فِضَّةٍ مَلَكَ النفوسَ بحسنها تصوير
فتديرُ من صفو الزلال مُعَتَّقًا يسري إلى الأرواح منه سرور
ما بين آسادٍ يهيجُ زئيرها وأساوِدٍ[1] يُسْلي لهنَّ صفير
ودحتْ من الأنهار أرضَ زجاجة وأظلَّها فَلَكٌ يضيء منير
راقتْ فمن حصبائها وفواقعٍ تطفو[2] عليها اللؤلؤ المنثور
يا حُسْنَهُ من مَصْنَعٍ فبهاؤه باهى نجومَ الأفق وهي تنور
وكأنما زهرُ الرياض بجنبه حيثُ التفتَّ كواكبٌ وبدور
ولدستِهِ الأسمى تَخَيَّرَ رَصْفَهُ فَخْرُ الورى وإمامُها المنصور
ملكٌ أنافَ على الفراقدِ رتبةً وأقلَّهُ فوق السِّماك سريرُ
قطبُ الخلافة تاجُ مفرقِ دولة رُميت بجَحفَلِها اللُّهامُ الكُورُ[3]
وجرى إلى أقصى العراق لرعبها[4] جيشٌ على جسرِ الفراتِ عبور
نجلُ النبيِّ ابنُ الوصيّ سليلُ مَنْ حقنَ الدماءَ وعَفَّ وهو قدير
بحرُ الندى لكنه متموِّجٌ سيفُ العُلا لكنه مطرور
طَودٌ يخفُّ لحلمه ووقاره ولجيشه يومَ النزال ثبير
دامتْ معاليه ودام مجده طوقٌ على جِيدِ العُلا مزرور
وتعاهدتْه عن الفتوح بشائرٌ يغدو عليه بها المسا وبكور

---

(١) الأساود: جمع أَسْوَد وهو العظيم من الحيّات. محيط المحيط (سود).
(٢) في روضة الآس: «يطفو».
(٣) الكُورُ: جمع كورة وهي المدينة أو الصقع من الأرض. لسان العرب (كور).
(٤) هكذا في روضة الآس، وفي طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٢): «لرعيها».

ما دامَ منزلُ سعده يرتاده[1] نصرٌ يرفُّ لواؤه المنشور
ومشتْ به مرحًا جِيادُ مسرَّةٍ وأدار كاسَ الأنسِ فيه سميرُ

وقوله مِمّا كتب بداخل القُبَّة المذكورة[2]: [الوافر]

جمالُ بدائعي سَحَرَ العيونَا[3] ورونق منظري بَهَرَ الجفونا
وقد حسنت نقوشي واستطارتْ سَنًا يُغْشِي عيونَ الناظرينا
وأطلع سمكيَ الأعلى نجومًا ثواقبَ لا تغورُ الدهرَ حينا
وجوّي من دخان النَّدِّ ألقى على أرضي الغياهبَ والدُّجونا[4]
علوتُ دوائرَ الأفلاكِ سبعًا لذاك الدهرَ ما ألفتْ سكونا
فصغتُ من الأهلَّةِ والحنايا أساورَ والخلاخلَ والبُرِينَا
تكنُفني حياضٌ مائحاتٌ أمامي والشمالَ أو اليمينا
يُقَيِّدُ حسنُها الطرفَ انفساحًا ويجري الفلك فيها والسفينا
تَدافَعَ نهرُها نحوي فلمّا تلاقى البحرُ في جريٍ دفينا
ترى شُهُبَ السماء بهنَّ غرقى فتحسبها بها الدُّرَّ المصونا
وقد نشر الحبابُ على سماها[5] لآلىءَ تزدري العِقْدَ الثمينا
فخرتُ وحُقَّ لي لما اجتباني لمجلسه أميرُ المؤمنينا
هو المنصورُ حائز خَصْلِ سَبْقٍ وباني المجدِ بنيانًا مكينا
ولَيثُ وغًى إذا زأر امتعاضًا يروعُ زئيره هندًا وصينا
إذا أَمَّتْ كتائبُه الأعادي بَعَثْنَ برعبِهِ جيشًا كمينا
يديرُ عليهمُ من كلِّ حربٍ تدقُّهم رحًى أو منجنونا
إمامٌ بالمغارب لاحَ شمسًا بها الشرق اكتسى نورًا مُبينا
بقيتَ بذي القصور الغُرِّ بَدْرًا تلوحُ بأُفقهنّ مدى السنينا

(١) هكذا في روضة الآس، وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٥٣): «يرقى به».
(٢) روضة الآس (ص ١٣٥).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ١٩٨): «العيانا».
(٤) الدُّجون: جمع دجن وهو الغيم الكثيف المظلم. لسان العرب (دجن).
(٥) سماها: أراد «سماءها» فقصر الممدود للضرورة الشعرية.

تَحفّ بكم عواكفُ عند بابي ... ملائكة كرام كاتبونا
لك البشرى أميرَ المؤمنين اُدْ ... خلوها مع سلامٍ آمنينا[١]

وقوله في بعض المباني المنصورية[٢]: [الوافر]

معاني الحُسْنِ تظهرُ في المغاني ... ظهورَ السحرِ في حَدَقِ الحِسانِ
مَشابه في صفاتِ الحُسْن أضحتْ ... تمتُّ[٣] بها المَغاني للغواني
بكلِّ عمودِ صبحٍ من لُجَينٍ ... تكوَّنَ في استقامة خُوط بانِ
مفصَّلةِ القدودِ مثلّثاتٍ ... مواصلةِ العناق من التداني
تردَّتْ سابريَّ الحسنِ يزري ... بحسنِ السابريِّ الخسرواني
وتعطو الخيزرانةَ من دُمَاهَا ... بسالفةِ القطيع البرهماني
لمجدك تنتمي لكنْ نماها ... إلى صنعاء ما صنع اليدان
يدينُ لك ابنُ ذي يَزَنٍ ويعنو ... لها غُمْدانُ في أرض اليمانِ
غدتْ حَرَمًا ولكن حلَّ فيها ... لوفدكمُ الأمانُ مع الأماني
مبانٍ بالخلافةِ آهلاتٌ ... بها يتلو الهدى السَّبْعَ المثاني
هي الدنيا وساكنها إمامٌ ... لأهل الأرْضِ مِن قاصٍ ودانِي
قصورٌ ما لها في الأرض شبهٌ ... وما في المجد للمنصور ثاني

وقوله رحمه اللّه تعالى مِمّا كتب في المصرية[٤] المطلّة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء من بديع[٥] المنصور، وكان أنشأها في جمادى الأولى من عام خمسة وتسعين وتسعمائة[٦]: [الكامل]

باكرْ لديَّ من السرور كؤوسا ... وارْضِ النديمَ أهلَّةً وشموسا

---

(١) هكذا في روضة الآس، وفي طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٤): «بسلام». وهنا يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿ٱدْخُلُوها بسلام آمنينَ﴾. سورة الحجر ١٥، الآية ٤٦.
(٢) روضة الآس (ص ١٣٣).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ١٩): «تمنُّ».
(٤) المصرية: منزل يبنى شبه علية.
(٥) البديع: أحد المنشآت الثلاث التي بناها ملك المغرب أبو العباس المنصور، والاثنتان الأخريان هما: المسرّة والمشتهى.
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٠٠): «وسبعمائة». والأبيات في روضة الآس (ص ١٣٤).

واعرجْ على[1] غُرَفي المنيفِ سماؤها تَلْقَ الفراقدَ في حمايَ جلوسا
وإذا طلعتَ بأوْجِها قمر العُلا لا ترتضي غيرَ النجوم جَليسا
شَرِقَ[2] القصورُ بريقها لَمَّا اجتلتْ مني على بُسُطِ الرياضِ عَرُوسَا
واعتضتُ بالمنصور أحمدَ ضيغمًا وَرْدًا تحيَّزَ من بديعي خِيَسا[3]
ملكٌ أرى كلَّ الملوك ممالكًا لِعُلاه والدنيا عليه حبيسا
دامت وفودُ السعد وهي عواكفٌ تَصِلُ المقيلَ لديَّ[4] والتعريسا
وهَناكَ يا شرفَ الخلافةِ دولةٌ تلقى برايتها طلائعَ عيسى[5]

وقوله من جملة قصيدة من نمط ما تقدّم لم أستحضر أولها[6]: [الكامل]

سلبتْ تُماثِلُها الحِجَا لَمَّا اغتدتْ تزهو بحسنِ طرازها تذهيبا
ولقد تشامخَ في العلو سِماكها فجرى على الفلك المنير جَنيبا
وسما إلى الشُّهب الزواهرِ فاغتدى الـ إكليلُ منها تاجها المعصوبا
هذا البديعُ يعزّ شبه بدائعٍ أبدعتهنّ به فجاء غريبا
أضنى الغزالَةَ[7] حسنُه حسدًا لذا أبدى عليها للأصيلِ شُحوبا
وانقضَّتِ الزُّهرُ المُنيرةُ إذ رأتْ زهرَ الرياض به ينور عجيبا
شيدتهنّ مصانعًا وصنائعًا أنجزْنَ وعدك للعُلا المرقوبا
وجريتَ في كلِّ الفخارِ لغايةٍ أدركتها أو ما مَسَسْتَ لُغُوبا[8]
فانعم بملكك فيه دامَ مؤبَّدًا تجني به فننَ النعيم رطيبا
وإليكها عذراءَ فكرٍ أُهديتْ وجعلتُ مدحك مَهْرَها الموهوبا

(١) في روضة الآس: «إلى».
(٢) شَرِقَ بريقها: كناية عن الحسد.
(٣) الخيسُ: بيت الأسد. لسان العرب (خيس).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٠٠): «الديه».
(٥) يدعو له بالدوام إلى قيام الساعة؛ لأن عيسى، عليه السلام، ينزل بين يدي الساعة.
(٦) روضة الآس (ص ١٣٥).
(٧) الغزالة: الشمس. لسان العرب (غزل).
(٨) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٠١): «أدركتهنّ وما مسست..». واللُّغُوبُ: التعب والنصب. وفي القرآن الكريم: ﴿وما مَسَّنا من لُغُوبٍ﴾ سورة ق ٥٠، الآية ٣٨، ولسان العرب (لغب).

ونظمتُ مِنْ دُررِ البلاغةِ عِقْدَها فغدا يروقُ بِجيدِها ترتيبا
ورفعتها لمقامكم تمشي على اسـ ـتحيا فيزعجها الولا ترغيبا
فأتتْ على شرفٍ لكم فتوقّفتْ لَمّا رأتْ ذاك الجلال[1] مهيبا
شفعتْ إليك بحبِّ جَدِّك أحمدٍ لِتُنِيلَها منك الرضا المرغوبا
دامتْ بك الدنيا يروقُ جمالُها وإلى القيامةِ أمركم مرهوبا
وكَلاكُمُ[2] اللّهُ العظيمُ كلاءةً يرعى بها خَلَفًا لكم وعقيبا

ومحاسن صاحبنا المذكور في النظم والنثر يضيق عنها هذا التأليف، وكنت أثبتُّ منها جملة في غير هذا الموضع. ولما أحسّ بعزمي على الرحلة إلى الحجاز، واقتضائي من سلطان المغرب في وَعْده لي بها النَّجاز، كتب إليَّ من حضرة مراكش وأنا حينئذٍ بفاس، ما صورتُه بعد سطر الافتتاح: [الكامل]

يا نسمةً عَطَسَتْ بها أَنْفُ الصَّبا فتضمّختْ بعبيرها فنن[3] الرُّبا
هبِّي على ساحاتِ أحمدَ واشْرحي شوقي إلى لقاه شرحًا مُطْنَبَا
وصِفي له بالمنحنى من أضلعي قلبًا على جمرِ الغَضَا متقلّبا
بانَ الأحبّةُ عنه، حيٌّ قد ثَوَى منهم، وآخرُ قد نأى وتغيّبا
فعساك تُسْعِدُ يا زمانُ بقربهمْ فأقولَ أهلاً باللقاء ومرحبا

«السيادة التي سَوّاها اللّه من طينة الشرف والحسب، وغَرَسَ دَوْحَتها الطيبة بمعدن العلم الزاكي المحتد والنسب، سيادة العالم الذي تمشي تحت علم فُتْيَاه العلماء الأعلام، وتخضع لفصاحته وبلاغته صَيَارفة النثر والنظام، وحملة الأقلام، كلّما خطَّ أو كَتَبَ، وإذ استطار بفكره الوقّاد سواجع السجع الثالث عليه من كلِّ أوكارها ونسلت من كل حَدَب[4]، وحكت بانسجامها السيل والقطر في صَبَب، الفقيه العالم العَلَم، والمحصل الذي ساجلت العلماء لتدرك في مجال الإدراك شأوه فلم[5]، سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفُتْيَا،

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٠١): «الجلاك».
(٢) كلاكم: أصلها «كلأكم»، فقلب الهمزة ألفًا، والمعنى: حفظكم ورعاكم.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٦): «فَنَنُ».
(٤) نَسَلَتْ: أسرعت. الحَدَب: الجانب. لسان العرب (نسل) و (حدب). وهذا من قول اللّه تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾. سورة الأنبياء ٢١، الآية ٦.
(٥) حذف مجزوم لم مراعاة للسجع، وأصل القول: «فلم تدرك شأوه».

ومالك المملكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثُنْيَا، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد المقَّري أبقاه اللّه تعالى للعلم يَفْتَضُّ أبكاره، ويَجْنِي من روضه اليانع ثماره، سلام اللّه عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته، كتبه المحبُّ الشاكر عن وُدّ راسخ العِماد، ثابتِ الأوتاد مَزْهُوّ[1] الأغوار والأنجاد، ولا جديد إلاّ الشوق الذي تحنّ إلى لقياكم ركائبُه وترتاح، وتَحُومُ على مورد الأنس بكم حَوْمَ ذات الجناح على العذب القراح، جمع اللّه تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأسِرّة الهنا، وأتاح للنفوس من حُسْن محاضرتكم قَطْفَ المشتهى وهو غَـضُّ الجَنَى. وقد اتّصل بالمحبّ الودود الرقيم الذي راقت من سواد النقش وبياض الطرس شِياته، وأرانا معجز أحمد فبهرت آياته، وخَبَا سقطُ الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته، فأطربنا بتغريد طيور همزاته على أغصان ألفاته، وعوّذنا بالسبع المثاني بنانًا أجادت نثر زهراته على صفحاته، ثم مررنا بتضاعيفه بسوق الرقيق، فَرُمْنا السلوك على مَنْحَاها فعُمِّي علينا الطريق، وقلْنا: واهًا على سوق ابن نباتة وكساد رقيقها، واستلاب البهجة عن نفيس دُررها وأنيقها، لا كسوق نفق فيها سوق الغزل، وعلا كعب الرامح والأعزل، وتضافر على سحر النفوس والألباب هاروت الجِدّ وماروت الهَزل، وقد ألقينا السلاح وجنحنا للسلم، وتهيّأنا للسباحة فوقفنا بساحل اليمّ، وسلمنا لمن استوت به سفينة البلاغة على الجودِيّ[2]، فأُبنا والحمد للّه على السلامة بالفهاهة[3] والعي، وقلنا: ما لنا وللإنشاء، فهو فضل اللّه يؤتيه من يشاء. وعُذْرًا أيها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنفُ الصَّبا فقذفت به البديهة من الفم، وشرقت به صَدْرُ قناة القلم، كما شرقت صدر القناة من الدم. وأمّا ما تحمّل الرسول من كلام، في صورة ملام، لا بل مدام، أُترع به من سُلاف المحبّة كأسٌ وَجَام، فلا وربّك ما هي إلاّ نفحة نفحت، لا سموم لفحت، هززْنا بها جِذْعَ أدبكم كي يتساقط علينا رُطبًا جَنِيًا، ويَهْمِي وَدْقُه[4] على الرَّبْع المحيل من أفكارنا وسْمِيًا ووَلِيًا، فجاد وأرْوَى، وأجاد فيما روَى، وأحيا من القرائح ميتًا كان حديثًا

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٧): «مزهر».

(٢) الجوديّ: جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل. معجم البلدان (جـ ٢ ص ١٧٩) والروض المعطار (ص ١٨١). وفي القرآن الكريم: ﴿وغِيضَ الماءُ وقُضيَ الأمْرُ واستوتْ على الجُوديّ﴾. سورة هود ١١، الآية ٤٤.

(٣) الفهاهة: العِيُّ والغباوة. محيط المحيط (فهه).

(٤) الوَدْقُ: المطر. محيط المحيط (ودق).

يُرْوَى، وطرسًا بين أنامل الأيام يُنْشَرُ ويُطْوى، أحيا اللّه تعالى قلوبنا بمعرفته ونواسم رحمته، وعَرَجَ بأرواحنا عند الممات إلى المحلّ الأخصّ بالمؤمن من حضرته. وأهدي السلام، المُزْرِي بمسك الختام، إلى الفقيهين الأمجدين، الصدرين الأنجدين، الفذَّين التوأمين، الفاضلين المجيدين، فارسي البراعة واليراعة، ورئيسي الجماعة في هذه الصناعة، رضيعي لبان الأدب وواسطتي عقده، ومُجِيلَيْ قِدْحِه المعلّى ومُورِيَيْ زَنْدِه، الممتعين بشميم عَراره ورَنْدِه، الكارعَين بالبحر الفيّاض من هَزْله وجِدِّه، الآتيين بالجنس والفصل من رسمه وحده[1]، الكاتب البارع أبي الحسن سيدي علي بن أحمد الشامي، والكاتب البليغ أبي عبد اللّه سيدي محمد بن علي الوجدي[2]، وأقرّ[3] لهما الودّ المستحكم المعاقد، الصافي المناهل العذب الموارد، وإني قائم بورد الثناء عليكم وعليهما لدى المقام العلي، الإماميّ الناصري، دام سلطانه، وتمّهدت أوطاره وأوطانه! ونُنْهِي إليكم أنَّ الفقيه المحبَّ الأستاذ سيدي محمد بن يوسف طَلْقُ اللسان بالشكر، صادحٌ على أَيْك الثناء عن تلكم السيادة بما أوليتموه[4] به من جزيل الإحسان، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البِشر والكرامة وجميل الامتنان، والسلام التامّ مُعاد عليكم، ورحمة اللّه تعالى وبركاته، وبه وجب الكَتْب إليكم، واللّه سبحانه يرعاكم، في يوم الخميس مُوفي عشرين من محرم الحرام فاتح سبعة وعشرين وألف، المحبّ الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد الفَشْتالي لطف اللّه تعالى به، وخار له بمنّه وكرمه»؛ انتهى.

ومن أراد شيئًا من أخباره فعليه بكتابي الموسوم بـ «روضة الآس، العاطر الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس»، وقد بلغتني وفاته رحمه اللّه تعالى وأنا في مصر بعد عام ثلاثين وألف، رحمه اللّه تعالى! فلقد كان أوحد عصره، حتى إنَّ سلطان المغرب كان يقول: إنّ الفشتالي نفتخر به على ملوك الأرض، ونباري به لسان الدين بن الخطيب، رحم اللّه تعالى الجميع!.

والشامي الذي أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوي البيوت بها، وجدُّه قدم من الشام على حضرة فاس، فشهر بنوه بالنسبة إلى الشام، وقد بلغتني وفاته أيضًا بعد الثلاثين

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٨): «وجدِّه».
(٢) ترجمة محمد بن علي الوجدي في روضة الآس (ص ٧١).
(٣) في طبعة دار صادر: «وأقرّر».
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٨): «واليتموه».

بعد الألف، وقد أجاب عن الأبيات البائية التي خاطبني بها الوزير سيدي عبد العزيز الفَشْتَالي المذكور رحم اللّه تعالى الجميع بقوله: [الكامل]

نَمَّتْ نوافحُ عَرْفِ أنفاسِ الصَّبا فنمى بها روضُ الودادِ وأخضبا
نثرتْ جواهرَ سلكها فتتوّج الـ ـغصن النضيرُ بدرّها وتعصّبا
ورمتْ محاجرَ مُنْحَنَى ذاك الحمى فغدا بها خيفُ القلوب محصَّبا
وروتْ أحاديثَ الغرام صحيحةً فشفتْ فؤادًا من بعادك موصبا
لا غَرْوَ أنْ طارتْ حُشاشةُ لُبِّه طربًا فما خِلْوُ الغرامِ كمنْ صَبَا
لا زلتمُ والزهرُ ينشقُ عَرْفَكمْ والزُّهْرُ تحسدُ من كمالك منصبا

ولْنُمْسِكْ عِنان البنان، ونرجعْ إلى ما كُنّا بصدده من شأن لسان الدين بن الخطيب المريع منه بِمُزِن البلاغة والفصاحة جنان الجنان، فنقول واللّه سبحانه ولي التوفيق والإمداد، وليس إلاّ عليه الاعتماد:

وقال ابن الصباغ العقيلي[1]: كان أبو الحسن بن الجياب رئيس كُتّاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم، واختصّ به ذو الوزارتين أبو عبد اللّه بن الخطيب اختصاصًا تامًا، وأورثه رتبة من بعده، وعهد بها إليه، مشيرًا بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره، وتدرب بذكائه حتى استحقّ أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور، ونال التي لا فوقها من الحُظْوَة، وبُعْد الصيت وسعادة البخت، اتّفق له يومًا بعد ما عزم النصراني على ورود البلد وضاقت به الصدور، فأنشد ابن الجياب بديهًا بمحضر الكتّاب: [مجزوء الرجز]

هـذا الـعـدوُّ قـد طـغـى وقـد تـعـدّى وبـغـى

وقال لابن الخطيب: أَجِزْ أبا عبد اللّه، فأنشده بديهًا: [مجزوء الرجز]

وأظـهـرَ الـسـلـمَ وقـد أَسَرَّ حَسْوًا في ارْتِغَا[2]
فـبـلّـغ الـرحـمـنُ سَيـ ـفَ النصر فيه ما ابتغى

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٩٢).
(٢) يشير إلى المثل: «يُسرُّ حَسْوًا في ارتغاء» يضرب لمن يظهر أمرًا ويريد غيره. محيط المحيط (رغا).

وردّه ردّ ثـمـو دِ والفصيلُ[1] قد رَغا
حتى يُرى وليمةً لكل مرهوبِ الثغا

فقال الجياب: هكذا وإلاَّ فلا، وعجب الحاضرون من هذه البديهة، انتهى.

ومِمَّا خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبي يحيىٰ البلوي المري رحم اللّه الجميع: [الخفيف]

عَلِّلوني ولو بوعدٍ محالِ وصلوني ولو بطيفِ خيالِ
واعلموا أنني أسيرُ هواكُمْ لستُ أنفكُّ دائمًا عن عقالِ
فدموعي من بينكم في انسكابٍ وفؤادي من هجركم في اشتعالِ
يا أُهَيلَ الحمى كفاني غرامي لا تزيدوا حسبي بما قد جرى لي
مَنْ مُجيري من لحظِ رِيمٍ ظلوم حلَّلَ الهجرَ بعد طيب الوصال
ناعسِ الطرفِ أسْهَرَ الجفنَ منِّي طالَ منه الجفا بطولِ الليالي
بابليّ اللحاظِ أصمى فؤادي[2] ورماهُ من غُنْجِهِ بنبال
وكسا الجسمَ من هواه نحولاً قصده في النوى بذاك انتحالي
ما ابتدى في الوصال يومًا بعطفٍ مذ روى في الغرام بابَ اشتغالي
ليس لي منه في الهوى من مجيرٍ غيرُ تاجِ العُلا وقطب الكمال
عَلَم الدين عزه وسناه ذروةُ المَجد بدرُ أُفقِ الجلال
هو غيثُ الندى وبحرُ العطايا هو شمسُ الهدى فريدُ المعالي
إنْ وَشَى في الرقاع بالنقشِ قُلْنا صفحةُ الطِّرْسِ حُلِّيَتْ باللآلي
أو دَجَا الخطبُ[3] فهو فيه شهابٌ زانه الصبحُ في ظلامِ الضلال
أو نبا الأمرُ فهو في الأمر عَضْبٌ صادقُ العزمِ عند ضيق المَجال
لستَ تلقى مثاله في زمانٍ جَلَّ في الدهر يا أخي عن مثال
قد نأى بي حبّي له عن دياري لا لجدوى ولا لِنَيْلِ نوالِ
لكنِ اشتقتُ أن أرى منه وجهًا نورُهُ فاضحٌ لنور الهِلال

---

(١) الفصيل: ولد الناقة.

(٢) أصمى فؤادي: رماه فأصابه، محيط المحيط (صمى).

(٣) دجا الخطبُ: أظلم، والخَطْبُ: المصيبة. محيط المحيط (دجا) و (خطب).

وكما هِمْتُ فيه ألثمُ كَفًّا جاد لي بالنوالِ قبل السؤال
هاكها ابنَ الخطيب عذراءَ جاءتْ تلثمُ الأرضَ قبل شِسْعِ النعال
وتوفِّي حقَّ الوزارة عَمَّنْ هو ملكٌ لها على كلِّ حال

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنّئًا في إعذاره أولادَهُ بعد نثر نصُّه: يعتذر عن خدمة الإعذار، ويصل المدح والثناء على بُعْدِ الدار، بتاريخ الوسط من شهر شعبان عام تسعة وأربعين وسبعمائة: [الكامل]

لا عُذْرَ لي عن خدمةِ الإعذارِ[1] ولئن نأى وَطَني وَشَطّ مَزَاري
أو عاقني عنه الزمانُ وصرفه تقضي الأماني عادة الأعصار
قد كنتُ أرغبُ أن أفوز بخدمتي وأحطَّ رحلي عند بابِ الدار
بادي المسرّة بالصنيع وأهله متشمّرًا فيه بفضلِ إزاري
من شاء أن يلقى الزمانَ وأهله ويرى جلالاً شاع في الأقطار
فليأتِ حَيَّ ابن الخطيب مُلَبِّيًا فيفوزَ بالإعظامِ والإكبار
كم ضمَّ من صِيدٍ كرامٍ قَدْرُهُمْ يسمو ويعلو في ذوي الأقدار
إنْ جئتَ ناديَهُ فنُبْ عني وقُلْ نلتَ المُنَى بتلطُّفٍ ووقارِ
يا من له الشرفُ القديم ومن له الـ حسبُ الصميمُ العِدُّ يوم فخار
يهنيك ما قد نِلْتَ من أملٍ به في الفرقدين النَّيِّرَينِ لساري
نجلاك قطبا كلّ مجدٍ باذخٍ أَمَلانِ مَرْجُوَّانِ في الإعسار
عبد الإله وصنوه قمرُ العُلا فرعانِ من أصلٍ زَكَا ونِجار[2]
ناهيك من قمرين في أُفقِ العُلا ينميهما نورٌ من الأنوار
زاكي الأرومة[3] مُعْرِقٌ في مجده جَمُّ الفضائلِ طَيِّبُ الأخبارِ
رَقَّتْ طبائعُهُ وراق جمالُهُ فكأنما خُلِقا من الأزهار
وحلتْ شمائلُ حُسْنِهِ فكأنما خلعتْ عليه رقَّةَ الأسحار
فإذا تكلّم قُلْتَ طَلٌّ ساقِطٌ أو وَقْعُ دُرّ من نحورِ جواري

---

(١) الإعذار: طعام يتّخذ لسرور حادث. لسان العرب (عذر).
(٢) النجار، بكسر النون: الأصل. لسان العرب (نجر).
(٣) الأرومة: أصل الشجرة ويستعار للحَسَب. محيط المحيط (أرم).

أو فَتَّ حبر المسك في قرطاسه فالروضُ غِبَّ الواكفِ المدرارِ
تتبسّمُ الأقلامُ بين بنانه فتريكَ نظمَ الدُّرِّ في الأمطار[1]
فتخالُ من تلك البنانِ كمائمًا ظلَّتْ تُفَتِّحُ ناضرَ النُّوّارِ
تلقاه فيّاضَ الندى متهلّلاً يلقاك بالبشرى والاستبشار
بحرُ البلاغة قُسُّها وإيادُها سحبانُها حبرٌ من الأَحْبارِ
إنْ نَاظَرَ العلماءَ فَهوَ إمامُهُمْ شرفُ المعارفِ، واحدُ النُّظَّارِ
أربى على العلماء بالصيتِ الذي طارَ في الآفاق كلَّ مَطار
ما ضرّه إن لم يجيءْ متقدّمًا بالسبق يُعْرفُ آخرُ المضمار
إن كان أخَّره الزمانُ لحكمةٍ ظهرتْ وما خفيتْ كَضوء نهارِ
الشمسُ تُحْجَبُ وهي أعظمُ نَيِّرٍ وترى من الآفاق إثر دراري
يا ابنَ الخطيبِ خطبتها لعلاكُمُ بكرًا تزفُّ لكم من الأفكار
جاءتك من خجل على قدم الحيا قد طيبتْ بثنائِكَ المعطار
وأتتْ تؤدي بعض حقّ واجبٍ عن نازحِ الأوطانِ والأوطار
مَدَّتْ يد التطفيلِ نحو عُلاكُمُ فتوشَّحَتْ من حَلْيكم بنُضار
فابذلْ لها في النقد صَفْحَكَ إنها تشكو من التقصير في الأشعار
لا زلتَ في دَعَةٍ وعزّ دائمٍ ومسرّةٍ تَتْرى[2] مَعَ الأعمار

قال لسان الدين في حق المذكور في «الإحاطة»[3]: هو محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي، من أبناء النعم وذوي البيوتات، كثير السكون والحياء، آل به ذلك أخيرًا إلى لُوثَة[4] لم يستفق منها، لَطَفَ اللّهُ به، حسنُ الخطِّ، مطبوعُ الأدب، سيّال الطبع مَعِينُه. وناب عن بعض القضاة، وهو الآن رهينُ ما ذكر، يتمنّى أهلُه موته[5]، واللّه ولي المعافاة[6].

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٦٢): «الأسطار».
(٢) تَتْرَى: متتابعة، محيط المحيط (ترى).
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٨٢).
(٤) في الإحاطة: «اللولوثة». واللوثة: اختلاط في العقل يشبه الجنون. لسان العرب (لوث).
(٥) في الإحاطة: «وفاته».
(٦) في الإحاطة: «المعافاة، بفضله».

وجرى ذكرُه في «الإكليل» بما نصُّه[١]: من أُولي الاتصال[٢]، بأُولى الخلال البارعة والخصال، خطًّا رائقًا، ونظمًا بمثله لائقًا، ودُعابةً يسترها تَجَهُّم، وسكونًا في طَيِّه إدراكٌ وتفهُّم، عُني بالدراية والتقييد، ومال في النظم إلى بعض التوليد، وله أصالة نبتت[٣] في السَّرْو عروقُها، وتألَّقت في سماء المَجادة بروقُها، وتصرّف بين النيابة في الأحكام الشرعية، وبين الشهادات العلمية المرعية؛ انتهى.

ورأيت بخطّ أبي الحسن علي بن لسان الدين على هامش هذا المحل من «الإحاطة» ما صورته: رحمة اللّه عليه! ما أعذب حلاوته، وأعظم مروءته، وأكرم أَصَالته، وبنو البَلَوي ذوو حسب، وأهل نعيم، وتربية ملوكية، حيّاهم اللّه وبَيّاهم! قال ذلك حبيبُهم وأخوهم علي بن الخطيب، انتهى.

وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبي عبد اللّه محمد بن مرزوق[٤] التلمساني ما صورته[٥]: ولَمّا قدمتُ على مدينة فاس في غرض الرسالة، خاطبني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصُّه: [الكامل]

يا قادمًا وافى بكلِّ نجاحِ	أَبشِرْ بما تَلْقاه مِنْ أفراحِ
هذي ذُرَا ملكِ الملوكِ فَلُذْ بها	تَنَلِ المنى وتَفُزْ بكلِّ سماح
مغنى الإمام أبي عنانٍ يَمِّمَنْ	تظفرْ ببحرٍ في العُلا طفّاح
مَنْ قاسَ جُودَ أبي عنانٍ في الندى	بِسواه قاسَ البحرَ بالضَّحْضاح[٦]
ملكٌ يُفيضُ على العُفاة نَوالَهُ	قبلَ السؤالِ وقبلَ بَسْطَةِ راحِ
فلجودِ كعبٍ وابن سُعْدَى[٧] في الندى	ذِكْرٌ مَحَاه عن نداه ماحي
ما إنْ سمعتُ ولا رأيتُ بمثله[٨]	مِنْ أَرْيَحيٍّ للندى مُرْتاحِ

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٨٢).
(٢) في الإحاطة: «من أولي الخِلال. .».
(٣) في الإحاطة: «ثبتتْ».
(٤) هو أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العَجيسي، وترجمته في الإحاطة (جـ ٣ ص ١٠٣)، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الثاني وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.
(٥) الإحاطة (جـ ٣ ص ١٠٧ ـ ١١١).
(٦) في الإحاطة: «ذي الندى». والضحضاح: الماء القليل. محيط المحيط (ضحضح).
(٧) ابن سعدى: هو أوس بن حارثة الطائي.
(٨) في الإحاطة: «ما إن رأيت ولا سمعت بمثله».

بسطَ الأمانَ على الأنام فأصبحوا قد أُلحِفوا منه بظلِّ جَناحِ
وهَمَى على العافينَ سَيْبُ نواله حتى حكى سحَّ الغمام الساحي
فنوالُهُ وجلالُهُ وفعالُهُ فاقتْ وأعيتْ أَلْسُنَ المُدّاح
وبه الدُّنا أضحتْ تروقُ وأصبحتْ كلُّ المُنَى تنقادُ بَعْدَ جماحِ
من كان ذا تَرَحٍ فرؤيةُ وجهه مِتلافةُ الأحزانِ والأتراحِ
فانهض أبا عبدِ الإلهِ تَفُزْ بما تبغيه من أملٍ ونيلِ نجاح
لا زلتَ ترتشفُ الأماني راحةً من راحةِ المولى بكلِّ صباحِ

فالحمدُ للّه يا سيدي وأخي على نِعَمِهِ التي لا تُحْصَى، حَمْدًا يؤمُّ به جميعنا المقصد الأسنى، فيبلغَ الأمدَ الأقصى، فطالما كان معظِّم سيدي للأسى في خَبال، وللأسف بين اشتغال بال، واشتعال بَلْبَال[1]. ولقُدُومكم على هذا المحل[2] المولوي في ارتقاب، ولمواعيدكم[3] بذلك في تحقّق وقوعه من غير شكّ ولا ارتياب، فها أنت تجتلي، من هذا المقام العلي بتشيّعك[4] وجوه المسرّات[5] صباحًا، وتتلقّى أحاديث مكارمه ومواهبه مُسْنَدة صِحاحًا، بحول اللّه تعالى. ولسيدي الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه، فهو من بعض ما لدى المعظم[6] من إحسان مولاه[7] وإنعامه. ولعمري لقد كان وافدًا على سيدي في مُسْتَقَرّه مع غيره، فالحمد للّه الذي يسّر في إيصاله، على أفضل أحواله. فراجعته بما نَصُّه[8]: [الكامل]

راحتْ تذكّرني كؤوسَ الراحِ والقُرْبُ يخفضُ للجنوحِ جناحي
وسَرَتْ تَدُلُّ على القبولِ كأنما دَلَّ النسيمُ على انبلاجِ صباح
حسناءُ قد غَنِيَتْ بِحُسْنِ صفاتها عن دُمْلُجٍ وقلادةٍ ووشاح

(١) البلبال: الوسواس. لسان العرب (بلبل).
(٢) في الإحاطة (ص ١٠٨): «على هذا المقام العلي في ارتقاب..».
(٣) في الإحاطة: «ولمواعدكم».
(٤) في الإحاطة: «التشيّعك».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢١٠): «المسرّة».
(٦) في الإحاطة: «المحب».
(٧) في الإحاطة: «مولاي».
(٨) في الإحاطة: «فراجعته بقولي».

أَمْسَتْ تحضُّ على اللِّياذ بمن جَرَتْ بِسُعُودِهِ الأقلامُ في الألواح[1]
بخليفةِ اللّه المؤيّد فارس شمسِ المعالي الأزهرِ الوضّاح
ما شئتَ مِنْ شِيَمٍ ومِنْ هِمَمٍ غَدَتْ[2] كالزُّهْرِ أو كالزَّهْرِ في الأدواح
فَضَلَ الملوكَ فليس يُدْرَكُ شأوُهُ أنّى يُقاسُ الغَمْرُ بالضَّحْضاح؟
أسنى[3] بني عَبَّاسهم بلوائه الـ ـمنصور، أو بحُسامه السفّاح
وغدتْ مغاني المُلْكِ لَمَّا حلّها تَزْهَى[4] ببدرِ هُدًى وبَحْرِ سماحِ
وحياةِ من أهداك تحفةَ قادم في العَرْف منها راحةُ الأرواح
ما زلتُ أجعلُ ذِكْرَهُ وثناءه رُوحي وريحاني الأريجَ وراحي
ولقد تمازجَ حُبُّه بجوارحي كتمازُجِ الأجسام بالأرواحِ
ولَوَ انّني أبصرتُ يومًا في يدي أمري لَطِرْتُ إليه دون جَناحِ
فالآنَ ساعدني الزمانُ وأيقنتْ من قربه نفسي بفوز قِداحي
إيهِ أبا عبدِ الإله، وإنه لَنِداءُ وُدٍّ في عُلاك صُراحِ
أما إذا اسْتَنْجَدتني من بعد ما رَكَدَتْ لما خَبَتِ الخطوبُ رياحي
فإليكها مهزولةً وأنا امرؤ قَرّرْتُ عجزي واطَّرَحْتُ سلاحي

«سيدي أبقاك اللّه لعهد تَحْفَظه، وولِيّ[5] بعين الوفاء تَلْحَظه، وصلتني رُقْعتك التي أَبْدعَتْ[6]، وبالحقّ من[7] مولى الخليقة صَدَعَتْ، وأَلِفَتْني وقد سَطَتْ بي الأوجال[8]، حتى كادت تتلف الرِّحال، والحاجة إلى الغذاء قد شمّرت كشح البَطِين، وثانية العَجْماوَيْنِ[9] قد تُوقع فَوات وقتها، وإن كانت صَلاتُها صلاةَ الطِّين، والفكر قد غاض

(١) في الإحاطة: «في الأفراح».
(٢) في الإحاطة: «من هِمَم ومن شِيَم غَدَت».
(٣) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٦٦): «أَنْسَى».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢١١): «تزري».
(٥) في الطبعة نفسها: «وولاء».
(٦) في الإحاطة (ص ١٠٩): «ابْتَدَعَتْ».
(٧) في الإحاطة: «من مدح المولى».
(٨) في الإحاطة: «الأوحال». والأوجال: جمع وجل وهو الخوف. لسان العرب (وجل).
(٩) ثانية العَجْماوَين: صلاة العصر، وأولاهما صلاة الظهر؛ لأنهما لا يجهر فيهما بالقراءة. لسان العرب (عجم).

مَعِينُه، وضَعُفَ وعلى اللّه جزاء المولى الذي يُعِينه، فَغَزَتْني بكتيبة بيانٍ أَسَدُها هَصُور، وعَلَمها مَنْصُور، وألفاظُها ليس فيها قُصُور، ومعانيها عليها الحُسْن مقصور، واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حَوْلٌ ومِنَّة، وقول «لا أدري» للعالم فكيف لغيره جُنّة، لكنها بَشَّرتني بما يَقِلُّ لمؤديه[1] بَذْلُ النفوسِ وإن جَلَّتْ، وأطلعتي من السراء على وجه تحسده الشمس إذا تَجَلَّتْ، بما أعلمتني[2] به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيّده اللّه في عَبْدِه، وصِدْق المَخِيلة في كرم مجده. وهذا هو الجود المَحْض، والفضلُ الذي شكره هو الفرض، وتلك الخلافة المولويّة تتّصف بصفات[3] مَنْ يبدأ بالنوال، مِنْ قَبْلِ الضَّرَاعة والسؤال، من غير اعتبار للأسباب، ولا مجازاة للأعمال. نسأل اللّه تعالى أن يُبْقي منها على الإسلام أوْفَى الظّلال، ويُبْلِغَها من فضله أقصى الآمال. ووَصَل ما بعثه سيدي صحبتها من الهديّة، والتحفة الودِّيّة، وقبلْتُها امتثالاً، واستجليتُ منها عِتْقًا وجَمَالاً. وسيدي في الوقت أنسبُ لاتخاذ[4] ذلك الجنس، وأقدر على الاستكثار من إناث البَهْم والإنس، وأنا ضعيف القدرة، غير مستطيع على ذلك إلاّ في النّدرة، فلو رأى[5] سيدي ورأيه سَداد، وقَصْدُه فضلٌ ووداد، أن ينقل القضيّة إلى باب العارية من باب الهِبة، مع وجود[6] الحقوق المترتّبة، لبَسَطَ خاطري وجَمَعَه، وعمل في رفع المؤونة على شاكلة حالي معه، وقد استصحبت مركوبًا يشقُّ عليّ هجره، ويناسب مقامي شكله ونَجْره[7]، وسيدي في الإسعاف على اللّه أجرُه، وهذا أمر عرض، وفرض فُرِض، وعلى نظره المُعَوّل، واعتماد إغضائه هو المعقول الأوّل، والسلام على سيدي من مُعَظِّم قَدْره، ومُلْتَزِم بِرّه، ابن الخطيب، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة خمس وخمسين وسبعمائة، والسماء قد جادت بمطرٍ سَهِرَتْ منه الأجفان، وظُنَّ أنه طوفان[8]، واللّحاق في غدها[9] بالباب المولوي مؤمل بحول اللّه»؛ انتهى.

(١) في الإحاطة: «المهديه».
(٢) في الإحاطة (ص ١١٠): «أعلمت».
(٣) في الإحاطة: «بصفة».
(٤) في الإحاطة: «إلى اتخاذ».
(٥) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٦٧): «راءٍ».
(٦) في الإحاطة: «وجوب».
(٧) النَّجْرُ، بفتح النون وسكون الجيم: الأصل، واللون. لسان العرب (نجر).
(٨) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر: «الطوفان».
(٩) في الإحاطة: «غدٍ».

وكتب القاضي أبو القاسم البَرْجِي[1] للسان الدين في غرض الشفاعة لبعض قرابته قوله [2] : [المتقارب]

أيا سابقًا في مجال البراعَةْ وفارِسَ مَيْدَانِ أهلِ اليراعَةْ
ومَنْ بَدْرُهُ في سماء المعالي يَزينُ بوصفِ الكمالِ ارتفاعَةْ
بما[3] لك في الفضل من حُجَّةٍ ومن إمرةٍ في ذويهِ مُطاعَةْ
قضاؤك[4] في معسرٍ حَلَّ دَينٌ عليه فإرجاءه قد أضاعَةْ
وقد كان يبغي لديكم شفيعًا توسَّطَ عندكُمُ في شفاعَةْ[5]
على أنه في اقتضاء الودادِ يوفِّي موازينه أو صُوَاعهْ[6]
وما هو في سوق تقريظكم ونَشْرِ حلاكم بمُزْجَى[7] البضاعةْ

كتبت يا سيدي ـ أدام اللّه تعالى علاكم، وحرس مجدكم الطاهر وسناكم! ـ وأنا بين خَجَل مفحم، وعجل مقحم، أتذكّر تسويفي بلقائكم، حين سمح الدهر باقترابكم، فأُحجم وأفكّر في أن إحجامي عند ذلك بإرجائي، عسى أن يكون وفق رجائي، أفاتني المقصود فأرى الحزم في أن أُقْدِم، وموقفها بين يديكم، فلان يطالبني مطالبة الغريم[8]، وأروم مِطاله فلا يبرح ولا يَرِيم، والانقياد في زمام طاعته ممّا توجبه المروّة بعد ما أوجبه الشارع إذ جعل له حظًّا في الأبوة، وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين، وأنزلته من حماكم بِرَبْوة ذات قرار ومَعين، فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طَرْفَ اهتبال[9]، وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وَجْه إقبال، فقد عاد دهره بعد النفار مُواتيا، ونزل على أهل المهلَّب شاتيا، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله، وتوسيع جذله، وذلكم يَدٌ على معظمكم شكرها، وعلى اللّه أجرها»؛ انتهى.

(١) هو محمد بن يحيىٰ بن محمد الغساني البرجي الغرناطي، من أهل غرناطة، وترجمته في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٩٣) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥٠) ونيل الابتهاج (ص ١٧٢).
(٢) الكتيبة الكامنة (ص ٢٥١ ـ ٢٥٢).
(٣) في الكتيبة الكامنة (٢٥٢): «فما».
(٤) هكذا في الكتيبة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٦٨): «قضاءك».
(٥) في الكتيبة: «يبغي إليكم . . يُوَسِّطُ . . ».
(٦) الصُّواع: إناء يُكال فيه ويُشرب. لسان العرب (صوع).
(٧) في الكتيبة: «مزجًى».
(٨) الغريم: الدائن. لسان العرب (غرم).
(٩) أي اهتبال الفرصة؛ يقال: اهتبل الفرصة اهتبالاً إذا اغتنمها. لسان العرب (هبل).

والبرجي المذكور هو محمد بن يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ بن علي بن إبراهيم، الغساني البرجي، يكنى أبا القاسم، من أهل غَرْنَاطة؛ قال في «الإحاطة»[١]: هو فاضل مُجْمع على فضله، صالح الأبوّة، طاهر النشأة، بادي الصيانة والعفة، طِرْفٌ في الخير والحشمة، صدر في الأدب، جَمّ المشاركة، ثاقب الفهم[٢]، جميل العشرة، ممتع المجالسة، حسن الشِّعر[٣] والخطّ والكتابة، فَذٌّ في الانطباع، صَناع اليدين[٤]، محكم لعمل[٥] الكثير من الآلات العلمية، ويجيد تفسير الكتب[٦]. رَحَلَ إلى العُدْوة ولقي جلّة، وتوسَّل إلى ملكها مجدِّدِ الرسم، ومقام[٧] أُولي الشهرة، وعامر[٨] دست الشعر والكتابة، أمير المسلمين أبي عنان[٩]، فاشتمل عليه، ونوّه به، وملأ بالخير يَدَهُ، فاقتنى جِدَةً وحُظْوَةً، وذكرًا وشهرةً، وانقبض مع استرسال المُلْك لفضل عقله، حتى تشكى إليَّ سلطانه بَثَّ ذلك عند قدومي عليه، وآثر الراحة، وجهد في التماس الرحلة الحجازية، ونبذ الكل، وقصر الخطوة، وسَلا الحظوة، فأسعفه سلطانه بغَرَضه، وجعل حَبْلَ همِّه على غاربه[١٠]، وأصحبه إلى النبيّ الكريم صلوات اللّه عليه رسالةً من إنشائه وقصيدةً من نظمه، وكلاهما يعلن في الخلفاء ببعد شأوه، ورسوخ قَدَمِ علمِه، وعراقة البلاغة في نسب خصله، ولمّا هلك وولي ابنه [قدّمه قاضيًا بمدينة][١١] مُلْكِهِ وضاعف له التنويه، فأجرى الخطّة على سبيل من السداد والنزاهة، ثم لمّا ولي السلطان أبو سالم عمّه أجراه على الرسم المذكور، واستجلى المشكلات بصدقه، وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدّد مفاخره.

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤).
(٢) في الإحاطة (ص ٢٩٤): «ثاقب الذهن».
(٣) في الإحاطة: «حسن الخطّ والشِّعْر..».
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٦٩): «صناع اليد». وفي الإحاطة: «صنيع اليدين».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢١٤): «العمل» وفي الإحاطة: «يحكم على الكثير..».
(٦) في الإحاطة: «الكتاب».
(٧) في طبعة دار صادر: «ومعتام». وفي الإحاطة: «ومقام الجلّة».
(٨) في الإحاطة: «وعلم».
(٩) في الإحاطة: «أبي عنان فارس».
(١٠) في الإحاطة: «وجعل حبله على غاربه»، والمعنى أنه تركه وشأنه.
(١١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢١٤).

شعره[١] . ثبت في كتاب «نفاضة الجراب» من تأليفنا عند ذكر المدْعَى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول اللّه ﷺ، وذِكْر مَنْ أنشد ليلتئذٍ من الشعراء ما نصُّه: وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي جملة السذاجة وكرم الخلق وطيب النفس وخِدْن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن، المتحيّز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار، العَزُوف عن فضول القول والعمل جامع المحاسن[٢]، من عقل رصين وطلب ممتع وأدب ونقاوة[٣] ويد صَنّاع أبو القاسم بن أبي زكريا البَرْجي، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة[٤]: [البسيط]

أصْغَى إلى الوَجْدِ لَمّا جَدَّ عاتبُهُ ... صَبٌّ له شُغُلٌ عَمَّنْ يُعاتِبُهُ
لم يُعْط للصبرِ مِنْ بعد الفراق يَدًا ... فضلَّ مَنْ ظلَّ إرشادًا يخاطبُهُ
لولا النَّوَى لم يَبِتْ حَرّانَ مكتئبًا ... يغالبُ الوَجْدَ كتْمًا وهو غالبُهُ
يستودعُ[٥] الليلَ أسرارَ الغَرام وما ... تُمْليه أشجانُهُ فالدمعُ كاتبُهُ
للّه عصرٌ بشرقيِّ الحمى سَمَحَتْ ... بالوصل أوقاتُهُ لو عادَ ذاهبُهُ
يا جيرةً أودعُوا إذ ودَّعُوا حُرَقًا ... يَصْلَى بها من صَميمِ القلبِ ذائبُهُ[٦]
يا هل تُرَى تَجْمَعُ الأيامُ فُرْقتنا ... كَعَهْدِنا أو يردُّ القلبَ ساكبه[٧]
ويا أُهَيلَ وِدادي، والنَّوَى قَذَفٌ ... والقُرْبُ قد أُبهمتْ دوني مذاهبُهُ
هل ناقضُ العهد بَعْدَ البُعْدِ حافظُهُ ... وصادعُ الشمل يومَ الشِّعب شاعِبُهُ
ويا ربوعَ الحمى لا زلتِ ناعمةً ... يبكي عهودَكِ مُضْنَى الجسمِ شاحبُهُ
يا من لقلبٍ مَعَ الأهواء مُنعطفٍ ... في كلِّ أوْبٍ له شوقٌ يجاذبُهُ
يَسْمو إلى طلبِ الباقي بهمّتِهِ ... والنفسُ بالمَيْلِ للفاني تُطالبُهُ
وفتنةُ المرءِ بالمألوف مُعْضِلَةٌ ... والأنسُ بالإلف نحو الإلفِ جاذبُهُ

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٧٠): «المحاسن الأشتات».
(٣) في الإحاطة: «نقادة».
(٤) القصيدة أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤).
(٥) في الكتيبة: «يُوادع».
(٦) في الكتيبة: «نائبه».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٧٠): «الأيامُ أُلْفَتَنا. . . سالبُهُ». وفي الكتيبة: «ترجع الأيام أُلفتنا. . ويردُّ. . سالبُهُ».

أبكي لعهد الصِّبا والشَّيْبُ يضحك بي[1] يا للرجالِ سَبَتْ جدّي ملاعبُهُ
ولَنْ ترى كالهوى أشجاه سالفُهُ ولا كوعدِ المُنى أحلاه كاذبُهُ
وهمَّةُ المرء تُغْلِيه وتُرْخِصُهُ مَنْ عَزَّ نفسًا لقد عَزَّتْ مطالبُهُ
ما هانَ كسبُ المعالي أو تناولها بل هانَ في ذاك ما يَلْقاه طالبُهُ
لولا سُرَى الفَلَكِ السامي لما ظهرتْ آثارُه ولما لاحتْ كواكبُهُ
في ذمّة اللّه رَكْبٌ للعُلا ركبوا ظَهْرَ السُّرى فأجابتْهُمْ نجائبُهُ
يرمون عرضَ الفلا بالسير عن عُرُضٍ طيَّ السِّجلِّ إذا ما جدَّ كاتبُهُ
كأنهمْ في فؤاد[2] الليل سِرُّ هَوًى لولا الضِّرامُ لما خَفَّتْ جوانبُهُ
شَدُّوا على لَهَبِ الرَّمْضاء وَطْأَتَهُمْ فغاصَ في لُجَّةِ الظَّلْماء راسبُهُ
وكَلَّفُوا الليل من طولِ السُّرى شططًا فخلَّفوه وقد شابَتْ ذوائبُهُ
حتى إذا أبصروا الأعلامَ مائلةً بجانبِ الحرَمِ المحميِّ جانبُهُ
بحيثُ يأمنُ مَنْ مولاهُ خائفُهُ من ذَنبِهِ وينالُ القصدَ راغبُهُ
فيها وفي طيبةَ الغرّاءِ لي أمَلٌ يُصاحبُ القلبَ منه ما يُصاحبُهُ
لم أنس[3] لا أنس أيامًا بظلِّهما سَقَى ثراهُ عَميمُ الغَيْثِ ساكبُهُ
شوقي إليها وإن شَطَّ المزارُ بها شوق المقيم وقد سارتْ حبائبُهُ
إن ردَّها الدهرُ يومًا بعدما عَبِثَتْ في الشَّمْل منّا يداهُ لا نُعاتبُهُ
مَعاهدٌ شَرُفَتْ بالمصطفى فَلَها مِنْ فَضْلِهِ[4] شرفٌ تَغلو مراتبُهُ
محمدُ المُجْتَبَى الهادي الشفيعُ إلى ربِّ العباد أمينُ الوحي عاقبُهُ
أوفىٰ الورى ذممًا، أسماهُمُ هممًا أعلاهُمُ كرمًا، جَلَّتْ مناقبُهُ
هو المُكَمَّلُ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ زَكَتْ حُلاه[5] كما طابَتْ مَناسبُهُ
عنايةٌ قبل بدءِ الخلقِ سابقةٌ مِنْ أجلِها[6] كان آتيه وذاهبُهُ

---

(١) في الكتيبة (ص ٢٥٣): «لي».
(٢) في الكتيبة: «سواد الليل».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٧١): «إن أنْسَ». وفي الكتيبة: «ما أنْسَ».
(٤) في الكتيبة: «من أجله».
(٥) في الكتيبة (ص ٢٥٤): «علاه».
(٦) في الكتيبة: «من أجله».

جاءتْ تُبَشِّرُنا الرُّسْلُ الكرامُ به ... كالصُّبح تبدو تباشيرًا كواكبُهُ
أخبارُهُ سِرُّ عِلْم الأولين وسَلْ ... بِدَيْرِ تَيْماء ما أبداه راهبُهُ
تطابَقَ الكونُ في البُشْرى بمولده ... وطَبَّقَ الأرضَ أعلامًا تجاوبُهُ
فالجنُّ تهتفُ إعلانًا هواتفُهُ ... والجنَّ تقذفُ إحراقًا ثواقبُهُ[1]
ولم تزلْ عصمةُ التأييد تَكْنِفُهُ ... حتى انجلى الحَقُّ وانزاحَتْ شوائبُهُ
سرى وجنحُ ظلامِ الليلِ مُنسَدِلٌ ... والنَّجْمُ لا يهتدي في الأفق ساربُهُ
يسمو لكلِّ سماء منه منفردٌ ... عن الأنامِ وجَبْرَائِيلُ صاحبُهُ
لمنتهًى وَقَفَ الروحُ الأمين به ... وامتاز قربًا فلا خَلْقٌ يُقاربُهُ
لِقابِ[2] قَوْسَيْنِ أو أدنى فما علمتْ ... نَفْسٌ بمقدار ما أولاه واهبُهُ
أراه أسرارَ ما قد كان أودعه ... في الخَلْق والأمر باديه وغائبُهُ
وآبَ والبدرُ في بحر الدُّجى غَرِقٌ ... والصُّبْحُ لَمَّا يؤبْ للشرق آيِبُهُ
فأشرقتْ بِسَناه الأرضُ واتّبعتْ ... سُبْلَ النجاة بما أبدتْ مذاهبُهُ
وأقبلَ الرشدُ والتاحتْ زواهرُهُ ... وأدبرَ الغيُّ فانجابتْ[3] غياهبُهُ
وجاء بالذكرِ آياتٍ مُفَصَّلَةً ... يُهْدى بها من صِراطِ اللّه لاحِبُهُ
نُورٌ مِنَ الحِكَمِ لا تخبو سواطِعُهُ ... بَحْرٌ مِنَ العِلْم لا تَفْنَى عجائبُهُ
له مَقامُ الرِّضا المحمودِ شاهدُهُ ... في موقف الحَشْرِ إذ نابتْ نوائبُهُ
والرُّسلُ تحت لواء الحمدِ يَقْدُمُها ... محمدٌ أحمدُ السامي مراتبُهُ
له الشفاعاتُ مقبولاً وسائِلُها ... إذا دهى الأمرُ واشتدَّتْ مصاعبُهُ
والحوض يُروي الصَّدَى مِنْ عَذب مورده، ... لا يشتكي غُلَّةَ الظمآن شاربُهُ
محامدُ المصطفى لا يَنْتهي أبدًا ... تَعْدادُها، هل يَعُدُّ القَطْرَ حاسبُهُ
فَضْلٌ تَكَفَّلَ بالدارين يُوسِعُها ... نُعمى ورُحمى فلا فَضْلٌ يُناسِبُهُ
حسبي التوسُّلُ منها بالذي سَمَحَتْ ... به القوافي وجَلَّتْها غرائبُهُ
حَيّاه من صلواتِ اللّه صَوْبُ حَيًا ... تُحْدَى إلى قبره الزاكي نجائبُهُ

---

(١) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الكتيبة الكامنة.
(٢) القابُ: المقدار، وما بين المقبض والسِّيَة من القوس. وفي القرآن الكريم: ﴿فكان قابَ قَوسَينِ أو أدنى﴾. سورة النجم ٥٣، الآية ٩، ومحيط المحيط (قوب).
(٣) انجابت: انجلت وانكشفت. محيط المحيط (جيب).

وخَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَ المستعين به مؤيَّدَ الأمر منصورًا كتائبُهُ
إمامُ عدلٍ بتَقْوَى اللَّه مشتملٌ في الأمرِ والنهي يرْضيه يُراقبُهُ
مُسَدَّدُ الحُكْمِ ميمونٌ نقيبتُهُ مُظَفَّرُ العزمِ صَدْقُ الرأي صائبُهُ
مُشَمِّرٌ للتقى أذيالَ مجتهدٍ جَرَّارُ أذيالِ سُحبِ الجودِ ساحبُهُ
قد أوسعتْ أمَلَ الراجي مكارمُهُ وأحسبَتْ[1] رغبةَ العافي رغائبُهُ
وفاز بالأمن محبورًا مُسالِمُهُ وباءَ بالخزي مقهورًا محاربُهُ
كم وافدٍ آملٍ مَعْهُودَ نائِلِهِ أثنى وأَثْنَتْ بما أولى حقائبُهُ
ومُسْتَجِيرٍ بعزّ من مَثَابته عَزَّتْ مراميه وانقادتْ مآربُهُ
وجاءه الدهرُ يَسْتَرْضِيهِ مُعْتذرًا مُسْتغفرًا من وقوعِ الذنب تائبُهُ
لولا الخليفةُ إبراهيمُ لانبهمتْ طُرْقُ المعالي ونال الملكَ غاصبُهُ
سَمَتْ لنيل تراث المجدِ هِمَّتُهُ والملكُ ميراث مجدٍ وهو غاصبُهُ[2]
يُنْميه للعزّ والعَلْيا أبو حسن سَمْحُ الخلائق محمودٌ ضرائبُهُ
من آل يعقوبَ حسب الملك مفتخرًا بباب عزِّهِمُ السامي تعاقبُهُ
أطوادُ حلمٍ رَسَا بالأرض محتدُهُ وزاحمتْ[3] منكبَ الجوزا مناكبُهُ
تحفُّها من مَرِينٍ أبحرٌ زَخَرَتْ أمواجُها وغمامٌ ثار صائبُهُ
بكلِّ نجمٍ لدى الهَيْجاء مُلْتَهِبٍ ينقضُّ وسط سماء النَّقْع ثاقبُهُ
أكفُّهم في دياجيها مَطالِعُهُ وفي نحور أعاديهم مَغاربُهُ
يا خيرَ مَنْ خلصتْ للَّه نيَّتُه في الملكِ أو خَطَبَ العلياءَ خاطبُهُ
جَرَّدْتَ والفتنةُ الشعواء مُلْبسةٌ سيفًا من العَزْم لا تَنْبُو مضاربُهُ
وخُضْتَها غير هَيَّابٍ ولا وَكِلٍ وقلَّما أدرك المطلوبَ هائبُهُ
صبرتَ نفسًا لعقبى الصبر حامدةً والصبرُ مذ كان محمودٌ عواقبُهُ
فليهنِ دينَ الهُدى إذ كنتَ ناصرَهُ أمْنٌ يواليه أو خوفٌ يجانبُهُ
لا زالَ ملكَكَ والتأييدُ يخدمه تَقْضي بخفضِ مُنَاويه قواضبه[4]

---

(١) أحسبت: أكثرت وأجزلت. لسان العرب (حسب).
(٢) في الإحاطة (ص ٢٩٨): «عاصبه» بالعين المهملة.
(٣) في الإحاطة: «وزاحت» وهكذا يتكسر الوزن.
(٤) القواضب: جمع قاضب وهو السيف القطّاع. محيط المحيط (قضب).

وذُمْتَ في نِعَمٍ تضفو ملابسُها في ظلّ عِزٍّ عُلاً تصفو مشاربُهُ
ثم الصلاة على خير البريّةِ ما سارتْ إليه بمشتاقٍ ركائبُهُ

ومن شعره ما قيّده لي بخطِّه صاحبُ قلم الإنشاء بالحضرة المَرِينية الفقيه الرئيس الصدر المتفنّن أبو زيد بن خلدون[1]: [الطويل]

صَحَا القلبُ عَمَّا تعلمينَ فَأَقْلَعا وعَطَّلَ من تلك المعاهدِ أرْبُعا[2]
ويصبح لا يُلْوِي على حَدِّ منزلٍ ولا يُتْبِعُ الطرفَ الخلِيَّ المُوَدَّعَا
وأضحى من السُّلْوان في حِرْزِ مَعْقِلٍ بعيدٍ عن الأيام أن يتضعضعا
يردُّ الجفان[3] النُّجلَ عن شُرُفَاته وإن لحظتْ عن كلِّ أجْيَدَ أتْلَعَا
عزيزٌ على داعي الغرام انقيادهُ وكان إذ ناداه للوجد أهطعا[4]
أهابَ به للشيب أنصحُ واعظٍ أصاخ له قلبًا مُنيبًا ومَسْمَعا
وسافر في أُفْقِ التفكّرِ والحِجا زواهِرُهُ لا تبرحُ الدهرَ طُلَّعَا
لعمري لقد أنضيتُ عزمي تَطَلُّبًا وقَضَّيتُ عمري رِقْبَةً وتطلُّعا
وخُضْتُ عُبابَ البحرِ أخضرَ مُزْبِدًا ودُسْتُ أديمَ الأرضِ أغبرَ أسفعا[5]

وقال حسبما قيّده المذكور[6]: [المتقارب]

نَهاهُ النُّهَى بَعْدَ طولِ التجاربْ ولاحَ له منهجُ الرشدِ لاحِبْ[7]
وخاطَبَهُ دَهْرُهُ ناصحًا بألسنةِ الوَعْظِ مِنْ كلِّ جانبْ
فأضحى إلى نُصْحِهِ واعيًا وألغى حديثَ الأماني الكواذبْ
وأصبحَ لا تستبيه[8] الغواني ولا تزدريه حظوظُ المناصبْ

---

(١) الإحاطة (ج ٢ ص ٢٩٩ - ٣٠٠).
(٢) الأَرْبُعُ: جمع ربع وهو الدار. لسان العرب (ربع).
(٣) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٧٤): «الجفون».
(٤) أهْطَعَ: أسرع. لسان العرب (هطع).
(٥) الأسفع: الأسود المائل إلى الحمرة. لسان العرب (سفع).
(٦) الإحاطة (ج ٢ ص ٣٠٠) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥١).
(٧) اللاحب: الطريق الواضح. محيط المحيط (لحب).
(٨) في الكتيبة: «لا تشتهيه».

ثم قال في «الإحاطة»[1]: وإحسانه كثير في النثر والنظم، والقصار والمطوّلات، واستعمل في السِّفارة إلى ملك مصر وملك قَشْتَالة، وهو الآن قاضي[2] حضرة الملك، نسيجُ وَحْدِهِ في السلامة والتخصّص[3] واجتناب فضول القول والعمل، كان اللّٰه له! انتهى.

وكتب ابن المصنّف بهامش ترجمة المذكور من «الإحاطة» ما صورته: سيدي وشيخي عَلاَّمة المغرب اليوم، وحائز رتبه العليّة من خطابة وقضاء وعَلاَمَة وهو أحقّ بها؛ لخلاله الحميدة، أبقاه اللّٰه تعالى! قاله محبّه علي بن الخطيب؛ انتهى.

وكتب على القصيدة الميلادية المتقدّمة ما نصُّه: رويْتُها عنه، وسمعْتُها من لفظه، وأجازني إياها بتلمسان، انتهى.

وكتب على حاشية قصيدته «صحا القلب. إلى آخره» ما صورته: سمعْتُها من لفظ سيدي وشقيق روحي الإمام العلامة الرئيس أبي زيد بن خلدون بالأندلس أمتع اللّٰه به تعالى! قال ذلك أخوه علي بن الخطيب، انتهى.

وقال في «الإحاطة» في ترجمة ابن زَمْرَك ما صورته[4]: وشعره مترام إلى هَدَف[5] الإجادة، خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة. فمن ذلك ما خاطبني به وهي من أول ما نظمه قصيدة مطلعها[6]: [الطويل]

أَمَا وانصداعِ النورِ من مطلعِ الفجرِ

يقول فيها بعد أبيات:

لكَ اللّٰهُ من فَذِّ الجلالة أوحدٍ　　تطاوعُهُ الآمالُ في النُّهى والأمرِ

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٠).
(٢) في الإحاطة: «قاضي مدينة فاس».
(٣) في الإحاطة: «والتخصيص».
(٤) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٣).
(٥) في الإحاطة: «نمط الإجادة».
(٦) لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة، وهي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٤ . ٢٨٦) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٦٤ ـ ١٦٧).

لكَ القلمُ الأعلى الذي طالَ فخرُهُ ... على المُرْهَفاتِ البيضِ والأسَلِ السُّمْرِ[1]
يقلّد أجيادَ الطروسِ تمائمًا ... بِصِنْفَيْ لآلٍ من نظامٍ ومن نثرِ[2]
تَهَيَّبَكَ القرطاسُ فاحمرَّ إذ غدا ... يُقلُّ بحورًا من أناملك العشرِ
كأنَّ رياضَ الطِّرْسِ خدٌّ مُوَرَّدٌ ... يُطَرِّزُه وشيُ العذارِ من الحبرِ
فشارة هذا الملك رائقةُ الحُلَى ... بألوية حُمْرٍ وبالصُّحُفِ الحمرِ[3]
وما[4] روضةٌ غنّاء عاهَدَها الحَيَا ... تَحُوكُ بها وَشْيَ الربيعِ يَدُ القَطْرِ
تُغَنِّي قيانُ الطيرِ في جنباتها ... فيرقصُ غصنُ البانِ في حُلَلٍ خُضْرِ
تمدُّ لأكواسِ العَرار أناملاً ... من السوسن الغضِّ المختَّم بالتبر
ويحرسُ خدَّ الورد صارمُ نهرها ... ويُمْنَعُ ثَغْرُ النَّوْرِ بالذابلِ النضر
يفاخرُ مَرْآها السماءَ محاسنًا ... وتُزْري نجومُ الزَّهْرِ منها على الزُّهْرِ[5]
إذا مسحتْ كَفُّ الصَّبا جفنَ[6] نورها ... تَنَفَّس ثغر الزهر عن عنبرِ الشِّحْرِ
بأعْطَرَ من رَيَّا ثنائك في السُّرى[7] ... وأبهرَ حسنًا من شمائلك الغُرِّ
عجبتُ له يحكي خلالَ خميلةٍ ... وتَفْرقُ منه الأُسْدُ في موقف الذُّعْرِ
إذا أضرمتْ من بأسها الحربُ جاحمًا[8] ... تأجَّجَ منه العضبُ في لُجَّة البحرِ
وإن كَلَحَ الأبطالُ في حومة الوغى ... تَرَقْرَقَ ماءُ البِشْرِ في صفحة البدرِ
لك الحَسَبُ الوضّاحُ والسؤددُ الذي ... يضيقُ نطاقُ الوصف فيه عن الحَصْرِ
تَشَرَّفَ أُفْقٌ أنتَ بَدْرُ كمالِهِ ... فغرناطةٌ تختالُ تِيهًا على مصر
تَكَلَّلَ تاجُ المُلْكِ منك محاسنًا[9] ... وفاخرتِ الأملاكَ منك بنو نصر
بعزمة مضمونِ السعادة أوحدٍ ... وغُرَّة وضَّاحِ المكارمِ والنَّجْرِ[10]

---

(١) الأسل السُّمر: الرماح.
(٢) في الكتيبة: «تقلّد.. بصنف لآل..». والطُّرُوس: جمع طِرْس وهو الصحيفة. لسان العرب (طرس).
(٣) في الكتيبة: «من ألوية حمر ومن صحف حمر».
(٤) في الكتيبة: «فما».
(٥) في الكتيبة: «فتزري نجومُ..». والزُّهْرُ: المضيئة، وأراد بها النجوم.
(٦) في الكتيبة (ص ٢٨٥): «وجه نورها».
(٧) في الكتيبة: «في الشذا».
(٨) جاحمًا: متقدًا شديد الاشتعال. لسان العرب (جحم).
(٩) في الكتيبة: «محاسنٌ».
(١٠) في الكتيبة: «وعزمك... واحدٌ وعزّك وضاح..».

طوى الحَيْفَ[1] منشورَ اللواء مؤيّدًا … فعزَّ حِمْى الإسلام بالطَّيِّ والنشر
ومَدَّ ظلالَ الأمن إذ قصَّر العدا … فَيُتْلَى سناء الملك بالمدِّ والقصر [2]
إذا احتفل الإيوانُ يومَ مَشُورة … وتضطربُ الآراءُ من كلِّ ذي حِجْرِ [3]
صَدَعْتَ بفصل القول غيرَ منازعٍ … وأطلعتَ آراءً قُبِسْنَ من الفجرِ
فإنْ تظفرِ الخَيْلُ المغيرةُ بالضحى … فعنْ رأيك الميمونِ تظفرُ بالنصر
فلا زلتَ للعلياءِ تحمي ذمارَها … وتسحبُ أذيالَ الفخارِ على النسرِ
وللعلم فخرُ الدين والفتكِ بالعدا … بَأَوْتَ[4] به يا ابن الخطيب على الفخر
فيهنيك عيدُ الفطر مَنْ أنتَ عيده … ويثني بما أوليتَ مِنْ نِعَمٍ غُرِّ
جبرتَ مَهيضًا[5] مِنْ جناحِي ورِشْتَه … وسَهَّلْتَ لي من جانبِ الزمن الوعر
وبَوَّأْتَني في ذروةِ العِزِّ معتلًى … وشَرَّفْتَني من حيثُ أدري ولا أدري
وسَوَّغْتني الآمالَ عذبًا مسلسلاً … وأسميت مِنْ ذكري ورفَّعْتَ من قَدْري
فدهريَ عيدٌ بالسرورِ وبالمنى … وكلُّ ليالي العمرِ لي ليلةُ القَدْرِ
فأصبحتُ مغبوطًا على خيرِ نعمةٍ … يقلُّ لأدناها الكثيرُ من الشكر

وهي طويلة، انتهى.

قلت: هذا الرئيس ابن زَمْرَك صرّح هنا بأنه بجاه لسان الدين بن الخطيب أدرك من العزّ ما أدرك، ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك، وحرّك من دواعي قتله ما حرّك، وكم من صديق لك ضرّك، وعَقَّكَ بعد ما برّك، وساءك إثر ما سرّك، ولذا رأيت بخطّ ابنِ لسان الدين على هامش قوله في هذه القصيدة «ومدَّ ظلال الأمن. إلخ» ما صورته: هذا مدحه لحاه اللّه، وعلى قوله «وبوّأتني من ذورة العزِّ. إلخ» ما مثاله: هكذا شهادتك لحقه، ثم تحوّلك عنه، وكفر نعمته، اغرب أخزاك اللّه! انتهى.

---

(١) في الكتيبة: «الخيف».
(٢) في الكتيبة (ص ٢٨٦): «ظلال العدل.. ثناءُ الملك..».
(٣) الحِجْر: العقل. محيط المحيط (حجر).
(٤) بَأَوْت: فَخرْتَ. لسان العرب (بأى).
(٥) المهيض: المكسور؛ يقال: هاض فلانٌ العظمَ إذا كسره. محيط المحيط (هيض).

وكتب بهامش أول ترجمته من «الإحاطة» ما نصُه: أتبعه اللّه خزيًا، وعامله بما يستحقّه! فبهذا ترجمه والدي مولاه الذي رفع من قَدْره فيه، ولم يقتلْه أحد غيره، وكفانا اللّه تعالى شرَّ مَنْ أحسنَّا إليه.

وكتب أيضًا تحت هذا ما مثاله: هذا الوغد ابنُ زَمْرَك من شياطين الكُتّاب ابن حداد بالبيازين، قتل أباه بيده، أوجعه ضربًا فمات من ذلك، وهو أخَسُّ عباد اللّه تربية، وأحقرهم صورة، وأخملهم شكلاً، استعمله أبي في الكتابة السلطانية، فجنينا أيام تحوّلنا عن الأندلس منه كل شرّ، وهو كان السبب في قتل أبي مصنّف هذا الكتاب الذي رَبَّاه وأدَّبه واستخدمه، حسبما هو معروف، وكفانا اللّه شرَّ مَنْ أحسنَّا إليه وأساء إلينا؛ انتهى.

وقد ألممنا بترجمته في هذا الكتاب في باب تلامذة لسان الدين فلتراجَعْ هنالك.

ومِمَّا كتب به ابن زَمْرَك المذكور إلى لسان الدين بن الخطيب جوابًا عن رسالة قوله[1]: [البسيط]

حَيَّتْ صباحًا فأحيت ساكني القَصَبَهْ ... واسترجعتْ أنفُسًا بالشوقِ مُغْتَصَبَهْ
قضى البيانُ لها أن لا نظيرَ لها ... فأحرزتْ من معاني خَصْله قَصَبَهْ
ناجت طليحَ[2] سُرًى لا يستفيقُ لها ... هَدَّتْ جوارحَهُ واستوهنتْ عَصَبَهْ
فَحَرَّكَتْهُ على فتكِ الكلالِ به ... وأذهبتْ بسرورِ الملتقى نَصَبَهْ[3]
وأذكرتْ عهدَ مُهْديها على شَحَطٍ ... فعاود القلب من تذكاره وَصَبَهْ[4]
ما كنتُ أسمحُ مِنْ دهري بجوهره ... لو كان يسمحُ لي بالقلب مَنْ غَصَبَهْ
سَلْ أدمعَ الصَّبِّ مَنْ أعدى السحابَ بها ... وقَلْبَهُ بجمارِ الشوقِ مَنْ حَصَبَهْ[5]
فاللّهُ يحفظُ مهديها ويشكرُه ... فوجهها بعصابِ الحسنِ قد عَصَبَهْ
مَنْ كان وارثَ آدابٍ يشعشعُها ... بالفرض إنيَ في إرثي لها عَصَبَهْ
هو المَلاذُ مَلاذُ الناسِ قاطبةً ... سبحان مَنْ لغياثِ الخلقِ قد نَصَبَهْ

(١) القصيدة في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٦٦).
(٢) الطَّليح: المتعب المهزول. لسان العرب (طلح).
(٣) النَّصَبُ، بالفتح: التعب. لسان العرب (نصب).
(٤) الوَصَبُ، بالفتح: التعب. لسان العرب (وصب).
(٥) حَصَبَهُ: رماه بالحصباء. لسان العرب (حصب).

وخاطبه كذلك بقوله[1]: [الطويل]

يكلّفني مولاي رَجْعَ جوابه وما لتعاطي المُعْجِزاتِ وما ليا
أجيبكُ للفضلِ الذي أنتَ أهلُه وأَكْتُبُ مِمّا قد أفدتُ الأماليا
فأنتَ الذي طَوَّقْتَنِي كلَّ مِنَّةٍ وأحسبتَ[2] آمالي وأكسبْتَ ماليا
وأنت الذي أَعْدَى الزمانَ كمالُهُ وصَيَّرْتَ أحرارَ الزمان مَوَالِيَا
فلا زلتَ للفعلِ الجميلِ مُواصلاً ولا زلتُ للشكر الجزيل مُوَاليا

وخاطبه كذلك بقوله[3]: [الكامل]

طالعْتُها دونَ الصباح صَبَاحَا لَمّا جَلَتْ غُررَ البيان صِبَاحَا[4]
ولقد رأيتُ وما رأيتُ كَحُسْنها وجهًا أغرَّ ومبسمًا وضاحا
عذراءَ أَرْضَعَها البيانُ لِبَانَهُ وأطالَ مَغْدًى عندها ومَراحَا
فأتتْ كما شاءتْ وشاء نجيبُها تذكي الحِجا وتُنَعِّمُ الأرواحا
لا بل كمثلِ الروضِ باكَرَهُ الحَيَا وسقى به زهرَ الكمام ففاحا
وطوتْ بساطَ الشوقِ مني بعدما نشرتْ عليَّ من القَبُولِ جَناحا

وخاطبه كذلك بقوله[5]: [الطويل]

ذَرُوني فإني بالعَلاء خبيرُ أسيرُ فإنَّ النَّيِّراتِ تسيرُ
وكم بِتُّ أطوي الليلَ في طلب العُلا كأني إلى نجم السماء سفيرُ
بعزمٍ إذا ما الليلُ مَدَّ رِواقَهُ يكرُّ على ظلمائه فينيرُ
أخو كَلَفٍ بالمجد لا يستفزُّه مِهَادُ إذا جَنَّ الظلامُ وثيرُ
إذا ما طوى يومًا على السِّرِّ كَشْحَه فليس له حتى المماتِ نُشورُ
وإني وإن كنتُ المُمَنَّعَ جارُهُ لتَسْبي فؤادي أعينٌ وثُغُورُ

---

(١) الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٨) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٦٧).
(٢) أَحْسَبْتَ: أكثرت وأعظمت وأجزلت. لسان العرب (حسب).
(٣) أزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٦٧).
(٤) الصِباح، بكسر الصاد: جمع الصَّبيح وهو الحسن؛ يقال: غلام صبيح ووجه صبيح. محيط المحيط (صبح).
(٥) أزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٦٧).

وما تعتريني فترةٌ في مدى العُلا | إلى أن أرى لحظًا عليه فتورُ
وفي السِّرْبِ من نجدٍ تعلَّقتُ ظبيةً | تصولُ على ألبابنا وتغيرُ
وتمنعُ ميسورَ الكلام أخا الهُدَى | وتَبْخَلُ حتى بالخيالِ يزورُ
أسكانَ نَجْدٍ جادها واكفُ الحَيَا | هواكمْ بقلبي مُنجِدٌ ومُغير[1]
ويا سكني بالأجْرَعِ الفَرْدِ من مِنًى | وأيسرُ حَظّ من رضاكَ كثيرُ
ذكرتك فوقَ البحرِ والبُعْدُ بيننا | فمدَّتْهُ من فَيض الدُّموع بحورُ
وأومضَ خَفَّاقُ الذؤابةِ بارقٌ | فطارتْ بقلبي أَنَّةٌ وزفيرُ
ويهفو فؤادي كلّما هَبَّتِ الصَّبا | أَمَا لفؤادي في هواك نصيرُ
ووالله ما أدري أَذِكْرُك هزّني | أم الكأسُ ما بين الخيام تَدُورُ
فمن مُبْلغٌ عني النوى ما يسوءُها | وللبين حُكْمٌ يَعْتدي ويَجورُ
بأنّا غَدًا أو بَعْدَهُ سوف نلتقي | ونُمسي ومنَّا زائرٌ ومَزور
إلى كم أُرى أكني[2] ووجدي مصرِّحٌ | وأُخْفي اسْم مَنْ أهواه وهو شهير
أمنجدَ آمالي، ومغليَ كاسدي | ومصدرَ جاهي، والحديثُ كثيرُ
أأنسى، ولا أنسى، مجالسَك التي | بها تلتقيني نَضْرةٌ وسرورُ
نزورك في جنحِ الظلامِ وننثني | وبين يدينا من حديثك نورُ
على أنني إنْ غبتُ عنك فلم تغب | لطائفُ لم يحجبْ لهنَّ سفورُ
نروحُ ونغدو كلَّ يومٍ وعندها | رواحٌ علينا دائمٌ وبكورُ
فظلُّك فوقي حيثما كنتُ وارفٌ | وموردُ آمالي لديك نميرُ[3]
وعذرًا فإني إن أطَلْتُ فإنما | قُصارايَ[4] مِنْ بَعْدِ البيان قُصُورُ

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك: [الطويل]

وحَقِّكَ ما استطعمتُ بعدك غمضةً | من النوم حتى آذنَ النجمُ بالغروبْ
وعارضْتُ مَسْرَى الريح قلتُ لعلَّها | تنمُّ بريّا منك عاطرةِ الهبوبْ

---

(١) المُنجِدُ: الذي أتى النجد وهو المرتفع من الأرض. المُغير: الذي أتى الغور وهو المنخفض من الأرض. لسان العرب (نجد) و (غور).
(٢) أكني: أستعمل الكناية ولا أصرّح.
(٣) النمير: الصافي. لسان العرب (نمر).
(٤) القُصارَى: الجهد والغاية. محيط المحيط (قصر).

إلى أن بَدَا وَجْهُ الصباحِ كأنه … محيّاك إذ يجلو بِغُرَّتِهِ الخطوبْ
فقلتُ لقلبي استشعرِ الأُنْسَ وابتهجْ … فإنْ تبعدِ الأجسامُ لم تبعدِ القلوبْ
وسِرْ في ضمان اللّه حيثُ تَوَجَّهَتْ … ركابُك لا تَخْشَ(1) الحوادث أن تنوبْ

قلتُ: هذه غاية في معناها، لولا خُروجُها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها، فانظرْ إلى تحوّله عن لسان الدين بعد هذه المدائح، ونسبته إليه(2) بعده القبائح، والإنسان خَوَّان، إلاّ النادر من الإخوان، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه.

قال في «الإحاطة» في ترجمة ابن سلبطور(3) ما نصُّه: ومِمَّا خاطبني به: [الرجز]

تاللّه ما أورى زنادَ القَلَقِ … سوى بريقٍ لاحَ لي بالأبرقِ(4)
أيقَنْتُ بالحَيْنِ(5) فلولا نَفْحَةٌ … نَجْدِيّةٌ منكمْ تلافتْ رَمَقِي
لكنتُ أقضي بتلظِّي زفرةٍ … وحسرةٍ بين الضلوع(6) تلتقي
فآهِ مِنْ هَوْلِ النَّوَى وما جَنَى … على القلوب موقفُ التَّفَرُّقِ
يا حاكي الغُصْن انثنى مُتَوَّجًا … بالبدرِ تحت لَمَّةٍ من غَسَقِ
اللّهَ في نفسِ مُعَنًّى أقْصِدَتْ … من لاعجِ الشوق بما لم تُطِقِ
أتى على أكثرها بَرْحُ(7) الأسى … دَعْ ما مضى منها وأدركْ ما بقي
ولو بإلمامِ خيالٍ في الكرى … إنْ ساعَدَ الجَفْنَ رقيبُ الأَرَقِ
فربَّ زُورٍ من خيالٍ زائرٍ … أَقَرَّ عينيَّ وإنْ لم يَصْدُقِ
شقيتُ(8) من بَرْحِ الأسى لو أنَّ مَنْ … أصبحَ رِقِّي في يديه مُعْتِقِي

---

(1) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٢٦): «لا تخشى».
(2) كلمة «إليه» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(3) هو محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي، من أهل ألمرية، ويكنى أبا عبد اللّه. توفي بمراكش سنة ٧٥٥ هـ. ترجمته في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٦٠) وقصيدته القافية في الإحاطة (ص ٣٦٢ - ٣٦٤).
(4) في الإحاطة: «سوى ريح». والأبرق: اسم مكان.
(5) الحَيْنُ: الهلاك. لسان العرب (حين).
(6) في الإحاطة: «بين الدموع».
(7) البَرْحُ: الشدّة. لسان العرب (برح).
(8) في الإحاطة (ص ٣٦٣): «شفيت».

ففي معاناة الليالي عائقٌ ... عن التصابي وفنونِ القَلَق[1]
وفي ضمان ما يُعاني المرء من ... نوائبِ الدهرِ مشيبُ المَفرِقِ
هذا لعمري مَعَ أني لم أبتْ ... منها بشكوى روعة أو فَرَقِ[2]
فقد أخذتُ من خطوبِ غَدْرها ... بابن الخطيب الأمنَ مِمّا أتّقي[3]
فخرُ الوزارة الذي ما مثله ... بدرٌ علا من مغربٍ أو مشرق
ومذ أرانيه زماني لم أبَلْ ... مِنْ صَرْفِهِ بمُرْعِدٍ أو مُبْرِقِ[4]
لا سيما منذُ حَطَطْتُ في حمى ... مقامِه[5] الأمنعِ رحلَ أيْنُقي
أيقنتُ أني في رجائي لم أخِبْ ... وأنَّ مسعى بُغْيتي لم يُخفِقِ
ندبٌ له في كلِّ حُسْنٍ آيةٌ ... تناسبتْ في الخَلْق أو في[6] الخُلُقِ
في وجهه مَسْحَةُ بِشرٍ إن بَدَتْ ... تبهرجتْ أنوارُ شمسِ الأفقِ
تُعْتَبَرُ الأبصارُ في اللألاء ما[7] ... عليه مِنْ نور السماحِ المشرق
كالدهر في استينائه وبَطْشِهِ ... كالسيف في حَدِّ الظُّبَا والرونق
إنْ بَخُلَ الغيثُ استهلَّتْ يَدُهُ[8] ... بوابلٍ من غيثِ جُودٍ غدِقِ
وإن وَشَتْ صفحة طِرْسٍ انجلى ... ليلُ دجاها عن سنى مُؤتلق
بمثلها مِنْ حبَراتٍ أخجلتْ ... حواشيَ الروضِ خدودُ المُهْرَقِ
ما راق في الآذان أشنافٌ سوى ... ملتقطاتٍ لفظه المفترق[9]
تودُّ أجيادُ الغواني أن يُرَى ... حليُّها من درّ ذاك المنطق
فسَلْ به هل آده[10] الأمرُ الذي ... حُمِّلَ في شرخ الشباب المونق

---

(١) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٨١): «العُلَقِ».
(٢) الفَرَقُ، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).
(٣) في الإحاطة: «إلاّ من ممّا أتقي».
(٤) في الإحاطة: «من مُرْعد». ولم أُبَلْ: أصله: لم أُبالِ، أي لم أكترث.
(٥) في الإحاطة: «جواره».
(٦) كلمة «في» غير واردة في الإحاطة.
(٧) في الإحاطة: «في لألأتها».
(٨) استهلّت يَدُه: كثر إغداقها، وهنا شبّه اليد بالديمة التي اشتدّ انصبابها على سبيل الاستعارة.
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٢٧): «المخترق».
(١٠) آدَهُ: ثقل عليه. لسان العرب (أدى).

إذا رأى الـرأيَ فـلا يـخـطـئـه يُـمْـنُ اختـيـارٍ لـلـطـريـق الأوفـقِ
إيـهِ أبـا عـبـدِ الإلـه هـاكَـهـا عـذراءَ تـحـثـو فـي وجـوه السُّـبَّـقِ
خُـذْهـا إلـيـك بـكْـرَ فـكـرٍ يـزدري لديك بالأعشى لدى المـحلّقِ[1]
لا زلـتَ مرهوبَ الجناب مُرْتَجَى مَـوصُـولَ عـزّ فـي سُـعُـودٍ تـرتـقـي
مُـبَـلَّـغَ الآمـال فـيـمـا تـبـتـغـي مُـؤمَّـنَ الأغـراض مِـمّـا تـتّـقـي

وابن سلبطور هو: محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور، الهاشمي.

قال في «الإحاطة»[2]: من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله، من وجوه بلده وأعيانه، نشأ نبيهَ البيت ساحبًا بنفسه وبماله ذَيْلَ الحُظْوة، متحلّيًا بخصل من خطّ وأدب، وزيرًا، متجنّدًا، ظريفًا، دَرِبًا على ركوب البحر وقيادة[3] الأساطيل، ثم انحطَّ في هواه انحطاطًا أضاع مروءته، واستهلك عقاره، وهَدَّ بيته، وألجأه أخيرًا إلى اللحاق بالعُدْوة فهلك بها.

وجرى ذكره في «الإكليل» بما نصُّه[4]: مجموع شعر وخطّ، وذكاء عن درجة الظُّرفاء غير مُنْحطّ، إلى مَجادة أثيلة البيت، شهيرة الحي والمَيْت، نشأ في حِجْر التَّرَف والنعمة، محفوفًا بالمالية الجمّة، فلمّا عقل[5] عن ذاته، وترعرع بين لِذَاته، أجرى خيول لذّاته، فلم يَدَعْ منها رَبْعًا إلاّ أقفره، ولا عَقارًا إلاّ عقره، حتى حطّ بساحلها، واستولى بسفر[6] الإنفاق على جميع مراحلها، إلاّ أنه خَلَصَ بنفس طَيِّبة، وسَرَاوة سماؤها صَيِّبَة، وتمتّع ما شاء من زِيرٍ وبَمّ[7]، وتأنّس لم يُغطِ[8] القيادَ لهمّ، وفي عفو اللّه سَعَة، وليس مع التوكل عليه ضَعَة.

---

(١) الأعشى: هو الأعشى ميمون بن قيس. المحلّق: رجل فقير استضاف الأعشى ونحر له وسقاه، ثم شكا له أن له بنات لم يتزوّجْن، فأنشد الأعشى في عكاظ قصيدته القافية يمدح المحلّق ومنها: [الطويل]

تُـشَـبُّ لِـمَـقْـرُورَيـنِ يَـصْـطـلـيـانِـهـا وبات على النار الندى والـمُـحَلَّقُ

فلم يحل الحول حتى تزوجت بنات المحلق كلهنّ. لسان العرب (حلق).

(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٦٠).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٢٨): «وقادة».

(٤) ما يزال النقل مستمرًا عن الإحاطة.

(٥) في الإحاطة: «فلما غفل».

(٦) في الإحاطة: «بسِعْر».

(٧) الزِّيرُ والبَمُّ: من أوتارَ العود. لسان العرب (زير) و (بمم).

(٨) في الإحاطة: «لا يُعْطي».

شعره. من شعره قوله يمدح السلطان، وأنشدها إياه بالمضارب من وادي الغَيْران، عند قدومه[1] ألمرية: [الطويل]

أَثَغْرُك أم سِمْطٌ من الدُّرِّ يُنْظَمُ؟ ... وريقُك أم مِسْكٌ به الراحُ تُخْتَمُ
ووجهُك أم بادٍ من الصبح نَيِّرٌ؟ ... وفَرْعُك أم داجٍ من الليل مُظْلِمُ
أُعَلِّلُ منك الوجدَ والليلُ مظلم ... وهل ينفعُ التعليلُ والخَطْبُ مؤلمُ[2]
وأقنعُ مِنْ طيفِ الخيال بزَوْرةٍ[3] ... لَوَ اَنَّ جفوني بالمنامِ تنعمُ

ثم سرد لسان الدين القصيدة، وهي طويلة[4].

ثم قال: ومن شعره مذيّلاً على البيت الأخير حسبما نُسِب إليه ببلده[5]: [البسيط]

نامتْ جفونُكَ يا سُؤْلي ولم أَنَمِ ... ما ذاك إلاّ لفرطِ الوَجْدِ والسَّقَمِ[6]
أشكو إلى اللّه ما بي من محبّتكم ... فهو العليمُ بما ألقى مِنَ الألمِ[7]
«إن كان سَفْكُ دمي أقصى مرادِكُمُ ... فما غَلَتْ نظرةٌ منكم بسفكِ دمي»

ومِمّا يُنْسَبُ إليه كذلك[8]: [السريع]

قِفْ بي ونادِ بين تلك الطُّلُولْ ... أين الأُلى كانوا عليها نُزُولْ
أين ليالينا بهم والمُنَى ... نَجْنيه غَضًّا بالرضا والقَبُول
لا حُمِّلوا بعضَ الذي حَمَّلُوا ... يومَ تَوَلَّتْ بالقِباب الحُمُولْ
إنْ غِبتمُ يا أهلَ نَجْدٍ ففي ... قلبيَ أنتمْ وضلوعي حُلولْ

---

(١) في الإحاطة: «من ألمرية».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٢٩): «والليل ملتقى». وفي الإحاطة (ص ٢٢): «والخَطْبُ أعظمُ».
(٣) في الإحاطة: «يزورني».
(٤) ورد منها في الإحاطة ١٩ بيتًا.
(٥) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٦٢).
(٦) في الإحاطة: «والألم».
(٧) في الإحاطة: «نلقى من السَّقَمِ».
(٨) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٦٢).

ثم قال: ناب في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرُّنداحي، ووُلّي أسطول المنكّب[1] برهة، وتوفي بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعمائة، رحمه اللَّه تعالى! انتهى.

وقال لسان الدين: كتب إليّ أبو عبد اللَّه بن راجح[2] التونسي بما يظهر من أبياته، وهي[3]: [الطويل]

أما والذي لي في حُلاكَ من الحمدِ ... ومالك ملاّكي لديَّ[4] من الرفدِ
لقد أَشْعَرَتْنِي النفسُ أنك مُعرضٌ ... عن المسرفِ الآتي لفضلك يستجدي[5]
فإنْ زلّةٌ مني بَدَتْ لكَ جهرةً ... فصفحًا فما واللَّه أذنبتُ عن قَصْدِ[6]

فراجعته بقولي[7]: [الطويل]

أُجِلُّكَ عن عَتْبٍ يَغُضُّ من الوُدّ ... وأُكرمُ وَجْهَ العذر منك عن الرَّدِّ
ولكنني أُهدي إليك نصيحتي ... وإن كنتُ قد أهديْتُها ثم لم تُجْدِ
إذا مِقْوَلُ الإنسان جاوَزَ حَدَّهُ ... تحوَّلَتِ الأغراضُ منه إلى الضِّدِّ
فأصبح منه الجِدُّ هَزْلاً مُذَمَّمًا ... وأصبح منه الهَزْلُ في مَعْرِض الجِدِّ
فما اسطعتَ قبضًا للعِنان فإنه ... أحقُّ السجايا بالعَلاء وبالمجدِ[8]

وقال في «الإحاطة» في حق ابن راجح المذكور ما محصّله[9]: محمد بن علي بن الحسن بن راجح، الشريف الحسني باعترافه ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[10] تونسي، أبو

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٢٩): «المركب»، والتصويب عن طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٨٤) والإحاطة (جـ ٢ ص ٣٦٤).
(٢) هو محمد بن علي بن الحسن بن راجح التونسي، من أهل تونس، توفي سنة ٧٦٥ هـ. الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٧١).
(٣) الإحاطة (ص ٥٧٧).
(٤) في الإحاطة: «عليّ».
(٥) في الإحاطة: «لفطرك».
(٦) في الإحاطة: «فما واللَّه إذ كنتُ عن عَمْدِ».
(٧) الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٧٧).
(٨) في الإحاطة: «فما استطعت فيضًا.. بالعُلا والمَجْدِ».
(٩) الإحاطة (ص ٥٧١ ـ ٥٧٢).
(١٠) سورة الأنعام ٦، الآية ١٦٤، وسورة الإسراء ١٧، الآية ١٥، وسورة فاطر ٣٥، الآية ١٨، وسورة الزمر ٣٩، الآية ٧.

عبد اللّه، يعرف بابن راجح، صاحب رُوَاء وأُبّهة، نظيف البزّة، فارهُ المركب، مطفّف مكيال الإطراء، جَمُوحٌ في إيجاب الحقوق، مترامٍ إلى أقصى آماد التوغّل، سخيّ اللسان بالثناء ثرثارُه، مرسلٌ لعنانِهِ في كلِّ المحافل، متواضع متودّد فكهٌ مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة، مخصوص حيث حلَّ من الملوك والأمراء بالأثَرَة، ومِمَّنْ دونهم بالمداخلة والصُّحْبة، ينظم الشّعر، ويحاضر بالأبيات، ويقوم على تاريخ بلده، ويثابر على لقاء أهل المعرفة، والأخذ عن أُولي الرواية. قَدِمَ الأندلس عام خمسين وسبعمائة، مُفْلتًا من الوقيعة بالسلطان أبي الحسن[1]، فمهّد له سلطانُها كَنَف برّه، وآواه إلى سَعَة رَعْيه، وتأكّدت بيني وبينه صحبة. كتبتُ إليه أولَ قدومه بما نصُّه أحذو حذو أبيات ذَكَرَ أنَّ شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها[2]: [الطويل]

أمِنْ جانبِ الغَرْبيِّ نَفْحَةُ بارحِ ... سَرَتْ منه أرواحُ الْجَوَى في الجوارحِ[3]
قَدَحْتُ بها زَنْدَ الغرامِ وإنما ... تجافَيْتُ في دين السُّلُوِّ لقادحِ
وما هي إلاّ نَسْمةٌ حاجريّةٌ ... رَمَى الشوقُ منها كلَّ قلبٍ بِقادحِ[4]
رَجَحْنا لها من غير شكٍّ كأنها ... شمائلُ أخلاقِ الشريفِ ابن راجح
فتى هاشمٍ سبقًا إلى كلِّ غايةٍ ... وصَبْرًا، مُغار الفَتْلِ في كلِّ فادحِ[5]
أصيلُ العلا جَمُّ السيادة، ذكره ... طرازُ نُضَارٍ في بُرُودِ المدائح
وفُرْقانُ مجدٍ يصدعُ الشَّكَّ نُورُهُ ... حَبا اللّه منه كلَّ صَدْرٍ بشارح
وفارسُ ميدانِ البيانِ إذا انْتَضَى ... صحائِفَهُ أَنْسَتْ مضاءَ الصفائح
رقيقٌ كما راقتك نَغْمَةُ ساجعٍ ... وجَزْلٌ كما راعَتْكَ صولةُ جارح
إذا ما احتبى مستحضرًا في بلاغة ... وخوضِ خِضَمِّ القول منه بسابح[6]

---

(١) في الإحاطة (ص ٥٧٢): «أبي الحسن بالجهات الشرقية بأيدي بني زيّان وأحلافهم، فمهّد..».
(٢) الإحاطة جـ ٢ ص ٥٧٢ . ٥٧٣.
(٣) في الإحاطة: «في الجوانح».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٣١): «بفادح».
(٥) في الإحاطة (ص ٥٧٣): «إلى كل عليّة وصبرًا مُعار الحبل في..». ومغار الفتل: الحبل الذي أُحكم فَتْله. والفادح: الخطب الذي يثقل حمله. يقول امرؤ القيس من معلقته: [الطويل]
فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ ... بكلِّ مُغار الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
ديوان امرىء القيس (ص ١٩).
(٦) في الإحاطة: «مستحفزًا في بلاغة وخيض..».

وقد شرعتْ في مجمع الحَفْلِ نحوه ... أَسِنَّةُ حربٍ للعيونِ اللوامح
فما ضَعْضَعَتْ منه لصولة صادعٍ[1] ... ولا ذَهَبَتْ منه بحكمةِ ناصح
تذكَّرْتُ قُسًّا قائمًا في عُكاظِهِ ... وقد غَصَّ بالشُّم الأنوفِ الجحاجح
لِيَهْنِكَ شمسَ الدين ما حُزْتَ من عُلا ... خواتمُهُ[2] موصولةٌ بالفواتح
رعى اللّه ركبًا أطلع الصبحَ مُسْفرًا ... لمرآكَ من فوق الرُّبا والبطائح
ولِلّه ما أهدته كَوْمَاء أوضعت ... برحلك في قفرٍ عن الأُنْس نازح[3]
أقول لقومي عندما حطَّ كورُها ... وساعدها السّعدانُ وَسْطَ الأباطح[4]
ذَرُوها وأرضَ اللّهِ لا تَعْرضوا لها ... بِمَعْرِضِ سوءٍ فهي ناقةُ صالح
إذا ما أردْنا القولَ فيه فَمَنْ لنا ... بطوعِ القوافي وانبعاثِ القرائح
بقيتَ مُنَى نفسٍ وتحفةَ قادمٍ ... ومورِدَ ظمآن وكعبةَ مادح
ولا زلت تلقى البرَّ والرحبَ حيثما ... أرحتَ السُّرَى من كُلِّ غادٍ ورائحِ

فأجابني بما نصُّه[5]: [الطويل]

أَمِنْ مطلعِ الأنوارِ لَمْحَةُ لامحٍ ... تعادُ لمفؤودٍ[6] عن الحيِّ نازحِ
وهل بالمنى من مَوْرد الوصلِ يرتوي ... غليلُ عليلٍ للتواصل جانحِ
فيا فيضَ عينِ الدمع ما لك والحِمَى ... ورُنْدَ الحمى والشِّيحَ شِيحَ الأشايح[7]
مرابعُ آرامي وموردُ ناقتي ... فسقيًا لها سقيًا لناقةِ صالحِ
سَقَى اللّه ذاك الحيَّ وَدْقًا فإنه ... حمى لَمَحَاتِ العين عن لمحِ لامحِ[8]
وأبدى لنا حُورَ الخيام تُزَفُّ في ... حُلى الحسن والحُسْنَى وحَلْيِ الملامحِ
ترى حَيَّ تلك الحور للحور مَهْيَعٌ ... يدلُّ، وهل حَسْمٌ[9] لداء التبارح

(١) في الإحاطة: «صادح».
(٢) في الإحاطة: «خواتمُها».
(٣) هذا البيت غير وارد في الإحاطة.
(٤) في الإحاطة: «المسارح».
(٥) الإحاطة (ج ٢ ص ٥٧٣ ـ ٥٧٥).
(٦) في الإحاطة: «تعارُ لمفقود».
(٧) في الإحاطة (ص ٥٧٤): «المشايح».
(٨) في الإحاطة: «سامح». والوَدْقُ: المطر. لسان العرب (ودق).
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٣٢): «جسمٌ». والمهيع: الطريق الواضح. محيط المحيط (هيع).

ويا دوحةَ الريحانِ هل ليَ عودة لعفر عفارِ الأنس بين الأباطح[1]
وهل أنتِ إلاّ حلّةٌ[2] حاتميّةٌ تغصّ نواديها بغادٍ ورائحِ
أقامَ بها الفخرَ الخطيبُ[3] منابرًا لترتيلِ آياتِ النَّدَى والمنائح
وشَفَّع بالإنجيل حَمْدَ مديحهِ وأوترَ بالتوراة شَفْعَ المدائح
وفرَّق بالفُرْقان كلَّ فريقة نأتْ عن رشادٍ فيه محضُ[4] النصائح
وهل هو إلاّ للبريّةِ مُرْشِدٌ لكلِّ هدًى هادٍ لأرجحِ راجحِ
فبشرى لسانَ الدين ساد بك الورى [5] وأورى الهدى للرُّشد أوضحَ واضحِ
متى قلتَ لم تتركْ مقالاً لقائلٍ وإن لم تَقُلْ لم يُغْنِ مدحٌ لمادحٍ [6]
فمن حامَ بالحيِّ الذي أنتَ ربُّه وعامَ ببحرٍ من عطاياك طافحِ
يحقُّ له أن يشفَع الحَمْدَ بالثنا ويغدو بذاك البحر أسبحَ سابحِ
ويا فَوْزَ مَلْكٍ دُمْتَ صَدْرَ صدوره وبشرى له قد راح أربح رابحِ
بآرائك اللاتي تدلُّ على الهدى وتُبْدي لمن خَصَصْتَ سُبْلَ المناجح
ملكتَ خصال السبق في كلِّ غايةٍ ومُلِّكْتَ ما ملكت يا ابن الجحاجحِ[7]
مطامحُ آمالٍ لأشرفِ هِمَّةٍ أقلُّ مراميها أجلُّ المطامحِ
فدونكها يا مهديَ المدح مدحةً أجبتُ بها عن مدحِ أشرفِ مادحِ
تُهَنِّيك بالعام الذي عَمَّ مدحُهُ[8] مواهبُ هاتيك البحار الطوافحِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «العفو عفار الأنس..». وفي الإحاطة: «الرويحان هل لي عودة لعقر عُقار الأنس..».
(٢) في الإحاطة: «طَلَّةٌ».
(٣) في الإحاطة: «الفخر ابن الخطيب» وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الإحاطة: «معنى».
(٥) في الإحاطة: «فبشراك شمسَ الدين سادَ..».
(٦) في الإحاطة: «حَمْدٌ لمادحٍ». وصدر البيت أخذه من قول حسان في مدح ابن عباس: [الطويل]
إذا قال لم يتركْ مقالاً لقائلٍ بملتقطاتٍ لا ترى بينها فَصْلا
(٧) الجحاجح: جمع جحجاح وهو السيد السمح الكريم. لسان العرب (جحجح).
(٨) في الإحاطة (ص ٥٧٥): «يهنيك... عمَّ حَمْدُه».

فَخُذْهَا سميَّ الفَخْرِ يا خَيْرَ مُسْبِلٍ على الخلْقِ إغضاءً[1] سُتُور التسامح
ودُمْ خاطبَ العَلْيا بها خيرَ خاطبٍ وأتوقَ توّاقٍ وأطمحَ طامحِ

ثم قال لسان الدين[2]: توفي يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمس[3] وستين وسبعمائة، وقد ناهز السبعين، ودَفَنّاه بروضتنا بباب إلبيرة، وأُعفي شارب الشعر من ثاني[4] مِقَصّه، عفا اللّٰه تعالى عنا وعنه! انتهى.

قلت: رأيت بخطّ البدر البشتكي في اختصاره لإحاطة لسان الدين وسمّاه بـ «مركز الإحاطة» في هذا المحلّ ما نصُّه: قال كاتبه: لو وفّق اللّٰه تعالى هذا الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهُذاء، ولعلّ ما في كتاب أبي البركات الذي اسمه «شعر مَنْ لا شعر له» أنزل من هذه الطبقة؛ انتهى.

وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق: وأُعْفِي شارب الشعر من ثاني[4] مقصّه، فللّه درُّه من لوذعي زان خاتم البراعة بفَصّه، فلكم له من عبارة وجيزة يقضي بها ما لم يستطع غيره أن يعبّر عنه بإطنابه، فعلى كل مَنْ يروم التعبير، عَمّا في الضمير، أن يتمسّك بأطنابه.

وقال ابن خاتمة: حدّثني الشريف الأديب أبو عبد اللّٰه بن راجح التونسي مَقْدَمه علينا بألمرية قال: سجن القاضي أبو عبد اللّٰه بن عبد السلام شابًّا وسيمًا لحقّ تعيّن عليه، فأنشدته مداعبًا[5]: [الوافر]

أقاضي المسلمين، حَكَمْتَ حُكْمًا غَدَا[6] وجهُ الزمان له عَبُوسَا
سَجَنْتَ على الدراهم ذا جمال ولم تسجنه إذ غَصَبَ النفوسا[7]

---

(١) في الإحاطة: «أغضا».
(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٧٧).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٣٣): «خمسة» وهو خطأ.
(٤) في الإحاطة: «نابي».
(٥) البيتان لابن خروف الشاعر، وهما في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٨٥)، وقد تقدما في الجزء الثالث ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) في فوات الوفيات: «أتى».
(٧) في فوات الوفيات: «حبست على الدراهم... ولم تحبسه إذ سلب النفوسا».

فأجابني بأن قال: إنما شكاه لي أربابُ الدراهم، دون أرباب النفوس، انتهى.

رجع إلى ما خوطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى:

ومِمّا خاطبه به أبو عبد اللّه العشاب[1] التونسي في بعض الأعياد قوله[2]: [الطويل]

بِيُمْنِ أبي عبدِ الإله محمدٍ ... تَيَمَّنَ هذا القُطْرُ وانسجمَ القَطْرُ[3]

أفاضَ علينا من جزيلِ عطائِهِ ... بحورًا[4] تديمُ المَدَّ ليس له جَزْرُ

وآنسنا لَمّا عَدِمْنا مَغانيًا ... إذا ذُكرتْ في القلب ليس[5] لها ذعرُ

هنيئًا بعيد الفطر يا خيرَ ماجدٍ ... كريمٍ به تسمو السيادةُ والفخر

ودُمْتَ مدى الأيام في ظلِّ نعمةٍ ... تطيعُ لك الدنيا ويَعْنُو[6] لك الدهر

وقال لسان الدين في ترجمة ابن عبد الملك المراكشي ما صورته[7]: وخاطبني بقوله[8]: [الوافر]

وَلِيتَ ولايةً أَحْسَنْتَ فيها ... لِيُعْلَمَ أنها شَرُفَتْ بقدرِكْ

وكم والٍ أساء فقيل فيه ... دنيُّ القَدْرِ ليس لها بِمُدْرِكْ

وقال أيضًا يخاطبني في المعنى[9]: [الوافر]

وَلِيتَ فقيل أحسنَ خَيْرُ والٍ ... ففاق مَدَى مداركها بفضلِهْ[10]

وكم والٍ أساء فقيل فيه[11] ... دَنَا فَمَحَا محاسِنَها بِفِعْلِهْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٣٤): «العتاب». وهو محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب، وهو قرطبي الأصل، تونسي الولادة والمنشأ. ترجمته في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٢٥).

(٢) الأبيات في الإحاطة (ص ٥٢٦).

(٣) في الإحاطة: «بِيُمْن أبي عبد اللّه محمد يُمَن هذا القطرُ..».

(٤) في الإحاطة: «بحورَ الدِّيَم المَدِّ..».

(٥) في الإحاطة: «في القلب من ذكرها عبر».

(٦) يعنو: يخضع. لسان العرب (عنا).

(٧) هو أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسي، من أهل مراكش، وسكن غرناطة. الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٢٧).

(٨) البيتان في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٢٧).

(٩) الإحاطة (ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨).

(١٠) في الإحاطة: «أحسّن خير والٍ فعاق..».

(١١) كلمة «فيه» غير واردة في الإحاطة.

وفي «الإحاطة»[1] ما محصَّلُه أنَّ المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسي، كان شديد الانقباض، محجوب المحاسن، تنبو العين عنه جَهَامة ووَحْشة ظاهرة وغرابة شكل، وفي طي ذلك أدب غضّ، ونفس حرّة، وحديث ممتع، وأبوّة كريمة، أحد الصابرين على الجَهْد، المستمسكين[2] بأسباب الحشمة، الراضين بالخَصَاصة، وأبوه قاضي القضاة نَسِيجُ وَحْدِه الإمام العالم التاريخي المتبحِّر في الآداب[3]، تقلّبت به أيدي الليالي بعد وفاته لِتَبِعَةٍ سُلِّطَتْ على نَشْبه[4]، فاستقرَّ بمالقة مقدورًا عليه، لا يهتدي لمكان فضله إلاّ من عثر عليه. ومن شعره قوله: [السريع]

من لم يَصُنْ في أملٍ وَجْهَهُ ... عنك فَصُنْ وجهكَ عن ردِّهِ
واعرفْ له الفضلَ وعرِّفْ له[5] ... حيثُ أحلَّ النفسَ مِنْ قَصْدِهِ

ثم قال[6]: توفي في ذي القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة، انتهى.

ومِمّا مُدِح به لسان الدين قولُ أبي عبد اللّه محمد المَكُودي الفاسي رحمه اللّه تعالى[7]: [البسيط]

رُحْماكَ بي فلقدْ خَلَّدْتَ في خَلَدي ... هوًى أكابدُ منه حُرْقَةَ[8] الكبدِ
حَلَلْتَ عَقْدَ سُلُوِّي عن فؤاديَ إذ ... حَلَلْتَ منه محلَّ الروح مِنْ جسدي[9]
مرآكَ بدري وذكراكَ التذاذُ فمي ... ودِينُ حُبِّك إضماري ومُعْتقدي
ومن جمالك نورٌ لاحَ في بَصَري ... ومن وِدادك روحٌ حَلَّ في خَلَدِي
لا تحسبنَّ فؤادي عنكَ مُصْطبرًا ... فَقَبْلَ حُبِّكَ كان الصبرُ طَوْعَ يدي

(١) الإحاطة (ص ٥٢٧).
(٢) في الإحاطة: «المتمسّكين».
(٣) في الإحاطة: «الأدب».
(٤) في الإحاطة: «نسبه».
(٥) في الإحاطة: «به».
(٦) الإحاطة (ص ٥٢٨).
(٧) ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن محمد المكودي في الإحاطة (جـ ٣ ص ١٧) وقصيدته الدالية في المصدر نفسه (ص ١٩).
(٨) في الإحاطة: «حرّة».
(٩) في الإحاطة: «في فؤادي.. في جسدِ».

وهاكَ جسميَ قد أودى النُّحُولُ به فلو طَلَبْتَ وجودًا منه لم تجدِ
بما بطرفكَ مِنْ غُنْجٍ ومِنْ حَوَرٍ وما بثغركَ مِنْ دُرٍّ ومِنْ بَرَدِ
كُنْ بين طرفي وقلبي منصفًا فلقد حابيتَ[1] بعضهما فاعدِلْ ولا تَجِدِ
فقال لي: قد جعلتَ القلبَ لي وطنًا وقد قضيتَ على الأجفان بالسُّهُدِ
وكيف تطلبُ عدلاً والهوى حَكَمٌ وحكمُهُ قطُّ لم يعدلْ على أحد
من لي بأغيدَ لا يَرْثِي لذي شَجَنٍ وليس يعرفُ ما يلقاه ذو كمدِ
ما كنتُ من قبلِ إذعاني لسطوته[2] إخالُ أنَّ الرشا يسطو على الأسدِ
إنْ جاء بالوعد لم تَصْدُقْ مواعدُه فإن قنعتُ بزورِ الوعدِ لم يعد
شكوتهُ عِلَّتِي منه فقال[3]: ألا سِرْ للطبيب فما برء الضنى بيدي
فقلتُ: إنْ شئتَ برئي أو شفا ألمي فبارتشافِ لمَاك الكوثريّ جُدِ
وإن بخلتَ فلي مولًى يجودُ على ضعفي ويُبْرِىء ما أَضْنَيتَ مِنْ جسدي[4]

وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب، وكيف لا وقد ملأ من إحسانه الوطاب؟ رحم اللّه تعالى الجميع!

وقال لسان الدين: كتبتُ إلى عبد اللّه اليتيم[5] أسأل منه ما أثبت في كتاب «التاج» من شعره، فكتب إليَّ بهذه الأبيات: [البسيط]

أَمَّا الغرامُ فلم أُخْلِلْ بمذهبِهِ فَلِمْ حَرَمْتَ فؤادي نيلَ مطلبِهِ
يا مُعْرِضًا عن فؤادٍ لم يزلْ كَلِفًا بحبِّه ذا حذار من تجنّبه
قطعتَ عنه الذي عوّدته فغدا وحظّه من رضاه برق خُلَّبِهِ[6]

(١) حابيت بعضهما: نصرته وملت إليه؛ يقال: حابى القاضي في الحكم إذا مال منحرفًا عن الحقّ. لسان العرب (حبا).
(٢) في الإحاطة: «لصولته».
(٣) في الإحاطة: «فقال الأمر للطبيب فما».
(٤) في الإحاطة: «جسدِ».
(٥) هو محمد بن علي بن محمد العبدري اليتيم، توفي سنة ٧٥٠ هـ. ترجمته في الكتيبة الكامنة (ص ٥٩).
(٦) البرق الخُلَّب: الذي يطمع في المطر وليس وراءه مطر، ويضرب مثلاً في الشيء الذي لا منفعة وراءه. لسان العرب (خلب).

أيامَ وصلُكَ مبذولٌ، وبرُّكَ بي | مُجَدَّدٌ، قد صفا لي عذبُ مشربِهِ
وسمع وُدِّكَ عن إفكِ العواذلِ في | شغلٍ وبدرُ الدجى ناسٍ لمغربه
لا أنت تمنعني نيلَ الرضا كَرَمًا | ولا فؤادي بوانٍ في تطلُّبِهِ
للّه عَرْفُكَ ما أذكى تَنَسُّمَهُ | لو كنتَ تمنحني استنشاقَ طيِّبه
أنتَ الحبيبُ الذي لم أتّخذ بدلاً | منه وحاشا لقلبي من تقلّبه
يا ابن الخطيب الذي قد فُقْتَ كلَّ سنا | أزال عن ناظري إظلامَ غيهبه
محمد الحسن في خَلقٍ وفي خُلُقٍ | أكملت باسمكَ معنى الحسن فازْهَ بِهِ
حضرتَ أو غبتَ ما لي عن هواكَ غنًى | لا ينقصُ البدرُ حسنًا في تغيّبه
سيّانِ حالُ التداني والبعادِ، وهل | لمبصرِ البدرِ نيلٌ في ترقّبه
يا من أُحسّنُ ظنّي في رضاه وما | ينفكُّ يهدي قبيحًا من تغضُّبه
إن كان ذنبي الهوى فالقلبُ مني لا | يصغي لسمعِ ملامٍ مِنْ مؤنِّبه

فأجبْتُه بهذه الرسالة، وهي ظريفة في معناها: «يا سيدي الذي إذا رُفعت رايةُ ثنائه تلقَّيْتُها باليَدَيْن[١]، وإذا قُسمت سِهامُ وداده على ذوي اعتقاده كنت صاحبَ الفريضة[٢] والدين، دام بقاؤك لطُرْفة[٣] تُبْدِيها، وغريبة تردفها بأخرى تليها، وعَقيلة بيانٍ تجلِّيها، ونفس أخذ الحزن بكَظْمِها، وكلف الدهر بشت نظمها، تؤنسها وتسلِّيها، لم أزل أشدُّ على بدائعك يَدَ الضنين[٤]، وأقتني درر كلامِكَ، ونفثاتِ أقلامك، اقتناءَ الدرِّ الثمين، والأيام بلقائك تَعِدُ ولا تُسْعِد، وفي هذه الأيام انثالت عليّ سماؤك بعد قَحْط، وتواترت لديّ آلاؤك على شَحْط[٥]، وزارتني من عقائل بيانك كلُّ فاتنة الطرف، عاطرة العَرْف، رافلة في حلل البيان والظرف، لو ضربت بيوتها بالحجاز، لأقرّتْ لها العربُ العاربة بالإعجاز، ما شئت من رصف المبنى، ومطاوعة اللفظ لغرض المعنى، وطيب الأسلوب، والتشبث بالقلوب،

---

(١) أخذ هذا من قول الشماخ بن ضرار في عَرابة الأوسي: [الوافر]
إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ | تلقّاها عَرابَةُ باليمينِ
الشعر والشعراء (ص ٢٣٥).
(٢) الفريضة: الإرث أو الحصّة منه. لسان العرب (فرض).
(٣) الطُّرْفة، بضم الطاء: الغريب المستحسن.
(٤) الضنين: البخيل. لسان العرب (ضنن).
(٥) الشَّحْطُ: البُعْد.

غير أنّ سيدي أفرط في التنزّل، وخلط المخاطبة بالتغزل، وراجع الالتفات، ورام استدراك ما فات، ويرحم اللّه تعالى شاعر المعرّة فلقد أجاد في قوله، وأنكر مناجاة الشوق بعد انصرام حَوْله[1]: [البسيط]

أَبَعْدَ حَوْلٍ تُناجي الشوقَ ناجيةٌ   هلاً ونحن على عشرٍ من العُشَرِ[2]

ولقد تجاوزت في الأمد، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد، فأقسم بأَلِفاتِ القدور، وهَمَزات الجفون السود، وحامل الأرواح مع الألواح، بالغدوّ والرّواح، لولا بُعْدُ مَزارك، ما أمنت غائلة ما تحت إزارك، ثم إني حقَّقت الغرض، وبحثت عن المشكل الذي عَرَضَ، فقلت: للخواطر انتقال، ولكلٍّ مقام مقال، وتختلف الحوائج باختلاف الأوقات، ثم رفع اللبس خَبَرُ الثقات».

ومنها . «وتعرفت ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم، والحنين إلى العهد القديم، فسررت باستقامة حاله، وفضل ماله، وإن لاحظ اللاحظ، ما قال الجاحظ[3]، فاعتراض لا يردُ، وقياس لا يَطّرِدُ، حبّذا واللّه عيشُ التأديب، فلا بالضَّنْك ولا بالجَدِيب[4]، معاهدة الإحسان، ومشاهدة الصور الحسان، يمينًا إن المعلمين، لسادة المسلمين، وإني لأنظر منهم كلّما خطرت على المكاتب، أمَرَاء فوق المراتب، من كل مسيطر الدرة، متقطّب الأسرّة، متنمّر للوارد تنمّر الهرّة، يغدو إلى مكتبه، كالأمير في موكبه، حتى إذا استقلَّ في فرشه، واستوى على عَرْشِه، وترنّم بتلاوة قالونه ووَرْشِه[5]، أظهر للخلق احتقارًا، وأزرى بالجبال وَقَارًا، ورفعت إليه الخصوم، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم، فتقول: كسرى في إيوانه، والرشيد في أوَانِه، أو الحجّاج بين أعوانه، فإذا استولى على البدر السَّرَار، وتبيّن للشهر الغرار، تحرّك إلى الْخَرْج، تحرّك العُود إلى الفرج، أستغفر اللّه مِمّا يشقُّ على سيدي سماعُه، وتشمئزُّ من ذكره طباعه، شيم اللسان، خلط الإساءة بالإحسان، والغفلة من صفات الإنسان، فأي عيش كهذا العيش وكيف حال

---

(١) البيت للمعري وهو في شروح سقط الزند (ص ١١٤).

(٢) الناجية: الناقة السريعة. العشر: شجر، وأراد به هنا المكان الذي ينبت فيه. لسان العرب (نجا) و(عشر).

(٣) يشير إلى ذمّ الجاحظ معلمي الصبيان، ويداعب أبا عبد اللّه اليتيم في رجوعه إلى هذه الحرفة.

(٤) الضَّنْكُ: الضَّيِّق. الجديب: المكان المقفر الذي لا نبات فيه. لسان العرب (ضنك) و (جدب).

(٥) قالون وورش: مقرئان، لكل منهما قراءته الخاصة.

أمير هذا الجيش؟ طاعة معروفة، ووجوه إليه مَصْرُوفة، فإن أشار بالإنصات، لتحقّق القصَّات، فكأنما طمس على الأفواه، ولأم بين الشّفاه، وإن أمر بالإفصاح، وتلاوة الألواح، علا الضجيج والعجيج، وحفّ به كما حفّ بالبيت الحجيج، وكم بين ذلك من رشوة تدسّ، وغمزة لا تحسّ، ووعد يستنجز، وحاجة تستعجل وتحفز، هنأ اللّه سيدي ما خوّله، وأنساه بطيب أُخْراه أوّله، وقد بعثت بدُعَابتي هذه مع إجلال قدره، والثقة بسعة صَدْره، فليتلقّها بيمينه، ويفسح لها في المرتبة بينه وبين خَدينه[1]، ويفرغ لمراجعتها وقتًا من أوقاته عملاً بمقتضى دينه، وفضل يقينه، والسلام».

ثم قال: ومن المداعبة التي وقعت إليها الإشارة ما كتب به صديقه إليه أبو علي[2] بن عبد السلام: [الوافر]

أبـا عـبـدِ الإلـه نـداءَ خِـلٍّ ... وفيّ جاء يمنحكَ النصيحَهْ
إلى كم تألفُ الشبانَ غيًّا ... وخذلانًا، أما تخشى الفضيحَهْ

فأجابه بقوله: [الوافر]

فديتك صاحبَ السِّمَة المليحَهْ ... ومن طابتْ أرومتُهُ الصريحَهْ
ومَنْ قَلْبي وضعتُ له محلاً ... فما عنه يحلُّ بأنْ أزيحَهْ
نأيتَ فدمعُ عيني في انسكابٍ ... وأكبادي لفرقتكُمْ قريحَهْ
وطرفي لا يُتاح له رقاد ... وهل نومٌ لأجفانٍ جريحه
وزاد تشوّقي أبياتُ شعرٍ ... أتت منكُمْ بألفاظٍ فصيحه
ولم تقصدْ بها جدًا، ولكن ... قصدتَ بها مداعبةً وقيحَهْ
فقلت: أتألفُ الشبانَ غيًّا ... وخذلانًا، أَمَا تَخْشَى الفضيحَهْ
ففيهمْ حرفتي وقَوامُ عَيْشي ... وأحوالي بخلطتهمْ نجيحه
وأمري فيهمُ أمرٌ مطاعٌ ... وأَوْجُهُهُمْ مصابيحُ صبيحه
وتعلم أنني رجلٌ حَصُور[3] ... وتعرفُ ذاك معرفةً صحيحه

(١) الخدين: الخدن، الصديق. لسان العرب (خدن).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٣٩): «إليه أبو عبد السلام».

(٣) الحَصُورُ: من انقطع عن النساء وتفرغ للعبادة. وفي القرآن الكريم: ﴿وسَيِّدًا وحَصُورًا﴾. سورة آل عمران ٣، الآية ٣٩. ولسان العرب (حصر).

ثم قال لسان الدين ـ بعد إيراده ما مَرَّ ـ ما صورته: ولَمَّا اشتهر المشيب بعارضه ولمّته، وخفر الدهر صِباه وأذِمّته، أقلع واسترجع، وتألّم لما فرط وتوجّع، وهو الآن من جلّة الخطباء طاهر العِرْض والثوب، خالص من الشَّوْب، بادٍ عليه قبول قابل التوب، وتوفي في أخريات صفر سنة خمسين وسبعمائة في الطاعون، رحمه اللّٰه تعالى وغفر له! انتهى.

واليتيم المذكور هو أبو عبد اللّٰه محمد بن علي العبدري المالقي، وفي حقّه يقول لسان الدين في «التاج» ما مثاله: هو مجموع أدوات حسان، من خطّ ونغمة لسان، أخلاقه رَوْض تتضوّع نسماته، وبِبشره صبح تتألّق قَسَماته، لا تخفى سِمَاته، يُقَرْطِس أغراض الدعابة ويُصْمِيها، ويفوّق سهامَ الفكاهة إلى مَراميها، فكلّما صَدَرَتْ في عصره قصيدة هازلة، أو أبيات منحطّة عن الإجادة نازلة، خَمَّس أبياتها وذيّلها، وصرّف معانيها وسيّلها، وتركها سَمَر الندمان، وأضحوكة الأزمان، وهو الآن خطيبُ المسجد الأعلى بمالَقَة، متحلّ بوقار وسكينة، حالّ من أهلها بمكانة مَكينة، لسهولة جانبه، واتّضاح مقاصده في الخير ومَذاهبه، واشتغل لأوّل أمره بالتكتيب، وبلغ الغاية في التعليم والترتيب، والشباب لم ينصلْ خضابُه، ولا سُلَّتْ للمشيب عِضابُه، ونفسه بالمحاسن كَلِفة صَبَّةَ، وشأنه كلّه هوى ومَحَبَّة، ولذلك ما خاطبه بعضُ أودّائه[1]، وكلاهما رمى أخاه بدائه، حسبما يأتي خلال هذا القول وفي أثنائه؛ انتهى.

وذكر نحو ما تقدّم ذكره، سامح اللّٰه الجميع بفضله!

وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد اللّٰه محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي نزيل مالقة ما صورته[2]: وأنشدني وأنا بمالقة أُحاول لَوْثَ العمامة[3]، وأستعين بالغير على الإحكام لها: [الكامل]

أَمُعَمِّمًا قمرًا تكاملَ حُسْنُهُ ... أربى على الشمس المنيرة في الْبَهَا
لا تلتمسْ مِمَّنْ لديك زيادةً ... فالبدرُ لا يَمْتارُ من نُورِ السُّهَا

---

(١) الأوداء: جمع ودود وهو المحب. لسان العرب (ودد).
(٢) الإحاطة (جـ ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٣).
(٣) لوث العمامة: عصبها ولفُّها. لسان العرب (لوث).

قال لسان الدين[1]: وهو فقيه محدّث متكلّم، ألّف كتبًا منها «الغُرر، في تكميل الطرر» طُرر أبي إبراهيم الأعرج، ثم كتاب «الدُرر، في اختصار الطُّرر» المذكور، وتقييدان على الرسالة، كبيرٌ وصغيرٌ، ولَخَّصَ «التهذيب» لابن بشير، وحذف أسانيد المصنّفات الثلاثة[2]، والتزم إسقاط التكرار، واستدرك الصِّحاح الواقعة في الترمذي[3] على البخاري ومسلم، وقيّد على مختصر الطليطلي، وشرع في تقييدٍ على قواعد الإمام أبي الفضل عياض ابن موسى برسم ولدي. ويصدر منه الشعر مُصَدَّرًا لا تكنفه[4] منه العناية. وكانت له اليَدُ الطولى في عبارة الرؤيا، ومولده بفاس عام تسعين وستمائة، انتهى ملخصًا.

وقال في ترجمة أبي عمرو بن الزبير ما صورته[5]: ومِمّا خاطبني به عند إيابي من العُدْوَة في غرض الرسالة قوله[6]: [الوافر]

نوالي الشكرَ للرحمن فرضا ... على نِعَمٍ كَسَتْ طولاً وعرضَا
وكم للّه من لُطْفٍ خَفِيّ ... لنا منه الّذي قد شا[7] وأمضَى
بِمَقْدَمِكَ السعيدِ أتتْ سعودٌ ... ننالُ بها نعيمَ الدهرِ محضا
فيا بُشْرَى لأندلسٍ بما قد ... به والاك بارينا[8] وأَرْضَى
ويا للّه من سفرٍ سعيد ... قَدَ اَقرضك[9] المهيمنُ فيه قَرْضا
ورحتَ بنيَّةٍ أخلصتَ فيها ... فأُبْتَ بكلِّ ما يبغى ويرضى[10]
وثُبْتَ لنصرة الإسلام لمّا ... علمتَ بأنَّ الأمرَ إليكَ أفضى[11]

---

(١) الإحاطة (ج ٣ ص ١٣٠، ١٣٢ . ١٣٤).
(٢) في الإحاطة (ص ١٣٢): «الثلاثة، البخاري والترمذي ومسلم، والتزم. .».
(٣) في الإحاطة: «الواقعة في التهذيب على مسلم والبخاري. .».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٤١): «تكيفه».
(٥) هو أبو عمرو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير، المتوفّى سنة ٧٦٥ هـ. ترجمته في الإحاطة (ج ٣ ص ١٥٦).
(٦) الإحاطة (ص ١٥٧ . ١٥٨).
(٧) في الإحاطة: «يشاء». وأصل القول: شاء، فحذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٨) بارينا: أصلها: بارئنا، وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية.
(٩) في الإحاطة (ص ١٥٨): «أقْرَضتَ المهيمن».
(١٠) في الإحاطة: «نهضت بنيّة. . . فأُبت بكلّ. .».
(١١) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٤١): «إليك علمت أن الأمر إليك أفضى».

لقد أحييت بالتقوى رُسُومًا ... كما أرضيتَ بالتمهيد أَرْضا
وقُمْتَ بِسنَّةِ المختارِ فينا ... تُمَهِّدُ سُنَّةً وتُقِيمُ فَرْضا
ورُضْتَ[1] من العلوم الصَّعْبَ حتى ... جَنَيتَ ثمارَها رَطْبًا وغَضًّا
فرأيُكَ راجحٌ[2] فيما تراه ... وعَزْمُكَ من مواضي الهند أمضى
تُدَبِّرُ أمرَ مولانا فيلقى الـ ... ـمُسِيءُ لديك إشفاقًا وإغْضَا[3]
فأعْقَبْنا شفاء[4] وانبساطًا ... وقد كانت قلوبُ الناس مرضى
ومن أضحى على ظمإ وأمسى ... يَرِدْ إن شاء من نُعْماك حَوْضا[5]
أبا عبد الإله إليكَ أشكو ... زماني حين زاد الفقرُ عضًّا[6]
ومِنْ نُعْماك أستجدي لباسًا ... تُفِيضُ[7] به عليَّ الجاهَ فيضا
بقيتَ مُؤَمَّلاً تُرْجَى وتُخْشَى ... ومِثْلُكَ من إذا ما جاد أَرْضى

وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبوه الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير أستاذ الزمان شيخ أبي حيان وغيره. وقال في «الإحاطة» في حقّه[8]: إنه فكه، حسن الحديث، ركَضَ طرْفَ الشبيبة في ميدان الراحة، منكِّبًا عن[9] سنن أبيه وقومه، مع شفوف إدراك، وجودة حفظ، كانا يُطمعان والده في نجابته، فلم يعدم قادحًا، شَرَّق[10] فنال حظوة، وجرت عليه خطوب. ثم عاد إلى الأندلس، فتطور بها، وهو الآن قد نال منه الكِبَر يُزْجي لوقته بمالقة متعلّلاً برَمَق من بعض الخدم المخزونية[11]، استجاز له والده الطم

---

(١) رُضْتَ: ذلّلت ومهّدت. لسان العرب (روض).
(٢) في الإحاطة: «ناجح».
(٣) إغضا: أصلها: إغضاء، فحذفت الهمزة للضرورة الشعرية.
(٤) في الإحاطة: «شفًا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الإحاطة: «خوضا».
(٦) رواية عجز البيت في الإحاطة هي: «حين ناب الفَقْر عَضًا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٧) في الإحاطة: «يفيض».
(٨) الإحاطة (ج ٣ ص ١٥٦).
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٤٢): «على».
(١٠) في الطبعة نفسها: «قادحًا في شرف، فنال». وفي الإحاطة: «ورحل إلى العدوة، وشرّق..».
(١١) في طبعة عبد الحميد (ص ٢٤٢): «المخزونية»، والمخزنية: نسبة إلى المخزن.

والرم من أهل المغرب والمشرق، وبضاعته في الشعر مُزْجَاة. ثم قال[١] : مات تاسع المحرم عام خمسة وستين وسبعمائة؛ انتهى.

وقال في ترجمة أبي يحيىٰ محمد بن أحمد بن محمد بن الأكحل ما صورته[٢] : شيخ هدوري[٣] الذقن، خدوع الظاهر، خلوب اللفظ، شديد الهوى إلى الصوفية، والكلف بإطراء أهل الخير، من بيت صَوْن وحشمة، متقدّم في معرفة الأمور العلمية، خائض في غمار التصوّف، وانتحال كيمياء السعادة، راكب مَتْن دعوى عريضة في مَقام التوحيد، تُكَذِّبُها أحواله الراهنة، لمعاصاة خلقه على الرياضة، واستيلاء الشَّرَه، وغلبة[٤] سلطان الشهوة، والمَشاحة أيام الولاية، والسباب[٥] الشاهد بالشدّة، والحلف المتصل بياضَ اليوم في ثمن الخَرْدلة باليمين التي[٦] فيها فساد الأنكحة، والغضب الذي يقلب العين. خاطبني بين يدي نكبته ولم أكن أظنّ الشِّعْر مِمّا تلوكه جَحْفَلته[٧]، ولكنه من أهل الكفاية: [الطويل]

رجوتك بَعْدَ اللّه يا خيرَ مُنْجدٍ ... وأكرمَ مأمولٍ وأعظمَ مُرْفِدِ[٨]
وأفضلَ مَنْ أمّلْتُ للحادث الذي ... فقدتُ به صبري وما مَلَكت يدي
وحاشا وكلاً أن يخيبَ مؤمّلي[٩] ... وقد عَلِقَتْ بابن الخطيب محمد
وما أنا إلاّ عبدُ نعمته[١٠] التي ... عهدتُ بها يُمْنِي وإنجاحَ مقصدي
وأشرفُ من حَضّ الملوك على التُّقى ... وأبدى لهم رشدًا نصيحة مرشدِ[١١]

---

(١) الإحاطة (ص ١٥٨).
(٢) الإحاطة (جـ ٣ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٩): «هيدوري». ولعلّ كلمة «هدوري» من قولهم: هدر النبت إذا كثر وطال.
(٤) في الإحاطة (ص ٢٠٥): «وغلب».
(٥) في الإحاطة: «والشباب».
(٦) في الإحاطة: «التي تجرّ فساد».
(٧) الجَحْفلة للدابة بمنزلة الشفة للإنسان. لسان العرب (جحفل).
(٨) في الإحاطة: «راجوتك بعد الله. . .». والمُرْفِدُ: المُعْطي. لسان العرب (رفد).
(٩) في الإحاطة: «ماملي».
(١٠) في الإحاطة: «أنْعُمه».
(١١) في الإحاطة: «نصحًا وصيّة مرشد».

وساسَ الرعايا الآنَ خيرَ سياسةٍ ... مباركةٍ في كلِّ غيب ومشهدِ[1]
وأعرض عن دنياه زُهْدًا وإنها ... لمظهرةٌ طوعًا له عن تَوَدُّدِ
وما هو إلاَّ الليثُ والغَيثُ إن أتى ... له خائفٌ أو جاء مَغْناه مُجْتدي [2]
وبحرُ علومٍ دُرُّه كلماتُه ... إذا رُدِّدَتْ في الحفل أيَّ تردُّد
صقيلُ مرائي[3] الفكرِ ربُّ لطائفٍ ... محاسنُها تُجْلَى بحسنِ تَعَبُّد
بديعُ عرُوجِ النفس للملإ الذي ... تجلَّتْ له الأسرارُ في كلِّ مَصْعد
شفيقٌ رفيقٌ دائمُ الحلمِ راحمٌ ... ورأيٌ جميلٌ للجميل معوَّدِ
صفوحٌ عن الجاني على حين قدرةٍ ... مواصِلُ[4] تقوى اللّه في اليوم والغد
أيا سيدي يا عُمْدتي عند شدّتي ... ويا مشربي[5] مهما ظمئتُ ومَوردي
حنانيك وألطُفْ بي وكُنْ ليَ راحمًا ... ورفقًا على شيخٍ ضعيفٍ مُكَنَّدِ
رَجاك رجاء[6] للذي أنت أهلُه ... ووافاك يُهْدي للثناء المُجَدَّدِ
وأمَّكَ مضطرًا لرحماك شاكيًا ... بحالٍ كحرِّ الشمسِ حال توقّد[7]
وعندي افتقارٌ لا يزالُ[8] مواصَلاً ... لأكرم مولى حاز أجرًا وسَيِّدِ
ترفَّقْ بأولادٍ صغار بكاؤهم ... يزيدُ لوقع الحادث المتزيِّد
وليس لهم إلاَّ إليك تَطَلُّعٌ ... إذا مَسَّهم ضُرٌّ أليمُ التعهُّدِ
أَنِلْهُمْ أيا مولايَ نظرةَ مُشْفِقٍ ... وجُدْ بالرضا وانظرْ لشملٍ مُبَدَّدِ
وعامِلْ أخا الكربِ الشديدِ برحمةٍ ... وأَسْعِفْ بِغُفْرانِ الذنوب وأسعِدِ[9]
ولا تَنْظُرَنْ إلاَّ لفضلك، لا إلى ... جريمةِ شيخ عن محلِّك مُبْعَدِ
وإن كنتُ قد أذنبتُ إنيَ تائبٌ ... فعوِّدْ[10] ليَ الفعلَ الجميلَ وجدِّدِ

---

(١) المشهد: الحضور، لسان العرب (شهد).
(٢) المجتدي: طالب النوال والعطاء. لسان العرب (جدا).
(٣) في الإحاطة (ص ٢٠٦): «مرأى».
(٤) في الإحاطة: «يواصل».
(٥) في الإحاطة: «ويا شربي متى ظميت..».
(٦) في الإحاطة: «رجا الذي».
(٧) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٠٠): «حَرّ تَوَقُّد». وفي الإحاطة: «كحرّ الجمر حين توقّد».
(٨) في الإحاطة: «افتقار لأنوال..».
(٩) في الإحاطة: «وقابل أخا الكره الشديد.. وأبعدِ».
(١٠) في الإحاطة: «فعاود».

بقيتَ بخيرٍ لا يزالُ[1] وعزةٍ وعيشٍ هنيء كيف شئت وأسعد
وسَخَّرك الرحمنُ للعبد؛ إنه لمثنٍ وداعٍ للمحلّ المُجَدَّد[2]

ثم قال: وهو الآن من مسطري[3] الأعمال على تهوّر واقتحام كَبْرةٍ[4]، من خطّ لا نهاية وراءه في الركاكة، كما قال المعري [5] : [الوافر]

تَمَشَّتْ فوقه حُمرُ المَنايا ولكنْ بعد ما مُسِخَتْ نمالا [6]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عياش بن مشرف الأمي: إنه من أهل الأصالة والحسب، ظهرت منه على حداثة السّنّ أبيات، ونُسب إليه شعر توسّل به، وتصرّف في الإشراف، فحمدت سيرته، وكَتب إلي بقوله: [الكامل]

سَفَرَتْ شموسُ اليُمْنِ والإقبالِ وبَدَتْ بُدُورُ السعدِ ذات كمالِ
لِقُدُومِ سيِّدنا الوزيرِ محمدٍ أعززْ به من سيّدٍ مفضال
قمرٌ تجلّى بَين زُهْرٍ تجتلي يهدي لفعلِ الخيرِ لا الإضلال
سِرْ آمنًا لا تكترثْ، فلأنت في حفظِ الإله الواحدِ المتعالي
برًّا وبحرًا لا تخافُ مُلِمَّةً وعدوّ ذاتك خَلْفَ ظهرك صالي
لا يستقرُّ له قرارٌ بعدكم مِمّا يحلُّ به من الأوجالِ
والآن ترجعُ سالمًا ومبشّرًا ببلوغ كلِّ مسرّةٍ ومنال

وهي طويلة، نَمَطُها متخلّف عن الإجادة، وهي من مثله مِمّا يُسْتظرف؛ انتهى.

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد العراقي الوادي آشي[7]: فاضل الأبوة، بادي الاستقامة، حسن[8] الأخلاق، تولّى أعمالاً، كتب إليّ وقد أبى عملاً عُرض عليه بقوله: [الطويل]

(١) في الإحاطة: «بخير لأنوال..».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٠٠): «الممجّد». وفي الإحاطة: «لمتن وداع».
(٣) في الإحاطة: «من مسيطري ديوان الأعمال».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٤٤): «كبره».
(٥) شروح سقط الزند (ص ١٠٤).
(٦) في شروح السقط: «ودَبّتْ فوقه». والبيت في وصف السيف، ويقول فيه: إنَّ إفرنده كأنما دبّت فوقه النمل.
(٧) الإحاطة (جـ ٣ ص ٢٥٥).
(٨) في الإحاطة: «دمث الأخلاق».

أأَصمتُ أَلفًا ثم أنطقُ بالخُلْفِ وأفقدُ إلفًا ثم آنسُ بالجِلْفِ
وأُمسكُ دهري ثم أُفطرُ[1] عَلْقمًا ويَمْحَقُ بدري ثم أُلحقُ بالخسف
وعزّكُمُ لا كنتُ بالذلّ عاملاً ولو أنَّ ضَعْفي ينتهي بي إلى الحَتْفِ[2]
فإن تُعملوني في تَصَرُّف عزةٍ وعدلٍ وإلاّ فاحسموا علّةَ الصَّرْفِ
بقيت وسُحْبُ العفو منكم تُظِلُّني وحظُّ ثنائي دائمًا ثانيَ العِطْفِ[3]

وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي ما صورته[4]: وخاطبني لما وليت خطّة الإنشاء وغيرها في أواخر عام تسعة وأربعين وسبعمائة بما نصُّه: [الطويل]

حُشَاشةُ نَفْسٍ أعلنتْ لمذيبها بتذكارِ أيامِ الوصال وطِيْبِها
ونادته رحمى أختها[5] نَفَسَ مدنفٍ تموتُ إذا لم تحيِها بوجيبها
فداوِ بقربٍ منكَ لاعِجَ وجدها وفيضَ أماقيها وطولَ نحيبها
وقد بلغت حَدًّا به صحَّ في الهوى وأحكامِهِ ثوبُ الضنى في نصيبها
وهل يتداوى داءُ نفسٍ تعيسةٍ إذا كان يومًا داؤها من طبيبها
لعلَّ أُوارَ الوَجْدِ تخمدُ نارُهُ فيبردَ عنها ما بها من لهيبها
إليك حَداها الشوقُ يا بَدْرَها الذي يَعزُّ عليها منه طولُ مَغيبها
سلكتَ بها سبل الهوى فهي تبتغي لقاك وتبغي غفلةً من رقيبها
أَجِبْها بإبقاء عليها فإنها ستفنى إذا لم تكنْ بمجيبها
ومِلْ نحوها بالودِّ فهي قَدَ أذعنت كما تذعنُ الأقلامُ لابن خطيبها
وحيد الزمانِ الماهر الباهر الحلى وجهبذ آدابِ العُلا وأديبها
إمامُ معاليها، وبحرُ علومها وبَدْرُ دياجيها، وصَدْرُ شعوبها
مُصَرِّفُها كيف انثنتْ ومعيدها ومبدئها حيث انتهتْ ومصيبها

---

(١) في الإحاطة: «ثم أنطق».
(٢) في الإحاطة: «ضعفي ينتمي إلى حَتْفِ»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٠٢): «بقيتم وسُحْبُ..». وفي الإحاطة: «وسحب العطف.. وعطف ثناتي دائمًا..».
(٤) هو عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي، المعروف بابن المرابع؛ من أهل بِلّش، توفي سنة ٧٥٠ هـ. ترجمته في الإحاطة (ج ٣ ص ٤٢١).
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٠٢): «رحمى أحيها»، وهكذا ينكسر الوزن.

ورافعُ أعلامِ البلاغةِ والذي أتى ناثرًا أو ناظمًا بعجيبها
وحاملُ راياتِ الرياسةِ رفعةً قضى المجدُ تخصيصًا له بوجوبها
مِنَ الغُرِّ مِمَّنْ أوجبتْ لشبابها معاليهمُ الفضلَ العظيمَ وشِيبِها
مِنَ أبناء أرباب الزمان الألى بها[1] سما فخرهُم بين الورى بركوبها
خلالُ ابن عبد الله طود الحِجَا أبي محمدٍ بادٍ حُسْنُها من ضروبها
أجاد وأجدى فاسْلُ عن ذكر طيّىء وحاتمها زَهْوًا به وحبيبها[2]
ففي كلِّ ما يبدي محمدُ عبرةٌ محاسِنُها تنبي بسرِّ غُيوبها
تجيبُ القوافي إن دعا ببعيدها وتنقادُ طوعًا إن دعا بقريبها
تخيَّر أخلاقَ الكرام فلم يكن نهًى ولُهًى[3] يَرْضَى بغير رحيبها
تقدَّم في دار الخلافة حاجبًا لينجدَها في سلمها وحروبها
وقام لها في ساحة العزّ كاتبًا بمحضرها أسرارها ومَغيبها
فأبدى مِنَ أنواعِ الفضائل أوْجُهًا تقرُّ لها بالحسنِ عينُ لبيبها
هنيئًا به يمنًا بأسعدِ ماثلٍ لغرناطةِ قاضٍ بصرفِ خطوبها
فللسعد تأثيرٌ يجيء إذا جرى به قَدَرٌ كالريح عند هبوبها
أموقدَ نارِ الفكر يقدحُ زندها فيسبي به الألبابَ سحرُ نسيبها
حَدَاني إليك الحبُّ قِدْمًا ومال بي حديثٌ لآمال خَلَتْ عن غريبها
فقدّمتها نظمًا قوافيَ قصرت لديكَ بذاوِي فكرتي ورطيبها
وكنتُ كمنْ وافى لدى الدار بالحصى يرقِّعُ منها ساهيًا عن عيوبها
فَصِلْها وخُذْ بالعفو فيها فلم أصِلْ لأبلغَ منها فاغتفرْ من ذنوبها

وصاحب هذا النظم من أهل بلش، وله اقتدار على النظم والنثر؛ قال في «الإحاطة» ما محصّلُه[4]: وممّا وقع له أثناء مقامات وأغراض تشهد باقتداره مهملاً: [المتقارب]

رَعَى اللّهُ عَهْدًا حوى ما حوى لأهل الودادِ وأهلِ الهَوَى

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٠٣): «أرباب المنابر والأُلى».
(٢) حبيب: هو أبو تمام حبيب بن أوس، وهو من طيّىء.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٤٦): «بها ولها».
(٤) الإحاطة: (ج ٣ ص ٤٢٤).

أراهُــمْ أمــورًا حَــلا وِرْدُهــا وأعطاهُـمُ السـؤلَ كـلاًّ سـوا[1]
ولَـمّا حـلا الـوصـلُ صـالوا لـه ورامــوه مــأوى ومــاءً رِوَا[2]
وأوردهــم سِــرَّ أســرارهــم وردًّ إلـــى كـــلّ داء دَوا[3]
ومــا أَمَــلٌ طــالَ إلاَّ وهــى ومـا آمـلٌ[4] صـال إلاَّ هـوى

وقال معجمة: [الخفيف]

بثُّ بيني يَبثّني فيض جَفْني شَغَفي شفَّني فَشِبْتُ بِبَيْني
فَتَنَتْني بِغُنْجٍ ظبيٍ تجنَّى تَبْتَغي نَقْضَ نيّتي بتجنّي
بـزّةٌ زَيّـنَـتْ قـضـيـبَ تـثـنّي قُضِيَتْ بُغْيَتي ففزتُ بفنٍّ
خفتُ تشتيت بنيتي فَجَفَتْني ثـقـةٌ تَـنْـثَـني فَـخُـيِّـبَ ظـنّـي

وقال كلمة وكلمة: [الخفيف]

الـهوى شقّني وأهملَ جفني أدمعًـا تنـثـني دَمًـا بِـتَـثـنـي
أَحْـوَرٌ شَـبٌّ حَـرَّ بـشـيَ لَـمّـا نقضَ العهدَ بين طول تجني
حـاكـمٌ يُـتَّـقـى ولا ذنـبَ إلاّ شغفٌ لم يَخِبْ لمسعاه ظني
ما له ينقضُ العهودَ فيشجي ولـهَا يـنـثـني مُـسَـهَّـدَ جَـفْـنِ
لـم يـجـزْ وصـلـه فبثُّ محالاً يقتضي حلٌّ بغيتي كلُّ فَنِّ

وقال يرثي ديكًا فَقَدَه، ويصف الوجد الذي وَجَدَه، ويبكي عدم أذانه، إلى غير ذلك من مستظرف شانه[5]: [البسيط]

أودى[6] به الحَتْفُ لَمَّا جاءه الأجلُ ديـكًـا فـلا عِـوَضٌ مـنـه ولا بَـدَلُ
قد كان لي أملٌ في أن يعيشَ فلم يَثْبُتْ مع الحَتْفِ في بُقْياه[7] لي أملُ

---

(١) في الإحاطة: «السؤل كيف نوا».
(٢) في الإحاطة: «وراموه ملْوًا وما رَوا». والرِّوى: الماء الكثير المروي. لسان العرب (روا).
(٣) في الإحاطة: «سرًا سِرارهم ورُودًا إلى الكل ذا دوا».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٤٧) والإحاطة: «أمل».
(٥) الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٢٤ - ٤٢٥).
(٦) في الإحاطة: «أوودى».
(٧) في الإحاطة: «في بُغْيا لها أملٌ».

فَقَدْتُه فَلَعَمْري إنها عِظَةٌ وبالمواعظ تُذْري دَمْعَها المُقَلُ
ما كان أبدعَ مرآه ومنظرَهُ وَصْفًا به كلَّ حين يُضْرَبُ المَثَلُ[1]
كأنَّ مُطْرَفَ وشيٍ فوق ملبسه عليه من كلِّ حُسْنٍ باهرٍ حُلَلُ
كأنَّ إكليلَ كِسْرَى فوق مَفْرِقِهِ وتاجَه فهو عالي الشَّكل مُحْتَفلُ
مُوَقِّتٌ لم يكنْ يُعْزَى له خطأ فيما يُرَتِّب من وِرْدٍ ولا خَلَلُ[2]
كأنَّ زرقال[3] فيما مَرَّ عَلَّمه عِلْمَ المواقيت مِمَّا رَتَّب الأُوَلُ
يرحِّلُ الليلَ، يحيى بالصراخ فما يصدُّه كَلَلٌ عنه ولا مَلَلُ
رأيته قد وَهَتْ منه القُوَى فهوى للأرض فعلاً يُريه الشاربُ الثَّمِل
لو يُفْتدى بديوكِ الأرضِ قلَّ له ذاك الفداءُ[4] ولكن فاجأ الأجلُ
قالوا الدواءَ فلم يُغْنِ الدواءُ ولم ينفعْه من ذاك ما قالوا وما فعلوا
أمَّلْتُ فيه ثوابًا أجْرَ محتسبٍ إن نلْتُ[5] ذلك صحَّ القولُ والعملُ

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النَّصْريين، وقد نظر إلى شلير وقد تردّى بالثلج وتعمّم، وكمل ما أراد من بزّته وتمّم، أن ينظم في وصفه، فقال بديهًا[6]: [الطويل]

وشيخٌ جَليلُ القَدْرِ قد طال عمرُهُ وما عنده عِلْمٌ بطولٍ ولا قِصَرْ
عليه لباسٌ أبيضٌ باهرُ السَّنا وليس بثوبٍ أَحْكَمَتْهُ يَدُ البَشَرْ
فطورًا تراه كلُّه كاسيًا به وكُسْوَتُه فيها لأهل النُّهى عِبَرْ
وطورًا تراه عاريًا ليس يكتسي[7] بحرّ ولا بردٍ من الشمس والقمرْ
وكم مَرَّتِ الأيامُ وهو كما ترى على حاله لم يشكُ ضعفًا ولا كِبَرْ

---

(١) هذا البيت غير وارد في الإحاطة.
(٢) في الإحاطة: «بطريق له خطأ.. ولا خَطلُ».
(٣) في الإحاطة «زرقيل». وهو أبو إبراهيم بن يحيى النقاش الزرقالي القرطبي، ويعتبر أعظم أهل الفلك، وقد وضع جداول فلكية واخترع أجهزة دقيقة كالزرقالية، والصفيحة. تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٥١).
(٤) في الإحاطة: «الفدا».
(٥) في الإحاطة (ص ٤٢٥): «إنْ قلتُ».
(٦) الأبيات في الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٢٥).
(٧) في الإحاطة: «يشتكي لحرّ..».

وذاك شليرٌ شيخُ غرناطةَ التي لبهجتها في الأرض ذكرٌ قد اشتهر[1]
بها ملك سامي المراقي، أطاعه كبارُ ملوكِ الأرضِ في حالة الصّغر
تولاّه ربُّ العرشِ منه بِعِصْمَةٍ تَقِيهِ مَدَى الأيام مِنْ كلِّ ضَرز

وتوفي المذكور في بلده بلش في طاعون عام خمسين وسبعمائة، انتهى.

وقال في «الإحاطة» في ترجمة صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبي القاسم بن رضوان النجاري[2] ما صورته: ولمّا ولي الإنشاء بباب ملك المغرب ظهر لسلطاننا بعض قصور في المراجعات، فكتبت إليه[3]: [الطويل]

أبا قاسمٍ[4]، لا زلتَ للفضلِ قاسمًا بميزان عدلٍ ينصرُ الحَقَّ مَنْ نَصَرْ
مدادُكَ وهو المِسْكُ طيبًا ومنظرًا وإلاّ سوادُ القلبِ والفَوْد والبَصَرْ[5]
عهدناه في كلِّ المعارف مطنبًا فما باله في حُزْمة[6] الوُدِّ مختصرْ
أظنّكَ في ليلِ الوصالِ انتخبْتَهُ إلينا، وذاك الليلُ يُوصَفُ بالقِصَرْ
أردْنا بك العذرَ الذي أنتَ أهلُهُ ومثلك[7] لا يُرْمَى بعيّ ولا حَصَرْ

فراجعني، ولا أدري أهي من نظمه أم نظم غيره: [الطويل]

حقيقٌ أبا عبد الإله بكَ الذي لمذهبِهِ في البرّ يتّضحُ الأثَرْ
وإنَّ الذي نَبَّهْتَ مني لم يكنْ نؤومًا وحاشا الودّ أن أغمطَ الأثَرْ
ورُبَّ اختصارٍ لم يَشِنْ نظمَ ناظمٍ وربَّ اقتصار[8] لم يعبْ نَثْرَ مَنْ نَثَرْ

---

(١) في الإحاطة: «فذاك شلير.. قد انتشر».
(٢) هو عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجاري، وترجمته في الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٤٣) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥٤) ونيل الابتهاج (ص ١٢٣) والتعريف بابن خلدون (ص ٢٠، ٤١) وجذوة الاقتباس (ص ٢٤٧).
(٣) الأبيات وجوابها في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥٦).
(٤) في الكتيبة: «أبا قاسمًا».
(٥) في الكتيبة: «سواد الفَوْدِ والقلب والبصر». والفَوْدُ: جانب الرأس مما يلي الأذنين. لسان العرب (فود).
(٦) في الكتيبة: «في حومة».
(٧) في الكتيبة: «فمثلك».
(٨) في الكتيبة: «وربّ اقتضاب».

وعذرك عني من محاسنك التي نظام حلاها في الممادح ما انتثرْ
ومن عرفَ الوصفَ المناسبَ مُنصفًا تأتّى[1] له نهجٌ من العذرِ ما دثرْ

وهو عبد اللّه بن يوسف بن رضوان [بن يوسف بن رضوان][2] النجاري، من أهل مالقة، صاحب العلامة العلمية[3]، والقلم الأعلى بالمغرب، قرأ على جماعة منهم بتونس قاضي الجماعة ابن عبد السلام. قال في «التاج» فيه أيامَ لم يفهق[4] حوضه، ولا أزهر روضه، ما نصُّه: أديب أحسن ما شاء، ومنح قليبه فملأ الدول وبَلَّ الرِّشاء[5]، وعانى على حَدَاثته الشعر والإنشاء، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة، ومجد وديانة، ونشأ هذا الفاضل على أتمّ العفاف والصَّوْن، فما مال إلى فساد بعد الكون، وله خطّ بارع، وفهم إلى الغوامض مسارع، وقد أثبتُّ من كلامه، ونَفَثَات أقلامه، كلَّ محكم العقود، زارٍ بابنة العُنقُود، فمن ذلك قوله[6]: [الطويل]

لعلّكما أن ترعيا لي وَسائِلا[7] فباللّه عُوجَا بالرُّكابِ وسائلا

ومنها:

لقد جارَ دهري إذ نأى بمطالبي وظلَّ بما أبغي من القُرْب ماطلا[8]
عتبتُ عليه فاغتدى ليَ عاتبًا وقال: أَصخْ لي لا تكنْ قَطُّ[9] عاذِلا
أَتَغْتِبُني أن قد أَفَدْتُك موقفًا لدى أعظم الأملاك حِلْمًا ونائلا
مليكٌ حَباه اللّه بالخُلُقِ الرِّضا[10] وأعلى له في المَكْرمات المنازلا

وهي طويلة[11].

---

(1) في الكتيبة: «تراءى».
(2) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٥٠).
(3) في طبعة عبد الحميد: «العلمية».
(4) فهق حوضه: امتلأ. لسان العرب (فهق).
(5) القليب: البئر. الرِّشاء: الحبل. لسان العرب (قلب) و (رشا).
(6) الأبيات في الإحاطة (ج ٣ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦).
(7) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٥٠): «مسائلاً».
(8) في الطبعة نفسها: «لقد خان دهري». وفي الإحاطة (ص ٤٤٦): «وظلّ بما أبقى..»
(9) في الإحاطة: «لا تكن لي عاذلاً».
(10) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٥٠): «بالخُلُق والرِّضا».
(11) ورد منها في الإحاطة ٣٣ بيتًا.

ومن نظم ابن رضوان المذكور[1]: [الطويل]

تبَرَّأتُ من حَوْلي إليك وأيْقَنَتْ برحماكَ آمالي أصحَّ يقينِ[2]
فلا أرهبُ الأيامَ إذ كنتَ ملجأ وحَسْبي يقيني باليقين يقيني[3]

وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدير فقال من أبيات[4]: [الكامل]

ولربَّ يوم في حِماكَ شهدْتُهُ والسَّرْح[5] ناشرةٌ عليك ظِلالَها
حيثُ الغديرُ يريك من صفحاته درعًا تجيدُ به الرياحُ صِقالَها
والمنشآتُ به تديرُ حبائلاً للصيد في حِيَلٍ تديرُ حبالها[6]
وتُرِيكَ إذ يُلْقي بها اليمُّ الذي أخفتْ جوانحه وغاب خلالها
فحسبْتُها زَرَدًا وأنَّ عواليًا تركَتْ به عند الطعان نِصالها

وقال فيه أيضًا: [الكامل]

أبصرتُ في يوم الغدير عَجائبًا جاءتْ بآياتِ العجائبِ مُبْصِرَةْ
سمكًا لدى شَبَكٍ فَقُلْ ليلٌ بَدَتْ فيه الزواهرُ للنواظر نَيِّرَةْ
فكأنَّ ذا زَرَدٌ تضاعفَ نسجُهُ وكأنَّ تلك أسِنَّةٌ متكسِّرَةْ

ومِمّا نظمه عن أمر الخلافة المستعينة لِيُكْتَبَ في طُرّة قبّة رياض الغزلان من حضرته[7]: [البسيط]

هذا مَحَلُّ المنى بالأمن مَعْمُورُ[8] مَنْ حلّه فهو بالآمالِ مجبورُ
مأوى النعيم به ما شِئت مِنْ تَرَفٍ تَهْوَى محاسِنَهُ الولدانُ والحورُ
ويطلع الروضُ منه مصنعًا عجبًا يضاحكُ النَّورَ من لألائه النُّورُ

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٤٩) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥٩).
(٢) في الإحاطة: «فصحَّ يقيني».
(٣) في الإحاطة: «إذ كنت ملجأي». وفي الكتيبة: «إذ كنت ملجأي.. فاليقين يقيني».
(٤) الكتيبة الكامنة (ص ٢٥٧).
(٥) السَّرْحُ: شجر عظام طوال. لسان العرب (سرح).
(٦) في الكتيبة: «تدور حبالها».
(٧) الاستقصا (جـ ٤ ص ٤٠).
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٥١): «مغمور» بالغين المعجمة.

ويسطعُ الزهرُ مِنْ أرجائه أرجًا يُنافحُ النَدَّ[1] نشرٌ منه منشور
مَغْنَى السرور سقاه اللّه ما حَمَلَتْ غرُّ الغمامِ وحَلَّتْه الأزاهيرُ
انظرْ إلى الروض تنظرْ كلَّ معجبةٍ مِمّا ارتضاه لرأي العين تحبيرُ
مَرَّ النسيمُ به يبغي القِرَى فَقَرى دراهمَ النور تبديدٌ وتنثيرُ
وهامتِ الشمسُ في حسنِ الظلال به فَفُرِّقَتْ فوقَها منه دنانير[2]
والدوحُ ناعمةٌ تهتزُّ من طربٍ همسًا، وصوتُ غناء الطير مجهور
كأنما الطيرُ في أفنانها صَدَحَتْ بشكرِ مالكها، والفضلُ مشكور
والنهرُ شقَّ بساطَ الروضِ تحسبه سيفًا ولكنه في السلم مشهور
ينسابُ لِلُجَّةِ الخضراء أزرقُهُ كالأَيْمِ[3] جدَّ انسياب وهو مذعور
هذي مصانعُ مولانا التي جمعتْ شملَ السرور، وأمرُ السعدِ مأمور
وهذه القبّةُ الغرّاء ما نظرت لشكلها العَيْنُ إلاَّ عزَّ تنظير
ولا يصوّرها في الفهم ذو فِكَرٍ إلاَّ ومنه لكلِّ الحسنِ تصوير
ولا يرام بحَصْرٍ وصفُ ما جمعتْ من المحاسن إلاَّ صَدَّ تقصير
فيها المقاصيرُ تحميها مهابته للّه ما جمعتْ تلك المقاصير
كأنها الأفقُ تبدو النيراتُ به ويستقيمُ بها في السعد تسيير
وينشأ المزنُ في أرجائه وله من عنبرِ الشِّحرِ إنشاءٌ وتسخير
وينهمي القَطْر منه وهو منسكبٌ ماءٌ من الورد يذكو منه تقطير
وتخفق الريحُ منه وهي ناسمةٌ مِمّا أهبَّ به مِسْكٌ وكافورُ
ويشرقُ الصبحُ منه وهو من غُرَرٍ غُرّ تلألأ منهنَّ الأسارير
وتطلعُ الشمسُ فيه من سَنَا ملكٍ تبسّم الدهرُ منه وهو مسرور
للّه منه إمامٌ عادلٌ بهرتْ أوصافُهُ فهي للأمداح تحبير

---

(١) النَّدُّ: عود يُتَبَخَّر به. لسان العرب (ندد).

(٢) يشبه هنا قطع الشمس الصغيرة التي تظهر من بين أوراق الشجر بالدنانير، وهو من قول أبي الطيب المتنبي: [الوافر]

وألقى الشرقُ منها في ثيابي دنانيرًا تَفِرُّ من البَنَانِ

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٩٠).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٥٢): «كاليمّ».

غيثُ السماح وليثُ البأس فَالْقَ به — مُحيي الهُدى وهو للعادين تتبيرُ[1]
قُلْ للمباري وإن لم تَلْقَهُ أبدًا — وربّ فرضٍ محالٌ وهو تقديرُ
فخرُ الأنام أحلَّ الفخرَ منزله — فكلُّ مدحٍ على علياه مقصور
إذا أبو سالم مولى الملوك بَدَا — بدرًا تضيء بمرآه الدياجيرُ
فأيّ خطب يخافُ الدهرَ آملُه — وأيّ سؤلٍ له في النيل تعذير
بشراك بشراك يا نَجْلَ الخلافة ما — خوّلت من نيلها والضدُّ مقهور
لك الخلودُ بعزّ الملك في نعم — لا يعتري صَفْوَها في الدهر تكدير
فانعم هنيئًا بلَذّاتٍ مواصلةٍ — لا تأتليهنّ إلمامٌ وتكرير
لا زلتَ تلقى المنى في غبطةٍ أبدًا — ما دام للّه تهليلٌ وتكبير

وقال وكتب به على قلم فضة: [الطويل]

إذا شهدتْ بالنصر خَطِّيّة القَنَا[2] — فملّكت أمرَ الفتحِ مِنْ غير ما شَرْطِ
كفى شاهدًا مني بفضلك ناطقًا — لسانيَ مهما أفصحتْ ألسنُ الخطِّي

وقال وكتب به على سكين: [الطويل]

أروحُ بأمر المستعينِ وأغتدي — لإذهابِ طغيانِ اليراعِ الرواقمِ
ويفعل في الأقلام حَدِّيَ مصلحًا — كفعل ظُبَا أسيافِهِ في الأقالمِ

قال: ومما كتب به على قصيدة عيدية: [البسيط]

لَمّا رأيتُ هدايا العيدِ أعظَمُها — هديةُ الطيب في حُسْنٍ وتعجيبِ
ولم أجد في ضروبِ العاطرات شذى — يحكي ثناءك في نَشْرٍ وفي طيب
أهديتُ نحوك منه كل ذي أرجٍ — أنفاسُهُ بين تشريقٍ وتغريب
وفي القبول منالُ السعدِ فَالْقَ به — تَلْقَ الأماني بتأهيلٍ وترحيب

وقال في رجل يلقب بالبعير: [الطويل]

وذي لقبٍ عَنَّتْ له عند صحبه — مآربُ لم يُسْعِدْ عليهنّ مسعدُ

---

(١) التتبير: الإهلاك. وفي القرآن الكريم: ﴿وكُلاً تَبَّرْنا تَتْبِيرًا﴾. سورة الفرقان ٢٥، الآية ٣٩، ولسان العرب (تبر).

(٢) الخطّيّة: الرماح المنسوبة إلى الخط. لسان العرب (خطط).

دَعَوْهُ بعيرًا فاستشاط فقال مَهْ | أبا أحمدٍ، وارتدَّ عنهمْ يهدهد[1]
فقلتُ له عُذْ نحوهمْ لتعودَ من | مرامك بالمطلوب توفى وتحمدُ
فقال وقد غصَّ الفضاء بصوته | وقد هَدَرَتْ منه الشقاشق[2] تزبدُ
لئن عدتُ نادوني بعيرًا كمثلها | فقلتُ له لا تَخْشَ فالعودُ أحمدُ[3]

وقال[4]: [الخفيف]

وبخيلٍ لَمّا دعوه لِسُكْنَى | منزلٍ بالجنانِ ضَنَّ بذلكْ[5]
قال لي مخزنٌ بداريَ فيه | كلُّ مالي فلستُ للدار تاركْ[6]
قلتُ وُفِّقتَ للصواب فحاذرْ | قولَ خلّ مرغِّبٍ في انتقالكْ
لا تُعَرِّجْ على الجِنان بِسُكْنى | ولتكنْ ساكنًا بمخزنِ مالكْ[7]

وقال رحمه اللّه تعالى في مركب[8]: [الكامل]

يا رُبَّ مُنشأةٍ عجبتُ لشأنها | وقد احتوتْ في البحر أعجبَ شانِ
سكنتْ بجنبيها[9] عصابةُ شدّة | حلَّتْ محلَّ الروح في الجثمان
فتحرّكتْ بإرادةٍ مَعْ أنها | في جنسها[10] ليست من الحيوان
وَجَرَتْ كما قد شاءه سُكّانها | فعلمتُ أن السِّرَّ في السّكان[11]

---

(١) هَدْهَدَ البعيرُ: هدر. محيط المحيط (هدهد).
(٢) الشقاشق: جمع شِقْشِقة وهي شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج، محيط المحيط (شقشق).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٥٤): «لا تَمْشِ والعود». وهنا يوري بكلمة «العود» وهو البعير أيضًا.
(٤) الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٥١).
(٥) في الإحاطة: «بذاك».
(٦) في الإحاطة: «جلّ ما لي.. شاك».
(٧) تورية بجهنّم؛ لأن اسم خازنها من الملائكة مالك.
(٨) الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٥١) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥٨).
(٩) في الإحاطة: «بجنبها».
(١٠) في الإحاطة: «في حُسْنها».
(١١) أخذه من المثل: «الشأن في السكان لا في المكان»، وهنا يوري بكلمة «السكان» التي تعني أيضًا الخشبة التي تدار بها السفينة، أي دفة السفينة.

وقال رحمه اللّه تعالى [1] : [الوافر]

وذي خُدَعٍ دَعَوْهُ لاشتغالِ ... وما عرفوه غثًّا من سمينِ
فأظهرَ [2] زُهْدَهُ وغِنًى بمالِ ... وجيشُ الحِرْص منه في كَمينِ
وأقسم لا فَعَلْتُ يمينَ خَبٍّ ... فيا عجبًا لحلاّفٍ مهينِ [3]
يغرُّ بيسره ويمينِ حَنْثٍ [4] ... ليأكلَ باليسارِ وباليمينِ

وهو الآن بحاله الموصوفة؛ انتهى.

وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: خاطبني أبو بكر عبدُ الرحمن بن عبد الملك [5] مستدعيًا إلى إعذار ولده بقوله [6] : [البسيط]

أريدُ مِنْ سيدي الأعلى تَكَلُّفه ... إلى [7] الوصولِ إلى داري صباحَ غدِ
يزيدني شرفًا منه ويُبْصِرُ لي ... صناعةَ القاطعِ الحجّام في ولدي

فأجبته: [البسيط]

يا سيدي الأوحد الأسمى ومُعْتَمَدي ... وذا الوسيلةِ من أهلي ومن بلدي [8]
دعوتَ في يوم الاثنين الصِّحابَ ضُحًى ... وفيه ما ليس في سبت [9] ولا أحدِ
يومُ السلام على المَوْلَى وخدمته ... فاصفحْ وإن عَثَرَتْ رجلي فَخُذْ بيدي
والعُذْرُ أوضحُ من نارٍ على عَلَم ... فَعدُ إن غبتُ عن لومٍ وعن فَنَدِ [10]
بقيت في ظلّ عيشٍ لا نفادَ له ... مُصاحَبًا غير محصور إلى أمدِ

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٥١) والكتيبة الكامنة (ص ٤٥٨).
(٢) في الكتيبة: «فيظهر».
(٣) في الإحاطة: «لخلاف مهين». وفي الكتيبة: «وأقسم لا قبلْتُ». والخَبُّ: الخَدّاع. لسان العرب (خبب).
(٤) في الإحاطة: «حِلْفٍ».
(٥) هو أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الملك الينشتي، أصله من مدينة باغة، ونشأ بلوشة، وهو محسوب من الغرناطيين. توفي سنة ٧٥٠ هـ بغرناطة. الإحاطة (جـ ٣ ص ٥٢٧).
(٦) البيتان وجوابهما في الإحاطة (جـ ٣ ص ٥٢٨).
(٧) في الإحاطة: «على».
(٨) في الإحاطة: «من أهلٍ ومن بلدِ».
(٩) في الإحاطة: «في بيت».
(١٠) الفَنَدُ، بالفتح: تخطئة الرأي. لسان العرب (فند).

وأبو بكر المذكور أصله من باغة، ونشأ بلوشة، وهو محسوب من الغَرْناطيين.

وفي «التاج» في حقه ما صورته[(١)]: مادح هاجي، مُدَاهن مداجي، أخبثُ من نظر من طرف خَفِي، وأعذرُ من تلبّس بشعار[(٢)] وفي، إلى مكيدة مبثوثة الحبائل، وإغراء يقطع بين الشعوب والقبائل، من شيوخ طريقة العمل، المتقلّبين من أحوالها بين الصَّحْو والثمل، المتعلّلين برسومها حين اختلط المرعيُّ بالهَمَل[(٣)]. وهو ناظمُ أرجاز، ومستعملُ حقيقةٍ ومجاز، نظم مُخْتصر السيرة، في الألفاظ اليسيرة، ونظم رجزًا في الزَّجْر والفال، نبّه به تلك الطريقة بعد الإغفال؛ انتهى.

قال: ومن شعره[(٤)]: [الكامل]

إنَّ الـولايـةَ رفـعـةٌ لـكـنـهـا ... أبدًا إذا حقَّقْتَها تتنقّلُ[(٥)]
فانظرْ فضائلَ مَنْ مضى مِنْ أهلِها ... تجدِ الفضائلَ كلَّها لا تُعْزَلُ

توفي بالطاعون بغَرْنَاطة عام خمسين وسبعمائة؛ انتهى.

وقال في ترجمة أبي سلطان عبد العزيز بن علي الغرناطي بن يشت[(٦)] ما صورته: ومِمّا خاطبني به قوله: [البسيط]

أطلتُ عَتْبَ زمانٍ فلَّ من أملي ... وسُمْتُه الذَّمَّ في حِلٍّ ومُرْتحلِ[(٧)]
عـاتبْتُه لِيُلِيـنَ الـعَـتْبُ جانِبَهُ ... فما تراجعَ عن مَطْلٍ ولا بَخَلِ[(٨)]
فعدتُ أمنحه العُتْبى لِيُشْفِقَ لي ... فقال لي إنَّ سمعي عنك في شُغُلِ[(٩)]

---

(١) الإحاطة (ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨).
(٢) في الإحاطة: «بسعار».
(٣) المرعيُّ: الذي له راعٍ يحفظه. الهَمَلُ، بالفتح: الذي تُرك مهملاً لا راعي له. لسان العرب (رعى) و (همل).
(٤) الإحاطة (جـ ٣ ص ٥٢٨).
(٥) في الإحاطة: «تنتقلُ»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٦) هو أبو سلطان عبد العزيز بن علي بن أحمد بن يشت، من أهل غرناطة. ترجمته في الإحاطة (جـ ٣ ص ٥٧٢) وفيه: «ابن يست». وفي الكتيبة الكامنة (ص ٢٩٣) وفيه: «ابن برشيت». والقصيدة اللامية في المصدرين المذكورين.
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٥٦): «قلّ من أملي». وفي الكتيبة: «مَلّ من أملي وشمته..».
(٨) في الكتيبة: «من مطل ومن بخل».
(٩) في الإحاطة والكتيبة: «ليشفق بي». والعُتْبى: الرضى. لسان العرب (عتب).

فالعَتْبُ عنديَ كالعُتْبى[1] لستُ أُرى   أُصغي لمدحك إذ لم أُصْغِ للعَذَلِ
فقلتُ للنفس كُفّي عن معاتبةٍ   لا تنقضي وجوابِ صِيغَ مِنْ وَجَلِ[2]
من يَعْتَلِقْ في الدُّنَا بابن الخطيب فقد   سما عن الذُّلِّ واستولى[3] على الجَذَل
قالتْ[4] فمن لي بتقريبي لخدمته   فقد أجابَ قريبًا من جوابكَ لي
فقال للناس كُفُّوا عن محادثتي   فليس ينفعكم حولي ولا حِيَلي[5]
قد اشتغلْتُ عن الدنيا بآخرتي   وكان ما كان من[6] أيامِيَ الأُوَل
وقد رعيتُ وما أهملتُ من منح   فكيف يختلط المرعيُّ بالهَمَل
ولستُ أرجعُ للدنيا وزُخْرفها   من[7] بعد شَيْب غدا في الرأس مشتعل
ألستَ تبصرُ أطماري ويُغدِيَ عن   نيلِ الحظوط وإغذاذي إلى أجلي[8]
فقلت ذلك قولٌ صحّ مجملُهُ[9]   لكنَّ من شأنه التفصيلَ للجُمل
ما أنت جالبُ أمرٍ تستعينُ به   على المظالم في حال ومُقْتَبَلِ[10]
ولا تحلُّ حرامًا أو تحرِّم ما   أحلَّ ربُّكَ في قولٍ ولا عملِ
ولا تَبِعْ آجلَ الدنيا بعاجلها   كما الولاةُ تبيعُ اليَمَّ بالوَشَلِ[11]
وأين عنك الرشا إن ظَلْتَ[12] تطلبها   هذا لعمريَ أمرٌ غيرُ مُنْفَعلِ
هل أنتَ تطلبُ إلاَّ أن تعودَ إلى   كُتْبِ المقامِ الرفيعِ القَدْرِ في الدول
فما لأوحدِ هذا الكَوْنِ قاطبةً   وأسمح الخَلْقِ من حافٍ ومُنْتعل[13]

---

(١) في الإحاطة: «والعُتْبَى».
(٢) في الكتيبة: «من جدل».
(٣) في الإحاطة: «واستوى».
(٤) في الإحاطة والكتيبة: «فقلت من لي...».
(٥) هذا البيت غير وارد في الإحاطة والكتيبة.
(٦) في الإحاطة: «في أيامي». وفي الكتيبة: «في أيامك..».
(٧) كلمة «من» غير واردة في الإحاطة.
(٨) في الإحاطة والكتيبة: «وإعدادٍ إلى أجلِ».
(٩) في الإحاطة: «فقال ذلك». وفي الكتيبة: «فقال ذلك.. محمله».
(١٠) في الإحاطة: «ما أنت طالبُ..». وفي الكتيبة: «ما أنت طالب.. في جاهٍ ومقتبل».
(١١) في الإحاطة: «ولا تَبْعِ»، وهكذا ينكسر الوزن. والوَشَل: القليل من الماء. لسان العرب (وشل).
(١٢) في الإحاطة والكتيبة: «إن كنت».
(١٣) في الكتيبة: «فما لأوحد أهل الأرض.. وأسمح الناس..».

لم يلتفتْ نحو ما تَبْغِيه من وَطَرٍ ولم يَسُدَّ[1] الذي قد بانَ من خلل
إن لم تَقَعْ نظرةٌ منه عليك فما يصفو لديك الذي أَمَّلْتَ مِنْ أمل
فدونك السَّيِّدَ ٱلأعلىٰ فمطلبكم قد نِيطَ منه بفضلٍ غير مُنْفصل[2]
فقد خَبَرْتُ بني الدنيا بأجمعهم من عالم وحكيم عارفٍ وولي[3]
فما رأيتُ له في الناس من شَبَهٍ قَلَّ النظيرُ له عندي فلا تَسَلِ
وقد قصدْتُكَ يا أسمى الورى هممًا وليس لي عن حمى علياك من حِوَلِ[4]
فما سواك لما أَمَّلْتُ من أملٍ وليس لي عنك من زَيْغٍ ولا مَيَلِ[5]
فانظرْ لحالي قد رقَّ الحسودُ لها واحسم زَمانة[6] ما قد ساء من عللِ
ودُمْ لنا ولدينِ اللّٰه تَرْفَعُهُ ما أُعْقِبَتْ بُكَرُ الإصباحِ بالأُصُلِ[7]
لا زلتَ مُعْتليًا عن كلِّ حادثة كما عَلَتْ ملَّةُ الإسلام في الملل

انتهى[8].

والمذكور هو عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز ابن يشت، من غَرْنَاطة، يكنى أبا سلطان؛ قال في «الإحاطة» في حقّه[9]: فاضل حييّ[10] حسن الصورة، بادي الحشمة، فاضل البيت سريُّهُ، كتب في ديوان الأعمال فأتقن، وترقّى إلى الكتابة السلطانية، وسَفر في بعض الأغراض الغربية، ولازم الشيخ أبا بكر[11] عتيق بن

---

(١) في الإحاطة: «ولم يشدَّ».
(٢) في الكتيبة: «الأعلى، فطالبُه قلَّ النظير له عندي فلا تَسَلِ».
(٣) في الإحاطة: «عارفٍ دول».
(٤) في الإحاطة: «فقد قصدتك. . نسبًا وليس لي عن علياك. .». وفي الكتيبة: «فقد قصدتك. . نسبًا وليس لي من علاك اليوم من وجل». والحِوَلُ: التحوّل والانتقال. لسان العرب (حول).
(٥) في الكتيبة: «وليس عندك من زيغ ولا ملل».
(٦) الزَّمانَةُ: المرض الدائم. لسان العَرب (زمن).
(٧) في الإحاطة: «قَدِّم لنا ولدين. .». وفي الكتيبة: «ودُمْ لها ولدين. . الأيام بالأُصُلِ».
(٨) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٥٧).
(٩) الإحاطة (جـ ٣ ص ٥٧٣).
(١٠) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٥٧): «حيّ».
(١١) في الإحاطة: «أبا بكر بن عتيق بن مقدم».

مقدم من مشيخة الصوفية بالحضرة فظهرت عليه آثار ذلك في نظمه ومقاصده. فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاد المعظم[1] : [الكامل]

القلبُ يعشقُ والمدامعُ تَنطِقُ ... برحَ الخفاءُ فكلُّ عضوٍ منطقُ[2]
إن كنتُ أكتمُ ما أكنُّ[3] من الجوى ... فشحوبُ لوني في الغرام مصدّقُ
وتذلُّلي عند اللُّقا وتملُّقي ... إنَّ المحبَّ إذا دنا يتملَّقُ
فلكم سترتُ عن الوجود محبتي ... والدمعُ يفضحُ ما يُسِرُّ المنطقُ
ولكم أُمَوِّهُ بالطلول وبالكُنى ... وأخوضُ بحرَ الكَتْم وهو الأليَقُ
ظهرَ الحبيبُ فلستُ أُبصرُ غيرَهُ ... فبكلِّ مرئيّ أرى يتحققُ[4]
ما في[5] الوجود تكثّرٌ لمكثّرٍ ... إنَّ المكثر بالأباطل يعلقُ
فمتى نظرتُ فأنتَ موضعُ نظرتي ... ومتى نطقتُ فما بغيرك أنطق
يا سائلي عن بعض كنه صفاته ... كَلَّ اللسانُ وكَلَّ عنه المنطق[6]
فاسلكْ مقاماتِ الرجالِ محققًا[7] ... إنّ المحققَ شأوُهُ لا يُلْحَقُ
مَزِّقْ حجابَ الوهم لا تحفلْ به ... فالوهمُ يسترُ ما العقولُ تحققُ
واخلصْ إذا شئتَ الوصولَ ولا تسل ... فالعجزُ عن طلب المعارف موبقُ[8]
إن التحلّي في التخلّي فاقتصدْ[9] ... ذاك الجنابَ، فبابُهُ لا يُغْلَقُ
ولتقتبسْ نارَ الكليم ولا تَخَفْ ... والغِ السوى إن كنتَ منها تَفْرَقُ
ومتى تجلّى فيك سِرُّ جماله ... وصعقتَ خوفًا فالمكلّم يصعق
دَعْ رتبةَ التقليدِ عنكَ ولا تتهْ ... تَلْقَ الذي قَيَّدْتَ وهو المطلق[10]

(١) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٩٤ - ٢٩٥).
(٢) في الكتيبة: «ينطق».
(٣) في الكتيبة: «ما أُجنُّ».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٥٨): «متحقق».
(٥) في الكتيبة: «ما للوجود».
(٦) في الكتيبة: «كنه صبابتي كلَّ البيانُ وكلَّ عنه المغلق».
(٧) في الكتيبة: «تحققًا».
(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١١٦): «ولا تنلْ». وفي الكتيبة: «فلا تُبَلْ.. عن طلب الأباطل».
وموبق: مهلك. لسان العرب (وبق).
(٩) في الكتيبة: «إن التجلّي.. فاقصدنْ..».
(١٠) في الكتيبة: «عنك ولا تَفُهْ تُلْفِ».

واقطعْ حبالَ علائقٍ وعوائقٍ إنَّ العوائقَ بالمكاره تَطرق
جَرِّدْ حُسامَ النفسِ عن جَفْنِ الهوى إنَّ العوائدَ بالتجرّدِ تخرق
فإذا فهمتَ السِّرَّ منك فلا تَبُحْ فالسيفُ مِنْ بثُ الحقائق أصدقُ
بالذوقِ لا بالعلم يُدْرَكُ عِلْمُنا [1] سِرٌّ بمكنونِ الكتابِ مُصَدَّقُ
وبما أتى عن خيرِ من وطىء الثرى سِرُّ الوجود وغَيْثُهُ المتدفّقُ[2]
خيرُ الورى وابن الذبيحين[3] الذي أنوارُهُ في هديها تتألّقُ
مَنْ أخبرَ الأنباءُ قبلُ ببعثه ولنصّه سِرُّ الكتاب يصدقُ
رُفِعتْ له الحجبُ التي لم ترتفعْ إلاّ إليه فكلُّ ستر يُخْرَقُ
ورَقي مقامًا قصّرت عن كنهه رُتَبُ الوجود وكَعَّ[4] عنه السُّبَّقُ
وطىء البساطَ تدلّلاً وجرى إلى أمدٍ تناهى ما إليه مَسْبَقُ
إنسانُ عينِ[5] الكونِ مبلغُ سرِّه قطبُ الجمال وغيثه المتدفّقُ
سِرُّ الوجودِ ونكتةُ الدهر الذي كلُّ الوجودِ بجوده يتعلّق
من جاء بالآياتِ يسطعُ نورها والذكر فهو عن الهوى لا ينطق
يا سيدَ الأرسال غيرَ مدافَعٍ وأجلَّهم سبقًا وإن هم أعنقوا
بالفَقْر جئتك موئلي لا بالغنى فالذلُّ والإذعانُ عندك ينفق
فاجبر كسيرَ جرائرٍ وجرائمٍ فالقلبُ من عظم الخطايا يَقْلَقُ
أرجوكَ يا غوثَ الأنام فلا تدعْ بابَ الرضا دوني يُسَدُّ ويُغْلَقُ
حاشاك تطردُ مَنْ أتاك مؤمِّلاً فلأنتَ لي مني أحنُّ وأرفق
ومحبتي تقضي بأنك مُنْقِذِي مِمّا أخافُ فما بغيرك أعلق
يا هل تساعدني الأماني والمنى وأحلُّ حيث سَنَا الرسالة يُشْرق
إن كان ثَبَّطني القضا بمقيّدٍ فعِنانُ عزمي نحو مجدكَ مطلقُ

---

(١) في الكتيبة: «سِرُّنا».
(٢) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الكتيبة الكامنة.
(٣) ابن الذبيحين: هو الرسول الكريم ﷺ. والذبيح الأول هو إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، والذبيح الثاني هو عبد الله بن عبد المطلب، والد الرسول الكريم.
(٤) كَعَّ: عجز وضعف. لسان العرب (كعع).
(٥) إنسان العين: بؤبؤ العين. لسان العرب (أنس).

ولئن ثوى شخصٌ بأقصى مغرب ... فتشوّقي مني إليك يشرّقُ
فعليكَ يا أسنى الوجودِ تحيّةٌ ... من طيب نَفْحتها البسيطة تَعْبَقُ
وعلى صحابتك الذين تأنّقوا ... رتبَ الكمال ومثلهم يتأنّقُ
وعلى الألى آووك في أوطانهم ... نالوا بذلك رتبةً لا تُلْحَقُ
أعظمْ بأنصار النبيِّ وحزبه ... وبمن أتى بعباءة يتعلّق
من مثل سَعْدٍ أو كقيسٍ نجله ... عَرْفُ السيادة من حماهُمْ يُنشق
أكرمْ بهم وبمن أتى من سرِّهم ... عَزَّ النظيرُ فمجدهم لا يُلْحَقُ
مَنْ مثلُ نَصْرٍ أو بنيه مُلوكنا ... كلُّ الأنام لعزِّهم يتملَّقُ
بمحمدٍ نجلِ الخليفةِ يوسفٍ ... عَزَّ الهدى فحماه ما إن يُطْرَقُ
مولى الملوك وتاجُ مفرقِ عزِّهم ... وأجلُّ من تُحْدَى إليه الأينق
ملكٌ يرى أنَّ التقدّمَ مغنمٌ ... مهما تعرّض موكبٌ أو فيلق
تُروى أحاديثُ الوغى عن بأسه ... فالسيفُ يُسْنِدُ والعوالي تطلق
ملكُ البسالة والمكارم والنُّهى ... فَغُداتُه منه تَغَصُّ وتَشْرَقُ[1]
مُلِئَتْ قلوبُ عداه منه مهابةً ... فمغرِّبٌ من خوفه ومشرِّقُ
مولايَ يا أسمى الملوك ومَنْ غدتْ ... عينُ الزمانِ إلى سناه تحدّقُ
لا تقطعوا عنّي الذي عوّدتُمُ ... فالعبدُ مِنْ قَطْعِ العوائد يُشْفق
لا تحرموني مطلبي فمحبّتي ... تقضي لسعيي أنه لا يُخفق
فانعمْ بردِّي في بساطكَ كاتبًا ... وأعِدْ لما قد كنت فهو الأليق
فاسْلَمْ أميرَ المسلمين لأُمَّةٍ ... أفواهُهُم ما إن بغيرك تنطقُ
واهنأ بها من ليلةٍ نبويّةٍ ... جاءتْ بأكرمِ من به يُتَعَلَّقُ
صَلَّى عليه اللّه ما هَبَّتْ صَبًا ... واهتَزَّ غصنٌ في الحديقةِ مُورقُ

ثم قال: وهو الآن بحالته الموصوفة؛ انتهى.

ومِمَّا خوطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما حكاه في «الإحاطة» في ترجمة

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١١٧): «وتفرق».

القاضي أبي الحسن النباهي[1]، إذ قال ما نصه[2]: وخاطبني بسبتة وأنا يومئذ بسَلاً بقوله: يا أيتها الآية البالغة وقد طُمِست الأعلام، والغرّة الواضحة وقد تنكّرت الأيام، والبقيّة الصالحة وقد ذهب الكرام، أبقاكم اللّه تعالى البقاء الجميل، وأبلغكم غاية المراد ومُنْتَهى التأميل، أبى اللّه أن يتمكّن المقام بالأندلس بعدكم، وأن يكون سكون النفس إلاّ عندكم، سرٌّ من الكون غريب، ومَعْنى في التشاكل عجيب، أختصر لكم الكلام، فأقول بعد التحيّة والسلام: تفاقمت الحوادثُ، وتعاظمت الخطوب الكوارث، واستأسدت الذئاب الأخابث، ونكث الأكثر من ولد سام وحام ويافث، فلم يبق إلاّ كاشح باحث، أو مكافح عابث، ويا ليت شعري مَنِ الثالث؟ فحينئذ وجهت وجهي للفاطر الباعث، ونجوت بنفسي لكِنْ مَنْجَى الحارث[3]، وقد عَبَرْتُ البحرَ كَسيرَ الجناح، دامي الجراح، وإني لأرجو اللّه سبحانه بحسن نيّتكم أن يكون الفرج قريبًا، والصنع عجيبًا، فعِمَادي أعان اللّه على القيام بواجبه، هو الركن الذي ما زلت أميل على جَوَانبه، ولا تزيد في الأيام إلاّ بصيرة في الإقرار بفضله والاعتداد به، وقد وصلني خطابُ سيدي الذي جَلّى الشكوك بنور يقينه، ونصح النصح اللائق بعلمه ودينه، وكأنه نظر إلى الغيب من وراء حجاب، فأشار بما أشار به على سارية عمر بن الخطاب[4]، ومن العجب أني عملت بمقتضى إشارته، قبل بلوغ إضْبَارته، فللّه ما تضمّنه مكتوبكم الكريم من الدُّرّ، وحرّره من الكلام الحرّ، وايم اللّه لو تجسم لكان مَلَكًا، ولو تنسّم لكان مِسْكًا، ولو قبس لكان شهابًا، ولو لبس لكان شبابًا، فحلَّ مني علم اللّه تعالى محل البرء من المريض، وأعاد الأنس بما تضمّنه من التعريض، والكلم المُزْرِية بقِطَع الروض الأريض، فقبلته عن راحتكم، وتخيلت أنه مُقِيم بساحتكم، ثم وردتْ مَعِينه

---

(١) هو القاضي علي بن عبد اللّه بن الحسن النباهي المالقي، وترجمته في الإحاطة (جـ ٤ ص ٨٨) والكتيبة الكامنة (ص ١٤٦). وفي المصدر الأخير يذمّه ابن الخطيب أقذع الذمّ ويتعرض له فيصفه بالقرد الشارد، وذلك بعد أن تغيّرت النفوس، إذ كان النباهي أحد المتآمرين على ابن الخطيب.

(٢) هذا النص غير وارد في الإحاطة ولا في الكتيبة الكامنة.

(٣) هو الحارث بن هشام، وهنا يشير إلى قول حسان بن ثابت: [الكامل]

إن كنتِ كاذبةَ الذي حَدَّثْتني ... فَنَجَوْتِ مَنْجَى الحارثِ بن هشامِ
تركَ الأحبّةَ أنْ يُقاتِلَ دونهم ... ونجا برأس طِمِرّةٍ ولجامَ

الأغاني (جـ ٤ ص ١٧٤). والطِّمِرَّةُ: الفرس الجواد الشديد العدو. لسان العرب (طمر).

(٤) يشير إلى ما روي أن عمر بن الخطاب نادى، وهو يخطب الناس، ساريةَ قائلاً: «يا سارية، الجبل الجبل»، وذلك في قصة مشهورة.

الأصفى، وكلت من بركات مواعظه بالمكيال الأوفى، وليست بأول أياديكم، وإحالتكم على اللّه فهو الذي يجازيكم، وبالجملة فالأمور بيد الأقدار، لا إلى المراد والاختيار: [الطويل]

وما كلُّ ما ترجو النفوسُ بنافعٍ ولا كلُّ ما تخشى النفوسُ بضَرَّارِ

انتهى[(١)].

قلت: أين هذا الكتاب من الذي قدّمناه عنه في الباب الثاني، حين أظلم بينه وبين لسان الدين الجوّ وعِطْفه إلى مُهاجاته ثاني، وسَفَر[(٢)] في أمره إلى العُدْوة، واجتهد في ضرره بعد أن كان له به القدوة، وقد قابله لسان الدين بما أذهب عن جفنه الوَسَن، وألّف فيه كما سبق «خَلْع الرسن». على أنه عرّف به في «الإحاطة» أحسن تعريف، وشرّفه بحلاه أجمل تشريف، إذ قال ما ملخّصه[(٣)]: علي بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن محمد بن الحسن، الجذامي، المالقي، أبو الحسن، ويُعْرف بالنباهي، هذا الفاضل قريعُ بيت مَجادة وجلالة، وبقية تعين وأصالة، عفّ النشأة، طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة، خاطب للشيخوخة، مستعجل للشيبة، ظاهر الحياء، متحرّك مع السكون، بعيد الغَوْر، مرهف الجوانب مع الانكماش، مقتصد في الملبس والآلة، متظاهر بالسذاجة، بريء من النوك[(٤)] والغفلة، يقظ للمعاريض، مهتدٍ إلى الملاحن، طرف في الجود، حافظ مقيّد طلعة إخباري، قائم على تاريخ بلده، شرع في تكميل ما صنّف فيه، ملازم للتقييد والتطرير[(٥)]، منقر[(٦)] عن الإجادات والفوائد، استفدت منه في هذا الغرض وغيره كثيرًا، حسن الخطّ، ناظم ناثر، نثره يشف على نظمه، ذاكر للكثير، استظهر محفوظات منها «النوادر» للقالي، وناهيك به محفوظًا مهجورًا، ومسلكًا غفلاً، فما ظنّك بسواه، نشأ ببلده حرّ الطعمة، فاضل الأبوّة، وقرأ به، ثم ولي القضاء بِملتماس ثم ببلش وعملها، فسيح

---

(١) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٨ ص ٢٦٢).

(٢) سفر إلى العدوة: أي كان سفيرًا بين القوم. لسان العرب (سفر).

(٣) هذه الترجمة غير واردة في الإحاطة.

(٤) النَّوْكُ، بالفتح: الحمق. لسان العرب (نوك).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ٨ ص ٢٦٢): «والتطريف». والتطرير: التقييد في طرر الكتب. لسان العرب (طرر).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «متغر».

الـ طّة، مطلق الجراية، بعيد المدى في باب النزاهة، ماضيًا غير هيوب حتى أربى في الزمن القريب على المحتنكين، وغَبَّر في وجوه أهل الدربة، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا، جارية على المسائل المشهورة، ثم نُقل منها إلى النظر في أمور الحلّ والعقد بمالقة مضافة إليه الخطط النبيهة، وصدر له منشور من إملائي. إلى أن قال في ترجمة نظمه[1]: قال نظمت سمح اللّه تعالى لي قطعتين مُوَطئًا فيهما على البيتين المشهورين: إحداهما: [الطويل]

بنفسيَ من غزلانَ حُزْوَى غزالةٌ[2] ... جمالُ محيّاها عن النُّسكِ زاجرُ
تصيدُ بلحظ الطرف مَنْ رَامَ صَيدها ... ولو أنه النّسرُ الذي هو طائرُ
مُعَطَّرَةُ الأنفاس رائقةُ الحلى ... هواها بقلبي في المهامه[3] سائرُ
«إذا رُمْتُ عنها سَلْوةً قال شافعٌ ... من الحبِّ: ميعادُ السُّلُوِّ المقابرُ»

والأخرى: [الطويل]

وقائلةٍ لَمَّا رأتْ شَيبَ لِمَّتي ... لئن مِلْتَ عن سلمى فعذرك ظاهرُ
زمانُ التَّصابي قد مَضَى لسبيله ... وهل لك بعد الشَّيْب في الحبِّ عاذر
فقلت لها: كلاً وإن تلف الفتى ... فما لهواها عند مثليَ آخرُ
«سيبقى لها في مُضْمر القلب والحشا ... سريرةُ وُدّ يومَ تُبْلَى السرائرُ»

وكتب[4] على مثال النعل الكريم، وأهداه لمزمع سفر: [الطويل]

فديتك لا يهدى إليكَ أجلُّ من ... حديثِ نبيِّ اللّه خاتمِ رُسْلِهِ
ومن ذلك البابِ المثالُ الذي أتى ... به الأثرُ المأثورُ في شأن نَعْلِهِ
ومن فضله مهما يكنْ عند حاملٍ ... له نالَ ما يهواهُ ساعة حَمْلِهِ
ولا سيما إن كان ذا سَفَرٍ به ... فقد ظفرتْ يُمْناهُ بالأمنِ كلِّهِ
فدونك منه أيها العَلَمُ الرِّضا ... مثالاً كريمًا لا نظير لِمِثْلِهِ

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ٩٠ ـ ٩١).
(٢) في الإحاطة: «وغزالة»، وهكذا ينكسر الوزن. وقوله: «بنفسي: أي أفدي بنفسي.
(٣) المهامه: جمع مهمه وهو الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها. لسان العرب (مهمه).
(٤) في الإحاطة: «وكتب مع شكل يحذو على النعل...».

وقال مراجعًا عن أبيات يظهر منها غرضها: [الطويل]

إذا كنتَ بالقصد الصحيح لنا تهوى فسلِّمْ لنا في حكمنا ودَعِ الشكوى
ولا تَتَّبِعْ أهواءَ نفسك والتفتْ لنا حيث كنّا في الرخاء وفي اللَّأْوَا[1]
وكم من محبّ في رضانا وحبّنا محا كلَّ ما يبدو سوانا له مَحْوَا
رآنا عيانًا عينَ معنى وجودِهِ فعاجَ عن الشكوى وفَوَّضَ في البلوى
وقال تَحَكَّمْ كيف شئتَ بما ترى رضيتُ بما تقضي وهمتُ بما تهوى
فحلَّ لدينا بالخُلُوص وبالرضا محلَّ اختصاصٍ نال منه المنى صَفْوَا
فإن كنتَ ترجو في الصبابة والهوى لحاقًا بهم فاسلكْ طريقهمُ الأضوا[2]
ومُتْ في سبيل الحب إن كنتَ مخلصًا لنا في الهوى تحيا حياة أُولي التقوى
هنالك تُؤْتَى ما تُريد وتقتضي ديونَكَ منّا دون مَطْلٍ ولا دعوى
وتشربُ من عينِ اليقينِ وتغتذي بخمرِ الصفا الصرفِ الزلال لكي تروى

وقال[3]: [البسيط]

لا تلجأنَّ لمخلوقٍ منَ الناس من يافثٍ كان أصلاً أو من الياسِ[4]
وثِقْ بربك لا تيأسْ تجدْ[5] عجبًا فلا أضرَّ على عبدٍ من الياسِ

وقال: [الطويل]

فديتكَ لا تصحبْ لئيمًا، ولا تكنْ مُعِينًا له إنَّ اللئيمَ خؤونُ
فلا عهدَ يرعى، لا، ولا نعمةً يرى ولا سرَّ خلّ عن عداه يصونُ

وقال يخاطب أبا القاسم عبد اللّه بن يوسف بن رضوان[6]: [الطويل]

لكَ اللّهُ في هواكَ رهينُ وروحيَ عني إن رحلتَ ظعينُ

---

(١) اللأوا: أصلها: اللأواء، وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية. واللأواء: الشدة والمحنة. محيط المحيط (لأى).
(٢) الأضوا: أصلها الأضوأ.
(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ٩١).
(٤) إلياس: هو إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان. قلائد الجمان (ص ١٣٣).
(٥) في الإحاطة: «ترى عجبًا».
(٦) القصيدة في الإحاطة (جـ ٤ ص ٩٣ ـ ٩٤).

ملكتَ بحكم الفضل كُلِّيَ خالصًا ومُلْكُكَ للحرِّ الصريحِ يزينُ
فَهَبْ ليَ من نُطْقي بمقدارِ ما به يُتَرْجَمُ سرٌّ في الفؤاد دَفينُ
فقد شَمَلَتْنا من رضاكَ ملابسٌ وسَحَّ لدينا[1] من نَدَاكَ مَعينُ
أعَنْتَ على الدهر الغَشُومِ ولم تزلْ بدنياكَ في الأمرِ المهمِّ تعين
وقَصَّرَ من لم تعلم النفسُ أنه خذولٌ إذا خان الزمان يخونُ
وإني بحمد الله عنه لفي غِنًى وحَسْبِيَ صَبْرٌ عن سواكَ يصونُ
أبى لي مجدٌ عن كرام وَرِثته وقوفًا ببابٍ للكريم[2] يهينُ
ونفسٌ[3] سمتْ فوقَ السِّماكَين همّةً وما كلُّ نفسٍ بالهوان تَدين
ولَمّا رأتْ عيني مُحَيَّاك أَقْسَمَتْ بأنكَ للفعل الجميل ضمينُ
وعاد لها الأنسُ الذي كان قد مضى برَيِّةَ إذ شَرْخُ الشباب خَدِينُ[4]
بحيثُ نشأنا لابسين حُلى التُّقى وكلٌّ بكلٍّ عند ذاك ضنينُ
أمَا وَسَنَا تلك الليالي وطِيْبِها ووَجْدِ غرامي، والحديثُ شجون[5]
وفتيانِ صدقٍ كالشُّموس وكالحَيَا حديثهُمُ ما شِئْتَ عنه يكون
لئن نَزَحَتْ تلك الديارُ فَوَجْدُنا عليها له بين الضُّلوع أنين
إذا مَرَّ حينٌ زاده الشوق جِدَّةً وليس بعابٍ[6] للربوع حنين
وأنّى بمسلاها وللبين لذعةٌ وحانَ افتراقٌ لم نَخَلْهُ يَحين
وبَعْدُ التقينا في مَحَلٍّ تغرُّبٍ وكلُّ الذي دون الفراق يَهُون
فقابلتَ بالفضل الذي أنتَ أهلُهُ وما لَكَ في حُسْن الصنيع قَرين
وغِبْتَ وما غابتْ مكارمُكَ التي على شكرها الربُّ العظيم يُعِينُ
يمينًا لقد أَوْلَيْتَنا منكَ نعمةً تلذُّ بها عند العِيان عيونُ
ويَقْصُرُ عنها الوصفُ إذ هي كلُّها لها وجهُ حرّ بالحياء مَصُونُ

---

(١) في الإحاطة: «لنا»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الإحاطة: «للكرام».
(٣) في الإحاطة: «ونفسي».
(٤) الخدين: الصديق. لسان العرب (خدن).
(٥) أخذه من المثل: «الحديث ذو شجون» أي ذو فنون وأغراض. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٩٧) ولسان العرب (شجن).
(٦) في الإحاطة: «وليس يُعاب». والعاب: العيب. محيط المحيط (عيب).

ولَمَّا قدمتَ الآنَ زادَ سرورُنا ... ومَقْدمك الأسنى بذاك قمين[1]
لأنك أنتَ الروحُ منّا وكلُّنا ... جسومٌ، فعند البعدِ كيف نكونُ
ولو كان قَدْرُ الحبّ فيك لقاؤنا ... إليك لكنّا باللُّزوم ندين
ولكن قَصَدْنا راحة المجد جهدنا[2] ... فراحتُهُ شَمْلَ الجميع تصونُ
هنيئًا هنيئًا أيها العَلَمُ الرضا ... بما لك في طيِّ القلوب كَمين
لك الحسنُ والإحسان والعلمُ والتُّقى ... فحبُّك دنيا للمُحِبِّ ودِين
وكم لك في بابِ[3] الخلافة من يدٍ ... أقرَّتْ لها بالصِّدق منك مَرِينُ
وقامتْ عليها للملوك أدلّةٌ ... فأنت لديها ما حييتَ مَكِينُ
فلا وجهَ إلاّ وهو بالبشر مُشْرِقٌ[4] ... ولا نطقَ إلاّ عن عُلاك مُبين
بقيتَ لربع الفضل تحمي ذِماره[5] ... صحيحًا كما قد صحَّ منك يقين
ودونك يا قطبَ المعالي بُنَيَّةً ... من الفكرِ عن حالِ المُحبِّ تُبينُ
أتتكَ ابنَ رضوانٍ تمتُّ بودّها ... وما لسوى الإغضاء منك ركون
فخلِّ انتقادَ البحثِ عن هفواتها ... ومَهِّدْ لها بالسَّمْحِ حين تكونُ
وخُذْها على عِلاّتها فحديثُها ... حديثُ غريبٍ قد عراه سكون

وهو بحاله الموصوفة؛ انتهى باختصار.

ولمَّا كتب لسان الدين إلى شيخه الرئيس الكاتب أبي الحسن الجياب قصيدة أولها[6]: [الطويل]

أمستخرجًا كَنْزَ العقيقِ بآماقي ... أُناشدك الرحمنَ في الرَّمَقِ الباقي
فقد ضعفتْ عن حمل صبري طاقتي ... عليك وضاقتْ عن زفيريَ أطواقي[7]

---

(١) قمين: جدير، خليق. لسان العرب (قمن).
(٢) في الإحاطة (ص ٩٤): «دوننا».
(٣) في الإحاطة: «دار».
(٤) في الإحاطة: «مُقْبِلٌ».
(٥) الذِّمار: ما يدافع عنه. لسان العرب (ذمر).
(٦) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن سليمان ابن الجياب الأنصاري، وترجمته في الإحاطة (ج ٤ ص ١٢٥) والكتيبة الكامنة (ص ١٨٣) ونيل الابتهاج (ص ١٣). والبيتان وجوابهما في الإحاطة (ص ١٣٧ ـ ١٣٨) والكتيبة (ص ١٨٦ ـ ١٨٨).
(٧) هذا والبيت والذي قبله سيأتيان في الجزء التاسع دون تغيير عمّا هنا.

وهي طويلة[١]، أجابه عنها بقوله: [الطويل]

سقاني فأهلاً بالمُدامةِ والساقي[٢] سُلافًا بها قامَ السرورُ على ساقِ
ولا نَقْلَ[٣] إلاّ من بدائعِ حكمةٍ ولا كأسَ إلاّ من سطورٍ وأوراق
فقد أنشأتْ لي نشوةً بعد نشوةٍ تـمـدُّ بـروحـانـيـةٍ ذات أذواق
فمن خطِّها الفاني متاعٌ لناظري وسمعي وحظُّ الروح من خطِّها الباقي[٤]
أعادتْ شبابي بعد سبعين حِجّةً فأثوابُهُ قد جُدِّدَتْ بعد إخلاق[٥]
وما كنتُ يومًا للمُدامة صاحبًا ولا قَبلَتْها قطُّ نشأةُ أخلاقي
ولا خالطتْ لحمي ولا مازَجَتْ دمي كفى شَرَّها مولاي فالفضلُ للواقي[٦]
وهذا على عهدِ الشباب فكيف لي لـها بـعد ماءٍ للشبيبة مُهْرَاقِ
تَبَصَّرْ فحكما[٧] القهوتين تخالَفَا فكم بين إثباتٍ لعقلٍ وإزهاق
وشتّان ما بين المُدامة فاعتبرْ فكم بين إنجاحٍ لسعي وإخفاق[٨]
فتلك تَهادَى بين ظُلْمٍ وظلمةٍ وهذي تهادَى بين عدلٍ[٩] وإشراقِ
أيا عَلَمَ الإحسانِ غيرَ مُنازَعٍ شهادةَ إجماعٍ عليها وإصفاق[١٠]
فضائلكَ الحُسْنى عليَّ تواترتْ بِمُنْهَمِرٍ من سُحْب فكرك غَيْداق[١١]
خزائنُ آدابٍ بعثتَ بِدُرِّها إليَّ ولم تمننْ بخشية[١٢] إنفاق
ولا مثلَ بِكْرٍ حرّة عربيّة زكيةِ أخلاقٍ كريمةِ أعراق

(١) ورد منها ٤ أبيات في الكتيبة الكامنة وبيتان في الإحاطة.
(٢) في الإحاطة: «فأهلاً بالسقاية والعناق». وفي الكتيبة: «فأهلاً بالسقاية..».
(٣) النُّقْلُ: ما يتنقّل به على الشراب. محيط المحيط (نقل).
(٤) في الإحاطة: «فمن حظِّها الفاني.. من حظِّها الباقي». وفي الكتيبة: «فمن حظِّها الباهي.. من حظّها الباقي».
(٥) الحجّة: السنة. الإخلاق: البلى والرثة. لسان العرب (حجج) و (خلق).
(٦) في الكتيبة: «وقى شرَّها.. فالشكر للواقي».
(٧) في الكتيبة: «فحكم».
(٨) في الإحاطة: «ما بين المدامين». وفي الكتيبة: «ما بين المدامين.. لسعي وإنفاق».
(٩) في الكتيبة: «بين نور..».
(١٠) في الكتيبة: «أيا علم الأعلام.. وإطباقِ».
(١١) الغيداق: الكثير الانهمال. لسان العرب (غيدق).
(١٢) في الكتيبة: «لخشية».

فأُقسم ما البيضُ الحِسانُ تبرّجَتْ [1] تُناجيك سرًّا بين وَحْيٍ وإطراق
بدورٌ بدتْ مِنْ أُفقِ أطواقها على رياض شَذَتْ في قطبها ذاتُ أطواق [2]
فناظرَ منها الأقحوانُ ثغورَها وقابلَ منها نرجسٌ سحرَ أحداق [3]
وناسب منها الوردُ خدًّا مورّدًا سقاه الشبابُ النَّضر[4] بُورِكَ من ساقِ!
وأُلبِسْنَ من صنعاء وَشْيًا مُنَمْنَمًا وحُلّينَ مِنْ دُرّ نفائسَ أعلاق
بأحلى لأفواهٍ، وأبهى لأعينٍ وأحيى[5] لألباب، وأشهى لِعُشّاق
رأيتُ بها شُهُبَ السماء تنزّلتْ إليّ تُحَيِّيني تحيّةَ مشتاق
ألاَ إنَّ هذا السحر لا سحرُ بابلٍ فقد سحرتْ قلبي المعنَّى فَمَنْ رَاقِ[6]
لقد أعجزتْ شكري[7] فضائلُ ماجدٍ أبرَّ بأحباب وأوفى بميثاق
تقاضى دُيُونَ الشعر مني منبّهًا رويدك لا تعجلْ عليَّ بإرهاق
فلو نُشِرَ الصادان من مَلْحَدَيْهما لإنصافِ هذا الدَّيْنِ لاذا بإملاق[8]
فَخُذْ بزمام الرِّفْقِ شيخًا تقاصرتْ خُطاه وعاهِدْهُ بمعهود إشفاق[9]
فلا[10] زلتَ تُحيي للمكارم رَسْمَها وقَدْرُكَ في أهل العُلا والنّهى راقي

قال: وكتبت إليه في غرض العتاب قصيدة أولها[11]: [الطويل]

أدَرْنَا وضوءُ الأُفْقِ قد صَدَعَ الفَضَا مُدامةَ عتبٍ بيننا نَقْلُها الرضا
فللّه عينا مَنْ رآنا وللحيا حَبِيٌّ[12] بآفاقِ البَشاشة أَوْمَضَا

---

(١) في الإحاطة: «تبرّمت».
(٢) في الكتيبة: «من فوق أطواقها.. ذات أوراقِ». وفي الإحاطة: «في قضبها ذاتُ..».
(٣) في الكتيبة: «يناظر منها.. حسن أحداقِ».
(٤) في الكتيبة: «الغَضُّ».
(٥) في الإحاطة: «وأحلى». وفي الكتيبة: «وأجلى».
(٦) الراقي: الذي يرقي. لسان العرب (رقى).
(٧) في الكتيبة: «نطقي».
(٨) في الكتيبة: «من مضجعيهما لإنصاف هذا الدهر..». والصادان هنا هما أبو إسحاق الصابي والصاحب ابن عباد لابتداء اسميهما بصاد.
(٩) في الكتيبة: «فخذ بذمام.. وعامله بمعهود..».
(١٠) في الكتيبة: «ولا».
(١١) هذه الأبيات وجوابها في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٣٨ ـ ١٤٠).
(١٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٦٨): «جنى». وفي الإحاطة: «حييٌ». والحَبِيُّ: السَّحاب يشرف=

نفرُّ إلى عدلِ الزمانِ الذي أتى ... ونبرأ من جورِ الزمانِ الذي مضى
ونأسو[1] كلومَ اللغط باللفظِ عاجلاً ... كذا قَدَحُ الصهباء داوى وأمرضا

فراجعني عنها بهذه القصيدة: [الطويل]

أَلاَ حبّذا ذاك العتابُ الذي مضى ... وإن جرَّهُ واشٍ بِزُورٍ تمضمضا
أغارتْ له خيلٌ فما ذَعَرَتْ حِمًى ... ولكنها كانت طلائعَ للرضا
تألّق منه بارقٌ صابَ مُزْنُهُ[2] ... على معهدِ الحُبِّ الصميم فروّضا
تلألأ نورًا[3] للصداقة حافظًا ... وإن ظُنَّ سَيفًا للقطيعة مُنْتَضَى
فإن سوّد الشيطانُ منه صحيفةً ... أتى مَلَكُ الرُّحْمٰى عليها فَبَيَّضَا
وما كان حبٌّ أحكم الصدق عهده ... لِيُرْمَى بوَسْواسِ الوشاة فَيُرْفَضا
أُعيذ ودادًا زاكي القصدِ وافيًا ... تخلّصَ من أدرانه فتمحَّضا[4]
ونيّةَ صدقٍ في رضا اللّه أخلصتْ ... سناها بآفاقِ البسيطةِ قد أضا
مَنِ الآفِكُ الساعي ليخفيَ نورها ... أيخفى شعاعُ الشمسِ قد ملأ الفضا
وكيف يحلّ المبطلون بإفكهم ... معاقِدَ حبّ أحكمتها يَدُ القضا
تعرَّض يبغي هدمَها فكأنه ... لتشييد مبناها الوثيق تعرَّضا
وحَرَّضَ في تنفيره فكأنما ... على البرِّ والتسكين والحبِّ حرّضا
وأوقد نارًا فهو يَصْلَى جحيمها ... يقلِّبُ منها القَلْبَ في موقد الْغَضَا[5]
أيا واحدي المعدود بالألف وحده ... ويا ولدي البرّ الزكي إن ارتضى
بعثتَ مِنَ الدُّرِّ النفيس قلائدًا ... على ما ارتضى حكم المحبة واقتضى
نتيجةُ آدابٍ وطبعٍ مهذَّبٍ ... أطال مَداه في البيان وأعرضا
ولا مِثْلَ بكرٍ باكرتنيَ آنفا ... كزورةِ خِلّ بعد ما كان أعرضا
هي الروضةُ الغنّاء أينعَ زهرُها ... تناظرُ حسنًا مُذَهَّبًا ومُفَضَّضا

= من الأفق على الأرض. محيط المحيط (حبا).

(١) نأسو: نداوي. لسان العرب (أسا).

(٢) في الإحاطة (ص ١٣٩): «مزنة».

(٣) في الإحاطة: «نور».

(٤) تمحّض: تخلّص من الشوائب. لسان العرب (محض).

(٥) الغضا: شجر شديد الاشتعال. لسان العرب (غضا).

أو الغادةُ الحسناءُ راقتْ فينقضي ... مدى العمر في وَصْفي لها وهو ما انقضى
تَطابقَ منها شَعْرُها وجبينُها ... فذا الليلُ مسودًّا وذا الصبحُ أبيضا
أو الشُّهبُ منها زينةٌ وهدايةٌ ... ورَجْمٌ لشيطانٍ إذا هو قُيِّضَا
أتت ببديع الشِّعْر طورًا مصرِّحًا ... بآياتك الحسنى، وطورًا معرِّضا
ومَهَّدَتِ الأعذارَ دون جنايةٍ ... ولو أنك الجاني لكنتُ المغمّضا
لكَ اللَّهُ من برّ وفيّ وصاحبٍ ... محضتُ له صدقَ الضمير فأمحضا
لسانك في شكري مُفِيضٌ تفضّلاً ... فيا حُسْنَ ما أهدى وأسدى وأقرضا
وقلبُكَ فاضتْ فيه أنوارُ خِلّتي ... فألقى[1] يَدَيْ تسليمه لي مفوّضا
وقَصْدُكَ مشكورٌ وعَهْدُكَ ثابتٌ ... وفضلُكَ منشورٌ وفعلُكَ مُرْتَضَى
فهل مَعَ هذا ريبةٌ في مودّةٍ ... بحال؟ وإن رابت[2] فما أنا معرضا
فَثِقْ بولائي إنني لك مخلصٌ ... هوًى ثابتًا يبقى فليس له انْقِضَا
عليك سلامُ اللَّه ما هَبَّتِ الصَّبا ... وما بارق جنح الدجنَّةِ أومضا

وقال لسان الدين: من غريب ما خاطبني به قوله[3]: [الرجز]

أُقْسِمُ بالقَيسين والنابغتينْ ... وشاعِرَيْ طيِّءٍ المولَّدَينْ
وبابنِ حُجْرٍ وزهيرٍ وابنه ... والأَعْشَيَينِ بَعْدُ ثم الأعميينْ[4]
ثمّ بعشّاقِ الثريّا والرقـ ... ـيات وعزّةٍ ومَيّ وبثينْ
وبأبي الشيص ودعبلٍ ومَنْ ... كشاعِرَيْ خُزَامةَ[5] المخضرمينْ
ووَلدِ المعتزِّ والرضيِّ والسريِّ ثم حسنٍ وابن الحسينْ
واختمْ بِقُسّ وبسحبانٍ وإن ... أوجب حقٌّ أن يكونا أوّلينْ[6]
وحَلْبَتَيْ[7] نثرهم ونظمهمْ ... في مشرقي أقطارهم والمغربين

---

(١) في الإحاطة (ص ١٤٠): «فأبقى».
(٢) في الإحاطة: «رأيت».
(٣) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٢) والكتيبة الكامنة (ص ١٨٨ - ١٨٩).
(٤) في الكتيبة: «بعده والأعشيين بعده والأعميين».
(٥) في الإحاطة والكتيبة: «خزاعة».
(٦) في الإحاطة: «وسبحان فإن...». وفي الكتيبة: «وإن أوجبت أن يكونا...».
(٧) في الإحاطة والكتيبة: «وحِلْيتي».

إنَّ الخطيب ابنَ الخطيب سابقٌ بنثره ونَظْمِهِ للحلبتين
راقتني[1] الصحيفةُ الحسنا التي شاهدتُ فيها المكرماتِ رأي عين
تجمعُ من براعة المعنى إلى براعة الألفاظِ كلتا الحسنيين[2]
أشهدُ أنك الذي سبقْتَ في طريقَي[3] الآدابِ أقصى الأمدينْ
شعرٌ حوى جزالةً ورقّةً تُصاغ منه حلّة[4] للشّعريين
رسائلٌ أزهارُها منثورةٌ سرورُ قلبٍ ومتاعُ ناظرين
يا أحوذيًا يا نسيجَ وَحْدِهِ شهادةٌ تنزهتْ عن قولِ مَينْ[5]
بقيتَ في مواهب اللّه التي تُقِرُّ عينيك وتملأُ اليدينْ

وحكى لسان الدين أن سعيد بن محمد الغرناطي الغساني استعار منه كتابًا، فأرسله إليه، وعلى ظهره هذه الأبيات: [السريع]

هذا كتابٌ كلُّه معجمٌ أفحمني معناهُ إفحاما
أعجمه منشئه أوّلاً وزاده الناسخُ إعجاما
أسقط من إجماله جملةً وزاد في التفصيل أقساما
وغَيَّر الألفاظَ عن وضعها وصَيَّرَ الإيجادَ إعداما
فليس في إصلاحه حيلةٌ تُرْجَى، ولو قُوبل أعواما

ولم أقف على جواب لسان الدين له عنها، واللّه تعالى أعلم.

وولد سعيد المذكور سنة ٦٩٩.

ومِمّا خُوطب به لسان الدين لَمّا تقلّد الكتابة العليا قولُ أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن البناء الوادي آشي رحمه اللّه تعالى[6]: [البسيط]

---

(١) في الإحاطة والكتيبة: «وافَتْنِيَ».
(٢) في الإحاطة: «من براعة المعنى إلى براعة..».
(٣) في الكتيبة: «طريقة الآداب».
(٤) في الإحاطة والكتيبة: «حلية».
(٥) المَيْنُ: الكذب. لسان العرب (مين).
(٦) هو علي بن محمد بن علي بن البنا، من أهل وادي آش، توفي سنة ٧٠ هـ، ترجمته وقصيدته الرائية في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٦٧ ـ ١٦٨).

هو العلاء[1] جرى باليُمْن طائرُهُ — فكان منكَ على الآمال ناصرُهُ
ولو جرى بك ممتدًا إلى أمدٍ — لأعجزَ الشمسَ ما آبتْ[2] عساكرُهُ
لقد حباه منيعَ العِزِّ خالقُهُ — بفاضلٍ منك لا تُحْصَى مآثرُهُ
فَلْيَزْه فخرًا فما خَلْقٌ يُعارِضُهُ — ولا علاءٌ[3] مدى الدنيا يفاخرُهُ
للّه أوصافك الحسنى لقد عجزتْ — من كلِّ ذي لَسَنٍ عنها خواطرُهُ
هيهات ليس عجيبًا عجزُ ذي لسنٍ — عن وصفِ بحرٍ رمى بالدُّرِّ زاخرُهُ
هل أنت إلاَّ الخطيبُ ابن الخطيب ومن — زانتْ حُلَى الدين والدنيا مفاخره
فإن يُقصِّرْ عن الأوصاف ذو أدبٍ — فما بَدَا منك في التقصير عاذرُهُ
يا ابنَ الكرام الأُلى ما شَبَّ طفلُهُمُ — إلاَّ وللمجد قد شُدَّتْ مآزرُهُ
مهلاً عليك فما العلياءُ قافية — ولا العلاء بِسَجْعٍ أنتَ ناثرُهُ
ولا المكارمُ طِرْسًا أنتَ راقمُهُ — ولا المناقبُ طِبًّا أنتَ ماهرُهُ
ماذا على سابقٍ يَسْري إلى سَنَنٍ — إن كان في رفقِه[4] خِلٌّ يُسايرُهُ
سِرْ حيثُ شئتَ من العلياء متئدًا[5] — فما أمامَكَ سبّاقٌ تحاذرُهُ
أنتَ الإمامُ لأهل الفخر إن فخروا — أنت الجوادُ الذي عَزَّتْ أوافرُهُ[6]
ما بَعْدَ ما حُزْتَهُ مِنْ عِزّةٍ وعُلاً — شأوٌ يُطاردُ فيه المجدَ كابرُهُ
نادتْ بك الدولة النصريُّ مَحْتِدُها — نداءَ مستنجدٍ أزرًا يوازرُهُ[7]
حَلَّيْتَها برداء البرِّ مرتديًا — وصُبْحُ يُمْنِكَ فَجْرُ السَّعْدِ سافرُهُ[8]
فالملكُ يرفلُ في أبْراده مَرَحًا — قد عَمَّتِ الأرضَ إشراقًا بشائرُهُ
فاهنأْ بها نعمةً ما إن يقومُ لها[9] — من اللسان ببعضِ الحَقِّ شاكرُهُ

---

(١) في الإحاطة: «العُلا».
(٢) في الإحاطة: «ما أَمَّتْ».
(٣) في الإحاطة: «عُلاً».
(٤) في الإحاطة (ص ١٦٨): «من نفعه».
(٥) في الإحاطة: «من العليا سيّدًا».
(٦) في الإحاطة: «مفاخره».
(٧) في الإحاطة: «الشُّعرى محتدها نداء مستجدٍ..».
(٨) في الإحاطة: «حلية لما برد.. وصبّح يمنك.. ساجرُهُ».
(٩) في الإحاطة: «فأضاء بها نعمة.. فيها».

وليهنها أنها ألقتْ مقالدها   إلى زكيّ زكتْ منه عناصرُهُ[1]
فإنه بدرُ تِمّ في مطالعها   قد طَبَّقَ الأرضَ بالأنوار نائرُهُ

وقال لسان الدين: وأهدى إليّ قباقب خشب جوز وكتب معها[2]: [الخفيف]

هاكها ضُمَّرًا مطايا حسانا   نشأتْ في الرياض قُضْبًا لِدانا
وثَوَتْ بين روضةٍ وغديرٍ   مُرْضعاتٍ من التَّمير لبانا
لابساتٍ من الظلال بُرُودًا   دونها القُضْبُ رقّة وليانا[3]
ثم لَمَّا أراد إكرامها اللّه   وسَنَّى لها المُنَى والأمانا
قَصَدَتْ بابك العليَّ ابتدارًا   ورَجَتْ في قبولك الإحسانا

قال: فأجبته: [الخفيف]

قد قبلْنا جيادَكَ الدُّهْمَ لَمَّا   أنْ بَلَوْنا منها العِتاق الحسانا
أقبلتْ خلفَ كلِّ حِجْرٍ تبيعٍ[4]   خَلَعَتْ وصفها عليه عيانا
فعنيْنا برعيها وفسحْنا   في ربوع العلا لها ميدانا[5]
وأردْنا امتطاءها فاتخذْنا[6]   من شراكِ الأديم فيها عنانا
قدمتْ قبلها كتيبة سحرٍ   من كتاب سَبَتْ به الأذهانا
مثل ما تجنُبُ الجيوشُ المذاكي[7]   عُدَّةً للقاء مهما كانا
لم يرقْ مُقْلتي ولا راق قلبي   كَحُلاها براعةً وبيانا[8]
من يكن مُهْديًا فمثلك يُهْدي   لم أجدْ للثَّنا عليك لسانا

---

(١) في الإحاطة: «ولْيُهْنِنا أنه.. إلى سريّ زكتْ..».
(٢) الأبيات وجوابها في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٦٩).
(٣) هذا البيت غير وارد في الإحاطة.
(٤) في الإحاطة: «ببيع».
(٥) في الإحاطة: «فقبلْنا برعيها.. ديار العلى».
(٦) في الإحاطة: «فأفخذنا».
(٧) تجنب الجيوش: أي تسير بجانب الدواب التي تركبها. المذاكي: الخيل الجواد. لسان العرب (جنب) و (ذكا).
(٨) في الإحاطة: «لم ترق مقلتي ولا رقّ قلبي كحلاها..».

وقال لسان الدين: ومن أبدع ما هَزَّ به إلى إقامة سوقه، ورعي حقوقه، قوله[1]:
[البسيط]

يا معدنَ الفضلِ موروثًا ومكتسبًا ... وكلّ[2] مجدٍ إلى عليائه انتسبا
بباب مجدكم الأَسمى أخو أدبٍ ... مستصرخٌ بكمُ يستنجدُ الأدبا
ذلَّ الزمانُ له طورًا فبلَّغه ... من بعض آماله فوق الذي طلبا
والآن أركبه مِنْ كلِّ نائبةٍ[3] ... صَعْبَ الأعنّةِ لا يألو به نَصَبا
فَحَمَّلَتْهُ دواعي حُبُّكُمْ وكفى ... بذاك شافعُ صِدْقٍ يبلغ الأربا
فهل سرى نسمةٌ من جاهكم فبها[4] ... خليفةُ اللّه فينا يمطر الذهبا

وقال لسان الدين في «الإكليل» في حقِّ المذكور ما صورته[5]: فاضل يروقك وقارُه، وصقرٌ بَعُدَ مطارُه. قدم من بلده[6] يروم اللحاق بكُتّاب الإنشاء وتوسل بنظم أنيق، ونسيب في نسب الإجادة عريق، تُعْرب براعته عن لسان ذليق، وطبع طليق، وذكاء بالأثرة خليق، وبينما هو يُلْحم في ذلك الغرض ويُسْدِي، ويعيد ويبدي، وقد كادت وسائله أن تنجح، وليل[7] رجائه أن يصبح، اغتاله الحِمام، وخانَتْه الأيام، والبقاء للّه تعالى والدوام. توفي بالطاعون في عام واحد[8] وخمسين وسبعمائة وسنُّهُ دون الثلاثين، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

ولَمَّا خُوْطِبَ لسانُ الدين من سلطان تونس بما لم يحضرني الآن أجاب عنه بما نَصُّه: «المقام الإمامي الإبراهيمي المولوي المستنصري الحَفْصي، الذي كَرُمَ فرعًا وأصلاً، وشرف جنسًا وفصلاً، وتملّى في[9] رعاية المجد، من لَدُن المَهْدِ، كرمًا وخصلاً، وصَرَفت

(١) الأبيات في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٦٨).
(٢) في الإحاطة: «فكلُّ».
(٣) في الإحاطة: «نابية».
(٤) في الإحاطة: «فيها».
(٥) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٦٧).
(٦) في الإحاطة: «من بلده وادي آش».
(٧) في الإحاطة: «وليلة رجائه أن تصبح».
(٨) في الإحاطة (ص ١٦٩): «عام خمسين وسبعمائة».
(٩) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٣١): «في ظلِّ رعاية..».

متجرّدة الأقلام، إلى مَثابة خلافته المنصورة الأعلام، وُجُوهَ عبارة الكلام، فاتّخذ من مقام إبراهيم مُصَلّى، مقامُ مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام أبي إسحٰق ابن مولانا أبي يحيىٰ أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين، أبقاه اللّٰه تعالى تهوي إليه الأفئدة كلّما انتشت بذكره! وتتنافس الألسنةُ في إحراز غاية حمده وشكره! وتتكفّل الأقدارُ بإنفاذ نَهيه وأمره! وتغرى عواملُ عوامِلِه[1] بحذف زيد عدوّه وعَمْرِه! ويَتَبَرَّع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بِيضِهِ وسُمْره! ولا زال حُسَامه الماضي يغني يومُه في النصر عن شهره، والروضُ يحييه بمباسم زهره، ويرفع إليه[2] رُقَعَ الحمدِ ببنان قضبه الناشئة من مِعْصَم نهره، وولي الدنيا والآخرة يمتعنا بهما بعد الإعانة على مَهْرِه، يُقَبِّلُ بساطَهُ المعوَّدَ الاستلام بصفحات الخدود، الرافع عماده ظِلُّ العدل الممدود، عَبْدُ مقامه المحمود، ووارِدُ غَمْرِ إنعامه غير المنزور ولا المثمود[3]، المُثْني على نعمه العميمة، ومِنَحِهِ الجسيمة، ثناءَ الروضِ المَجُود، على العُهُود[4]، ابنُ الخطيب، من باب المولى الموجب حقّه، المتأكّد الفروض، الثابت العهود، المعتدّ منه بالودّ الجامع الرسوم والحدود، والفضل المتوارَث عن الآباء والجدود، يسلم على مَثَابتها سلامَ متلو على مثلها إن وجد المثل في الثاني، ويعوّذ كمالَها بالسبع المثاني، ويدعو اللّٰه تعالى لسلطانها بتشييد المباني، وتيسير الأماني، ويُنْهي إلى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدّسة بما يناسب التوحيد، المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد، أنَّ مخاطبتها المولوية تاهتْ على الملوك فارعة العلا، مُزَعْفَرة الحلل والحلى، ذهبية المجلى، تفيد العزَّ المكين، والدنيا والدّين، وتُرْعى في الآباء والبنين، على مَرِّ السنين ﴿صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ الناظرينَ﴾[5]، قد[6] حملت من مدحها الكريم ما أخفى للملوك من قرة عَيْن، ودرّة زين، جبين الشرف الوضّاح، ومستوجب الحقّ على مثله من الخلق بالنسب الصُّراح، والغُرَر والأوضاح[7]، والأرَجِ الفَوّاح، فاقتنى درّه النفيس، ووجد المروع في جانب الخلافة

---

(١) العوامل: جمع عامل وهو صاحب العمل. عوامله: جمع عامل وهو صدر الرمح. لسان العرب (عمل).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٧٤): «ويرفع رقع إليه..».

(٣) المثمود: القليل. لسان العرب (ثمد).

(٤) العهود: جمع عهاد وهو أول مطر السنة. لسان العرب (عهد).

(٥) سورة البقرة ٢، الآية ٦.

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٣٢): «وقد».

(٧) الأوضاح: جمع وضح وهو الغرّة. لسان العرب (وضح).

التنفيس، وقراه لما قراه التعظيم والتقديس، وقال ﴿يا أيها المَلأُ إني أُلقيَ إليّ كتابٌ كريمٌ﴾[1] وإن لم يكن بلقيس[2]، أعلى اللّه تعالى تلك اليد مُطَوّقة الأيادي، ومخجلة الغمائم والغَوادي، وأبقاها عامرة النوادي، غالبة الأعادي، وجعل سيفها السفّاح ورأيها الرشيد وعَلَمها الهادي، ووصل ما ألطف به رعيها من أشتات برّ بلغت، وموارد فضل سوّغت، أمدّتها سعادة المولى بمدد لم يضر معه البحر الهائل، ولا العدوّ الغائل، وأقام أَوَدَها[3] عند الشدائد الفُلك المائل، لا بل الملك الذي له إلى اللّه الوسائل، وحَسِبَ الجفن رسالتكم الكريمة لحظًا فصان وأكرم، وعُوذَةً فتعوّذ بها وتحرّم، وتولى المملوك تنفيق عروضها بانشراح صدره، وعلى قدره، فوقعت الموقع الذي لم يقعه سواها، فأمّا الخيل فأُكرم مثواها، وجُعلت جنان الصون مأواها، ولو كسيت الربيع المزهر حللاً، وأوردت في نهر المجرّة عَلاً ونَهَلاً، وقلّدت النجوم العواتم صحلاً، ومسحت أعطافها بمنديل النسيم، وألحفت بأردية الصباح الوسيم، وافترشت لمرابطها الحَشايا، وأُقضمت[4] حبات القلوب بالعشايا، لكان بعض ما يجب، لحقّها الذي لا يجحد فضله[5] ولا يحتجب، وما عداها من الرقيق والقيان[6]، رُعَاة ذلك الفريق تكفّله الاستحسان، وأطنب الاعتقاد وإن قصر اللسان، تولّى اللّه تعالى تلك الخلافة بالشكر الذي يُخسِبُ العطاء، والحفظ الذي يُسْبل الغِطاء، والصنع الذي ييسّر من مطا الآمل الامتطاء، وأمّا ما يختصُّ بالملوك فقد خصّه بقبوله تبرّكًا بتلك المقاصد التي سدّدها الدِّين، وعدّدها الفضلُ المبين، وأنشد الخلافة التي راق من مجدها الجبين: [الكامل]

قَـلَّـدْتَـنِـي بـفـرائـدِ أَخْـرَجْـتَـهـا ... مِنْ بحرِ جودك وهو ملتطمُ الثَّبَجْ[7]
ورعيـتَ نسبتَـهـا فإنَّ سبيكـةً ... مِمّا يلائم لونَها قطعَ السَّبَجْ[8]

---

(١) سورة النمل ٢٧، الآية ٢.

(٢) بلقيس: ملكة سبإ في عهد سليمان بن داود عليهما السلام، وقد أورد اللّه تعالى قصتها مع سليمان عليه السلام في سورة النمل.

(٣) الأودُ، بالفتح: الاعوجاج.

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٧٦): «وانضمت».

(٥) كلمة «فضله» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٦) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٣٣): «والفتيان».

(٧) الثَّبَجُ: وسط الشيء ومعظمه. لسان العرب (ثبج).

(٨) السَّبَجُ: خرز أسود. لسان العرب (سبج).

والمملوك بهذا الباب النصري أعزّه اللّه تعالى على قدم خدمة، وقائم بشكر منّه لكم ونعمة، وحاضر في جملة الأولياء بدعائه وحُبِّه، ومتوسّل في دوام بقاء أيامكم ونصر أعلامكم إلى ربّه، وإنْ بَعُدَ بجسمه فلم يبعد بقلبه، والسلام الكريم، الطيب البَرّ العميم، يخصُّها دائمًا متصلاً، ورحمة اللّه تعالى وبركاته»؛ انتهى.

ومِمّا خوطب به لسان الدين قول أبي الحسن علي بن يحيىٰ الفزاري المالقي المعروف بابن البربري[1]، وكان ممن يمدح الملوك والكبراء: [الطويل]

لِبَابِكَ أمَّ الآمِلُونَ ويَمَّمُوا — وفي ساحَتَيْ رحماك حطُّوا وخيّموا
ومِنْ راحَتَيْ كَفَّيْكَ جدواك تنهمي[2] — فتروَى عطاشٌ مِنْ نَداك وتنعمُ
وأنت لما راموه كعبةُ حَجِّهم — إذا شاهدوا مرآك لَبَّوْا وأحرموا
يطوفون سَبْعًا حول بابك عندما — يلوحُ لهم ذاك المَقامُ المُعَظَّمُ
فيُمْناكَ يُمْنٌ للرعايا ومنَّةٌ — ويُسْراكَ يسرٌ[3] للعُفاة ومَغْنَمُ
ولُقْياكَ بِشْرٌ للنفوسِ وجنَّةٌ — ترنُ[4] بها وُرْقُ المنى وتَرَنَّمُ
فيا واحدَ الأزمانِ علمًا ومَنْصِبًا — ويا[5] مَنْ به الدنيا تروقُ وتبسمُ
ومَنْ وَجْهُهُ كالبدر يُشْرِقُ نورُهُ — ومَنْ جودُه كالغَيثِ بل هو أكرم
ومَنْ ذِكْرُهُ كالمِسْكِ فُضَّ ختامُهُ — وكالشمس نورًا بشرُه المتوسَّمُ
لقد حُزْتَ فضلَ السبق غيرَ منازَعٍ[6] — فأنتَ على أهل السباق مُقَدَّمُ
حويتَ من العلياء كلَّ كريمةٍ — بها الروضُ يَنْدَى والرُّبا تَتَبَسَّمُ
وباهَيْتَ أقلامَ الفئام[7] براعةً — فلا قلمٌ إلاّ يراعَكَ يخدم

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٧٦): «البرزي». وترجمة علي بن يحيىٰ الفزاري البربري وقصيدته الميمية في الإحاطة (ج ٤ ص ١٩٥).

(٢) في الإحاطة: «جدوًا تهمى».

(٣) في الإحاطة: «يُسْرًا».

(٤) في الإحاطة: «تزقُّ».

(٥) كلمة «ويا» غير واردة في الإحاطة.

(٦) في الإحاطة: «معاند».

(٧) في الإحاطة: «المقام». والفئام: الجماعة من الناس.

إذا[1] فاخرَ الأمجادُ يومًا فإنما لمجدك في حال الفخار يُسَلِّمُ
وإن سكتوا كنتَ البليغَ لديهمُ تُعَبِّرُ عن سِرِّ العُلا وتترحمُ[2]

ومنها:

فيا صاحبَيْ نجواي عُوجَا بِرامَةٍ على رَبْعِهِ حيثُ النَّدى والتَّكرمُ
وقولا له عَبْدٌ[3] ببابك يرتجي قضاء لُباناتٍ لديك تُتَمَّمُ
فليس له إلاّ عُلاك وسيلةٌ ولا شيء أَسْمَى من علاكَ وأعظمُ
فَجُدْ بالذي يرجوه منك[4] فما له كعقدٍ ثمينٍ من ثنائك يُنْظَمُ
بقيتَ ونجمُ السَّعْدِ عندك طالعٌ يُضيء له بَدْرٌ وتشرقُ أنجمُ

توفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة، انتهى.

ومِمّا خوطب به قولُ أبي القاسم قاسم بن محمد الحرالي المالقي القاضي بأنتقيرة[5] قبل وفاته: [الطويل]

عليكَ قصرتُ المدحَ يا خيرَ ماجدٍ وأفْضَلَ موصوفٍ بكلِّ المحامدِ
ويا كهفَ ملهوفٍ وملجأ خائفٍ وموردَ جود قد كفى كلَّ وارد
لقد شُهِرَتْ بالمجد منك شمائلٌ محاسنُها أزكى وأعدلُ شاهدِ
وكلُّ الذي يبدو من الفضل بعضُ ما حُبيت به، أَعْظِمْ بها من مشاهد[6]
إذا أمّلت منك المكارمُ أُلْفِيَتْ تُنادي هلمُّوا فزتُمُ بالمساعدِ
عطاؤكم جَزْلٌ فمن أمَّلَ الغنى فمثلَكم يبغي فيا سعدَ قاصد
وراثةُ مجدٍ كابرًا بعد كابرٍ وأصلٌ زكيٌّ الفرعِ عذبُ الموارد

وتوفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة. وفي حقه يقول في «الإكليل»: مشمّر في الطلب عن ساق، مُثابر على اللحاق، بدرجات الحذّاق، منتحل للعربية، جادّ في

(١) في الإحاطة: «وإذا»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الإحاطة: «يُعَبِّرُ.. ويترجمُ».
(٣) .كلمة «عبد» غير واردة في الإحاطة.
(٤) في الإحاطة: «المنْك».
(٥) كلمة «أنتقيرة» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٧٥). وأنتقيرة: بالإسبانية Antequera، وهي مدينة تبعد عن مالقة حوالى ستين كلم.
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٣٥): «محامد».

إحصاء خلافها، ومُعاطاة سُلافها، وربما شرست في المذاكرة أخلاقه، إذا بُهْرِجتْ أعلاقه، ونوزع تمسّكه بالحجّة واعتلاقه.

وقال لسان الدين في ترجمة شعر المذكور: إنه ضعيف مهزول، انتهى.

ومِمّا خوطب به قول أبي الحجاج يوسف بن موسى الجذامي المنتشاقري[1] من أهل رُنْدَة، ونصُّه: [الطويل]

حَبَاك فؤاديَ نيلَ بشرى وأحياكا | وحيدٌ بآدابٍ نفائسَ حيّاكا
بدائعُ أبداها بديعُ زمانِهِ | فطاب بها يا عاطرَ الروض رَيَّاكا
أمهديَها أودعتَ قلبي علاقةً | وإن لم يزل مُغْرًى قديمًا بعلياكا
إذا ما أشار العصرُ نحو فريدِهِ | فإياك يَعْني بالإشارة إياكا[2]
لأتحفني لُقياكَ أسنى مؤمَّلي | وهل تُحْفَةٌ في الدهر إلاّ بِلُقْياكا
وأَعقبتَ إتحافي فرائدكَ التي | وجوبُ ثناها يا لسانيَ أَعياكا

ووصل هذا النظم بنثر صورته[3]: «خصصتني أيها المخصوص بمآثِرَ أعيا عَدُّها وحَصْرُها، ومكارم طَيِّبَ أرواحَ الأزاهر عِطْرُها، وسارت الركبان بثنائها، وشملت الخواطر محبّة علائها، بفرائدك الأنيقة، وفوائدك المزرية جمالاً على أزهار الحديقة، ومعارفك التي زكتْ حقًّا وحقيقة، وهَدَت الضالَّ عن سبيل الأدب مَهْيَعه[4] وطريقه، وسَبَقُ تحفتك[5] أعلى التحف عندي وهو مأمول لقائك، والتمتّع بالتماح سَناك الباهر وسنائك، على حين امتدّت لذلكم[6] اللقاء أشواقي، وعظم من فوت استنارتي بنور محيّاك إشفاقي، وتردّد لَهَجي بما يبلغني من معاليك ومعانيك، وما شاده فكرك الوقّاد من مبانيك، وما أَهَلَّت به

(١) هو يوسف بن موسى بن سليمان الجذامي؛ من أهل رندة، يكنى أبا الحجاج. ترجمته في الإحاطة (ج ٤ ص ٣٧٧) وفيه: «المنتشافري» بالفاء. وأبياته الكافية في الإحاطة (ص ٣٧٩). والمنتشاقري: نسبة إلى منتشاقر Monte Sacro في مقاطعة أكشونبة.
(٢) في الإحاطة: «نحو فِرِنْده فإياك أعني..».
(٣) الإحاطة (ج ٤ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠).
(٤) المَهْيَعُ: الطريق الواسع الواضح. لسان العرب (هيع).
(٥) في الإحاطة: «تحفتك عندي أعلى التحف..».
(٦) في الإحاطة (ص ٣٨٠): «لذلك».

بلاغتك من دارسه[1]، وما أضفيت[2] على الزمان من رائق ملابسه، وما جمعت من أَشتاته، وأحييت من أمواته، وأيقظت من سِناته[3]، وما جاد به الزمان من حَسَناته. فلترداد هذه المحاسن من أنبائك، وتصرُّف الألسنة بثنائك، علقت النفسُ من هواها بأشدّ عَلاقة، وجنحت إلى لقائك جُنُوحَ والهة مُشْتاقة، والحوادث الجارية تَصْرِفُها، والعوائق الحادثة كلّما عطفت أملها[4] إليه لا تتحفها به ولا تَعْطِفها، إلى أن ساعد الوقت، وأسعد البخت، بلقائكم[5] في هذه السفرة الجهادية، وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيتي بأسنى هديّة، فلقيتكم لُقْيا خَجَل، ولمحت أنواركم لمحة على وَجَل، ومحبتي[6] في محاسنكم الرائقة، ومعاليكم الفائقة، على ما يعلمه ربّنا عزَّ وجلَّ، وتذكرت عند لقائكم المأمول، إنشاء قائل يقول: [البسيط]

كانت مساءَلَة الركبانِ تخبرُ عن ... محمدِ بن الخطيب أطيبَ الخبرِ [7]
حتى التقيْنا فلا واللّه ما سمعتْ ... أُذْني بأحسنَ مِمّا قد رأى بصري

قسمٌ[8] لعمري أقوله وأعتقده، وأعتدّه وأعتمده، فلقد بهرت منك المحاسن، وفُقْتَ مَنْ يُحاسن، وقَصَّر عن شأوك كلُّ بليغ لَسِن، وسبقَتْ فِطْنتك النارية النُّورية بلاغة كلِّ فَطِن، وشهد لك الزمان أنك وَحيدُه، ورئيس عصبته الأدبية وفريده، فبورك لك فيما أُنِلْت من الفضائل، وأُوتيت من آيات المعارف التي بها نور الغزالة ضائل[9]، ولا زلت ترقى[10] في مراتب المعالي، مُوَقًّى صروف الأيام والليالي»؛ انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٣٦): «من دراسة» وهذا ما لا يوافق السجعة، ومعناه غير واضح.
(٢) في الإحاطة: «وما أَضْفَتْ».
(٣) السِّنات: جمع سِنة وهي النوم. لسان العرب (وسن).
(٤) في الإحاطة: «بأملها».
(٥) في الإحاطة: «بلقياكم».
(٦) في الإحاطة: «ومهجتي».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٧٩): «بن خطيب..» وفي الإحاطة: «كانت محادثة الركبان.. بن خطيب..».
(٨) في الإحاطة: «قسمًا».
(٩) في الإحاطة (ص ٣٨١): «هايل».
(١٠) في الإحاطة: «مُرَقًّى».

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصُّه[1]: [الطويل]

حمدتُ[2] على فرطِ المشقةِ رحلةً أتاحتْ لعينيَّ اجتلاء محيّاكا
وقد كنتُ بالتذكار في البعد قانعًا وبالريح أن هَبَّتْ بعاطرِ ريّاكا
فحلَّتْ[3] ليَ النُّعمى بما أنعمتْ به عليَّ فحيّاها الإلهُ وحيّاكا

«أيها[4] الصدر الذي بمخاطبته يُباهى[5] ويُتَشَرَّفُ، والعلَم الذي بالإضافة إليه يُتَعَرَّفُ، والروضُ الذي لم يزل على البعد بأزهاره الغضّة يُتْحِفُ. دُمْتَ تتزاحم على موارد ثنائك الألسن، ويَرْوِي[6] الرواة من أنبائك ما يَصِحّ ويَحْسُن، طالما مالت إليك النفوسُ منّا وجَنَحَتْ، وزجرت الطائر الميمون من رُقاعك كلَّما سَنَحَتْ. فالآن اتّضح البيان، وصدّق الأثر العِيان، ولقد كنّا للمُقام بهذه الرِّحال نرتمض[7]، ويَجِنُّ الظلام فلا نَغْتمض، هذا يُقْلِقُه إصفار كِيسه، وهذا يتوجَّع لِبُعْدِ أَنِيسه، وهذا تروِّعه الأهوال، وتضجره بتقلُّباتها الأحوال. فمن أنّةٍ لا تنفع، وشكوى إلى اللّه تعالى تُرفع. فلمّا ورد بقدومك البشير، وأشار إلى ثَنِيّة[8] طلوعك المشير، تشوفت النفوس الصَّدِيّة[9] إلى جلائها وصِقالها، والعقول إلى حلِّ عِقالها[10]، والأنفس المُفْحَمة[11] إلى فصل مَقالها، ثم إنّ الدهر[12] راجَع التفاته، واسْتَدْرك ما فاته، فلم يسمح من لقائك إلاّ بلمحة، ولا بعث من نسيم روضك بغير نفحة، فما زاد أنْ هَيَّج الأشواق فالتهبت، وشَنَّ غاراتها على الجوانح فانتهبت، وأعلَّ القلوب وأمرضها، ورمى ثغرة الصبر فأصاب غَرَضَها، فإن رأيت أن تنفِّس عن نَفْسٍ شدَّ الشوق مُخَنَّقَها، وكدَّر مشاربَ أُنسها وأذهب رَوْنَقَها، وتُتْحِف من آدابك بِدُرَرٍ تُقْتنى، وروضة طيبة

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٠) والإحاطة (ج ٤ ص ٣٧٨).
(٢) في الكتيبة: «حفظت».
(٣) في الكتيبة: «فجاءت». وفي الإحاطة: «فَجَلَتْ».
(٤) هذا النص النثري في الإحاطة (ج ٤ ص ٣٧٨).
(٥) في الإحاطة: «يُبْأى».
(٦) في الإحاطة: «وتروى للرواة ما يصحّ من أنبائك ويحسن..».
(٧) نرتمض: نحترق. لسان العرب (رمض).
(٨) أصل الثنيّة المكان الصاعد في الجبل. لسان العرب (ثنا).
(٩) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٣٨): «الصدئة». والصديّة: العطشى. لسان العرب (صدى).
(١٠) العِقال في الأصل ما تربط به الدابة. لسان العرب (عقل).
(١١) في الإحاطة: «والألسن المعجمة».
(١٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٨٠): «الداهر».

الجَنَى، فليس ببدع من شيمك، ولا شاذّة في باب كرمك. ولولا شاغل لا يبرح، وعوائق أكثرها لا يُشرح، لنافسْتُ هذه السّحاءة[١] في القدوم عليك، والمثول بين يديك، فتشَوُّقي[٢] إلى اجتلاء أنوارك شديد، وتَشَيُّعي إلى[٣] إبلاء الزمان جديد»؛ انتهى.

ووصف لسان الدين في «التاج المحلّى» أبا الحجاج المذكور بما صورتُه[٤]: حسنة الدهر الكثير العيوب، وتَوْبةُ الزمان الجمِّ الذنوب، ما شئت من أدب[٥] يتألّق، وفضل تتعطّر به النسمات وتتخلّق، ونفس كريمة الشمائل والضرائب، وقريحة يقذف بَحْرُها بدرر[٦] الغرائب، إلى خشية للّه تعالى تحول بين القلوب وقرارها، وتَثْني النفوس عن اغترارها، ولسان يبوح بأشواقه، وجفن يسخو بِدُرَر آماقه، وحرص على لقاء كل ذي علم وأدب، ومن يَمُتُّ إلى أهل الديانة والعبادة بسبب، سبق بقُطْره الحَلْبة، وفَرَعَ[٧] من الأدب الهضبة، ورفع الراية، وبلغ في الإحسان الغاية، فطارت قصائده كلَّ المطار، وتغنَّى بها راكب الفُلْك وحادي القطار، وتقلّد خُطَّة القضاء ببلده، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده، فوضحت المذاهبُ بفضل مذهبه، وحُسْن مقصده. وله شيمة في الوفاء تعلَّم منها الأس، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكؤس[٨]، وقد أثبتُّ من كلامه ما تتحلى به مراتب[٩] المهارق، ويجعل طِيبُه فوق المفارق. وكنت أتشوَّقُ إلى لقائه، فلقيته بالمحلَّة من جبل[١٠] الفتح لُقْيا لم تبلَّ صَدًا، ولا شَفَتْ كمدًا، وتعذَّر بعد ذلك لقاؤه، فخاطبته[١١] بهذه الرقعة:

حمدت على فرط المشقة رحلة

فذكر لسان الدين ما قدّمنا إلى آخره.

---

(١) السحاءة: ما يكتب عليه من ورق وغيره.
(٢) في الإحاطة: «فتشوفي».
(٣) في الإحاطة: «على».
(٤) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٧٧ - ٣٧٨).
(٥) في الإحاطة: «من بِشْرٍ يتألّق، وأدب..».
(٦) في الإحاطة: «بدور».
(٧) فَرَع الهضبةَ: علاها ووصل إلى قمتها. لسان العرب (فرع).
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٨١): «الأكواس» وهذا مما لا يوافق السجعة.
(٩) في الإحاطة: «ترايب».
(١٠) في الإحاطة: «من ظاهر جبل الفتح..».
(١١) في الإحاطة: «فخاطبته بقولي».

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلّفاته، ولنلخّص بعض ذلك فنقول:

ومن شعر أبي الحجاج المذكور يمدح الجهة الكريمة النبوية، مُصَدِّرًا بالنسيب لبسط الخواطر النفسانية، قوله[1]: [الكامل]

لما تناهى الصَّبُّ في تشويقه ... دررُ الدموعِ اعتاضها بعقيقِهِ
متلهِّفٌ وفؤادُهُ متلهِّبٌ ... كيف البقا بعد احتدام حريقِهِ
متموِّجٌ بحرُ الدموع بخدِّه[2] ... أنّى خلاصٌ يُرْتجى لغريقِهِ
متجرعٌ صابَ[3] النوى من هاجرٍ ... ما إن يحنُّ لِلاعِجاتِ مشوقِهِ
يسبي الخواطرَ حُسْنُهُ ببديعه ... يُضْبي النفوسَ جمالُه بأنيقه
قَيْدُ النواظر إذ يلوحُ لرامقٍ ... لا تنثني[4] الأحداقُ عن تحديقه
للبدر لَمْحَتُهُ كَبِشْرِ ضيائه ... للمِسْكِ نَفْحته كنشرِ فتيقه[5]
سكرتْ خواطرُ لامحيهِ كأنهم ... شربوا من الصهباء كأسَ رحيقه
عطشوا لثغرٍ لا سبيلَ لريقه ... إلاّ كلمحهمُ للمع بريقه
ما ضرَّ مولًى عاشقوه عبيدُه ... لو رقَّ إشفاقًا لحالِ رقيقه
عنه اصطباري ما أنا بِمُطيعه ... مثلُ السُّلوِّ ولا أنا بِمُطيقه
سَجْعُ الحمام يَشُوق[6] ترجيع الهوى ... فأثار شجوَ مشوقه بِمَشُوقه
وبكتْ هَديلاً راعها تفريقه ... ويحقُّ أن يبكي أخو تفريقه
وبكاءُ أمثالي أحقُّ[7] لأنني ... لم أقضِ للمولى أكيدَ حقوقه
وغَفَلْتُ في زمن الشباب المنقضي ... أقْبِحْ بنسخ برورِهِ بعقوقه
وبدا المشيبُ وفيه زجرُ ذوي النُّهى ... لو كنتُ مزدجرًا لِشَيْمِ[8] بروقه

---

(١) القصيدة في الإحاطة (ج ٤ ص ٣٨١ ـ ٣٨٤).
(٢) في الإحاطة: «بنجده».
(٣) الصاب: شجر مرٌّ.
(٤) في الإحاطة: «لا تنشني».
(٥) الفتيق: المسك تستخرج رائحته بضمّ شيء إليه. لسان العرب (فتق).
(٦) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٤٠): «يشوق».
(٧) في الإحاطة: «حقٌّ».
(٨) الشَّيْم: مصدر «شام»؛ يقال: شام البرقَ إذا نظر أين يقع مطره. لسان العرب (شيم).

حسبي ندامةُ آسفٍ مِمّا جنى ... يصلُ النشيجَ[1] لوزره بشهيقه
ويروم[2] ما خرم الهوى زمن الصِّبا ... ويرومُ من مولاه رَتْقَ فُتوقه
ويردُّ الشكوى لديه تذلّلاً ... عَلَّ الرضا يُحْييه دركُ لحوقه
فيصحُ مِنْ سكر التصابي سكره [3] ... نسخًا لحكم صَبُوحه وغَبُوقه
لو كنت يممتُ التُّقَى وصحبْتُه ... وسلكتُ إيثارًا سَوَاءَ طريقِهِ[4]
لأفدت منه فوائدًا وفرائدًا ... عرضتْ تُسَامُ لرابح[5] في سوقه
للّه أربابُ القلوبِ فإنهم ... مِنْ حزبِ مَنْ نال الرِّضا وفريقِهِ
قاموا وقد نام الأنام فنورهم ... هَتَكَ الدُّجى بضيائه وشُروقه
وتأنَّسوا بحبيبهم فلهم به ... بِشْرٌ لصدقِ الفضلِ في تحقيقه
قَصَّرْتُ عنهم عندما سبقوا المدى ... ولسابقٍ فَضْلٌ على مَسْبوقه
لولا رجاءُ تَلَمُّحٍ[6] من نورهم ... يحيي الفؤادَ بسيره وطروقه
وتأرُّجٌ يُسْتافُ من أرواحهم ... سَبَبُ انتعاش الروح طيبُ خَلُوقِهِ[7]
لعنيت من جَرًّا جَرَائِرِيَ التي ... من خوفها قلبي حليف خفوقه[8]
ومعي رجاءُ توسُّلٍ أَعْدَدْتُه ... ذخرًا لصدمات الزمان وضيقه
حبِّي ومَدْحي أحمد الهادي الذي ... فوزُ الأنام يَصِحُّ في تصديقه
أسمى الورى في منصبٍ وبِمَنْسبٍ ... من هاشِم زاكي النِّجار عريقه
الحقُّ أظهره عقيبَ خَفائِهِ ... والدِّينُ نَظَّمَهُ لدى تفريقِهِ
ونفى هُداه ضلالةَ من جائرٍ ... مستوثقٍ بيَغُوثه ويَعُوقِهِ[9]
سبحان مرسله إلينا رحمةً ... يَهْدِي ويُهْدى الفضلُ من توفيقه

(١) النشيج: الصوت في الصدر. لسان العرب (نشج).
(٢) في الإحاطة (ص ٣٨٢): «ويرم».
(٣) في الإحاطة: «صَحْوه».
(٤) سواء الطريق: نهجه المستقيم.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٨٣): «لرائج».
(٦) في الإحاطة: «تلمّحي».
(٧) يُستاف: يشمّ. الخلوق: الطِّيبُ.
(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٤٠): «الفنيثُ». وفي الإحاطة: «لَفْتِنْتُ». والجرائر: جمع جريرة وهي الجرم والذنب.
(٩) في الإحاطة: «بنعوته ولعوقه».

والمعجزاتُ بَدَتْ بصدقِ رسوله	وحقيقهِ بالمأثرات خليقِهِ
كالظُّبي في تكليمه والجِذْع في	تحنينه والبدر في تشقيقه
والنارِ إذ خمدتْ بنورِ ولادةٍ[1]	وأُجاجِ ماءٍ قد حلا من ريقه
والزادُ قَلَّ فزاد من بركاته	فكفى الجيوشَ بتَمْره وسَوِيقه
ونبوعُ ماءِ الكَفِّ من آياته	وسلامُ أحجارٍ غَدَتْ بطريقه
والنخلُ لَمَّا أن دعاه مشى له	ذا سرعةٍ بعذوقه وعروقِهِ[2]
والأرضُ عايَنَها وقد زُويت له	فقريب ما فيها رأى كسحيقِه[3]
وكذا ذراعُ الشاةِ قد نطقتْ له	نُطْقَ اللسان فصيحِهِ وذَليقِهِ
ورمى عِداه بكفّ حصبا فانثنتْ	هربًا كمذعورِ الجَنان فَروقِهِ[4]
وعليه آيات الكتاب تَنَزَّلَتْ	تُتْلَى بعلو جلالِهِ[5] وبُسُوقه
وأُذيق[6] من كأس المحبةِ صِرْفها	سبحانَ ساقيهِ بها ومُذيقه
حاز السناءَ وناله بعُرُوجه	جاز السماءَ طباقَها بخروقه
ولكم له من آيةٍ مِنْ ربِّهِ	وعنايةٍ ورعايةٍ[7] بحقوقه
يا خيرةَ الأرسال عند إلهه	يا محرزَ العَلْيا على مخلوقه
عَلَّقْتُ آمالي بجاهك عِدَّةً	والقصدُ ليس يخيبُ في تعليقه
وعَلِقْتُ[8] من حبل اعتمادي عمدةً	لتمسّكي بقويِّهِ ووَثيقه
ولئن غدوتُ أخِيذَ ذنبي إنني	أرجو بقصدك أن أُرى كطليقه
وكسادُ سوقي مذ لجأت لبابكم[9]	يقضي حصولَ نفوده ونفوقه
ويحنُّ قلبي وهو في تغريبه	لمزاره لِرُبَاك[10] في تشريقه

---

(١) في الإحاطة (ص ٣٨٣): «ولاده».
(٢) في الإحاطة: «بعروقه وعذوقه». والعذوق: جمع عذق وهو الغصن. لسان العرب (عذق).
(٣) السحيق: البعيد. لسان العرب (سحق).
(٤) في الإحاطة: «حصباء فانثنت». والفروق: الجبان. لسان العرب (فرق).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٨٤): «جنابه».
(٦) في الإحاطة: «فأذيق».
(٧) في الإحاطة: «وعناية».
(٨) في الإحاطة: «ووثقت».
(٩) في الإحاطة: «إلى بابكم». وهكذا ينكسر الوزن.
(١٠) في الإحاطة (ص ٣٨٤): «الرباك».

وتزيد لوعته متى حَثَّ السُّرى حادٍ حدا بِجماله وبنُوقِهِ
وأرى قشيبَ العمر أمسى باليًا ومرورَ دهري جدَّ في تمزيقه
وأخاف أن أقضي ولم أقضِ المنى بنفوذِ سَهْمِ مَنِيَّتي ومُروقه
فمتى أحطُّ على اللوى رَحْلي وقد بلغتْ ركابي لِلْحِمَى وعقيقه
وأُمَرِّغُ الخدين في تربٍ غدا كالمِسْكِ في أَرَجِ شَذًا منشوقه
وأُعيدُ إنشائي[1] وإنشادي الثنا ببديعِ نظمِ قريحتي ورقيقِهِ
حَتَّى أُميل العاشقين تَطَرُّبًا كالغصن مَرَّ صَبًا على مَمْشُوقِهِ
وتحيّةُ التسليم أبْلَغُ شافعٍ[2] وثَنَا المديح حديثِهِ وعتيقِه
ولذي الفخار وذي الحلى[3] ووزيره صِدِّيقه وأخي الهدى فاروقه
مني السلامُ عليهمُ كالزُّهْر في تأليفها والزَّهْرِ في تأنيقه[4]

وقال[5]: [الطويل]

هواكمْ بقلبي ما لأحكامه[6] نسخُ ومِنْ أجله جَفْني بمدمعه يَسْخو
ومن نشأتي ما إن صَحَتْ منه نَشْوتي سواءٌ به عصر المشيب[7] أو الشَّرْخُ
عليه حياتي مذ تمادتْ وميتتي ويَغْشي إذا بالصُّور يتّفق النفخُ
ولي خَلَدٌ أضحى قَنِيصَ غرامِهِ[8] ولا شَرَكٌ يُدْني إليه ولا فخُّ
قتلتُ سُلُوّي حين أحييتُ لوعتي وما اجتيحَ بالإقرار[9] في حالتي لَطْخ
وأغدو إلى سُعْدى بكرخِ علاقتي وقصديَ قصدي ليس سعدي ولا الكَرْخُ[10]

(١) في الإحاطة: «إنشادي وإنشائي».
(٢) في الإحاطة: «شافعي».
(٣) في الإحاطة: «وذي العلا».
(٤) في الإحاطة: «في تأليفه».
(٥) القصيدة في الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥) والكتيبة الكامنة (ص ١٢١).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٤٢) والكتيبة: «لِمُحْكَمِهِ».
(٧) في الكتيبة: «الشباب».
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٨٥): «يبيض غرامه». وفي الكتيبة: «ولي جَلَدٌ».
(٩) في الكتيبة: «وما احتيج للإقرار».
(١٠) هذا البيت غير وارد في الإحاطة والكتيبة.

وناصحُ[1] كتمي إذ زكت بيِّناته ... يجولُ عليه من دموع الأسى نَضْخُ
وأرجو بتحقيقي هواكم بأن أفي ... فعهدٌ ولا نقضٌ وعقدٌ ولا فسخ[2]
وما الحبُّ إلاَّ ما استقلَّ ثبوتُهُ ... لمبناهُ رصٌّ في الجوانح[3] أو رسخُ
إذا مسلكٌ لم يستقمْ[4] بطريقه ... سلكتُ اعتدالاً مثل ما يسلك الرخُّ
بدا لضميري من سناكم تلمُّحٌ ... فبخٍ لعقلٍ لم يَطِرْ عندها بَخُّ
على عَوْدِ ذاك اللَّمح ما زلتُ نادبًا ... كما تندبُ الورقاء[5] فارَقَها الفرخ
يدي بأياديكم وقلبيَ شاغلٌ ... فمن فكرتي نسجٌ ومن أنملي نسخُ

وقال[6] : [الطويل]

إليكَ تحنُّ النُّجبُ والنُّجَبَاءُ ... فهمْ وَهْيَ في أشواقهم شركاءُ
تخبُّ بركَّابٍ تحبُّ وصولها ... لأرضٍ بها بادٍ سنًا وسناءُ
فأنفاسُها ما إن تني[7] صُعداؤها ... وأَنْفُسُهُمْ[8] من فوقها سُعداءُ
هُمُ عالجوا إذ عجَّل السيرُ داءَهم ... وأشباهُ مثلي مُذْنَفُونَ بِطاء
فعدتُ ودوني للحبيب ترحَّلوا ... وما قاعدٌ والراحلون سواء
له وعليه حبُّ قلبي وأدمعي ... وقد صحَّ لي حبٌّ وسَحَّ بكاء
بطيبةَ هل أرضى وتبدو سماؤها؟ ... وإن تكُ أرضًا فالحبيب سماء
شذا نَفْحِها واللَّمْحُ منها كأنه ... ذَكاءُ عبير والضِّياء ذُكاء[9]
فيا حاديًا غنِّى وللرَّكْبِ حاديًا ... عنائيَ بَعْدَ البُعْدِ عنكَ عناء
بِسَلْعٍ فسلْ عمَّا أُقاسي من الهوى ... وسَلْ بِقِباءٍ إذ يلوح قباء

---

(١) في الكتيبة: «وما صحَّ جسمي إذ زكت. . .».
(٢) في الإحاطة: «فعهدٌ ولا نقص». وفي الكتيبة: «بعهدٍ ولا نقضٌ».
(٣) في الكتيبة: «في الجوانب».
(٤) في الكتيبة: «لم تستقم».
(٥) في الإحاطة: «الورق».
(٦) القصيدة في الإحاطة (ج ٤ ص ٣٨٥ . ٣٨٦). وورد فقط البيت الأول في الكتيبة الكامنة (ص ١٢١).
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٨٦): «ثنى».
(٨) في الإحاطة: «وأنفاسهم».
(٩) ذُكاءُ: اسم للشمس. محيط المحيط (ذكا).

وفي عالجٍ مِنّي بقلبيَ لاعجٌ فهل لي علاجٌ عنده وشفاء
وفي الرقمتين أرقمُ الشوق لاذعٌ[1] ودرياقُهُ أن لو يُباح لقاء
أماكن تمكين وأرضٌ بها الرضا وأرجاءُ فيها للمشوق رجاء

وقال[2]: [الكامل]

أدبُ الفتى في أن يُرى مُتَيَقِّظًا لأوامرِ مِنْ ربِّه ونواهِ
فإذا تمسَّكَ بالهوى يهوي به والحبلُ منه لمن تَيَقَّنَ واهِ[3]

وقال[4]: [المنسرح]

يا من بِدُنْياه ظلَّ في لججٍ حَقِّقْ بأنَّ النجاةَ في الشاطي
تطمعُ في إرثك الفَلاحَ وقد أضَعْتَ ما قبله مِنَ أشراط
كن حذرًا في الذي طمعتَ به من حَجْبِ نَقْصٍ وحَجْبِ إسقاطِ

وقال[5]: [الطويل]

تُرَى شعروا أني غبطتُ نُسَيْمَةً ذَكَتْ بتلاقي الروض غِبَّ الغمائمِ
كما قابلتْ زَهْرَ الرياض وقَبَّلَتْ ثغورَ أقاحيه بلا لومِ لائمِ

وقال[6]: [الكامل]

وَرَدَ المشيبُ مُبَيِّضًا بوروده ما كان من شَعْرِ الشبيبة حالكا
يا ليته لو كان بَيَّضَ بالتُّقى ما سَوَّدَتْهُ[7] مآثِمٌ من حالكا
إنَّ المشيبَ غَدا رداءً للردى فإذا عَلاكَ أَجَدَّ في ترحالكا[8]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٤٣): «وللرقمتين». وفي الإحاطة: «لاذع».
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٢٢).
(٣) في الكتيبة: «وإذا تمسّك... فالحبلُ منه...».
(٤) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٢٢).
(٥) البيتان في المصدرين السابقين.
(٦) الأبيات في الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٨٦).
(٧) في الإحاطة: «سَوَّرَتْهُ».
(٨) الترحال هنا بمعنى الانتقال إلى العالم الآخر.

وقال[1]: [الخفيف]

لوعةُ الحبِّ في فؤادي تعاصتْ أن تُداوَى ولو أتى ألفُ راقِ[2]
كيف يَبْرا[3] مِنْ علَّةٍ وعليها زائدٌ علَّةُ النوى والفراقِ
فانسكابُ الدموعِ جارٍ فجارِ والتهابُ الضلوعِ راقٍ فَراقِ

ومن غرائب الاتفاق أنه قال[4]: كنت جالسًا بين يدي[5] الخطيب أبي القاسم التاكروني صبيحة يوم بمسجد مالقة، فقال لنا في أثناء حديثه: رأيت البارحة في عالم النوم كأنَّ أبا عبد اللّه الجلياني يأتيني ببيتي شعر في يده، وهما: [الخفيف]

كلُّ علم يكون للمرء شُغْلاً بسوى الحق قادحٌ في رشادِهْ
فإذا كان فيه للّه حظٌّ فهو مِمّا يُعِدُّه لمعادِهْ

قال: فلم ينفصل المجلس حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد اللّه الجلياني، والبيتان معه[6]، فعرضهما على الشيخ، فأخبره[7] أنه صنعهما البارحة، فقال له كلّ من في المجلس: أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك، فكان هذا من العجائب.

ولأبي الحجاج المذكور تآليف[8]، منها كتاب «ملاذ المستعين[9]، في بعض خصائص سيد المرسلين» أربعون حديثًا، وكتاب «تخصيص القرب، وتحصيل الأرب» و «قبول الرأي الرشيد، في تخميس الوتريات النبوية[10] لابن رشيد» و «انتشاق النسمات النجدية، واتّساق النزعات الجدية» و «غرر الأماني المُسْفرات، في نظم المُكَفِّرات» و «النفحات الرَّندية، واللمحات الزّندية»[11] مجموع شعره، و «حقائق بركات المنام، في

(١) الإحاطة (ج ٤ ص ٣٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٢٢).
(٢) الراقي: الذي يستعمل الرقية لمداواة المرضى. لسان العرب (رقى).
(٣) في الكتيبة: «كيف بُرْئي».
(٤) الإحاطة (ج ٤ ص ٣٨٧).
(٥) في الإحاطة: «أيدي».
(٦) في الإحاطة: «عنده».
(٧) في الإحاطة: «وأخبره».
(٨) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٤٥): «تواليف».
(٩) في الإحاطة: «المستعيذ».
(١٠) في الإحاطة: «النبويات».
(١١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٤٥): «الرُّنديّة».

مرأى المصطفى خير الأنام» و «الاستشفاء بالعدة، والاستشفاع[1] بالعمدة، في تخميس[2] البردة» و «توجّع الراثي، في تنوّع المراثي» و «اعتلاق السائل[3]، بأفضل الوسائل» و «لمح البهيج، ونفح الأريج» في ترجيز كلام الشيخ أبي مدين[4] من عبارات حكمية وإشارات صوفية، وكتاب «تجريد رؤوس مسائل البيان والتحصيل، لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل» وفهرسة روايته[5]، ورجز ذكر مشايخ أبي عمر الطنجي، وكتاب «أرج الأرجاء، في مزج الخوف والرجاء» أربعون حديثًا في الرجاء والخوف.

وكان رحمه اللّه تعالى حَيًا حين ألّف لسان الدين «الإحاطة» رحم اللّه تعالى الجميع!.

ورأيت على ظهر أوّل ورقة من «الريحانة» بخطّ الإمام الكبير الشهير الشيخ إبراهيم الباعوني الدمشقي رحمه اللّه تعالى ما نصُّه: قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعوني ـ غفر اللّه ذنوبه، وستر عيوبه، وبلّغه من فضله مطلوبه! ـ صاحبُ كتاب الريحانة، آية من آيات اللّه سبحانه، لوجه أدبه طَلاقَة، وللسانه ذَلاقَة، وللقلوب به علاقة، وفي خطّه غلاقة، يعرفها مَنْ عرف اصطلاحه بمطالعته، وينفتح له بابُ فهمها بتكرير مراجعته، فليتأمّل الناظر إليه، والمقبل عليه، ما فيه من الجواهر، والنجوم الزواهر، بل الآيات البواهر، وليسبِّح اللّه تعالى تعجبًا من قدرته جلَّ وعلا، ومواهبه التي عذب ماؤها النَّمِيرُ وحَلا، وليقل عند تأمّل درّه النظيم ﴿ذلكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ واللَّهُ ذو الفَضْلِ العَظيمِ﴾[6]؛ انتهى.

وقوله رحمه اللّه تعالى «وفي خطّه غلاقة» ليس المراد به إلاّ صعوبة الخطّ المغربي على أهل المشرق حسبما يُعلم مِمّا بعده، وإلاّ فإنَّ خطَّ لسان الدين رحمه اللّه تعالى محمود عند المغاربة، ولنقتصر من هذا الغرض على ما ذكر، فإن تتبعه يطول؛ إذ هو بحرٌ لا ساحل له.

---

(١) في الإحاطة: «والاستشعاع».
(٢) في الإحاطة: «في تخميس القصيدة النبوية المسماة بالبُرْدة».
(٣) في الإحاطة: «المسايل».
(٤) هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري كما في الإحاطة.
(٥) في الإحاطة: «وفهرسة روايتي».
(٦) سورة الحديد ٥٧، الآية ٢١.

وكان لسان الدين رحمه اللّه تعالى مؤثرًا لقضاء حاجة مَنْ أمَّله، وقَصَد بابه وأَمَّ له، سواء كان من أوداته[1]، أو من أعدائه، وقد ذكر الوزير الرئيس الكاتب أبو يحيىٰ بن عاصم رحمه اللّه تعالى عنه في ذلك حكاية في أثناء كلام رأيت أن أذكر جملته لما اشتمل عليه من الفائدة، وهو أنه ذكر في ترجمة شموس العصر من ملوك بني نصر من كتابه المسمّى بـ «الروض الأريض» في اسم السلطان الذي كان ابن الخطيب وزيره، وهو الغني باللّه محمد ابن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي، بعد كلام ما صورته[2]: كان قد جرى عليه التمحيص الذي أزعجه عن وطنه إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بني مَرِين، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخنا على حقيقتها، وانتهجوا واضح طريقتها، وبلغتنا منقولة بألسنة صدقهم، معبرًا عنها في عرف التخاطب بالعادة، فلم يكن الوزير الكَيِّس والرئيس الجهبذ يجريان من الاستقامة على قانون، ولا يطَّردان من الصواب على أسلوب، إلاً بالمحافظة على ما رسم من القواعد، والمطابقة لما ثبت من العوائد، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة وأُولو الحذق من أرباب هذه المهن السياسية يتعجّبون من صحة اختياره لما رَسَمَ، وجودة تمييزه لما قصد، وَيَروْن المفسدة في الخروج عنها ضَرْبَةَ لازبٍ[3]، وأنَّ الاستمرار على مراسمها آكد واجب، فيتحرّونها بالالتزام كما تُتَحَرَّى السنن، ويتوخّونها بالإقامة كما تُتَوَخّى الفرائض، وسواء تبادَرَ لهم معناها ففهموه، أو خفي عليهم وَجْهُ رسمها فجهلوه، حدثني شيخُنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسني أن الرئيس أبا عبد اللّه بن زَمْرَك دخل على الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد اللّه بن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل مِمّا يتوقّف عادة على إذن الوزير، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد اللّه بن زَمْرَك، قال الشريف: فأمضاها كلّها له، ما عدا واحدة منها تضمّنت نقض عادة مستمرّة، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب: لا، واللّه يا رئيس أبا عبد اللّه لا آذن في هذا، لأنّا ما استقمْنا في هذه الدار إلاً بحفظ العوائد.

ثم قال صاحب الروض: فلما تأذّنَ اللّه تعالى للدولة بالاضطراب، واستحكم الوهن بتمكّن الأسباب، عَدَلَ عن تلك القواعد الراسخة، واستخفّ بتلك القوانين الثابتة، فنشأ من

(١) الأودّاء: جمع ودود وهو المُحِبّ. لسان العرب (ودد).

(٢) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٥٨ ـ ٦٠).

(٣) ضربة لازب: أي إنه أمرٌ لا مفرّ منه.

المفاسد ما أعْوَزَ رَفْعُه، وتعدّد وتره وشفعه[1]، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دَفْعُه، وتعذر فيه الدواء الذي يُرْجَى نفعه، وكان قد صحبه من الجد ما سَنَّى آماله[2]، وأنجح بإذن اللّه تعالى أقواله وأفعاله[3]، فكان يجري الأمر على رسم من السياسة واضح، ونظر من الآراء السديدة راجح، ثم يحفّه من الجد سياج لا يفارقه إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله؛ انتهى كلام ابن عاصم.

وإذ جرى ذكره فلا بأس أن نلمع[4] بشيء من أحواله؛ لأنَّ أهل الأندلس كانوا يسمّونه ابن الخطيب الثاني، فنقول:

هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق الناثر الحجّة، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق، أبو يحيىٰ محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم، القيسي، الأندلسي، الغَرْنَاطي، قاضي الجماعة بها، كان - رحمه اللّه تعالى! - من أكابر فقهائها وعلمائها ورؤسائها، أخذ عن الإمام المحقّق أبي الحسن بن سمعت، والإمام القاضي أبي القاسم بن سراج، والشيخ الراوية أبي عبد اللّه المنتوري[5]، والإمام أبي عبد اللّه البياني، وغيرهم، ومن تآليفه شرح تحفة والده، وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة، ومنها كتاب «جنة الرضا، في التسليم لما قدر اللّه تعالى وقضى» وكتاب «الروض الأريض، في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقَريض» كأنه ذيّل به إحاطة لسان الدين بن الخطيب، وله غير ذلك، وقد أطلْتُ الكلام في ترجمته من كتابي «أزهار الرياض، في أخبار عياض، وما يناسبها مِمّا يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض»[6].

ووصفه ابن فرج السبتي بأنه الأستاذ العلَم الصدر المفتي القاضي رئيس الكُتّاب، ومعدن السماحة، ومنبع الآداب؛ انتهى.

---

(١) الوتر: الفَرْدُ من الأعداد. الشفع: الزوج من الأعداد. لسان العرب (وتر) و(شفع).
(٢) سنَّى آماله: يسَّرها وسهّلها. محيط المحيط (سنى).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٤٧): «وأعماله».
(٤) نلمع بشيء من أحواله: نشير إليها. لسان العرب (لمع).
(٥) في طبعة عبد الحميد جـ ٨ ص ٢٩١): «المنشوري».
(٦) أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٤٥ وما بعدها).

وقد تقدّم بعض كلامه فيما مَرَّ، ومن بديع نثره الذي يسلك به نهج ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى قوله من كلام جلبت جملته في «أزهار الرياض»، واقتصرت هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته[١]: أمّا بعدُ، فإن اللّه على كل شيء قدير، وإنه بعباده لخبير بصير، وهو لمن أهل نيّتَهُ، وأخلص طَوِيَّته، نعم المولى ونعم النصير، بيده الرفع والخفض، والبسط والقبض، والرشد والغي، والنشر والطّي، والمنح والمنع، والضرّ والنفع، والبطء والعجل، والرزق والأجل، والمسرّة والمَسَاءة، والإحسان والإساءة، والإدراك والفَوْت، والحياة والموت، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كُنْ فيكون، وهو الفاعل على الحقيقة وتعالى اللّه عَمّا يقول الآفكون[٢]، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كلّه ولو كَرِهَ المشركون، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يشاءُ ﴾[٣] و ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ ﴾[٤] بينما الدسوت[٥] عامرة، والولاة آمرة، والفئة مجموعة، والدعوة مسموعة، والإمرة مطاعة، والأجوبة سمعًا وطاعة، وإذا بالنعمة قد كُفِرَت، والذمة قد خُفرت، إلى أن قال: والسعيد من اتّعظ بغيره، ولا يزيد المؤمن عمرُه إلاّ خيرًا جعلنا اللّه تعالى ممّن قضى عمره بخيره، وبينما الفرقة حاصلة، والقطيعة فاصلة، والمضرّة واصلة، والحبل في انبتات[٦] والوطن في شَتات، والخلاف يمنع رَعْي متات[٧]، والقلوب شتى من قوم أشتات، والطاغية يتمطّى لقصم الوطن وقضمه، ويلحظه لحظ الخائف على هضمه، والأخذ بكَظْمه، ويتوقّع الحسرة أن يأذن اللّه بجمع شمله ونَظْمه، على رغم الشيطان ورغمه، وإذا بالقلوب قد ائتلفت، والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى اللّه تعالى وازدلفت، والمتضرّعة إلى اللّه تعالى قد ابتهلت، في إصلاح الحالة التي سَلَفَتْ، فألقتِ الحربُ أوزارها، وأدنت الفرقة النافرة مزارها، وجلت الألفة الدينية أنوارها، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها، ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها أعذارها،

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٦٠).

(٢) الآفكون: جمع آفك وهو الكاذب. لسان العرب (أفك).

(٣) سورة الحج ٢٢، الآية ١٨.

(٤) سورة المائدة ٥، الآية ١.

(٥) الدسوت: جمع دست وهو صدر المجلس. لسان العرب (دست).

(٦) انبتات: انقطاع. محيط المحيط (بتت).

(٧) المتات: التوسّل. محيط المحيط (متت).

وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها، وغضت الفئة المتعرّضة أبصارها، ويصلح اللّٰه تعالى أسرارها، فجمعت الأوطان بالطاعة، والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة، وتسابقت إلى لزوم السّنّة والجماعة، وألقت إلى الإمامة الفلانية يَدَ التسليم والضراعة، فتقبّلت فَيْآتهم، وأحمدت جَيْآتهم، وأسعدت آمالهم، وارتضيت أعمالهم، وكملت مطالبهم، وتمّمت مآربهم، وقضيت حاجاتهم، واستمعت مناجاتهم، وألسنتهم بالدعاء قد انطلقت، ووجهتهم في الخلوص قد صدقت، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتّفقت، وأكفُّهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتقلت، وكانت الإدالة في الوقت على عدوّ الدين قد ظهرت وبرقت، إلى أن قال: وكفَّت القدرة القاهرة، والعزّة الباهرة، من عدوان الطاغية غوائل، بإعزاز دين اللّٰه الموعود بظهوره على الدين كلّه فواتح وأوائل، ومعلوم بالضرورة أنّ اللّٰه تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود، ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها﴾[1] دليلٌ على ما سوّغ من الكرم والجود؛ انتهى المقصود منه، وهو كلام بليغ، ومَنْ أراد جملته فعليه بأزهار الرياض.

ومن نظم ابن عاصم المذكور قوله مخاطبًا شيخه قاضي الجماعة أبا القاسم بن سراج، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة، فظنّ أنه يستخبره عن سِرّ من أسرار السلطان، فأعدّه معتذرًا، ولم يصدق الظنّ: [الطويل]

فديتك لا تسألْ عن السِّرِّ كاتبًا فتلقاه في حالٍ مِنَ الرشدِ عاطلِ
وتضطرّه إمّا لحالةِ خائنٍ أمانَتَهُ أو خائضٍ في الأباطلِ
فلا فَرْقَ عندي بين قاضٍ وكاتبٍ وَشَى ذا بسرّ أو قضى ذا بباطلِ

ومن بديع ما نُظِم في مَدْح الرئيس أبي يحيىٰ بن عاصم المذكور قولُ العلامة ابن الأزرق رحمه اللّٰه تعالى: [الكامل]

خضعتْ لمعطفه الغصونُ الميَّسُ ورنا فهامَ بمقلتيه النرجسُ
ذو مبسم زهرُ الرّبا في كسبه متنافسٌ عن طيبه متنفسُ
ومُوَرَّدٌ مِنْ ورده أو ناره يتنعَّمُ القلبُ العميدُ وييأس
فالوردُ فيه من دموعيَ يرتوي والنارُ فيه من ضلوعيَ تُقْبَسُ

---

(١) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٤.

كملت محاسنُهُ فقدْ يرتوي ولواحظٌ نُجلٌ وثغر ألْعَسُ[1]
صعبُ التعطّفِ بالغرام حَبَيْتُهُ فالحبُّ يُخْبَى والتعطّفُ يُحْبَسُ
غَرَسَ التشوّقَ ثم أغرى الوجدَ بي فالوجدُ يُغْرَى والتشوّقُ يُغْرَسُ
ما كنتُ أشقى لو حللتُ بجنّةٍ مِنْ وَصْلِهِ تَحْيَا لديها الأنفسُ
ألـحـاظُـهُ ورُضـابُـهُ وعِـذارُه حورٌ بها أو كوثرٌ أو سندس
وليالِ أنسٍ قد أمنتُ بهنَّ من واشٍ ينمُّ ومن رقيبٍ يحرسُ
أطلعتُ شمسَ الراح فيها فاهتدى عاشٍ إلينا في الدُّجى ومُغَلِّسُ[2]
صفراءُ كالعقيانِ في الألوان للـ ـندمان كالشُّهبان منها أكؤس
صُبَّتْ شقيقًا فاستحالتْ نرجسًا في مزجها فمورَّدٌ ومورَّسُ[3]
وحَبابُها يغنى بأسنى جوهرٍ أنفَى لغمِّ المعدمين وأنفَسُ
يُجْلَى بها للغمِّ منها حِنْدِسًا قمرٌ عليه من الذؤابة حِنْدِسُ[4]
حتى إذا عمشتْ مِرَاةُ البدر ممن صبحٍ بدا تلقاه إذ يتنفّسُ
ناديته وَسَنَا الصباح مُحَصْحِصٌ ينجابُ عنه من الظلام معسعسُ
يا مطلعَ الأنوار زهرًا يجتنى ومشعشعَ الصهباء نارًا تُلمسُ
بك مجلسُ الأنسِ اطمأنَّ وبابن عا صِمٍ اطمأنَّ من الرياسة مجلسُ
بدرٌ بأنوارِ الهُدَى متطلّعٌ غيثٌ بأشتاتِ الندى متبجّسُ
حامى فلم نَرتَعْ لخطبٍ يعتري ووفى فلم نحفلْ بدهرٍ يبخسُ
[illegible] يَمٌ مهذّبةٌ وعلمٌ راسخٌ ومكارمٌ هُتُنٌ ومَجْدٌ أقعس
لو كان شخصًا ذكره لبدا على أعطافِهِ مِنْ كلِّ حمدٍ مَلْبَسُ
ذاكم أبو يحيىٰ به تُحْمَى العُلا وبه خلالُ الفَخْرِ طُرًا تُحرس
بيتٌ على عَمَدِ الفخارِ مُطَنَّبٌ مجدٌ على متنِ السِّماك مؤسَّسُ
خَيَّمْ وعرِّسْ في حماه فكم حوى فيه المرادَ مخيِّمٌ ومعرِّسُ

(١) الألعس: من في شفتيه سواد أو سمرة. لسان العرب (لعس).
(٢) العاشي: القاصد ليلاً. المغلّس: القاصد في الغلس وهو ظلمة آخر الليل. لسان العرب (عشا) و (غلس).
(٣) المورّس: ما كان لونه لون الورس وهو نبات أصفر. لسان العرب (ورس).
(٤) الحِنْدِسُ: الظلام الشديد. لسان العرب (حندس).

إنّا لنغدو هُيَّمًا فينيلُنا ريًا ويوحشنا النوى فيؤنِّسُ
حتى أقَمْنا والأماني منهضا تٌ وابتسمْنا والزمانُ مُعَبِّسُ
لم نَدْرِ قبل يَراعه وبنانه أنَّ الذوابلَ بالغمائم تبجس
هنَّ اليراع بها يؤمَّنُ خائفٌ ويحاطُ مذعورٌ ويَغْنَى مُفْلس
مهما انبرتْ فهي السهام يُرَى لها وقعٌ لأغراضِ البيانِ مُقَرْطس
يشفى بمأمله الشكيُّ المعتري يحيى بمأمنه الحمام المؤيس
فَتَقُصُّ حين تُشَقُّ منها ألسنٌ وتسيرُ حين تُقَطُّ منها أرؤس
مِنْ كلِّ وشاءٍ بأسرارِ النُّهى دَرِبٍ بإظهار السرائر يهجس
قد جمّع الأضدادَ في حركاته فلذا اطِّرادُ فخارِهِ لا يعكس
عطشانُ ذو ريّ، يبيسٌ مثمرٌ، غضبانُ ذو صَفْحٍ، فَصيحٌ أخرس
للَّه من تلك اليراع جواذبٌ للسحر منكَ كأنها المغنيطس
رُضْنا شِمَاسَ[1] القول في أوصافها فهي التي راضت لنا ما يشمس
وإليكها حُلَلاً تَشابه نسجُها مثلي يفصِّلُها ومثلك يلبسُ
واهناً بعيدٍ باسمٍ متهلّلٍ وافاك يجهرُ بالسرور ويهمسُ
واحبس لواء الفخر موقوفًا فإنَّ الْـ ـحَمْدَ موقوفٌ عليك محبَّسُ

قلت: وعندي الآن شكٌّ في صاحب هذه القصيدة، هل هو قاضي الجماعة بغرناطة محمد بن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني القائل فيما يكتب على السيف[2]: [البسيط]

إنْ عَمَّتِ الأُفْقَ مِنْ نَقْعِ الوَغَى سُحُبٌ فَشِمْ بها بارقًا مِنْ لمع إيماضي
وإن نَوَتْ حركاتُ النصرِ أرضَ عِدًا فليس للفتحِ إلاّ فعليَ الماضي

واللَّه سبحانه أعلم.

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم بن طركاط، وهو: «القضاء ـ حفظ اللَّه تعالى كمالك، وأنجح آمالك! ـ إذا لم يَحُطْه العدلُ من كلا جانبيه سبيلٌ معوجّ، ومذهب لا يوافق عليه مُناظر ولا ينصره محتجّ، كما أنه إذا حاطه

---

(١) الشِّماس: العناد، الإباء. لسان العرب (شمس).
(٢) تقدم هذان البيتان في الجزء الثالث (ص ٤٥٢) دون تغيير عمّا هنا.

العدل جادة[١] للنجاة، وسببٌ في حصول رحمة اللّه تعالى المرتجاة، وسوق لنفاق[٢] بضاعة العبد المُزْجاة، وأجمل العدل ما تحلّى به في نفسه الحكم، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحِكم، حتى يكون عن البغي رادعًا، وبالقسط صادعًا، ولأنف الأنَفَةِ من الإذعان للحقّ جادعا[٣]، وأنت أجلّك اللّه تعالى على سعة اَطّلاعك، وشدّة ساعد قيامك بالطريقة واضطلاعك، مِمَّن لا يُنَبّه على ما ينبغي، ولا يردّ على طلبته من الإنصاف المبتغي، فلك في الطريقة القاضوية التبريز، وأنت إذا كان غيرُك الشبهَ[٤] الذهبُ الإبريز، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز، وليتني كنت لمظهرك الحكمي حاضرًا، ولإعلام القضاة بآرائك المرتضاة محاضرًا، والوازع قد تمرّس بالخصوم، وجعل المتصدي للإذن في محلّ المخصوم، وأنت حفظك اللّه تعالى قد قمت من غلظ الحجاب بالمقام المعصوم، ومثلت من سعة المنزل في الفضل والطول كالشهر المصوم، والباب قد سُدّ، وداعي الشفاعة قد رُدّ، والميقات للإذن قد حُدّ، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشدّ، حتى إذا قضي الواجب، وأذن في دخول الخصمين الحاجب، وأولج[٥] السابقين إلى الحدّ الذي لا يَعْدُونه، وحفز إيماؤه مَنْ تعدّاه أو وقف دونه، وقد حصل باللحظ واللفظ التساوي، وأنتج المطالبَ الأربعة هذا اللازم المُساوي، ومجلسك قد رجح وقاره برَضْوَى[٦]، ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضْوَا[٧]، وقد امتزت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها، وتخصّصت عنهم بملابس تعجّ عجيجًا من جذامهم مَطَارِفُها[٨]، بحيث تحدّ لخلع النعلين حدًّا لا يتجاوز طواه، وتسدّ في بعض الأوقات الباب سدًّا لا تُرقع بالمحاجر كُواه، وتفصل بين الخصمين أحيانًا بالنيّة دون الكلام ولكل امرىء ما نَواه. وهذه أعانك اللّه تعالى مكملات من العدل في الحكم وقف عياض دون تحقيق

---

(١) الجادّة: معظم الطريق. محيط المحيط (جدد).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٩٦): «النفاق».

(٣) جادعًا: قاطعًا للأنف.

(٤) الشبه: النحاس الأصفر. الذهب الإبريز: الذهب الخالص. لسان العرب (شبه).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٥٣): «وكبح».

(٦) رضوى: اسم جبل، وقد عرّفنا به من قبل.

(٧) الأضوا: أصلها: الأضوأ، وقد حذفت الهمزة لضرورة السجع.

(٨) يشير إلى قول أحدهم: [الطويل]

شكا الخَزُّ من روح وأنكر ريحه ... وعَجَّتْ عجيجًا من جذام المطارف

مَناطها، وأعيتِ ابنَ رُشْدٍ فلم يهتد بيانه ولا تحصيله لاستنباطها، فما بال النازحة[1] عنك حسًّا ومَعْنَى، النازلة من تقاضي دَيْنك بمنزلة الممطول المعنَّى[2]، المعتقلة من ملكة رقّك بحيث أقصاها لاعج الشوق، المعذبة من الصبابة فيك بما شبّ عَمْرُه عن الطَّوق[3]، تتنفّس الصعداء مِمّا تشاهده منك من مبتدعات الجَوْر، وتردّد البكاء على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغَوْر، وتقضي العجب مِمّا تسمع من عدلك الذي لم تجتلِ لمحةً من نوره، ومن حلمك الذي أشقاها فلم تحضر لدكة طُورِه، وتستصوب أنظار النحاة في منع التهيئة والقطع في العامل، وتستجلب اصطلاح العروضيين في المديد والبسيط دون الطويل والكامل، فهلاّ راجعتَ فيها النظر، وأنجزْتَ لها الوعد المنتظر، وكففتَ من عيونها دموعًا مستهلّة، واجتليتَ من جبينها الوضّاح ما أخجل بدورًا مشرقة وأهِلّة، ولم تحوجْها إلى أن ينطق قرينها الروحاني بالشعر على لسانها ولسانك، ولم يضطرّها في هذه المعاملة إلى ما لا ترتضيه من كفر إحسانك، والعذر أظهر، والبرهان أبهر، وخلافك في العالم أشهر، وأنت إن لم يكن ما يعصم الله تعالى منه لمقتضى الطبيعة أقهر. وقد أدرجْتُ لك في طي هذا ما يصل إلى يدك، وتلهج به في يومك وغدك، منتظرة منك إطفاء الجوى بالجواب، ومحو ما سبق من الخطإ[4] بالخطاب، إن شاء الله تعالى، والله تعالى يصل سعادته، ويحفظ مَجادته، ومعاد السلام من الشاكر الذاكر ابن عاصم وفقه الله تعالى في أوائل ذي الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة، انتهى، وهو مِمّا لم أذكره في «أزهار الرياض».

ولنذكر هنا الظهير الذي جلبته فيها[5] بتقديم المذكور للنظر في أمور الفقهاء وغيرهم، ونصُّه: هذا ظهير كريم إليه انتهت الظهائر شرفًا عليًّا، وبه تقرّرت المآثر برهانًا جليًّا، وراقت المفاخر قلائد وحليًّا، وتميّزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقلام والمحابر، اختصاصًا مولويًّا. فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعدّدت، وتوالت المنشورات وتجدّدت،

---

(١) يستعمل هنا ضمير المؤنث لأنه يتحدث عن رسالة لم يكترث القاضي بردّ جوابها.

(٢) يشير إلى قول كثير عزّة: [الطويل]

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غريمَهُ … وعزَّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

الشعر والشعراء (ص ٤١٧).

(٣) أخذه من المثل: «شبَّ عمرو عن الطوق».

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٢٩٧): «الخطاء».

(٥) الضمير في «فيها» يعود إلى «أزهار الرياض». والظهير في أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٧٢).

أكرم[1] مرسوم تمم في الاعتقاد نظرًا خطيرًا، وأحكم في التفويض أمرًا كبيرًا، وأبرم في الاختصاص[2] عزمًا أبيًا. اعتمد بمسطوره العزيز، واختصّ بمنشوره الذي تلقّاه اليُمْنُ بالتعزيز، من لم يزل بالتعظيم حقيقًا[3]، وبالإكبار خليقًا، وبالإجلال حَرِيًا. فهو شهير لم يزل في الشهرة سابقًا، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقًا، بليغ لم يزل بالبلاغة دَرِيًا[4]. عظيم لم يزل في النفوس معظَّمًا، عَلَمٌ لم يزل في الأعلام مقدّمًا، كريم لم يزل في الكرام سَنِيًّا[5]. اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين، وحَلَّتْ به المشورة في الكنف المحوط والحرم الأمين، فكان في مشكاة الأمور هاديًا، وفي ميدان المراشد جَرِيًّا[6]. فإلى مقاماته تبلغ مَقامات الإخلاص، وإلى مرتبته تنتهي مراتب الاختصاص، فيمن حاز خَصْلاً، وزيَّن حَفْلاً، وشرّف نَدِيًا[7]. واستكمل هممًا، واستعمل[8] قلمًا، واستخدم مشرفيًا. فللّه ما أعلى قدر هذا الشرف، الجامع بين المتلد والمطرف، السابق في الفضل أمدًا قَصِيًا. الحالّ من الاصطفاء مظهرًا، الفارع من العلاء منبرًا، الصاعد من العزّ كرسيًا. حاز الفضل إرثًا وتعصيبًا، واستوفى الكمال حقًّا ونصيبًا، ثناء أرَجُه كالروض لو لم يكن الروض ذابلاً وهديًا. نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلاً، ومجد علوه كالسُّها[9] لو لم يكن السُّها خفيًّا. فما أشرف الملك الذي اصطفاه، وكمل له حقّ التقريب ووفاه، وأحلّه قرارة التمكين، ومَنَّ باختصاصه بالمكان المكين، فسبق في ميدان التفويض وسَمَا[10]، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى، صادعًا بالحقّ إمامًا علمًا، موضحًا من الدين نهجًا أمَمًا[11]، هاديًا من الواجب صراطًا سويًا. بانيًا للمجد صَرْحًا مُشَيّدًا، مشهرًا للعدل قولاً مؤيّدًا، مبرمًا للخير سببًا قويًا.

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٥٥): «أكبر».
(٢) في الطبعة نفسها: «الاستخلاص».
(٣) حقيقًا: خليقًا، جديرًا. لسان العرب (حقق).
(٤) دريًا: عارفًا، لسان العرب (درا).
(٥) السنيُّ: الرفيع القدر. لسان العرب (سنا).
(٦) جريًا: أي «جريئًا».
(٧) النديُّ: النادي. لسان العرب (ندى).
(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٥٦): «واستحمل».
(٩) السُّها: كوكب صغير خفيّ الضوء. لسان العرب (سها).
(١٠) هكذا في أزهار الرياض، وفي طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٥٦): «وشأى»، وهو الأصوب لأنه يوافق السجعة.
(١١) الأمم: القريب. لسان العرب (أمم).

فاللّه تعالى يصل لمقام هذا الملك الذي طلع في سمائه بدرًا دونه البدور، وصدرًا تلوذ به الصدور، سعدًا لا تَمْطُله الأيام في تقاضيه، ونصرًا يمضي به نصل الجهاد فلا يزال ماضيه، على الفتح مبنيًا. ويوالي له عزًّا يَذُودُ عن حرم الدين ويمنحه تأييدًا يصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطعيًا. أمر مرسومًا عزيزًا لا تبلغ المرسومات إلى مداه، ولا يبدي بآثار الاختصاص مثل ما أبداه، عبد اللّه أمير المسلمين محمد الغالب باللّه أيّد اللّه تعالى مقامه، ونصر أعلامه، وشكر إنعامه، ويسَّرَ مرامه، لإمام الأئمة وعلم الأعلام، وعماد ذوي العقول والأحلام، وبركة حملة السيوف والأقلام، وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام، الشيخ الفقيه أبي يحيىٰ ابن كبير العلماء، شهير العظماء، أوحد الجِلّة وطود شمامهم، الشيخ الفقيه أبي بكر بن عاصم أبقاه اللّه تعالى، ومناطق[1] الشكر له فصيحة اللسان، ومواهب الملك به معهودة الإحسان، وقلائد الأيادي منه متقلّدة بجِيد كلّ إنسان، قد تقرّر والمفاخر لا تُنْسَبُ إلاّ لبنيها، والفضائل لا تعتبر إلاّ بمن يشيد أركانها ويبنيها، والكمال لا يُصفي شِرْبه، إلاّ لمن يؤمِّن سِرْبه، أنَّ هذا العلم الكبير، الذي لا يفي بوصفه التعبير، علم بآثاره يُقْتَدى، وبأنظاره يُهْتَدَى، وبإشارته يستشهد، وبإدارته يسترشد، إذ لا أمد علو إلاّ وقد تخطاه، ولا مركب فضل إلاّ وقد تمطّاه، ولا شارقة هدى إلاّ وقد جلاها، ولا لبّة فخر إلاّ وقد حَلاّها، ولا نعمة إلاّ وقد أسْداها، ولا سومة[2] إلاّ وقد أبداها، لما له في دار الملك من الخصوصية العظمى، والمكانة التي تسوغ النعمى، والرتب التي تسمو العيون إلى مُرتَقاها، وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتتلقّاها، حيثُ سِرُّ الملك مكتوم، وقرطاسه مختوم، وأمرُهُ محتوم، والأقلام قد روضت الطروس وهي ذاوية، وقسّمت الأرزاقَ وهي طاوية، شقّت ألسنتها فنطقت، وقطّتْ أرجلها فسبقت، ويبست فأثمرت إنعامًا، ونكست فأظهرت قوامًا، وخطّت فأعطت، وكتبت فوهبت، ومشقت فرفقت، وأبرمت فأنعمت، فكم يسرت الجبر، وعقرت الهِزَبر[3]، وشنّفت المسامع، وكيّفت المطامع، وأقلّت فيما ارتفع من المواضع، وأحلّت لما امتنع من المراضع، فهي تنجز النعم، وتحجز النقم، وتبثّ المذاهب، وتحثّ المواهب، وتروض المراد، وتنهض المراد، وتحرس الأكناف، وتغرس الأشراف، مصيخة

(١) المناطق: جمع منطق وهو موضع النطق، أي الفم. لسان العرب (نطق).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٥٧): «ولا حرمة».
(٣) الهِزَبْرُ: الأسد. محيط المحيط (هزبر).

لنداء هذا العماد الأعلى، طامحة لمكانه الذي سما واستعلى، فيما يلي عليها من البيان الذي يقرُّ له بالتفضيل، الملكُ الضِّلِّيل[1]، ويشهد له بالإحسان، لسان حسان[2]، ويحكم له ببري القَوْس، حبيب بن أوس[3]، ويهيم بما من الأساليب عنده، شاعر كِنْدَة[4]، ويستمطر سحبه الثَّرَّة، فصيح المعرّة[5]، إلى منشور[6] تزيل الفَقْر فِقَرُهُ، وتدرّ الرزق دِرَرُهُ، لو أنهي إلى قس إياد لشكر في الصنيعة أياديه، واستمطر سحبه وغواديه، أو بلغ إلى سحبان لسحره، وما فارقه عشيته ولا سَحَره، ولو رآه الصابي لأبدى إليه من صبوته ما أبدى، أو سمعه ابن عباد لكان له عبدًا، أو بلغ بديع الزمان لهجر بَدَائعه، واستنزر[7] بضائعه، أو أتحف به البستي لاتّخذه بستانا، أو عُرض على عبد الحميد لأحمد من صَوْبه هَتَّانا، فيعظم به من عالٍ لا تُرْقى ثَنِيته، ولا تحاز مزيته، ولا يُرْجَمُ أُفقه، ولا يُكتم حقّه، ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر، ولا ينقاس به في الفضل مُناظر، وهل تقاس الأجادل بالبغاث[8]، أو الحقائق بالأضغاث؟ ألاَ وإنَّ بيته هو البيت الذي طلع في أفقه كلّ كوكب وَقَّاد، مِمَّنْ وشج به للعلوم اتّقاء واتّقاد، وترامى به للمدارك ذكاء وانتقاد، فأعظم بهم أعلامًا وصدورًا، وأهلّة وبدورًا، خلدت ذكرهم الدواوين المُسَطَّرة، وسرت في محامدهم الأنفاس المعطّرة، إلى أن نشأ في سمائهم هذا الأوحد، الذي شهرة فضله لا تجحد، فكان قمرهم الأزهر، ونَيِّرهُم الأظهر، ووسيطة عقدهم الأنفس، ونتيجة مجدهم الأقعس، فأبعد في المناقب آماده، ورفع الفخر وأقام عماده، وبنى على تلك الآساس المشيدة، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة، فسبق وجَلّى، وشنّف بذكره المسامع وحَلّى، ورفع المشكل ببيانه، وحرّر الملتبس ببرهانه، إلى أن أحلّه قضاء الجماعة ذروة أُفقه الأصعد، وبوّأه عزيز ذلك المقعد، فشرّف الخطّة، وأخذ على الأيدي المشتطّة، لا يراقب إلاّ ربّه، ولا يضمر إلاّ العدل وحبه،

---

(١) الملكُ الضِّلِّيلُ: هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، الشاعر الجاهلي المشهور.

(٢) هو حسّان بن ثابت، شاعر الرسول الكريم.

(٣) حبيب بن أوس هو أبو تمام.

(٤) شاعر كندة: هو أبو الطيب المتنبي. وكندة هنا: حيٌّ من أحياء الكوفة.

(٥) فصيح المعرّة: هو أبو العلاء المعرّي.

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٥٨): «إلى منثور».

(٧) استنزرها: وجدها نزرة ضئيلة. لسان العرب (نزر).

(٨) الأجادل: جمع أجدل وهو الصقر. البغاث: طير ضعيف يُضرب المثل بضعفه فيقال: «إنَّ البغاث بأرضنا تستنسر». لسان العرب (جدل) و (بغث).

والمجلس السلطاني أسماه اللّه تعالى يختصّه بنفسه، ويفرغ عليه من حلل الاصطفاء ولبسه، ويستمطر فوائده، ويجرّب بأنظاره حقوق الملك وعوائده، فكان بين يديه حكمًا مُقْسِطًا، ومقسمًا لحظوظ الإنعام مُقَسِّطًا، إلى أن خصَّه بالكتابة المولوية، ورأى له ذلك حقَّ الأولوية، إذ كان والده المقدّس نَعَّمَ اللّهُ تعالى ثراه، ومنحه السعادة في أُخراه، مشرِّف ذلك الديوان، ومعلي ذلك الإيوان، يحبِّر رقاع الملك فتروق، وتلوح كالشمس عند الشروق، فحلَّ ابنُه هذا الكبير شرفًا، الشهير سلفًا، مرتبتَه التي سَمَتْ، وافترَّت به عن السعد وابتسمت، فسحبت به للشرف مَطارف، وأحرزت به من الفخر التالد والطارف، فهو اليوم في وجهها غُرّة، وفي عينها قُرّة، ولِلّه هو في ملاحظة الحقائق ورعيها، وسمع الحجج ووعيها، فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص، وسبقهم في تبيين ما يشكل منها وما يعتاص[1]، إذ المشكلة معه جلية الأغراض، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض، فكم رتبة عمرها بذَوِيها، فأكسبها تشريفًا وتنويهًا، وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن، ومن عَبَر منهم وقَطَن، مع أقدارهم السامية، ومعاليهم التي هي للزُّهر مسامية، إنما رقتهم وساطته التي أحسنت، وزيّنت بهم المجالس وحسَّنت، فيه[2] أمضوا أحكامهم، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم، وكتبوا الرسوم، وكبتوا الخصوم، وحلّوا دَسْتَ[3] القضاء، وسلّوا سيف المَضاء، وفي زمانه تخرّجوا، وفي بستانه تأرّجوا، ومن خلقه اكتسبوا، وإلى طرقه انتسبوا، وعلى موارده حَامُوا، وحول فوائده قاموا، وبتعريفه عُرفوا، وبتشريفه شرفوا، وبصفاته كَلِفُوا، وبعرَفَاتِهِ وقفوا، فأَمِنُوا مع انسكاب سحب إفادته من الجَدْب، وقاموا بذلك الفرض بسبب ذلك النَّدْب، وهل العلماء وإن عمَّت فوائدهم، وانتظمت بجياد الأذهان فرائدهم، إلاَّ من أنواره مستمدّون، وإلى الاستفادة من أنظاره ممتدّون، وببركاته معتدّون، وبأسبابه مشتدّون، فيه اجْتُنِيَتْ من أفنان المنابر ثمراتهم، وتأرَّجَتْ في روضات المعارف زهراتهم، وبه عمروا الحَلَق[4]، وائتلق من أنوارهم ما ائتلق، إذ كلٌّ من اصطناعه محسوب، وإلى بركته منسوب، فهو بَدْرُهُم الأهْدَى، وغيثهم الأَجْدَى، وعقدهم المقتنى، وروضهم المجتنى، وبدر منازلهم، وصدر محافلهم. وعلى ما أعلى المقام المولوي من

---

(١) يعتاص: يصعب. لسان العرب (عوص).

(٢) في أزهار الرياض: «فبه».

(٣) دَسْتُ القضاء: كرسيّ القضاء، والدَّسْتُ في الأصل: صدر البيت. لسان العرب (دست).

(٤) الحلق: جمع حلقة وهي مكان تجمع القوم. لسان العرب (حلق).

مكانه، وقضى به من استمكانه، واعتمد من إبرامه، وأبرم من اعتماده، ومهد من إكرامه، وكرم من مهاده، واختصّ من علاه، وأعلى من اختصاصه، واستخلص من حُلاه، وحلا من استخلاصه، ووفى من تكرّمه، وكرم من وفائه، واصطفى من مجده، ومجد من اصطفائه، وقدم من براعته، وحكم من يراعته، وشقق من كتابته، وأنطق من خطابته، وسجل من أنظاره، وعجل من اختياره، فذكا ذكره[1]، وسطا سَطْره، وأمعن معناه، وأغنى مغناه، أشار أيّده اللّه تعالى باستئناف خصوصيّته وتجديدها، وإثبات مقاماته وتحديدها، لِتُعْرف تلك الحدود فلا تُتَخَطّى، وتُكبر تلك المراتب فلا تُسْتعطى، فأصدر له شكر اللّه تعالى إصداره، وعمر بالنصر داره، هذا المنشورَ الذي تأرّج بمحامدِه نَشْره، وتضمّن من مناقبه البديع فرَاقَ طيّه ونَشْره، وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكونه، وأصبح للمفاخر مالكًا لما أتى به مدونه، وخصّه فيه بالنظر المطلق الشروط، الملازم للتفويض ملازمة الشرط للمشروط، المستكمل الفروع والأصول، المستوفي الأجناس والفصول، في الأمور التي تختصّ بأعلام القضاة الأكابر، وكُتّاب القضاة ذوي الأقلام والمحابر، وشيوخ العلم وخطباء المنابر، وسائر أرباب الأقلام القاطن منهم والعابر، بالحضرة العلية، وجميع البلاد النّصْرية، تولّى اللّه تعالى جميع ذلك بمعهود ستره، ووصل لديه ما تعوّد من شفع اللطف ووتره، يحوط مراتبهم التي قُطفت من رواتها ثمرات الحكم وجُنِيَتْ، ويراعي أمورهم التي أقيمت على العوائد وبُنيت، وحقوقهم التي حُفظت لهم في المجالس السلطانية ورُعيت، ويحلّ كلّ واحد منهم في منزلته التي تليق، ومرتبته التي هو بها خَليق، على ما يقتضي ما يعلم من أدواتهم، ويخبر من تباين ذواتهم، ويُرَشِّح كلّ واحد إلى ما استحقّه، ويؤتي كلّ ذي حقّ حقّه، اعتمادًا على أغراضه التي عدلت، وصدحت على أفنائها من الأفواه طيور الشكر وهَدَلَت، واستنادًا في ذلك إلى آرائه، وتفويضًا له في هذا الشأن بين خلصاء الملك وظُهَرَائه[2]، وذلك على مقتضى ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا، وانتهضوا بهممهم واستبقوا، كالشيخ الرئيس الصالح أبي الحسن بن الجيّاب، والشيخ ذي الوزارتين أبي عبد اللّه بن الخطيب، رحمهما اللّه تعالى! فليقم أبقاه اللّه تعالى بهذه الأعمال التي سَمَتْ واعتزّت، ومالت بها أعطاف العدل واهْتَزّت، وسار بها الخبر حثيثَ السُّرَى[3]، وصار بها

(١) ذكا ذكره: ارتفع. لسان العرب (ذكا).
(٢) الظُّهراء: جمع ظهير وهو المُعين والناصر. لسان العرب (ظهر).
(٣) حثيث السُّرى: سريع السير؛ والسُّرى في الأصل: السير ليلاً. لسان العرب (سرا).

الحقّ مشدود العُرَى، وعلى جميع القضاة الأمضياء، والعلماء الأرضياء، والخطباء والأولياء، والمقرئين الأزكياء، وحملة الأقلام الأحظياء[1]، أن يعتمدوا هذا الولي العماد في كلّ ما يرجع إلى عوائدهم، ويختصُّ في دار الملك من مرتّباتهم وفوائدهم، وما يتعلّق بولاياتهم وأمنياتهم، ويليق بمقاصدهم ونيّاتهم، فهو الذي يسوّغهم المشارب، ويبلغهم المآرب، ويستقبل العلي بالعلي، والعاطل بالحلي، والمشكل بالجلي، والمفرق بالتاج، والمقدمة بالإنتاج، وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرّهم على ولاياتهم وأبقاهم، ولقاهم من حفظ المراتب ما رقّاهم، فليَجْرُوا على ما هم بسبيله، وليهتدوا بمرشد هذا الاعتناء ودليله، وكتب في صفر عام سبعة وخمسين وثمانمائة، انتهى.

قلت: وإنما أتيت به لوجوه: أحدها، ما يتعلّق بلسان الدين إذ وقعت الإشارة إلى مرتبته في آخره، والثاني ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب، والثالث معرفة حال الرئيس أبي يحيىٰ بن عاصم وتمكّنه من الرياسة؛ لأنّا بنيْنا هذا الكتاب على ذكر ما يناسبه من أنباء أهل المغرب، لكون أهل هذه البلاد المشرقية ليس لهم بها عناية، والرابع أنَّ بعض أكابر شيوخنا مِمَّنْ ألّف في طبقات المالكية لما عرّف بأبي يحيىٰ ذكره في نحو أسطر عشرة، وقال: هذا الذي حضرني من التعريف به، والخامس أن ابن عاصم المذكور كما قاله الوادي آشي وغيره كان يدعى في الأندلس بابن الخطيب الثاني، ويعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة والسياسة.

رجع إلى أخبار لسان الدين فنقول:

وأمّا كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه اللّه تعالى، فقد قال في الإحاطة لما أجرى ذكر ذلك ما صورته[2]: وأمّا ما رفع إليَّ من الموضوعات العلمية، والوسائل الأدبية، والرسائل الإخوانية، لَمَّا أقامني الملك صَنَمًا يعتمد[3]، وخيالاً إليه يستند، صادرة عن الأعلام، وحملة الأقلام، ورؤساء النّثار والنظام[4]، فَجَمٌّ يضيق عنه الإحصاءُ، ويعجز عن ضمِّ نَشْره الاستقصاء، وربما تضمَّن هذا الكتاب كتاب «الإحاطة» منه[5] كثيرًا، ومنظومًا

(١) الأحظياء: جمع حظيّ وهو ذو الحظوة، المقرّب. لسان العرب (حظي).
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٥٧).
(٣) في الإحاطة: «يُعْبَدُ، وجبلاً إليه يستند».
(٤) النثار: النثر. النظام: الشِّعر. لسان العرب (نثر) و (نظم).
(٥) في الإحاطة: «هذا منه».

أثيرًا، ودرًّا[1] نثيرًا، جرى في أثناء الأسماء، وانتمى إلى الإجادة أكرم الانتماء، غفر اللّه تعالى لي ولقائله، فما كان أولاني وإياه بستر زوره[2]، وإغراءِ الإضراب بغروره فأهْوِنْ بما لا ينفع، وإن ارتفع الكلم الطَّيّب لا يرفع[3]، اللهمّ تجاوزْ عنّا بفضلك وكرمك[4]، انتهى.

وقد تقدّم في ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي نزيل مالقة وصاحب التآليف العديدة أنه ألّف تقييدًا على قواعد الإمام القاضي أبي الفضل عياض رحمه اللّه تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى، وكَذلك غير واحد من أهل عصره، قصدوه بالنظم والنثر، وهي سنَّةُ اللّه سبحانه وتعالى في عباده، إذ السلطان سُوقٌ يُجْلَبُ إليها ما ينفق فيها، واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ وليُّ المكافأة، لا إله غيره، ولا مأمول سواه؛ انتهى[5].

---

(١) في الإحاطة: «منظومًا ونثيرًا».

(٢) في الإحاطة: «وِزْرِه».

(٣) في الإحاطة: «لا يُدْفَعُ». وقد أخذ المعنى من قوله تعالى: ﴿إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ، والعَمَلُ الصالحُ يَرْفَعُهُ﴾. سورة فاطر ٣٥، الآية ١٠.

(٤) في الإحاطة: «بكرمك وفضلك».

(٥) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٠٥).

الباب الخامس
في إيراد جملة من نثر لسان الدين

في إيراد جملة من نثره الذي عَبِقَ أريجُ البلاغة من نفحاته، ونَظْمه الذي تألّق نور البراعة من لمحاته وصفحاته، وما يتصّل به من أزجاله ومُوَشّحاته، ومناسبات رائقة في فنون الأدب ومصطلحاته.

اعلمْ ـ سلك اللّه تعالى بي وبك أوضح مَحَجّه[1]، وجعلنا مِمَّنْ انتحى صَوْب الصواب ونهجه! ـ أنَّ هذا الباب، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب، وغيرُه كالتَّبَع له، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالمحاسن متقنعة، وللبدائع متنعلة، فأقول:

أمّا نثرُهُ فهو البحرُ الزخار، يلِ الدرُّ الذي به الافتخار، وناهيك أنَّ كتبه الآن في المغرب قِبْلَة أرباب الإنشاء التي إليها يُصَلّون، وسُوق دُرَرهم النفيسة التي يزيّنون بها صدور طروسهم[2] ويُحَلّون، وخصوصًا كتابه «ريحانة الكُتّاب، ونُجْعة المنتاب» فإنه، وإن تعدّدت مجلّداته، على فنّ الإنشاء والكتابة مقصور، وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطباته لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين عَلَم بلاغتهم منصور، وقد تركت نسختي منه في المغرب، ولو حضرتني لكفتني عن هذه الفوائد التي أتعبت خاطري في جمعها من مُقَيداتي التي صحبتها معي، وهي قليلة.

---

(١) المَحَجَّةُ: الطريق. لسان العرب (حجج).

(٢) الطروس: جمع طرس وهو الصحيفة التي يكتب عليها. لسان العرب (طرس).

وقد مَرَّ في هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه، والذي نجلبه هنا زيادة على ما سبق.

وقال رحمه اللّه تعالى في «الإحاطة» عند ترجمة نثره ما صورته: وأمّا النثر فبحر زاخر، ومدى طوله مستأخر، وإنك لم يفخر عليك كفاخر، وقد مرَّ منه في تضاعيف هذا الديوان كثير، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشِير؛ انتهى.

فمن ذلك قوله في غرض التحميد مِمّا افتتح[1] به الكتابَ في التاريخ المتضمّن دولة بني نصر[2]: «الحمد للّه الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودُوَلَ الأملاك كأنجم الأحلاك[3]، تُطْلِعُها من المشارق نيّرة، وتلعب بها مستقيمة أو متحيّرة، ثم تذهب بها غائرة متغيّرة، السائق[4] عَجِل، وطَبْع الوجود مرتجل، والحيُّ من الموت وَجِل، والدهرُ لا معتذِرٌ ولا خَجِل، بينما ترى الدَّسْتَ عظيم الزحام، والموكب شديد الالتحام، والوَزَعَة تشير[5]، والأبواب يقرعها البشير، والسرور قد شمل الأهلَ والعَشير، والأطراف تلثمها[6] الأشراف، والطاعة يشهرها الاعتراف، والأموال يَحُوطها العَدْل أو يُبيحها الإسراف، والرايات تُعْقَد، والأعْطِيات تُنقَد، إذ رأيتَ الأبواب مهجورة، والدسُوتَ لا مؤمَّلة ولا مَزُورة، والحركات قد سكنتْ، وأيدي الإدالة قد تمكّنتْ، فكأنما لم يسمر سامر، ولا نَهَى ناهٍ ولا أمر آمر، ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة، إنما ﴿مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السماءِ فاخْتَلَطَ به نباتُ الأرضِ فأَصْبَحَ هشيمًا تَذْرُوهُ الرياحُ﴾[7].

ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحَضّ على الجهاد: «أيها الناس، رحمكم اللّه تعالى، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهَمَ العدوُّ قصمه اللّه تعالى سَاحَتَهم، ورام الكفرُ خذله اللّه تعالى استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم، ومدّ الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم بعزّة اللّه تعالى أقْوَى، وأنتم المؤمنون أهل البرّ والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تحقروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهادَ الجهادَ فقد

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣١٠): «افتتح».
(٢) يريد كتاب «اللمحة البدرية في الدولة النصرية». والنص في اللمحة البدرية (ص ١٧ ـ ١٨).
(٣) الأحلاك: جمع حلك وهو شدّة الظلمة. لسان العرب (حلك).
(٤) في اللمحة البدرية: «عائرة متغيّرة، السابقُ عَجِل..».
(٥) الوَزَعَةُ: أعوان الحاكم وشرطُهُ. لسان العرب (وزع).
(٦) في اللمحة البدرية: «يلثمها».
(٧) سورة الكهف ١٨، الآية ٤٥.

تعين، الجارَ الجارَ فقد قرّر الشرع حقّه وبَيّن، اللّه اللّه في الإسلام، اللّه اللّه في أمّة محمد عليه الصلاة والسلام، اللّه اللّه في المساجد المعمورة بذكر اللّه، اللّه اللّه في وطن الجهاد في سبيل اللّه، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكّد عهد اللّه وحاشاكم أن تنكثوه[1]، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم اللّه تعالى عند الشدائد، جَدّدوا عوائدَ الخير يَصِل اللّه تعالى لكم جميلَ العوائد، صِلوا رحم الكلمة، وَاسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب اللّه بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنّة رسول اللّه ﷺ قائمة فيكم، واللّه سبحانه يقول فيها ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا هلْ أَدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنْجِيكُم ﴾[2] ومِمّا صحّ عنه قوله «من اغبرّت قَدَماه في سبيل اللّه حرّمهما اللّه على النار» «لا يجتمع غبار في سبيل اللّه ودخان جهنّم» «من جهّز غازيًا في سبيل اللّه فقد غزا» أدركوا رَمَقَ الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع اللّه تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في اللّه بالألسن والأقوال حق جهاده: [الكامل]

ماذا يكونُ جوابُكُمْ لنبيِّكُمْ ... وطريقُ هذا العذرِ غيرُ مُمَهَّدِ
إن قال لِمْ فرطتمُ في أمّتي ... وتركتموهم للعدوّ المعتدي
تاللّه لو أنّ العقوبةَ لم تُخَفْ ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيّد

اللهمّ أعطف علينا قلوب العباد، اللهمّ بثّ لنا الحميّة في البلاد، اللهمّ دافعْ عن الحريم والضعيف والأولاد، اللهمّ انصرْنا على أعدائك، بأحبابك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهمّ أفرغ علينا صبرًا وثَبِّتْ أقدامنا وانصرْنا على القوم الكافرين، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا»؛ انتهى.

ومن ذلك قوله في صداقٍ أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس في فصل منه تضمّن ذكر أوليّتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته: «فضرب بفاس. عمرها اللّه تعالى!. حلته، وأورث منها بالبقعة الزكية الرفيعة سراته وجِلّته[3]، فتبوّأوا من ذلك الغَوْر، المعشب الروض الأرِج النَّوْر، هالة سعد، وأُفق برق ورعد، ودست وعيد ووَعْد، يتناقلون رُتَبَ

(١) نكث العهد: نقضه. لسان العرب (نكث).
(٢) سورة الصف ٦١، الآية ١٠.
(٣) السراة: جمع السّريّ وهو السّيّد الكريم. الجِلّة: جمع جليل وهو العظيم القدر. لسان العرب (سرى) و (جلل).

الشرف الصريح كابرًا عن كابر، ويَرْوِي مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجد كلُّ حريص على عوالي المعالي مثابر: [البسيط]

فالكفُّ عن صِلةٍ، والأذنُ عن حَسَن والعينُ عن قُرَّةٍ، والقلبُ عن جابرْ

حيث الأنوف الشُّمّ والوجوه الغُرّ، والعزّة القَعْساء والنسب الحرّ، والفواطم في صدف الصون من لدن الكون كأنهنّ الدرّ، آل رسول اللّه ونعم الآل، والموارد الصادقة إذا كذب الآل[1]، ومَنْ إذا لم يُصَلّ عليهم في الصلاة حَبِطَتْ منها الأعمال، طَلِبَة الراكب، ونِشْدَة الطالب، وسراة لؤي بن غالب، وملتقى نور اللّه تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلي ابن أبي طالب»؛ انتهى، وهو طويل لم يحضرني منه الآن سوى ما ذكرته.

ومن ذلك قوله رحمه اللّه تعالى: «كتبت إلى بعض السادة الفضلاء، وقد بلغني مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المَرينية[2]: وردت عليَّ من فئتي التي إليها في معركة الدهر أتحيّز، وبفصل فضلها في الأقدار المشتركة أتميّز، سَحَاءة سرَّت وساءت، وبلغت من القصدين ما شاءت، أطلع بها سيِّدي[3] صنيعة ودّه من شكواه على كلِّ عابث في السويداء، موجب اقتحام البيداء، مضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاَّ القليل، ولا من إفصاح لسانه إلاّ الأنين والأليل، ونوى مدّت لغير ضرورة يرضاها الخليل، فلا تسأل عن ضنين تطرّقت اليد إلى رأس ماله، أو عابد نوزع في تَقَبُّل أعماله، أو آمل ضويق في فذلكة آماله، لكنني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق، ورأيت الخطَّ يبهر والحمد للّه ويروق، واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بروق، فقلت: ارتفع الوَصَب[4]، ورُدَّ من الصحة المغتصب، وآلة الحسّ والحركة هي العصب، وإذا أشرق سراج الإدراك دلّ على سلامة سَليطه[5]، والروح خليط البدن والمرءُ بخليطه، وعلى ذلك فتليد[6] احتياطي لا يقنعه إلاّ الشرح، فبه يسكن

---

(١) الآل: السراب. محيط المحيط (أول).

(٢) مرّ هذا النص في هذا الجزء من رسالة خاطب بها الفقيه أبا القاسم بن رضوان.

(٣) كلمة «سيدي» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣١٢).

(٤) الوَصَبُ، بالفتح: المرض. لسان العرب (وصب).

(٥) السليط: الزيت. لسان العرب (سلط).

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٦٨): «فبليد».

الظمأ البَرْح[1]، وعُذْرًا عن التكليف فهو محلّ الاستقصاء والاستفسار، والإطناب والإكثار، وزَنْدُ القلق في مثلها أوْرَى، والشفيق بسوء الظن مُغْرَى، والسلام».

ومن نثر لسان الدين ما ذكره في «الإحاطة» في ترجمة أبي عبد اللّه الشُّدَيد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الجياني الأصل ثم المالقي، إذ قال ما صورته[2]: جملة جمال[3] من خطّ حسن واضطلاع بحمل كتاب اللّه، بُلْبُل دَوْح السبع المثاني، وماشطة عروس أبي الفرج بن الجوزي، وآية صُقْعه[4]، ونسيجُ وَحْدِه، في حسن الصوت وطيب النغمة، اقتحم لذلك دسوت الملوك، وجرَّ أذيال الشهرة. عَذْبُ الفكاهة، ظريف المجالسة، قادرًا[5] على المحاكاة، متسوّرًا حمى الوقار، ملبيًّا[6] داعي الانبساط، قُلِّد شهادة الديوان بمالقة فكان مُغار حَبْل[7] الأمانة، شامخ مارن[8] النزاهة، لوحًا للألقاب، وعُزِّزتْ ولايته ببعض الألقاب النبيهة، وهو الآن الناظر في أمور الحِسْبَة ببلده، ولذلك خاطبته برقعة أُداعبه بها وأُشير إلى أضداده بما نصُّه: [السريع]

يا أيها المحتسبُ الجَزْلُ ... ومن لديه الجِدُّ والهَزْلُ
يهنيك[9] والشكرُ لمولى الورى ... ولايةٌ ليس لها عَزْلُ

كتبتُ أيها المحتسب، المنتمي إلى النزاهة المُنْتسب، أُهنِّيك ببلوغ تمنِّيك، وأُحذِّرك من طمع نفس بالغرور تُمَنِّيك، فكأنني[10] بك وقد طافت بركابك الباعة[11]، ولزم أمرك السمع والطاعة، وارتفعت في مُصَانعتك الطماعة، وأَخَذْتَ أهلَ الرِّيب بَغْتة كما تقوم

(١) البَرْح: الشدّة؛ والظمأ البرح: الشديد القاسي. لسان العرب (برح).
(٢) الإحاطة (جـ ٣ ص ١٩٦ ـ ١٩٨).
(٣) في الإحاطة: «مجموع خِلال».
(٤) في الإحاطة: «وآية صُقْعه في الصوت وطيب النغمة..».
(٥) في الإحاطة: «قادرٌ على الحكايات، متسورٌ..».
(٦) في الإحاطة (ص ١٩٧): «مُلَبٍّ».
(٧) في الإحاطة: «جبل».
(٨) في الإحاطة: «صادق النزاهة». والمارن: طرف الأنف. لسان العرب (مرن).
(٩) في الإحاطة: «تُهنيك».
(١٠) في الإحاطة: «فكأني».
(١١) في الإحاطة: «الساعة، ولزم لأمرك..».

الساعة، ونهضت تُقْعِد وتقيم، وسطوتك[1] الريح العقيم، وبين يديك القِسْطاس[2] المستقيم، ولا بدَّ من شَرَكٍ يُنصب، وجماعة على ذي جاه تغْصَب[3]، ودالّة يمتّ بها الجناب الأخصب، فإن غَضَضْتَ طَرْفَكَ، أمنت على الولاية صَرْفَك، وإن ملأت ظَرْفَكَ[4]، رحلت عنها حرفك، وإن كَفَفْتَ فيها كَفَّك، حفَّك العِزُّ فيمن حفَّك، فكنْ لقا المجبّنة قاليا[5]، ولحوت السلّة ساليا، وأبدِ لدقيق الحُوّارى زُهْدَ حَوَارِيّ[6]، وازهد فيما بأيدي الناس من العَوَارِي، وسِرْ في اجتناب الحَلْواء[7]، على السبيل السواء، وارفضْ في الشِّوَاء، دواعي الأهواء[8]، وكن على الهرّاس[9] وصاحب ثريد[10] الراس شديد المِراس، وثُبْ على طبيخ[11] الأعراس ليثًا مرهوبَ الافتراس، وأدِّبْ أطفال الفسوق[12] في السوق، سيما مَنْ كان قبل البلوغ والبسوق[13]، وصمِّمْ على استخراج الحقوق، والناس أصناف فمنهم خسيس يطمع منك في أكلة، ومُسْتَعْدٍ عليك بوَكْزَة أو رَكْلَة، وحاسد في مطيّة تُرْكب، وعَطِيّة تُسْكَب، فاخفض للحاسد جناحك، وسَدِّدْ إلى حربه رماحك، وأشبع الخسيسَ منهم مَرَقَةً فإنه حَنِق، ودُسَّ له فيها عظمًا لعلّه يختنق، واحفرْ لشرِّيرهم حُفْرَةً عميقةً، فإنه العدوّ حقيقةً، حتى إذا حَصَلَ، وعلمت أنّ وقت الانتصار قد اتّصل[14]، فأَوْقِعْ وأَوْجِعْ ولا ترجع، وأولياءه من الشياطين[15] فأفجعْ، والحقُّ أقوى، وأن تَعْفُو أقرب للتقوى، سدّدَكَ

---

(١) في الإحاطة: «وسكوتك».

(٢) القِسْطاس: الميزان المستقيم. محيط المحيط (قسطس).

(٣) في الإحاطة: «تتعصّبُ».

(٤) ملأت ظَرْفَكَ: كناية عن قبول الهدية والرشا.

(٥) قاليًا: مبغضًا، كارهًا. لسان العرب (قلا).

(٦) الحُوّارى: لباب الدقيق وخالصه، الحَواريُّ: من يكون من أنصار الأنبياء. لسان العرب (حور).

(٧) في الإحاطة: «الحلو».

(٨) في الإحاطة: «السوا، وارفض في الشّوا، دواعي الأهوا..».

(٩) الهرّاس: صانع الهريسة. لسان العرب (هرس).

(١٠) في الإحاطة: «فريد».

(١١) في الإحاطة (ص ١٩٨): «على بائع طبيخ».

(١٢) في الإحاطة «السُّوق».

(١٣) في الإحاطة: «والسُّبوق، وصَمِّمْ في..».

(١٤) في الإحاطة: «قد وصل».

(١٥) في الإحاطة: «من حزب الشيطان».

اللّه تعالى إلى غرض التوفيق، وأعْلَقَك من الحقّ بالسبب الوثيق، وجعل قدومَكَ مقرونًا بِرُخْص اللحم والزيت والدقيق»[1] ؛ انتهى.

ومِمّا كتب به لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي بن موسى بن رحّو[2] بن عبد اللّه بن عبد الحق من مدينة سَلا ما نصُّه[3] :

يا جملةَ الفَضْلِ والوفاءِ[4] ما بمعاليك مِنْ خَفاءِ
عندي بالودِّ فيكَ عَقْدٌ صَحَّحَهُ[5] الدَّهْرُ باكتفاءِ
ما كنتُ أقضي حلاكَ[6] حقًّا لو جئتُ مدحًا بكلِّ فاء
فأوْلِ وَجْهَ القبولِ عذري وحسبكَ[7] الشكُّ في صفاء

«سيدي الذي هو فَصْلُ[8] جنسه، ومزية يومه على أمسه، فإن افتخر الدين من أبيك[9] ببدره افتخر منك بشمسه، رحلت على[10] المنشإ والقرارة[11]، ومحلّ الصَّبوة والفَرَارة[12]، فلم تتعلّق نفسي بذخيرة، ولا عهد جيرة[13] خيرة، كتعلّقها بتلك الذات التي لطفت لطافة الراح، واشتملت بالمجد الصُّراح، شفقةً أن تُصيبها معرة[14]، واللّه تعالى يَقِيها، ويحفظها ويُبْقِيها، إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل[15]، والضدّ عن ضدّه منحرف بالطبع ومائل،

---

(١) في الإحاطة: «والدقيق، بمنّه وفضله».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ص ٣١٥): «ابن حو». وترجمة علي بن بدر الدين الطوسي في الإحاطة (جـ ٤ ص ٦٧)

(٣) النص شعرًا ونثرًا في الإحاطة (جـ ٤ ص ٦٨ ـ ٦٩).

(٤) في الإحاطة: «والوفا».

(٥) في الإحاطة: «صحّحه».

(٦) في الإحاطة: «علاك».

(٧) في الإحاطة: «وجَنْبُ».

(٨) في الإحاطة: «فضل».

(٩) في الإحاطة: «من اللّه».

(١٠) في الإحاطة: «عن».

(١١) القرارة: موضع الاستقرار. لسان العرب (قرر).

(١٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣١٥): «والغرارة».

(١٣) في الإحاطة: «حيرة».

(١٤) المعرّة: الإثم والخطيئة. محيط المحيط (عرر).

(١٥) في الإحاطة: «غوامل».

فلمّا تعرّفتُ خلاصَ سيدي من ذلك الوطن، وإلقاءه وراء الفرضة بالعَطَن، لم تبق لي تَعِلّة [1]، ولا أحرضتني [2] له علّة، ولا أوتي جمعي من قلّة، فكتبت أهنىء نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى، وأعترف للزمان باليد الطُّولى، فالحمد للّه الذي جمع الشمل بعد شتاته، وأحيا الأنس بعد مماته، سبحانه لا مُبَدِّل لكلماته. وإياه أسأل أن يجعل العِصْمة حظّ سيدي ونصيبَه، فلا يستطيع حادث أن يُصيبه، وأنا أخرج له عن [3] بثّ كمين، ونصح أنا به قَمين، بعد أن أسْبُر غَوْرَه، وأخْبُرَ طَورَه، وأرصد دوره، فإن كان له في التشريق [4] أمل، وفي ركب الحجاز ناقة وجمل، والرأي فيه قد نجحت منه نيّة وعمل، فقد غَنِيَ عن عرف [5] البقرات، بأزكى الثمرات، وأطفأ هذه الجَمَرَات، برمي الجمرات، وتأنَّسَ بوصل السُّرى ووصال السراة [6]، وأنابه إن رضيني [7] أرضى مُرَافق، ولواء عزي به خافق، وإن كان على السكون بناؤه، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه، فأمرٌ له ما بعده، واللّه يحفظ من الغِيَر [8] سعده، والحقّ أن تُحْذَف الأبهة وتُخْتصر، ويحفظ اللسان ويغضّ [9] البصر، وينخرط في الغِمار، ويُخَلّى عن المضمار، ويجعل من المحظور مداخلة من لا خَلاق له، مِمَّنْ لا يقبل اللّه تعالى قوله ولا عمله، فلا يكتم سرًّا، ولا يتطوق من الرجولة زرًّا [10]، ويرفض زمام السلامة، وتركُ [11] العلامة على النجاة علامة. وأما حالي فكما علمتم مُلازم كِنّ [12]، ومهبط [13] تجربة وسنّ، أزجي الأيام، وأرومُ بعد التفرّق الالتئام، خالي اليد،

---

(١) التعلّة: ما يُتعلّل به من طعام وغيره. محيط المحيط (علل).

(٢) في الإحاطة: «أجرضتني».

(٣) كلمة «عن» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣١٥). وفي الإحاطة (ص ٦٩): «وأنا أحدج عن بثّ..».

(٤) في الإحاطة: «في التفريق».

(٥) في الإحاطة: «عن عَوْف».

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣١٦): «السرات».

(٧) في الإحاطة: «إن رضي.. ولو أغري به خافق..».

(٨) غِيَرُ الدهر: نوازله ومصائبه المغيرة. لسان العرب (غير).

(٩) في الإحاطة: «وتحفظ اللسان ويغيض..».

(١٠) في الإحاطة: «ولا يتطرّق من الرجولة زُمَرا، ورفض الصحبة زِمام..».

(١١) في الإحاطة: «وترك النجاة علامة».

(١٢) الكن: المخبأ، وقوله: ملازم كنّ: يريد أنه ملازم البيت.

(١٣) في الإحاطة: «ومهبوط».

مليء[1] القلب والخلد، بفضل الواحد الصَّمَد، عامل على الرِّحْلة الحجازية التي أختارُها لكم ولنفسي، وأصل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي، أوجبُ ما قرّرته لكم ما أنتم أعلم به من ودّ قرَّرَتْهُ الأيامُ والشهور، والخلوصُ المشهور، وما أَطَلْتُ في شيء عند قدومي على هذا الباب الكريم إطالتي فيما يختصُّ بكم من موالاته، وبذل مجهود القول والعمل في مرضاته. وأما ذكركم في هذه الأوضاع فهو مِمَّا يُقِرُّ عين المَجَادة، والوظيفة التي ينافس[2] فيها أُولو السيادة، واللّه يَصِلُ بقاءكم، ويُيَسِّر لقاءكم، والسلام»؛ انتهى.

ومن نثر لسان الدين ما أثبته في «الإحاطة» في ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذي تكرّر نقلنا منه في هذا التأليف.

ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول: قال رحمه اللّه تعالى في «الإحاطة» ما نصُّه[3]: «عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن[4] الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحَضْرَمي، من ذرية عثمان أخي كُرَيب المذكور في نُبهاء ثوّار الأندلس، ويُنْسب[5] سَلَفُهم إلى وائل بن حجر، وحاله عند القدوم على رسول اللّه ﷺ معروفة[6]. انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نَبَاهة وتَعَيُّن عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقرّ بتونس منهم ثاني[7] المحمدين محمد بن الحسن، وتناسلوا على حشمة وسَراوة ورسوم حسنة، وتصرّفَ جَدُّ المترجَم به في القيادة. وأما المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق، جمّ الفضائل، باهر الخَصْل، رفيع القَدْر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وَقور المجلس، خاصيُّ الزي، عالي الهمّة، عَزُوفٌ عن الضيم، صَعْبُ المَقادة، قوي الجأش، طامح لقُنَن[8] الرياسة، خاطبٌ للحظّ، متقدّم في فنون عقلية ونقلية، متعدّدُ

(١) في الإحاطة: «مالىء».
(٢) في الإحاطة: «تنافس».
(٣) الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٩٧ . ٥٠٨).
(٤) في الإحاطة: «عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن..».
(٥) في الإحاطة: «وينتسب».
(٦) في الإحاطة: «معروف».
(٧) في الإحاطة: «ثالث».
(٨) القُنَنُ: جمع قنّة وهي أعلى الجبل. لسان العرب (قنن).

المزايا، سديدُ البحث، كثيرُ الحفظ، صحيحُ التصوُّر، بارعُ الخطّ، مُغْرًى بالتجلّة، جواد[1] حسن العشرة، مبذول المشاركة، مقيم لرسم التَّعين، عاكف على رَعْي خلال الأصالة، مفخر[2] من مفاخر التُّخُوم المغربية. قرأ القرآن ببلده على المُكَتِّب ابن برال، والعربية على المقرىء الزواوي[3] وغيره، وتأدّب بأبيه، وأخذ عن المحدّث أبي عبد اللّٰه بن جابر الوادي آشي. وحضر مجلس القاضي أبي عبد اللّٰه بن عبد السلام، وروى عن الحافظ أبي[4] عبد اللّٰه السطي، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحَضْرمي، ولازم العالم الشهير أبا عبد اللّٰه الآبلي وانتفع به. انصرف من[5] إفريقية منشئه بعد أن تعلّق بالخدمة السلطانية على الحداثة، وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة، عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، وعُرف فضلُه، وخَطَبَهُ السلطانُ مُنَفِّقُ سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان، واستحضره بمجلس المذاكرة، فعرف حقّه، وأوجب فضله، واستعمله على[6] الكتابة أوائل عام ستة وخمسين، ثم عَظُم عليه حمل الخاصّة من طلبة الحَضْرة لبعده عن حسن التأني، وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك، فأغروا به السلطان إغراء عَضَّده ما جُبل عليه عَهْدَئِذٍ[7] من إغفال التحفّظ مِمّا يريب لديه، فأصابته شدّة تخلّصه منها أجله، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك وهناة جواره، وإحدى العواذل لأولي الهوى في القول بفضله وعدم الخشوع وإهمال التوسّل وإبادة المكسوب في سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجار المنزل الخشن، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده، فأَعْتَبَهُ قيِّم الملك لحينه، وأعاده إلى رسمه، ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم، وكان له به الاتّصال قبل تسوُّغ المحنة بما أكد حُظْوته، فقلّده ديوان الإنشاء مُطْلق الجرايات، محرّر السِّهام، نبيه الرّتبة، إلى آخر أيامه. ولمّا ألقت الدولة مَقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد اللّٰه مدبِّر الأمر، وله إليه[8] وسيلة، وفي حليه شركة، وعنده حقّ، رابه تقصيره عمّا ارتمى إليه أمله، فساء ما بينهما بما آل إلى انفصاله عن الباب

(١) في الإحاطة (ص ٤٩٨): «جواد الكَفّ».
(٢) في الإحاطة: «مفخرة».
(٣) في الإحاطة: «الزواوي وابن العربي».
(٤) في الإحاطة: «عن الحافظ عبد اللّٰه السّطي».
(٥) في الإحاطة: «عن».
(٦) في الإحاطة: «في».
(٧) في الإحاطة: «عندئذ».
(٨) في الإحاطة (ص ٤٩٩): «وله إليه قبل ذلك وسيلة».

المَرِيني. وورد على الأندلس في أوّل ربيع الأوّل عام أربعة وستين وسبعمائة، واهتزّ له السلطان، وأركب خاصّته لتلقّيه، وأكرم وفادته، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه[1]. ولم يدّخر عنه بِرًّا ومؤاكلةً ومراكبةً ومطايبةً وفكاهة».

وخاطبني لما حلّ بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن.

فأجبتُه عنها بقولي[2]: [الطويل]

حللتَ حلولَ الغَيْثِ في البلد المَحْلِ ... على الطائرِ الميمونِ والرحبِ والسَّهْلِ
يمينًا بمن تَعْنُو الوجوهُ لوجهه ... من الشيخِ والطفل المهدَّإ والكهلِ
لقد نَشَأَتْ عندي لِلُقْياكَ غبطةٌ ... تُنَسِّي اغتباطي بالشَّبيبةِ والأهلِ

أقسمت بمن حجّت قريش لبيته، وقبرٍ صُرفت أزِمّةُ الأحياء لميته، ونور ضُربت الأمثال بِمشكاته وزَيْتِه[3]، لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية، السنية، والعارفة، الوارفة، واللطيفة، المطيفة، بَيْنَ رَجْع الشباب يَقْطُرُ ماء، ويرفُّ نماء، ويُغازل عيون الكواكب، فضلاً عن الكواعب، إشارةً وإيماء، بحيث لا الوَخْط[4] يلِمُّ بسياج لمّته، أو يَقْدح ذبالةً[5] في ظلمته، أو يقوم حواريُّه في ملّته، من الأحابش وأُمّته، وزمانُه رَوْح وراح، ومَغْدى في النعيم ومَراح، وقصفٌ صُرَاح، ورقى[6] وجراح، وانتحاب[7] واقتراح، وصدور ما بها إلاّ انشراح، ومَسَرّات تردفها أفراح، وبين قدومك خليعَ الرَّسن، مُمَتَّعًا والحمد للّه باليقظة والوَسَن، مُحْكمًا في نُسْك الجنيد أو فتك الحَسَن، ممتعًا بظرف المعارف، مالئًا أكفَّ الصيارف، ماحيًا بأنوار البراهين شُبَه الزخارف، لما اخترت الشّباب وإن راقني[8] زمنُه، وأعياني ثمنُه، وأَجْرتْ[9] سحائبَ دمعي دِمَنُه، فالحمد للّه الذي رقى

(١) في الإحاطة: «بمجلسه الخاصّ».
(٢) الأبيات أيضًا في التعريف بابن خلدون (ص ٨٢).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣١٨): «وريته». والمشكاة هنا: المصباح.
(٤) الوَخْطُ: الشَّيب. لسان العرب (وخط).
(٥) الذُبالة: الفتيلة. لسان العرب (ذبل).
(٦) في الإحاطة (ص ٥٠٠): «ورُقًى».
(٧) في الإحاطة: «وانتخاب».
(٨) في الإحاطة والتعريف بابن خلدون: «شاقني».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣١٩): «وأجدّت».

جنون اغترابي، وملّكني أزمة آرابي، وغبطني بمائي وترابي، ومألف أترابي، وقد أغصّني بلذيذ شرابي، ووقّع على سطوره المعتبرة إضرابي، وعجّلْتُ هذه مُغَبْطَةً بمناخ المَطِيَّة، ومنتهى الطّيّة، ومُلْتقى السعود[1] غير البطيّة، وتهنّي الآمال الوثيرة الوطيّة، فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريّك، متجمّلَة بزيِّك، عاقلة خُطَى مَهْرِيِّك، ومولى مكارمه نشيدة أمثالك، ومظانٌّ مثالك، وسيصدق الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلُّف عن الإصحار[2]، لا بل اللقاء من وراء البحار، والسلام».

ولَـمّا استقرّ بالحضرة جرتْ بيني وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه، وأوضح الأدب[3] مذاهبه، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تَسَرَّى جارية رومية اسمها هند صبيحةَ الابتناء بها: [السريع]

أُوصيك بالشيخ أبي بكرهْ   لا تأمَنَنْ في حالةٍ مَكْرَهْ
واجتنبِ الشَّكَّ إذا جِئْتَهُ   جَنَّبَكَ الرحمنُ ما تكرهْ

سيدي لا زلت تتّصف بالوالج، بين الخلاخل والدمالج[4]، وتركض فوقها ركض الهمالج[5]. أخبرني كيف كانت الحال، وهل حُطَّتْ بالقاع من خير البقاع الرِّحال، وأُحكم بِمِرْوَد[6] المراودة الاكتحال، وارتفع بالسُّقْيا الإمحال، وصحَّ الانتحال، وحَصْحَصَ الحقُّ وذهبَ المُحال، وقد طُولعت بكلِّ بُشْرى وبِشر، وزُفَّتْ هندٌ منك إلى بِشْر، فللّه من عشيّة، تمتّعت من الربيع بفُرُش مَوْشِيّة، وأبدلت[7] منها أي آساد وحشية، وقد أقبل ظبي الكِناس، من الدِّيماس، ومطوق الحَمام، من الحمّام، وقد حسّنت الوجهَ الجميلَ

(١) في الإحاطة: «للسعود».
(٢) الإصحار: الخروج إلى الصحراء. محيط المحيط (صحر).
(٣) في الإحاطة (ص ٥٠١): «الأدب فيها مذاهبه».
(٤) الخلاخل: جمع خلخال وهو حلية تلبسها المرأة في ساقها. الدمالج: جمع دملج وهي حلية تلبسها المرأة في ساعدها، وأراد هنا: بين الأيدي والأرجل. لسان العرب (خلخل) و (دملج).
(٥) الهمالج: جمع هملاج وهو الدابّة الحسنة السَّيْر والسريعة. لسان العرب (هملج).
(٦) المِرْوَدُ: المِيلُ يُكْتَحَلُ به. محيط المحيط (رود).
(٧) في الإحاطة: «وابْتُذِلَتْ منها أي وساد وحشية..».

التَّطْرية[1]، وأُزيلت عن الفرع الأثيث الإبْرِيَة[2]، وصُقلت الخدود فكأنها الأمْرِية[3]، وسُلِّط الدَّلْكُ على الجلود، وأُغريت النُّورة بالشَّعر المولود، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللَّمس، ولا تنالها البَنانُ الخمس، والسّحنة يجول في صفحتها الفضّيّة ماء النعيم، والمسواك يلبي من ثَنِيَّة التنعيم، والقلب يرمى من الكفُ الرقيم[4] بالمقعد المُقيم، وينظر إلى نجوم الوُشُوم فيقول: إني سقيم، وقد تفتَّح وردُ الخفَر، وحكم لزنجي الظَّفيرة بالظَّفَر، واتّصف أمير الحُسْن بالصُّدود المُغْتَفَر، ورُشَّ بماء الطيب، ثم أعلق بباله دُخان العُود الرطيب. وأقبلت الغادة، يهديها اليُمْن وتزفّها السعادة، فهي تمشي على استحيا، وقد ذاع طيب الريّا وراق حسن المُحَيَّا، حتى إذ نُزع الخُفُّ، وقُبِّلت الأكُفُّ، وصخب المزمار وتجاوب الدّفّ، وذاع الأرج، وارتفع الحرج، وتجوّز اللوا[5] والمنعرج، ونزل على بِشر بزيارة هند الفَرَج، اهتزَّتِ الأرضُ ورَبَتْ، وعُوصيت الطِّباعُ البشرية فأبتْ، ولله درُّ القائل[6]: [المتقارب]

ومَرَّتْ فقالتْ[7]: متى نلتقي؟ فهشَّ اشتياقًا إليها الخبيثُ
وكاد يُمَزِّقُ سِرْبالَهُ فقلتُ: إليكِ يُساقُ الحديثُ[8]

فلمّا انسدل جنحُ الظلام، وانتصفتْ من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام[9]، وخاطت خيوط المنام عيون الأنام، تأتّى دنوّ الجلسة، ومسارقة الخلْسة، ثم عضّة النهد، وقُبْلة الفم والخدّ، وإرسال اليد من النَّجْد إلى الوَهْد، وكانت الإمالة القليلة قبل المدّ، ثم الإفاضة فيما يُغْبط ويُرْغب، ثم الإماطة لما يُشَوّش ويُشْغب، ثم إعمال المسير، إلى السرير[10]: [الطويل]

وصِرْنا إلى الحُسْنى، ورقَّ كلامُنا ورُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إذلالِ

(١) في الإحاطة: «النظريّة». وتَطْرِيَةُ الوجه: تحسينه وتزيينه. لسان العرب (طرا).
(٢) الفرع: الشعر. الأثيث: الكثير، والمراد هنا شعر الرأس. الإبْرِيَةُ: قشر الرأس يسقط عند المشط. محيط المحيط (فرع) و (أثث) و (برى).
(٣) الأمريه: المرايا، جمع مرآة.
(٤) الرقيم: المزيّن. لسان العرب (رقم).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٢٠): «اللواء».
(٦) البيتان لبشار بن برد وهما في ديوانه (ص ٢٨٩).
(٧) في الديوان: «فقلتُ».
(٨) أخذ عجز البيت من المثل: «إليك يُساقُ الحديثُ». مجمع الأمثال (ج ١ ص ٤٨).
(٩) في الإحاطة (ص ٥٠٢): «الإسلام».
(١٠) البيت لامرىء القيس وهو في ديوانه (ص ٣٢).

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة، يراها الغِيدُ من حسن السيرة، ثم شرع في[1] التكة، ونَزْع الشُّكة، وتهيئة الأرض العَزاز[2] عمل السكة، ثم كان الوحي والاستعجال، وحمي الوطيس والمجال، وعلا الجزءُ الخفيف، وتضافرت الخُـصُورُ الهِيف، وتشاطر الطَّبْع العفيف، وتواتر التقبيل، وكان الأخذ الوَبِيل، وامتاز الأَنْوَكُ من النبيل، ومنها جائر وعلى اللّه قَصْدُ السبيل، فيا لها مِنْ نِعَمٍ متداركة، ونفوس في سبيل القحة مُتهالكة، ونَفَسٌ يقطّع حروف الحلق، وسبحان الذي يزيد في الخلق، وعظمت الممانعة، وكثرت باليد المُصانعة، وطال التراوغ والتَّزاور، وشُكي التحاور[3]، وهنالك تختلف الأحوال، وتعظم الأهوال، وتُخْسَرُ أو تُرْبَحُ الأموال، فمن عَصًا تنقلب ثعبانًا مُبينًا، ونونةٍ[4] تصير تنّينًا، وبطل لم يهملْه[5] المعترك الهائل، والوهم الزائل، ولا حال بينه وبين قرنه[6] الحائل، فتعدَّى فتكة السُّلَيْك إلى فتكة البرّاض، وتقلّد مذهب الأزارقة[7] من الخوارج في الاعتراض، ثم شق الصفّ، وقد خضّب الكفّ، بعد أن كان يصيب البوسى[8] بطعنته، ويبوء بِمَقْت اللّه ولَعْنته[9]: [الطويل]

طَعَنْتَ ابنَ عبد اللّه طعنةَ ثائرٍ   لـهـا نَـفَـذٌ لـولا الـشـعـاعُ أضـاءهـا

وهناك هدأ القِتال، وسكن الخَبال، ووقع المتوقَّعُ فاستراح البال، وتشوَّفَ إلى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بِمُبال، وكثر السؤال عن المبال، بما بال، وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دَمِهِ، يسيل على قدمه: [البسيط]

إني له عن دمي المسفوك مُعْتَذِرٌ   أقـولُ حَـمَّـلْـتُه فـي سَـفْـكـه تَـعَـبَـا

---

(١) في الإحاطة: «في حلّ التّكة».
(٢) في الإحاطة: «الغرار». والعزاز: الصلبة. لسان العرب (عزز).
(٣) في الإحاطة (ص ٥٠٣): «التجاوز».
(٤) النونة: السمكة. لسان العرب (نون). وفي النص كنايات تنطوي على الغمز والسخرية.
(٥) في الإحاطة: «لم يهلْه».
(٦) في الإحاطة: «قرّته».
(٧) الأزارقة: فرقة من فرق الخوارج منسوبة إلى نافع بن الأزرق. الملل والنحل (جـ ١ ص ١١٨).
(٨) في الإحاطة: «البريّ».
(٩) البيت لقيس بن الخطيم، وهو في ديوانه (ص ٧).

ومن[1] سنان عاد عِنانًا، وشجاعٍ صار[2] جبانًا، كلّما شابته شائبة رَيْبة، أدخل يده في جيبه، فانحجرت الحيّة، وماتت الغريزة الحيّة، وهناك يزيغ البصر، ويُخْذَلُ المنتصر، ويَسلم الأسر[3]، ويغلب الحَصْر، ويجفّ اللعاب[4]، ويظهر العاب[5]، ويخفق الفؤاد، ويكبو الجواد، ويسيل العرق، ويشتدّ الكرب والأرق، وينشأ في محلّ الأمن الفَرَق، ويُدْرِكُ فرعونَ الغَرَق، ويَقْوَى اللُّجاج ويعظم الخَرْق، فلا تزيد الحال إلاّ شدّة، ولا تعرف تلك الجائحة[6] المؤمنة إلاّ رِدّة: [الطويل]

إذا لم يكن عَوْنٌ من اللّه للفتى فأول[7] ما يجني عليه اجتهادُهُ

فكم مغرى بطول اللبث، وهو من الخبث، يؤمِّل الكرّة، ليزيل المعرَّة، ويستنصر الخيال، ويعمل باليد الاحتيال: [الرجز]

إنك لا تشكو إلى مُصَمِّتِ[8] فاصبرْ على الحِمْلِ الثقيل أو مُتِ

ومعتذرٍ بمرض أصابه، جرَّعه أوصابه[9]، ووجعٍ طَرَقه، جلب أرقَهُ، وخطيبٍ أُرْتِجَ عليه أحيانًا، فقال: سَيُحْدِثُ اللّهُ بعد عُسْرٍ يُسْرًا وبعد عِيّ بيانًا، اللهمَّ إنَّا نعوذُ بك من فضائح الفُرُوج إذا اسْتَغْلَقَتْ أقفالها، ولم تَسِم[10] بالنجيع أغفالها، ومن مَعَرَّات الأقذار، والنكول عن الأبكار، ومن النزول عن البطون والسُّرَر، والجوارح الحسنة الغُرر، قَبْلَ ثَقْبِ الدُّرَر، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البُكَر بالغَداة، وتُعْلَمُ منه كلال الأداة، وهو مجال

(١) معطوفة على قوله فيما سبق: «فمن عصًا تنقلب ثعبانًا..».
(٢) في الإحاطة: «صار هِدانا جبانًا».
(٣) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٧٧): «الأشر».
(٤) في الإحاطة: «اللُّباب».
(٥) العاب: العيب. محيط المحيط (عيب).
(٦) في الإحاطة (ص ٥٠٤): «الجارحة».
(٧) في الإحاطة: «فأكثر».
(٨) المُصَمِّتُ: الذي يهتمّ إذا شكوت له. لسان العرب (صمت).
(٩) الأوصاب: جمع وَصَب وهو المرض. لسان العرب (وصب).
(١٠) في الإحاطة: «تُسَمْ».

فُضِحَتْ فيه رجال، وفِراشٌ شُكيت فيه أوجال، وأُعملت رويّةٌ وارتجال، فمن قائل: [السريع]

أَرْفَعُهُ طورًا على إصبعي ورأسه مضطربٌ[1] أسفلَهْ
كالحنش المقتول يُلْقَى على عودٍ لكي يُطْرَحَ في مَزْبَلَهْ

وقائل[2]: [السريع]

عَدِمْتُ مِنْ أيري قُوَى حِسِّه يا حَسْرَةَ المرء على نَفْسِهِ!
تراه قد مال على أَصْلِهِ كحائطٍ خَرَّ على أُسِّهِ

وقائل: [الطويل]

أَيَحْسدُني إبليسُ داءَيْنِ أصبحا برجلي ورأسي دُمَّلاً وزُكاما
فليتهما كانا به وأزيدُهُ رَخاوةَ أَيْرٍ لا يطيقُ[3] قياما
إذا نهضتْ للنيك أزبابُ معشرٍ توسَّدَ إحدى خصيتيه وناما

وقائل: [الطويل]

أقولُ لأيري وهو يرقبُ فتكةً به: خِبْتَ مِنْ أيرٍ وعالتك[4] داهيهْ
إذا لم يكن للأير بَخْتٌ تعذّرت عليهْ وجوهُ النيكِ من كلِّ ناحيهْ

وقائل: [الطويل]

تَعَقَّفَ[5] فوقَ الخصيتين كأنه رِشاء إلى جنبِ الركيّةِ مُلْتَفُّ
كفرخِ ابن ذي يَوْمينِ يرفعُ رأسه إلى أبويه ثم يُذرِكُهُ الضَّعْفُ

وقائل: [الطويل]

تَكَرَّش أيري بعد ما كان أملسا وكان غنيًّا من قواهُ فأَفْلسا
وصار جوابي للمَها إن مَرَرْنَ بي «مضى الوصل إلاّ مُنْيَة تبعثُ الأسَى»

---

(١) في الإحاطة: «مضطربةٌ».
(٢) في الإحاطة: «أو قائل».
(٣) في الإحاطة (ص ٥٠٥): «لا يريدُ».
(٤) في الإحاطة: «وغالتك».
(٥) في الإحاطة: «تعقَّف».

وقائل: [الطويل]

بنفسيَ مَنْ حَيَّيْتُهُ فاستخفَّ بي | ولم يخطرِ الهجرانُ يومًا[1] على بالي
وقابلني بالغَوْرِ والنَّجْدِ[2] بعد ما | حططتُ به رحلي وجرَّدْتُ سِرْبالي
وما أرتجي من موسى فوق تكة[3] | عرضت له شيئًا من الحَشَف البالي

هموم[4] لا تزال تُبْكَى، وعلل الدهر تُشْكَى، وأحاديثُ تُقَصُّ وتُحْكَى، فإن كنتَ أعزَّك اللَّهُ سبحانه من النمط الأوّل، ولم تَقُل[5]: [الطويل]

وهل عند رسمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

فقد جَنَيْتَ الثمر، واسْتَطَبْتَ السَّمَر، فاستدعِ الأبواق من أقصى المدينة، واخْرُجْ على قومك في ثياب الزينة[6]، واستبشر بالوفود، وعَرِّف المِسمعَ عازفة[7] الجود، وتبجّح بصلابة العود، وإنجاز الوعود، واجْنِ رمّان النهود، من أغصان القدود، واقطف ببنان اللثم أقاحَ الثغور وورْدَ الخدود، وإن كانت الأخرى فأخْفِ الكمد، وارضَ الثمد، وانتظر الأمد، وأكذب التوسّم، واستعمل التَّبَسُّم، واسْتَكْتِم النِّسوة، وأفِضْ فيهنَّ الرشوة، وتقلَّد المغالطة وارتكب، وجيءْ على قميصه[8] بدمٍ كذب، واستنجد الرحمن، واسْتَعن على أمرك[9] بالكتمان: [الكامل]

لا تُظْهِرَنَّ لعاذلٍ أو عاذرٍ | حاليك في الضرّاء والسرّاءِ[10]
فَلِرَحْمةِ المتفجِّعين حرارةٌ | في القلبِ مثل شماتة الأعداءِ

---

(١) في الإحاطة: «منه».
(٢) في الإحاطة: «بالهزء والنجة».
(٣) في الإحاطة: «دكّة».
(٤) في الإحاطة: «عِلَلٌ».
(٥) هو عجز بيت لامرىء القيس، وصدره:

وإنَّ شفائي عَبْرَةٌ إنْ سَفَحْتُها

ديوان امرىء القيس (ص ٩).
(٦) يشير إلى زهوه فيشبهه بقارون.
(٧) في الإحاطة (ص ٥٠٦): «عارفة».
(٨) في الإحاطة: «قميصك».
(٩) في الإحاطة: «أمورك».
(١٠) في الإحاطة: «في السرّاء والضرّاء».

وانْتَشِق الأرَجَ، وارتقبِ الفرج، فكم غمام طَمَا[1] ﴿وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكنَّ اللَّه رَمَى﴾[2] وأَمْلِكْ بعدها عِنان نفسك حتى تُمَكِّنك الفرصة، وتُرْفع إليك القِصَّة، ولا تسرع[3] إلى عمل لا تفيء منه بتمام، وخُذْ عن إمام، ولِلَّه دَرُّ الحارث بن هشام[4]: [الكامل]

اللَّه يعلم ما تركتُ قتالهمْ حتى رموا مُهْري بأشقرَ مُزْبِدِ
وعلمتُ أني إن أُقاتِلْ دونهمْ أُقْتَلْ، ولم يَضْرُرْ عدوِّي مشهدي
ففررتُ منهمْ والأحبَّةُ فيهمُ طمعًا لهم بعقابِ يوم مُفْسِدِ

واللُّبانات تلين وتَجْمَح، والمآرب تدنو وتنزح، وتحزن ثم تسمح[5]، وكم من شجاع خام[6]، ويقظ نام، ودليل أخطأ الطريق، وأضلَّ الفريق، واللَّه عزَّ وجلَّ يجعلُها خلّة موصولة، وشَمْلاً أكنافُه بالخير مشمولة، وبِنْية أركانُها لركائب[7] اليُمْن مأمولة، حتى تكثر[8] خَدَم سيدي وجواريه، وأُسْرته وسَرَاريه، وتضفو عليه نعم[9] باريه، ما طُورِدَ قَنِيص، واَقْتُحِم عِيص[10]، وأُدرِكَ مَرَام عَويص[11]، وأُعْطِي زاهد وحُرم حريص، والسلام.

تواليفه: شرح[12] البُرْدة شرحًا بديعًا دلَّ به على انفساح ذَرْعه، وتفنّن إدراكه، وغزارة حِفْظه، ولخّص كثيرًا من كتب ابن رشد، وعلّق للسلطان أيام نظره في العقليات[13] تقييدًا

(١) في الإحاطة: «غمامٌ طبَّق وما همى».
(٢) سورة الأنفال ٨، الآية ١٧.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٨٠): «ولا تشره». وفي الإحاطة: «ولا تشتره».
(٤) في الإحاطة: «دَرُّ عُزوة بن حزام».
(٥) تسمح: هنا بمعنى تلين.
(٦) خامَ: جبن. محيط المحيط (خيم).
(٧) في الإحاطة (ص ٥٠٧): «الركاب».
(٨) في الإحاطة: «يكثر».
(٩) في الإحاطة: «نعمةٌ».
(١٠) العيص: الشجر الكثير الملتفّ. لسان العرب (عيص).
(١١) العويص: الصعب. لسان العرب (عوص).
(١٢) في الإحاطة: «شرح القصيدة المسماة بالبردة.. دلَّ فيه..».
(١٣) في الإحاطة: «في العلوم العقلية».

في المنطق، ولخَّص مُحَصَّل الإمام فخر الدين الرازي[1]، وبه داعبته أول لُقيه [2]، فقلت له: لي عليك مُطالبة فإنك لخّصت «مُحَصّلي». وألّف كتابًا في الحساب، وشرع في هذه الأيام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه [3] في الكمال.

وأمّا نثره وسلطانياته السجعية فخُلُج بلاغة، ورياض فنون، ومَعَادن إبداع، يُفرغ عنها يراعه الجريء، شبيهة البَداآت بالخواتم، في نداوة الحروف، وقُرْب العهد بحرية [4] المِداد، ونفوذ أمر القريحة، واسترسال الطبع.

وأمّا نظمه فنهض لهذا العهد قُدُمًا في ميدان الشعر، ونقده[5] باعتبار أساليبه؛ فانثال عليه جوُّه، وهان عليه صَعْبه، فأتى منه بكل غريبة.

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها [6]: [الكامل]

أسْرَفْنَ في هجري وفي تعذيبي — وأطَلْنَ موقف عَبْرتي ونحيبي
وَأبَيْنَ يومَ البَيْنِ وقفةَ ساعةٍ — لوداعِ مشغوفِ الفؤادِ كئيبِ
للّه عَهْدُ الظاعنين وغادروا — قلبي رهينَ صبابةٍ ووجيبِ[7]
غَرَبَتْ ركائبُهُمْ ودمعي سافحٌ — فَشَرِقْتُ بَعْدَهُمُ بماءِ غُرُوبي[8]
يا ناقعًا بالعَتْبِ غُلّةَ شوقهمْ — رحماكَ في عَذْلي وفي تأنيبي
يستعذبُ الصَّبُّ الملامَ وإنني — ماءُ الملامِ لديَّ غيرُ شريبِ[9]
ما هاجني طربٌ ولا اعتاد الجوى — لولا تذكُّرُ مَنْزِلٍ وحبيبِ
أهفو إلى الأطلال كانتْ مَطْلعًا — للبدر منهمْ أو كِناسَ ربيبِ

---

(١) في الإحاطة: «فخر الدين ابن الخطيب الرازي. وبذلك داعبته..».
(٢) في الإحاطة: «القيه لَقِيْتُه..».
(٣) في الإحاطة: «وراءه».
(٤) في الإحاطة (ص ٥٠٨): «بجرية».
(٥) في الإحاطة: «وأُغري نقده باعتبار..».
(٦) القصيدة في الإحاطة (جـ ٣ ص ٥٠٨ ـ ٥١٠) والتعريف بابن خلدون (ص ٧٠ ـ ٧٢).
(٧) الظاعنون: الراحلون. الوجيب: خفقان القلب واضطرابه. لسان العرب (ظعن) و (وجب).
(٨) الغروب: جمع غرب وهو عرق في العين يسيل منه الدمع. لسان العرب (غرب).
(٩) الشريب: الماء دون العذب. محيط المحيط (شرب).

عَبَثَتْ بها أيدي البِلى وتردَّدَتْ في عطفها للدهرِ آيُ خطوب
تَبْلَى معاهدُها وإنَّ عهودها لَيُجِدُّها وَصْفي وحُسْنُ نسيبي
وإذا الديارُ تَعَرَّضَتْ لِمُتَيَّمٍ هَزَّتْه ذكراها إلى التَّشْبيب
إيهٍ على الصبر الجميلِ فإنه ألوى[1] بِدَينِ فؤاديَ المنهوب
لم أنْسَها والدهرُ يَثْني صَرْفَهُ ويغضُّ طَرْفَيْ حاسدٍ ورقيب
والدارُ مُونِقَةٌ محاسنُها بما لبستْ من الأيامِ كلَّ قشيبِ[2]
يا سائقَ الأظعانِ تعتسفُ الفلا وتُواصِلُ الإسآدَ بالتأويب[3]
متهافتًا عن رحلِ كلِّ مذلَّلٍ نشوانَ من أينٍ ومَسِّ لُغُوبِ
تتجاذبُ النفحاتُ فضلَ ردائه في ملتقاها من صَبًا وجَنُوب
إن هام من ظَمَإِ الصبابة صحبُهُ نهلوا بموردِ دَمْعِهِ المسكوب
أو تعترض مَسْراهُمُ سُدُفُ الدُّجى صدعوا الدجى بغرامه المشبوب[4]
في كلِّ شعْبٍ مُنْيَةٌ من دونها هجرُ الأماني أو لقاءُ شَعُوبِ
هلاَّ عطفتَ صدورهنَّ إلى التي فيها لُبَانَةُ أعينٍ وقلوب
فتؤمَّ مِنْ أكنافِ يثربَ مأمنًا يكفيكَ ما تخشاه من تثريبِ
حيثُ النبوّةُ آيُها مَجْلُوَّةٌ تتلو من الآثار كلَّ غريبِ
سِرٌّ غريبٌ لم يحجِّبْه[5] الثرى ما كان سِرُّ اللّه بالمحجوبِ

ومنها بعد تعديد معجزاته [ﷺ][6]:

يا سيدَ الرُّسلِ الكرامِ ضراعةً تقضي مُنَى نفسي وتُذْهِبُ حُوبي[7]
عاقتْ ذنوبي عن جَنابكَ والمنى فيها تعلّلني بكلِّ كَذُوب

---

(١) ألوى: أنكر؛ يقال: ألوى بحقِّه إذا جحده إياه. محيط المحيط (لوى).
(٢) القشيب: الجديد. لسان العرب (قشب).
(٣) الإسآد: سير الليل كله بغير تعريس. التأويب: سير النهار كلّه إلى الليل، لسان العرب (سأد) و (أوب).
(٤) هذا البيت غير وارد في الإحاطة.
(٥) في الإحاطة (ص ٥٠٩): «تحجبه».
(٦) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٢٧).
(٧) في الإحاطة: «من نفسي». والحُوبُ: الذنب والإثم. محيط المحيط (حوب).

لا كالأُلى[1] صَرَفُوا العزائمَ للتُّقى فاستأثروا منها بخير نصيب
لم يُخْلِصُوا للّه حتى فَرَّقوا في اللّه بين مضاجعٍ وجُنُوب
هَبْ لي شفاعَتَكَ التي أرجو بها صفحًا جميلاً عن قبيح ذنوبي
إنَّ النجاةَ وإنْ أُتيحتْ لامرىء فبفضلِ جاهِكَ ليس بالتَّسْبيب
إني دَعَوْتُكَ واثقًا بإجابتي يا خيرَ مَدْعُوّ وخيرَ مُجيب
قَصَّرْتُ في مدحي فإنْ يَكُ طيِّبًا فبما لِذِكرك من أريجِ الطِّيبِ
ماذا عسى يَبْغي المطيلُ وقد حَوَى في مدحك القرآنُ كلَّ مَطيب
يا هل تُبَلِّغُني الليالي زَورةً تُدْني إليَّ الفوزَ بالمرغوب
أمحو خطيئاتي بإخلاصي بها وأحطُّ أوزاري وإصْرَ ذنوبي[2]
في فتية هجروا المنى وتعوَّدوا إنضاءَ كلِّ نجيبةٍ ونجيبِ[3]
يطوي صحائفَ ليلهم فوق الفلا ما شئتَ من خَبَبٍ ومن تقريبِ[4]
إنْ رنَّمَ الحادي بذكرك ردّدوا أنفاسَ مُشْتاقٍ إليك طَرُوبِ
أو غَرَّدَ الرَّكْبُ الخليُّ[5] بطيبةٍ حَنُّوا لمغناها حنينَ النِّيبِ
وَرِثُوا اعتسافَ البِيدِ عن آبائهم إرْثَ الخلافةِ في بني يعقوب
الطاعنونَ الخيلَ وهي عوابسٌ يَغْشى مُثَارُ النَّقْعِ كلَّ سَبِيبِ[6]
والواهبونَ المُقْرباتِ هواتِنًا مِنْ كلِّ خَوّارِ العِنان لَعُوبِ[7]
والمانعونَ الجارَ حتى عِرْضُهُمْ في مُنْتدى الأعداء غيرُ مَعِيبِ
تُخْشَى بَوادِرُهُمْ ويُرْجَى حِلْمهم والعِزُّ شيمةُ مرتَجًى ومَهيبِ

---

(١) في الإحاطة: «كاللآلىء».
(٢) الأوزار: جمه وِزر وهو الذنب. الإصْرُ: ثقل الذنب. لسان العرب (وزر) و (أصر).
(٣) أنضى ناقته: حملها على السير حتى أهزلها. النجيبة: الناقة الحسنة السير بسرعة. لسان العرب (نضا) و (نجب).
(٤) الخبب والتقريب: ضربان من السير السريع. لسان العرب (خبب) و (قرب).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ٣٢): «الجليّ».
(٦) السبيب: شعر ذنب الفرس أو عُرْفُه. محيط المحيط (سبب).
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٨٣): «صوافنًا» بدل «هواتِنًا». والمُقْرِبات: الخيل. وخوّار العِنان: ليِّنُ العطف. لسان العرب (قرب) و (خور).

ومنها:

سائل به طامي العُباب وقد سرى تُزْجى بريحِ العزمِ ذاتُ هُبوب
تهديه شُهُبُ أَسِنَّةٍ وعزائم يَضْدَغْنَ ليلَ الحادثِ المرهوب
حتى انجلتْ ظُلَمُ الضَّلالِ بسعيه وسطا الهدى بفريقها المغلوبِ
يا ابنَ الأُلى شادوا الخلافةَ بالتقى واستأثروكَ بتاجها المعصوب
جمعوا بحفظِ الدينِ آيَ مناقبِ كرموا بها في مَشهدٍ ومَغِيب
للّه مجدُكَ طارِفًا أو تالدًا فلقد شَهِدْنا منه كلَّ عجيب
كم رهبةٍ أو رغبةٍ لك والعُلا تُقتادُ بالترغيب والترهيب
لا زلتَ مسرورًا بأشرفِ دولةٍ يبدو الهدى من أُفقها المرقوب
تحيي المعالي غاديًا أو رائحًا وجديدُ سَعْدِكَ ضامنُ المطلوب

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هديّة ملك السودان إليه وفيها الزرافة[1]:

[الكامل]

قَدَحَتْ يَدُ الأشواق من زندي وهَفَتْ بقلبي زفرةُ الوَجْدِ
ونبذتُ سُلْواني على ثقةٍ بالقربِ فاستبدلتُ بالبُعْدِ
ولربَّ وصلٍ كنتُ آمُلُهُ فاعتضتُ منه مؤلِم الصَّدِّ
لا عَهْدَ عند الصبرِ أطلبُهُ إنَّ الغرامَ أضاعَ من عَهْدي
يَلْحَى العَذُولُ فما أُعَنِّفُهُ وأقولُ ضَلَّ فأبتغي رشدي
وأُعارضُ النَّفَحاتِ أسألُها بَرْدَ الجوى فتزيدُ في الوَقْدِ
يَهْدي[2] الغرامُ إلى مسالكها لتعلُّلي بضعيفِ ما تُهْدي
يا سائقَ الوَجْناء مُعْتَسِفًا طَيَّ الفلاةِ لِطِيَّةِ الوَجْدِ
أَرِحِ الرِّكابَ ففي الصَّبا نبأ يُغْني عن المُسْتَنَّةِ الجُرْدِ[3]

---

(١) القصيدة في الإحاطة (ج ٣ ص ٥١١ . ٥١٢) والتعريف بابن خلدون (ص ٧٤ . ٧٥) والاستقصا (ج ٤ ص ٣٥).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٢٩): «تهدي».

(٣) المستنة: الفرس الذي يُقبل ويُدْبر في ركضه. الجرد: جمع أجرد وهو القصير الشعر. لسان العرب (سنن) و (جرد)

وسَلِ الربوعَ برامةٍ خبرًا عن ساكني نَجْدٍ وعن نجد
ما لي تُلام على الهوى خُلُقي وهي التي تأبى سوى الحمد
لأبَيْتُ إلاّ الرشدَ مذ وضحتْ بالمستعين معالمُ الرشد
نِعْمَ الخليفةُ في هُدًى وتقًى وبناء عزّ شامخ الطَّوْدِ
نَجلُ السُّراةِ الغُرِّ شَأْنُهُمُ كَسْبُ العُلا بمواهب الوَجْدِ

ومنها[1]:

للَّه مِنِّي إذ تَأَوَّبَني[2] ذكراهُ وهو بشاهقٍ فَرْدِ
شهمٌ يَفلُّ بواترًا قُضُبًا وجموعَ أقيالٍ أولي أَيْدِ[3]
أوريتُ زَنْدَ العزمِ في طلبي وقضيتُ حقَّ المجدِ من قصدي
ووردتُ عن ظمإٍ مناهِلَهُ فرويتُ من عزّ ومنْ رِفْدِ[4]
هي جَنَّةُ المأوى لمن كَلِفَتْ آمالُه بمطالب المجد
لو لم أُعَلَّ بِوِرْدِ كوثرها ما قلتُ هذي جَنَّةُ الخلد
مَنْ مُبْلِغٌ قومي ودونهمُ قُذُفُ النوى وتَنُوفةُ[5] البعد
أني أَنِفْتُ على رجائهمُ وملكتُ عزَّ جميعهم وحدي

ومنها:

ورقيمةِ الأعطافِ حاليةٍ مَوْشِيَّةٍ بوشائعِ[6] البُرْدِ
وَحْشيّةِ الأنسابِ ما أَنِسَتْ في مُوحشِ البيداء بالقرد[7]
تسمو بجيدٍ بالغٍ صُعُدًا شَرَفَ الصُّروح[8] بغير ما جهدِ
طالتْ رؤوس الشامخاتِ به ولربما قَصُرَتْ عن الوَهْد

(١) في الإحاطة (ص ٥١١): «ومنها في ذكر خلوصه إليه وما ارتكبه فيه».
(٢) تأوّبني: عاودني. لسان العرب (أوب).
(٣) في الإحاطة: «يفلُّ بواترَ». والأيد: القوة. لسان العرب (أيد).
(٤) الرِّفْدُ: العطاء. لسان العرب (رفد).
(٥) التنوفة: الأرض البعيدة الواسعة التي لا ماء فيها. لسان العرب (تنف).
(٦) في الإحاطة (ص ٥١٢): «بوشائج».
(٧) في الإحاطة: «بالقود».
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٣٠): «السروح».

قطعتْ إليك تنائفًا وصلتْ إسآدها بالنصِّ والوخدِ[1]

تَخْدي على استصعابها ذُلُلاً وتبيتُ طوعَ القنِّ والقدِّ[2]

بسعودكَ اللائي ضمنَّ لنا طولَ الحياة بعيشةٍ رَغْد

جاءتكَ في وَفْدِ الأحابش لا يرجونَ غيرك مُكْرِمَ الوفد

وافَوْكَ أنضاءً تُقَلِّبُهُمْ أيدي السُّرَى بالغَوْر والنَّجْد

كالطَّيف بالحسنى التي سبقتْ من غير إنكارٍ ولا جَحْدِ

ويرون لَحْظَكَ من وِفادتهمْ فخرًا على الأتراكِ والهند

يا مُسْتعينًا جلَّ في شَرَفٍ عن رتبةِ المنصور والمَهْدي

جازاكَ ربُّكَ عن خليقته خيرَ الجزاء فَنِعْمَ ما تسدي[3]

وبَقِيتَ للدنيا وساكنها في عزّةٍ أبدًا وفي سَعْد

وقال يخاطب عمر بن عبد اللّه مدبّر ملك المغرب[4]: [الكامل]

يا سيدَ الفضلاء دعوةَ مُشْفِقٍ نادى لشكوى البَثِّ خيرَ سميعِ

مالي وللإقصاء بَعْدَ تَعِلّةٍ بالقربِ كنتُ لها أجلَّ شفيع

وأرى الليالي رَنَّقَتْ لي صافيًا منها فأصبح في الأُجاج شروعي[5]

ولقد خلصتُ إليك بالقُرَب التي ليس الزمانُ لشملها بِصَدُوعِ

ووثقتُ منكَ بأيِّ وعدٍ صادقٍ أني المصونُ وأنتَ غيرُ مُضِيعِ

وسما بنفسي للخليفة طاعةً دون الأنامِ هواك قبلَ نزوع

حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم فصددتَهُمْ عنِّي وكنتَ منيعي

رغمتْ أنوفهمُ[6] بنُجْحِ وسائلي وتَقَطَّعَتْ أنفاسُهُمْ بصنيعي

---

(١) التنائف: جمع تنوفة وهي الأرض البعيدة الواسعة التي لا ماء فيها. الإسآد: السير كلّ الليل. النصّ والوخد: ضربان من السير السريع. لسان العرب (تنف) و (سأد) و (نصص) و (خدد).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٣٠): «تحدي» بالحاء المهملة. وخَدَى الفرس والبعير يخدي: يسرع. الذُّلُلُ: جمع ذلول وهي التي ريضت حتى سهل قيادها. القنّ والقدّ: أراد بهما ما تربط به من حبل ونحوه. لسان العرب (خدى) و (ذلل) و (قنن) و (قدد).

(٣) في الإحاطة: «يُسْدي».

(٤) القصيدة في الإحاطة (جـ ٣ ص ٥١٣ ـ ٥١٤).

(٥) رَنَّقَتْ: كَدَّرَتْ. الأُجاج: المِلْحُ الأجاج وهو الشديد الملوحة. لسان العرب (رنق) و (أجج).

(٦) في الإحاطة «نفوسهم».

أنّى أُضامُ وفي يدي القلمُ الذي ... ما كان طَيِّعُهُ لهم بِمُطيعِ
وليَ الخصائص ليس تأبى رتبةً ... حسبي بعلمي[1] ذاك من تفريعي
قَسَمًا بمجدِكَ وهو خيرُ أَلِيَّةٍ[2] ... أعْتَدُّها لفؤاديَ المصدوعِ
إني لَتَضطَجِبُ الهمومُ بمضجعي ... فتحولُ ما بيني وبين هُجُوعي
عطفًا عليَّ بوَحْدتي عن معشر ... نَفَثَ الإباءَ صُدُودهم في رُوعِي
أغدو إذا باكَرْتُهُمْ متجلِّدًا ... وأروحُ أعثرُ في فضولِ دموعي
حيرانُ أُوجسُ عند نفسي خيفةً ... فَتُسِرُّ في الأوهامِ كلَّ مَرُوعِ
أطوي على الزفرات قلبًا آدَه[3] ... حملُ الهموم تَجُول بين ضلوعي
ولقد أقولُ لصَرْف دهرٍ رابني ... بحوادثٍ جاءت على تنويع
مهلاً عليك فليس خَطْبك ضائري ... فلقد لبستُ له أجَنَّ دروعِ[4]
إني ظَفِرْتُ بعصمةٍ من أوحدٍ ... بَذَّ الجميعَ بفضله المجموعِ

وقال يخاطب بعض الوزراء في حال وَحْشَة[5]: [الطويل]

هنيئًا بصومٍ لا عَداهُ قَبُولُ ... وبُشْرَى بِعيدٍ أنتَ فيه مُنيلُ
وهنّيتها من عزّةٍ وسعادةٍ ... تَتَابَعُ أعوامٌ بها وفصول
سقى اللّه دهرًا أنت إنسانُ عينه ... ولا مَسَّ رَبعًا في حماك مُحول[6]
فعصرك ما بين الليالي مواسمٌ ... لها غُرَرٌ وضّاحَةٌ وحُجُولُ
وجانبُكَ المأمولُ للجودِ مَشْرَعٌ ... يحومُ عليه عالِمٌ وجَهُولُ
عساكَ وإن ضنَّ الزمانُ منوّلي ... فرسمُ الأماني من سواك مُحِيلُ[7]
أَجِرْني وليسَ الدهرُ لي بمسالمٍ ... إذا لم يكن لي في ذَراك مَقيلُ
وأوليتني[8] الحسنى بما أنا آملٌ ... فمثلكَ يولي راجيًا وينيلُ

---

(١) في الإحاطة: «بعلمك».
(٢) الأَلِيّة: القسم. لسان العرب (ألا).
(٣) في الإحاطة: «إدُّهُ». وآدَهُ: ثقل عليه. لسان العرب (أدا).
(٤) أجنُّ دروع: أكثرها وقاية. لسان العرب (جنن).
(٥) المخاطَبُ هو الوزير عمر بن عبد اللّه السابق الذكر، ويستجير بصديقه الوزير مسعود بن رحو بن ماساي، والقصيدة في التعريف بابن خلدون (ص ٧٧).
(٦) إنسان العين: بؤبؤها. المُحُولُ: جمع محل وهو الجدب، لسان العرب (أنس) و (محل).
(٧) المُحِيلُ: الدارس المتغيّر. لسان العرب (حيل).
(٨) في التعريف بابن خلدون: «وأولني».

ووالله ما رُمتُ الترحّلَ عن قِلًى[1] | ولا سَخَطٍ للعيش فهو جزيل
ولا رغبةً في هذه الدار إنها | لَظِلٌّ على هذا الأنام ظليلُ
ولكن نأى بالشّعب عني حبائبٌ | دعاهنَّ[2] خطبٌ للفراق طويل
يهيجُ بهنَّ الوجدَ أنيَ نازحٌ | وأنَّ فؤادي حيث هنَّ حُلول[3]
عزيزٌ عليهنَّ الذي قد لقيته | وأنَّ اغترابي في البلاد يطولُ
توارثْ بأنبائي البقاعُ كأنني | تُخُطِّفت أو غالتْ ركابيَ غُولُ
ذكرتكَ يا مَغْنَى الأحبّةِ والهوى | فطارتْ بقلبي أنّةٌ وعويل
وحَيَّيْتُ عن شوقٍ رُباكَ كأنما | يُمَثِّلُ لي نُؤْيٌ[4] بها وطُلُولُ
أأحبابَنا والعهدُ بيني وبينكم | كريمٌ، وما عهد الكريم يحولُ
إذا أنا لم تُرْضِ الحمولَ مدامعي | فلا قَرَّبتني للّقاءِ حمولُ
إلامَ مقامي حيثُ لم تردِ العلا | مرادي ولم تعطِ القيادَ ذلول
أُجاذب فضلَ العمر يومًا وليلةً | وساء صباحٌ بينها وأصيل
ويذهبُ فيما بين يأسٍ ومطمعٍ | زمانٌ بنيلِ المعلوات بخيلُ
تُعَلِّلُني منه أمانٍ خوادعٌ | ويُؤيسني لَيّانُ منه مَطُولُ
أما لليالٍ لا تردّ خطوبها | ففي كبدي من وقعهنَّ فلول
يروّعني من صرفها كلُّ حادثٍ | تكادُ له صُمُّ الجبالِ تزول
أُداري على رغم العِدا لا لريبةٍ | يصانَعُ واشٍ خوفَها وعذولُ
وأغدو بأشجاني عليلاً كأنما | تجودُ بنفسي زفرةٌ وغليل[5]
وإني وإن أصبحتُ في دار غربةٍ | تحيلُ الليالي سلوتي وتزيلُ
وصَدَّتْنيَ الأيامُ عن خيرِ منزلٍ | عهدتُ به أن لا يُضام نزيلُ
لأعلمُ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ ينتهي | مَداه وأنَّ اللّه سوف يُديل[6]
وأني عزيزٌ بابن ماساي مكثرٌ | وإن هان أنصارٌ وبان خَليلُ

(١) القِلى: البغض والكراهية. لسان العرب (قلا).
(٢) في التعريف بابن خلدون: «شجاهنّ».
(٣) حُلُولٌ: مقيمون. لسان العرب (حلل).
(٤) النُّؤيُ: حفيرة تجعل حول الخيمة لئلاً يدخلها المطر. لسان العرب (نأى).
(٥) الغليل: شدة العطش. محيط المحيط (غلل).
(٦) أداله من عدوّه أو عليه: غلبه عليه وأظفره. لسان العرب (دول).

وقال يمدح[1] : [الكامل]

هل غيرُ بابِكَ للغريبِ مُؤمَّلُ أو عن جنابكَ للأماني مَعْدِلُ
هي هِمَّةٌ بعثت إليك على النَّوَى عزمًا كما شحذ الحسامَ الصَّيْقل[2]
متبوَّأ الدنيا ومنتجعُ المُنَى والغيثُ حيثُ العارضُ[3] المتهلِّلُ
حيثُ القصورُ الزاهراتُ منيفةٌ تُعْنَى بها زُهْرُ النجومِ وتحفلُ
حيثُ الخيامُ البيض تُرْفعُ[4] للعُلا والمكرماتِ طِرافُها المتهدِّل
حيثُ الحمى للعزِّ دون مجاله ظلٌّ أفاءته الوَشيجُ الذُّبَّلُ[5]
حيثُ الكرامُ ينوبُ عن نارِ القِرَى عَرْفُ الكِباء بحيّهم والمَنْدَلُ[6]
حيثُ الجيادُ أملّهنَّ بنو الوغى مِمّا أطالوا في المُغار وأوغَلُوا
حيثُ الوجوهُ الغُرُّ قَنَّعها الحَيَا والبِشْرُ فوق جبينها يتهلَّلُ
حيث الملوكُ الصِّيدُ والنفر الأُلى عَزَّ الجوارُ لديهمُ والمنزل

وأنشد السلطان أبا عبد اللّه بن أبي[7] الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام أربعة وستين وسبعمائة هذه القصيدة[8] : [البسيط]

حَيِّ المعاهِدَ كانت قَبْلُ تُحْيِيني بواكفِ الدمعِ يُرْوِيها ويُظْمِيني
إنَّ الأُلى نَزَحَتْ داري ودارُهُمُ تحمَّلوا القلبَ في آثارهمْ دوني
وقفْتُ أنشدُ صبرًا ضاعَ بعدهُمُ وكيف والفكرُ يُدْنيه ويُقْصيني
وينهبُ الوَجْدُ مني كلَّ لؤلؤةٍ ما زالَ جَفْني عليها غيرَ مأمون
سَقَتْ جفوني مغاني الرَّبْع بعدهُمُ فالدمعُ وَقْفٌ على أطلاله الجُون

(١) يمدح أبا العباس سلطان تونس عندما قدّم إليه نسخة من كتابه «العبر». والقصيدة في التعريف بابن خلدون (ص ٢٣٣).
(٢) الصَّيْقَلُ: الذي يسنُّ السيوف ويجلوها، والجمع صياقل. محيط المحيط (صقل).
(٣) العارض: السحاب المعترض. لسان العرب (عرض).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٨٩): «يُرفعُ».
(٥) في التعريف بابن خلدون: «للعزِّ في ساحاته». والوشيج الذُّبَّلُ: أي الرماح.
(٦) الكِباء، بكسر الكاف، والمندل: ضربان من العود الطيب الرائحة. لسان العرب (كبا) و (ندل).
(٧) كلمة «أبي» ساقطة من أصول «النفح»، والتصويب عن الإحاطة (جـ ٣ ص ٥١٤).
(٨) القصيدة في الإحاطة (جـ ٣ ص ٥١٤ ـ ٥١٦) والتعريف بابن خلدون (ص ٨٥ ـ ٨٦).

قد كان للقلب عن داعي الهوى شُغُلٌ لو أنَّ قلبي إلى السُّلْوان يدعوني
أحبابَنا، هل لعهدِ الوصلِ مُدَّكَرٌ منكم وهل نَسْمَةٌ منكم تُحَيِّيني
ما لي وللطَّيْفِ لا يُعْتادُ زائرُهُ وللنسيمِ عليلاً لا يُداويني
يا أهلَ نجدٍ، وما نجدٌ وساكنُها حسنًا سوى جنَّة الفردوس والعِينِ[1]
أعندكُمْ أنني ما مَرَّ ذكرُكُمُ إلاَّ انثنيتُ كأنَّ الراحَ تَثْنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكُمُ شوقًا، ولولاكُمُ ما كان يُصْبيني[2]
يا نازحًا والمنى تُدْنيه مِنْ خَلَدي حتى لأحسبُهُ قربًا يُناجيني
أَسْلَى هواكَ فؤادي عن سواك وما سواكَ يومًا بحالٍ عنكَ يُسْليني
ترى الليالِيَ أنْسَتْكَ ادِّكاريَ يا مَنْ لم يكن ذكرَهُ الأيامُ تُنسيني

ومنها:

أَبَعْدَ مَرِّ الثلاثين التي ذهبتْ أُولي الشباب بإحساني وتحسيني
أَضَعْتُ فيها نفيسًا ما وَرَدْتُ به إلاَّ سرابَ غرورٍ لا يُرَوِّيني
واحسرتي من أمانٍ[3] كلُّها خُدَعٌ تَريشُ غَيِّي ومُرُّ الدهرِ يَبْريني

ومنها في وصف المِشْور[4] المبني لهذا العهد:

يا مصنعًا شَيَّدَتْ منه السعودُ حِمًى لا يطرقُ الدهرُ مبناه بتوهينِ
صرحٌ يحارُ لديه الطَّرْفُ مُفْتَتَنًا فيما يروقكَ من شكلٍ وتكوينِ[5]
بُعْدًا لإيوان كسرى إنَّ مِشْوَرَكَ الـ سامي لأعظمُ من تلك الأواوينِ
ودَعْ دمشقَ ومغناها فقَصْرُكَ ذا «أشهى إلى القلبِ مِنْ أبواب جَيْرُونِ»

ومنها في التعريض بالوزير الذي كان انصرافه[6] بسببه:

مَنْ مبلغٌ عنيَ الصَّحْبَ الأُلى جهلوا وُدِّي وضاعَ حماهم إذ أضاعوني
أني أوَيْتُ من العَلْيا إلى حَرَمٍ كادتْ مَغانيه بالبُشْرى تُحَيِّيني

(١) العِينُ: جمع عيناء وهي الواسعة العينين. لسان العرب (عين).
(٢) يصبيني: يجعلني أصبو. لسان العرب (صبا).
(٣) في الإحاطة (ص ٥١٥): «واحَسْرتا من أمانيّ..».
(٤) المِشْور: المكان الذي يجلس فيه السلطان للحكم. وفي الإحاطة: «المِشْور المبتنى».
(٥) في الإحاطة: «وتَلْوينِ».
(٦) في الإحاطة: «انصرافه من المغرب لأجله».

وأنني ظاعن[1] لم أَلْقَ بعدهُمُ دهرًا أُشاكي ولا خصمًا يشاكيني
لا كالتي أخفرتْ عهدي لياليَ إذْ أُقَلِّبُ الطَّرْفَ بين الخوف والهون
سَقْيًا ورعيًا لأيامي التي ظَفِرَتْ يدايَ منها بحظٍّ غير مَغْبون
أرتادُ منها مليًّا لا يماطلني وعدًا وأرجو كريمًا لا يُعَنِّيني[2]

ومنها:

وهاك منها قوافٍ طيُّها حِكَمٌ مثلُ الأزاهرِ في طيِّ الرياحينِ
تلوحُ إن جُلِيَتْ دُرًّا، وإن تُلِيتْ تثني عليكَ بأنفاسِ البساتين
عانيتُ منها بجهدي كلَّ شاردةٍ لولا سُعُودُكَ ما كانت تواتيني[3]
يمانعُ الفِكْرَ عنها ما تَقَسَّمه من كلِّ حُزْنٍ بطيِّ الصدر مكنون
لكنْ بسعدك ذَلَّتْ لي شواردُها فَرُضْتُ منها بتحبيرٍ وتزيين[4]
بقيتَ دَهْرَكَ في أمنٍ وفي دَعَةٍ ودام مُلْكُكَ في نصرٍ وتمكينِ

وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد اسْتُعمل في السفارة إلى ملك قَشْتالة فراقه وعرف حقّه.

مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام أثنين وثلاثين وسبعمائة؛ انتهى كلام لسان الدين في حقِّ ابن خلدون.

قلت: هذا كلام لسان الدين في حقِّ المذكور في مبادىء أمره وأواسطه، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذي نقلنا منه في مواضع وسمّاه «ديوان العبر، وكتاب المبتدإ والخبر، في تاريخ العرب والعجم والبربر، ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»[5] ورأيته بفاس وعليه خطّه في ثماني مجلّدات كبار جدًّا، وقد عرَّف في آخره بنفسه، وأطال، وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظي عند السلطان أبي عبد اللّه شَمَّ من وزيره ابن الخطيب رائحة

---

(١) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ١٩٠): «ظاعنًا».
(٢) يعنّيني: يُتْعبني. لسان العرب (عنى).
(٣) تواتيني: توافقني، تسعفني.
(٤) الشوارد: جمع شاردة، وأصلها الدابة التي تنفر من راكبها وتصعب عليه فلا يزال يروّضها ويذلّلها حتى يسلس له قيادها، والمراد هنا القوافي التي يصعب على الشعراء الإتيان بها. التحبير: هنا التحسين. لسان العرب (شرد) و (حبر).
(٥) عرف هذا الكتاب باسم «تاريخ ابن خلدون»، وهو مطبوع.

الانقباض، فقوض الرحال[1]، ولم يرض من الإقامة بحال، ولعب بكرته صوالجة الأقدار، حتى حلّ بالقاهرة المعزّية واتّخذها خير دار، وتولّى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور، رحمه اللّه تعالى!.

وكان ـ أعني الولي ابن خلدون ـ كثير الثناء على لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى!.

ولقد رأيت بخطّ العالم الشهير الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي فيما يتعلّق بابن خلدون ما نصّ محل الحاجة منه: تقلّبت به الأحوال حتى قدم إلى الديار المصرية، وولي بها قضاء قضاة المالكية، في الدولة الشريفة الظاهرية، وصحبته ـ رحمه اللّه تعالى! ـ في سنة ٨٠٣ عند قدومه إلى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في فتنة تمرلنك عليه من اللّه تعالى ما يستحقّه، وأكرمه تمرلنك غاية الإكرام، وأعاده إلى الديار المصرية، وكنت أُكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودّة الحاصلة بيني وبينه، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع، وينعقد على استحسانه الإجماع، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع، فرحمة اللّه تعالى عليهما، وأزكى تحياته تهدى إليهما! ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان، وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان، مع الهمّة العلية، والتبحّر في العلوم النقلية والعقلية، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ٨٠٧، سقى اللّه تعالى عهده! ووطّأ في الفردوس مَهْده! قاله وكتبه الفقير إلى اللّه تعالى إبراهيم بن أحمد الباعوني الشافعي، غفر اللّه تعالى له زلله، وأصلح خلله! انتهى.

ومن نثر لسان الدين ما ذكره في «الإحاطة» في ترجمة يحيىٰ بن إبراهيم بن يحيىٰ البرغواطي من بني الترجمان، ولنذكر الترجمة بجملتها لاشتمالها على ما ذكر وغيره في حقّ المذكور بعد قوله «إنه من بني الترجمان» ما صورته[2]: «عزف عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين، وصحبة الفقراء المتجرّدين، وكان نسيجَ وَحْدِهِ في طلاقة اللسان، حافظًا لكل غريبة من غرائب الصوفية، يتكلّم في مشكلاتهم، حفظ «منازل السائرين»[3] للهروي، وتائية

---

(١) قوّض الرحال: في الأصل: هَدَّمَ الخيامَ وحملها على الإبل، والمراد: ارتحل. لسان العرب (قوض).
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨)، والمقري ينقل بتصرّف.
(٣) في الإحاطة: «السائرين إلى الحقّ».

ابن الفارض، مليح الملبس، مترفّعٌ عن الكُذْية، حسن الحديث، صاحب شهرة، ومع ذلك فمغضوض منه، محمول عليه، لِمَا جبل عليه من رفض الاصطلاح[1]، واطِّراح التغافل، مُولَع بالنقد، والمخالفة في كل ما يطرق سمعه، مرشحًا ذلك بالجدل[2] المبرم، ذاهبًا أقصى مذاهب القِحَة، كثير الفَلَتات، نالتْه بسبب هذه البلية محن، ووُسم بالرهق[3] في دينه مع صحّة العقل[4]، وهو الآن عامر الرباط المنسوب إلى اللّجام على رسم الشياخة، عديم التابع، مهجور الفِناء. قَيَّدَ الكثيرَ من الأجزاء، منها في نسبة الذنب إلى الذاكر، جزءٌ نبيل غريب المأخذ، ومنها فيما أُشكل من كتاب أبي محمد بن الشيخ، وصنّف كتابًا كبير الحجم في الاعتقادات جَلَبَ فيه كثيرًا من الحكايات[5]، رأيت عليه بخطّ شيخنا أبي[6] عبد اللَّه المقَّري ما يدلّ على استحسانه. ومن البرسام الذي يجري على لسانه، بين الجد والقحة والجهالة والمجانة، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق في شيء أضجره منقولاً من خطّه، بعد ردِّ كثير منه للإعراب، ما نصُّه: «اللَّه نور السموات من غير نار ولا غيرها، والسلطان ظلٌّ له وسراجه في الأرض، ولكل منهما فَرَاش مِمّا يليق به ويتهافت عليه، فهو تعالى محرق فَراشه بذاته، مغرقهم بصفاته وسراجه، وظلُّه هو السلطان محرق فَرَاشِهِ بناره، مغرقهم بزيته ونواله، فَفَراشُ اللَّه تعالى ينقسم إلى حافِّين ومسبِّحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين، وفَراش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشذّ أحدهم عنها، وهم وزغة ابن وزغة، وكلب ابن كلب، وكلب مطلقًا، وعار ابن عار، وملعون ابن ملعون، وقطّ، فأما الوزغة فهو المغرق في زيت نواله المشغول بذلك عمَّا يليق بصاحب النعمة من النصح وبذل الجهد، والكلب ابن الكلب هو الكَيِّسُ المتحرّز في تهافته من إحراق وإغراق يعطي بعض الحقّ ويأخذ بعضه، وأَمَّا الكلب مطلقًا فهو المواجه وهو المشرد للسفهاء عن الباب المعظم القليل النعمة، وأما العار ابن العار فهو المتعاطي في تهافته ما فوق الطوق، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مَرَّ بهم جلف أو متعاظم يقولون: هذا العار ابن العار،

---

(١) في الإحاطة: «الاضطلاع».
(٢) في الإحاطة (ص ٤٢٨): «بالجدِّ المبرم». والمبرم: المضجر. لسان العرب (برم).
(٣) في الإحاطة: «بالوَهَن».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٣٧): «العقد».
(٥) في الإحاطة: «في الاعتقاد.. من الأقوال والحكايات».
(٦) في الإحاطة: «شيخنا عبد اللَّه بن المقري».

يحسب نفسه رئيسًا، وذلك لقرب المناسبة؛ فهو موضوع لبعض الرياسة، كما أنَّ الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة، وأما الملعون ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربّه المنعم عليه في كبريائه وسلطانه، وأما القطّ فهو الفقير مثلي المستغني عنه لكونه لا تختصُّ به رتبة، فتارة في حجر الملك، وتارة في السنداس[١]، وتارة في أعلى الرتب، وتارة محسن، وتارة مسيء، تُغْفَرُ سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة، إذ هو من الطّوّافين، متطيَّرٌ بقتله وإهانته، تيّاهٌ في بعض الأحايين بعزّة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع، وكل ذلك لا يخفى. وأمّا الفَراش المحرَق فهو عند الدول نوعان: تارة يكون ظاهرًا وحصته مسح المصباح وتصفية زيته، وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه، ووجود هذا شديد الملازمة ظاهرًا، وأمّا المحرَقُ الباطنُ فهو المشار إليه في دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظّمه الخلق ويترك لما هو بسبيله، فيكون وسيلة بينهم وبين ربّهم وخليفته الذي هو مصباحهم، فإذا أراد اللّه تعالى إهلاك المروءة وإطفاء مصباحها تولّى ذلك أهل البطالة والجهالة، وكان الأمر كما رأيتم، والكل فَراش متهافت، وكلٌّ يعمل على شاكلته».

قال الوزير لسان الدين[٢]: وطلب مني الكَتْبَ عليه بمثل ذلك فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره، واستدعاءً لفكاهة انزعاجه، ما نصُّه: «وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام[٣] محموم، واختلاط مذموم، وانتساب زَنْجٍ في رُوم، وكان حقّه أن يتهيّب طريقًا لم يسلكْها، ويتجنّب عقيلة لم يملكْها، إذ المذكور لم يتلقَّ شيئًا من علم الأصول، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول، إنما هي قِحَة[٤] وخلاف، وتهاونٌ بالمعارف واستخفاف، غير أنه يحفظ في طريق القوم كلّ نادرة، وفيه رجوليّة[٥] ظاهرة، وعنده طلاقة لسان، وكفاية قلّما تتأتّى لإنسان. فإلى اللّه نضرع[٦] أن يعرِّفنا مقادير

---

(١) السنداس: بيت الراحة.

(٢) لا يزال النقل مستمرًا عن الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٢٨ . ٤٢٩).

(٣) البرسام: في الأصل التهابٌ يصيب غشاء الرئة ويسمّى ذات الجنب، وهو هنا بمعنى الهذيان، لأن من لوازم البرسام أن يهذي صاحبه نتيجة ارتفاع حرارته. لسان العرب (برسم).

(٤) القِحَةُ: الجفاء. لسان العرب (وقح).

(٥) في الإحاطة: «ص ٤٢٩»: «رجولة».

(٦) في الإحاطة: «نَسَل».

الأشياء، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء. وقد قلت مرتجلاً من أوّل نظرة، واجتزاءً بقليل من كثرة: [الخفيف]

كـلُّ جـارٍ لـغـايـةٍ مَـرْجُـوَّهْ   فهو عندي لم يَعْدُ حَقَّ[1] الفُتُوَّهْ
وأراكَ اقـتـحـمـتَ لـيـلاً بَـهـيـمًـا   مُـولـجًـا مـنـك نـاقـةً فـي كـوّهْ[2]
لا اتّـبـاعًـا ولا اخـتـراعًـا أتـتـنـا[3]   إذ نـظـرنـا عـروسَـكَ الـمـجـلـوَّهْ
كـلُّ مـا قُـلْـتَـهُ فـقـد قـالـه الـنـا   سُ مـقـالاً آيـاتُـهُ مـتـلـوَّهْ
لم تزدْ غيرَ أن أبحتَ حمى الإعـ   ـرابِ فـي كـلِّ لـفـظـةٍ مـقـروّهْ
نـسـألُ الـلّـه فـكـرةً تـلـزم الـعـقـ   ـل إلـى حِـشـمـةٍ تـحـوطُ الـمُـرُوَّهْ
وعـزيـزٌ عـلـيَّ أن كـنـتَ يـحـيىٰ   ثـم لـم تـأخـذ الـكـتـابَ بـقـوّهْ[4]

ومن بديع نثر لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق، ولنثبت الكلَّ هنا فنقول: قال الإمام الحافظ أبو عبد اللّٰه التنسي[5] نزيل تلمسان رحمه اللّٰه تعالى، عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حَمُّو موسى ابن يوسف بن عبد الرحمن بن يَغَمْراسَنْ بن زيان رحمه اللّٰه تعالى، ما صورته: وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد اللّٰه بن الخطيب كثيرًا ما يوجّه إليه بالأمداح، ومن أحسن ما وجّه له قصيدة سينية فائقة، وذلك عندما أحسّ بتغيّر سلطانه عليه، فجعلها مقدّمة بين يدي نَجْواه، لتمهد له مَثْواه، وتحصل له المستقرّ، إذا ألجأه الأمر إلى المفرّ، فلم تساعده الأيام، كما هو شأنها في أكثر الأعلام، وهي هذه[6]: [الكامل]

أطْلَعْنَ في سُدَفِ الفروع شُمُوسًا[7]   ضحكَ الظلامُ لها وكان عَبُوسًا

---

(١) في الإحاطة: «حَدَّ الفتوّة».
(٢) في الإحاطة: «كوبة». والكُوَّة: الخرق في الحائط. محيط المحيط (كوو).
(٣) في الإحاطة: «أرتنا».
(٤) في الإحاطة: «أن كب يحيىٰ». وهنا إشارة إلى قوله تعالى في شأن يحيىٰ بن زكريا: ﴿يا يحيىٰ، خُذِ الكِتابَ بقوّةٍ﴾. سورة مريم ١٩، الآية ١٢.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٠): «عبد اللّٰه التنيسي».
(٦) القصيدة في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٥٠)
(٧) السُّدَفُ: جمع سُدفة وهي الظلمة. القروع: جمع فرع وهو شعر الرأس. لسان العرب (سدف) و (فرع). وهنا يشبه الشعر بالظلام والوجوه بالشموس.

وعَطَفْنَ قُضْبًا للقدود نواعمًا بُوُئْنَ أدواحَ النعيم غُرُوسَا
وعَدَلْنَ عن جهر السلام مخافة الـ واشي فَجِئْنَ بلفظه مَهْمُوسا
وسَفَرْنَ من دَهَشِ الوداعِ وقومُـ هُنَّ إلى الترحّل قد أناخوا العِيْسا[1]
وخلسْنَ من خَلل الحجالِ إشارةً فتركْنَ كلَّ حجالها مخلوسا
لم أنسها من وحشةٍ والحيُّ قد زَجَرَ الحمولَ وآثر التغليسا[2]
لا الملتقى من بعدها كَثَبٌ ولا عُوجُ الركائبِ تسأمُ التخييسا[3]
فوقفتُ وِقْفَةَ هائم برحاؤهُ[4] وُقِفَتْ عليه وحُبِّسَتْ تحبيسا
ودَعَوْتُ عيني عاتبًا وعيونها بعصا النوى قد بجّست تبجيسا[5]
نافستِ يا عينيَّ دُرَّ دموعهم فعرضتِ درًّا للدموع نفيسا
ما للحمى بَعْدَ الأحبّةِ موحشًا ولَكَمْ تراءى آهلاً مأنوسا
ولِسِرْبِهِ حولَ الخميلةِ نافرًا عَمَّنْ يحسُّ به وكان أنيسا
ولظلّه الموروِدِ غمرُ قليبه لا يقتضي وردًا ولا تعريسا
حَيَّيْتُهُ فأجابني رَجْعُ الصدى لا فَرْقَ بينهما إذا ما قيسا
ما إن يزيدُ على الإعادة صوتُهُ حرفًا فيشفي بالمزيد نسيسا[6]
نضبَ المعينُ وقلَّصَ الظلُّ الذي ظَلْنَا عكوفًا عنده وجُلوسا
نَتواعَدُ الرُّجعَى ونَغْتَنِمُ اللقا ونديرُ من شكوى الغرامِ كؤوسا
فإذا سألتَ فلا تسائلْ مخبرًا وإذا سمعتَ فلا تحسّ حسيسا
عهدي به والدهرُ يتحفُ بالمنى وقد اقتضتْ نعماه أن لا بوسا
والعيشُ غَضُّ الرَّيْعِ والدنيا قد اجـ تليتْ بمغناه عليَّ عروسا
أتُرَى يعيدُ الدهرُ عهدًا للصّبا دَرَسَتْ مغاني الأنس فيه دروسا
أوطانُ أوطارٍ تعوّضَ أُفْقُها من رونق البشر البهيّ عَبُوسا

(١) العِيْسُ: جمع عَيْساء وهي الناقة. لسان العرب (عيس).
(٢) التغليس: السير في آخر الليل.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٠): «التجنيسا». والتخييس: تذليل الدابّة. والعوج: الضامرة من الإبل التي اعوجّت هزالاً وجوعًا، واحدها أعوج أو عوجاء. لسان العرب (خيس) و (عوج).
(٤) البرحاء: الشدّة. لسان العرب (برح).
(٥) بجست تبجيسًا: أي انهمرت الدموع منها. لسان العرب (بجس).
(٦) النسيس: غاية الجهد. لسان العرب (نسس).

هيهات لا تغني لعلَّ ولا عسى | في مثلها إلاَّ لآيةِ عيسى
والدهرُ في دَسْت القضاء مدرِّسٌ | فإذا قضى يستأنفُ التدريسا
تفتَنُّ في جُمَلِ الورى أبحاثُهُ | لا سيما في باب نِعْمَ وبِيسا[1]
وسجيّةُ الإنسان ليس بناصلٍ | من صبغها حتى يُرَى مَرْمُوسا[2]
يغترُّ مهما ساعدتْ آماله | فإذا عَرّاه الخطبُ كان يَؤُوسا
فَلَوَ اَن نفسًا مُكِّنَتْ من رشْدها | يومًا وقدَّسها الهدى تَقْديسا
لم تَسْتَفِزَّ رسوخَها النعمى ولا | هلعتْ إذا كَشَرَتْ إليها البوسا
قُلْ للزمان إليكَ عن مُتَذَمِّمٍ | بضمانِ عِزّ لم يكن ليخيسا[3]
فإذا استحرَّ جلادُهُ فأنا الذي اسـ | تغشيتُ من سَرْدِ اليقين لَبُوسا
وإذا طغى فرعونه فأنا الذي | من ضُرِّه وأذاهُ عُذْتُ بموسى
أنا ذا أبو مَثْواه مَنْ يحمي الحمى | ليثًا ويَغْلَمُ بالزئير الخيسا
بحمى أبي حَمُّو حططتُ ركائبي | لمّا اختبرتُ الليثَ والعرّيسا[4]
أسدُ الهياجِ إذا خَطا قُدُمًا سطا | فتخلَّفَ الأسدَ الهزبْرَ فريسا
بدرُ الهدى يأبى الضلالَ ضياؤه | أبدًا فيجلو الظلمة الحنديسا
جبلُ الوقار رسا وأشرف واعتلى | وسما فطأطاتِ الجبالُ رؤوسا
غيثُ النوالِ إذا الغمامُ خَلُوبةٌ | مَثلَتْ بأيدي الحالبين بَسُوسا[5]
تَلْقاه يومَ الأنسِ روضًا ناعمًا | وتراه بأسًا في الهياج بئيسا
كم غمرةٍ جلّى وكم خطبٍ كفى | إن أوطأ الجُرْدَ العتاقَ وطيسا
كم حكمةٍ أبدى وكم قصدٍ هدى | للسالكين أبانَ منه دريسا[6]
أعلى بني زيان والفَذّ[7] الذي | لَبِسَ الكمالَ فزيَّن الملبوسا

(١) وبِيسا: أي وبِئْسَ.
(٢) مرموسٌ: مقبورٌ. لسان العرب (رمس).
(٣) يخيسُ: يغدر. لسان العرب (خيس).
(٤) العرّيس: مأوى الأسد. لسان العرب (عرس).
(٥) البسوس: التي تتطلب إبساسًا أي تسكينًا كي تدرّ. لسان العرب (بسس).
(٦) الدريس: الطريق الخفيّ. لسان العرب (درس).
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٤٢): «والقدّ».

جَمَعَ الندى والبأسَ والشِّيَمَ العلا والسؤددَ المتواترَ القُدْمُوسا[1]
والحلمُ ليس يباين الخلق الرضى والعلمُ ليس يعارض الناموسا
والسعدُ يغني حكمه عن نَصْبةٍ تَسْتَخْبِرُ التربيعَ والتسديسا
كم راضَ صعبًا لا يراض مُعَاصيًا كم خاضَ بحرًا لا يخاضُ ضَرُوسا
بلغَ التي لا فوقها متمهّلاً وعلا السُّها واستسفل البرجيسا[2]
يا خيرَ مَنْ خفقتْ عليه سحابةٌ للنصر تُمْطِرُهُ أجشَّ بَجيسا[3]
وأجلَّ من حملته صَهْوةُ سابحٍ إن كَرَّ ضعضع كَرُّهُ الكُردوسا[4]
قَسَمًا بمن رفع السماءَ بغير ما عَمَدٍ ورَفَّعَ فوقَها إدريسا
ودحا البسيطةَ فوق لُجّ مُزبدٍ ما إن يزالُ على القرار حبيسا
حتى يهيبَ بأهله الوعدُ الذي حشر الرئيسَ إليه والمرؤوسا
ما أنتَ إلاَّ ذخرُ دَهْرِكَ دمت في الـ ـصون الحريز مُمَتَّعًا محروسا
لو ساومتهُ الأرضُ فيك بما حَوَتْ لرآك مستامًا بها مبخوسا
حلف البرورُ بها أليَّةَ صادق ويمينُ مَنْ عقدَ اليمينَ غموسا
مَنْ قاس ذاتكَ بالذوات فإنه جهلَ الوزانَ وأخطأ التقييسا
لا تستوي الأعيانُ فَضْلَ مزيّةٍ وطبيعةٍ فَطَرَ الإلهُ وسُوسًا[5]
لعناية التخصيص سِرٌّ غامضٌ من قبل ذَرْء[6] الخلقِ خَصَّ نفوسا
مَنْ أنكرَ الفضلَ الذي أُوتِيْتَهُ جَحَدَ العيانَ وأنكرَ المَحْسوسا
من دان بالإخلاص فيكَ فعقده لا يَقْبَلُ التمويهَ والتَّلْبيسا
والمنتمى العَلَويّ عيصُكَ لم تكنْ لترى دخيلاً في بنيه دَسيسا
بيتُ البَتُول ومنبتُ الشرفِ الذي تحمي الملائكُ دوحه[7] المغروسا

---

(١) القدموس: القديم. لسان العرب (قدمس).
(٢) البرجيس: المشتري وهو كوكب. لسان العرب (برجس).
(٣) البجيس: المتدفّق بغزارة. لسان العرب (بجس).
(٤) الصَّهْوَة: مقعد الفارس من الفرس. السابح: الفرس السهل السير. الكُرْدُوس: الكتيبة من الجيش. لسان العرب (صها) و(سبح) و(كردس).
(٥) السُّوس: السجيّة والطبع. لسان العرب (سوس).
(٦) الذَّرْءُ: الخلق. لسان العرب (ذرأ).
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٣): «روحه».

أمّا سياستُكَ التي أحْكَمْتَها ورَمَيْتَ بالتقصيرِ أسطاليسا
فَلَوَ أنّ كسرى الفرس أبصر بَعْضَها ما كان يَطْمَعُ أن يُعَدّيَ سوسا[1]
لو سار عدلك في السنين لما اشتكتْ بخسًا، ولم يكُ بعضهنّ كبيسا
ولَوِ الجواري الخُنَّسُ انتسبتْ إلى إقدامِ عَزْمك ما خنسنَ خُنوسا
قُدْتَ الصعابَ فكلُّ صعبٍ سامحٌ لكَ بالقيادِ وكان قَبْلُ شَمُوسَا
تلقى الليوثَ وللقَتام غمامَةٌ قَدَحَ الصفيحُ وَمِيضَها المَقْبُوسا
وكأنها تحت الدروع أراقمٌ ينظرنَ من خللِ المغافر شُوسًا[2]
ما لابن مامةَ في القديم وحاتمٍ ضربَ الزمانُ بجودهم ناقوسا
مَنْ جاء منهمْ مثلَ جودك كلّما حسبوا المكارمَ كسْوَةً أو كيسا
أنتَ الذي افْتَكَّ[3] السفينَ وأهله إذ أوسعتْ سبُلَ الخلاص طموسا
أنتَ الذي أمددتَ ثغر اللّه بالصـ ـدقات تُبْلِسُ كَرَّةً إبليسا
وأغنتَ أندلُسًا بكلِّ سبيكة موسومةٍ لا تعرفُ التَّدليسا[4]
وشَحَنته[5] بالبر في سُبُل الرضا والبرّ قارب قاعُها القاموسا
إن لم تجرِّ بها الخميسَ[6] فطالما جَهَّزْتَ فيها للنوال خميسا
وملأتَ أيديها وقد كادت على حكمِ القضاء تُشافِهُ التفليسا
صدّقتَ للآمال صنعةَ جابرٍ وكفيتها التشميعَ والتشميسا[7]
والحلَّ والتقطيرَ والتصعيد والـ ـتخميرَ والتصويلَ والتكليسا[8]

---

(١) في أزهار الرياض: «يعدّ سؤوسا». وسوس: مدينة في أقصى بلاد المغرب، يقال لها: السوس الأقصى، ومنها المهدي محمد بن تومرت. الروض المعطار (ص ٣٢٩).
(٢) الشوس: جمع أشوس وهو الجريء الشديد في القتال، لسان العرب (شوس).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٤): «فتك».
(٤) في الطبعة نفسها: «التدنيسا».
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ١٩٩): «وشحينة».
(٦) الخميس: الجيش الكبير. لسان العرب (خمس).
(٧) جابر: هو جابر بن حيان صاحب الاختراعات الكيميائية. التشميع: تليين الشمع، والتشميس: تعريض المواد للشمس، وهما من المصطلحات الكيميائية.
(٨) الحلّ: التحلل الكيميائي. التقطير والتصعيد: هما متشابهان في المعنى. التصويل: جعل الرواسب طافية وهو تالٍ للتكليس. لسان العرب (حلل) و (قطر) و (صعد) و (صول).

فسبكت من آمالها مالاً، ومن أوراقها وَرِقًا، وكنَّ طُروسَا
بُهِتُوا فلمّا استخبروا لم ينكروا وزنًا ولا لونًا ولا ملموسا
وتُدِيرُ مِنْ قَلْبِ السُّطور سبائكًا منها ومن طبعِ الحروفِ فلوسا
ونحوتَ نحو الفضل تعضدُ منه بالـ ـمسموع ما ألفيتَ منه مَقِيسَا
وجبرتَ بعد الكسر قومَك جاهدًا تُغْنِي العديمَ وتُطْلِقُ المحبوسا
ونشرتَ رايةَ عزِّهِمْ من بعدما دالَ الزمانُ فسامها تنكيسا
أحْكَمْتَ حيلَةَ بُرْئهِمْ بلطافةٍ قد أعجزتْ في الطبِّ جالينوسا
وفَلَلْتَ من حدِّ الزمان وإنه أوحى وأمضى من غِرارِ المُوسَى[1]
وشحذتَ حَدًّا كان قبلُ مُثَلَّمَا ونعشتَ جَدًّا كان قبلُ تعيسا[2]
لم تَرْجُ إلاَّ اللّهَ جلَّ جلاله في شدّةٍ تُكْفى وجرحٍ يُوسْى
قَدَّمْتَ صبحًا فاستضأتَ بنوره ووجدتَ عند الشدّة التنفيسا
ما أنتَ إلاّ والج[3] مُتَيَقِّنٌ بالنُّجْح تعمرُ مُمْرِعًا ويبيسا
ومُناجز جعلَ الأريكةَ صهوةً عَرَبِيَّةً والمُتَّكا القَرَبُوسَا[4]
ما إن تُبايعُ أو تشاري واثقًا بالربح إلاَّ المالكَ القُدُّوسا
والعزمُ يفترعُ النجومَ بناؤه مهما أقام على التُّقى تأسيسا
ومقام صبرِكَ واتّكالكَ مُذْكِرٌ بحديثه الشبليَّ أو طَاوُوسا[5]
ومَنِ ارتضاه اللّهُ وفَّقَ سَعْيَهُ فرأى العظيمَ من الحظوظِ خسيسا
ما ازددتَ بالتمحيص إلاَّ جِدَّةً ونضوتَ من خِلَعِ الزمان لَبِيسَا
ولطالما طرقَ الخسوفُ أهلّةً ولطالما اعترضَ الكسوفُ شموسا
ثم انجلَتْ نَسَماتها عن مشرقٍ للسّعْدِ ليس بحاذرٍ تَتْعيسا
خُذْها إليكَ على النوى سينيّةً ترضى الطِّباقَ وتشكرُ التجنيسا
إن طُووِلَتْ بالدّرِّ من حول الطُّلَى يومًا تشكَّتْ حظَّها الموكوسا

(١) غِرار الموسى: حدُّه. لسان العرب (غرر).
(٢) المُثَلَّم: المكسر الحدّ، نَعَشْتَ: أسعدْتَ. الجَدُّ: الحظّ. لسان العرب (ثلم) و (نعش) و(جدد).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٠٠): «فالجُ».
(٤) في الطبعة نفسها: «ومتاجر». والقَرَبُوسُ: حنو السرج، لسان العرب (قربس).
(٥) الشبلي: هو دلف بن جحدر بن يونس. طاووس: هو طاووس بن كيسان الخولاني.

لولاكَ ما أصْغَتْ لِخطبةِ خاطبٍ ... ولَعُنِّسَتْ في بيتها تعنيسا
قصدتْ سليمانَ الزمانِ وقاربتْ ... في الخطو تحسبُ نفسها بَلْقيسا
لي فيكَ وُدٌّ لم أكنْ من بعدما ... أعطيتُ صفقةَ عهدِهِ لأخيسا
كم لي بصحة عقدِهِ من شاهدٍ ... لا يَحْذَرُ التجريحَ والتدليسا
يقفو الشهادة باليمينِ، وإنه ... لمؤمَّنٌ من أن يُعَدَّ فَسِيسَا[1]
لا يستقرُّ قرارُ أفكاري إلى ... أن أستقِرَّ لدى عُلاكَ جليسا
وأُرى تجاهكَ مستقيمَ السير لل ... قصد الذي أعملْتُهُ مَعْكُوسا
هي دينُ أيامي فإن سَمَحَتْ به ... لم يبق من شيء عليه يُوسى
لا زالَ صنعُ اللّه مجنوبًا[2] إلى ... مَثْواكَ يهدي البشرَ والتأنيسا
مُتَتابِعًا كتتابُعِ الأيام لا ... يَذَرُ التعاقبَ جمعةً وخَميسا
فَلَوَ انْصَفَتْكَ إيالةُ الملكِ التي[3] ... رُضْتَ الزمانَ لها وكان شَريسا
قرنتْ بذكركَ والدعاء لك الذي ... تختاره التسبيحَ والتقديسا
القَلْبُ أنتَ لها رئيسُ حياتها ... لم تُعتبرْ مهما صلحتَ رئيسا

ثم قال الحافظ التنسي[4] رحمه اللّه تعالى بعد سَرْد هذه القصيدة ما معناه: إن لسان الدين بن الخطيب حَذَا في هذه القصيدة السينية حَذْوَ أبي تمام في قصيدته التي أولها[5]: [الكامل]

أقشيبَ رَبْعِهِمُ أراكَ دَرِيسَا ... تَقْري ضيوفَكَ لوعةً ورَسِيسَا[6]

واختلس كثيرًا من ألفاظها ومعانيها، انتهى.

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصُّه: «هذه القصيدة ـ أبقى اللّه تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع، والثناء المسموع، والملك المنصور

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٥): «قسيسًا». والفسيس: الضعيف. لسان العرب (فسس).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٦): «محبوبًا».
(٣) في الطبعة نفسها: «الذي».
(٤) في الطبعة نفسها: «التنيسي».
(٥) هو مطلع قصيدة من ٤٧ بيتًا قالها في مدح أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي. ديوان أبي تمام (ص ١٥٤).
(٦) في الديوان: «وقِرَى ضيوفك». والقشيب: الجديد. والدريس: الخلق البالي. والرسيس: ابتداء الحب. لسان العرب (قشب) و (درس) و (رسس).

الجموع! . نفثة مَنْ باح بسرّ هَوَاه، ولبَّى دعوة الشوق العابث بلبّه وقد ظفر بمن يُهْدِي خبر جَواه[1] إلى محلّ هواه، ويختلس بعث تحيّته، إلى مُثير أريحيته، وهي بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال، الشاذُ عن الآمال، عنوانٌ من كتاب، وذواق من أوقار ذات أقتاب، وإلاّ فمن يقوم بحقّ تلك المثابة لسانُه، أو يكافىء إحسانَها إحسانُه، أو يستقلّ بوصفها يراعه، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه؟ ولا مكابرة بعد الاعتراف، والبحر لا يَنْفَدُ بالاغتراف، لا سيما وذاتكم اليومَ والله تعالى يبقيها، ومن المكاره يَقِيها، وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقيها، ياقوتة اختارها واعتبرها، ثم ابتلاها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها، وسبيكة أخلصها[2] وسخّرها، فخلصها بتسجيره[3] من الشَّوْب، وأبرزها من لباب الذوب، وقصرت عن هذه الأثمان، وسُرَّ بصدق دعواه البَهْرَمان[4]، ليفاضل بين الجَهام والصَّيِّب، و ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[5]، فأراكم أن لا جَدْوَى للعديد ولا للعدّة، وعرّفكم بنفسه في حال الشدّة، ثم فسح لكم بعد ذلك في المدّة، لتعرفوه إذا دال الرخاء، وهبَّت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُّخاء، وملأكم من التجارب، وأوردكم من ألطافه أعذبَ المشارب، ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلائه، ولم يَسْلُبكم إلاّ حقيرًا عند أوليائه، وأعادكم المعاد المُطَهر، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعْلم المشهّر، فأنتم اليومَ بعين العناية، بالإفصاح والكناية، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية، فإن كان الملك اليوم عِلْمًا يُدرس، وقوانين في قوّة الحفظ تُغرس، وبضاعة بِرَصْد التجارب تُحرس، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة، وأصمعيُّ شعوبه المنسوبة، إلى ما حزتم من أشتات الكمال، المُرْبِية على الآمال، فالبيت علوي المنتسب، والملك بين الموروث والمكتسب، والجود يعترف به الوجود، والدين يشهد به الركوع والسجود، والبأس تعرفه التَّهائم والنُّجود، والخلق يحسده الروض المَجُود، والشعر يغترف من عذب نَمير، ويصدق من[6] قال: بدىء بأمير وختم بأمير، وإنَّ مملوككم حَوّمَ من بابكم على العذب البَرُود، فعاقه الدهر عن

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٦): «حواه».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٧): «خلصها».
(٣) في الطبعة نفسها: «التسخيره».
(٤) البَهْرَمان: العُصْفُر. محيط المحيط (بهرم).
(٥) سورة الأنفال ٨، الآية ٣٧.
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٠٢): «ما».

الورود، واستقبل أُفقه ليحقّق الرَّصْد، ولكنه أخطأ القصد، ومن أخطأ الغرض أعاد، ورجا من الزمان الإسعاد، فربما خُبِيء نصيب، أو كان مع الخواطيء سهم مصيب[1]، وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز، وقَطَعت القواطع التي لم ينلْها الحساب، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه، وَجَبَ العملُ على اطِّراحه، فإنما هي البحر الزاخر، الذي لا يدرك منه الآخر، والرياح متغايرة، والسفينة الحائرة، فتارة يتعذّر من المرسى الصرف، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتدَّ الطَّرْف، هذا إن سالمها عَطَبُها، وأُعْفِيَ من الوقود حَطَبُها، ولقد علم اللّه جلَّ جلاله أنّ لقاء ذلك المقام الكريم عند الملوك تمامُ المطلوب، مِمَّنْ يجبر كسر القلوب، فإنه مِمّا انعقد على كماله الإجماع، وصَحَّ في عَوَالي معاليه السَّماع، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع، أخلاقًا هَذَّبَهَا الكرم الوضّاح، وسجية كلف بها الكمال الفضاح، وحرصًا على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلاّ مَنْ سَمَتْ هممه، وكرمتْ ذِمَمُه، وألفت الخلد رممه، إذ الوجود سَراب، وما فوق التراب تراب، ولا يبقى إلاّ عمل راق، أو ذكر بالجميل يُسَطّر في أوراق، حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له طاعة، فوفت بمقترحِهِ استطاعة: [الكامل]

يمضي الزمانُ وكلُّ فانٍ ذاهبٌ	إلاّ جميل الذكر فهو الباقي
لم يبقَ من إيوان كسرى بعد ذا	كَ الحفلِ إلاّ الذكر في الأوراقِ
هل كان للسفاح والمنصور والـ	ـمهديِّ من ذكر على الإطلاق
أو للرشيدِ وللأمين وصِنْوه	لولا شَبَاة يراعةِ الوَرَّاق[2]
رَجَعَ التراب إلى التراب بما اقتضتْ	في كلِّ خَلْقٍ حكمةُ الخلاّقِ
إلاّ الثناء الخالد العَطِر الشَّذَى	يهدي حديث مكارم الأخلاق

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب، أن يمكنها من حسن المَثاب[3]، فتحظى بحلول ساحته، ثم بلثم راحته، ثم بالإصغاء، ولا مزيد للابتغاء، إلى أن ترتفع الوَسَاطة، وتغني

(١) أخذه من المثل: «من الخواطيء سهم صائب»، يُضرب للذي يخطيء مرارًا ويصيب مرة. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٨٠).

(٢) الشَّباة: حدّ السنان ونحوه، واستعارها هنا لليراعة، واليراعة: القلم.

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٠٤): «المناب»

عن التركيب البساطة، ويُثْنَى الأثر بالعَيْن، ويحسن الدهر قضاء الدين، ونسأل الذي أغرى بها القريحة، ولم يجعل الباعثَ إلاّ المحبةَ الصريحة، أن يبقي تلك المثابة زَيْنًا للزمان، وذخرًا مكنوفًا باليمن والأمان، مظلَّلاً برحمة الرحمن، بفضله وكرمه؛ انتهى.

ومِمَّا كتب به لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب شيخه أبي عبد اللّٰه بن مرزوق رحمه اللّٰه تعالى حين كانت أزِمَّةُ أمر المغرب بيده أيام السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المَرِيني رحم اللّٰه تعالى الجميع! ما صورته:

«سيدي بل مالكي بل شافعي، ومُنْتَشِلي من الهفوة ورافعي، وعاصمي عند تجويد حروف الصنائع ونافعي، الذي بجاهه أجزلت المنازلُ قِرَاي، وفَضَلت أُولاي والمنّة للّٰه تعالى أُخراي، وأصبحت وقول الحسن[1] هِجِّيراي: [الطويل]

علقتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ ... أمنتُ به من طارقِ الحَدَثانِ[2]
تغطيْتُ من دهري بظلِّ جناحه ... فعيني تَرَى دهري وليس يراني
فلو تُسألُ الأيامُ ما اسْمِيَ ما[3] دَرَتْ ... وأين مكاني ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة حرسها اللّٰه تعالى حداني حدو نداك، سحائب لولا الخصال المبرة[4] قلت بذاك[5]، وكان الوطن لاغتباطه بجواري، أو ما رآه من انتياب زوّاري، أوغر إلى بهت يقطع الطريق، وأطلع يده على التفريق، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق، فلم يسع إلاّ المقام أيامًا قعودًا في البر وقيامًا، واختيارًا لضروب الأنس واعتيامًا[6]، ورأيت بلدة معارفها أعلام، وهواؤها برد وسَلام، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام، فحيَّا اللّٰه تعالى سيدي فلكَمْ من فضل أفاد، وأنس أحياه وقد باد، وحفظ منه على الأيام الذُخْرَ والعَتاد، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد، وأنا أتطارح عليه في صِلات تَفَقُّدِهِ، وموالاة يده، بأن يُسْهمني في

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٤٩): «أبي الحسن»، وهو أبو نواس الحسن بن هاني، والأبيات في ديوانه (ص ٤٦٩).
(٢) في الديوان: «أخذتُ بحبلٍ.. نائب الحدثان».
(٣) في الديوان: «لما».
(٤) المبرة: الزائدة على خصال السحائب.
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٠٤): «يداك».
(٦) اعتيامًا: اختيارًا. محيط المحيط (عيم).

فرض مخاطبته مهما خاطب معتبرًا بهذه الجهات، ويصحبني من مناصحته ومن مسرّة يعمل فيها هاك وهات، فالعزّ بعزّه معقود، والسعد بوجوده موجود، ومَنْهَلُ السرور بسروره مورود، واللَّه عزَّ وجلّ يُبْقيه بقاءَ الدهر، ويجعل حُبَّه وظيفة السِّرّ وحَمْده وظيفة الجهر، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر، ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام والشهر بالشهر، آمين آمين»؛ انتهى.

ومما خاطب به لسان الدين رحمه اللَّه تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد اللَّه بن أبي القاسم بن أبي مَدْين يهنيه بتقلّد المنصب من رسالة قوله: [المتقارب]

تعودُ الأمانيُّ بَعْدَ انصرافِ ... ويعتدلُ الشيء بعد انحرافِ
فإن كان دَهْرُكَ يومًا جَنَى ... فقد جاءَ ذا خَجَلٍ واعترافِ

طلع البشير أبقاك اللَّه تعالى بقَبول الخلافة المرينية، والإمامة السنيّة، خصّها اللَّه تعالى ببلوغ الأمنية، على تلك الذات التي طابت أرومتها[1] وزكت، وتأوّهت العلياء لتذكر عَهْدها وبكت، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارثَ الذي تركت، فلولا العذر الذي تأكّدت ضرورته، والمانع الذي ربما تقرّرت لديكم صورته، لكنت أول مُشَافه بالهناء، ومصارف لهذا الاعتناء، الوثيق البناء، بِنُقُود الحمد للَّه والثناء. وهي طويلة.

ومِمَّا خاطب به رحمه اللَّه تعالى قاضيَ الجماعة وقد نالته مشقّةٌ جَرَّها غلطُ الخدّام السوء واشتراك الأسماء، أعتبه[2] عندها السلطان وخلع عليه وأشاد بقدره بما نصُّه: [الطويل]

تَعَرَّفْتُ أمرًا ساءني ثم سرّني ... وفي صِحَّةِ الأيام لا بُدَّ مِنْ مَرَضْ
تَعَمَّدك المحبوبُ بالذات بعدما ... جرى ضدّه، واللَّه يكفيه بالعرضْ

«في مثلها سيدي يُحْمَدُ الاختصار، وتُقصر الأنصار، وتُصرف الأبصار، إذ لم يتعيّن ظالم، ولم يتبيّن يَقِظٌ ولا حالم، وإنما هي هدية أجر، وحقيقة وصل أعقبت مَجاز هجر، وجرح جُبار[3]، وأمر ليس به اعتبار، ووقيعة لم يكن فيها إلاَّ غُبار، وعَثْرة القدم لا تُنْكَرُ،

(١) الأرومة: الأصل. لسان العرب (أرم).
(٢) أعتبه: أرضاه. لسان العرب (عتب).
(٣) الجُبار، بضمّ الجيم: الهَدْر والباطل؛ يقال: فلانٌ جرحه جُبارٌ: أي لا يُطالَبُ به. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «جرح العجماء جُبار». لسان العرب (جبر).

واللّه سبحانه يُحْمَدُ في كلّ حال ويُشْكَرُ، وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يَشُبْه شائب، وحسن الولاية لم يعبه عائب، والرعي دائب، والجاني تائب، فما هو إلاّ الدهر الحسود، لمن يسود، خَمَشَ بيد ثم سَتَرها، ورمى عن قَوْس ما أصلحها. والحمد للّه. ولا أوْتَرَها، إنما باءَ بشَيْنه[1]، وجنى من مزيد العناية محنة عَيْنه، ولا اعتراض على قَدَر، أعقب بخطّ معتذر، ووِرْدٍ نُغّصَ بكدر، ثم أُنّسَ بإكرام صَدَر، وحسبنا أن نحمد الدفاع من اللّه تعالى والذبّ، ولا نقول مع الكَظْم إلاّ ما يُرْضِي الربّ، وإذا سابَقَ أولياءُ سيدي في مضمار، وحماية ذِمار، واستباق إلى برّ وابتدار، بجهد اقتدار، فأنا ولا فخر متناول القَصَبة، وصاحب الدِّين من بين العَصَبة[2]، لما بلوت من برّ أوجبه الحسب، والفضل الموروث والمكتسَب، ونصح وضح منه المَذْهب، وتنفيق راق منه الرداء المُذْهَب، هذا مُجْمل وبيانُه إلى وقت الحاجة مؤخّر[3]، ونبذة شَرِهَ لتعجيلها يراعٌ مسخّر، واللّه سبحانه يعلم ما أنطوي عليه لسيدي من إيجاب الحق، والسير من إجلاله على أوضح الطرق، والسلام»؛ انتهى.

وقال رحمه اللّه تعالى: خاطبتُ بعضَ الفضلاء بقولي مِمّا يظهر من الجملة غرضه:
[الطويل]

تَعَرَّفْتُ قُرْبَ الدارِ مِمَّنْ أُحِبُّهُ ... فكنتُ أجِدُّ السيرَ لولا ضرورَهْ
لأتلُوَ من آي المحامدِ سورةً ... وأُبصر من شخصِ المحاسنِ صُورَهْ

كنت أبقاك اللّه تعالى لاغتباطي بوَلائك، وسروري بلقائك، أودّ أن أطوي إليك هذه المَرْحَلة، وأُجدّد العهد بلُقْياك المؤمَّلة، فمنع مانع، وما ندري في الآتي ما اللّه صانع، وعلى كل حال فشأني قد وَضَح منه سبيل مسلوك، وعَلِمه مالك ومملوك، واعتقادي أكثر مِمّا تسعه العبارة، والألفاظ المستعارة، ومُوَصِّلها ينوب عني في شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة، المتّصفة بالعفاف والطهارة، والسلام.

---

(١) باء: رجع. محيط المحيط (بوأ).
(٢) العَصَبَةُ: الأقرباء من جهة الأب. لسان العرب (عصب).
(٣) يشير إلى قول الأصوليين: «يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة».

وقال سامحه اللّه تعالى يخاطب السلطان أبا عبد اللّه بن نصر جبره اللّه تعالى عند وصول ولده من الأندلس: [الكامل]

الدهرُ أضيقُ فُسْحَةً من أن يُرى ... بالحزنِ والكمدِ المُضاعَفِ يُقْطَعُ
وإذا قَطَعْتَ زمانه في كُرْبةٍ ... ضيعتَ في الأوهامِ ما لا يرجعُ
فاقنعْ بما أعطاكَ ربّكَ واغتنمْ ... منه السرورَ وخَلِّ ما لا ينفعُ

مولاي الذي له المِنَن، والخَلْق الجميل والخُلُق الحسن، والمجد الذي وضح منه السَّنن، كتبه عبدك مهنّئًا بنعم اللّه تعالى التي أفاضها عليك، وَجَلَبَها إليك، من اجتماع شملك، بنَجْلك، وقضاء دَيْنكَ، من قُرّة عينك، إلى ما تقدّم من إفلاتك، وسلامة ذاتك، وتمزّق أعدائك، وانفرادك بأوِدّائك[1]، والزمن ساعةٌ في القِصَر، لا بل كَلَمْح البصر، وكأني بالبساط قد طُوِي، والتراب على الكلِّ قد سوي، فلا تبقى غبطة ولا حسرة، ولا كربة ولا يسرة، وإذا نظرت ما كنت فيه تجدك لا تنال منه إلاَّ أكلة وفراشًا، وكِنًّا[2] ورياشًا، مع توقّع الوقائع، وارتقاب الفجائع، ودعاء المظلوم وصُدَاع الجائع، فقد حصل ما كان عليه التعب، وأمن الرهب، ووضح الأجر[3] المذهب، والقدرة باقية، والأدعية واقية[4]، وما تدري ما تحكم به الأقدار، ويتمخّض عنه الليل والنهار، وأنت اليوم على زمانك بالخيار، فإن اعتبرت الحال واجتنبت المحال، لم يخفَ عليك أنك اليوم خير منك أمس، من غير شكّ ولا لَبْس، وكان من أملي التوجُّه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتني موانع، ولا ندري في الآتي ما اللّه تعالى صانع، فاستنبت هذه في تقبيل قَدَمِه، والهناء بمقدمه، والسلام.

وقال رحمه اللّه تعالى: قلت أخاطب محمد بن نوار وقد أعْرَسَ ببنت مزوار الدار السلطانية، وهو معروف بالوسامة وحسن الصورة: [مخلع البسيط]

إن كنتُ في العُرْس ذا قُصورٍ ... فلا حضورٌ ولا دخالَهْ[5]
ينوبُ نظمي منابَ تَيسٍ ... والنثرُ عن قُفَّةِ النخالَهْ

(١) الأوِدّاء: جمع ودود وهو المحب. لسان العرب (ودد).
(٢) الكِنُّ، بكسر الكاف وتشديد النون: المأوى. لسان العرب (كنن).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٥٢): «الأمر والمذهب».
(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٠٨): «راقية».
(٥) الدَّخالة: الهديّة. لسان العرب (دخل).

هنّأكم اللّه سبحانه دعاء وخبرًا، وألبسكم من السرور حِبَرًا، وعوّذكم بالخمس، حتى من عين الشمس، فلعمري لقد حصلت النسبة، ورضيت هذه المعيشة الحسبة، ومن يكن المزوار ذواقه، كيف لا يشقّ البدر أطواقه، وينشر القبولُ عليه رِواقه، وأنتم أيضًا بركان جمال، وبقية رأس مال، ويمين في الانطباع وشمال، بمنزلكم اليوم بدرٌ وهلال، ولعقد التوفيق بفضل اللّه تعالى استقلال، فإنا أُهنّيكم بتَسَنّي أمانيكم[1]، والسلام.

وقال رحمه اللّه تعالى مخاطبًا عميد مراكش المتميز بالرأي والسياسة والهمّة وإفاضة العدل وكفّ اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي الهنتاني[2]: [الطويل]

تقولُ ليَ الأظعانُ والشوقُ في الحَشَا ... له الحكمُ يمضي بين ناهٍ وآمرِ
إذا جبلَ التوحيدِ أصبحتَ فارعًا ... فَخَيِّمْ قَرارَ العين في دار عامرِ
وزُرْ تربةَ المعلومِ إنَّ مزارَها ... هو الحجُّ يُفْضِي نحوه كلُّ ضامر
ستلقى بمَثْوى عامر بن محمد ... ثغورَ الأماني من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوهُ من سَعْدِ وَجْهِهِ ... ولله ما تَلْقاه من يُمْنِ طائر
وتُسْتعملُ الأمثالُ في الدهرِ منكما ... بخيرِ مَزورٍ أو بأَغْبَطِ زائرِ

لم يكن همي أبقاك اللّه تعالى مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيام والليال، إذ الشمل جميع، والزمان كلّه ربيع، والدهرُ مطيع سميع، إلاّ زيارتك في جَبَلك الذي يعصم من الطوفان، ويُواصَل أمنُه بين النوم والأجفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية، فلمّا حُمَّ الواقع[3]، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع، وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع[4] وحسنت من استدعائك إياي المواقع، وقوي العزم وإن لم يكن ضعيفًا، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفًا، والتمست الإذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريفًا، واستقبلتك بصدر مشروح، وزند للعزم مقدوح، واللّه سبحانه يحقّق السول، ويسهل بمثوى الأماثل المثول، ويهيىء من قبل هنتانة القبول، بفضله.

---

(١) تسنّي أمانيكم: تيسيرها. لسان العرب (سنى).
(٢) الأبيات في مشاهدات لسان الدين (ص ١٢٠) والاستقصا (جـ ٤ ص ١٧).
(٣) حُمَّ الواقعُ: قُضي وقُدّر. محيط المحيط (حمم).
(٤) البلاقع: جمع بلقع وهو المقفر الخالي من السكان. لسان العرب (بلقع).

وللسان الدين بن الخطيب مقامة عظيمة بديعة وصف بها بلاد الأندلس والعُدْوة، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العُجاب، وقد تركتها مع كتبي بالمغرب، ولم يحضرني منها الآن إلاّ قوله في وصف مدينة سبتة ما صورته[١]: «قلت فمدينة سبتة، قال: عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى، تبرّجت تبرج العقيلة[٢]، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة، واختصّ ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أسوارها، وكان جبل بنيونش[٣] شَمَّامة أزهارها، والمنارة منارة أنوارها[٤]، كيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتهيم[٥] الخواطر بين أنجادها وأغوارها؟ إلى المينا الفُلكية، والمراقي[٦] الفلكية، والركية[٧] الزكية، غير المنزورة ولا البكية[٨]، ذات الوَقُود الجزل، المعدّ للأزل، والقصور المقصورة على الجِدِّ والهَزْل، والوجوه الزُّهر السُّحَن، المضنون بها عن المِحَن، دار الناشبة، والحامية المضرمة للحرب المناشبة، والأسطول المرهوب، المحذور، الألهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب، كرسي الأمراء والأشراف، والوسيطة، لخامس أقاليم البسيطة، فلا حَظَّ لها في الانحراف، بَصْرة علوم اللسان، وصنعاء الحُلَل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى ﴿إنَّ اللَّه يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ﴾[٩] الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحطّ قوافل العصير والحرير والكتّان، وكفاها السكنى ببنيونش في فصول الأزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم، غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم، إلاّ أنها فاغرة أفواه الجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تُعَدُّ من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة، وتكلُّفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة،

---

(١) النص في مشاهدات لسان الدين (ص ١٠١).
(٢) العقيلة: السيدة الكريمة. لسان العرب (عقل).
(٣) بنيونش: قرية إلى الغرب من سبتة.
(٤) في مشاهدات لسان الدين: «شوارها».
(٥) في المصدر نفسه: «وتخيّم».
(٦) في المصدر نفسه: «والمراسي».
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٥٤): «الذكية الزكية».
(٨) البَكِيّة، على وزن هديّة: القليلة. لسان العرب (بكي).
(٩) سورة النحل ١٦، الآية ٩٠.

واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنْسَابُ نفقاتهم في تقدير الأرزاق عَريقة، فهم يمصّون البلالة مصّ المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساجم، فلا يفضّلون على مدينتهم مدينة، الشكّ عندي في مكة والمدينة»؛ انتهى.

وقد سلك في هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفية، ووفّاها من المدح وضدّه أكمل توفية، وعكس هذه الطريقة في «نفاضة الجراب» فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القُراب.

فمن ذلك قوله حين أجري ذكر مدينة «مكناسة الزيتون»: وأطلّتْ مدينة مكناسة في مظهر النَّجد، رافلة في حلل الدوح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المراد، قد أحكَم وَضْعَها الذي أخرج المرعى، قيد النص وفذلكة[1] الحسن، فنزلْنا بها منزلاً لا تستطيع العينُ أن تخلفه حسنًا ووضعًا، من بلد دارت به المداسر[2] المُغِلّة، والتفَّتْ بسوره الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف، ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف ربوة، ومثلت بإزائها الزاوية القُدْمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمئذنة السامية، والمرافق المتيسّرة، يصاقبها[3] الخان البديع المنصب الحصين الغلَق الخاصّ بالسابلة والجوّابة في الأرض يبتغون من فضل اللّه تعالى، تقابلها غربًا الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجدة والانفساح وتفنّن الاحتفال، إلى أن قال: وبداخلها مدارس ثلاث لبثّ العلم، كلفت بها الملوك الجلّة الهمم، وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن، ما شئت من أبواب نحاسية، وبرك فياضة تقذف فيها ضافي الماء أعناقٌ أسدية، وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين، وتفضل هذه المدينة كثيرًا من لِداتها بصحة الهواء وتبحّر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر لجوار ترابها سليمًا من الفساد معافًى من العفن، إذ تقام ساحات منازلها غالبًا على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلُها الموارث ويصحبُها التعمير

---

(١) فذلكة الحسن: خلاصته. محيط المحيط (فذلك).

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢١١): «المداشر»، وقال المحقق إن المداشر هي القرى أو المزارع.

(٣) يصاقبها: يقابلها. لسان العرب (صقب).

وتتجافى عنها الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمّة، قال ابن عبدون من أهلها ولِلّه دَرُّه: [الكامل]

إن تفتخرْ فاسٌ بما في طيِّها ... وبأنها في زيِّها حَسْناءُ
يكفيك من مكناسةٍ أرجاؤها ... والأطيبانِ: هواؤها والماءُ

ويُسامتُها[1] شرقًا جبل زرهون، المنبجس العيون[2]، الظاهر البركة، المتزاحم العمران، الكثير الزياتين والأشجار، قد جلّله سكرًا ورزقًا حسنًا، فهو عنصر الخير، ومادة المجبى، وفي المدينة دور نبيهة، وبِنًى أصيلة، واللّه سبحانه ولي من اشتملت عليه بقدرته، وفيها أقول: [الكامل]

بالحسنِ من مكناسةِ الزيتونِ ... قد صَحَّ عُذْرُ الناظرِ المفتونِ
فضلُ الهواء وصحةُ الماءِ الذي ... يجري بها وسلامةُ المخزونِ
سَحَّتْ عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ ... للمزنِ هاميةِ الغمامِ هَتُونِ
فاحمرَّ خَدُّ الوردِ بينَ أباطحٍ ... وَافْتَرَّ ثَغْرُ الزهرِ بين غصون
ولقد كفاها شاهدًا مهما ادَّعَتْ ... قَصَبَ السباق القربُ من زرهون
جبلٌ تضاحكتِ البروقُ بجوِّهِ ... فبكتْ عِذَابُ عيونِهِ بعيونِ
وكأنما هو بربريٌّ وافد[3] ... في لوجهِ والتينِ والزيتون
حُيِّيْتَ مِنْ بلدٍ خصيبٍ أرضُهُ ... مَثْوَى أمانٍ أو مُناخ أَمُونِ
وضفتْ[4] عليك من الإله عنايةٌ ... تكسوك ثوبَيْ أمنةٍ وسكون

وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال[5]: مكناسة مدينة أصيلة، وشُعَب للمحاسن وفضيلة، فضّلها اللّه تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، فجانبُها مَرِيع[6]، وخيرها سريع، ووضعها له في فقه[7] الفضائل تفريع، اعتدل فيها الزمان،

---

(١) يسامتُها: يقابلها. لسان العرب (سمت).
(٢) المنبجس العيون: المتفجّر المياه. لسان العرب (بجس).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢١٣): «فاقدٌ».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٥٧): «وضعت إليك..».
(٥) النص في مشاهدات لسان الدين (ص ١٠٩).
(٦) المريع: الخصيب. لسان العرب (رعى).
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٥٧): «قُنّة». والقُنّة: أعلى مكان في الجبل. لسان العرب (قنن).

وانسدل الأمان، وفاقت الفواكِهَ فواكهُها ولا سيما الرمان، وحفظ أقواتها الاختزان، ولطفت فيها الأواني والكيزان، ودنا من الحضرة جوارها، فكثر قصّادها من الوزراء وزُوّاها، وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء.

ويعني بالحضرة مدينة فاس المحروسة، لأنها إذ ذاك كرسيّ الخلافة، ومكناسة مقرُّ الوزارة، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة.

قلت: دخلت مكناسة هذه مرارًا عديدة، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت في زمان لسان الدين بن الخطيب جديدة، واستولى عليها الخراب، وتكدر منها بالفتن الشراب، وعاث في ظاهرها الأعراب، وفي باطنها سماسرة الفتنة العائقة عن كثير من الآراب، حتى صار أهلها حزبين، لبِسَ كثير من أهلها ثياب البعد عنها والبين، واللّه تعالى يَجْبُر حالها، ويعقب بالخصب إمحالها، ويرحم اللّه تعالى ابن جابر إذ قال: [الكامل]

لا تُنْكِرَنَّ الحُسْنَ من مكناسةٍ   فالحُسْنُ لم يبرحْ بها معروفا
ولئن مَحَتْ أيدي الزمانِ رسومَها   فلربما أبقت هناكَ حروفا

على أنَّ ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى للمحاربين واللصوص، ومثوى للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب على العموم والخصوص، ولذلك يقول لسان الدين رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

مكناسةٌ حُشِرَتْ بها زُمَرُ العِدا   فمدى بريدٍ فيه ألفُ مَرِيدِ(١)
من واصلٍ للجوعِ لا لرياضةٍ   أو لابسٍ للصوف غير مُرِيدِ(٢)
فإذا سلكتَ طريقَها متصوّفًا   فانْوِ السلوكَ بها على التجريد

وما أشار إليه رحمه اللّه تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القُدْمىٰ والجديدة أشار به إلى زاويتين بَناهما السلطان أبو الحسن المَرِيني الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس، وكان بنى الزاوية القدمىٰ في زمان أبيه السلطان أبي سعيد والجديدة حين تولّى الخلافة، وله في هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين عدّة آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها، ومن أجلِّ مآثره بها المدرسة الجديدة، وكان قَدَّم للنظر على بنائها

---

(١) المَريد، بفتح الميم: المتمرّد. لسان العرب (مرد).
(٢) المُريد، بضم الميم: لفظ من اصطلاح الصوفية، بمعنى التلميذ.

قاضيه على المدينة المذكورة، ولما أخبر السلطان بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراها، فقعد على كرسيّ من كراسي الوضوء حَوْل صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمّنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرّقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها، وأنشد: [الرجز]

لا بأسَ بالغالي إذا قِيلَ حَسَنْ   ليس لما قَرَّتْ به العينُ ثَمَنْ

وهذا السلطان أبو الحسن أشهر ملوك بني مَرِين، وأبعدهم صيتًا، وكان قد ملك رحمه اللّٰه تعالى المغربَ بأسره وبعض الأندلس، وامتدَّ ملكه إلى طرابلس الغرب، ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقية، فغدره بنو عبد الوادّ الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان، وانتهزوا الفرصة فيه، وهربوا إلى الأعراب عند المُصَافّة، فاختلّ مصافه، وهُزم أقبح هزيمة، ورجع إلى تونس مغلوبًا، وركب البحر في أساطيله، وكانت نحو الستمائة من السفن، فقضى اللّٰه تعالى أن غرقت جميعًا، ونجا على لوح، وهلك مَنْ كان معه من أعلام المغرب، وهم نحو أربعمائة عالم[1]، منهم السطي شارح الحوفي، وابن الصباغ الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث «يا أبا عمير، ما فعل النُّغير»[2] أربعمائة فائدة.

قال الأستاذ أبو عبد اللّٰه بن غازي رحمه اللّٰه تعالى: حدّثني بعضُ أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابنَ الصباغ المذكور سُمِع بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه: [الكامل]

يا قلبُ، كيف وقعتَ في أشراكهمْ   ولقد عهدتُكَ تحذرُ الأشراكا
أرِضًى بذلّ في هَوًى وصبابةٍ؟   هذا لعمرُ اللّٰه قد أشقاكا

ومات رحمه اللّٰه تعالى غريقًا في أسطول السلطان أبي الحسن المريني على ساحل تَدْلس[3] هو والفقيه السطي والأستاذ الزواوي وغير واحد في نكبة السلطان أبي الحسن المعروفة.

---

(١) عرّف ابن خلدون في كتاب «التعريف بابن خلدون» ببعض من كان في صحبة أبي الحسن المريني من العلماء. وتحدث عن ابن الصباغ في الكتاب نفسه (ص ٤٥) فانظره.

(٢) النُّغَيْرُ: تصغير نغر وهو طائر أحمر المنقار. وما بين شولتين حديث قاله النبي ﷺ لأبي عمير أخي أنس بن مالك. لسان العرب (نغر).

(٣) تَدْلس: مدينة بحرية على ساحلِ الجزائر، تبعد عن بجاية تسعين ميلاً. الروض المعطار (ص ١٣٢).

ومن نظم ابن الصَّباغ المذكور في العلاقات المعتبرة في المجاز وفي المرجحات له قوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

يا سائلاً حَصْرَ العلاقاتِ التي وضْعُ المجازِ بِها يَسُوغ ويجملُ
خُذْها مرتَّبةً وكلُّ مقابلٍ حكم المقابل فيه حقًّا يحملُ
عن ذكر ملزومٍ يعوّض لازمٌ وكذا بعلَّته يُعَاض معلَّلُ
وعن المُعَمَّم يستعاضُ مخصَّصٌ وكذاك عن جزءٍ ينوبُ المكمل
وعن المحلِّ ينوبُ ما قد حَلَّهُ والحذف للتخفيف ممَّا يسهل
وعن المُضَاف إليه نابَ مُضَافه والضدُّ عن أضداده مُسْتَعْمَلُ
والشبهُ في صفةٍ تبينُ وصورةٍ ومن المُقَيَّد مُطْلَقٌ قد يُبْدل
والشيءُ يُسْمَى باسم ما قد كانه وكذاكَ يُسْمَى بالبديل المبدَلُ
وضَعِ المجاورَ في مكانةِ جارِهِ وبهذه حكمُ التعاكسِ يكمل
واجعلْ مكان الشيء آلَتَه، وجيء بمنكَّرٍ قَصْدَ العموم فيحصلُ
ومُعَرّفٍ عن مطلقٍ وبه انتهتْ ولجلِّها حكمُ التداخل يشمل
وبكثرةٍ وبلاغةٍ ولزومه لحقيقةٍ رجحانُهُ يتحصّلُ

انتهى كلام شيخ شيوخنا الإمام أبي عبد اللّه محمد بن غازي رحمه اللّه تعالى!.

وقد حكىٰ ابنُ غازي المذكور عن شيخه القوري عن شيخه ابن جابر أنَّ ابن الصباغ المذكور اعترض على القاضي ابن عبد السلام التونسي، قال: لما لقي ابن الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة مسألة لم ينفصل عن واحدة منها، بل أقرَّ بالخطإ فيها، إذ ليس ينبغي اتّصاف بالكمال، إلاَّ لربي الكبير المتعال؛ انتهى.

وذكر الشيخ أبو عبد اللّه الأبِّي رحمه اللّه تعالى في «شرح مسلم» عند تكلّمه على أحاديث العين ما معناه أنَّ رجلاً كان بتلك الديار معروفًا بإصابة العين، فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين، وكانت كثيرة نحو الستمائة، فنظر إليها الرجل العائن، فكان غرقها بقدرة اللّه الذي يفعل ما يشاء، ونجا السلطان بنفسه[1]، وجرت عليه محن، واستولى ولده السلطان أبو عنان فارس على ملكه، وكان

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢١٦): «برأسه».

خَلَّفه بتلمسان، ولم يزل في اضطراب حتى ذهب إلى سجلماسة، ومنها خلص إلى جبل هنتانة قرب مراكش، فذهب إلى حربه ابنُه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه، وأناخ على الجبل بكَلْكله، ولم تَخْفر أهلُ هنتانة جوارَه لديهم، ولا كبيراهم عامر بن محمد وأخوه، وصبروا على الحصار، وخراب الديار، وحرق الأماكن، حتى مات هناك رحمه اللّه تعالى ونُقل بَعْدُ إلى شالة سلا مدفن أسلافه، ومَنْ أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب ابن مرزوق الذي ألّفه فيه وسمّاه «المسند الصحيح الحسن، من أحاديث السلطان أبي الحسن».

ولَمَّا ذهب لسانُ الدين بن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور، وقد ألمَّ بذكر ذلك في «نفاضة الجراب» إذ قال: وشاهدت بجبل هنتاتة محلّ وفاة السلطان المقدّس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه اللّه تعالى! حيث أصابه طارق الأجل، الذي فَصَل الخطّة، وأصمت الدعوة، ورفع المنازعة، وعاينته مرفَّعًا عن الابتذال بالسكنى مفترشًا بالحصباء، مقصودًا بالابتهال والدعاء، فلم أبرح يوم زيارة محلّ وفاته أنْ قلت[(١)]: [الكامل]

يا حُسْنها من أرْبَعٍ[(٢)] وديارِ	أضحتْ لباغي الأمن دارَ قرارِ
وجبالِ عِزّ لا تَذِلُّ أُنوفُها	إلاّ لِعِزِّ الواحدِ القهّار
وَمَقرِّ توحيدٍ وأُسِّ خلافةٍ	آثارُها تُنبي عن الأخبار
ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنهارَ الندى	تجري بها في جملة الأنهار
ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنوار الحِجَا	تلتاح في قُنَن وفي أحجار
مَحُتْ[(٣)] جوانبها البرود، وإن تكنْ	شَبَّتْ بها الأعداءُ جَذْوَةَ نار
هَدَّتْ بِناها في سبيل وفائها	فكأنها صَرْعى بغير عُقار
لما توعّدها على المجد العِدَا	رضيتْ بعَيْثِ النار لا بالعار
عمرتْ بِجِلَّةِ عامرٍ وأعزَّها	عبدُ العزيزِ بمرهفٍ بتّارِ[(٤)]

(١) القصيدة في نفاضة الجراب (ص ٥٢ ـ ٥٤) ومشاهدات لسان الدين (ص ١٢٨ ـ ١٣٠) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

(٢) الأربع: جمع ربع وهو المنزل. لسان العرب (ربع).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٦٢): «مَجَّتْ».

(٤) في نفاضة الجراب: «بحلة عامر». والمرهف: السيف الحادّ. البتّار: القطّاع. لسان العرب (رهف) و (بتر).

فرسا رِهانٍ أحرزا قَصَبَ الندى | والبأسَ في طَلَقٍ وفي مضمار
وَرِثَا عن النَّدْبِ الكبير[1] أبيهما | مَحْضَ الوفاء ورفعةَ المقدار
وكذا الفروعُ تطولُ وهي شبيهةٌ | بالأصل في وَرَقٍ وفي أثمار
أزرتْ وجوه الصِّيدِ من هنتانةٍ | في جَوِّها بمطالعِ الأقمار
للَّه أيُّ قبيلةٍ تركتْ لها الـ | نظراءُ دَعْوَى الفخر يومَ فخار
نصرتْ أميرَ المسلمينَ وملكُهُ | قد أسلَمَتْهُ عزائمُ الأنصار
وارَتْ[2] عليًّا عندما ذهبَ الردى | والروعُ بالأسماع والأبصار
وتخاذلَ الجيشُ اللُّهامُ وأصبحَ الـ | أبطالُ بين تقاعدٍ وفرارِ
كُفِرَتْ صنائعُهُ فيمَّمَ دارَها | مُسْتَظْهِرًا منها بعزِّ جوار
وأقامَ بين ظهورها لا يتّقي | وَقْعَ الرَّدَى وقد ارتمى بِشَرار
فكأنها الأنصارُ لمّا أَنَسَتْ[3] | فيما تقدَّم غربةَ المختار
لَمّا غَدَا لحظًا وهُمْ أجفانُهُ | نابتْ شفارُهُمُ عن الأشفارِ[4]
حتى دعاهُ اللَّهُ بين بيوتهم | فأجابَ ممتثلاً لأمرِ الباري
لو كان يُمْنَعُ من قضاء اللَّه ما | خَلَصَتْ إليه نوافذُ الأقدار
قد كان يأملُ أن يكافىءَ بعض ما | أَوْلَوْهُ لولا قاطعُ الأعمار
ما كان يقنعُهُ لوِ امتدَّ المَدَى | إلاَّ القيامَ بحقِّها من دار
فيعيدُ ذاكَ الماءَ ذائبَ فِضَّةٍ | ويعيدُ ذاكَ التُّرْبَ ذوبَ نُضار
حتى تفوزَ على النوى أوطانُها | من ملكِهِ بجلائلِ الأوطار[5]
حتى يلوحَ على وجوه وجوههم | أثرُ العناية[6] ساطعَ الأنوار
ويسوّغَ الأملَ القصيَّ كِرامُها | من غير ما ثُنْيَا[7] ولا استعصارِ
ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى | عن دِرْهَمٍ فيهم ولا دينار

---

(١) في نفاضة الجراب: «الكريم».
(٢) في نفاضة الجراب ومشاهدات لسان الدين: «آوت».
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٦٢): «لمّا أنْ سَمَتْ». وفي نفاضة الجراب: «لمّا آنستْ».
(٤) الشفار: أجفان العيون. الأشفار: السيوف. لسان العرب (شفر).
(٥) الأوطار: جمع وَطَر وهو القصد والغرض. لسان العرب (وطر).
(٦) في نفاضة الجراب ومشاهدات لسان الدين: «الرعاية».
(٧) الثُّنيا: الاستثناء. لسان العرب (ثنا).

أو أن يُتَوَّجَ أو يُقَلَّدَ هامُها ونحورها بأهِلَّةٍ[1] ودراري
حَقٌّ على المولى ٱبْنِهِ إيثارُ ما بذلوه من نصرٍ ومن إيثار
فلمثلها ذُخِرَ الجزاءُ، ومثلُهُ مَنْ لا يُضيعُ صنائعَ الأحرار
وهو الذي يقضي الديون وبِرُّهُ[2] يرضيهِ في علنٍ وفي إسرارِ
حتى تُحجَّ محلَّةٌ رفعوا بها عَلَمَ الوفاء لأعينِ النُّظّار
فيصير منها البيتُ بيتًا ثانيًا للطائفين إليه أيَّ بِدَار
تُغْنِي قلوبُ القومِ عن هَدْيٍ به ودموعُهُمْ تكفي لرمي جِمار
حُيِّيتِ من دارٍ تَكفَّلَ سعيها الـ ـمحمود بالزُّلْفَى وعُقْبى الدار
وضَفَتْ[3] عليكِ من الإله عنايةٌ ما كَرَّ ليلٌ فيكِ إِثْرَ نهارِ

ويعني بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن.

ومن العجائب أنَّ الرئيس عامر بن محمد الذي جرى في هذه الأبيات ذكره كان يؤمل بإيوائه للسلطان أبي الحسن ونُصْرته له وعدم إخفار ذمّته فيه أن ينال من أولاده الملوك بذلك عزًّا مستطيلاً ورياسة زائدة على ما كان فيه، فقضى اللّٰه تعالى أن كان حتفه على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، إذ نازله بجنوده، وحاصرهُ بمعتقله، حتى استولى عليه وقَتَلهُ، حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضي القضاة أبو زيد عبدُ الرحمن ابن خلدون الحضرمي المغربي نزيل مصر في تاريخه الكبير الذي سمّاه بـ «كتاب العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» فمن شاء فليراجعه ثَمّة.

وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاني المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على اللّٰه أبي الفضل محمد ابن أخي السلطان عبد العزيز المذكور، فكان من قتله ما ذكر، واللّٰه غالب على أمره.

ولنرجع إلى ما كنا فيه من نثر لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّٰه تعالى ورضي[4] عنه! فنقول:

(١) في نفاضة الجراب: «بإهالة».
(٢) في المصدر نفسه: «ومثله».
(٣) في المصدر نفسه: «وضَعَتْ».
(٤) كلمة «ورضي» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢١٩).

ومن كلام لسان الدين رحمه اللّه تعالى في كتابه «أعمال الأعلام»[1] ما صورته: وفي غرضي إذا منَّ اللّه تعالى بانفراج الضيقة الوقتيّة، ومُعاودة الأزمان الهنيّة، والنصبة النقيّة، أن نصنّف في التاريخ كتابًا مبنيًا على التطويل، مستوعبًا للكثير والقليل، نسميه «بضاعة المهولين، في أساطير[2] الأوّلين» يكون هذا الكتاب بالنسبة إليه الحصاة من الرمال، والقَطْرة من الغيث المثنال[3]، بإعانة ذي القدرة والجلال»؛ انتهى.

ومن كلامه رحمه اللّه تعالى: فما استبعد المرام، مَنْ قصد الكرام، وما فقد الإيناس، من أمَّلَ الناس، انتهى.

وقد سلك لسانُ الدين رحمه اللّه تعالى في كثير من كتبه كـ «الكتيبة الكامنة» و «التاج المحلّى» و «الإكليل الزاهر» وغيرها تحليةَ الأعلام، من حملة السيوف والأقلام، بالكلام المسجَّع الآخذ بخطِّه من الإتقان على طريقة صاحب «القلائد» و «المطمح» أبي نصر الفتح ابن عبيد اللّه المدعو بابن خاقان بليغ الأندلس غير مدافَع، وعلى نهج مُبَاريه ابن بَسَّام صاحب «الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة» وهو كتاب ينبغي أن يُراجَع، وقد رأيت أن آتي بشيء من كلام لسان الدين فيما ذكر، ونُلمّ بعد تحليته بالتعريف بحال مَنْ حلاه من الأعلام، بحسب ما مَنَّ به ويسّره لي الملك العلاّم، سبحانه وتعالى، فنقول:

قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى في بعض كتبه في وصف بعض من عرّف به ما نصُّه: أي نفس صافية من الكدر، وصَدْر طيّب الوِرْدِ والصَّدَر[4]، ودَوْحة عهد تَنْدَى أوراقها، ومِشْكاة فضل يستطلع إشراقها، تمسك برضاع الكأس، يرى ذلك من حسن عهده، وقسم لحظاته بين آس الرياض ووردِه، فلمّا حوَّم حَمَامُه للوقوع، وكاد يقوّض رَحْلَه عن الربوع، وشعر بحبائل المنية تعتلقه، وسَرَعانِ خيل الأجَلِ ترهقه[5]، أقلع عن فَنِّه، وأمر بسفك دَنِّه، ولجأ إلى اللّه تعالى بأَوْبَته[6]، وضرع إلى اللّه تعالى في قبول توبته

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٦٤): «إعلام عمال الأعلام».
(٢) في الطبعة نفسها: «أساطين».
(٣) المثنال: المنهمر. لسان العرب (ثيل).
(٤) الوِرْدُ: القدوم على الماء للسقيا منه. الصَّدَرُ: الرجوع عن الماء. لسان العرب (ورد) و (صدر).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٦٥): «تزهقه».
(٦) الأَوْبَةُ: العودة. لسان العرب (أوب).

وغفران حَوْبته[1]، فكان ذلك عنوان الرضا، وعلامة عفو اللّه تعالى عمّا مضى، دخلت عليه في مرضه، وأشرْتُ باستعمال الدواء المسمّى بلحية التيس عند الأطباء، فاستعمله، فوجد بعض خفة.

وقال في آخر[2]: كثيف الحاشية، معدود في جنس السائمة والماشية، تُليت على العمال به سورة الغاشية، تولّى الأشغالَ السلطانية فَذُعرتِ الجُباة لولايته، وقامت قيامتهم لطلوع آيته، وقنطوا كلّ القنوط، وقالوا: جاءت الدابة تكلّمنا وهي إحدى الشروط، من رجلٍ صائم الحُشْوة، بعيد من المصانعة والرشوة، يتجنّب الناس، ويقول عند المخاطبة: لا مِسَاس، وعلى مسافة نَجْهِه[3]، وتجهُّم وجهه، فكان خالطًا إساءتَه بإحسانه، مشتغلاً بشانه[4]، غاضًا من عنان لسانه، عهدي به في الأعمال يقدِّر فيها ويدبّر، ويرجّح ويعبّر، ويُخبط ويتبُر، وهو مع ذلك يكبّر، ويحسّن من الأزمنة ويقبّح، وهو يسبّح، ولما شرع في البحث والتنقير، والمحاسبة على القِطْمير والنَّقير، أتاه قاطع الأجل، فَخَنَّ ركابه فأقضى العجل، وصدرت عنه أبيات خَضَم فيها وقَضَم، وحصل تحت القدر المشترك مع من نظم.

وقال في آخر: كركدن[5] حَلْبة الآداب، وسِنَّور عبد اللّه بيع بقيراطٍ لَمّا شاب[6]، هام بوادي الشعر مع مَنْ هام، واستمطر منها الجَهام[7]، فجاء بأبيات أَوْهَى من بيت العنكبوت نسجًا، ومقاصد لا تبين قصدًا ولا نَهْجًا، وله بيت معمور بقضاةٍ أكابر، فرسان أقلام ومحابر، وعمال قادوا الدهر بأزمّة أزمّتهم، وفرعوا الزهر[8] بهمّتهم، وتكاثرت علية

---

(١) الحَوْبَةُ: الذنب والإثم. لسان العرب (حوب).

(٢) هو محمد بن أحمد بن المتأهل العبدري كما في الإحاطة (جـ ٣ ص ٢١٧ ـ ٢١٨) حيث ورد نص الترجمة.

(٣) نَجَهَهُ نَجْهًا: ردّه عن حاجته أقبح ردّ، أو استقبله بما يكره. لسان العرب (نجه).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٦٦): «بساته».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٢١): «كودن».

(٦) يشير إلى قول أحدهم: [الطويل]

كَسِنَّوْرِ عبد اللّه بِيْعَ بدرهمٍ صغيرًا، فلمّا شبَّ بِيع بقيراطِ

الحيوان (جـ ٥ ص ٣١٥).

(٧) الجَهام، بالفتح: السحاب الذي لا مطر معه. لسان العرب (جهم).

(٨) الزهر: جمع زهراء وهي النجمة المنيرة، وفرعوا الزهر: علوها وارتفعوا فوقها. لسان العرب (زهر)، و (فرع).

رحمه اللّه الإحَن، وتعاورته المِحَن، وتصرّف آخر عمره في بعض الأعمال المخزنية فتعلّل بنَزْر القوت، إلى الأجل الموقوت.

وقال في آخر: معدود في وقته من أدبائه، ومحسوب في أعيان بلده وحُسَبائه، كان رحمه اللّه تعالى من أهل العدالة والخير، سائرًا على منهج الاستقامة أحْسَن السَّيْر، وله أدب لا يقصر عن السداد، وإن لم يكن بطلاً فمن يكثر السواد، قد أثبتُّ له ما عثرت عليه، مِمّا ينسب الناس إليهَ.

وقال في آخر: معتر غير قانع، ومنجع كلّ شهم وخانع، نشأ ببلده مالقة أبرع من أورد اليَرَاعة في نِقْس[١]، وهزَّ غصنها في روضة طِرْس[٢]، إلاَّ ما كان من سخافة عقله، وقعوده تحت المثل «اخْبُرْ تَقْلِهْ» لا يرتبط إلى رتبة، ولا ينتمي إلى عُصْبة، ولا يتلبّس بسَمْت، ولا يستقيم من أَمْت[٣]، أخبرني مَنْ عُني بخبره، وذكر عِبَرِه، من صِباه إلى كبره، أنه رشح في بعض الدول، وعرض لاكتساب الخيل والخَوَل، وخُلعت عليه كسوة فاخرة، وشارة بزهر الرياض ساخرة، فانقاد طَوْعَ حرمانه، ونبذ صَفْقَة زمانه، وحملَهُ فرطُ النَّهَم، على أن ابتاع في حجره طعامًا كثير الدَّسَم، وأقبل وأذياله منه تقطر، كما اختلفت باللبن الأشطر، فطُرد ونُبذ، وطُرح بعد ما جُبذ، لقيته بمالقة وقد قلب له زمانُه عينيه، وسقط في يديه، فانتابني بأمداحه، وتعاورني بأُجاجه وقَراحه[٤].

وقال في آخر: أديبٌ نارُ فكرهِ تتوقّد، وأريبٌ لا يُعْتَرض كلامه ولا يُنْقَد، أمّا الهَزْلُ فهو طريقته المُثْلَى، ركض في ميدانها وجَلَّى[٥]، وطلع في أُفقها وتجلَّى، فأصبح عَلَمَ أعلامها، وعابرَ أحلامها، إن أخذ بها في وصف الكاس، وذكر الورد والآس، وألَمّ بالربيع وفَصْله، والحبيب ووصله، والروض وطيبه، والغَمام وتقطيبه، شَقَّ الجيوبَ طَرَبًا، وعلَّ النفوس شربًا وضَرَبًا، وإن ابتغى لاعتلال العشيّة، في فرش الربيع المَوْشِيّة، ثم تعدّاها إلى وصف الصَّبوح، وأجهز على الزقّ المجروح، وأشار إلى نغمات الوُرْق، يرفلْنَ في الحلل

---

(١) النِّقْسُ: الحبر. لسان العرب (نقس).
(٢) الطِّرْسُ: الصحيفة. لسان العرب (طرس).
(٣) الأَمْتُ: الاعوجاج. لسان العرب (أمت).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٦٧): «وأقراحه».
(٥) جَلَّى: سبق. لسان العرب (جلى).

الزُّرْق، وقد اشتعلت في عنبر الليل نارُ البرق، وطلعت بنودُ الصباح في شرفات الشرق، سَلَب الحليم وقاره، وذَكَّر الخليعَ كأسَه وعقاره، وحرّك الأشواق بعد سكونها، وأخرجها من ركونها، بلسان يتزاحم على موارد الخيال، ويتدفّق من حافاته الأدب السَّيّال، وبيان يقيم أوَدَ[1] المعاني، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المباني، ويكسو حُلَل الإحسان جسوم المثالث والمثاني، إلى نادرة لمثلها يُشار، ومحاضرة يُجْنَى بها الشهد ويُشار[2]، وقد أثبتُّ من شعره المعرب وإن كان لا يتعاطاه إلاَّ قليلاً، ولا يجاور إلاَّ تعليلاً، أبياتًا لا تخلو من مسحة جمال على صفحاتها، وهَبَّة طيب يَنِمُّ في نفحاتها.

وقال أيضًا في آخر: ظريفُ السجيّة، كثير الأريحيّة، ارتحل من لورقة فتحها اللّٰه تعالى واتّخذ ألمرية دارًا، وألِفَ بها استقرارًا، إلى أن دعاه بها داعيه وقام فيها ناعيه.

وقال في وصف آخر: شيخ أخلاقُهُ ليّنة، ونفسه ـ كما قيل في نفس المؤمن ـ هَيِّنة، ينظم الشعر عَذْبًا مَساقُه، محكمًا اتّساقُه، وحال ما لها من إفاقة، أنشد المقام الكريم بظاهر بلدِهِ قصيدةً استغرب منها منزعها[3]، واستعذب من مثله مشرعها.

وقال في آخر: من أئمة أهل الزمام، خليق برَعْي الميثاق والذِّمام، ذو خطّ كما تفتَّح زهرُ الكِمام، وأخلاق أعْذَب من ماء الغمام، كان ببلده رحمه اللّٰه تعالى بدار إشرافه محاسبًا، ودرّة في لجّة الإغفال راسبًا، صحيح العَمَل، يُلْبس الطروس من براعته حُسْنَ الحلل، وله شعر لا بأس به، ولا خفاء بفضل مذهبه.

وقال في آخر: خير من استبق إلى داعي الفلاح استباقًا، وانتمى إلى القوم الذين هم في الآخرة أطْوَلُ أعناقًا، وإن كانوا في الدنيا أضيق أرزاقًا، مردّد أذكار، ومُسَبِّح أسحار، وعامر مئذنة ومَنار، كان ببلده مؤذنًا بجامعها، ومؤقتًا بأم صوامعها، ومعتبرًا فيمن كان بها من السَّدَنَة، ومن مثله قوله: فكأنما قَرَّبَ بدنَة، وله لسان مخيف، وشعر سخيف، توشّح بحليته، وجعله وسيلة كُدْيته.

وقال في آخر: عظيم الهيئة حسن اللقاء، أغرب في حسن المداراة من العَنْقَاء، استمرّ عمره للحكم، وصبر على حجج الصُّم والبكم، وأفرط في هَشَّته وهزته، وتنزل عن نخوة

---

(١) الأَوَدُ، بالفتح: الاعوجاج. لسان العرب (أود).

(٢) يُشار العسل: يُجْنى. محيط المحيط (شور).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٦٨): «مترعها».

القضاء وعزّته، وله سلف في القضاء عالي المَراقب، مُزَاحِم للنجم الثاقب، وقد أثبتُّ من شعره ما تيسّر إثباته، ونَجَح بروض هذا المجموع نباته.

وقال في آخر: قاضٍ توارث كُلَّ جلالة، لا[1] عن كَلالة[2]، وجمع في العلم الحسب، بين الموروث والمكتسب، أشرق بجيد معمّ في العشيرة مخوِل، وألقت عليه مقاليدَها من منقول ومتأوّل، إلى نزاهة لا تغرها[3] البيضاء ولا الصفراء، وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزّه الإغراء، ووقار يستخفّ الجبال الراسية، ونظر يكشف الظُّلَم القاسية، تولّى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاها، وشام سيوفَ الجزالة وانتضاها[4]، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نَضاها، وسلك الطريقَ التي اختارها السلفُ وارتضاها، فاجتمعت الأهوال المفترقة عليه، وصَرَفَ الثناء أعنّة الألسن إليه، ثم كَرَّ إلى بلده، واستقرَّ خطيبًا بقرارة أهله وولده.

وقال في آخر: مُنْتَمٍ إلى معرفة، متّصف من الذكاء بأحسن صفة، أقرأ ببلده علم اللسان، وما حاد عن الإحسان، وعانَى الشعر فنظم قوافيه، وما تكلّف فيه، وعلى غزارة مادته، ووُضوح جادّته، فشعره قليل البشاشة، ذاهبُ الحُشاشة، وذو الإكثار، كمثل العثار، وله سلف يخوض في الحقائق، وينتحل بعض الكلام الرائق.

وقال في آخر: مُنْتَمٍ لدين وعفّة، وإلى نَفْسٍ بالعَرَضِ الأدنى مُسْتَخِفة، مِمَّن نزع إلى سلوك ورياضة، ويفيض في طريق القوم بعض إفاضة.

وقال في آخر: مِمَّنْ يتشوف[5] إلى المعارف والمَقَالات، ويرتاح إلى الحقائق والمحالات، ويشتمل على نفس رقيقة، ويَسيرُ من تعليم القرآن على خير طريقة، ويُعَاني من الشعر ما يشهد بنُبْله، ويُسْتطرف من مثله.

وقال في آخر: مُشَمِّرٌ في الطلب عن ساق، مثابر على اللحاق بدرجات الحُذَّاق، منتحل للعربية جادّ في إحصاء خِلافها، ومُعاطاة سُلافها، وربما شرست في المذاكرة

---

(١) كلمة «لا» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٢٤).

(٢) الكلالة: ما كان من القرابة غير الآباء والأبناء. لسان العرب (كلل).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٦٩): «تعزها».

(٤) شام السيفَ: أغمده أي أدخله في غمده. وانتضاه: استلّه. لسان العرب (شيم) و (نضا).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٢٥): «يتشوق».

أخلاقه، إذا بُهْرِجت أعلاقه[1]، ونُوزعَ تمسّكه بالحجة واعتلاقه، ورحل إلى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه، ثم راجع أوطانه.

وقال في آخر: مُنْتَمٍ إلى زهد، باذل في التماس الخير الجهد، نظمه لا يخلو من حَلاوة، ومَعَانيه في طريقه عليها بعض طُلاوة.

وقال في آخر: كاتب سجلات لا يساجَلُ في صحة فصولها، وتوقيع فروعها على أصولها، وكلّما طلب بالنظم القريحة، وأعمل الفكرة الصريحة، مع إقلاله، وعدم استعماله، أجابت ولَبَّتْ، وتنسّمت رياحُها وهَبَّتْ.

وقال رحمه اللّه تعالى وسامحه في بعض العدول الصوفية الأخيار، الذين وحدوا اللّه وفَنُوا عن سائر الأغيار: خير عدل، ومِمَّنْ له وقار وفضل، مُتَّسم بخيره[2]، عرض عن غيره، مشتمل بصفات مرضية، مُلمّ[3] بالنظم في الطريقة الصوفية.

وللسان الدين رحمه اللّه تعالى رَكْض في هذا الميدان لا يُجارى فيه، وثبوت فضل لا يستند إلى دليلٍ جاحدُه ونافيه.

وقال رحمه اللّه تعالى في كتابه «التاج المحلّى، في مساجلة القِدْح المعلّى» في ترجمة محمد بن عبد اللّه بن محمد بن لب الأمي المربي[4]، ما صورته: «لُجُّ معرفة لا يَغِيض[5]، وصاحب فنون يأخذ فيها ويُفيض. نشأ ببلده مشمِّرًا عن ساعد اجتهاده، وسائرًا في قُنَن[6] العلم ووهاده، حتى أينع رَوْضُه، وفَهَق[7] حوضه، ثم أخذ في راحة[8] ذاته،

---

(١) بُهْرِجت: زُيِّفَتْ وأظهرت عدم رواجها. الأعلاق: جمع علق وهو الشيء الثمين الذي يضنّ به الإنسان. لسان العرب (بهرج) و (علق).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٢٥): «بخير، معرض عن غير..».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٧٠): «يُلمُّ»..

(٤) في طبعة عبد الحميد: «المريني» وترجمة محمد بن عبد اللّه بن لب الأمي في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٣٣) والكتيبة الكامنة (ص ٨٨) وبغية الوعاة (ص ٦٠) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ١٠٣). والنص في الإحاطة (ص ٤٣٤).

(٥) لا يغيض: لا ينضب. لسان العرب (غيض).

(٦) القُنَنُ: جمع قنّة وهي القمّة. لسان العرب (قنن).

(٧) فَهَقَ: امتلأ. لسان العرب (فهق).

(٨) في الإحاطة: «إراحة».

وشام بارقَ[1] لذّاته، ثم سار في البطالة سير الجَمُوح، وواصل الغَبُوق بالصَّبُوح، حتى قضى وَطَرَه، وسئم بطره، وركب الفُلْك، وخاض اللُّجَجَ الحُلْك، واستقرّ بمصر على النعمة العريضة، على شكّ في قضاء حجة الفريضة[2]، وهو اليوم[3] بمدرستها الصالحية نبيهُ المكانة، معدود في أهل العلم والديانة»؛ انتهى.

وقال في «الإحاطة» في حقّ المذكور ما نصُّه[4]: من خطِّ شيخنا أبي البركات في الكتاب «المؤتمن، على أنباء أبناء الزمن»: كان سهلاً سَلِسَ القياد، لذيذ العشرة، دَمِثَ الأخلاق، ميّالاً إلى الدَّعة، نفورًا عن النَّصَب، يركن إلى فضل نَباهة وذكاء، يُحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدؤوب على الطلب، من رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف، ولم يكن له صوت رخيم، يساوق[5] انطباعه في التلحين، فجبر[6] ذلك بالأوتار، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما لاذ به الظرفاء منهم، واسْتُعْمل بدار الأشراف بألمرية، فأحكم تلك الطريقة في أقرب زمان، وجاء زمامه يروق مَنْ ذلك العملُ من شأنه. ثم نهضت به همَّتُه إلى أرفع من ذلك، فسار إلى غَرْناطة، فقرأ[7] بها العربية وغيرها، وانخرط في سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة. ثم رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها علّة كان يشكوها، وأخذ في إقراء العربية بها، وعُرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي. قال شيخنا المذكور: ورأى في صغره فأرة أنثى فقال: هذه قرينة، فلقِّب بذلك، وصار هذا اللقب أغلب عليه من اسمه ومعرفته.

ثم قال لسان الدين في حقّ المذكور ما ملخّصُه: إنه قرأ بالحضرة على الخطيب أبي علي القيطاجي وطبقته، وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيان، وانتفع بجاهه، نقل إلينا الحاج الحافظ أبو جعفر بن غصن من شعره حسبما قيّده عنه بمصر[8]: [الكامل]

---

(١) في الإحاطة: «بارقة».
(٢) في الإحاطة: «الحجّة العريضة».
(٣) كلمة «اليوم» غير واردة في الإحاطة.
(٤) الإحاطة (ج ٢ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤).
(٥) يساوق: يجاري ويوازي. لسان العرب (سوق).
(٦) في الإحاطة: «يخبر».
(٧) في الإحاطة (ص ٤٣٤): «وقرأ».
(٨) القصيدة في الإحاطة (ج ٢ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٧) والكتيبة الكامنة (ص ٨٨ ـ ٩٠).

بُعْدُ المزارِ ولوعةُ الأشواق[1] حَكَمَا بفَيْضِ مدامعِ الآماقِ
وخفوقُ نجديِّ النسيم إذا سرى أذكى لهيبَ فؤاديَ الخفّاق
أَمُعَلِّلي أنَّ التواصلَ في غدٍ من ذا الذي لغدٍ فَدَيْتُكَ باقي
إنَّ الليالي سُبَّقٌ إن[2] أقبلتْ وإذا تولّتْ لم تُنَلْ بلحاق
عُجْ بالمطيِّ على الحمى[3]، سُقِيَ الحمى صَوْبَ الغَمامِ الواكفِ الرقراق
فيه لذي القلب السليم ودادةٌ قلبٌ سليمٌ ما له من راقِ[4]
قلبٌ غداةَ فراقهم فارقْتُه لا كان في الأيام يومُ فراقِ[5]
يا ساريًا والليلُ ساجٍ عاكفٌ يَفْرِي الفَلاَ بنجائبٍ ونياقِ[6]
عرِّجْ على مَثْوى النبيِّ محمدٍ خيرِ البريّةِ ذي المقام الراقي[7]
ورسولِ ربِّ العالمين ومَنْ له حفظُ العهودِ وصحَّةُ الميثاق
الظاهرُ الآياتِ قام دليلُها والطاهرُ الأخلاق والأعراقِ
بَدْرُ الهدى وهو الذي آياته[8] وجبينُه كالشمس في الإشراق
الشافعُ المقبولُ مَنْ عَمَّ الورى بالجودِ والإرفاد والإرفاق
الصادقُ[9] المأمونُ أكرمُ مُرسلٍ سارتْ رسالتُه إلى الآفاق
أعلى الكرام نَدًى وأبسطهمْ يدًا قَبَضَتْ عنانَ المجد باستحقاق
وأشدُّ خلقِ اللّهِ إقدامًا إذا حَمِيَ الوطيسُ وشمَّرَتْ عن ساق
أمضاهُمُ والخيلُ تعثرُ في الوغى وتجولُ سَبْحًا في الدَّمِ المهراق
مَنْ صَيَّرَ الأديانَ دينًا واحدًا من بعدِ إشراكٍ مضى ونفاق

---

(١) في الإحاطة: «أشواق».
(٢) في الإحاطة: «قد».
(٣) في الإحاطة: «فصفحٌ تمدّونه على الحمى. .».
(٤) في الكتيبة الكامنة: «السليم وداره لا كان في الأيام يومُ فراق». وفي الإحاطة: «وداده» بدل «ودادةٌ». والسليم هنا: المريض. والراقي: الذي يستعمل الرقية لمداواة المرض. لسان العرب (سلم) و (رقى).
(٥) هذا البيت غير وارد في الكتيبة.
(٦) في الإحاطة: «يفتري للعلا. .». والنجائب: الإبل السريعة. لسان العرب (نجب).
(٧) في الإحاطة: «ذي المنخل البراق». وفي الكتيبة: «ذي المحلِّ الراقي».
(٨) في الإحاطة: «الهدى البادي». وفي الكتيبة: «الهوى البادي الذي آياته. .».
(٩) في الإحاطة والكتيبة: «والصادق».

وأحلّنا مِنْ حُزمةِ الإسلام في ظِـلّ ظـلـيـلٍ وارفِ الأوراق
لـو أنَّ لـلـبدرِ الـمنيرِ كمالَهُ ما ناله كسفٌ ونكسٌ[1] مَحاقِ
لـو أنَّ لـلـبحرين جُودَ يمينِهِ أَمِنَ السفينُ غوائلَ الإيساق[2]
لـو أنَّ لـلآساد شـدَّةَ بـأسـه لَثَنَتْ عن الإنجاد والإعراق[3]
لـو أنَّ لـلآبـاء رحـمـةَ قَـلْـبِـهِ ذابتْ نفوسُهُمُ من الإشفاق[4]
ذو العلم[5] والحلمِ الخفيِّ المنجلي والجاهِ والشرفِ القديمِ الباقي
آيـاتُـهُ شُـهُـبٌ وغُـرُّ بـنـانـه سُـحُـبُ الـنـوالِ تُـدَرُّ بـالأرزاق
ماجتْ فتوحُ الأرض وهو غياثها وربَتْ رُبا الإيمان وهو الساقي[6]
ذو رأفةٍ بـالـمـؤمـنـيـن ورحـمـةٍ هـدًى وتـأديـبٍ بـحـسـنِ سـيـاق
وخصالِ مجدٍ أُفردتْ بالخَصْلِ في مرمى[7] الفخار وغايةِ السُّبّاق
ذو المعجزاتِ الغُرِّ والآيِ التي كـم آيـةٍ فُـقِـدَتْ وهُـنَّ بـواقـي
ثَنَتِ المُعارض حائرًا[8] لمَّا حكتْ فَـلَـقَ الـصـبـاح وكـان ذا إفـلاق
يقظ الفؤادِ سرى وقد هَجَعَ الوَرَى لـمـقـامِ صـدقٍ فـوق ظـهـرِ بُـراق
وسـمـا وأمـلاكُ الـسـمـاءِ تـحـفُّـه حـتـى تـجـاوزهُـنَّ سَـبْـعَ طِـبـاق

ومنها:

يا ذا الذي اتّصلَ الرجاءُ بحبله وانبتَّ من هذا الورى[9] بطلاق
حُبّي إليك وسيلتي وذخيرتي إنـي مـن الأعـمـال ذو إمـلاق[10]

(١) في الكتيبة: «وكشفُ محاق».
(٢) هذا البيت غير وارد في الكتيبة. وفي الإحاطة: «غوايل الإغراقِ».
(٣) هذا البيت غير وارد في الإحاطة والكتيبة.
(٤) في الكتيبة: «أو أنَّ للآباء... ذابت قلوبهم..».
(٥) في الكتيبة: «ذو الحلم والعلم..». وفي الإحاطة: «ذو العلم والخفيّ..».
(٦) في الإحاطة: «فاحت فيوح الأرض.. وهو الشاق».
(٧) في الإحاطة: «مرسى».
(٨) في الإحاطة: «خيرًا».
(٩) في الإحاطة: «للورى».
(١٠) الإملاق: الفقر. لسان العرب (ملق).

وإليكَ أَعْلَمْتُ الرواحلَ ضُمَّرًا تختالُ بين الوَخْد والإعناق [1]
نُجُبًا إذا نشدتْ حُلى تلك العلا [2] تطوي الفلا ممتدَّةَ الأعناق
يَحْدُو بهنَّ من النحيب مُرَدَّدٌ وتقودهنَّ أزِمَّةُ الأشواق
غَرَضٌ إليه فوّقتْنا [3] أسهمًا وهي القسيُّ بُرِينَ كالأفواق
فأنختها بفنائك الرَّحْب الذي وَسِعَ الورى بالنائل الدفّاقِ [4]
وقِرَى [5] مؤمِّلك الشفاعةُ في غدٍ وكفى بها هبةً من الرزّاقِ
وعليكَ يا خيرَ الأنام تحيّةٌ تُحْيي النفوسَ بنشرِها الفتّاق
تتأرَّجُ الأرجاءُ من نَفَحاتها [6] أرَجَ النديِّ بمدحك المِصداق

ومنها [7]:

قَسَمًا بطيبِ ترابِ طَيْبَةَ؛ إنه مِسْكُ الأنوفِ وإثمدُ [8] الأحداقِ
وبشأنِ مسجدها الذي برحابِهِ [9] لمُعَامِلِ الرحمن أيُّ نَفاق
لأجودُ فيه بأدمُعٍ أسلاكُها منظومةٌ بترائب وتراقِ
أغدو بتقبيلٍ على حَصْبائِهِ وعلى كرائمِ [10] جُذْرِهِ بعناق

ومنها:

وعليكَ ذا النُّورَينِ تسليمٌ له نورٌ يلوحُ بصفحةِ المهراق [11]

---

(١) الوَخْدُ والإعناق: ضربان من السير السريع. لسان العرب (وخد) و (عنق).
(٢) في الإحاطة: «نُجبا إذا نشرت تلك الفلا». وفي الكتيبة: «نُجُبًا إذا نَشَرَتْ..».
(٣) في الإحاطة: «فَوّقْتَنا». وفي الكتيبة: «فَوّقْتُها».
(٤) في الإحاطة: «وأنَخْتُها... الدقاق».
(٥) في الإحاطة: «وقوّى».
(٦) في الإحاطة: «لفحاتها».
(٧) الأبيات التالية غير واردة في الكتيبة.
(٨) الإثمد: حَجرٌ يُكْتَحَلُ به. محيط المحيط (ثمد).
(٩) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٢٩): «الذي يرجى به». وفي الإحاطة: «وأثبار مسجده الذي برحابه».
(١٠) في الإحاطة: «وعلى كرام».
(١١) في الإحاطة: «بصفحه المُهْراق». وذو النورين: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، تزوج بنتين من بنات رسول اللّه ﷺ على التعاقب فلقّب بذي النورين.

كفؤ النبيِّ وكفؤ أعلى جَنّةٍ حيزتْ له بشهادةٍ وصداق[١]
وكفاه ما في الفتح جاء ومصحفٌ في الفتح يحمده وفي الإطباق[٢]
وعلى أبي السبطين مَنْ سَبَقَ الأُلى سبقوا إلى الإسلام يومَ سباقِ [٣]
الطاهرُ الطهر اَبن عَمّ المصطفى شرف على التخصيص والإطلاق [٤]
مُبْدِي القضايا من وراء حِجابها ومفتّح الأكمام عن أغلاق [٥]
يغزو العُدَاةَ بغلظةٍ فَيَهُدُّهُمْ بصوارمٍ تفري الفقارَ[٦] رقاقِ
راياتُه لا شيءَ من عقبانها [٧] بمطارِ يومِ وَغًى ولا بمطاق
وعلى كرامٍ ستة عشرت بهمْ عند النظام لآلىء النُّسّاق [٨]
ما بين أروعَ ماجدٍ نيرانُهُ جنحَ الظلامَ تشبُّ للطُّرّاق
وأخي حروب صَدَّهُ رَشقُ [٩] القنا عمّا قدودٍ مثلهنَّ رقاقِ
ما غَرَّدَتْ شَجْوًا مُطَوَّقة وما شَقَّتْ كمامَ الروضِ[١٠] عن أطواقِ
وعلى القرابةِ والصحابةِ كلّهم والتابعينَ لهمْ ليومِ تلاقِ

وذكر في «الإحاطة» غير هذه.

وقال لسان الدين في «التاج» في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي آشي[١١] ما صورته: ناظم أبيات، وموضح غُرَر وشِيَات[١٢]، وصاحب توقيعات وقيعات، وإشارات ذوات شارات، وكان شاعرًا مكثارًا، وجوادًا لا يخاف عثارًا، دخل على أمير بلده المخلوع

---

(١) في الإحاطة: «كفوًا لنبي وكفوًا.. خُيِّرت له..».
(٢) هذا البيت غير وارد في الإحاطة.
(٣) في الإحاطة: «أيّ سبق» وأبو السبطين: هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٧٤): «شرفًا». وفي الإحاطة: «الطاهر الصهر... على التعميم والإطلاق».
(٥) في طبعة دار صدر (جـ ٦ ص ٢٢٩): «أعلاق». وفي الإحاطة: «مبدي القضا..».
(٦) في الإحاطة: «القِفار».
(٧) في الإحاطة: «عقبانها».
(٨) في الإحاطة: «عثرت بهم عند.. ليالي النّسّاق».
(٩) في الإحاطة: «رشف».
(١٠) في الإحاطة: «روض».
(١١) ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي آشي في الدر الكامنة (جـ ٤ ص ١٣٣).
(١٢) الشِّيات: جمع شِيَة وهي العلامة. لسان العرب (وشى)

عن ملكه، بعد انتثار سلكه، وخروج الحضرة عن ملكه، واستقراره بوادي آش مُرَوَّع البال، متعلّلاً بالآمال، وقد بلغه دخول طَبَرْنَش[1] في طاعته، فأنشده من ساعته: [مجزوء الكامل]

خُـذْهـا إلـيـكَ طَـبَـرْنَـشـا   شَـفِّـعْ بـهـا وادي الأَشَـا
والأُمُّ تـأتـي بِـبِـنْـتِـهـا   والـلّـهُ يـفـعـلُ مـا يـشـا

ومن نوادِره العذبة، ما كتبه إليه يطلب منه الحسبة: [الطويل]

أَنِـلْـنـي أيـا خـيـرَ الـبـريّـةِ خـطـةً   تـرفِّـعـنـي قـدرًا وتـكـسـبـنـي عـزًّا
فأعتزُّ في أهلي كما اعتزَّ بَيْدَقٌ[2]   على سفرة الشطرنج لَمَّا انثنى فرزا

فوقع له بما ثبت في ترجمته، انتهى.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد اللّه بن العطار المزني ما صورته: مِمَّن نبغ ونجب، وحقّ له البرّ بذاته ووجب، تحلّى بوقار، وشعشع للأدب كأس عقار، إلاّ أنه اخْتُرِمَ في اقتبال، وأصيب للأجل بنبال؛ انتهى.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن علي بن محمد بن علي بن يحيىٰ بن خاتمة الأنصاري المزني، ما صورته[3]: ممن تُكَلِّتُهُ اليراعة، وفَقَدَتْه البراعة، تأدّبَ بأخيه[4] وتهذّب، وأراه في النظم المذهب، وكساه من التفهُّم والتعليم الرداء[5] المُذَهَّب، فاقتفى واقتدى، وراح في الحَلْبة واغتدى، حتى نَبُلَ وشدا، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى. وأما خطّه فقيد الأبصار، وطُرْفة من طُرَف الأمصار، واعْتُبِطَ[6] يانع الشبيبة، مخضَرَّ الكتيبة. مات عام خمسين وسبعمائة.

---

(١) طَبَرْنَش، بالإسبانية Tabernas، وهي مدينة تقع شرقي ألمرية. مشاهدات لسان الدين (ص ٨٤)
(٢) البيدق: من أحجار الشطرنج. محيط المحيط (بيدق).
(٣) ترجمة ابن خاتمة الأنصاري في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٩١) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٢٠١). والنص في الإحاطة (ص ٤٩١ . ٤٩٢).
(٤) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد، ويعرف أيضًا بابن خاتمة، وترجمته في الإحاطة (جـ ١ ص ٢٣٩).
(٥) في الإحاطة (ص ٤٩٢): «البُرْد».
(٦) اعتبط: مات شابًا. لسان العرب (عبط).

وأورد له في «الإحاطة» قوله[1]: [الرمل]

وَمَضَ البرقُ فثار القَلَقُ ومضى النومُ وحلَّ الأرقُ
مذ تذكّرتُ لأيام خَلَتْ ضمّنا فيها الحمى والأبرقُ[2]
وعَشِيَّاتٍ تَقَضَّتْ باللِّوى في محيًا[3] الدهرِ منها رونقُ
إذ شبابي والتَّصابي جُمِعَا ورياضُ الأنسِ غَضٌّ مُورِقُ[4]
شَتَّ[5] يومُ البَيْنِ شملي ليت ما خُلقَ البينُ لقلبٍ يعشق
آهِ من يومٍ قضى لي فرقةً شابَ مني يومَ حلَّت مَفرِقُ

وقوله[6]: [البسيط]

الرفعُ نَعْتُكُمُ لا خانكمْ أملُ والخفضُ شيمةُ مثلي والهوى دُوَلُ[7]
هل منكُمُ لي عطفٌ بَعْدَ بُعْدِكُمُ؟ إذ ليس لي منكمُ يا سادتي بَدَلُ

قلت: البيت الثاني غاية في معناه، وأمّا الأول فسافل وإنْ أُسِّس على الرفع مبناه، والله أعلم.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري المالقي ما صورتُه[8]: «عَلَمٌ من أعلام هذا الفن، ومُشَعْشِع[9] راح هذا الدنّ، مجموع أدوات، وفارس يراعة ودواة[10]، ظريف المَنْزَع، أنيق المرأى والمسمع، اختصّ بالرياسة فأدار فَلَكَ إمارتها، واتّسم باسم كتابتها ووزارتها، ناهضًا بالأعباء،

(١) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣).
(٢) رواية البيت في الإحاطة هي:
وحسودي من وقودي رقّ لي ضِمْنَنا فيها الحمى والأيفق
(٣) في الإحاطة: «في مخيلي الدهر..».
(٤) في الإحاطة: «مونق».
(٥) شَتَّ: فَرَّقَ. لسان العرب (شتت).
(٦) البيتان في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٩٣) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٢٠١).
(٧) في الإحاطة: «لا خابكم أمل.. شيمة شأني..».
(٨) النص في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٧١ ـ ٣٧٧). وانظر أيضًا الكتيبة الكامنة (ص ١٥٨ ـ ١٥٩) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٢٧١).
(٩) في الإحاطة والكتيبة: «ومشعشعي».
(١٠) كلمة «دواة» غير واردة في الإحاطة.

صاعدًا[١] في درج التقريب والاجتباء، مصانعًا دهره في راح وراحة، آويًا إلى فضل وسماحة، وخصب ساحة، كلّما فرغ من شأن خدمته، وانصرف عن ربِّ نعمته، عقد شِرْبًا[٢]، وأطفأ من الاهتمام بِغَير الأيام حَرْبًا، وعكف على صوتٍ يستعيده، وظَرْفٍ يبديه ويعيده. فلمّا تقلّبت[٣] بالرياسة الحال، وقُوِّضَتْ منها الرحال، استقرّ بالمغرب غريبًا، يقلِّب طَرْفًا مُسْترِيبًا، ويلحظ الدنيا تَبِعَةً عليه وتثريبًا[٤]، وإن كان لم يُعدم من أمرائه حظوة وتقريبًا، وما برح يبوح بشَجَنه، ويرتاح إلى عهود وَطَنه، ومِمَّا أعرب به، عن براعة أدبه، قوله[٥]: [الكامل]

يا نازحينَ ولم أُفارِقْ منهمُ ... شوقًا تأجَّجَ في الضلوع[٦] ضرامُهُ
غُيِّبْتُمُ عن ناظريَّ وشَخْصُكُمْ ... حيث استقرَّ من الضلوع مقامُهُ
رَمَتِ النوى شملي فَشَتَّتَ نظمه[٧] ... والبينُ رامٍ لا تطيشُ سهامُهُ
وقد اعتدى فينا[٨] وجَدَّ مبالغًا ... وجَرَتْ بمحكمِ جوره أحكامُهُ
أترى الزمانَ مؤخِّرًا في مدّتي ... حتى أراه قد انقضتْ أيامُهُ

تحملها يا نسيم نجديَّة النَّفَحات، وَجْدِيَّة اللفَحات، تؤدي[٩] عني إلى الأحبة نفحها سلامًا، وتورد عليهم لَفْحها بَرْدًا وسلامًا، ولا تقل كيف تُحَمِّلُني نارًا، وتُرْسل على الأحبَّة مني إعصارًا. كلاً إذا أهديتهم تحية إيناسي، وآنسوا من جانب هُبُوبك نار ضرام أنفاسي، وارتاحوا إلى هُبُوبك، واهتزّوا في كفّ مَسْرَى جَنُوبك، وتعلَّلوا بك تعليلاً، وأوسعوا آثار

---

(١) في الإحاطة: «راقيًا». وفي الكتيبة: «راقيًا في درجات التقريب..».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٧٧): «ثَرْبًا». والثَّرْبُ: شحم رقيق على الأمعاء والكرش، ويكنى بذلك عن عدم المبالاة
(٣) في الإحاطة (ص ٣٧٢): «تقلبت».
(٤) التثريب: اللوم. لسان العرب (ثرب).
(٥) في الإحاطة: «مما كتبه، وبيّن فيه أدبه، قوله». والأبيات أيضًا في الكتيبة (ص ١٦١)، والبيتان الأول والثاني في الدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٢٧٢).
(٦) في الكتيبة: «في الفؤاد».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٧٧): «شمله»
(٨) في الطبعة نفسها: «فيها».
(٩) في الإحاطة: «يؤدي عني نَغْمُها إلى الأحبّة سلامًا، ويورد».

مَهَبِّكَ تقبيلاً، أرسلها عليهم بَليلاً، وخاطبهم بلطافة تلطُّفك تعليلاً. ألم تروني كيف جئتكم بما حَمَلتني عليلاً[1]: [الوافر]

كذاك تركْتُه مُلْقًى بأرضٍ[2] ... له فيها التعلُّل بالرياحِ
إذا هَبَّتْ إليه صَبَا إليها ... وإن جاءته من كلِّ النواحي
تساعده الحمائمُ حين يبكي ... فما ينفكُّ موصولَ النُّواح[3]
يُخاطبهنَّ مهما طِرْنَ شوقًا ... أما فيكنَّ واهبةُ الجناحِ[4]

ولولا تعلُّله بالأماني، وتحدُّث نفسه بزمان التداني، لكان قد قضى نحبَه، ولم أُبلِّغكم إلاَّ نعيه أو نَدْبه، لكنه يتعلّل من الآمال بالوعد الممطول، ويتطارح باقتراحاته على الزمن المجهول، ويحدّث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالخُلَّب[5]، ووثقت بمواعيد الدهر القُلَّب[6]، فيناجيها بوحي ضميره، وإيماء تصويره، كيف أجدك يوم الالتقاء بالأحباب، والتخلّص من رِبْقَة الاغتراب، أبائنة الحضور أم بادية الاضطراب، كأني بك وقد استفزّك وَلَه السرور، فصرفك عن مشاهدة الحضور، وعاقتك غشاوة الاستعبار للاستبشار، عن اجتلاء مُحَيًّا ذلك النهار: [البسيط]

يومٌ يُداوِي زَمَاناتي مِنَ أزْمَاني ... أزالَ[7] تنغيصَ أحْيَاني فأحياني
جعلْتُ لِلّه نَذْرًا صَوْمَهُ أبدًا ... أفي به وأُوَفِّي شرطَ إيماني
إذا ارتفعنا وزال البعدُ وانقطعتْ ... أشطانُ دهرٍ قد التفَّتْ بأشطاني[8]
أعدُّهُ[9] خيرَ أعيادِ الزمانِ إذا ... أوْطَانِيَ السعدُ فيه تربَ أوطاني

أرأيت كيف ارتياحي إلى التّذكار، وانقيادي إلى مُعَلّلات توهُّمات الأفكار؟ كأنّ البُعْدَ باستغراقها قد طويت شُقّته، وذهبت عني مشقّته، وكأني بالتّخيُّل بين تلك الخمائل أتنسَّم

(١) الأبيات أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٢)
(٢) في الكتيبة: «غريبٌ بعدكمْ ملقى..»
(٣) في الإحاطة (ص ٣٧٣): «النِّياح». وفي الكتيبة: «التياح»
(٤) في الإحاطة: «يخاطبن.. واهبة الجناح».
(٥) البرق الخُلَّبُ: البرق الذي يظنّ فيه سحابة المطر وليس فيه مطر. لسان العرب (خلب).
(٦) الدهر القُلَّب: الكثير التقلّب. لسان العرب (قلب).
(٧) في الإحاطة: «أزْبَرَ».
(٨) الأشطان: جمع شطن وهو الحبل. لسان العرب (شطن).
(٩) في الإحاطة: «أعدده».

صَباها، وأتسنّم رُباها[1]، وأجتني أزهارها، وأجتلي أنوارها، وأجول في خمائلها، وأتنعّم ببُكرها وأصائلها، وأطوف[2] بمعالمها، وأتنشّق أزهار كمائمها، وأُصِيخُ بأذن الشوق[3] إلى سجع حمائمها، وقد داخلتني الأفراح، ونالت مني نشوة الارتياح، ودنا السرور لتوهّم[4] ذهاب الأتراح، فلمّا أفقت من غمرات سكري، ووثبت من هفوات فكري، وجدت[5] مرارة ما شابه لي في استغراق دهري، وكأني من حينئذ عالجت وقفة الفِراق، وابتدأت منازعة الأشواق، وكأنما أغمضني[6] النوم، وسمح لي بتلك الفكرة الحلم: [الكامل]

ذَكَر الديارَ فهاجَهُ تذكارُهُ   وسَرَتْ به من حينه أفكارُهُ
فاحْتَلَّ منها حيث كان حلولُهُ   بالوهمِ منها واستقرَّ قَرارُهُ
ما أقْرَبَ الآمالَ من غَفَواته   لو أنها قُضيتْ بها أوطارُهُ[7]

فإذا جئتها أيها القادم، والأصيلُ قد خلع عليها بُرْدًا مُوَرَّسًا، والربيع قد مدَّ على القيعان منها سُنْدُسًا، فاتّخذها - فَدَيْتُكَ - مُعَرّسًا[8]، واجْرُرْ ذيولك فيها متبخترًا[9]، وبثَّ فيها من طيب نفحاتك عنبرًا، وافْتُقْ عليها من نوافج[10] أنفاسك مِسْكًا أذفرًا، واعطف معاطف[11] بانها، وأرْقِصْ قُضُبَ ريحانها، وصافحْ صفحات نهرها، ونافحْ[12] نفحات زهرها، هذه كلّها أمارات، وعن أسرار مقاصدي عبارات، هنالك تنتعش بها صُبابات، تعالج صَبابات، تتعلّل بإقبالك، وتَعْكِفُ على لَثْم أذيالك، وتبدو لك في صفة الفاني المُتهالك، لاطفها بلطافة اعتلالك، وترفَّقْ بها ترفُّقَ أمثالك، فإذا مالت[13] بهم إلى هواك الأشواق، ولَوَوْا

---

(١) أتسنّم رباها: أعلوها وأرتفع إليها. لسان العرب (سنم).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٧): «وأطرف».
(٣) في الإحاطة (ص ٣٧٤): «الشوق».
(٤) في الإحاطة: «التوسُّم»
(٥) في الإحاطة: «وجدّدتُ».
(٦) في الإحاطة: «أغْمَضَتْني للنوم»
(٧) في الإحاطة: «يا لقُرْب الآمال من هفواته لو أنه قَضَتْ».
(٨) في الإحاطة: «اتَّخِذْها . .» والمُعَرَّسُ: مكان النزول ليلاً. لسان العرب (عرس).
(٩) في الإحاطة: «تبخترًا».
(١٠) في الإحاطة: «نوافح». والنوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك. لسان العرب (نفج).
(١١) في الإحاطة: «بعاطف».
(١٢) المراد بـ «نافح» المغالبة في إظهار الريح ليظهر أيهما أظهر أريجًا. لسان العرب (نفح).
(١٣) في الإحاطة: «أمالت».

إليك الأرؤس والأعناق، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق، وتقلُّبي بين الإشآم والإعراق، فقل لهم: عرض له في أسفاره، ما يعرض للبدر في سَرَارِه، من سرار[1] السرار، ولحاق[2] المحاق، وقد تركْتُه وهو يُسامر الفَرْقَدين، ويساير النَّيِّرَين، وينشد إذا راعه البَيْن[3]: [البسيط]

وقد نكونُ وما يُخْشَى تَفَرُّقُنا فاليومَ[4] نحنُ، وما يُرْجَى تلاقينا

لم يفارق وَعثاء[5] الأسفار، ولا ألقى من يده عصا التَّسيار، يتهاداه الغَوْر والنجد، ويتداوله الإرقال والوَخْد[6]، وقد لفحته الرَّمْضاء، وسَمه الإنضاء، فالجهات تلفظه، والآكام تَبْهَظه، يحمل همومه الرواسم، وتحياته البواسم[7]: [البسيط]

لا يستقرُّ بأرضٍ حين يبلغُها ولا له غير حَذْوِ العِيس إيناسُ

ثم إذا استوفوا سؤالك عن حالي، وتقلُّبي بين[8] حلِّي وترحالي، وبلغت القلوب منهم الحناجر، وملأت الدموعُ المحاجر، وابتلَّت ذيولك بمائها، لا بل تَضَرَّجَتْ بدمائها، فحيِّهم عني تحيّة مُنْفصل، وداعَ[9] مرتحل، ثم اعطف عليك رِكابك، ومَهِّد لهم جَنابك، وقُلْ لهم إذا سألني عن المنازل بعد سكانها، والربوع بعد ظعن أظعانها، بماذا أجيبه؟ وبماذا يسكن وَجِيبه[10]، فسيقولون لك هي البلاقع[11] المقفرات، والمعارف[12] التي أصبحت نكرات: [السريع]

صَمَّ صداها وعفا[13] رَسْمُها واستعجمتْ عن منطقِ السائلِ

---

(١) في الإحاطة: «من سِرّ».
(٢) في الإحاطة: «وطاق».
(٣) البيت لابن زيدون وهو في ديوانه (ص ٩)، وقد تقدم في الجزء الرابع ضمن قصيدة من ٤٩ بيتًا.
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٧٩) والإحاطة (ص ٣٧٥): «واليوم».
(٥) الوَعْثاء: المشقّة والتعب. محيط المحيط (وعث).
(٦) الإرقال والوخد: ضربان من السير السريع. لسان العرب (رقل) و (وخد).
(٧) في الإحاطة: «وتحفى به النواسم».
(٨) في الإحاطة: «بين حالي حِلّي..».
(٩) في الإحاطة: «وودِّعْهم وَداع..».
(١٠) الوجيب: الخفقان. لسان العرب (وجب).
(١١) البلاقع: جمع بلقع وهو الأرض الخالية. لسان العرب (بلقع).
(١٢) كلمة «والمعارف» غير واردة في الإحاطة.
(١٣) في الإحاطة: «وعفّى».

قُلْ لهم: كيف الروض وآسُه؟ وعَمّ[1] تتأرّج أنفاسُه؟ عهدي به والحَمام يردّد به أسجاعه، والذباب يغني به هَزِجًا فيحكّ بذراعه ذراعَه، وغصونه تعتنق، وأحشاء جداوله تَصْطَفِق، وأسحاره[2] تتنسّم، وآصاله تتوسّم[3]، كما كانت بقية نَضْرته، وكما عهدتها أنيقة خضرته، وكيف التفاته عن أزرق نهره، وتأنّقه في تكليل إكليله بيانع زهره، وهل رقّ نسيمُ أصائله[4]، وصَفَتْ موارد جداوله؟ وكيف انفساح ساحاته، والتفاف دَوْحاته؟ وهل تمتدّ كما كانت مع العَشِيّ فينانَةُ سَرْحَاتِهِ؟ عهدي[5] بها المديدة الظلال، المزعفرة السِّربال، لم تحدِّق الآن به عيون نرجسه، ويمدّ[6] بساط سندسه؟ وأين منه مجالس لذاتي[7]، ومعاهد غدواتي وروحاتي؟ إذ أُباري في المجون لمن أُباري، وأُسابق إلى اللّذّات كلَّ من أُجاري[8]. فسيقولون لك: ذوَتْ أفنانه، وانقصفت أغصانه، وتكدَّرت غُدْرَانه، وتغيّر رَوْحُه ورَيْحانه، وأقفرت معالمه، وأُخْرِست حمائمه، واستحالت حُلَلُ خمائله، وتغيّرت وجوه بُكَره وأصائله، فإنْ صَلْصَلَ حنين رعد فعن قلبي لفراقه خَفَقَ، وإن تلألأ برقٌ فعَنْ حرِّ حشاي ائتلق، وإن سَحَّت السُّحب فمُساعدة لجفني، وإن طال بكاؤها فعنّي، حيّاها اللّه تعالى منازل، لم تزل بمنظوم الشمل أواهل، وحين انتثرت[9] نثرت أزهارها أسفًا، ولم تُثْنِ الريحُ من أغصانها مِعْطَفًا، أعاد اللّه تعالى الشمل فيها إلى مُحْكَم نِظَامه، وجعل الدهر الذي فرّقه يتأنّق في أحكامه، وهو سبحانه يَجْبُرُ الصَّدْع، ويُعَجِّلُ الجمع، إنه بالإجابة جدير، وعلى ما يشاء قدير.

إيه بُنَيَّ، كيف حال من اسْتَوْدَعْتَهُمْ أمانَتَك، وأَلْزَمْتَهُمْ صونك وصِيانتك، وأَلْبَسْتَهُمْ نَسَبَكَ، ومَهَّدْتَ لهم حَسَبَكَ؟ اللّه في حِفْظهم فهو اللائق بفعالك، والمناسب لشرف خِلالك، إِزَعْ لهم الاغتراب لديك، والانقطاع إليك، فهم أمانة اللّه تعالى في يديك، وهو سبحانه يحفظك بحفظهم، ويُوَالي بلحظك أسباب لحظهم، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال،

(١) في الإحاطة: «وعمّاذا».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٨٠): «وأشجاره».
(٣) في الإحاطة (ص ٣٧٦): «تغتبق».
(٤) في الإحاطة: «آصاله».
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٣٥): «وعهدي».
(٦) في الإحاطة: «ولا سُدَّ بساط..».
(٧) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٣٥): «وأنّى... لذاتي».
(٨) في الإحاطة: «يُجاري».
(٩) في الإحاطة: «انتثر».

فَنِعَمُ اللَّهِ تعالى ممتّدةُ الظلال، وخيراته وارفَةُ[1] السِّربال، لولا الشوق الملازم، والوَجْدُ الذي سكن الحيازم».

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي بكر محمد بن محمد بن عبد اللّه بن مقاتل المالقي ما نصُّه[2]: نابغة مالقية، وخَلَف وبقية، ومغربي الوطن أخلاقه مَشْرقية. أزمع الرحيل إلى المشرق، مع اخضرار العود وسَوَاد المَفرِق[3]، فلمّا توسّطت السفينة اللُّجَج، وقارعت الثَّبَج[4]، هال[5] عليها البحر فسقاها كأس الحِمام، وأولدها قبل التمام، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها، وانضمّ على نوره سوادُها، من[6] جملة الطلبة والأدباء، وأبناء السراة الحُسَباء، أصبح كلٌّ منهم مطيعًا، لداعي الردى وسميعًا، وأحيوا فرادى وماتوا جميعًا، فأجروا الدموع حزنًا، وأرسلوا العبرات عليهم مُزْنًا، وكأنَّ البحر لما طَمَسَ سبيلَ[7] خلاصهم وسدَّها، وأهال هضبة سفينتهم وهَدَّها، غار على نفوسهم النفيسة فاستردَّها. والفقيه أبو بكر مع إكثاره، وانقياد نظامه ونثاره، لم أظفر من أدبه إلاَّ بالقليل التافه، بعد وداعه وانصرافه. فمن ذلك قوله وقد أبصر فَتًى عاثرًا[8]: [الكامل]

ومهفهفٍ هافي المعاطف أحْوَرِ ... فضحتْ أشعّةُ نوره الأقمارَا
زَلَّتْ له قدمٌ فأصبح عاثرًا ... بين الأنام لَعًا[9] لِذَاكَ عِثارا
لو كنتُ أعلمُ ما يكون فرَشْتُ في ... ذاكَ المكانِ الخدَّ والأشفارا[10]

وقال: [الطويل]

أيا لبني الرفَّاءِ تنضي ظباؤهم ... جفونَ ظُباهم فالفؤادُ[11] كليمُ

(1) في الإحاطة (ص ٣٧٧): «ضافية».
(2) ترجمة ابن مقاتل في الإحاطة(جـ ٢ ص ٣٧٩)والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٣١٣). والنص في الإحاطة (ص ٣٨٠).
(3) اخضرار العود وسواد المفرق: كنايتان عن الشباب.
(4) الثَّبَجُ، بالفتح: الموج. لسان العرب (ثبج).
(5) في الإحاطة: «مال».
(6) في الإحاطة: «جملة من الطلبة..».
(7) في الإحاطة: «سُبُل».
(8) هذه المقطوعة والتي تليها في الإحاطة (ص ٣٨٠ ـ ٣٨١).
(9) لعا: كلمة دعاء لمن عثر، ومعناها: أنعشه اللّه.
(10) الأشفار: أهداب العيون، لسان العرب (شفر).
(11) في الإحاطة: «والفؤاد».

لقد قطّع الأحشاءَ منهم مهفهفٌ   له التِّبْرُ خَدٌّ واللُّجَيْنُ أديمُ
يسدِّدُ إذ يرمي قسيَّ حواجبٍ   وأسْهُمُها من مُقْلَتيهِ تسومُ
وتُسْقمني عيناه وهي سقيمةٌ   ومن عَجَبٍ سُقْمٌ جناه سقيمُ
ويَذْبُلُ جسمي في هواه صبابةً   وفي وَصْلِهِ للعاشقين نعيمُ

كان غرقه في أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة؛ انتهى.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن محمد الشُّدَيد المالقي ما نصُّه[1]: شاعر مُجِيد حَوْكَ الكلام، ولا يَقْصُرُ فيه عن درجة الأعلام. رحل إلى الحجاز لأوّل أمره فطال بالبلاد المشرقية ثَوَاؤه، وعُمِّيَتْ أنباؤه، وعلى هذا العهد وقفتُ له على قصيدة بخطِّه غرضُها نبيل، ومرعاها غير وَبِيل، تدلّ على نَفْس ونَفَس، وإضاءة قَبَس، وهي: [الوافر]

لنا في كلِّ مَكْرمةٍ مَقامُ   ومن فوقِ النجوم لنا مُقامُ

ومنها:

رَوِينا من مياه المَجْدِ لَمَّا   وَرَدْناها وقد كَثُرَ الزحامُ
فنحن همُ، وقُلْ لي مَنْ سوانا،   لنا التقديمُ قُدْمًا والكلامُ
لنا الأيدي الطِّوال بكلِّ صَوْبٍ   يُهَزُّ به لدى الروع الحُسام
ونحن اللابسونَ لكلِّ دِرْعٍ   يصيبُ السُّمرَ منهنَّ انثلامُ
بأندلسٍ لنا أيامُ حربٍ   مواقِفُهُنّ في الدنيا عظام
ثوى[2] منها قلوبَ الروم خَوْفٌ[3]   يُخَوَّفُ منه في المهد الغلامُ
حَمَيْنا جانبَ الدين احتسابًا   فها هو لا يُهانُ ولا يُضام
وتحت الرايةِ الحمراءِ منَّا   كتائبُ لا تُطاق ولا تُرام
بنو نصر وما أدراكَ ما هم   أسودُ الحرب والقومُ الكرام
لهمْ في حربهمْ فتكاتُ عمرو   فللأعمارِ عِنْدَهُمُ انصرام

(١) النص نثرًا وشعرًا في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨).
(٢) ثوى: أقام. لسان العرب (ثوى).
(٣) في الإحاطة (ص ٣٨٧): «خوفًا».

يقولُ عُداتهمْ مهما ألمّوا أتونا ما من الموت اعتصام
إذا شرعوا الأسنَّةَ يومَ حربٍ فَحَقِّقْ أنَّ ذاك هو الحِمام
كأنَّ رماحهم فيها نجومٌ إذا ما أشبهَ الليلَ القتامُ[1]
أُناسٌ تُخلِفُ الأيامُ مَيْتًا بحيّ منهمُ فلهمْ دوام
رأينا من أبي الحجاج شخصًا على تلك الصفات له قيام
مُوَقَّى العرضِ محمودُ السجايا كريمُ الكَفّ مقدامٌ همام
يجولُ بذهنه في كلِّ شيءٍ فيدركه وإنْ عَزَّ المَرامُ
قَويمُ الرأي في نُوَب الليالي إذا ما الرأي فارقه القوام
له في كلِّ معضلةٍ مَضَاءٌ مضاءُ الكَفّ ساعدَها الحُسام
رؤوف قادرٌ يُغْضِي ويعفو وإنْ عَظُمَ اجتناءٌ واجترام
تطوفُ ببيتِ سُؤددِهِ القوافي كما قد طاف بالبيت الأنامُ
وتسجدُ في مقام علاهُ شكرًا ونعمَ الركنُ ذلك والمقامُ
أفارسَها إذا ما الحربُ أَخْنَتْ[2] على أبطالها ودَنا الحِمامُ
وممطرها إذا ما السُّحبُ كفَّتْ وكَفُّ أخي الندى أبدًا غمام
لك الذكرُ الجميلُ بكلِّ قطرٍ لك الشرفُ الأصيلُ المُسْتدامُ
لقد جُبْنا[3] البلادَ فحيث سرْنا رأينا أنَّ مُلْكَكَ لا يُرامُ
فضلتَ ملوكها شرقًا وغربًا وبتَّ لملكها يقظًا وناموا
فأنتَ لكلِّ مَعْلُوةٍ مَدارٌ وأنتَ لكلِّ مَكْرُمَةٍ إمام
جَعَلْتَ بلادَ أندلس إذا ما ذُكِرَتْ تغارُ مصرٌ والشآمُ
مكانٌ أنتَ فيه مكانُ عزّ وأوطانٌ حَلَلْتَ بها كرام
وَهَبْتُكَ من بناتِ الفكر بِكْرًا لها من حُسْن لقياك ابتسام
فَنَزِّهْ طَرْفَ مجدك في حُلاها فللمجد الأصيل بها اهتمامُ

---

(١) في الإحاطة: «الغمام».
(٢) أَخْنَتْ على أبطالها: أتت عليهم وأهلكتهم. لسان العرب (خنا).
(٣) في الإحاطة (ص ٣٨٨): «جِئْنا».

وقال في «الإكليل» في ترجمة الشريف محمد بن الحسن العُمْراني من أهل فاس ما صورته[1]: كريم الانتماء، متظلّل[2] بأغصان الشجرة الشّمّاء، من رجل سليم الضمير، ذي باطن أصفى من الماء النّمير، له في الشعر طبع يشهد بعروبية[3] أصوله، ومضاء نصوله.

وذكر في «الإحاطة» أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة[4].

وقال في «الإكليل» في ترجمة محمد بن محمد[5] بن أحمد بن إبراهيم المُرادي العشاب، وهو قرطبي الأصل تونسي المولد والمنشأ، ما نصُه[6]: «جواد لا يُتعاطى طَلَقُه، وصُبْح فضل لا يُماثل فَلَقُه، كانت لأبيه[7] رحمه اللّه تعالى من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحلّ، ومفاوضة في العَقْد والحلّ، ولم يزل تسمو[8] به قدم النجابة، من العمل إلى الحجابة، ونشأ ابنه هذا مقضيّ الديون، مُفَدّى بالأنفس والعيون، والدهر ذو ألوان، ومارِقُ حربٍ عَوان[9]، والأيام كُرَات تُتَلَقّف، وأحوال[10] لا تتوقف، فألوى بهم الدهر وأنحى[11]، وأغام جوّهم بعقب ما أصحى[12]، فشملهم الاعتقال، وتعاورتهم[13] النُّوَبُ الثقال، واستقرّت بالمشرق رِكابه، وحُطَّتْ به أقتابه، فحجّ واعتمر، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر، وعكف على كتاب اللّه تعالى فجوّد الحروف، وقرأ المعروف[14]، وقيّد وأسند، وتكرَّر إلى دور الحديث وتردَّد، وقدم على هذا الوطن قدومَ النسيم البليل، على كبد العليل، ولَمَّا

(١) ترجمة محمد بن الحسن العمراني في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٢٣) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٤٦). والنص في الإحاطة.

(٢) في الإحاطة: «مستظل»

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٨٤): «بعربية».

(٤) في الإحاطة (ص ٥٢٤): «ثمانية وأربعين وسبعمائة».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٣٩): «محمد بن أحمد بن إبراهيم..». وفي الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٢٥): «محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب».

(٦) النص في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٢٥).

(٧) في الإحاطة: «لوالده».

(٨) في الإحاطة: «يسمو».

(٩) الحرب العَوان: الشديدة التي قُوتل فيها مرة بعد مرة. لسان العرب (عون).

(١٠) في الإحاطة: «وأهوال».

(١١) ألوى بهم الدهر وأنحى عليهم الدهر: أهلكهم. لسان العرب (لوى) و (نحا).

(١٢) في الإحاطة: «أضحى».

(١٣) تعاورتهم: تداولت عليهم. لسان العرب (عور).

(١٤) في الإحاطة: «وأحكم الخلف المعروف».

استقرّ به قَراره، واشتمل على جَفْنه غِراره، بادرتُ إلى مؤانسته، وثابرتُ على مجالسته، فاجتليت للسِّرِّ[1] شخصًا، وطالعت ديوان الوفاء مُسْتَقْصى. وشعره ليس بحائد عن الإحسان، ولا غُفْلٍ عن[2] النكت الحسان»؛ انتهى.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي[3] ما صورته: كاتب الخلافة، ومُشَعْشِع الأدب الذي يزري بالسُّلافة، كان بطل مَجال، وربَّ رويّة وارتجال، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه، وضاق ببعض الحوادث عَطَنه، فتلوّم النسيم بين الخمائل، وحلّ منها محلّ الطيف من الوشاح الجائل، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة، وميرة يانعة، ثم آثر قُطْره، فولّى وَجْهَه شَطْره، واستقبله دهره بالإنابة، وقلّده خُطّة الكتابة، فاستقامت حاله، وحُطّت رحاله، وله شعر أنيق، وتصوّف وتحقيق، ورحلة إلى الحجاز سعيها في الخير وثيق، ونَسَبُها في الصالحات عريق، ومن شعره قوله: [الطويل]

رِضًا نِلْتِ ما ترضين من كلّ ما يهوى ... فلا توقفيني موقفَ الذلّ والشكوى
وصَفْحًا عن الجاني المسيء لنفسه ... كفاه الذي يلقاه مِنْ شدّةِ البلوى
بما بيننا من خَلْوَةٍ معنويّةٍ ... أرقّ من النجوى وأحْلى من السلوى
قفي أتشكّى لوعةَ البَينِ ساعةً ... ولا يكُ هذا آخرَ العهد بالنجوى
قفي ساعةً[4] في عرصة الدار وانظري ... إلى عاشقٍ ما يستفيقُ مِنَ البلوى
وكم قد سألْتُ الريحَ شوقًا إليكُم ... فما حنّ مسراها عليّ ولا ألوى
فيا ريحُ، حتى أنتَ مِمَّنْ يغارُ بي ... ويا نجدُ، حتى أنتَ تهوى الذي أهوى
خُلِقْتُ ولي قلبٌ جليدٌ على النوى ... ولكنْ على فَقْدِ الأحبّةِ لا يقوى

وحدَّث بعض من عني بأخباره، أيام مقامه بمالقة واستقراره، أنه لقي بباب الملعب من أبوابها ظبيةً من ظبيات الإنس، وقَيْنة من قينات هذا الجنس، فخطب وصالها، واتقى

---

(١) في الإحاطة (ص ٥٢٦): «للسِّرّو».
(٢) في الإحاطة: «من».
(٣) ترجمة محمد بن عمر المليكشي في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٢٦) ورحلة البلوي (الورقة ٢٢).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ص ٣٨٦): «ساعديني عرصة..».

بفؤاده نِصَالَها، حتى هَمَّتْ بالانقياد، وانعطفت انعطافَ الغصن الميَّاد، فأبقى على نفسه وأمسك، وأنِفَ من خلع العِذار بعدما تَنَسَّك، وقال: [الكامل]

لم أَنْسَ وقفتنا ببابِ الملعب — بين الرجا واليأس من متجنّبِ
وعَدَتْ فكنتُ مراقبًا لحديثها — يا ذلَّ وقفةِ خائفٍ مترقِّبِ
وتدلّلتْ فذلَلتُ بعد تعزّزٍ — يأتي الغرامُ بكلِّ أمرٍ معجب
بدويةٌ أبدى الجمالُ بوجهها — ما شئتَ من خدٍّ شريق[1] مذهب
تدنو وتبعدُ نفرةً وتجنّيًا — فتكادُ تحسبها مَهاة الرَّبْرَبِ[2]
ورنتْ بلحظٍ فاتنٍ لك فاترٍ — فَسَبَتْ، وحقَّ لمثلها أن تستبي
وتضاحكتْ فحكَتْ بنيِّر ثغرها — لمعانَ نور ضياءِ برقٍ خُلَّبِ[3]
بمنظّم في عِقْدِ سِمْطَيْ جوهر — عن شبه نَوْرِ الأقحوانِ الأشنب
وتمايلَتْ كالغصن أخْضَلَه[4] الندى — رَيَّانَ من ماء الشبيبة مُخْصِبِ
تَثْنِيهِ أرواحُ الصبابةِ والصَّبا — فتراه بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ
أبتِ الروادف أن تميلَ بميله — فرسَتْ وجالَ كأنه في لَولبِ
متتوِّجًا بهلالِ وجهٍ لاحَ في — خلل السحاب لحاجبٍ ومحجّبِ
يا من رأى فيها محبًا مغرَمًا — لم ينقلب إلاّ بقلبٍ قُلَّب
ما زال مذ وَلّى يحاولُ حيلةً — تُدْنيه من نيلِ المنى والمَطْلَبِ
فأجالَ نارَ الفكر حتى أُوقدتْ — في القلب نارُ تشوّقٍ وتَلَهُّبِ
فتلاقتِ الأرواحُ قبل جسومها — وكذا البسيطُ يكونُ قبلَ مركّبِ

وقال: [الطويل]

أرى لك يا قلبي بقلبي محبّةً — بعثتُ بها سِرّي إليكَ رسولا
فقابِلْهُ بالبشرى، وأقبِلْ عشيَّةً — فقد هَبَّ مسك[5] للنسيم عليلا
ولا تعتذر بالقَطرِ أو بللِ الندى — فأحسنُ ما يأتي النسيمُ بليلا

---

(١) الشريق: المشرق. لسان العرب (شرق).
(٢) المَهاة، بالفتح: البقرة الوحشية. الربرب: القطيع من بقر الوحش. لسان العرب (مها) و (ربرب).
(٣) البرق الخُلَّب: المُطْمِع المُخْلِفُ. محيط المحيط (خلب).
(٤) أَخْضَلَهُ الندى: بلّله. لسان العرب (خضل).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٤١): «مِسْكيُّ النسيم».

توفي عام أربعين وسبعمائة بتونس، رحمه الله تعالى! انتهى.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري التونسي الشاطبي الأصل، ما نصُّه[1]: غَذِيُّ نعمةٍ هامية، وقريع[2] رتبة سامية، صُرفتْ إلى سلفه الوجوه، ولم يبق من إفريقية إلاّ مَنْ يخافه ويَرْجوه، وبلغ هو مدة ذلك الشرف، الغايةَ من الترف، ثم قلب الدهر له ظهر المِجَنّ، واشتدَّ به الخُمَار[3] عند فراغ الدَّنّ، ولحق صاحبُنا هذا بالمشرق بعد خطوب مُبيرة[4]، وشدّة كبيرة، فامتزج بسكانه وقُطّانه، ونال من اللّذّات به ما لم ينلْه في أوطانه، واكتسب الشمائل العِذاب، وكان كابن الْجَهْم[5] بُعث إلى الرصافة ليرقَّ فذاب، ثم حوّم على وطنه تحويم الطائر، وألَمَّ بهذه البلاد[6] إلمام الخيال الزائر، فاغتنمتُ صفقة ودّه لحين وروده، وخطبتُ موالاته على انقباضه وشروده، فحصلتُ منه على دُرَّةٍ تُقْتَنَى، وحديقة طيبة الجَنَى. أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا ببرِّه: [الطويل]

لِكُلِّ أُناسٍ مذهبٌ وسجيّةٌ ... ومذهبُ أولادِ النظام المكارمُ
إذا كنتَ فيهم ثاويًا كنتَ سيّدًا ... وإن غِبْتَ عنهمْ لم تَنَلْكَ المظالمُ
أولئك صحبي، لا عَدِمت حياتَهُم! ... ولا عدموا السَّعْدَ الذي هو دائم!
أُغنّي بذكراهم وطِيبِ حديثهم ... كما غَرَّدَتْ فوق الغصونِ الحمائمُ

وقال: [الوافر]

أحِبَّتَنا بمصرٍ لو رأيتمْ ... بكائي عند أطرافِ النهارِ
لكنتم تُشْفقون لفرطِ وَجْدي ... وما ألقاه من بُعْدِ الديار[7]

(١) ترجمة محمد بن علي العبدري في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٧٧) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ١٩٨). والنص وقطعتا الشعر في الإحاطة (ص ٥٧٨ . ٥٧٩).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٨٧): «وفريع».
(٣) الخُمار، بضمِّ الخاء: الألم في الرأس يصيب شارب الخمر. لسان العرب (خمر).
(٤) مبيرة: مهلكة. لسان العرب (بير).
(٥) ابن الجهم: هو علي بن الجهم، من شعراء المتوكل العباسي.
(٦) في الإحاطة: «بهذه المدينة».
(٧) في الإحاطة (ص ٥٧٩): «بُعْد المزار».

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي القاسم محمد بن أبي زكريا يحيىٰ بن أبي طالب عبد اللّه بن محمد بن أحمد العزفي السبتي[١]، ما صورته: فرع تأوّد من الرياسة في دَوْحة، وتردّد بين غدوة في المجد ورَوْحَة، نشأ والرياسة العزفية تعلّه وتنهله، والدهر ييسّر أمله الأقصى ويُسَهّله، حتى اتّسقت أسبابُ سعده، وانتهت إليه رياسة سَلَفه من بعده، فألقت إليه رحالها وحطّت، ومتعته بقربها بعد ما شَطّت، ثم كلح له الدهر بعد ما تبسّم، وعاد زَعْزَعًا[٢] نسيمُه الذي كان يتنسّم، وعاقَ هلاله عن تِمِّه، ما كان من تغلّب ابن عمِّه، واستقرّ بهذه البلاد نازح الدار، بحكم الأقدار، وإن كان نبيه المكانة والمقدار، وجرت عليه جراية واسعة، ورعاية متتابعة، وله أدب كالروض باكرتْهُ الغمائم، والزهر تفتّحت عنه الكمائم، رفع منه راية خافقة، وأقام له سوقًا نافقة، وعلى تدفّق أنهاره، وكثره نظمه واشتهاره، فلم أظفر منه إلاّ باليسير التافه، بعد انصرافه؛ انتهى.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن [عبد الرحمن][٣] المكودي الفاسي ما نصُّه: شاعر لا يُتقاصى ميدانه، ومَرْعَى بيانٍ وَرِفَ عِضَاهُه[٤] وأينع سَعْدانه[٥]، يدعو الكلام فيُهْطِع[٦] لداعيه، ويَسْعَى في اجتلاب المعاني فتنجح مساعيه، غير أنه أفرط في الانهماك، وهوى إلى السمكة من أوْج السِّماك[٧]، قدم على هذه البلاد مفلتًا من رهق تلمسان حين الحصار، صفر اليمين واليسار من اليَسار، مليء[٨] هَوًى أنحى على طريفه وتِلاده، وأخرجه من بلاده، ولَمّا جذبه البَين، وحلَّ هذه البلدة بحال تقبحها العين، والسيف بهزّته، لا بحسن بزّته، دعوناه إلى مجلس أعاره البدر هالته، وخلع عليه الأصيلُ غلالته، وروض تفتّح كِمامه، وهمى عليه غمامه، وكأس أنس تدور، فتتلقّى نجومَها

---

(١) ترجمة أبي القاسم محمد بن يحيىٰ العزفي في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٥٢).

(٢) الزعزع: الريح الشديدة. لسان العرب (زعزع).

(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٨٩). وهذا النص النثري وقطعتا الشعر في الإحاطة (ج ٣ ص ١٨).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٤٣): «بيانٍ رفّ غضاه».

(٥) السعدان: نبت له شوك. لسان العرب (سعد).

(٦) يُهطع: يُسْرِع. لسان العرب (هطع).

(٧) السمكة: برج في السماء. والسِّماك: واحد السِّماكين وهما كوكبان نيّران، يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل. ومراده أنه هوى من الأوج إلى الحضيض. لسان العرب (سمك).

(٨) في طبعة دار صادر: «فلّ».

البدور، فلمّا ذهبت المؤانسة بخَجَله، وتذكّر هواه ويوم نواه حتى خفنا حلول أجله، جذبنا للمؤانسة زمامه، واستسقينا منه غمامه، فأمتع وأحْسَبَ، ونظر ونسب، وتكلّم في المسائل، وحار بطُرَف الأبيات وعيون الرسائل، حتى نشر الصباحُ رايته، وأطلع النهار آيته، فممّا نسبه إلى نفسه وأنشدناه قولُه: [الوافر]

غرامي فيك جَلَّ عن القياسِ وقد أسقيتنيه[1] بكل كاسِ

ولا أنسى هواكَ ولو جفاني عليكَ أقاربي طُرًّا وناسي

ولا أدري لنفسي من كمالٍ سوى أني لعهدك غيرُ ناسي

وقال: [الطويل]

بَعَثْتَ بخمرٍ فيه ماءٌ وإنما بعثتَ بماءٍ فيه رائحةُ الخمرِ

فَقَلَّ عليه الشكرُ إذ قلَّ سكرنا فنحن بلا سكرٍ وأنتَ بلا شكر

وقال لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى في ترجمة أبي عبد اللّٰه محمد بن محمد بن محمد ابن بيش العبدري الغرناطي ما صورته[2]: مُعَلِّمٌ مُدَرِّبٌ، مُسَهِّلٌ مُقَرِّبٌ، له في صنعة العربية باعٌ مَديد، وفي هدفها سهم سديد، ومشاركة في الأدب لا يفارقها تسديد، خاصيُّ المنازع مختصرها، مُرَتَّب الأحوال مُقَرَّرُها، تميَّز أول وقته بالتِّجارة في الكتب فسُلِّطتْ منه عليها أَرَضَة آكِلة، وسهمٌ أصاب من رَمْيتها الشاكلة[3]، أترب[4] بسببها وأثرى، وأغنى جهةً وأفقر أخرى، وانتقل لهذا العهد الأخير إلى سُكْنى[5] مسقط رأسه، ومَنْبت غرسه[6]، وجَرَتْ عليه جرايةٌ من أحباسها[7]، ووقع عليه قَبُولٌ من ناسها، وبها تلاحق به الحِمام، فكان من تُرابها البداية وإليها التمام. وله شعر لم يقصر فيه عن المَدَى، وأدب توشّح بالإجادة

---

(١) في الطبعة نفسها: «سقّيتنيه».

(٢) الإحاطة (جـ ٣ ص ٢٨ . ٢٩). وترجمته أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ٩٠) وبغية الوعاة (ص ١٠٠) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٣٥٨).

(٣) في الإحاطة: «شاكلة».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٤٤): «أثرى بسببها وأترب».

(٥) في الإحاطة: «سكنى غرناطة مسقط..».

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٠): «غِراسه».

(٧) الأحباس: الأوقاف. لسان العرب (حبس).

وارتدى. أنشدني بسبتة[1] تاسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعمائة يجيب عن بيتي ابن العفيف التلمساني[2]: [مخلع البسيط]

يا ساكنًا قلبيَ المعنَّى ... وليس فيه سواك ثاني
لأيِّ معنًى كسرتَ قلبي ... وما التقى فيه ساكنانِ

فقال: [مخلع البسيط]

نحلتني طائعًا فؤادًا ... فصار إذْ حُزتَه مكاني
لا غَرْوَ إذ كان لي مُضافًا ... أنّي على الكَسْر فيه باني

وقال يخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلامًا[3]: [الطويل]

أنامِلُكَ الغُرُّ التي سَيْبُ جودِها ... يَفِيضُ كفيض المزنِ بالصَّيِّبِ القطرِ
أتتنيَ منها تُحفَةٌ مثلُ حَدِّها [4] ... إذا انْتُضيتْ كانت كمُرْهَفة السُّمْرِ
هي الصَّفر لكن تعلمُ البيضُ أنها ... مُحَكَّمَةٌ فيها على النَّفْعِ والضَّرِّ
مُهَذَّبة الأوصال مَمْشُوقَةٌ كما ... تصوغ سهام الرَّمْي من خالص التِّبْرِ.[5]
فَقَبَّلْتُها عَشْرًا وَمَثَّلْتُ أنني ... ظَفِرْتُ بِلَثْمٍ في أناملكَ العشرِ

وقال في ترتيبِ حروف الصحاح[6]: [الطويل]

أساجعةً بالواديَين تَبَوّئي ... ثمارًا جَنَتْها حالياتٌ خواضبُ
دَعي ذكرَ روضٍ زانه سقي شربه ... صباح ضُحًى طيرٌ ظماءٌ[7] عصائبُ
غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ ... متى ما نأى وَهْنًا هواهُ يُراقبُ

---

(١) في الإحاطة: «بدار الصناعة السلطانية من سبتة».
(٢) هذان البيتان والبيتان التاليان تقدما في الجزء السابع (ص ٣٧٨).
(٣) الأبيات في الإحاطة (ج ٣ ص ٢٩) قالها مخاطبًا أبا العباس عميد سبتة، وقد أهدى إليه أقلامًا. وهي كذلك في الكتيبة (ص ٩١).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٩٠): «عدّها».
(٥) في الإحاطة: «تصاغ سهام..». وفي الكتيبة: «تصاغ سهام.. أو خالص..».
(٦) الأبيات في الإحاطة (ج ٣ ص ٢٩) والكتيبة (ص ٩٢). وقد تقدمت في الجزء السابع.
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٣٩١): «ضحى طي ظباء..». وفي الإحاطة: «طيرٌ ظما».

مولده في حدود ثمانين وستمائة[1]، وتوفي بغرناطة في رجب عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة؛ انتهى.

قلت: رأيت بخطِّ الجلال السيوطي على هامش جوابه عن بيتي ابن العفيف التلمساني ما صورته: قلت: في هذا البيت تصريح بأنَّ المضاف إلى الياء مبني على الكسر، وهو رأي مرجوح عند النحاة، ذهب إليه الجرجاني، والصحيح أنه معرب، على أنَّ ذاك لا يحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل، قاله عبد الرحمن السيوطي؛ انتهى. ويعني بذلك أنَّ الساكنين إنما يُكْسَرُ أحدهما، لا محلّهما، والله سبحانه أعلم.

وقال لسان الدين في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد الله محمد بن هانىء اللخمي السبتي، وأصله من إشبيلية، ما صورته[2]: علم تشير إليه الأكفُّ[3]، ويُعْمَل إلى لقائه الحافر والخُفّ[4]، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر، ومرج منها لجة تزخز، فانفسح مجالُ درسه، وأثمرت أدواحُ غَرْسه، فركض ما شاء وبرح، ودوّن وشَرَح، إلى شمائل يملك[5] الظرف زمامها، ودُعابة راشت الحلاوة سهامها، ولمّا أخذ المسلمون في مُنازلة الجبل[6] وحِصاره، وأصابوا الكُفْر منه بجارحة إبصاره، ورَمَوا بالثُّكْل فيه نازحَ أَمْصاره، كان مِمَّن انتدب وتطوَّع، وسمع النداء فأهطع[7]، فلازمه إلى أن نَفِد لأهله القُوت، وبلغ من فسحة[8] الأجل الموقوت، فأقام الصلاة بمحرابه، وحَيّاه[9] وقد غير مُحَيّاه طولُ اغترابه، وبادَرَهُ الطاغية قبل أن يستقرّ نصلُ الإسلام في قِرابه[10]، أو يَغْلُق أصلُ الدين في تُرابه.

---

(١) في الإحاطة: «مولده بغرناطة في رجب ثمانين وستمائة».

(٢) هو محمد بن علي بن هانىء اللخمي، وترجمته في الإحاطة (جـ ٣ ص ١٤٣). ونص الترجمة في الإحاطة (ص ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٣) تشير إليه الأكفُّ: كناية عن الشهرة.

(٤) يعمل إلى لقائه الحافر والخُفُّ: كناية عن أنه مقصود من كل الناس.

(٥) في الإحاطة (ص ١٤٤): «تملّك».

(٦) يقصد جبل طارق أو جبل الفتح.

(٧) أَهْطَعَ: أسرع. لسان العرب (هطع).

(٨) في الإحاطة: «فُتْحة».

(٩) كلمة «وحيّاه» غير واردة في الإحاطة.

(١٠) القِراب، بكسر القاف: جفن السيف وغمده. لسان العرب (قرب).

وانتدب إلى الحصار به وتبرّع[1]، ودعاه أجلُه فلبَّى وأسرع، ولمّا هدر عليه الفنيق[2]، وركع إلى قبلة المنجنيق[3]، أُصيب بحجر دوَّم عليه كالجارح المُحَلِّق، وانقضَّ إليه انقضاضَ البارق المتألِّق، فاقْتَنَصَهُ واختطفه، وعمد إلى زهره فاقتطفه[4]، فمضى إلى اللّه تعالى طَوْعَ نيَّته، وصَحِبَتْهُ غرابة المنازع حتى في أمنيته[5]؛ انتهى.

وقد جوّد ترجمته في «الإحاطة» وقال [6] : إنه ألّف كتبًا منها شرح «تسهيل الفوائد» لابن مالك، مبدع تنافس الناس فيه، وكتاب «الغرة الطالعة، في شعراء المائة السابعة» وكتاب «إنشاد الضَّوال، وإرشاد السُّؤَّال» في لحن العامة، وهو مفيد، وكتاب «قوت المقيم» ودوّن ترسيل[7] أبي المطرِّف بن عميرة وضمّه في سفرين، وله جزء [8] في الفرائض. وحدّثني شيخنا الشريف القاضي أبو القاسم [9] قال: خاطبت ابن هانىء بقصيدة من نظمي أوّلها: [البسيط]

هاتِ الحديث عن الركب الذي شَخَصَا[10]

فأجابني بقصيدة على رويّها، أوّلها[11]: [البسيط]

لولا مشيبٌ بِفَوْدي للفؤاد عَصَى — أنضيتُ في مَهْمَه التشبيبِ لي قُلُصَا[12]
واستوقفتْ عَبَراتي وَهْيَ جاريةٌ — وَكْفاءُ توهّمُ رَبْعًا للحبيب قَصَا
مسائلاً عن لياليه التي انتهزتْ — أيدي الأماني بها ما شئته فُرَصَا
وكنتُ جاريتُ فيه من جرى طَلَقًا — من الإجادة لم يجمح[13] ولا نَكَصَا

(١) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٤٦): «الحصار ربّه وتدرّع».
(٢) في الإحاطة: «الفتيق». والفنيق: الفحل من الإبل. لسان العرب (فنق).
(٣) في الإحاطة: «وركعت إلى قبلته المجانيق».
(٤) في الإحاطة: «فقطفه».
(٥) في الإحاطة: «منيّته».
(٦) الإحاطة (ص ١٤٤ ـ ١٤٥).
(٧) في الإحاطة (ص ١٤٥): «ترسّل».
(٨) في الإحاطة: «رجز».
(٩) في الإحاطة: «أبو القاسم الحسني».
(١٠) في الإحاطة: «هلّت الحديث عن الكَرْب..».
(١١) القصيدة في الإحاطة (ج ٣ ص ١٤٥ ـ ١٤٦).
(١٢) في الإحاطة: «نضيت في مهمه..». والقُلُص: جمع قلوص وهي الناقة. لسان العرب (قلص).
(١٣) في الإحاطة: «يحجم».

أصابَ شاكِلَةَ المرميَّ حين رَمَى　　من الشوارد ما لولاه ما اقْتَنَصَا
ومن أعدَّ مكان النَّبلِ نُبْلَ حِجًا　　لم يَرْضَ إلاَّ بأبكارِ النُّهى قَنَصَا
ثم انثنى ثانيًا عِطْفَ النسيبِ إلى　　مَدْحٍ به قد غلا ما كان قد رَخُصا
فظلتُ أرفلُ فيها لِبْسَةً شَرُفَتْ　　ذاتًا ومُنْتَسَبًا أعْزِزْ بها قُمُصَا
يقولُ فيها وقد خوّلتُ مِنْحتها　　وجُرِّعَ الكاشحُ المغْرَى بها غُصَصَا[1]
هذي عقائلُ وافتْ منكَ ذا شرفٍ　　لولا أياديه بِيعَ الحَمْدُ مُرْتخصا
فقلتُ هلاً عكستَ القولَ منك له　　ولم يكنْ قابلاً في مدحه الرُّخَصا
وقلتَ ذي بِكْرُ فكرٍ من أخي شرف　　يُرْدِي ويُرْضِي بها الحُسّاد والخُلصا
لها حُلًى حسنيّاتٌ على حُلَلٍ　　حُسنيّةٍ تستبي مَنْ حَلَّ أو شخصا
خوّلتها وقد اعتزّتْ ملابسها　　بالبَخْتِ ينقادُ للإنسان ما عَوِصا[2]
خُذْها أبا قاسم مني نتيجةَ ذي　　وُدّ إذا شئتَ وُدًّا للوَرَى خَلَصا
جاءتْ تجاوبُ عمّا قد بعثتَ به　　إن كنتَ تأخذُ من دُرِّ النحورِ حَصَا

وهي طويلة.

ومما ينسب إليه[3]: [الكامل]

ما للنوى مُدَّتْ لغير ضرورة　　ولِقَبْلِ ما عهدي بها مقصورَهْ
إنَّ الخليلَ وإنْ دعته ضرورةٌ　　لم يرض ذاك فكيف دون ضرورَهْ

وقال مُضَمِّنًا للثاني: [الرمل]

لا تلمني عاذلي حين ترى[4]　　وَجْهَ من أهوى فلومي مستحيلْ
لو رأى وَجْهَ حبيبي عاذلي　　لَتَفارَقْنا على وجهٍ جميلْ

وأجاب الشريفَ المذكورَ عن قصيدة مهموزة بقوله[5]: [الكامل]

يا أوحد الأدباء أو يا أوحد الـ　　ـفضلاء أو يا أوحدَ الشرفاءِ

(١) جُرِّعَ: سُقي. الكاشح: المبغض. الغُصَصُ: جمع غصّة وهي عدم انسياغ الطعام في الحلق. لسان العرب (جرع) و (كشح) و (غصص).
(٢) عوص: صعب. لسان العرب (عوص).
(٣) هذان البيتان والبيتان التاليان في الإحاطة (ج ٣ ص ١٤٦).
(٤) في الإحاطة: «لا يلمني عاذلي حتى يرى».
(٥) القصيدة في الإحاطة (ج ٣ ص ١٤٧ ـ ١٤٨).

من ذا تراه أحقُّ منك إذا التوث طرقُ الحِجاجِ بأن يجيب ندائي
أدبٌ أرقُّ من الهواء وإن تشا[1] فمنَ الهوا والماءِ والصَّهباء
وألذُّ مِنْ ظَلْمِ[2] الحبيبِ وظُلْمه بالظاء مفتوحًا وضمِّ الظاء
ما السِّحْرُ إلاّ ما تصوغُ بنانُهُ ولسانُهُ من حِلْيَةِ الإنشاء

وهي طويلة، يقول فيها بعد جملة أبيات:

للَّه نفثةُ سحرٍ ما قد شِدْتَ لي من نفثِ سحركَ في مشادِ ثناءِ
عارضتَ صفوانًا بها فأريتَ ما يَسْتَعْظِمُ الراوي لها والرائي
لو رَاءَ لؤلؤك المُنَظَّمَ لم يَفُزْ من[3] نظمِ لؤلؤه بغير عَناء
بوّأتني منها أجلَّ مبوّإٍ فلأخمصي مستوطىء[4] الجوزاء
وسما بها اسمي سائرًا فأنا بما أسديتَ ذو الأسماء في الأسماء
وأشَدْتَ ذكري في البلاد فلي بها طولُ الثناء وإن أطلتَ ثَوَائي
ولقوميَ الفخرُ المشيدُ بنَيتَهُ يا حُسْنَ تشييدٍ وحُسْنَ بناء
فَلْيَهْنِ هِانيهمْ يَدٌ بيضاءُ ما إنْ مثلُها لك من يدٍ بيضاء
حَلَّيْتَ أبياتًا له لخميَّةً تُجْلَى على مُضَريَّةٍ غرّاء[5]
فليشمخوا أنفًا بما أوليتهمْ يا محرزَ الآلاء بالإيلاء

ووصلها بنثر نصّه[6]: «هذا بُنَيَّ. وصل اللّه سبحانه لك ولي بك[7] علوّ المقدار! وأجرى وفق [أو فوق][8] إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار! ما ستَحَ[9] به الذهن الكَليل، واللسان القَليل، في مراجعة قصيدتك الغرّاء، الجالبة السرّاء[10]، الآخذة بمجامع

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٤): «تشأ».
(٢) الظَّلْمُ، بفتح الظاء وسكون اللام: الريق. لسان العرب (ظلم).
(٣) في الإحاطة (ص ١٤٨): «في».
(٤) في الإحاطة: «مستوطن».
(٥) في الإحاطة: «لهم لخميّةٌ بِحُلاً عُلاً». وفي طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٤): «بحلَى عُلى».
(٦) النص في الإحاطة (جـ ٣ ص ١٤٨ - ١٥٢).
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٤): «لي ولك علوّ..».
(٨) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٤٩).
(٩) في الإحاطة: «ما سمح».
(١٠) في الإحاطة (ص ١٤٩): «الجالبة للسرّاء».

القلوب، الموفية [1] بجوامع المطلوب، الحسنة المَهْيَع [2] والأسلوب، المتحلية بالحلى السنية[3]، العريقة المُنْتَسَب في العُلا الحسنية، الجالية لصدإ[4] القلوب ران عليها الكَسَل، وخانها المُسْعدانِ السؤلُ والأمل، فمتى حامت المعاني حولها، ولو أقامت حَوْلها، شكت وَيْلَها وعَوْلها، وحرمت من فريضة الفضيلة عَوْلها، وعهدي بها والزمان زمان، وأحكامها[5] الماضية أماني مَقْضيَّة وأمان، تتوارد أُلافها، ويجمع إجماعها وخلافها، ويساعدها من الألفاظ كلُّ سهل ممتنع، مفترق مجتمع[6]، مستأنس غريب، بعيد الغَوْر قريب، فاضح الحُلَى، واضح العلا، وضّاح الغُرّة والجبين، رافعٌ عمود الصبح المُبين، أيّد من الفصاحة بأياد، فلم يَحْفِل بصاحبي طيىء وإياد، وكسي نصاعة[7] البلاغة، فلم يعبأ بهَمّام وابن المراغة[8]، شفاء المحزون، وعلم سرّ[9] المخزون، ما بين منثوره والموزون، والآن لا مُلْهِج ولا مُبهج، ولا مرشد ولا منهج، عُكِسَت القضايا فلم تُنْتِج، فتلبد القلب الذكي، ولم يرشح القلم[10] الزكي، وعمّ الإفحام وغمّ الإحجام، وتمكّن الإكداء والإجبال، وكُوّرت الشمس وسُيِّرت الجبال، وعَلَتْ سآمة، وغلبتْ نَدامة، وارتفعت مَلامة، وقامت لنوعي الأدب قيامة، حتى إذا ورد ذلك المُهْرَق، وفرّع غصنه المورق، وتغنى[11] به الحمام الأورق، وأحاط بِعِداد عُداته الغَصَص والشَّرَق، وأمن من الغَصْب والسَّرَق، وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفَرَق، نفخ في صُور أهل المنظوم والمنثور، وبُعثر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور، وتراءت للأدب صُوَر، وعمرت للبلاغة كُوَر، وهَمَتْ لليراعة دِرَر، ونظمت للبراعة دُرَر، وعندها[12] تبين[13] أنك واحد حَلْبة البيان، والسابق في ذلك الميدان يوم

(١) في الإحاطة: «الآتية».
(٢) المَهْيَعُ: الطريقة، لسان العرب (هيع).
(٣) في الإحاطة: «الحسنيّة».
(٤) في الإحاطة: «صدا قلوبٍ».
(٥) في الإحاطة: «وأحكامه».
(٦) في الإحاطة: «مُجْمع».
(٧) في الإحاطة: «بضاعة».
(٨) همام: هو الفرزدق. ابن المراغة: هو جرير بن عطية.
(٩) في الإحاطة: «السّرّ».
(١٠) في الإحاطة: «ولم يرشح القُلَيبُ البكي».
(١١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٥) والإحاطة: «تغنّى».
(١٢) في طبعة عبد الحميد: «وعندما».
(١٣) في الإحاطة (ص ١٥٠): «يتبيّن».

الرهان، فكان لك القَدَم، وأقرّ لك مع التأخّر السابق الأقدم، فوحَقّ نصاعة[1] ألفاظ أَجَدْتَها حين أَوْرَدْتَها، وأَسَلْتَها حين أرْسَلْتَها، وأَزَنْتَها حين وَزَنْتَها، وبراعة معانٍ سَلَكْتَها حين مَلَكْتَها، وأَوْرَيْتَها حين رَوَيْتَها[2] أو روَّيْتَها، وأَصَلْتَها حين فَصَلْتَها أو وصلتها، ونظام جعلته بجسد البيان قَلْبا، ولمعصمه[3] قُلْبا[4]، وهصرت حدائقه غُلْبا، وارتكبت رويّه[5] صَعْبا، ونِثار[6] أتبعته له خديمًا، وصيّرته لمدير كأسه نديمًا، ولحفظه ذِمامه المُدَاميّ أو مُدَامه الذماميّ مُدِيمًا، لقد فَتَنْتني حين أتتني، وسَبَتْني حين اطَّبَتْني[7]، فذهبت خفّتُها بوقاري، ولم يَرُعْها بعدُ شيبُ عِذاري، بل دعت للتصابي فقلت مرحبا، وحَلَلْتُ لفتنتها الحُبا، ولم أحفل بشيب، وألفيتُ ما ردَّ تصابي نصيب[8]، وإن كنّا فرسَيْ رهانٍ، وسابقَيْ حَلْبة ميدان، غير أنّ الجِلْدة بيضاء، والمرجوّ الإغضاء بل الإرضاء. بُنَيَّ، كيف رأيتَ للبيان هذا الطَّوع، والخروج فيه من نوع إلى نوع؟ أين صَفْوان بن إدريس، ومحلُّ دَعْواه بين رحلة وتعريس[9]؟ كم بين ثُغَاء بقر[10] الفلاة وبين ليث الفريس؟ كما أني أعلم[11] قطعًا وأقطع علمًا، وأحكم مَضَاءً وأمضي حُكْمًا، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة، وفريدتك الحالية الفائقة، المعارَضَةُ بها قصيدتُه، المُنْتَسخة بها فريدتُه، لذهب عرضًا وطولا، ثم اعتقد لك اليَدَ الطولَى، وأقرَّ فارتفع النزاع، وذهبت له تلك العلامات والأطماع، ونسي

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٥): «فصاحة».

(٢) في الإحاطة: «حين روّأتها وأرويتها».

(٣) في الإحاطة: «لجسد البيان.. والمِعْصمة..».

(٤) في الإحاطة: «قلمًا». والقُلْب: السوار. لسان العرب (قلب).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٦) والإحاطة: «رويّة». وهنا يشير إلى صعوبة القافية، وإن كانت همزية، وهي غير صعبة.

(٦) في الإحاطة: «ونثارًا».

(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٦): «صَبَتْني». وفي الإحاطة: «نصبتني».

(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٦) والإحاطة: «تصابي». وهنا يشير إلى قول نُصَيب: [الوافر]

ولولا أن يقال صَبَا نصيبٌ لَقُلْتُ بنفسيَ النشء الصغار

وترجمة نصيب في الأغاني (جـ ١ ص ٣١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٢٢).

(٩) التعريس: النزول ليلاً للراحة. لسان العرب (عرس).

(١٠) في الإحاطة: «بقر هذا الفَلاَ، وبين زئير ليث العريس». والثُّغاء: صوت الشاء والمعز وما شاكلها، فأما صوت البقر فهو الخوار. لسان العرب (ثغا) و (خور).

(١١) في الإحاطة: «أني أقطع علمًا وأعلم قطعًا، وأحكم».

كلمته اللؤلؤية، ورجع عن دعواه الأدبية، واستغفر ربّه من تلك الأليّة[1]. بُنَيَّ وهذا من ذلك، من[2] الجري في تلك المسالك، والتَّبسُّط في تلك المآخذ والمتارك، أينزع غيري هذا المَنْزَع؟ أم المرءُ بنفسه[3] وابنِهِ مُولَع؟ حيا اللّه الأدب وبنيه، وأعاد علينا من أيامه وسِنيه! ما أعلى مَنازعه، وأكبى مُنازِعه، وأجَلَّ مآخذه، وأجهل تاركه وأعلم آخذه، وأرقّ طباعه، وأحقَّ أشياعه وأتباعه، وأبعد طريقه، وأسعد فريقه، وَأقْوَمَ نهجه، وأوثق نَسْجَه، وأسمح ألفاظه، وأفصح عُكاظه، وأصدق معانيه وألفاظَه، وأحمد نِظامه ونِثاره، وأغنى شعاره ودِثاره، فعائبه مطرود، وعاتِبُه مصفود، وجاهله مَحْصود، وعالِمُه محسود، غير أنَّ الإحسان فيه قليل، ولطريق الإصابة فيه عِلْمٌ ودليل، مَنْ ظَفِرَ بهما وصَلَ، وعلى الغاية القصوى منه حصل، ومن نَكَبَ عن الطريق، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق، فلْيَهْنِكَ أيها الابن الذكي، البَرُّ الزكي، الحبيب الحفيّ[4]، الصفيّ الوفيّ، أنك حاملُ رايتِهِ، وواصل غايته، ليس أوّلوه وآخِروه لذلك بمنكرين، ولا تجد أكثرهم شاكرين. ولولا أن يَطُولَ الكِتاب، ويَنْحرف الشعراء والكُتَّاب، لفاضتْ ينابيعُ هذا الفضل[5] فيضًا، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضًا، قَرّتْ عيونُ أوِدّائك[6]، ومُلِئتْ غيظًا صدورُ أعدائك، ورَقِيتَ درج الآمال، ووُقيت عين الكمال، وحُفظَ منصبُك العالي، بفضل ربِّك الكبير المتعالي. والسلام الأتمّ الأنمّ[7] الأكمل الأعمّ، يخصّك به من طال في مدحه إرقالك وإغذاذك[8]، ورادَ روضُ حمدك[9] وابلك وطَلُّكَ ورذاذك، وغدت مصالح سعيه في سعي مصالحك، وسينفعك بحول اللّه وقوته وفضله ومِنَّته مُعاذُك، وَوَسَمْتَ نفسك بتلميذه فَسَمَتْ نفسه بأنه أستاذك، ابن هانىء، ورحمة اللّه تعالى وبركاته».

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٣٩٦) والإحاطة (ص ١٥١): «الإلهية».

(٢) كلمة «من» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٥٠).

(٣) في الإحاطة: «بشعره».

(٤) الحفيّ: الذي يبالغ في السؤال عن الشيء. لسان العرب (حفي).

(٥) في الإحاطة: «الفصل».

(٦) الأودّاء: جمع ودود وهو المحبّ. لسان العرب (ودد).

(٧) كلمة «الأنمّ» غير واردة في الإحاطة (ص ١٥٢).

(٨) الإرقال والإغذاذ: ضربان من السير السريع. لسان العرب (رقل) و (غذذ).

(٩) في الإحاطة: «روض حمده طَلّك ورذاذك..».

وكانت وفاته شهادة في أواخر ذي القعدة عام ثلاثة وسبعمائة، ورثاه شيخنا أبو القاسم الحسني بقصيدة أُثبتت في اسمه منها[1]: [الطويل]

سقى اللّه بالخضراء أشلاء سُؤددِ ... تَضَمَّنَهنَّ التُّرْبُ صَوْبَ الغمائِمِ

ورثاه شيخنا أبو بكر بن شِبْرين فقال[2]: [مجزوء الكامل]

قد كان ما قال البريدُ[3] ... فاصبرْ فحزنُكَ لا يفيدُ
أودى ابن هانىءٍ الرِّضَى ... فاعتادني للثُّكْلِ عِيد
بحرُ العلوم وصَدْرُها ... وعَمِيدُها إذ لا عَميدُ
قد كان زَيْنًا للوجو ... د ففيه قد فُجِعَ الوُجُود
العِلْمُ والتحقيق والتـ ... ـوفيق والحَسَبُ التليدُ
تَنْدَى خلائِقُهُ فقلْ ... فيها هي الروضُ المَجُودُ
مُغْضٍ عن الإخوان لا ... جَهْمُ اللقاء ولا كَنُود[4]
أَوْدَى شهيدًا باذلاً ... مجهودَهُ، نِعْمَ الشهيدُ
لم أَنْسَهُ حين المعا ... رفُ باسمه فينا تُشيد
وله صُبوبٌ في طلا ... ب العلم يتلوه صُعُود
للّه وقتٌ كان ينـ ... ـظِمُنا كما نُظِمَ الفريد
أيامَ نغدو أو نَرُو ... حُ وسَعْيُنا السَّعْيُ الحميد
وإذا المَشِيخةُ جُثَّمٌ ... هضباتُ حلم لا تميد[5]
ومُرادُنا جَمُّ النبا ... ت وعَيْشُنا خَضِرٌ بَرُود[6]
لَهْفي على الإخوان والـ ... ـأترابِ كلّهم فقيد
لو جئتُ أوطاني لأنـ ... ـكرني التَّهائم والنُّجود
ولَراعَ نفسي شيبُ مَنْ ... غادَرْتُهُ وَهْوَ الوليد

(١) البيت في الإحاطة (جـ ٣ ص ١٥٢).
(٢) قصيدة ابن شبرين في الإحاطة (جـ ٣ ص ١٥٢ . ١٥٤).
(٣) في الإحاطة: «اليزيدُ».
(٤) الكَنُود: كافر النعمة، البخيل. لسان العرب (كند).
(٥) في الإحاطة (ص ١٥٣): «تبيدُ».
(٦) في الإحاطة: «البَرُود».

ولَطُفْت ما بين اللحو ... دِ وقد تكاثَرَتِ اللحود
سَرْعَانَ ما عاثَ الجِما ... مُ ونحن أيقاظٌ هُجُود
كم رُمْتُ إعمال المَسِيـ ... ـرِ فقيِّدت عزمي قُيود
والآنَ أخلفتِ الوعـ ... ـود، وأخلقتْ تلك البُرُود
ما للفتى ما يبتغي ... فاللَّه يفعل ما يُريد
أعَلَى القديمِ المُلْكِ يا ... ويلاه يعترضُ العبيد
يا بينُ قد طال المدى ... أبرقْ وأرعدْ يا يزيد[1]
ولكلِّ شيءٍ غايةٌ ... ولربما لان الحديدُ
إيهٍ أبا عبدِ الإلـ ... ـه ودوننا مَرْمًى بعيدُ
أينَ الرسائلُ منك تأ ... تينا كما نُسِقَ[2] العقود
أين الرسومُ الصالحا ... تُ؟ تَصَرَّمَتْ، أين العهود؟
أنعمْ مساء لا تخطّيـ ... ـكَ[3] البشائرُ والسعود
وأقدمْ على دارِ الرضا ... حيث الإقامةُ والخلود
والْقَ الأحبّةَ حيث دا ... رُ المُلْك والقَصْرُ المشيد
حتى الشهادةُ لم تَفُتْـ ... ـكَ فَنَجْمُكَ النجمُ السعيد
لا تبعدَنْ وغدًا لو أنَّـ ... ـنَ البدء[4] في الدنيا يعود
فلئن[5] بليتَ فإنَّ ذكرَ ... كَ في الدُّنا غَضٌّ جديد
تاللَّه لا تنساك أنـ ... ـدية العُلا ما اخضرَّ عود
وإذا تُسُومحَ في الحقو ... قِ فحقُّك الحقُّ الأكيد
جادتْ صَدَاك غمامةٌ ... يرمي[6] بها ذاك الصعيد
وتَعَهَّدَتْك من المُهَيْـ ... ـمِنِ رحمةٌ أبدًا وَجُودُ

---

(١) في الإحاطة (ص ١٥٤): «أرعدْ وأبرقْ يا يزيدُ». وأخذ المعنى من قول الكميت [مجزوء الكامل]
أرعد وأبرق يا يزيـ ... ـدُ فما وعيدك لي بضائرْ
(٢) في الإحاطة: «نظم».
(٣) في الإحاطة: «لا تخطّتك».
(٤) في الإحاطة: «الميت».
(٥) في الإحاطة: «ولئن».
(٦) في الإحاطة: «يُرْوَى».

وقوله أول هذه الرسالة «عارضت صفوان بها إلى آخره» يعني بذلك همزية صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب، ولنذكرها إفادة للغرض، وهي[1]: [الكامل]

جاد الرُّبا من بانةِ الجرعاءِ ... نَوْءانِ مِنْ دمعي وغيْم سماءِ[2]
فالدمعُ يقضي عندها حقَّ الهوى ... والغيمُ حقَّ البانةِ الغنّاء[3]
خَلَتِ الصدورُ من القلوبِ كما خَلَتْ ... تلك المقاصِرُ من مَهًا وظِباء
ولقد أقولُ لصاحبيَّ وإنما ... ذُخِرَ الصديقُ لآكد[4] الأشياء
يا صاحبيَّ ولا أقلَّ إذا أنا ... ناديتُ من أن تُصْغيا لندائي
عوجا نُجَاري الغَيْثَ في سَقْي الحمى ... حتى يُرَى كيف انسكابُ الماءِ[5]
ونَسُنَّ في سَقْيِ المنازلِ سُنَّةً ... نُمْضِي بها حكمًا على الظرفاء
يا منزلاً نشطتْ إليه عَبرتي ... حتى تَبَسَّمَ زهرُهُ لبكائي
ما كنتُ قبلَ مَزار رَبْعِكَ عالمًا ... أنَّ المدامعَ أصدقُ الأنواء
يا ليتَ شعري، والزمانُ تَنَقُّلٌ ... والدهرُ ناسخُ شدّة بِرَخاء
هل نلتقي في روضةٍ مَوْشِيَّةٍ ... خفّاقةِ الأغصانِ والأفياء
وننالُ فيها من تألُّفنا ولو ... ما فيه سخنةُ أعين الرُّقَباء[6]
في حيثُ أتلعتِ الغصونُ سوالفًا ... قد قُلِّدَتْ بلآلىء الأنداء
وبدتْ[7] ثغورُ الياسمين فَقَبَّلَتْ ... عني عِذارَ الآسة الميساء
والوردُ في شطِّ الخليج كأنه ... رَمَدٌ ألَمَّ بِمُقْلَةٍ زرقاء
وكأنَّ غَضَّ[8] الزهرِ في خضرِ الرُّبا ... زُهْرُ النجوم تلوحُ بالخضراء
وكأنما جاء النسيمُ مبشِّرًا ... للروض يُخْبره بطولِ بَقاء

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٥٠. ٣٥١).
(٢) رواية البيت في الإحاطة هي:
جادَ الزمانَ بأنّة الجرعاء ... توقان من دمعي وغيث سماءِ
(٣) في الإحاطة: «الغَيْناء».
(٤) في الإحاطة: «الأمجد».
(٥) في الإحاطة: «عوجا بحار الغيم. . حتى ترى. . ».
(٦) في الإحاطة: «سُخْمَة أعين. . ». وسخنة العين: كناية عن الحزن والقلق.
(٧) في الإحاطة (ص ٣٥١): «وجَرَتْ».
(٨) في الإحاطة: «غصن».

فكساهُ خِلْعَةَ طِيبِهِ ورمى له بدراهم الأزهارِ رَمْيَ سخاء
وكأنما احتقرَ الصنيعَ فبادرتْ لِلْعُذْرِ[١] عنه نَغْمَةُ الوَرْقاء
والغُصْنُ يرقصُ في حُلَى أوراقِهِ كالخُودِ في مَوْشِيَّةٍ خضراء
وافترَّ ثَغْرُ الأُقْحوانِ بما رأى طربًا وقهقه منه جَرْيُ الماء
أفديهِ من أُنْسٍ تصرَّمَ فانقضى فكأنه قد كان في الإغفاء
لم يَبْقَ منه غير ذكرى أو مُنًى وكلاهما سببٌ لطول عناء
أو رقعة من صاحبٍ هي تحفةٌ إنَّ الرقاعَ لَتُحْفَةُ النُبَهاءِ
كبطاقةِ الوقشيِّ إذ حَيَّا بها إنَّ الكتابَ تحيّةُ الخلطاء[٢]
ما كنتُ أدري قبل فضِّ ختامها أنَّ البطائق أكؤسُ الصَّهْباء[٣]
حتى ثنيتُ مَعَاطفي طربًا بها وجَرَرْتُ أذيالي من الخُيَلاء
فجعلتُ ذاك الطِّرْسَ[٤] كأسَ مُدامةٍ وجَعَلْتُ مهديه من الندماء
وعجبتُ من خلٍّ يعاطي خلَّه كأسًا وراء البحرِ والبيداء
ورأيتُ رونقَ خطِّها في حُسْنها كالوَشْي نَمَّقَ معصم الحسناء
فوحقِّها من تسعِ آياتٍ لقد جاءتْ بتأييدي على أعدائي
فكأنني موسى بها، وكأنها تفسيرُ ما في سورةِ الإسراء
لو جاد فكرُ ابنِ الحسين بمثلها صَحَّتْ نبوّتُهُ لدى الشعراء[٥]
سوداءُ إذ أبصرتها لكنها كم تحتها لك من يَدٍ بيضاء
ولقد رأيتُ وقد تأوّبني الكَرَى في حيثُ شابتْ لِمّةُ الظَّلْماء
أنَّ السماءَ أتى إليَّ رسولها بهديّةٍ ضاءت بها أرجائي
بالفرقدين والثريّا أدرجا في الطيِّ من كافورةٍ بيضاء
فكفى بذاكَ الطِّرس من كافورة[٦] وبنظمِ شعركَ من نجومِ سماء

---

(١) في الإحاطة: «بالعذر».
(٢) في الإحاطة: «كبطاقة الوَسْميّ. . . الظُّرفاء».
(٣) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الإحاطة.
(٤) الطِّرْسُ: الصحيفة. لسان العرب (طرس).
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٥٥): «لو جاء فكر». وابن الحسين هو أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين.
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٤٠١): «كافوره».

قَسَمًا بها وبنظمها وبنثرها لقد انتحت لي[1] ملء عين رجائي
وعلمتُ أنك أنت في إبداعها لفظًا وخطًّا معجزُ النبلاء
لا ما تعاطتْ بابلٌ من سحرها لا ما ادّعاه الوشيُ من صنعاء
ولقد رميتُ لها القيادَ وإنها لقضيَّةٌ أَعْيَتْ على البلغاء
وطلبتُ من فكري الجوابَ فعقّني وكبا بكفّ الذهب زَنْدُ ذكائي
فلذا تركتُ عَرُوضَها ورويَّها وهجرتُ فيها سُنَّةَ الأدباء
وبعثتها ألفيَّةً همزيّةً خدعًا لفكرٍ جامعٍ إيبائي
علمت بقدرك في المعارف فانبرتْ من خجلةٍ تمشي على استحياء

انتهت القصيدة، ومن خطِّ ناظمها صفوان نقلتها.

رجع - وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى في ترجمة أبي محمد عبد اللّه بن إبراهيم بن عبد اللّه الأزدي في «التاج» ما صورته[2]: طويل القوادم والخوافي، كَلِفَ على كبر سنّه بعقائل القوافي، شابَ في الأدب وشَبَّ، ونَشِقَ ريح البيان لَمَّا هَبَّ، فحاول رقيقه[3] وجَزْلَه، وأجاد جدَّه وأحكم هَزْله، فإن مَدَح، صَدَح، وإن وصف، أنصف، وإن عصف، قصف، وإن أنشأ ودوّن، وتقلّب في أفانين البلاغة وتلوّن، أفسد ما شاء اللّه وكَوّن، فهو شيخ الطريقة الأدبية وفَتاها، وخطيب حَفْلها كلّما أتاها، لا يتوقّف عليه من أغراضها غرض، ولا يَضيع لديه منها مُفترض، ولم تزل بُرُوقه تتألّق، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلّق، حتى بَرّز في أبطال الكلام وفرسانه، وذُعرت القلوب بسطوة[4] لسانه، وألقت إليه الصناعة زِمامَها، ووقفت عليه أحكامها. وعَبَر البحرَ مُنْتَجِعًا بشعره، ومُنْفِقًا في سوق الكساد من سعره[5]، فأبرق وأرْعَدَ، وحَذَّر وأوْعَدَ[6]، وبلغ جهد إمكانه، في التعريف بمكانه، فما حرّك ولا هَزَّ، وذلّ في طلب الرِّفد وقد عَزَّ، وما برح أن رجع إلى وطنه الذي اعتاده، رجوع الحديث إلى

---

(١) في طبعة دار صادر: «لقد انتحتني ملء عين...».
(٢) النص في الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٢١ - ٤٢٢).
(٣) في الإحاطة: «رفيعه».
(٤) في الإحاطة: «السطوة».
(٥) في الإحاطة: «شعره».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٠٢): «وأرعد». وفي الإحاطة: «وتوعّد».

قَتادة. وقد أثبتُّ من نزعاته، وبعضِ مخترعاته، ما يدلّ على سَعَة باعه، ونهضة ذراعه، فمن النسيب قولُه[1]: [البسيط]

ما للمُحِبُّ دواء يُذْهِبُ الألَمَا … عنه سوى لَمَمٍ فيه ارتشافُ لَمَى
ولا يَردُّ عليه نَوْمَ مُقْلتـه … إلاَّ الدُّنوَّ إلى مَنْ شَفَّه سَقَما
يا حاكمًا والهوى فينا يؤيِّدُه … هواكَ فيَّ بما ترضاهُ قد حكما

ثم سردها وقال في المديح: [البسيط]

إليكَ جدَّ بيَ التَّسْيارُ تأميلا … فلي على فضلكَ المأمولِ تعويلا
الحمدُ للّه حمدًا لا كفاءَ له … بِسَعْدِ أيامكَ المأمولُ قد نِيلاَ
يا راغبًا مرتجاه[2] دفعَ معضلَةٍ … فصبرُهُ بصروفِ الدهرِ قد عيلا
ألْمِمْ بحضرةِ ملْكٍ كُلُّ مفتخرٍ … بالملك يوليه بالتعظيم ترسيلا
فرع من الدَّوْحَة النصرية اجتمعتْ … فيه الفضائلُ تتميمًا وتكميلا
لديهِ مِمَّا لدى الصدّيق تسميةٌ … ومِيسَمٌ وكفاه ذاك تفضيلا

وهي طويلة؛ انتهى.

وقال لسان الدين في «الإكليل» في ترجمة أبي الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن خطاب السكاك من أهل غرناطة، ما صورته: متسوّر على بيوت القريض، في الطويل من الكلام والعريض، مِمَّنْ أطاعته براعة الخطّ، وسلّمت لأقلامه رماحُ الخطِّ[3]، عانى كتابة الشروط لأول أمره، ثم ألظَّتْ[4] به محنتُه على توفُّر خصاله، ونبل خلاله، وهو الآن من كتاب ديوان الحساب، يتعين[5] من الأمور المخزنية ببعض الألقاب؛ انتهى.

وقال في «التاج» في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلي الغرناطي ما صورته[6]: اللَّسِن العارف، الناقد لجواهر المعاني كما يفعل بالسكة

---

(١) الأبيات في الإحاطة ضمن عشرة أبيات.
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٤٠٣): «يا راغبًا من حجاه. .».
(٣) الخَطّ: أرض تُنسب إليها الرماح الخَطِّيَّة. معجم البلدان (ج ٢ ص ٣٧٨).
(٤) أَلَظَّتْ به محنته: لازمته. لسان العرب (لظظ).
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٥٧): «يتعلّل».
(٦) ترجمة ابن الصباغ في الإحاطة (ج ٤ ص ١٢٢) والكتيبة الكامنة (ص ٢٢٨) والنص النثري وقطعتا الشعر في الإحاطة (ص ١٢٢ . ١٢٣).

الصيارف، والأديب المجيد، الذي تحلَّى[1] به للعصر النحرُ والجيد، إن أجال جِيادَ براعته فضَح فرسان الْمَهارِق، وأخجل بين بياض طِرْسه وسواد نِقْسه[2] الطُّرَرَ تحت المفارق، وإن جلا أبكار أفكاره، وأثار طير البيان من أوكاره، سلب الرحيقَ المقَدَّم[3] فضلَ إسكاره، إلى نفس لا يُفارقها ظرف، وهِمّة لا يرتدّ إليها طَرْف، وإبانة لا يُفَلُّ لها غَرْب ولا حرف. وله أدب غضّ، زهرةُ على[4] مُجتنيه منفض، كتبت إليه أستنجز[5] وعده في الإتحاف برائقه، والإمتاع بزهر حدائقه[6]، قولي: [الكامل]

عندي لموعدكَ افتقارُ مُخرِجٍ[7]   وعهودكَ افتقرتْ إلى إنجازها
واللّه يعلم فيكَ صدْقَ مودَّتي   وحقيقةُ الأشياء غيرُ مَجازها

فأجابني بقوله: [الكامل]

يا مُهْديَ الدُّرِّ الثمينِ منظّمًا   كَلِمًا حلالُ السحرِ في إيجازها
أدركتَ حَلْباتِ الأوائل وانيًا   وَرَدَدْتَ أُولاها على أعجازها
أَحْرَزْتَ في المضمار خَصْل سِباقها   ولأنتَ أسبقهم إلى إحرازها
حَلَّيْتَ بالسِّمْطَينِ مني عاطلاً   وبعثتَ من فكري فتاةً[8] مفازها
فلأنجزنَّ مواعدي مستعطفًا   فاسمحْ، وبالإغضاء منك فجازِها

وقال في «الإحاطة» في حقّ المذكور[9]: إنه من أهل الفضل والسَّراوة والرجولة والجزالة. فَذٌّ في الكفاية، ظاهرُ السذاجة والسلامة، مُصْعَبٌ لأضداده، شديد العصبية لأولي وداده[10]، يشتمل على خلال من خطّ بارع وكتابة حسنة وشعر جيد ومشاركة في فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة ممتعة. ناب عن بعض القضاة وكتب الشروط، وارتسم في ديوان

---

(١) في الإحاطة: «تملّى به العصر والنحر..».
(٢) في الإحاطة: «نفسه». والنِّقْس: الحبر. لسان العرب (نقس).
(٣) في الإحاطة: «المفدّم فضل أبكاره..».
(٤) في الإحاطة (ص ١٢٣): «عن مجتنيه مرفض».
(٥) في الإحاطة (ص ١٢٣): «أنتجز».
(٦) في الإحاطة: «هواتفه، وهو قولي».
(٧) في الإحاطة: «مُحْوِج».
(٨) في الإحاطة: «متات».
(٩) الإحاطة (ج ٤ ص ١٢٢).
(١٠) في الإحاطة: «العصبة لأولي ودّه، مشتملٌ».

الجند، وكتب عن شيخ الغزاة أبي زكريا يحيى[1] بن عمر على عهده، ثم انصرف إلى العُذوة سابع عشر جمادى الأولى من عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، فارتسم في الكتابة السلطانية مُنَوَّهًا به، مُسْتَعْمَلاً في خدم مُجْدِية بان غَناؤه فيها وظفرت كفايته، انتهى.

وقد وصفه بصاحبنا. ثم قال: ومن شعر المذكور قوله[2]: [المديد]

ليت شعري والهوى أملٌ   وأماني الصَّبِّ لا تقفُ
هل لذاك الوَصْلِ مُرْتَجَعٌ   أو لهذا الهجر مُنْصَرَفُ

وقال: [الطويل]

وظبي سبى بالطَّرْف والعِطفِ والجَيَدْ[3]   وما حاز من غُنجٍ ولِينٍ ومن غَيَدْ
أَشَرْتُ[4] إليه بالدّنوّ مُداعبًا   فقال: أيدنو الظبي من غابةِ الأَسَدْ

وقال في مبدإ قصيدة مطوّلة[5]: [الطويل]

حديث المغاني بَعْدَهُنَّ شُجون   وأَوْجُهُ أيام التباعدِ جُونُ[6]
لحا اللّه أيامَ الفراقِ فكم شَجَتْ   وغادرتِ الجَذْلانَ وهو حزين
وحَيَّا ديارًا في رُبَا أَغْرَناطة[7]   وإني بذاك القربِ منكَ ضنينُ
لأرخَصْتُ فيها من شبابيَ ما غلا   وعزمي على مالِ العفافِ أمين[8]
خليليّ، لا أمْرٌ، بأَرْبُعِها قِفا   فعندي إلى تلك الربوع حَنين
ألم ترياني كلّما ذَرَّ شارق   تضاعفُ عندي عَبْرَةٌ وأنين
إذا لم يساعدني أخٌ منكما فلا   حَدَتْ[9] لخؤونٍ بعد ذاك أَمُونُ

---

(١) في الإحاطة: «أبي زكريا بن عمر..».
(٢) هذان البيتان والبيتان التاليان في الإحاطة (ص ١٢٣) والكتيبة (ص ٢٢٩).
(٣) في الكتيبة: «والطلا».
(٤) في الإحاطة: «أتيت».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٠٥): «مطونة». والقصيدة في الإحاطة (ج ٤ ص ١٢٣ . ١٢٤).
(٦) الجون: السُّود. لسان العرب (جون).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «غرناطة» وهكذا ينكسر الوزن.
(٨) في الإحاطة: «فأرخصْتُ فيها.. وغرمي على مال..».
(٩) في الإحاطة: «حدت نحو قرن بعد..».

أليس عجيبًا في البريّةِ مَنْ له إلى عهدِ إخوانِ الزمانِ[١] رُكونُ
فلا تَثِقَنْ من ذي وفاءٍ بعهده[٢] فقد أَجِنَ السَّلسال وهو مَعِين
لقلبيَ[٣] عذرٌ في فراق ضلوعه وللدمع في ترك الشؤون شؤون
ومن ترَكَ الحزمَ المعينَ فإنه لَعانٍ بأيدي الحادثات رهين
رعى اللّه أيامي الوثيقَ ذِمامُها فإنَّ مكاني في الوفاء مَكين
ولم أرَ مثلَ الدهرِ أمّا عدوُّه فَجِبٌ[٤]، وأمّا خِلُّه فخؤون
ولولا أبو عمرو وجُودُ بنانِهِ[٥] لما كان في هذا الزمان مُعين

وقال[٦]: [الكامل]

زار الخيالُ ويا لها من لَذّةٍ لَكنَّ لَذّاتِ[٧] الخيال مَنامُ
ما زلتُ ألثمُ مَبْسمًا منظومُهُ دُرٌّ[٨] ومَوْرِدُهُ الشَّهِيُّ مُدام
وأضمُّ غصنَ البان من أعطافِهِ وأشمُّ[٩] مسكًا فُضَّ عنه ختامُ

مولده عام ستة وسبعمائة، وتوفي بفاس، وقد تخلَّفه السلطان كاتب ولده عند توجّهه لإفريقية في العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

وقد وهم لسان الدين في شهر وفاة المذكور[١٠]، وإنما الصواب أنه توفي يوم الأحد ثامن شوّال، فاعلم ذلك، واللّه سبحانه أعلم.

رجع. وقال في «التاج المحلّى، في مساجلة القِدْح المعلّى» وفي «الإكليل الزاهر، فيمن فضل عند نظم التاج الجواهر» وغيرهما مِمّا ثبت في حلى رؤساء الكُتّاب، وحاملي

---

(١) في الإحاطة: «للزمان».
(٢) في الإحاطة: «فلما تثغن من ذرى وفاءٍ..».
(٣) في الإحاطة: «أذلني عذرٌ..».
(٤) في الإحاطة: «فَخِبٌّ».
(٥) في الإحاطة: «يمينه».
(٦) الأبيات في الإحاطة (ج ٤ ص ٢٢٤) والكتيبة (ص ٢٢٩).
(٧) في الكتيبة: «للذّات».
(٨) في الكتيبة: «دُرَرٌ».
(٩) في الإحاطة والكتيبة: «فأشِمُّ».
(١٠) يقول ابن الخطيب في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٢٤): «وتوفي بمدينة فاس.. في شوال عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، فتوفي في العشرين لرمضان منه».

ألوية الآداب، في ترجمة شيخه ابن الجياب، ما نصه[1]: «صدر الصدور الجلّة، وَعَلَمُ أعلام هذه الملّة، وشيخُ الكتابة وبانيها[2]، وهاصِرُ أفنان البدائع وجانيها، اعتمدته الرياسة فناءً[3] بها على حبل ذراعه، واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شَباة يَرَاعه[4]، فتفيّأ للعناية ظلاً ظليلاً، وتعاقبت [5] الدول فلم تَرَ به بَديلاً، من نَدْب على علوّه متواضع، وحبر لِشَذْي المعارف راضع، لا تمرُّ[6] مذاكرة في فن إلاّ وله فيه التبريز، ولا تُعرض جواهر الكلام على محكات الأفهام إلاّ وكرمُه الإبريز، حتى أصبح الدهر راويًا لإحسانه، وناطقًا بلسانه، وغرّب ذكره وشرَّق، وأشأم وأعرق، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق، إلى نفس هذبت الآداب شمائلها، وجادت الرياضة خمائلها، ومراقبة لربّه، واستنشاق لِرَوْح الله من مَهَبّه، ودين لا يُعْجم عوده، ولا تخلف وعوده، وكلّ ما ظهر علينا ـ معشر بنيه ـ من شارة تجلى[7] بها العين، أو إشارة كما سُبكَ[8] اللُّجَين، فهي إليه منسوبة، وفي حسناته محسوبة، فإنما هي أنفسٌ راضَها بآدابه، وأعلقها بأهدابه، وهذّب طباعها، كالشمس تلقي على النجوم شعاعها، والصور الجميلة، تترك في الأجسام الصقيلة انطباعَها، وما عسى أن أقول[9] في إمام الأئمة، ونور الدياجي المُدْلَهِمّة، والمثل السائر في بُعْد الصيت وعلوّ الهمّة. وقد أثبتُّ من عيون قصائده، وأدبه الذي علق الإحسان في مَصايده، كلٌّ وثيق المعنى، كريم المجنى، جامع بين حَصَافة اللفظ ولطافة المعنى»؛ انتهى.

والمذكور له ترجمة في هذا الكتاب في باب مشيخة لسان الدين فلتراجع.

---

(١) مرَّ التعريف بابن الجياب والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء السابع. والنص في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٢٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٨٣ـ ١٨٤).

(٢) في الإحاطة والكتيبة: «وبنيها».

(٣) في الإحاطة: «فنأى».

(٤) اليراع: القلم، وأراد بالشباة طرف القلم الذي يكتب به، وأصل الشباة طرف الرمح ونحوه.

(٥) في الكتيبة: «وتعاقبت دول العدل.. له عديلاً».

(٦) في الكتيبة: «لا يمرُّ الكلام في فن..».

(٧) في الكتيبة: «تحلّى».

(٨) في الكتيبة: «سكب».

(٩) في الكتيبة: «أن يقال».

وقال في «الإكليل» في حقّ عمر بن علي بن غفرون الكلبي من أهل منتفريد[1] ما صورته[2]: شيخ خَدَم، قام له الدهر فيها على قَدَم، وصاحب تعريض، ودهاء عَريض، وفائز من الدول[3] النَّصْرية بأيادٍ بيض، أصلُه من حصن منتفريد[1]، خدم به الدولة النصرية عند انتزاء أهله، وكان مِمَّن استنزلهم من حَزْنه إلى سَهْله، وحكَّم الأمر الغالبي في يافعه وكَهْله، فكسب[4] حُظْوة أرْضَتْه، ووسيلة أرْهَفَتْه وأمْضَتْه[5]، حتى عظم جاهه وماله، وبَسَقت آمالُه[6]، ثم دالت الدول، وتنكّرت[7] أيامه الأول، وتغلّب من يُجَانسه، وشقي بمن كان ينافسه، فجفّ عودُه، والتاثت سعوده، وهلك والخمولُ يُظِلُّه[8]، والدهر يقوته من صُبابة حرث كان يَسْتغلُّه، وله شعر لم يتقنه[9] النظر، ولا وضحت منه الغُرَر. توفي في ذي الحجة عام أربعة وأربعين وسبعمائة؛ انتهى.

وقال في «الإكليل» في حق قاسم بن محمد بن الجدّ الفهري المري ما صورته: هو من أئمة أهل الزمام، خليق برعْي الذمام، ذو حظّ كما تفتّح زهر الكمام، وأخلاق أعذب من ماء الغَمام، كان ببلده حاسبًا، ودُرًا في لُجَّةِ الإغفال راسبًا، صحيح العمل، يُلْبس الطروسَ من براعته أسنى الحلل، قال يمدح السلطان: [الطويل]

أرى أَوْجُهَ الأيامِ قد أشرقَتْ بِشرا ... فقلْ لي رعاك اللّه ما هذه البشرى

وما بالُ أنفاسِ الخُزَامىٰ تعطّرتْ ... فأرَّجَتِ الأرجاءَ من نفحها عطرا

ونَقَّبَتِ الشمسُ المنيرةُ وَجْهَها ... قصورًا عن الوجه الذي أخجل البدرا

وهي طويلة. توفي المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٠٧): «منتقرير» ومنتفريد، بالإسبانية Montefrío أي جبل البرد، وتقع شمال مدينة لوشة.

(٢) ترجمة ابن غفرون ونص الترجمة في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٣) في الإحاطة: «من الدولة بأيادٍ».

(٤) في الإحاطة: «فاكتسب».

(٥) أَمْضَتْهُ: جعلته ماضيًا نافذًا. لسان العرب (مضى).

(٦) في الإحاطة: «عظم ماله، واتّسقت آماله».

(٧) في الإحاطة: «ونكرت».

(٨) في الإحاطة: «يطلبه».

(٩) في الإحاطة (ص ١٩٣): «لم يثقفه».

وقال في «الإكليل» في حقّ أبي عثمان سعيد الغساني[1] ما صورته[2]: «هو مِمَّن يتشوّق إلى المعرفة[3] والمقالات، ويتّسق[4] إلى الحقائق والمُحالات، ويشتمل على نفس رقيقة، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة، ويعاني من الشعر ما يشهد بنُبْله، ويُستظرف من مثله؛ انتهى.

وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن علي الطرطوشي[5] ما صورته[6]: روض أدب لا تعرف الذواء[7] أزهارُه، ومجموع فضل لا تَخْفى آثاره، كان في فنون الأدب مُطْلَق الأعِنَّة، وفي معاركه ماضي الظُّبا والأسِنّة، فإنْ هَزَلَ، وإلى تلك الطريقة اعتزلَ، أبرم[8] من الغزل ما غزل، وبزل[9] من دنان راحه ما بزل، وإن صرف إلى المغرب غَرْب لسانه[10]، وأعاره لمحة من إحسانه، أطاعه عاصِيه، واستجمعت لديه أقاصِيه. وَرَدَ على الحضرة الأندلسية والدنيا شابّة، وريح القبول هابَّة، فاجتلى محاسن أوطانها، وكتب عن سلطانها، ثم كَرَّ إلى أوطانه[11] وعطف، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف. وتوفي عن سنّ عالية، وبرود من العمر غالية.

وقال في ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن أحمد بن المتأهل العذري من أهل وادي آش ما صورته[12]: رجلٌ غليظ الحاشية، معدودٌ في جنس السائمة والماشية، تُليت على العمال به سورة الغاشية، وليَ الأشغال السلطانية فذعرت الجُباة لولايته، وأيقنوا بقيام قيامتهم

(۱) هو سعيد بن محمد بن إبراهيم بن عاصم بن سعيد الغساني، يكنى أبا عثمان، وهو من أهل غرناطة. ولد سنة ٦٩٩ هـ. ترجمته في الإحاطة (جـ ٤ ص ٣١٠).
(۲) النص في الإحاطة (جـ ٤ ص ٣١١).
(۳) في الإحاطة: «إلى المعارف».
(٤) في الإحاطة: «ويتشوّف.. والمجالات».
(٥) ترجمة يوسف بن علي الطرطوشي في الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٢٢) والدرر الكامنة (جـ ٥ ص ٢٤٢).
(٦) النص في الإحاطة (ص ٤٢٣).
(۷) في الإحاطة: «الدواة». والذواء: الذبول. لسان العرب (ذوى).
(۸) في الإحاطة: «أبرم في الغزال».
(۹) في الإحاطة: «وبذل.. ما بذل».
(١٠) غَرْبُ اللسان: صرامته، وغَرْبُ السيف: حدُّه. لسان العرب (غرب).
(۱۱) في الإحاطة: «إلى وطنه».
(۱۲) في الإحاطة (جـ ٣ ص ٢١٧): «محمد بن أحمد المتأهل العبدري». ونص ترجمته في المصدر نفسه (ص ٢١٧ ـ ٢١٨) ومرّ هذا النص في هذا الجزء.

لطلوع آيته، وقَنِطوا كلَّ القُنُوط، وقالوا: جاءت الدابة تُكَلِّمُنا وهي إحدى الشروط، من رجل صائم الحُشْوة[1]، بعيد عن المصانعة والرشوة، يتجنّب الناس، ويقول عند المخالطة لهم: لا مساس، عَهْدي به في الإعمال يحبط[2] ويُتَبِّر، وهو يهلّل ويكبّر، ويحسّن ويقبّح، وهو يسبّح. وقال يخاطب بعض أمراء[3] الدولة: [الطويل]

عمادي، ملاذي، موئلي، ومؤمَّلي ... ألا أنْعَمْ بما ترضاهُ للمتأهّلِ
وحقِّقْ بِنَيلِ القصد منكَ رجاءه ... على نحو ما يُرْضيك يا ذا التَّفَضُّل
فأنت الذي في العلم يُعْرف قَدْرُهُ ... بخيرِ زمانٍ فيه لا زلتَ تَعْتلي
فَهُنِّيتَ يا معنى[4] الكمال بِرُتْبَةٍ ... تقرُّ لكم بالسَّبْقِ في كلِّ مَحْفل

توفي عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة، انتهى.

وتذكرت بقوله «ويحسن ويقبح، وهو يسبح» قولَ الآخر: [مجزوء الرمل]

قد بُلينا بأميرٍ ... ظَلَمَ الناسَ وسَبَّحْ
فهو كالجزّارِ فيهم ... يذكرُ اللّه ويَذْبحْ

رجع. وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد اللّه بن باق[5] من «التاج» ما صورته[6]: «مدير أكؤس[7] البيان المعتّق، ولَعُوب بأطراف الكلام المُشَقَّق، انتحل لأول أمره الهَزْل من أصنافه، فأبرز دُرَّ معانيه من أصدافه، وجَنَى ثمرة الإبداع لحين قِطافه. ثم تجاوزه إلى المغرب[8] وتَخَطّاه، فأدار كأسه المُتْرَعَ وعاطاه، فأصبح لفنَّيهِ[9] جامعًا، وفي فلكيه شِهابًا لامعًا، وله ذكاء يطير شررُه، وإدراك تتبلّج غُرَرُه، وذهن يكشف الغوامض، ويسبق البارق

(١) في الإحاطة (ص ٢١٨): «الحُشوة».
(٢) في الإحاطة: «يخبط».
(٣) في الإحاطة: «بعض أثراء الدولة قبل نباهته».
(٤) في الإحاطة: «يا مغنى».
(٥) هو محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي، توفي بمالقة سنة ٦٥٢ هـ. وترجمته في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٨) والدرر الكامنة (جـ ٣ ص ٣٧٦).
(٦) نص الترجمة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٩).
(٧) في الإحاطة: «أكواس».
(٨) في الإحاطة: «المُعَرَّب».
(٩) أي فنّي النظم والنثر.

الوامض [١]، وعلى ذَلاقة لسانه، وانفساح أمد إحسانه، فشديد الصبابة [٢] بشعره، مُغْلٍ لسعره»؛ انتهى.

والمذكور هو محمد بن إبراهيم بن علي باق الأموي، مرسيّ الأصل، غرناطيّ النشأة، مالقيّ الاستيطان.

وقال في «عائد الصلة»[٣]: «كان رحمه اللّٰه تعالى كاتبًا أديبًا ذكيًا لَوْذعيًا يجيد الخطّ ويرسل النادرة، ويقدم على العمل، ويشارك في الفريضة، وبَذَّ السُّبَّاق في الأدب الهَزْلي المستعمل بالأندلس، غبر[٤] زمانًا من عمره محارفًا للفاقة، يعالج بالأدب الكُدْية، ثم استقام له الميسم، وأمكنه البَخْت من امتطاء غاربه، فأنشبت الحُظْوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب[٥] ومدير تَجْر، فأثرى ونما ماله، وعَظُمت حاله، عهد[٦] عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين، لِتُصْرفَ في وجوه من البِرّ، فتوهّم أنها كانت زكاة أمسك بها»؛ انتهى.

وقال أيضًا: أخبرني الكاتب أبو عبد اللّٰه بن سلمة أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله في رَوِيِّه[٧]: [الخفيف]

أحرز الخَصْلَ من بني سلمَهْ ... كاتبٌ تخدمُ الظُّبَا قَلَمَهْ
يحملُ الطِّرْسُ من أناملِهِ ... أثرَ الحسنِ كلّما رقمهْ[٨]
وتمدُّ البيانَ فكرتُهُ ... مرسلاً حيث يممت ديمهْ[٩]
خَصَّني متحفًا بخمس إذا ... بَسَمَ الرَّوضُ فُقْنَ مُبْتَسَمَهْ
قلت أهدى زهر الرُّبا خَضِلاً ... فإذا كلُّ زهرةٍ كَلِمَهْ

---

(١) الوامض: المضيء. لسان العرب (ومض).
(٢) في الإحاطة: «الضنانة».
(٣) النص في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٩).
(٤) في الإحاطة: «عمر».
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٦٤): «وحاسب».
(٦) في الإحاطة: «وعهد عقد ما شارف».
(٧) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠).
(٨) في الإحاطة: «إثر الطرس كلّما رقّه».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤١٠): «ويمدّ». وفي الإحاطة: «البيان بفكرته».

أقسم الحُسْنُ لا يُفارِقُها فأَبَرَّ انتقاؤها قسَمَهْ
خَطٌّ أسْطارَها ونَمَّقَها فأتتْ كالعقودِ منتظمَهْ
كاسيًا من حلاه لي حُلَلاً رسْمُها من بديعِ ما رسمهْ
طالبًا عند عاطشٍ نَهَلاً ولديه الغيوثُ منسجمَهْ
يبتغي الشِّعْرَ من أخي بَلَهٍ أخرسَ العِيُّ والقصورُ فَمَهْ
أيها الفاضلُ الذي حفظتْ[1] ألسنُ المدح والثنا شِيَمَهْ
لا تكلِّفْ أخاك مقْترِحًا نشرَ عارٍ لديه قد كَتَمَهْ
وابْقَ في عزَّةٍ وفي دَعَةٍ ضافي العيش واردًا شَبِمَهْ[2]
ما ثَنَى الغصنُ عِطْفَهُ طربًا وشدا الطيرُ فَوْقَهُ[3] نَغَمَهْ

ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين ما صورته: نعم ما خاطب به شيخنا وبركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد اللّه بن سلمة، ومن لفظه سمعتها بالقاهرة، وإنها لمن النظم العالي المتّسق نسق الدّرّ في العقود، رحمه اللّه تعالى! قاله ابن المؤلف؛ انتهى.

وقرأ[4] ابن باق المذكور على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير[5] والخطيب أبي عثمان بن عيسى. وتوفي بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرم فاتح عام اثنين وخمسين وسبعمائة، وأوصى بعد أن حُفِرَ قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد اللّه الطنجالي وأبي عثمان بن عيسى أن يدفن به، وأن يُكتب على قبره هذه الأبيات: [الطويل]

ترحَّمْ على قبر ابن باق وَحَيِّهِ فمن حقِّ ميتِ الحيِّ تسليمُ حَيِّهِ
وقل آمَنَ[6] الرحمنُ رَوْعَةَ خائفٍ لتفريطهِ في الواجبات وغيِّه
قد اختار هذا القبر في الأرض راجيًا من اللّه تخفيفًا بِقَدْرِ[7] وليِّه

---

(١) في الإحاطة: «حَمِدَتْ».
(٢) الشَّبِمُ: البارد. لسان العرب (شبم).
(٣) في الإحاطة: «فوق». وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) الإحاطة (ج ٢ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١).
(٥) في الإحاطة: «أبي جعفر الزبير».
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٤١١): «أَمَّنَ».
(٧) في الإحاطة (ص ٣٤١): «بقرب».

فقد يشفعُ الجارُ الكريمُ لجارِهِ ... ويشملُ بالمعروف أهلَ نَدِيِّهِ
وإني بفضلِ اللَّهِ أوثقُ واثقٍ ... وحَسْبِي وإن أَذْنَبْتُ حُبُّ نبيِّه

انتهى[1].

رجع[2]. وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد اللَّه محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافري المري[3] المدعوّ بالتنوء من «الإكليل» ما نصُّه[4]: شيخ أخلاقه لينة، ونفسه كما قيل هينة، ينظم الشعر سهلاً مَسَاقُه، محكمًا اتّساقُه، على فاقة، ما لها من إفاقة، أنشد المقامَ السلطاني بظاهر بلده قوله: [الطويل]

سَرَتْ ريحُ نجدٍ مِنْ رُبَا أرضِ بابلٍ ... فهاجَتْ إلى مَسْرَى سُراها بلابلي
وذكّرني عَرْفُ النسيمِ الذي سرى ... معاهدَ أحبابٍ سُراةٍ أفاضلِ
فأصبحتُ مشغوفًا بذكر منازلٍ ... ألفتُ، فواشوقي لتلك المنازل
فيا ريحُ هُبِّي بالبطاح وبالرُّبا ... ومُرِّي على أغصانِ زهرِ الخمائل
وسيري بجسمي للتي الروحُ عندها ... فروحي لديها من أجلِّ الوسائل
وقولي لها عني مُعَنَّاك بالنوى ... له شوقُ معمودٍ وعبرةُ ثاكلِ[5]
فيا بأبي هيفاءَ كالغصن تنثني ... تقدُّ بقدّ كاد ينقدُّ مائلِ[6]

وهي طويلة.

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة[7]: [الكامل]

بَهَرَتْ كشمسٍ في غلالةِ عسجدٍ ... وكبدرٍ تمّ في قضيب زبرجدِ
ثم انثنتْ كالغصن هَزَّتْهُ الصَّبا ... طربًا فتزري بالغصون المُيَّدِ

---

(١) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤١١).
(٢) كلمة «رجع» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٦٥).
(٣) ترجمة ابن فضيلة المعافري في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٤١) والدرر الكامنة (جـ ٣ ص ٣٦٧).
(٤) النص في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٤١).
(٥) في الإحاطة: «معنّاك بالهوى». والمعمود: اسم مفعول من قولهم: عمده الحب إذا أحزنه. والثاكل: الفاقد. والعبرة: الدمعة. لسان العرب (عمد) و (ثكل) و (عبر).
(٦) في الإحاطة: «تثنّى بقدّ يقدُّ كاد..».
(٧) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٤٢).

حوراءُ بارعةُ الجمالِ غريرةٌ ... تزهى فتزري بالقضيبِ الأمْلَد
إنْ أدبرتْ لم تُبْقِ عقلَ مُدَبِّرٍ ... أو أقبلتْ قتلتْ ولكن لا تَدِي[1]

قال[2] القاضي أبو البركات بن الحاج: وابْتُلي باختصار كتب الناس، فمن ذلك مختصره المسمَّى «الدرر الموسومة[3]، في اشتقاق الحروف المرسومة» وكتاب حكايات يسمى «دوحة[4] الجنان، وراحة الجَنان» وغير ذلك.

قال أبو البركات: وسألته عن مولده، فقال: لي اليوم ستون سنة، وقال ذلك ليلة الخميس السابع والعشرين لذي قعدة عام أربعين وسبعمائة، وتوفي آخر رمضان من عام تسعة وأربعين، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

رجع. قال لسان الدين في «الإكليل» في ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبي العباس أحمد بن علي الملياني المراكشي ما نصُّه[5]: «الصارم الفاتك، والكاتب الباتك[6]، أيُّ اضطراب في وَقار، وتجهُّم تحته أنس العقار! اتّخذه ملك[7] المغرب صاحب علامته، وتَوَّجَهُ تاجَ كرامته، وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثأر عمِّه، ويطوّفهم[8] دَمَه بزعمه، ويقصر على الاستنصار[9] منهم بنات همِّه، إذ سَعَوْا فيه حتى اعْتُقل، ثم جدّوا في أمره حتى قُتل، فترصّد كتابًا إلى مراكش يتضمّن أمرًا جَزْمًا، ويشمل[10] من أمور الملك عَزْمًا، جعل[11] فيه الأمر بضرب رقابهم، وسَبْي أسبابهم، ولَمَّا أكّد على حامله في العَجَل، وضايقه في تقدير الأجل، تأنّى حتى علم أنه قد وصل، وأنَّ غرضه قد حصل، فَرَّ إلى

---

(١) تدي: تدفع الدّية. لسان العرب (ودى)
(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٤٢).
(٣) في الإحاطة: «المنظومة الموسومة، في اشتقاق حروف الهجا المرسومة».
(٤) في الإحاطة: «تسمى روضة الجنان».
(٥) ترجمة أحمد بن علي الملياني في الإحاطة (جـ ١ ص ٢٨٤) ونص ترجمته في المصدر نفسه (ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦).
(٦) في الإحاطة: «الباتك، أبيُّ..». والباتك: القاطع. محيط المحيط (بتك).
(٧) في الإحاطة: «صاحب المغرب».
(٨) في الإحاطة: «ويطوقهم».
(٩) في الإحاطة: «الاستبصار».
(١٠) في الإحاطة: «ويشلُ».
(١١) في الإحاطة: «جعل الأمر فيه..».

تلمسان وهي بحال حصارها، فاتَّصل بأنصارها، حالاً بين أنوفها وأبصارها، وتعجّب من فراره، وسوء اغتراره، ورجَّمَتِ[1] الظنون في آثاره. ثم وصلت[2] الأخبار بتمام الحيلة، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة، فتركها [3] شنيعة على الأيام، وعارًا في الأقاليم على حَمَلَة الأقلام، وأقام بتلمسان إلى أن حَلَّ مُخَنِّق حصرها [4] ، وأُزيل هميان الضيقة عن خصرها، فلحق بالأندلس ولم [5] يعدم برًا، ورعيًا مستمرًا، حتى أتاه حِمامه، وانصرمت أيامه»؛ انتهى.

والمذكور ترجمه في «الإحاطة» بقوله [6] : صاحب العلامة بالمغرب، الكاتب الشهير البعيد الشأو[7] في اقتضاء التِّرة [8] ، المثل المضروب في الهمّة [9] ، وقوة الصريمة، ونفاذ العزيمة.

حاله[10]. كان نبيه البيت، شهير الأصالة، رفيع المكانة، على سجيّة غريبة[11] من الوقار والانقباض والصمت، آخذًا[12] بحظّ من الطبّ، حسن الخطّ، مليح الكتابة، قارضًا للشعر، تذهب[13] نفسه فيه كلّ مذهب.

وصمته. فتك فتكة شهيرة[14] أساءت الظن بِحَمَلة الأقلام على ممرّ[15] الدهر، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقّة.

---

(١) في الإحاطة: «ورجحت». ورجّمت الظنون: أي تكلّم فيها بالظنّ، وأصل الرجم: الرمي بالحجر. لسان العرب (رجم).
(٢) في الإحاطة: «اتصلت».
(٣) في الإحاطة: «وتركها شُنْعَةً».
(٤) في الإحاطة: «حصارها، وأزيل اللقيان.».
(٥) في الإحاطة: «فلم».
(٦) الإحاطة (جـ ١ ص ٢٨٥).
(٧) في الإحاطة: «الشأن».
(٨) التِّرة: الذَّحْل (الثأر). لسان العرب (وتر).
(٩) في الإحاطة: «العفّة».
(١٠) ما يزال النقل عن الإحاطة (ص ٢٨٥).
(١١) في الإحاطة: «غريبة كانت فيه من الوقار».
(١٢) في الإحاطة: «أخذ».
(١٣) في الإحاطة: «يُذْهب».
(١٤) في الإحاطة: «شنيعة».
(١٥) في الإحاطة: «مَرّ».

شعره - من شعره الذي يدلُّ على بأوه[1]، وانفساح خُطاه في النفاسة وبُعْد شأوه، قوله: [الكامل]

العِزُّ ما ضُرِبَتْ عليه قبابي ... والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثيابي
والزهرُ ما أَهداه غصنُ براعتي ... والمِسْكُ ما أبداه نِقْسُ[2] كتابي
فالمجد يمنع أن يُزاحَمَ مَوْردي ... والعزمُ يأبى أن يُضامَ جنابي[3]
فإذا بلوتُ صنيعةً جازيْتُها ... بجميل شكري أو جزيل ثوابي
وإذا عقدتُ مودّةً أجريْتُها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي
وإذا طلبتُ من الفراقد والسُّها ... ثأرًا فأُوشكُ أن أنالَ طلابي

وفاته - توفي بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ودُفن بجبانة باب إلبيرة، تجاوز اللّه تعالى عنه! انتهى.

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى:

فمن ذلك قوله، في «الروضة»[4] في ترجمة «ضخام الغصون، من شجرة السرّ المصون» ما صورته: وهي التي أفادت الظل الظليل، وزانت المرأى الجميل، وتكفّلت لمحاسن الشجرة الشمّاء بالتكفيل، وتتعدّد إلى غصون المحبوبات، وأقسام موضوعاتها المكتوبات، وغصن المحبين، أصنافهم المرتبين، وغصن علامات المحبّة، وشواهد النفوس الصَّبَّة، وغصن الأخبار المنقولة، عن ذوي النفوس المصقولة، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة[5]، كمل شكل الشجرة المرسومة، والسَّرْحة الموصوفة الموسومة، ففاءت الظلال، وكرمت الخلال، فحيي من تفرّد وتوحّد، واستظلّ من استهدى واسترشد، ووقف الهائم فخطب وأنشد[6]: [مخلع البسيط]

يا سَرْحَةَ الحيِّ يا مَطُولُ ... شَرْحُ الذي بَيْنَنا يَطُولُ

---

(١) في الإحاطة: «على برّه وانفساخ».
(٢) في الإحاطة: «نقش».
(٣) في الإحاطة: «والمجد يمنع.. يسام جنابي».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤١٤): «الروض».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤١٥): «المقمومة».
(٦) البيتان الأول والثالث في المغرب (جـ ٢ ص ١٤٩ - ١٥٠) دون تغيير عمّا هنا، وتقدّما في الجزء الخامس.

عندي مقالٌ فهل مقامٌ   تُصْغِينَ فيه لما أقولُ
ولي ديونٌ عليكِ حَلَّتْ   لو أنه يَنْفَعُ الحُلُولُ
ماضٍ من العَيْشِ كان فيه   منزلَنا ظلُّكِ الظليلُ
زالَ وماذا عليه ماذا   يا سَرْحَ لو لم يكنْ يزول
حَيًّا عن المذنبِ المعنَّى   منبتَكِ القَطْرُ والقَبُولُ

وقال رحمه اللّه تعالى: فصول في المعرفة تغازل بها عيون الإشارة، إذا قصرت عن تمام المعنى ألسُنُ العبارة، وللّه دَرُّ القائل: [الكامل]

وإذا العقولُ تقاصرت عن مدرَكٍ   لم تتّكلْ إلاَّ على أذواقِها

المعرفة اختراق المراتب الحسّيّة، والنفوس الجنسيّة، والعقول القدسيّة، والبروز إلى فضاء الأزل، إذا فني من لم يكن وبقي من لم يزل، مع عمران المراتب، ورؤية الجائز في الواجب: [الطويل]

ومن عَجَبٍ أني أحنُّ إليهمُ   وأسألُ شوقًا عنهمُ وهُمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها   ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق، وأُفول وشُروق، وسلّ عروق، ورَد مسروق، حتى يذهب الكيف والأين، ويتعيّن العَين، فيجمع العدد ويجمل، وينحى السوى ومع ذلك لا يهمل: [مجزوء الرمل]

للعِدَا منكَ نصيبُ   ولكَ السهمُ المصيبُ
إنما يَوْمُكَ يوما   نِ: خصيبٌ وعصيبُ(١)

المعرفة مقام سامي المُنْعَرَج، عاطر الأرَج، ينقل من السَّعة إلى الحرج، ومن الشدّة إلى الفرج: [الطويل]

طريقكَ لا تخفى به إنْ تَتَبَّعَتْ   خطاكَ ولا يخفى مبيتُكَ فيهِ
متاعُكَ منشورٌ على كلِّ خيمةٍ   ورؤياكَ أمنٌ من ترفُّع تِيهِ

---

(١) العصيب: الصعب. لسان العرب (عصب).

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها، أحسن اللّٰه عزاءها، وحقيقة إن لم يجعل الفراق إزاءها، كانت الغيرة جزاءها، فهي دائرة مركزها يجمع، ومحيطها في التفريق يطمع، يستقلّ الملك أجمع، ويرى من يرى ويسمع من يسمع: [الكامل]

بُعْدُ المحيطِ مِن المحدّدِ واحدٌ والكلُّ في حقِّ الوجودِ سواءُ
والحقُّ يعرفُ ذاته مِنْ ذاتِهِ صحَّ الهوى فتلاشتِ الأهواءُ

المعرفة صُعود ونزول، ووقوف ووصول، فلا الوصول عن البداية يقطع، ولا البداية عن النهاية تمنع: [مجزوء الخفيف]

من له الأمر أجمعُ كلُّ ما شاءَ يصنعُ
حصلَ القصدُ واستقرَّ فلم يَبْقَ مطمعُ

العارف في البداية يشكر الراكع والساجد، ثم يعذر الواجد والمتواجد، ثم يرجم المنكر الجاحد، فإذا انتهى ورُدَّ العدد إلى الواحد، قال لسان حالِهِ: [مجزوء الخفيف]

من رأى لي نشيدةً أو على عينها أثرْ
فله الحكم قُلْ له ذهبَ العينُ والأثرْ

إلى أن قال: قال الرئيس: العارف هَشّ بش بَسّام، فيجلّ الصغير من تواضعه مثل ما يجلّ الكبير، ويبسط من الخامل مثل ما يبسط من النبيه، ثم علّل فقال: وكيف لا يهشّ وهو فرحان بالحقّ، وبكلِّ شيء فإنه يرى فيه الحقّ ﴿إني لأَجدُ رِيحَ يوسفَ﴾[1]: [الخفيف]

لمعت نارهمْ وقد عَسْعَسَ الليـ ـل وضَجَّ الحادي وحارَ الدليلُ
فَتَأَمَّلْتُها وقلتُ لصحبي هذه النارُ نارُ ليلى فمِيلُوا

العارف شجاع، وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت، وجواد، وكيف لا وهو بمعزل عن صحبة الباخل، وصفّاح، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تُخرجها زلة بشر، ونَسّاء[2] للأحقاد، وكيف لا وذكره مشغول بالحقّ، وقالوا: مَنْ عرف اللّٰه تعالى صفا له

---

(١) سورة يوسف ١٢، الآية ٩٤.

(٢) النَّسّاء: كثير النسيان. لسان العرب (نسي).

العيش، وطابت له الحياة، وهابه كلُّ شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس باللّه رب العالمين.

الشبلي: ليس لعارف علاقة، ولا لمحبّ شكوى، ولا لعبد دعوى، من عرف اللّه سبحانه انقطع، بل خرس وانقمع، لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك؛ انتهى.

وقال رحمه اللّه تعالى في بعض تراجم الروضة: الفرع الصاعد إلى الهواء، على خطّ الاستواء، من رأس العمود القائم، إلى منتهى الوجود الدائم، ويشتمل على قشر لطيف، وجرم شريف، وأفنان ذوات ألوان، قِنوان وغير قنوان، وطَلْع نَضيد، وجَنًى سعيد، فالقشر الحدود والرسوم، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم، والفنون التي يقوم عليها والعلوم، والجرم ظاهر الخلق المقسوم، وعلاجه كما تعالج الجسوم، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم، وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام المعلوم، ومادتها السلوك الذي بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم، والزهرات اللوائح والطوالع والبواده التي لها الهجوم، والواردات التي تدوم أو لا تدوم، ثم الجنى وهو الولاية التي كان الغارس عليها يحوم؛ انتهى.

ثم فَصَّل الكل رحمه اللّه تعالى فليراجعه من أراده.

ومن نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يَلْبَغا الخاصكي[1]، وهو: «إلى الأمير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين، المقلّد بتدبيره السَّديد قلادة الدين، المثني على رسوم برّه لمقامه لسان الحرم الأمين، الآوي من مرضاة اللّه تعالى ورسوله ﷺ إلى رَبْوة ذات قرار[2] ومَعين، المستعين من اللّه تعالى على ما تحمّله وأمله بالقوي المعين، سيد الدعوة، ركن الدولة، قوام الملّة، مؤمل الأمة، تاج الخواصّ، أسد الجيوش، كافي الكفاة، زين الأمراء، علم الكبراء، عين الأعيان، حَسَنة الزمان، الأجلّ المرفع الأسنى الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظّم الموقر الأمير الأوحد

---

(١) كان يَلْبَغا الخاصكي مدبّر الدولة أيام المنصور محمد والأشرف شعبان، وقد قتله غلمانه لظلمه سنة ٧٦٨ هـ. طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٧١ حاشية ١).

(٢) في طبعة دار صادر (ص ٢٧٢): «ذات القرار والمعين».

يلبغا الخاصكي، وصل اللّه له سعادة تشرق غُرّتُها! وصنائع[1] تسحّ فلا تشحُّ درّتها! وأبقى تلك المَثابة قلادة اللّه تعالى وهو درّتها.

سلام كريم، طيب[2] عميم، يخصّ إمارتكم التي جعل اللّه تعالى الفضل على سعادتها أمارة، واليُسْرَ لها شارة، فيساعد الفلك الدوّار مهما أعملت إدارة، وتمتثل الرسوم كلما أشارت إشارة.

أما بعدَ حمدِ اللّه تعالى الذي هو يعلمه في كل مكان، من قاصٍ ودان، وإليه توجه الوجوه وإن اختلفت السِّيَر وتباعدت البلدان، ومنه يلتمس الإحسان، وبذكره ينشرح الصدر ويطمئنّ القلب ويمرح اللسان، والصلاةِ والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشان، ونبيِّه الصادق البيان الواضح البرهان، والرضا عن آله وأصحابه وأحزابه أحْلاَسِ[3] الخيل، ورُهْبان الليل[4]، وأسُود الميدان، والدعاء لإمارتكم السعيدة بالعزّ الرائق الخبر والعِيان، والتوفيق الوثيق البنيان، فإنّا كتبناه إليكم. كتب اللّه تعالى لكم حظًّا من فضله وافرًا، وصنيعًا[5] عن مُحَيّا السرور سافرًا، وفي جوّ الإعلام بالنعم الجسام مسافرًا! - من حمراء غَرْناطة حرسها اللّه تعالى دار ملك الأندلس دافع اللّه سبحانه عن حَوْزَتها كيد العُداة، وأتحف نَصْلها ببواكر النصر المُهْداة، ولا رائد إلاّ الشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التي أنتم عنوان كتابها المرقوم، وبيت قصيدها المنظوم، والتماس بركتها الثابتة الرسوم، وتقرير المثول في سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذّره بالجسوم، وإلى هذا فإننا كانت بين سلفنا تَقَبَّلَ اللّهُ تعالى جهادهم، وقدّس نفوسهم، وأمن مَعادهم، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها، مراسلةٌ ينمُّ عَرْفُ الخلوص من خلالها، وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها، وتلتمح من أسطار طروسها[6] محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد، وتُعْرب عن فضل المذاهب وكرم المقاصد، اشْتَقْنَا إلى أن نجدّدها بحسن

---

(١) الصنائع: جمع صنيعة وهي الإحسان. لسان العرب (صنع).

(٢) في طبعة دار صادر: «طيب برٌّ عميم».

(٣) أحلاس الخيل: جمع حلس وهو الذي يلازم صهوة الخيل، وأراد أنهم فرسان مغاوير. لسان العرب (حلس).

(٤) رهبان الليل: أراد أنهم كثيرو العبادة قوّامون ليلهم.

(٥) في طبعة دار صادر: «وصنعًا».

(٦) الطروس: جمع طرس وهو الصحيفة. لسان العرب (طرس).

منابكم، ونواصلها بمواصلة جنابكم، ونغتنم في عَوْدها الحميد مكانكم، ونؤمل لها زمانكم، فخاطبنا الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجِلة من التقصير، وَجِلَة من الناقد البصير، ونؤمل الوصول في خفارة يدكم التي لها الأيادي البيض، والموارد التي لا تغيض[1]، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله، ولا تَضْحَى المآملُ في ظلِّ خَمائله، فقد اشتهر من حميد سيركم ما طَبَّقَ الآفاق، وصحب الرِّفاق، واستلزم الإصفاق، وهذه البلاد مباركة، ما أسلف أحد فيها مشاركة، إلاّ وجدها في نفسه ودينه وماله وعياله، والله سبحانه أكرم مَنْ وفى لامرىء بمكياله، واللّه عزَّ وجلَّ يجمع القلوب على طاعته، وينفع بوسيلة النبيِّ ﷺ الذي نعوّل على شفاعته، ويُبْقي تلك الأبوابَ ملجأ للإسلام والمسلمين، وظلاً لله تعالى على العالمين، وإقامة لشعائر الحرم الأمين، ويتولّى إعانة إمارتكم على وظائف الدين، ويجعلكم مِمَّنْ أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين، والسلام الكريم يخصّكم ورحمة الله تعالى وبركاته»؛ انتهى.

ومن نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى قوله في قضية امتناع بعض الموثقين من أكل طعامه بمدينة سَلا، وقد صدر به كتابه المسمى بـ «مثلى الطريقة، في ذمّ الوثيقة» وهذا نصُّه: أَمَّا بعد حمد الله الذي قرّر الحكم وأحكمه، وبيَّن الحلال من الحرام بما أوضحه من الأحكام وعَلَّمه، ونوّع جنس المعاش وقسَّمه، وماز[2] كلَّ نوع منه ووسمه، فأثبته متفاوتًا في درجات التفضيل ورسمه، والصلاة والسلام على مولانا محمد رسوله الذي فضَّله على الأنبياء وقرَّبه وطهَّر من دَنَس الشبهات شِيَمه، فما استعمله في غير طاعته ولا استخدمه، ولا أعمل في سوى البرّ والهدى بَنانه ولا قَدَمه، والرضا عن آله وأصحابه الذين رَعَوْا ذِمَمه[3]، واستمطروا دِيَمه، وتواصوا من أجله بالبرِّ وتواصوا بالمرحمة، فهذا كتابُ «مثلى الطريقة، في ذم الوثيقة» دعا إلى جمعه قلّة الإنصاف من المُداهن والمعاصر، والمباهت في مَدْرك[4] النور الباصر، ورضى مظنة النَّيل منهم بالباع القاصر، والمناضلة عن الحمى الذي لم يؤيّدْه الحقّ بالولي ولا بالناصر، ولوضعه حكاية ولنفثته شكاية، إذ معرفة الأشياء بعللها مِمّا

---

(١) تغيض: تنضب. لسان العرب (غيض).
(٢) ماز الشيءَ عن الشيء: ميَّزه وفصل أحدهما عن الآخر. لسان العرب (ميز).
(٣) رعوا ذممه: حفظوا عهوده. لسان العرب (رعا).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٢٠): «درك».

يتشوّق إليه، ويحرص عليه، وهو أني لَمَّا قدمتُ على مدينة فاس حرسها الله تعالى، مستخلصًا بشفاعة الخلافة، ذات الإناقة، مستدعًى برسالة الإيالة، ذات الجلالة، فانسحب والمنةّ للّه الستر، وانفسح الفتر، وشفع من النعم الوتر، واقتدى المرؤوس بالرئيس، وتنافس الأعلام في التأنيس، واتّصل الاحتفاءُ والاستدعاء، وانتخب الموعى والوعاء، وأخذ أعقاب الطيبات الوضوء والطيب والدعاء، تعرفت فيمن جمعته الأَخْوِنَة، والمداعي المتعينة، برجل من نبهاء موثقيها غَرَّني بمَخِيلة البشاشة التي يُستفزُّ بها الغريب، ويستخلص هوى من لم يعمل التجريب، فأنست بمكانه، واستظهرت على ما يعرض من مكتتب بدكانه، وشأني في الاغتباط بمن عرفت شاني، فلست للمِقَة بشاني، واسترسالي، حتى لمن أسا لي، طوع عناني: [الطويل]

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ضميري ويتلوه يدي ولساني

ولم يَكُ إلاَّ أن حللت بمدينة سَلا حرسها للّه تعالى مقصودَ المحل وإن رغم الدهر الذي رمى فأقْصَدَ[1]، معتمدًا بفتوحات اللّه تعالى وإن أَرتَجَ[2] البابَ بزعمه وأوصد، مُصْحَبًا بمدد عنايته وإن كمن وأرصد، لا يمرُّ فاضل إلاَّ عَرَّجَ على مثْواي[3]، وأتى من البرّ فوق هَوَاي ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوها ﴾[4] وتعرفت عن صاحبي الفاسي أنه قدم علينا من سخر عملية فلالها الدسر المنهوبة، وتحلّلها المسبعة المرهوبة، واغتذى الأطعمة التي مَرَقَتُها الدموع، ومطبختها الحِمْى المَرُوع، واستقرّ بالمدينة بعد أن لان وضَرَع، وجدّل وصَرَع، نافقَ البقلة كاسِدَ الوَرَع، ونزل بمَثْوَى خمول، ومحطّ مجهول، وكَنف ممقوت، وجوارٍ لا يبخل بغيبة ولا يسمح بقوت، فبادرت استدعاءه بفاضل من الطلبة ممن يتلقّى به الوارد، ويقتاد الشارد، وقد أغرب بقراءة الاحتفاء والاحتفال، وأجنب الإغفاء[5] والإغفال، وجهزت السرايا إلى التماس نعم اللّه تعالى فحلّت الأنفال، فلمّا عرض عليه الدعوة

---

(١) رمى فأقصد: رمى فأصاب المقتل. لسان العرب (قصد).

(٢) أرتج البابَ: أوصده. لسان العرب (رتج).

(٣) المثوى: مكان الإقامة. لسان العرب (ثوى).

(٤) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٤.

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٢١): «الإعفاء» بالعين المهملة.

تعجرف ونفر، ولَمّا مسح عِطفه بالاستنزال نزا وطَفر، حتى بهت الرسول كما بهت الذي كفر، وآب يحمل عذرًا باردًا، واحتجاجًا شاردًا، فأقطعته جانب شِماسه، وخليت بينه وبين وَسْوَاسه، ومن الغد قَصَدَني فاعتذر، وأكثر الهَذَر، ولم ينبت اللّه النبات الحسن شيئًا مِمّا بَذَر، وكان جوابي إياه ما نصُّه: [الوافر]

أبيتم دعوتي إمّا لبأوٍ[1]   وتأبى لَوْمَةُ مُثْلَى الطريقَةْ
وبالمختارِ للناسِ اقتداءٌ   وقد حَضَرَ الوليمةَ والعَقِيقةْ
وغير غريبة أن رَقَّ حُرٌّ   على مَنْ حاله مثلي رقيقةْ
وإمَّا زاجرُ الورعِ اقتضاها   ويأبى ذاك دكان الوثيقةْ
وغشيانُ المنازلِ لاختيارٍ   يُطالبُ بالجليلةِ والدقيقةْ
شكرتُ مَخِيلَةً كانتْ مجازًا   لكمْ وحصلتُ بَعْدُ على الحقيقةْ

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب، وكلف بها الطالب والمطلوب، وهَشَّ إلى المُراجعة عنها أحد الموثقين بسلا ممن يحوم حول حمى الإدراك، ويروم درجة الاختصاص ببعض الفنون والاشتراك، وله في الأدب مساس، وجلب الباس، بما نصُّه: [الوافر]

رسولك لم يُبِنْ لي عن طريقةْ   تقرُّبُ من حديقتكَ الأنيقةْ
فلا بَأْوٌ لديَّ ولا إباءٌ   ولكن ساءَ في الغرض الطريقةْ
وهَبْ أني أسأتُ فكم صديقٍ   تدلَّلَ واعتدى فجفا صديقةْ
فلا عَجَبٌ فديتَ لرفقِ حُرّ   يسكِّنُ عند خَجْلتِهِ رفيقةْ
وإني فيكَ معتقدٌ، ولكن   أرى الأيامَ حاقدةً حنيقةْ
على ذي الوُدِّ فيمن وَدَّ حتى   يفارقه وإن أضحى رفيقَةْ

فراجعته بما نصُّه لَمّا أسلفته من جزاء مِصاعه[2]، وكِلْتُ له بصاعه[3]: [الوافر]

من استغضبت من هذي الخليقةْ   بمغضبةٍ بإنكارٍ خَلِيقَةْ
ولم يغضبْ فَتَيْسٌ أو حمارٌ   مجازًا، لا، لعمري، بل حقيقَةْ

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٢٢): «الشأو».
(٢) المصاعُ: مصدر ماصع؛ يقال: ماصع فلان بلسانه إذا قذف. لسان العرب (مصع).
(٣) كال له الصاع: عامله بالمثل. لسان العرب (كيل).

بعثتُ بمرسَلٍ لك مع عتيقي | فلم تطعِ الرسولَ ولا عتيقة
وطَوَّقْتَ السفيرَ الذنبَ لَمّا | عجلتَ به ولم تُبْلعه ريقة[1]
إمامُ جماعةٍ وقريعُ تقوى | ومُبْلغ حجّةٍ، وحفيظُ سيقه[2]
فبُؤتَ بها على الأيام داءً | عُضالاً لا تفيقُ عليه فِيقَهْ
وقد عارضت عذرك باعتراف | فزدتَ مذمّةً تَسِمُ الطريقهْ
وهل بعدَ اعترافٍ من نزاعٍ | وهل بعد افتصالٍ من وثيقه
ومَنْ جهل الحقوق أطاع نفسًا | ببحرِ الجهل راسبةً غريقهْ
ومنجى نيقةٍ أمرٌ بعيدٌ | إذا نصبَ المهندسُ مَنْجَنيقَهْ

فأمسك حينئذ وأقصر، ورأى الأمر يطول فاختصر، إلاّ أنه نمي لي عنه قوله: إنَّ دكان الوثيقة إنْ نافَى الورَعَ فبغير بلده، وأذهلته لذة لَدَدِه[3]، عما هو بصَدَده، فارتهنت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المُساهل، وينكره الأرعن الجاهل، وتشدّ به المنازل والمناهل، والمعالم والمجاهل، مستندًا إلى الحكم الشرعي، والسُّنَن المرعي، والمشاهدة والحسّ، وشهادة الجنّ والإنس: [الوافر]

ولو تُرِكَ القَطَا لَيْلاً لناما

واللّه يجعله موقِظًا من السِّنات[4]، وازعًا عن كثير من الهَنات، وينفع فيه بالنيّة فإنما الأعمالُ بالنيّات، وها أنا أبتدىء وعلى اللّه الإعانة، وبحوله وقوّته الإفصاح والإبانة.

قلت: ينحصر الكلام فيه في سبعة أبواب؛ الباب الأول: في جواز الإجارة فيها عند العلماء. الباب الثاني: في الشركة المستعملة بين أربابها. الباب الثالث: في محلّها من الورع إن سوّغها الفقه. الباب الرابع: في منزلتها من الصنائع والمهن. الباب الخامس: في

(١) طوَّقه الذنبَ: ألزمه إياه، كأنما جعله طوقًا في عنقه. لم تُبْلِغه ريقه: كناية عن أنه لم يمهله حتى يفكّر. لسان العرب (طوق) و (بلع).

(٢) السيقة: لعلها صورة اشتقاقية من السوق أو السياق بمعنى المَهْر الذي يساق إلى المرأة في صَداقها، ومما يقرب هذا المعنى أنَّ الرجل الذي وجّهت إليه الأبيات من كُتّاب الوثائق. طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٧٦، حاشية ١).

(٣) اللَّدَدُ: شدة الخصومة. محيط المحيط (لدد).

(٤) السِّنات: جمع سِنة وهي النوم. لسان العرب (وسن).

أحوال منتحليها من حيث العلم غالبًا. الباب السادس: في أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه. الباب السابع: في ردّ بعض ما يحتجّ به فيها. انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه اللّه تعالى.

وهذا التأليف في نحو كراسة، وقال في آخره ما صورته: فإن قيل: ترك الأجر وقبول العوض في هذا الأمر يدعو إلى تعطيله، فيفقد الناس منفعة هذه الطريقة وغَناءها، قلت: الإنصاف فيها اليوم أن لو كان متولّيها يرتزق من بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التي تسع ذلك، وحالُ الجماهير في فقدانها والاضطرار إليها ورفع أمورهم بها إلى السلطان ورغبتهم في نصب من يتولّى ذلك حالُهم في فقدان أئمة الصلاة في المساجد الراتبة في جريانه من بيت المال بعلّة التزامهم وارتباطهم فقط، حسبما نَقَلَ الإجماع فيه القاضي أبو بكر بن العربي رحمه اللّه تعالى ومنع الارتزاق من غيره إجماعًا، وقد كان بالمدن المعتبرة من بلاد الأندلس - جبرها اللّه تعالى! - ناس من أُولي التعفّف والتعين، كبني الجدّ بإشبيلية، وبني الخليل وغيرهم بغيرها، يتعيّشون من فضول أملاكهم، ووجائب رِباعهم، ويقعدون بدورهم عاكفين على برّ، منتابين لرواية وفتيا، يقصدهم الناس في الشهادة فيجاملونهم، ويُبَرِّكون على صفقاتهم، ويهدونهم إلى سبيل الحقّ فيها من غير أجر ولا كلفة، إلاّ الحفظ على المناصب، وما يجريه السلطان من الحرمة والتفقد في الضرورة، وما يهديهم الناسُ من الإطراء والتجلة، واللّه سبحانه ينيلهم(1) من الأجر والمَثُوبة، ويلغني اليوم أنّ حالها بمدينة سجلماسة ينظر إلى هذا الحال من طرف خفي، ولم يفسد بها كلّ الفساد، وكذلك لم نزل نتعرّف أنّ الأمر في شأنها بمدينة تونس أقرب، وبعض الشّرّ أهون من بعض، ولو بقيت بحالها لوجب تقرير فضلها وتقريظ منتحلها، فالصدق أنجى، والحقّ عند اللّه أحْجى، واللّهُ عزَّ وجلَّ يستعملنا فيما يرضيه، ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه، ويجعلنا مِمَّن ختم له بالحسنى، ويقربنا إلى ما هو أقرب من رحمته وأدنى، وصلوات اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه؛ انتهى.

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخُ شيوخ شيوخنا الإمام الكبير المؤلف الشهير سيدي أحمد الوانشريسي(2) رحمه اللّه تعالى ما صورتُه: الحمد للّه جامعُ

---

(1) كلمة «ينيلهم» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٢٤).

(2) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٧٨): «الونشريسي».

هذا الكلام المقيّد هذا بأوّل ورقة منه قد كَدّ نفسَه[١] في شيء لا يعني الأفاضل، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل، وأفنى طائفةً من نفيس عمره في التماس مَساوىء طائفة بهم تُسْتَباح الفروج، وتملك مُشَيَّدات الدور والبروج، وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمَجانة، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة، سامحه اللّه تعالى وغفر له! قال ذلك وخَطَّه بيمنى يديه عُبيد ربه أحمد بن يحيىٰ بن محمد بن علي الوانشريسي[٢] خار اللّه سبحانه له! انتهى ما ألفيته.

وقد كان لسان الدين رحمه اللّه تعالى كثيرًا ما يعرّض ويصرّح بهجو بعض أهل سَلاَ أو كلّهم حتى قال: [السريع]

أهلُ سلا صاحتْ بهمْ صائحهْ ... غـاديـةٌ فـي دورهـمْ رائـحـهْ
يـكـفـيـهـمُ مـن عَـوَزٍ[٣] أنـهـم ... ريـحـانُـهُـمْ لـيـسـت لـه رائـحـهْ

واللّه المرجو للعفو عن الزلات.

تم الجزء الثامن من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ويليه الجزء التاسع مبتدئًا بقوله: ومن نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى خطبة كتاب له في المحبة.

---

(١) كَدّ نفسه: أجهدها وأتعبها. لسان العرب (كدد).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٧٨): «الونشريسي».
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٨ ص ٤٢٥): «عور» بالراء المهملة.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ . الإحاطة في أخبار غرناطة (١ . ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ . ١٩٧٧.

٢ . أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ . ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٣ . الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أحمد بن خالد الناصري (١ . ٩). طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

٤ . أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب. القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ .ليڤي بروڤنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٥ . الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٦ . بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

٧ . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. دار المعرفة، بيروت.

٨ . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١ـ ٢). ط. مصر، ١٣٤٨هـ.

٩ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ ـ ١٤). دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠ ـ تاريخ الفكر الأندلسي لأنجل غونثالث بالنثيا. ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥.

١١ ـ تأريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا للنباهي. تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.

١٢ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا لابن خلدون. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١.

١٣ ـ جذوة الاقتباس لابن القاضي. ط. فاس، ١٣٠٩ هـ.

١٤ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

١٥ ـ الحُلَّة السِّيَراء لابن الأبار (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

١٦ ـ الحُلل المَوْشِيَّة في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب. مطبعة التقدم الإسلامية بتونس، سنة ١٣٢٩ هـ. وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق الأستاذ علوش، مصدّرة بعبارة «مجهول المؤلف» وهي عبارة صحيحة؛ لأنه لا يَصِحّ أن يُنْسب هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدّة منها الصياغة والمضمون. ونحن اعتمدنا طبعة تونس لعدم توفّر الطبعة الثانية.

١٧ ـ الحيوان للجاحظ (١ ـ ٨). تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار الجيل، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

١٨ ـ درة الحجال في أسماء الرجال لأحمد بن محمد ابن القاضي (١ ـ ٢). ط. الرباط.

١٩ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٥). ط. مصر، ١٩٦٧.

٢٠ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٤). ط. حيدر أباد الدكن.

٢١ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي. الطبعة الأولى، مصر، ١٣٥١ هـ.

٢٢ ـ ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي. تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، مطبعة محمد هاشم الكتبي، دمشق، ١٩٧٢.

٢٣ ـ ديوان ابن زيدون. تحقيق وشرح الأستاذ كرم البستاني. دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩.

٢٤ ـ ديوان ابن شهيد الأندلسي. عني بجمعه Charles Pellat . دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٣.

٢٥ ـ ديوان ابن عبد ربه. حققه وجمعه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.

٢٦ ـ ديوان أبي تمام. شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.

٢٧ ـ ديوان أبي نواس. تحقيق الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٣.

٢٨ ـ ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

٢٩ ـ ديوان بشار بن برد. جمعه وحققه السيد بدر الدين العلوي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

٣٠ ـ ديوان حازم القرطاجني. تحقيق الأستاذ عثمان الكعاك. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤.

٣١ ـ ديوان الحلاج. جمعه الأستاذ لويس ماسينيون. (في المجلة الآسيوية، يناير ـ مارس، باريس، ١٩٣١).

٣٢ ـ ديوان الفرزدق (شرح ديوان الفرزدق). قدم له وعلّق حواشيه الأستاذان سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣.

٣٣ ـ ديوان قيس بن الخطيم. تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٢.

٣٤ ـ ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي، دار القلم ببيروت.

٣٥ . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشَّنْتريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ . ١٩٧٩.

٣٦ . رحلة البلوي (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) للشيخ خالد البلوي. مخطوطة رقم ١٠٥٣ ، جغرافية بدار الكتب.

٣٧ . الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٣٨ . روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس لأحمد بن محمد المقري التلمساني. ط. المطبعة الملكية بالرباط، ١٩٦٤.

٣٩ . روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد ابن الأحمر. ط. المطبعة الملكية بالرباط، ١٩٦٢.

٤٠ . شروح سقط الزند (١ . ٥). ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٥ . ١٩٤٨.

٤١ . الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ . ٢). دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

٤٢ . الضوء اللامع للسخاوي (١ . ١٢). ط. مصر، ١٣٥٣ . ١٣٥٥ هـ.

٤٣ . طبقات الشعراء لابن سلام. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

٤٤ . العبر وديوان المبتدإ والخبر (المعروف بتاريخ ابن خلدون) لابن خلدون. سبعة مجلدات في أربعة عشر جزءًا. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٤٥ . فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ . ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ . ١٩٧٤.

٤٦ . قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٤٧ . قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقَلْقَشَنْدي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

٤٨ . الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٤٩ . لسان العرب لابن منظور (١ . ١٥). دار صادر، بيروت.

٥٠ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب. نشره الأستاذ محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧ هـ.

٥١ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥.

٥٢ ـ محاسن المجالس لابن العريف. تحقيق الأستاذ آثن بلاسيوس. ط. باريس، ١٩٣٣.

٥٣ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

٥٤ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

٥٥ ـ مستودع العلامة ومستبدع العلاّمة لأبي الوليد ابن الأحمر. ط. تطوان، المغرب، ١٩٦٤.

٥٦ ـ مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله). نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.

٥٧ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد بدوي. دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.

٥٨ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مِلح أهل الأندلس لابن خاقان. الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ١٣٠٢ هـ.

٥٩ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.

٦٠ ـ المُغْرِب في حُلى المَغْرِب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

٦١ ـ ملحق المعاجم العربية للمستشرق رينهارت دوزي (١ ـ ٢). طبعة، ١٩٢٧.

٦٢ ـ الملل والنحل للشهرستاني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد سيد كيلاني. دار المعرفة ببيروت.

٦٣ ـ نثير الجمان لابن الأحمر (مصورة دار الكتب أدب ١٨٢٣).

٦٤ ـ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

٦٥ ـ نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب لابن الخطيب. تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

٦٦ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي. ط. فاس.

٦٧ ـ وفيات الأعيان لابن خَلِّكان (١ ـ ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.

٦٨ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ ـ ٤). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.

فهرس الجزء الثامن
من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب


مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٧٧٠٢-٨٢٨١٥٧ - بيروت - لبنان


